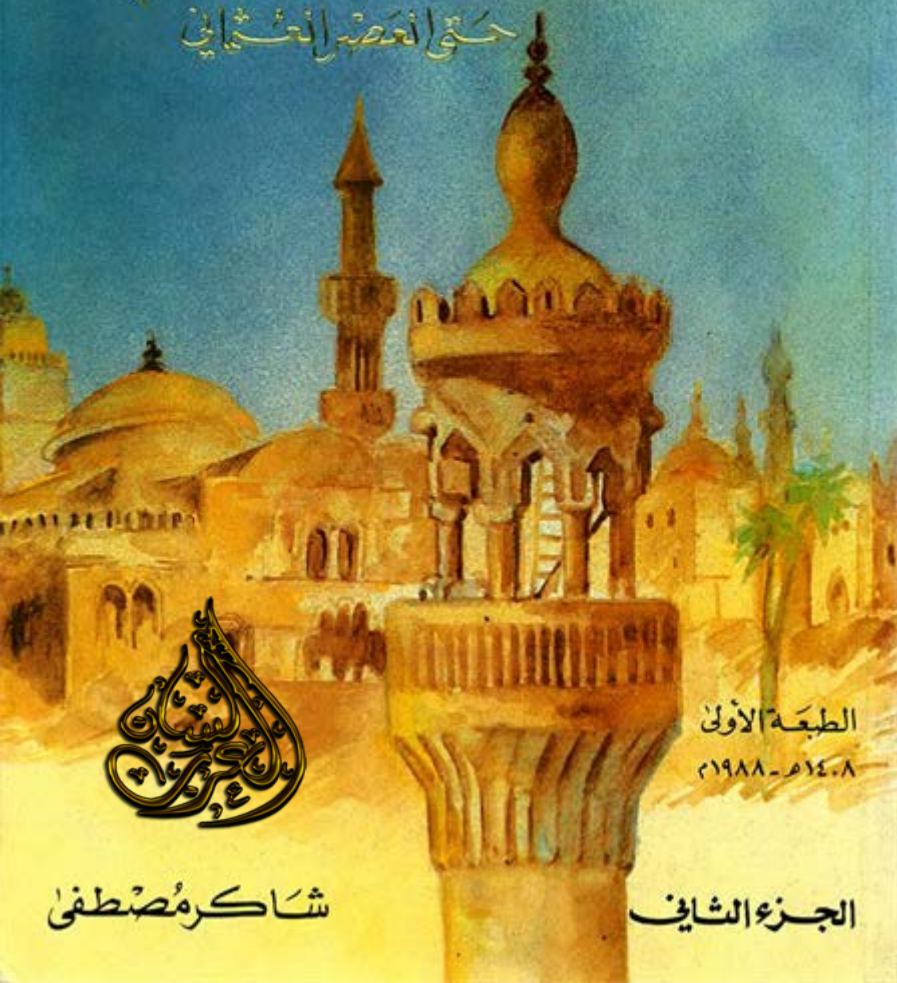


# الحمد لله في الإسلام

حكاية العصر العثماني



الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

شاكرو مصطفى

الجزء الثاني



المدن في الإسلام  
حتى العصر العثماني



مرکز تحقیقات رایانه‌ای و علوم کامپیوتر

شكر مصطفى

# المدينة في الإسلام

حتى العصر العثماني

الجزء الثاني



الطبعة الأولى ١٩٨٨



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

(الحجر - ٦٧)



## الجزء الثاني

---

# الحياة والنظور

في هذا الجزء الثاني نقدم صورة أخرى للمدينة الإسلامية أيضاً ولكن في حركتها وحيويتها الدافقة وتطورات حياتها وأحوالها من خلال تقلبات واقمها الديني وأوضاعها الاجتماعية وفاعليتها الاقتصادية وإدارتها السياسية ومرافقها. إنها صورة هذه المدن عبر العصور ولكن وهي تتحرك وتتطور .





## الفصل السابع

### الأوضاع الاجتماعية ١- البنية الاجتماعية

في الحياة الاجتماعية للمدن الإسلامية كما في الحياة الاقتصادية أو السياسية أو الثقافية، يجب ألا يغيب عن بالنا أننا نتكلم عن مدينة مختلفة في مؤسساتها ومفاهيمها، بل وفي بنائها وتكوينها، الاختلاف الكبير عن المدينة الإغريقية أو الأوروبية أو الصينية. فبنيتها الاجتماعية كلها تختلف. وبالنتيجة تختلف تنظيماتها السياسية واهتماماتها الثقافية وفعاليتها الاقتصادية عنها في الأنواع الأخرى من المدن لسبب أساسي هو أن جميع نواحي الحياة فيها مرتبطة أوثق الارتباط بحدود الدين الإسلامي وأوامره ونواحيه بصرف النظر عن الواقع التاريخي. أي بصرف النظر عن التطبيق الصحيح الكامل لهذه الحدود والأوامر والنواهي، أو عن إهمال جانب أو جوانب منها في الحياة العملية للناس. ذلك أن المدينة الإسلامية تضع حدود الإسلام وشرعه كمثال أعلى لها وتعيش أحكام الحكام، كما تقيس سلوك الأفراد، وصحة المعاملات والعلاقات البشرية، بل تقيس ارتفاع البناء، وعرض الشارع، ومعاملة العبيد، بالقياس إليها وعلى مقدارها. الدين عند المسلم متغلغل في أعماله بالدنيا كما في الآخرة لا بوصفه قوة عليا فقط، ولكن بوصفه أمرا إليها، فللجماعة الإسلامية في الحياة حكم مرجعي أنزل في القرآن الكريم وفُصِّل في عمل الرسول الأعظم وأقواله وترسّمه الصحابة الأولون من بعده.

وقد اقر المسلمون انه النموذج الاعلى والاكمل للفرد.

والقيم الاسلامية، وان لم يحسن الناس تطبيقها، أو حادوا عنها في  
عديد من مدن الاسلام، وفي العصور المختلفة، إلا أن هذا لا يلغيها ولكنها  
على الدوام كانت تشكل الحجة على من يخالفها.

من هذه المبادئ والقيم في الحياة:

تكريم الإنسان بوصفه انسانا، واصطناع الشورى أسلوب حكم،  
والعدل بين الناس، ورفض الظلم، وشرعية الثورة ضده، والحرية المسؤولة  
والمساواة بين البشر، والسماحة الفكرية والاجتماعية، وتقديس العمل  
والمسؤولية عنه، واحترام الأسرة، والتكافل الاجتماعي، ومنع الجشع  
الاستثماري، والمسؤولية الاجتماعية عن المصالح العامة، وضرورة الاستثمار  
الانتاجي، ومنع الاحتكار، ومسؤولية الدولة عن أعمال النفع العام، هذا  
إلى رفض الأمية، والمطالبة بالعلم، وطلب الحكمة، والدعوة للتفكير في  
الطبيعة وأسرارها، وفي الذات الانسانية.

وعن هذه القيم الأساسية يتفرع الكثير من التطبيقات والتشريع التي  
تظهر آثارها واضحة في حياة المدن الإسلامية التي ندرس. وليس يعني ذلك  
أننا سنرغم التاريخ الإسلامي قسرا على أن يبرز فيه هذه القيم لكننا نريد أن  
نقول أن هذه القيم العليا كانت منصوبة للناس مفروضة فرضا عليهم.  
ولكننا سوف نرى ما كان فعلا لا ما يجب أن يكون. وننظر الى الواقع كما  
عرفه التاريخ، لا إلى وجهه الديني كما رسمه الفقهاء.

وقد يكون من الصعب بعد هذا الإحاطة بالحياة الاجتماعية لعالم  
كامل، كالعالم الإسلامي، في فترة تزيد على ألف سنة من خلال صفحات  
محدودة. وهذا ما يضطرنا إلى أن نقتصر على الملامح الأساسية المعبرة.

## ١ - التكوين الاجتماعي الأولي للمدن (البنية)

بعد أن كان الفتح الإسلامي وجد صنفان من المدن: بعضها عربية إسلامية خالصة وهي ما بنى المسلمون إثر الفتح (البصرة، الكوفة، الفسطاط، القيروان أو بعد ذلك بقليل كواسط والرملة)، وبعضها مدن قديمة ولكن نزل في جانب منها العرب المسلمون (كدمشق، والقدس، ونهاوند ونيسابور وانطاكية والاسكندرية). ولم يمض قرن على هذا الوضع حتى رأينا المدن العربية الجديدة قد حوت مجموعات من السكان بعضها فارسي، وبعض آرامي، أو قبطي، أو بربري) تختلط بسكانها وكان التسامح الديني الإسلامي هو الذي يفتح عليها، كما كانت الحاجات والمصالح مع الطبقة الحاكمة الجديدة، واعتناق الإسلام المتزايد هما اللذان يدفعان إلى ذلك. أما في المدن القديمة فكان الاختلاط أبطأ وتيرة. وأن كان من قبل العرب المسلمين أكثر منه من جانب السكان الأصليين، بحكم قوة الأولين وضعف الآخرين.

ولما كانت مدن الشام قد خلت من الروم، وكانت آرامية - عربية التكوين في الأصل، فقد اندمجت مع التطور الجديد، وشكلت نواة المجتمع الإسلامي. وأما مدن العراق فكانت تحوي نسبة واضحة من الفرس. ولذلك ظهر فيها في هذه الفترة، اسم «الموالي». يريدون به من أسلم من المجموعات السكنية المحلية من غير العرب. ولم ينتشر هذا الاسم إلا على قلة في مصر لأن الأقباط سواء في الدلتا أو في الصعيد احتفظوا بانكماشهم وديانتهم، وأقل من ذلك في المغرب لأن العرب شكلوا جزءاً بشرياً مستوطنة أكبرها القيروان، ضمن بحر من السكان البربر. وبعض هؤلاء نصارى وبخاصة على السواحل. وكانت نقطة اللقاء العربي - البربري هي كون الطرفين يقومان على التنظيم القبلي مما سهل التفاهم بينهما. وعلى نمط حياة

واحد . بالإضافة إلى ظلال من اللغة الفينيقية وشبهات حول الأصل المشترك .

كان دخول العرب المسلمين إلى هذه المناطق المختلفة اذن يشكل انقطاعا في بنيتها الاجتماعية . وربما كان هذا الإنقطاع محدودا في الشام وأقل محدودية في العراق . ولكنه بالنسبة لإيران ومصر وللمغرب كان ضعيفا يتناسب مع المجموعات العربية المسلمة التي نزلت واستمرت تنزل في هذه المناطق . وهي في كل الأحوال قليلة العدد بالنسبة للسكان الاصليين ولكنها كانت تتزايد باستمرار . فالمجموعات التي أرسلها زياد ابن ابيه وعبيدالله بن زياد ثم الحجاج إلى ثغور الهند وخراسان بعشرات الألوف مع أسرها للإستقرار ، أو أرسلت مع أخوة الخلفاء الأمويين إلى أرمينية والثغور ، أو إلى أفريقية مع عقبة بن نافع ومن تلاه من الولاة ، كانت توجد تغيرا تدريجيا في التكوين الاجتماعي للمناطق التي تنزل بها . وكان مما يسهل هذا الأمر الدين الاسلامي المنفتح ، وسهولة دخول جماعات السكان البعيدة فيه ، وبخاصة في المدن . فقد كان الريف عصيا على التسرب العربي الإسلامي الجديد بحكم بعده عن الحكام وطبيعة الزراعة المحافظة . (كما في الدلتا والصعيد ومناطق خراسان والترك وإلى حد ما في سواد العراق) . أما في المغرب فكان الأمر أكثر سهولة لأن الروم الذين تركوه بعد الرومان كانوا اشبه بالجالية التي انسحبت مع انسحاب قوتها - الأم . وبقي البربر على حياتهم القبلية المستقلة . وبصورة عامة كانت نسبة الإختلاط - وبالتالي الانقطاع - الاجتماعي الجديد في المدن الإسلامية أكثر منه في المدن القديمة . وفي المدن بعامة أكثر منه في الريف .

على أن التطور الاجتماعي لم يتوقف مع استقرار الإسلام والمسلمين في المناطق الجديدة ، ولهذا استمر يقرب البنية الاجتماعية تدريجيا حتى نهاية القرن الثاني : ففي مطالعه اضيفت الأندلس إلى الاسلام ونزلتها اعداد واسعة من البربر وأقل منهم من العرب . لكنهم لم يبذلوا الكثير من الجهد في

الاختلاط بالأهالي الأصليين من الأيبيرين والقوط . أما في المناطق الأخرى التي انسحب منها الروم على سواحل المتوسط فلم يظهر حدث اجتماعي ذو خطر، ولكن الظاهرة الاجتماعية الهامة كانت في العراق حيث اختلط العرب بالفرس - وكان الفرس قد خسروا دولتهم العريقة بالكامل - فظهرت الشعوبية . وبعد أن كان الاعتزاز بالنسب العربي فخرا يحاول الموالي الأوائل الحصول عليه عن طريق الولاء «أخذت نعمة الهزء به تظهر بوضوح نتيجة الإختلاط الواسع، وظهور قيم جديدة اسلامية في المجتمع الجديد الذي وجد في بغداد البؤرة الأساسية ليتم فيها تكوينه ونضجه» . وهذا صرنا نسمع أبا نواس في نهاية القرن يقول :

يبكي على طلل الماضي من أسد لادر درك قل لي من بنو اسد؟  
ومن كليب ومن سعد ولفهما ليس الأعراب عند الله من أحد

ونسمع من يهزأ من أبي تمام لافتخاره بالنسب العربي فيقول :

انت عندي عربي عربي ما تـــــــرام  
شعر اجفانك قيصوم وشيح وثمام  
انت عندي عربـــــــي عربي والســــــــــــلام!

وجرى الاختلاط الكبير الدججي في القرن الثالث وبلغ أوجه في القرن الرابع ، لا في مدن العراق فحسب ولكن في مدن فاس أيضا وخراسان ومصر والمغرب . وقد لعب دوره الهام في هذا الاختلاط الدججي الذي كون مجتمعا جديدا مختلفا عن المجتمع القديم السابق عدة عوامل منها :

- اعتبار الإسلام هو المعيار بالنسبة لرعايا الدولة الإسلامية . وتكاثرت الداخلين ونواهم ما ينال كل عربي من الأماكن والقبول والمزايا دون تمييز .

— الحركة التجارية الواسعة التي شملت العالم الإسلامي كله ومدنه المختلفة.

— حركة العلماء وطالبي العلم مابين مختلف المدن الإسلامية وتكاثرها.

— تسامح الموقف الإسلامي تجاه أهل الذمة واصطناعهم في الدولة مما ادمجهم في المجتمع المسلم . وسمح لهم ، سواء بقوا على الزرادشتية ام النصرانية ام اليهودية ، بحرية العقيدة والعمل ضمن دار الإسلام .

على أن البنية الاجتماعية رغم طابعها الإسلامي الواضح كانت متأثرة بالتكوينات الاجتماعية الأولى التي ورثها العرب الفاتحون عن الدول السابقة . العلاقات الاجتماعية السائدة قبل الاسلام في فارس ظلت على ما هي عليه ولم يتغير فيها تدريجيا سوى الدين . وعلاقات القبط بعضهم ببعض استمرت تحت الحكم الإسلامي وأن اسلم بعضهم وظل الأكثر على المسيحية . وعلاقات البربر قبلية كاملة - كالعرب - حتى حين انتقلوا هم والعرب إلى الأندلس وحكموها . وهكذا ظل الهراينة والموابذة زمنا طويلا هم المتحكمون في إيران ، من خلال الضرائب والنفوذ الموروث والدين السابق (من زرادشتي وما نوي ومزدكي) قبل أن تصبح خراسان قاعدة الحكم العباسي ومركز قوته ، وقبل أن يضعف نفوذ هؤلاء واثرتهم الاجتماعي السياسي منذ القرن الثالث . وظل الأقباط في مصر على تكوينهم الاجتماعي بفضل ثورتهم فترة اطول امتدت حتى العهد الفاطمي الأيوبي . وإن كانت تتآكل تدريجيا في المدن الشمالية من مصر خاصة ، وفي شرقي الدلتا وغربيها حين أنزل العرب المسلمون في هذين القطاعين إنزالا عمديا في خطة عباسية لكسر الانغلاق القبطي . كما تطور المغرب ليلتلع المجموعات القبلية العربية القليلة ويشكل منها مجموعا قبليا خليطا وان غلب فيه البربر ، وأن كان ابتلاع العرب صعبا قاسيا بحكم انهم كانوا يحملون الإسلام وكانوا هم

الحكام . وصراعات النفوذ في الأندلس دليل على هذه الصعوبة المرة التي طال معها الأمد حتى توازنت .

وهكذا تغيرت البنية الاجتماعية للمدينة الإسلامية حسب منطقتها فهي إسلامية فارسية في فارس ، وإسلامية قبطية في مصر ، وإسلامية بربرية في المغرب ، وبربرية عربية قوطية وإيبيرية في الأندلس .

في القرن الخامس حدث في مدن المشرق الإسلامي الإنقطاع الاجتماعي الهام الثاني بسبب الانقلاب السكاني الذي تم ما بين أقصى تركستان وجنوب الشام بدخول عناصر سكانية جديدة . فقد دخل الترك (الغز) إليها فاتحين . بلى ! كانوا الترك موجودين منذ أواخر القرن الثاني بل منذ عبيد الله بن زياد أيضاً ، ولكن بأعداد قليلة . كما كانوا مماليك أي عبيداً وآلات حرب حين كثروا وبخاصة في عهد المعتصم ومن أتى بعده لكنهم الآن فاتحون وبأعداد كبيرة والشيخ الذي جاء الب ارسلان وهو يجتاز نهر الفرات إلى حلب ليقول : «أحمد الله أيها السلطان فأنت أول تركي يجتاز هذا النهر ملكاً لا مملوكاً» كان على حق . فقد ظلت جموع الترك تتدفق على ما بين خرمسان وجنوبي الشام قرابة القرن . وتنزل المدن وتختلط بسكانها لأن إسلامها كان يسمح لها بذلك بسهولة . وهكذا تغيرت لأول مرة التركيبة السكانية لمدن المشرق واهتز كيافها بدخول مجتمع جديد ذي لغة وعادات وحياة اجتماعية مختلفة . صحيح أن المدينة الإسلامية في الظاهر بقيت مدينة إسلامية . ولكنها من الداخل تغيرت . أبقى الترك (الغز السلاجقة) على الشكل أما المحتوى فاختلف . بقيت الخلافة العباسية (التي كان هزها الديلم البويهيون من قبل) في الواجهة وبقي الإسلام وما يتصل به هو قاعدة العمل . ولكن أضيف إليه بكثافة لون جديد كان باهت الأثر من قبل فإذا به يصبح الطاغى القوي اليوم .



قبل ذلك بقرن من الزمن كانت مصر قد تلقت موجة من المغاربة البربر جاؤوا على شكل جنود مع دخول الفاطميين إلى مصر. وإذا قضاوا فترة طويلة ريثما اندمجوا مع السكان، فإنما كان السبب أن الفاطميين أنفسهم ظلوا يستجلبونهم، ويحتفظون بهم كعصيبة عسكرية لهم. ولكن المنطقة العربية (في الجزيرة والشام) أرسلت إلى مصر ومنها إلى أفريقية والمغرب هجرة سكانية عربية هائلة. كانت هذه الهجرة قد استقرت أولا في مصر ولكنها عانت فسادا بسبب بداوتها في الأرض المزروعة. وحين وجد الفاطميون أن الزيريين في أفريقية (تونس) قطعوا علاقتهم بهم، وكانوا قبلا من أتباعهم، سلطوا عليهم هذه الجموع البدوية (بني هلال) فدمروا البلاد والعباد. . . . كان ذلك في أواسط القرن الخامس يوم كانت مدن المشرق تعاني من هجوم الغز السلاجقة. على أن هجمة الهلاليين لم تكن سوءاً كلها فقد أوجدت في المغرب خليطا عربيا بربريا حمل الحضارة الإسلامية في المغرب فيما بعد كما أنه ثبت أقدام الإسلام فيها بشكل نهائي.

أما الهجمات الصليبية سواء في الأندلس أم صقلية أم المشرق فلم يكن لها أكثر من تأثير اجتماعي هامشي. لم توجد انقطاعا في البنية الاجتماعية لأنها اعتمدت أسلوب الإزاحة لا الإندماج. أخرجت المسلمين من الأندلس وصقلية أخرجوا وبدلت السكان تبديلا. وفي المشرق أزاحت الطبقات المختلفة الحاكمة والموجهة ولم تبق إلا على الفلاحين وعمال الأرض لاستغلالهم دون أي إندماج بهم وإذا نقلت كل النظم الإقطاعية والاجتماعية معها إلى المشرق وسكنت المدن على سواحل الشام من إنطاكية إلى يافا وإلى القدس فإنها لم تحاول مجرد محاولة، تعلم اللغة العربية أو الاتصال المباشر مع أهل المنطقة، وظلت تعتمد القوة أسلوبا للتعامل معهم حتى انقطعت هذه القوة بتوقف أوروبا عن معونتها. انقطعت هي معها وخرج الصليبيون من الشام دون أي أثر. قد يكون للتعصب الديني دوره في هذه القطيعة ولكنه

كان أحد الأسباب في غربة الصليبيين عنها وفي مغادرتهم الصامته لجميع المدن : من الرها أولا ثم من القدس ثم من طرابلس وانطاكية وصور عكا .

وكان يمكن أن نعتبر العهد الأيوبي استمرارا للعهد السلجوقي وهو كذلك بالنسبة إلى الشام وإلى حد ما في مصر، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للعراق وإيران . فقد عرفت هذه المنطقة منذ أوائل القرن السابع هجامة المغول المدمرة لمدينتها وريفها على السواء . وهي هجامة لم تبق على مدينة دون أذى يصل حتى التدمير الكامل للسكان والمدينة معا (كما في بخارى) . وجرى الإنقطاع الثالث في تاريخها بدخول العناصر المغولية التي حكمتها، ثم ما لبثت أن اندمجت فيها، بحكم تفاوت مستوى الحضارتين الإسلامية والمغولية . لكن هذا الإنقطاع توازى معه إنقطاع مماثل، في مصر والشام خاصة، بدخول المماليك كعنصر عسكري إلى الحكم، والإستيلاء على الدولة . في عهد المماليك جرى انقلاب اجتماعي في المجتمع الإسلامي بمصر والشام ارتفعت فيه طبقة العبيد المماليك إلى أعلى السلم دون أن يهبط غيرها كثيرا . استولت على الدولة الأيوبية كلها تقريبا بحكم حيازتها للسلح واعتماد السلاطين الأيوبيين عليها في الجيش والدفاع . فزاحت هؤلاء السلاطين «الصفار» وأزاحتهم وأوجدت لأول مرة نظاما خاصا لتولي الحكم، ومجتمعا خاصا أرستقراطيا لها وحدها، استمر قرابة القرنين ونصف القرن .

## ٢ - الطبقات الاجتماعية

على الرغم من التسوية التي يفرضها الإسلام على المسلمين فلا فضل فيه لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فإن الأوضاع الاجتماعية الموروثة في البلاد المفتوحة وكون العرب هم الحكام الأولون

والفاتحون قد أوجد مبدئياً طبقة العرب المسلمين وطبقة غيرهم ثم أوجد حتى عند هؤلاء العرب نوعاً من الأفضليات ومن التراتب الاجتماعي وكان بداياته ونواته في أفراد الصحابة عن غيرهم من الناس وإفراد جماعات منهم (كالبدريين أو أهل القادسية وغيرهم) عن الباقين، ثم في أفراد التابعين بعد الصحابة، ثم تابعي التابعين وإفراد آل البيت . . . وكلها تطبيقات كان الميزان الفاصل فيها القربى من الرسول الأعظم ومدى خدمة الإسلام . وهكذا وجد منذ البداية في المجتمع الإسلامي نوع من التراتب الاجتماعي ما لبث أن توضح . على ألا يفهم من كلمة «الطبقات» أكثر من التدرجات الاجتماعية وتراتب الجاه والشأن والنفوذ . فالمجتمع الخليط الذي ظهر في القرن الأول في المدن خاصة كان الإسلام هو رابطته الأساسية : ولهذا وجد أولاً المسلمون والذميون فلما دخل غير العرب في الإسلام وجدت طبقة ثالثة هي الموالي . وهي وإن كان لها الحقوق نفسها التي للمسلم إلا أن النظرة إليها كانت أدنى وتنزلت في منزلة بين منزلتين : المسلم والذمي . بسبب أن العرب هم الذين كانوا أكثرية المسلمين كما كانوا الحكام . وأما طبقة العبيد في أسفل السلم الاجتماعي فلم يكن أحد يحسب حسابها في تلك الأوقات .

على أن هذا الوضع الذي استمر واضحاً في المدن حتى أواخر العهد الأموي وبخاصة في العراق تطور في العهد العباسي بإتجاه آخر غير الإتجاه العرقي . واتجه إلى التطبيق المالي لاسيما مع نشاط التجار في قلب المجتمع الإسلامي وتكاتف نشاطهم فيما بين البصرة وبغداد خاصة . ونجم عن ذلك نزوع عدد ممن لا يتيسر لهم المال إلى الظهور في المجتمع من خلال طبقات تحمل تميزات أخرى غير المال : كالعلماء والأشراف . في حين فرض العامة أنفسهم كطبقة أيضاً بوصفهم الذين لا مال عندهم . وهكذا ما أن جاء القرن العباسي الثالث حتى كان المجتمع في المدن الإسلامية، حتى في الأندلس والمغرب، يتكون من طبقات متعددة يتلو بعضها بعضاً أو تتوازي

ولكنها في كل الأحوال تتمايز :-

— طبقة الحكام : وهم الخليفة وآل بيته ومن يلوذ به (وكانوا في عهد المأمون يزيدون على ثلاثة وثلاثين ألفاً)<sup>(١)</sup> والولاة في الولايات وأتباعهم، والوزراء وحاشيتهم، وكبار موظفي الدولة من القضاة والكتاب والقواد. ويدخل في هذه الطبقة الأشراف من آل البيت (وصارت لهم نقابة ونقيب).

— طبقة الأثرياء : وهم الذين جمعوا ثروات البلاد وتصرفوا فيها. من التجار الكبار وأصحاب الإرضين والضياع (وكان بينهم كثير من كبار الدولة) ولم يكن بعضهم يتورع عن التطلع إلى منصب الوزارة (ولقد ناله بعضهم بماله)، رغم أميته ويدخل في هذه الطبقة بعض أهل الذمة. فالمال لا دين له. لقد استوى المجتمع الإسلامي في أمرين : الإسلام فالمؤمنون سواسية كأسنان المشط، وفي النسب بعد أن هبطت قيمة النسب العربي في المجتمع وتساوت أنساب الناس. فلم يبق إلا المال وسيلة للنفوذ الاجتماعي. وبرزت أرستقراطية المال فصارت رموز المجتمع وصار التاجر في القرن الرابع. هو رمز الحضارة الإسلامية.

ونلاحظ أن أنساب الناس نفسها تغيرت فبعد أن كانت تحمل الأسماء القبلية حتى بالولاء صارت تحمل أسماء المدن أو أسماء المهن أي صارت «مدينة». كان ذلك قمة المجتمع الإسلامي. وميزة هذه الطبقة أنها كثيرا ما كان يکید بعضها لبعض، وكثيرا ما كان يتساند بعضها مع بعض أيام المصادرات. فالمصلحة كانت ميزان الجميع.

— طبقة العلماء : وقد كسبوا تميزهم الطبقي من حملهم العلم

(١) الطبري ج ص وأدم متر - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج ١ ص ٢٦٤ وذلك سنة ٢٠٩.

ومعرفتهم بالشريعة . نفوذ الإسلام بوصفه دين الناس هو الذي فرض وجودهم كطبقة . ويدخل فيهم بالإضافة إلى الفقهاء والحفاظ (حفاظ الحديث) الأدباء والشعراء وعلماء النحو واللغة والأطباء وصغار الكتاب . إنهم يمثلون الطبقة الثقافية في المدينة ويمكن أن نضيف إليهم كبار رجال الدين من الذميين . وهذه الطبقات الثلاث السالفة يسمونها في ذلك العهد بالخاصة مقابل العامة .

— طبقة العامة : وتشمل صغار التجار والباعة وأصحاب المهن والعمال المؤجرين ، وهم وإن كانوا يمثلون ديناميكية المدينة وقوتها العاملة النشطة إلا أنهم الطبقة الصامتة التي قلما يسمع بها أحد إلا في الأزمات . وفي هذه الحالة فهم يخضعون لمختلف التأثيرات من العلماء أو من الموسرين . ويشكلون مع المعدمين والفقراء عامل الفوضى في المدينة . في حين كان كبار العلماء والأثرياء يشكلون عناصر التهدئة والسلام والمحافظة . وكان الصناع والحرفيون يشكلون بصرف النظر عن أديانهم ومذاهبهم ونوع عملهم وعناصرهم كتلا دفاعية هجومية . كما حدث سنة ٣١٧ حين تنازع الصناع من البزازين ضد بائعي الطعام واقتتلوا<sup>(١)</sup> . وكانوا يستغلون الإضطراب السياسي ليثوروا ضد السلطان . لأن مستوى معيشتهم المنخفض كان يضغط عليهم باستمرار فمتوسط دخل العامل في الزجاج في القرن الثالث درهم ونصف الدرهم وازداد درهما في القرن الرابع . ولا يتعدى دخل أصحاب الحوانيت ٣٠٠ درهم في الشهر<sup>(٢)</sup> .

— طبقة قاع المدينة : ونقصد بها ما كان يسمى في ذلك العهد

(١) ابن الأثير الكامل ج ٦ ص ٢٠٦ .

(٢) التنوخي - نوار المحاصرة ج ١ ص ١٣٤ والفرج بعد الشدة ج ٢ ص ١٥٥ والدوري :

تاريخ العراق الإقتصادي ص ٢٦٠ .

بالعيارين أو الشطار أو الغوغاء أو الدهماء والسفلة . وإنما تعددت أسماؤها احتقارا لها من جهة ولأنها كانت تبرز على وجه الأحداث بين الفترة والفترة من جهة أخرى وتفرض وجودها . أنهم يعيشون على هامش المدينة في بغداد والبصرة والموصل وفي مدن الشام ومصر، في منازل كالأعشاش . لكنهم يبرزون في الأزمات أيام الفوضى والنكبات وقد ظهروا لأول مرة يوم الدفاع عن بغداد ضد جيوش المأمون . ولعلمهم من لوازم المدن الكبرى، والنتيجة الحتمية لاستئجار العمران والثروة في المدينة . الثروة تجذبهم كما أنهم يكونون وقودها والجامعين لها من الفئات . وعلى حسابهم وحساب طبقة العامة يصنع الأثرياء ثرواتهم المتراكمة .

وكان لهذه الطبقة ثوراتها التي لا تنقطع كالدفاع الثاني عن بغداد سنة ٢٥٠ بين المستعين والمعز، وثورتهم سنة ٣٠٧ ومهاجرتها دار الوزير حامد بن عباس ونهبها دار الخلافة سنة ٣٢٧ كما كانت لها تنظيماتها العسكرية فلكل عشرة عريف ولكل عشرة عرفاء نقيب وكل عشرة نقباء قائد ولكل عشرة قواد أمير . وقد صارت لهم بزة خاصة من خوذ الخوص ودروع محشوة بالحصى والرمل وهم تنظيمهم المدني فلا يدخل في فئاتهم إلا بمراسيم تطورت حتى ظهرت منها «الفتوة» . . .

ولقد خدمت حركة هؤلاء القوم بعد أن سحقها عضد الدولة البويهبي سنة ٣٦٤ ولكنها ما لبثت أن ظهرت بأشكال أخرى . . .

— وعلى الجانب الآخر ولصيقة بالمجتمع نفسه تقوم طبقتان :

— عامة أهل الذمة، وينظر إليهم على أنهم رعايا من الدرجة الثانية ضمن دار الإسلام . ومن الملاحظ أن النظرة الدونية لأهل الذمة من عامة المسلمين يقابلها التقدير لمواهبهم وامكانياتهم من طبقة خاصة لكن الطبقتين تتعاونان معهما على السواء .

— العبيد (بما فيهم الجوارى) وهم أجناس شتى فيهم الزنج والترك والصقالبة . ولم يكونوا يشكلون في نظر الناس طبقة في المدينة وإنما أدوات عمل وخدمة وهو . وكان في كل مدينة إسلامية دار للنخاسة (كدار الرقيق في بغداد) أو سوق لبيع الرقيق (كما في سامراء) أو بيوت خاصة للتجارة بها . ويشغل العبيد في بعض المهن لحساب أوليائهم أو فراشين (خدما) في البيوت . أو أدوات حرب في الجيش (ومن هنا كانت سعادة بعضهم مثل كافور والأفشين) . والنساء منهم وهن الجوارى كن خدم البيوت الموسرة ولكن كان بعضهن يصبحن قيانا للغناء والرقص والعزف . يقول أبو حيان التوحيدي «وأحصينا في بغداد جانب الكرخ ستين وثلاثمائة جارية مغنية» . ويتنافس الناس في شراء الجوارى الجميلات ، أو المغنيات أو الشاعرات أو المثقفات وكان تجارهن هم الذين يعلمونهن الصناعات للمبالغة في اثباتهن . ومنهن من لعبن أدوارهن في الدولة مثل الخيزران والسيدة أم المقتدر وقبيحة زوجة المتوكل وعَلَم ، وثَمَل . . وغيرهن . وكان الرقيق الأبيض أغلى ثمنا من الأسود الذي يناط به في الغالب العمل الريفي أو الخدمات المنزلية العادية .

ونسجل هاهنا ملاحظتين :

الأولى : أن هذه الطبقات إنما كانت توجد بصورة أساسية في المدن ولا وجود لها في الريف حيث تقوم طبقتان فقط : الفلاحون والمتنفذون (سواء أكانوا موظفي جباية أم رجال إدارة أو دين) .

الثانية : أن هذه الطبقات في الفترة العباسية وجدت في كل مكان من البلاد الإسلامية . الفارق الوحيد أن أهل الذمة كانوا في مدن المشرق أقلية ومن المجوس والنصارى الأرثوذكس واليهود ، وكانوا في مدن مصر من النصارى الأقباط اليعاقبة وعددهم كبير . وأما في الأندلس فمن النصارى الكاثوليك واليهود ولهم كثرة واضحة في المدن والريف . ولم يحدث تغير أساسي في الطبقات الاجتماعية بدخول الفاطميين إلى مصر ثم بدخول

السلاجقة إلى المشرق أو ظهور المرابطين ثم الموحيدين في المغرب ودخولهم الأندلس . كل ما في الأمر :

أ - إن الفاطميين (بدل العباسيين) تسلموا قمة المجتمع في مصر والشام وأن المغاربة البربر الذين كانوا معهم قاموا بدور الترك في المدن العباسية .

ب - إن السلاجقة الترك في المشرق كونوا طبقة محاربة فوق الطبقات تسلمت مع الحكم في المدن الاقطاعات الأرضية لاستغلالها، فدخل عنصر جديد على الإقطاع الزراعي في الريف .

ج - أن المرابطين والموحيدين بعد دخولهم الأندلس صاروا يكونون أكثرية بربرية واضحة في الطبقة العليا وفي الجيش .

ولم يحدث أيضا أي تغير في العهد الصليبي الذي أزاح المجتمع الإسلامي ليحل هو محله في الشام أو في الأندلس ، ولا في المدن التي احتلها المغول أو دمروها في المشرق ؛ لانهم سرعان ما ذابوا ضمن الحضارة الإسلامية بحكم تخلفهم الحضاري عن إيران والعراق . وإنما كانت عملية الترتيب الاجتماعي كاملة حين ظهر المماليك في مصر والشام فقفزوا إلى قمة المجتمع وغيروا من طبقاته ومن وظائفها وجعلوها رسمية ثابتة بعد أن كانت عفوية .

على أننا يجب أن نتذكر أن نواة هذه الطبقات المتأخرة المماليك المحاربين إنما كانت موجودة في الفترات السابقة ولكنها بشكل برعومي وتمهيدي . وإن كانت تحمل الملامح نفسها .

ولم تغب حقائق ذلك الترتيب في المجتمع الإسلامي عن الناس حين تقسموا إلى عامة وخاصة . وهكذا قسم ابن خلدون المجتمع المملوكي إلى



طبقتين: سلطان (ومن يتبعه بالطبع)، ورعية<sup>(١)</sup>. لكن المقرئزي كان انقلب نظرا حين قسم هذا المجتمع إلى سبعة أقسام هي:

أهل الدولة من الممالك، وأهل اليسار من التجار، ومتوسطي الحال من الباعة والسوقة وأهل الفلح، والفقهاء: ويشملون طلاب العلم وأرباب الصنائع والمهن وذوي الحاجة والمسكنة<sup>(٢)</sup>. ومع أن هذا التقسيم يغفل طبقات أخرى مثل الدواوين (موظفي الحكومة)، والذميين والأعراب. إلا أنه يصلح إذا ما استثنينا أهل الفلح أساسا للتقسيم الاجتماعي في مدن المملكة المملوكية فهناك:

١ - طبقة الممالك وجندهم في القمة: وهي طبقة مغلقة عليهم. لهم فيها مراسيمهم وعالمهم الخاص. وهم أقلية عسكرية ولكنهم في الوقت نفسه السادة والحكام. وقد ذكروا أن رجلا ذهب يستفتي بعض الفقهاء فيها إذا كان بيعه لنفسه يؤثر في سلامة أو شرعية مملوكيته أم لا؟

وهذه الطبقة تحتكر العرش والسيف أي أعمال الحكم وأعمال الحرب. وكانت المدن هي مقرها. ولكن امتداد استغلالها الاضطبوطي كان يمتد في الأرياف بالأقطاعات التي ينهبون خيراتها أولا بأول. وهذه الطبقة معروفة الدرجات والأعمال بالبستها الزاهية الخاصة بها وبأعمالها. ولا تختلط بأهل البلاد إلا بالقدر الذي تحتاجه مصالحها، فلا يتزوجون منهم ولا يقاربونهم إلا من عل. في حين أنهم فيما بين بعضهم بعضا يتعاملون بالمساواة التامة والرعاية وحسن المعاملة، فقد كتب السلطان قلاوون إلى ابنه خليل يوصيه برعاية الأمراء «فهم السور الواقى وهم ذخائر الملوك وجواهر السلوك... فكن لجنودهم متحيبا ومصالحهم وآرائهم مستصوبا وفي شكرهم

(١) ابن خلدون / المقدمة ص ١٨٣.

(٢) المقرئزي: اغائة الأمة ص ٨٢.

مسهباً . . . (١) وبعث الظاهر بيبرس وهو في أوج قوته برسالة من دمشق قال فيها لكبار الأمراء «ولدكم»، ولبقية الأمراء «أخوكم وولدكم يسلم عليكم ويتشوق إليكم . . .» (٢).

ولم تكن هذه الطبقة من أصل واحد ففيها القوقازي والألماني والإسباني والتركي والجركسي والرومي والصقلي، جلبهم تجار النخاسة من الجنسين إلى الأسواق الإسلامية ليكونوا مادة الأعمال المختلفة. ويختار المماليك منهم من يشترونه فيصبح عند ذلك من الطبقة الحاكمة التي يفتح لها طريق الحكم حتى السلطنة. ويبالغ المماليك في شرائهم ليتقدموا بهم، فعدد مماليك السلطان أيام قلاوون بلغ / ٦٧٠٠ / مملوك. وقد اشترى السلطان برقوق أيام سلطنته خمسة آلاف مملوك. وكان هؤلاء لا يشكلون فرقا تنسب إلى مالكتها. وقد شارك الحكام المماليك في هذه الظاهرة طبقة التجار والملاكين فلديهم بدورهم جماعاتهم المملوكية ولكن لا شأن لها بالحكم. فمماليك المماليك وهم أصحاب السلطة لهم مؤدبوهم ومدربوهم وإمتهاداتهم وهم صغار، ولهم جامكياتهم حين يكبرون. ثم اقطاعياتهم، ولهم درجاتهم التي يرقونها وإحتفالاتهم بها بقدر ما تحت أيديهم من المماليك . . . أيضا. أما قصورهم في المدن فتمثل كل ثروة البلاد مجموعة في قصورا! والسلطان هو الذي يعيد توزيع الإقطاعات مرة بعد أخرى وهو ما يسمى بالروك.

وقد تعززت غربة هؤلاء المماليك لا بإعتزالهم الاجتماعي فقط عن أهل البلاد، ولكن بالغربة اللغوية، (فكانوا يتحدثون بالتركية)، وبالعلاقات الأستاذية والخشداشية التي تربطهم وإن لم يمنع ذلك من مؤامرتهم بعضهم على بعض ومن قتالهم.

(١) القلقشندي: صبح الاعشى ج ١٠ ص ١٦٦ - ٧٧٣.  
(٢) القرظبي: السلوك ج ١ ق ٢ ص ٥٥٩ (حوادث سنة ٦٧٠).

٢ - طبقة «أهل العمامة»<sup>(١)</sup> : وهم طبقة متحالفة مع المماليك بحكم المصلحة - وإن كان بعضهم يتملصل من هذه الصلة كابن دقيق العيد وابن تيمية - وتشمل جميع أصحاب الوظائف الدينية من قاضي القضاة إلى مؤذن الجامع . هذه الطبقة كانت تجرد من التبرير والفتوى والتفسير للحكم ما شاءت . وهي تسكن المدن . وعلاقتها بالأرياف ناشئة عن استغلالها للأوقاف التابعة لها . لكنها غير مغلقة . ويتعلق الوصول إليها بطموح دارس العلم وبراعاته . ويضطهد من لم يلتزم في ارسنراطية العلم هذه بالرأي العام السائد والتقاليد المقررة في الفكر، وحتى في الطعام والملبس . فلها بدورها أزيائها الخاصة المتميزة، غير أن هذه الطبقة لم تكن في مستوى واحد من حيث المعاش ولا من حيث القيمة الاجتماعية فكبارهم يتوازون في الجاه مع بعض الأمراء والتجار والملاكين (وقد يشتركون في التجارة وفي الثروة وملك الأرض والعقارات وهم وجهاء المدينة في الملهمات كما في حصار تيمور لدمشق) لجمعهم بين الثروة والعلم . وأما الصغار فيتوازون مع صغار الباعة وتجار المرفق وأهل المهن . وكان لكبار أهل العمامة نفوذ في الدولة كبير بسبب علمهم بالدين - وهو ما يجعله المماليك - ولهم بسطة عيش نتيجة ما أغدقه عليهم المماليك من النعم ، وما استأثروا به من الأوقاف «لأنهم بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون» كما ذكر المقرئزي<sup>(٢)</sup> . وهكذا كان من امتيازاتهم الحظوة بالاحترام عند السلاطين والأمراء، وتراكم الألقاب التي أضيفت عليهم ، والمبالغة في ذكر مكانتهم في العلم ؛ فهذا فقيه عصره وهذا انتهت إليه رياضة العلم وهذا ختم به الفقهاء! هذا إلى الرفاه في المأكل والملبس وسكنى القصور . فبعضهم لم يكن يقل في ذلك كله عن أبرز

(١) هكذا كان يسميها ابن نغري بردى/النجوم، ج٧ ص ٢٠٥ . وتاريخ ابن الفرات ج١ ص

٢٣٧ . وابن حجر إنباء الغمر ج٢ ص ٢٣٧ ب .

(٢) المقرئزي / السلوك ج٣ ص ٣٨٣ .

الأمراء، وكانت الأوقاف التي يسيطرون عليها تمدهم بمثل هذا المستوى من العيش الرفيه. ومنذ العصر المملوكي الأول إزدادت في هذه الطبقة ظاهرة توارث المناصب حتى تخصصت بها الأسر. فهذه للخطبة، وهذه للقضاء، وهذه لإمامة الجامع. وهي على كل الأحوال حارسة القيم الإسلامية الاجتماعية في المدينة والقوم عليها.

٣ - طبقة أرباب الوظائف الديوانية : وهي بدورها غير مغلقة، ولكنها تعيش على الجرايات السلطانية، وعلى ما تفتحها لها وظائفها من أبواب الرزق وتعيش في المدن حول البلاط السلطاني. وقد يمكن إلحاقها بالطبقة السابقة لولا الطبيعة الدينية لأهل العمارة. وبعض هذه الوظائف كانت تورث للأبناء.

٤ - طبقة التجار والملاك الموسرين : وتشكل ارسنقراطية المذهب وهي مرغمة بسبب مصالحها على التحالف مع الطبقة الحاكمة وإن كانت أموالها الوفرة كثيرا ما تغري الحكام بنهبها المتكرر. ولم يكن باستطاعتها نقض التحالف لأن السيف المملوكي الحاكم هو مجال حماية بضائعها السائرة على الطرق وفي المخازن، ومجال حماية الإقطاعات الكبيرة التي تملكها في الريف. بالإضافة إلى حماية المدن وتمويل الأعمال العامة وصيانة البنية التحتية المادية للمدينة، وتأمين التمويل لها.

وقد تقرب المماليك بالمقابل إلى هذه الطبقة وشاركوا بأموالهم في تجاراتها. وجعلوا من بعضها ندماء للسلطين والأمراء حتى كان بعضهم - وهو قليل - ينوب بأمر السلطة - عن القاضي أو يحتل بعض المناصب الخاصة بالمماليك. لكنهم بحكم سيادة قيمة المال لديهم لم يكونوا يأنهون كثيرا للأمر الدينية. على أن قصورهم الباذخة في المدن كانت تكشف عن مدى ثروتهم (صرف بعضهم في بناء داره وتزيينها وترخيمها خمسين ألف دينار). وهذا ما

كان يطمع فيهم المماليك الذين لم يكونوا يضيعون مناسبة لابتزاز التجار ونهبهم . ولم يغالوا في فرض الرسوم عليهم ولكنهم كانوا يتحينون كل فرصة لمد أيديهم الى جيوبهم . فاذا لاح خطر مفاجيء او كانت ضائقة اسرعوا ففرضوا عليهم دفع نصف (أموالهم أو ثلثها كما جرى سنة ٨٠٣) أو فرضوا عليهم مبالغ يحددونها (كما جرى سنة ٨٩٣) . كان ذلك خاصة في أواخر العهد المملوكي حتى تمنى بعض التجار أن يفرق الله بضائعهم ليستربحوا من الغرامات والخسارات وتحكيم الظلمة فيهم<sup>(١)</sup> . ولعله من الضروري أن نذكر هنا أن هذه الطبقة مع الطبقة التالية : طبقة الصناع والحرفيين كانتا تشكلان الجانب الأكبر من سكان المدينة الإسلامية والركيزة الأساسية في حمل قيمها واتجاهاتها والتعبير عن رغباتها .

٥ - طبقة الصناع وأرباب الحرف : هذه الطائفة الواسعة في العصر المملوكي كانت - كما كانت على الدوام - روح المدينة وآلتها المحركة ، وكانوا يخضعون في المدن لنظام من الأصناف . فلكل حرفة صنفها الذي يحدد علاقة أصحابها . بعضهم مع بعض ، وفيما بينهم وبين الناس ولها رئيس يتولى بإسم شيخ الصناعة ؛ يفض المشاكل ويدافع عن أبناء صنعته . وللإلتحاق بكل صنعه مراسم . ويتوارث الأبناء المهنة عن الآباء وندر جدا أن يسمح لهم بتغييرها أو تجاوزها إلى غيرها . ولهم في الصناعة «أسرار» لا يبوحون بها لغيرهم ، ولا يسمحون بالمشاركة فيها . وهو نوع من الدفاع عن النفس ضد الفئة الناهبة .

٦ - طبقة العوام والحرافيش : فكما كان للطبقات من حكام وعلماء ذيولهم في الطبقتين التجارية والصناعية المتحالفة معها كذلك كان للطبقة العامة ذيولها في القاع الاجتماعي . من الزعار والعوام وهي طبقة كانت

(١) المقرئبي - السلوك ج ٤ ص ٤٤٤ .

تختص بها المدن فحسب لأن الريف بسبب القربى الأسرية فيه، والقربى في مستوى المعيشة، وإمكان توافر البسيط منها لكل طالب، لم يكن يعرف هذه الطبقة التي تعيش على هامش المدينة، وفي قاعها الاجتماعي. كما تعيش أحيانا كثيرة في إطارها العمراني في منازل سيئة المنظر والبناء. وطبقة العوام تضم الاشتات والأوباش والسقاط والبلاصية والحرافيش<sup>(١)</sup> والدهماء والغوغاء ممن يصفونهم بأنهم «أهل صلابة وقوة ودعارة» كما قال ابن بطوطة وكانت لهم أحيانا كثيرة سطوتهم المرعبة في المدينة. وتكاد لا تمضي سنة دون أن يكون لهم ثوراتهم وتمرداتهم. وبخاصة في النصف الثاني من العصر المملوكي الذي امتلأ بهذه العواصف. إنهم إلى حد كبير صعاليك المدن الذين يقابلون في القديم صعاليك البادية.

٧ - طبقة أهل الذمة : وكان الناس يضعونها خارج الطبقات، ويقسمون أصحابها كلا مع ما يقابل فئته في طبقات المجتمع الإسلامي نفسه وإن كان ينظر إليه نظرة أدنى منها. وكانت أعدادهم من النصارى كبيرة في مصر قليلة في الشام. ففي القاهرة كانوا يزيدون على عشرين ألفا نصفهم من الأقباط، ونصف من اليهود، ولهم الكنائس والكنس والأديرة (عدد أديرة الفيوم وحدها ١٣ ديرا أيام المماليك). وكان لهم تنظيمهم وحياتهم الدينية الخاصة وبطاركتهم وأخبارهم ويعاملون كبارهم باحترام كبير في البلاط السلطاني. وقد تكاثر اليهود خاصة في المدن الكبرى والموانئ لما فيها من النشاط التجاري المربح، ولما يقيمونه من الصلات التجارية مع أمثالهم في مدن الغرب. حتى صارت لهم سيطرة مالية واضحة في العمليات المصرفية والأعمال المالية والحركة التجارية وكان معظم تجار الكارم منهم كما تبين وثائق

(١) انظر ابن لياس. بدائع الزهور، ج ٩٣ والسخاوعي التبر المسبوك ص ١٤٦، ٢١٢، والمقريزي المخطوط ج ١ ص ١٤٤، وابن تغري بردى. النجوم ج ٦ ص ٢٥٤/٢٢١.

الجينيزا . لهذا كانت لهم ثروات وقصور وممالك وإن كانوا يدفعون (الجوالي) أي الجزية للدولة وهي مبلغ تافه . وهذا لا يعني أنه لم تكن ثمة هبات من التعصب كانت تثور من وقت إلى آخر فتطردهم تارة من الوظائف أو تفرض عليهم الغيار أو تهدم بعض معابدهم أو تمنعهم من دخول الحمامات . . . عدا إرهابهم بالمغارم والضرائب . ولكن تكرر تلك العواصف دليل على أن التسامح كان الأصل وأن هذه الاضطهادات كانت عابرة ما تلبث أن تزول .

وهذا لا يعني على أي حال أن الذميين لم يثوروا لأنفسهم فقد سجلت أعمال استفزازية عديدة قاموا بها ومنها إحراق بعض أحياء القاهرة ومساجدها (في سنوات ٦٦٣ و ٧٢٠ و ٧٢١ و ٧٥١)، على أن الذميين كانوا في غالب الأحيان يتفادون الاضطهاد ببذل الأموال أو بالتظاهر الوقيي بالإسلام، كما أن العديد من الأمراء والسلاطين والتجار دأبوا على مداراتهم والتخفيف عنهم . وكانوا على صلوات طيبة معهم وبخاصة مع الأطباء منهم والتجار، ومع أصحاب الكتاتيب لأنهم يجيدون الحساب . ومن الملاحظات الاجتماعية التي تلفت النظر أن بعض الذميين كان يؤمن بقدر بعض أولياء المسلمين ويتوسل بهم، كما كان بعض المسلمين يؤمن ببعض قديسي النصارى وعجائبهم وينذر لهم .

٨ - طبقة العبيد والجواري : وهم موزعون ما بين القصور وبين الأعمال الحرفية والدنيا (وبعضهم يعمل في الريف) . هذه الطبقة الخرساء كانت متعددة الأصول الجنسية جدا . ولا رابط يجمعها سوى مهانة العبودية، وهي موجودة في جميع المدن الإسلامية كأدوات عاملة في صمت . وقد ظهر منها سلاطين وأمراء في العصر المملوكي، كما ظهر منها علماء ومحدثون ولكن على قلة .

### ٣ - مساحات المدن وأعداد السكان فيها

قد يكون من العسير متابعة مساحات المدن الإسلامية في جميع المناطق وفي جميع العصور، فإن عمل الأثريين في هذا الباب لم ينته بعد وأمامهم الكثير. ولكننا نستطيع أن نأخذ فكرة عن هذه المساحات في بعض بقاع العالم الإسلامي. وليكن العراق «فمن الثابت أن بغداد في أوج ازدهارها في العصر العباسي غطت مساحة تبلغ ٧ آلاف هكتار وهذا يعادل خمسة أضعاف مساحة القسطنطينية في القرن العاشر وثلاثة عشر ضعفاً من مساحة المدائن (طيسفون) عاصمة الساسانيين في العراق نفسه قبل ذلك. والعالم الأمريكي . ج . لاسر المتخصص في هذا المجال من الأبحاث يميل إلى الافتراض بأن سكان المدينة بلغوا ٥٦٠ ألف نسمة، ولكن عالماً كبيراً آخر استخلص أن سكان العاصمة العباسية بلغوا أقل من ٢٠٠ ألف نسمة (وهو رقم متواضع جداً). كما أن مساحة سامراء أيضاً كانت واسعة جداً إذ بلغت ٦٨٠٠ هكتار ولكن الجزء الأعظم منها على ما يبدو كان يتألف من القصور والحدائق، في حين أن مساحة المدن الأخرى صغيرة نسبياً. فمساحة الرقة (الرافقة) ١٩٢ هكتاراً والموصل ٢٩٢ هكتاراً. ومن جهة أخرى فقد بلغت مساحة البصرة التي كانت من المدن الكبرى ٣ آلاف هكتار. والعالم الذي أجرى أبحاثاً شاملة في تاريخها استخلص أن عدد سكانها بلغ ٢٠٠ ألف نسمة في القرن التاسع. وسكان الكوفة ربما بلغوا ثلاثة أرباع سكان البصرة»<sup>(١)</sup>.

وقد توصل عالم الآثار الأمريكي نفسه إلى «إن الظاهرة المميزة لتطور العراق الديمغرافي في العصر العباسي هي بلا شك نمو المدن. وقارن مواقع

(١) آشور: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى (الترجمة العربية عبلة وسبانوط. دمشق ١٩٨٥) ص ١٠٦.



التجمع السكاني المدني في العصرين الساساني والعباسي وتوصل إلى الجدول التالي :

### مساحات المدن في العراق

	في العصر العباسي			في العصر الساساني		
	العدد	المساحة الكلية	معدل المساحة	العدد	المساحة الكلية	معدل المساحة
العواصم	١	١٣٨٠٠	٦٩٠٠ هكتارا	٢	٥٤٠ هكتارا	٥٤٠ هكتارا
المدن	٨	٧٣٠	١٨٢ هكتارا	٤	١٥٥ هكتارا	١٢٤٤ هكتارا
المدن الصغيرة	٤	٢٦٥	٤٤ هكتارا	٦	٤٧ هكتارا	١٨٨ هكتارا
المدن التجارية الصغيرة	٣٥	٣٤٤	١٧ هكتارا	٢٠	١٧ هكتارا	٥٩٩ هكتارا

وهكذا ليس من شك في وجود ظاهرة التمددين الواسعة لكن من الخطأ الافتراض أن نمو المدن الكبرى كان بشكل رئيسي على حساب المدن التجارية الصغيرة أو القرى. فالمدن الكبيرة جلبت سكانا كثيرين من الأماكن البعيدة<sup>(١)</sup>.

وإذا لم يكن من شك في وجود نمو ديمغرافي مديني في أنحاء العالم الإسلامي، رغم الكوارث الطبيعية والأوبئة والحروب التي لم تكن تهدأ لكن من الصعب جدا... إن لم يكن من المستحيل في الوضع الحالي للمعلومات

(١) أشتور: المصدر السابق نفسه ص ١٠٧ وكانت في الأصل جدولين فجعلناهما واحداً.

أن نتناول اعداد السكان في المدن الإسلامية إلا على وجه تقريبي يخضع للكثير من التعديل والمناقضة . فقد كانت العملية الاحصائية غير موجودة وتقديرات الكتاب كانت تبالغ كما تشاء وحسب التقدير الكيفي . ثم إن المدن عامة كانت بوصفها مجتمعات حية تنضخم في عصر لسبب أو لآخر وترجع هي نفسها فتتقلص أو تموت في عصر ثان . وقد تعود مرة ثالثة بشكل مدن صغرى . ونماذج الاحصائيات التي نعرضها لا تبعث على الإطمئنان والركون اليها ولكننا نتخذها كمؤشرات ودلائل :

فقد ذكروا أن في قرطبة ٢٠٠ ألف منزل في القرن الرابع وهذا يعني أن عدد سكانها إذ ذاك يبلغ على الأقل ما بين ٨٠٠ ألف إلى المليون، وأن أهلها كانوا يستطيعون السير في طرقاتها بالليل على ضوء المصابيح العامة<sup>(١)</sup> (ولم تعرف لندن ذلك إلا بعد سبعة قرون). ويذكر البكري أن بها ٤٩١ مسجداً في حين جعلها ابن عذاري في البيان المغرب ثلاثة آلاف<sup>(٢)</sup> . ولو أخذنا بهذا الرقم الأخير نفسه لما كان في قرطبة أكثر من مائة وخمسين ألف إلى مائتي ألف نسمة . لكن احصاء آخر يلفت النظر وقد يكون أصح من هذا . فقد أحصيت دور قرطبة وربضها أيام الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (أواخر القرن الرابع) فكانت ١١٣٧٧ داراً للرعية، أما دور الأمراء والكبراء والوزراء والرؤساء والقادة والكتاب والأجناد فهي ٦٠٣٠٠ بيت سوى مصاري (غرف) الكراء والحمامات والخانات وكان بها من المساجد ١٣٨٧٥ مسجداً و ٣٧١١ حماماً وبها من الحوانيت ٣٠٤٥٢ حانوتاً و ٤٣٥ قصرأ للخلفاء وذويهم يعمل فيها ٦٧٨٦ خادماً صقلبياً و ٦٨١٤ جارية وخادمة . جرايتهم في اليوم ١٣ ألف رطل من اللحم عدا ضروب الصيد والحوت (السملك) . وكان عدد الصقالبة في الزهراء ٣٩٥٠ خصباً جرايتهم

(١) Drapper: A His. of Intellectual Development Vol. II P. 29

(٢) انظر بلباس؛ مجلة المعهد المصري للدراسات الاسبانية ج ١ ع ١ ص ١٠٢ .

من اللحم اليومي ٦٠٠٨ أرطال عدا أصناف الطير والحوت . وكان بخارج قرطبة ٣٠٠٠ قرية فيها منبر وجبايتها ٣ ملايين دينار . ثم انحطت قرطبة بعد سنة ٤٠٠ وحزب أكثرها فكان عدد دورها ١١٣ ألف دار للرعية و ٦٣٠٠ لأهل الدولة والخدام والأجناد . ونقصت حماماتها إلى ٧١١ حماماً وأفضت مساجدها إلى ٣٨٧٧ مسجداً . . .

وهذه الأرقام قد تجعل سكان قرطبة في هذا العهد المذكور يقاربون ٤٥٠ ألفا عدا العبيد والحواري . فهي نصف مليون<sup>(١)</sup> .

وذكروا عن سننه أن فيها ألف مسجد وعلى هذا المقياس لا يكون فيها أكثر من خمسين ألفاً من السكان . وذكروا عن فاس أن بها في عهد المرابطين والموحدين (القرن ٥ - ٦) ٧٨٥ مسجداً ، ودور الوضوء اثنتين وأربعين ، والسقايا ثمانين ، والحمامات ثلاثة وتسعين ، وارجاء الماء أربعمائة واثنين وسبعين ، ودور السكنى ٨٩٢٣٦ ، والمصاري (أي الغرف العليا المطلة ببروز على الشارع) سبعة عشر ألفاً ، والخوانيت ٩٠٨٢ حانوتا . وثمة قيسارية واحدة في كل عدوة من عدويتها . ودار للسكة في كل من العدوتين . وللأطرزة ٣٠٩٤ داراً . أما دور عمل الصابون فهي ٤٧ ، ودور الدباغين ٨٦ ، ودور الصباغين ١١٦ ، ودور تشبيك الحديد والنحاس اثنا عشر ، ودور عمل الزجاج إحدى عشرة ، وكوش الجير ١٣٥ ، وافران الخبز ١١٧٠ فرناً ، وأحجار عمل الكاغد (الورق) أربعمائة ، كل ذلك بداخل المدينة . ودور الفخار مائة وثمانون بخارج المدينة .<sup>(٢)</sup> . وندر أن نلقى مثل هذه الأرقام الإحصائية الدقيقة عن مدينة أخرى من المدن الإسلامية وإنما ذكرناها جميعاً لنستنتج بصورة عامة من أرقام منازلها ومساجدها وحماماتها أن سكانها قد

(١) حسين مؤنس . في المجلة السابقة ، مجلد ١٣ ، ١٩٦٥ ص ١٦٧ - ١٦٩ .

(٢) الجزنائي : زهرة الأس في بناء مدينة فاس (طبع الجزائر ، ١٩٢) ص ٣٣ .

يبلغون في تلك الفترة حوالي نصف مليون نسمة .

ونجد لدى ناصري خسرو الرحالة (في القرن الخامس) أن عدد أهل أرجان من الذكور يبلغ عشرين ألفاً فكأنه يجعلها بين الستين والسبعين ألفاً . كما يقدر أهل جدة بخمسة آلاف ، وأهل مكة بالفين (لأن الباقيين - كما قال - فروا من المجاعات) . وهو يقدر أهل كل من مدينتي القدس وطرابلس الشام بعشرين ألفاً من الذكور أي يقدر أهل أرجان<sup>(١)</sup> . كما يذكر أن عدد سكان مصر يبلغ خمسة أضعاف سكان نيسابور .

ويذكر ناصري خسرو (من القرن الخامس) أن تنيس مزدحمة قد تبلغ الدكاكين فيها عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار<sup>(٢)</sup> ، ويذكر ابن ايباس (من القرن التاسع) أن طولها من الشمال إلى الجنوب كان ٣٢٠٠ ذراع ، وعرضها ٣٠٨٥ ذراعاً وكان لها تسعة عشر باباً مصفحة بالحديد ، وكان بها نحو ١٦٠ مسجداً وبها ستة وثلاثون حماماً<sup>(٣)</sup> . وهذا كله قد يعني أن سكانها حوالي ١٥٠ ألف نسمة . ويقدر ناصري خسرو نفسه أن في القاهرة - عدا مصر الفسطاط - مالا يقل عن عشرين ألف دكان كلها ملك للسلطان ، والأربطة والحمامات والأبنية كثيرة لا يحدها الحصر . وكلها ملك للسلطان . . . وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر ، ومسح المهندسون قصر السلطان فوجدوه مساوياً لمدينة ميفارقين . وقيل أن به اثني عشر ألف خادم مأجور . ويقال أن به ثلاثين ألف إنسان<sup>(٤)</sup> ، وقد أخرج صلاح الدين منه

(١) آدم متز - الحضارة الإسلامية ص ١٧٣ . ولم نجد الإحصاء الذي ذكر وجوهه عند ناصري خسرو في الرحلة عن سكان طرابلس والقدس غير أن ناصري يذكر أن عدد القادمين إلى القدس في موسم الحج يزبو على عشرين ألفاً . أما عدد سكان جدة فهو في الرحلة ص ١٣٥ .

(٢) ناصري خسرو - سفرنامه ص ٨٣ .

(٣) ابن ايباس - تاريخ مصر ج ١ (ط . بولاق) ص ٤٩ - ٥٠ .

(٤) ناصري خسرو - المصدر السابق

حيث ملك مصر ١٢ ألف نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأولاده وأهله<sup>(١)</sup>.

ويذكر ناصري خسرو أن بمصر بيوتاً مكونة «من أربع عشرة طبقة وبيوتاً من سبع طبقات» ويؤيد بعض ذلك ابن حوقل قبل قرن منه فيذكر أن الدار بها تبلغ سبعمائة وستاً وخمسة طبقات<sup>(٢)</sup>. ويضيف خسرو أنه يقال إن في القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف جمل يحمل عليها السقاؤون الروايا عدا من يحمل الماء على ظهره في الجرار النحاسية أو القرب. «على أن البلوى (من القرنين أي بعد ذلك بثلاثة قرون أو تزيد) قدر جمال السقاء بمائتين ألف جمل. أما الحمير فكان عددها كبيراً جداً لقيامها بدور سيارات الأجرة. وقدر ابن بطوطة (من القرن الثامن نفسه) عدد المكاريين في القاهرة بثلاثين ألف مكارى مما أدى إلى ضيق الطرقات وهذا كله قد يعني أن القاهرة تضاعفت أربع مرات حين فتحت في العصر الأيوبي على مصر الفسطاط وكوننا مدينة واحدة كما يعني أن مساكنها قد تبلغ - حسب جمال السقاء - ٢٠٠ ألف بيت تقريباً ويصبح سكان القاهرة في العهد المملوكي حوالي المليون أو أقل قليلاً.

ويذكر سبط أن الجوزى عن جماعة دمشق سنة ٤٦٧ «أنه لم يبق بها من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف افناهم الفقر والجلاء. وكان بها مائتان وأربعين خبازاً فصار بها خبازان والأسواق خالية والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها بعشرة دنانير فلا يشتريها أحد والدكان الذي كان يساوي ألف دينار ما يشتري بدينار. . .»<sup>(٣)</sup>.

ويعدد ابن عساكر وهو من رجال القرن السادس) ما في دمشق من

(١) المقرئى، الخطط ج ٢ ص ٢١٥.

(٢) ابن حوقل ص ١٤٧.

(٣) سبط ابن الجوزى. (في هامش ابن القلانص) ص ١١١.

المساجد فإذا هو مائتان واثنتان وأربعين مسجداً عدا المسجد الجامع الكبير وعدا مساجد الغوطة حولها وهي مائة وثمانية وسبعون. ويعدد ابن عساكر الحمامات بأسمائها فيجدها اثنين وخمسين<sup>(١)</sup> حماماً وهذا كله قد يعني أن سكان دمشق في القرن السادس / ١٢ م هو حوالي ١٥٠ ألف نسمة وأن في الغوطة حوالي مائة ألف.

وقد زادوا بعد ذلك أيام المهاليك لأن أبنية المدينة خارج السور شكلت عدة أحياء جديدة. بالإضافة إلى مدينة الصالحية التي توسعت على الجبل شمال دمشق.

ويذكر اليعقوبي أنه أحصى في بغداد (أواخر القرن الثالث) ستة آلاف درب وسكة وأحصى المساجد فكانت ثلاثين ألف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك وأحصى الحمامات فكانت عشرة آلاف حمام سوى ما زاد بعد ذلك. . . . «  
مبالغت رقمية واضحة فلو افترضنا أنها تبلغ ربع هذا الرقم أو ثلثه لأمكن تقدير سكان بغداد في فترة أوجها بما يقارب ٨٠٠ ألف إلى المليون نسمة. ولكنها تدهورت في السكان بعد ذلك وتهدم الكثير من أحيائها واستجدت أحياء أخرى غيرها وحين حاصرها المغول سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ ذكر المؤرخون أن عدة من قتل بها كان مليوني نسمة والمقل يقول إنهم مليون نسمة والواقع أنها تقدر كلها بحوالي نصف مليون نسمة قتل منهم زهاء مائتي ألف. لأنه لم يكن لها من السعة المكانية ما يكفي لمليون ساكن ولا في الخدمات ما يوازي ذلك. وإنما تضخمت أرقام القتل نتيجة لضخامة المصيبة التي ملأت أوهام الناس وليس لواقع القتل.

وأجناس السكان في مدن العالم الإسلامي كانت متنوعة أشد التنوع

(١) ابن عساكر ج ٢ ص ٥٥-٧٧ و ٧٨-٨٢.

بعكس الريف الذي حافظ على خلائطه الأولى فالاسلام كحضارة كبرى وحيدة اجتذب إليه أجناس العالم المعروف كلها وهي التي شكلت في القرن الرابع وفي المدن خاصة ما يسمى بالمجتمع الإسلامي الكلاسيكي . لقد بقيت الكتل السكانية في مواضعها من ايريا حتى الزكستان والهند ولكن الحدود والقيود بينها هي التي انفتحت بعد أن توغل فيها العرب . فاختلط بعضها ببعض في المدن وزاد الأمر سعة وتنوعاً أمران :

— اصطناع الأمم الأخرى وبخاصة في الجيش والتوسع في ذلك حتى الغزو التركي السلجوقي ثم حتى سيطر المماليك .

— أصناف العبيد الذين كانوا يجلبون من مختلف البقاع وبخاصة من الزنج والترك والصقالبة (الروس) بالإضافة إلى الأسرى من الروم والأرمن .

وكان هذا الاختلاط يتم في المدن وبخاصة في المدن الكبرى لا في الريف . فهو سمة من سماتها ولهذا لم يكن غريباً أن نجد فيها الأفغاني بجانب الأندلسي والأسباني، والبربري مع المصري، والفارسي مع الرومي، والصقلبي والتركي بحيث لا نستطيع أن نحدد جنساً معيناً إلا في المناطق المحدودة المنعزلة أو في المناطق الأصلية لبعض الأقوام .

على أن المدن الإسلامية وبخاصة في المشرق العربي كانت تصاب بين الفينة والفينة بعواصف ونكبات طبيعية تذهب بجانب كبير من سكانها فالأوبئة والطواعين لم تكن تنقطع عن المنطقة الشرقية مع المجاعات وبخاصة بعد التكاثر السكاني فيها . وكانت هذه الجوائح تضربها دورياً في منطقة بعد أخرى أو تعم أكثر من منطقة أو تجرف في البلوى مختلف الأقاليم . وإذا كان من الصعب تتبع ذلك في كل أنحاء العالم الإسلامي وفي العصور الإسلامية كلها، فإن نموذج ذلك يمكن أن يرى في مصر والشام والعراق فلو أننا نظرنا في الطواعين التي أصابت مصر والشام والعراق في العهد الأموي لظهر معنا -

الجدول التالي الذي ضرب المدن بخاصة بسبب التكاثر السكاني فيها:

الطاعون في الشام	الطاعون في العراق	الطاعون في مصر
في الشام ٦٣٨ - ٦٣٩ م في الشام ٦٧٦ م (طاعون شديد في الشام) ٦٩٨ م (أودى بحياة عدد كبير من السكان) في الشام ٧١٧ م في جنوب الشام ٧١٩ م (فلسطين) في جنوب الشام ومدن فلسطين ٧٤٥ م	في البصرة سنة ٦٣٩ م في الكوفة سنة ٦٨٨ - ٦٩٠ م في البصرة اواسط ٧٠٦ م في العراق الأعلى ٧٠٥ م في البصرة والسواد ٧٣٢ م في البصرة ٧٣٤ م في العراق كله ٧٤٥ م في العراق ٧٦٣ م في العراق الأعلى ٧٧٤ م (وقد جاء مع الجدري والحصبه والنيفوثيريد والاستسقاء). وجرى مثل ذلك في اعوام ٧٧٥ م وسنة ٨٣٦ م وسنة ٨٦٣ م و ٨٧٢ م.	سنة ٦٨٠ م سنة ٦٨٦ م الى سنة ٦٩٠ م سنة ٧٠٤ م سنة ٧٥١ م سنة ٨٣٢ م (واخبارنا عن هذا الافليم شحيحة) في الشام كله ٧٣٣ - ٧٣٤ م

وإذا نحن نظرنا من جهة أخرى في زلازل الشام التي هزت المدن كلها

لوجدنا:

سنة ٧١٣ م	زلزلة في الشام
سنة ٧١٧ م	في الشام حتى انطاكية
سنة ٧٤٧ م	في الشام (وأحدثت اضرارا بالغة)
سنة ٧٤٨ م	في الشام وفلسطين في الشام وفلسطين وهدمت الكثير من القصور الأموية وحدثت زلازل سنة ٨٣٥ م وسنة ٨٤٨ م وسنة ٨٥٦ م وسنة ٨٥٩ م عانت منها سورية بكاملها.

(١) استخرجنا هذه الجداول من مختلف الكتب التاريخية المتعلقة بهذا العصر.



ولو اتخذنا وصول الفاطميين إلى مصر مبدأ لاستعراض هذه الجوائح لوجدنا أن من عوامل نجاحهم في دخول مصر والشام تلك الجائحة التي شملتها أواخر العهد الأخشيدي فعدمت الأقوام وانتشر الوباء تسع سنوات (٣٥٢ - ٣٦١/٩٦٣ - ٩٧١) حتى هلك ضعفاء الناس وأكلوا الجيفة وتساقطوا موتى في الدروب .

وضربت الزلازل المدمرة مرات بعد مرات مدن المنطقة وذهبت بتراتها العمراني خمس مرات ما بين سنتي ٤٢٠ - ٤٦٠/١٠٢٨ و ١٠٦٧ هدمت أقساما من البلاد والجوامع في الشام والقدس والخليل ونصف الرملة وأكثر عكا ودمرت أسوار المدن . وهلك في آخرها ١٥ ألف نسمة وخلال تلك الفترة نفسها نحصي عشر جوائح من المجاعة استمر بعضها سنوات وذهبت بعشرات الألوف من الجوع ودفعت إلى إفتراس البشر . ففي مجاعة سنة ٣٧٠ لا يجد الإنسان في الرملة شيئا يأكله . وعمت المجاعة بلاد الروم إلى خراسان سنة ٣٧٤ ، وتكررت المجاعة سنة ٣٩٥ في مصر ورافقها الجراد والوباء واضطراب النقد . ثم جاءت مجاعة سنة ٤١٠ ، ثم مجاعة ٤١٤ - ٤١٧ التي خرج الناس فيها في مصر ينادون الجوع . . الجوع وهجموا على موائد الخليفة ينحبون . وفيها الألوف في الشام . وعادت المجاعة سنة ٤٤٤ إلى مصر واستمرت تتردد حتى سنة ٤٥٠/١٠٥٨ واشتد الموت والغلاء حتى لقد استجلبت الحبوب من الأندلس ومن بيزنطة . ثم كانت المجاعة الكبرى بمصر سنة ٤٥٧ - ٤٦٣/١٠٦٥ - ١٠٧٢ وهي التي عرفت بالشدة المستنصرية ونهب الناس فيها كل كنوز الفاطميين وجاع حتى الخليفة المستنصر نفسه . وكانت جثث الجوعى تملأ الشوارع .

ثم جاءت ، حتى نهاية القرن الخامس ، ثلاث مع زلازل مدمرة شملت العراق والجزيرة والشام وبعض مصر وانهدم كثير من المدن ، ومنها سور انطاكية (٩٠ برجا هدم منه) ، وهلك تحت الانقاض خلق كثير وترافق

هذا مع المجاعة ومنها المجاعة العظمى في دمشق سنة ٤٦٧ والتي لم تبق من سكانها أحدا وكان فيها ٣٠٠ خباز فبقي اثنان . وجاء الوباء بعد ذلك سنة ٤٦٩ فبقيت الغلات في الأرض لا تجد من يحصدها . وغارت الآبار . وضربت الزلازل بلاد الشام وبعض بلاد الجزيرة سنة ٥٠٨ وسنة ٥١٤ (١١١٤ - ١١١٩) وعانى الناس من الجراد والوباء والزلازل الوبيلات حتى حسب الصليبيون أن نقمة الله حلت بهم . وحملت المؤن إلى عسقلان . وعادت الزلازل سنة ٥٣٢ لكنها بلغت أقصى قوة تدميرية لها سنة ٥٥٢ وأخذت كثيرا من المدن ومنها شيزر التي لم تقم لها قائمة بعد ذلك . وتكررت سنة ١١٧٠/٥٦٥ فهدمت معظم دمشق وبقي تحت الردم ثمانون الفاً، وتهدم حصن الأكراد (قلعة الحصن) وكانت الزلزلة عامة أخربت قلاع المسلمين وبلادهم بالشام ، وبلاد الساحل والعراق وإيران « لم يرى الناس من أول الإسلام مثلها افنت العالم » وعادت سنة ٥٧٠ ورافقها جراد ووباء أهللك عالما عظيما في المشرق كله .

وعادت المجاعة إلى مصر بأقصى أشكالها سنة ٥٩٦ وامتدت إلى الصعيد وإلى الشام ، واستمرت عدة سنوات وعمت الزلازل الدنيا كلها في ساعة واحدة فهدمت أبنية مصر والشام وذهبت بثلاثين ألفا ولم تبق جدارا قائما في بعض الأماكن ، وهدمت صور وعكا ونابلس والجزيرة وقلاع الساحل ، وسقطت شرفات الجامع الأموي بدمشق ، واستولى الخراب على طرابلس وهلك فيها مليون ومائة ألف إنسان . وتكررت سنة ٦٠٠/١٣٠٤ فخربت ما بين صقلية إلى العراق . وعادت سنة ٦٠٤ ثم هدأت عن التردد إلى سنة ٦٠٨ وتركت آثارها في تصدع مدن الشام وهدمت الكثير في مصر كما دمرت منطقة الكرك والشوبك .

وجاء الجراد سنة ٦١٩ ثم سنة ٦٥٠ وأهلك الغلات والناس وردهم إلى المجاعة في العراق والجزيرة ومصر والشام . هذه الجوائح كانت تترك

آثارها في صعود أعداد السكان وهبوطهم وتعب الأوبئة عن انخفاض  
مستواهم الصحي والغذائي . وكانت كثيرا ما تدفع إلى الثورة .

ويضيق المجال لو تتبعنا بالتفصيل جوائح العصر المملوكي في المنطقة  
نفسها فهي لم تنقطع أبدا . وكانت تفرغ أو تهبط بديمغرافية السكان في المدن  
مرة بعد مرة . وزادت كثيرا بعد سنة ١٤٠٠ م . ومنها جائحة المجاعة ٦٩٤ -  
١٢٩٥ / ٦٩٥ - ١٢٩٦) فزاد الغلاء بسبب انخفاض النيل وانتشر الطاعون  
فهو يجرف الألوف كل يوم ولا يجدون من يدفونهم . وكان الطاعون الأعظم  
سنة ٧٤٩ / ١٣٤٩ الذي عم الدنيا كلها وجميع الأجناس والأمم حتى وحش  
البر كما يقول المقرئزي ، وقد سمي في أوروبا بالطاعون الأسود . وكان يموت  
في القاهرة منه ما بين عشرة آلاف إلى عشرين ألفا في اليوم واقفرت المدن من  
سكانها واقفر الريف وعمت الصنائع وتعطلت الجوامع فلا سقاء ولا إمام .

وفي عصر دولة المماليك الجراكسة حدث أن انتشر الطاعون في مصر  
والشام ثلاث مرات أيام السلطان قايتباي ، أشهره ما كان سنة ٨٩٧ / ١٤٩٢  
وفتك بالناس فتكا ذريعا عدة أشهر ومشي حتى الصعيد . وفي طاعون سنة  
٨٤١ / ١٤٣٧ أصاب الطاعون حتى السلطان نفسه بارسباي فحصل له  
ماليخوليا في عقله ، فصار يصدر الأوامر الغريبة . ويذكرون أن مدن المنطقة  
بسبب هذه الجوائح تجددت عشر مرات بعد ذلك ما بين سنة ١٤٠٠  
و ١٩٠٠ ميلادية . وكثيرا ما كان يرافق هذه الأزمات السكانية مظاهر التوبة  
والعودة إلى الله وأراقة الخمر ولزوم المساجد كما جرى سنة ٧٠٩ ، ٧٨١ ،  
٨٣١ ، ٩٢٢ لعل الله يرفق بهم ويكشف عنهم النكبة .

## ٤ - القوة المحركة في المدينة الإسلامية وخصائصها (النخبة أو الأعيان)

إذا نظرنا في البنية الاجتماعية الإسلامية وفي تكوينها الطبقي والعرقي سهل علينا بسرعة أن ندرك أن القوة المحركة فيها ليست الحكام ولا طبقات القاع في المجتمع ولكنها نخبة الطبقة الوسطى التي يمكن أن نسميها «الأعيان» (أو البورجوازية)، والتي تضم الوجوه البارزة في البلاط كما في التجارة وفي الملاكين والأثرياء كما في الكتاب، ومن المسلمين والذمة. هؤلاء هم الذين كانوا يوجهون بصورة مباشرة أو غير مباشرة أمور المدينة ويحددون ذوقها العام. ومع أنها كتلة غير متجانسة فإنها هي التي كانت تبني الزوايا والمساجد والربط وتنشئ المدارس وتستورد «وتصدر» التجارات وتختار أنواعها وتفرض أذواقها على الناس وفنونها ونوع الأدب والثقافة.

يذكر أوليغ غرابار<sup>(١)</sup> خبر لوحة حجرية في متحف القاهرة كتب عليها «بني هذا المسجد المبارك حسن بن عبدالله بن محمد بن سلسلة، تاجر البز، طلبا لرضى الله والأخرة. . . ونخلة هذا المسجد يجب أن تطعم المسلمين فلا تشتري ولا تباع». إن أحدا من المؤرخين لم يسجل اسم هذا التاجر المجهول ولا أين بني مسجده؟ ولكن هذه الكتابة المجهولة، والاسم المجهول، والمكان المجهول، إنما تعبر عن الجماعة التي كانت تشكل روح المدينة وقوتها المحركة. وقد جاءتنا، صفحات من مذكرات رجل هو ابن البناء الحنبلي البغدادي تغطي ما بين شوال سنة ٤٦١ حتى ذي الحجة سنة ٤٦٢ (اب ١٠٦٩ - أيلول ١٠٧٠) وفيها نجد وصفا شائقا للنشاط اليومي لرجل من العاصمة يسجل الولادات، كما يفسر الأحلام ويصلي على الأموات ويرى ما

(١) أوليغ غرابار: المدن والمواطنون (بالفرنسية) فصل ضمن كتاب عالم الإسلام (برنارد لويس)

يجري ويسمع ما يقال . وقد ذكر أنه في ربيع الأول سنة ٤٦٢ (آخر كانون الثاني سنة ١٠٩٦) قامت فتنة بين الجند الترك والمؤمنين المصلين في الجامع ولتهديتها أرسل الديوان جماعة من الفقهاء والأشراف والتجار والأماثل استطاعوا بعد عدة مجالس، قرء القرآن كله في أولها، وخصص الباقي لجمع الأموال التي وزعت المؤن والألبسة على الناس لتهديتها الخواطر.

إن طبقة كاملة من الأعيان هي التي تتحرك في هذا النص (كما في المثات من أمثاله وفي مختلف المدن) ليس لها أي سلطة رسمية ولم تشترك في الفتنة ولكنها تضطلع بدور نشيط، سياسي وديني في إدارة المدينة وأحوالها.

هذه النخبة غير الرسمية والتي تمتلك جانبا كبيرا من ثروة المدينة ومن نشاطها هي الأعيان الذين يتميزون في المدينة الإسلامية بثلاثة ملامح :  
أولها : أن الكثرة الساحقة فيهم هي من التجار ومن تجار النسيج خاصة .

الثاني : أن العلاقة دائمة بين هؤلاء الأعيان وبين الحركة الدينية فلم يكن التشيع ولا الحنبلية ولا الصوفية ممكنة الوجود لولاها .  
الثالث : إنها هي التي كانت تدفع ثمن الفتن والإضطرابات في المدينة سواء من أموالها أو من أثاثها وعقارها .

وبالرغم من النظرة الإسلامية إلى الثورة وتراكمها ومن أن الصوفية نظرت إلى ذلك على أنه شر، ومن أن بعض الكتاب كابن مسكوية نظروا إليها على أنها هوى يضعف الإنسان، فإن المؤسسة التجارية في المدينة كانت تقوم عليها كما تقوم عليها سمعة المدينة وجمالها العمراني وبروز رجالها . ولهذا كان تاريخ المدن في الإسلام لا تاريخ مؤسسات ولا تاريخ أحداث (إلا نادرا) ولا تاريخ أبنية وعمران، ولكن تاريخ أفراد هم من الأعيان دوما . وهذه التواريخ هي الوثائق الأساسية لتاريخ هذه الطبقة . فالمدينة ليست

وسطا فيزيائيا ماديا ولكنها مجموعة تراجم كبار الرجال والأسر فيها . وكتب الفضائل التي أفرزتها المدن إنما تقوم على هؤلاء أكثر مما تقوم على فضل الأرض .

ويظهر أثر الأعيان في تكوين المدينة الإسلامية فقد كانت الأسواق على الدوام هي العنصر الثالث من عناصر تكوينها ، وقد وضعت في مركز المدينة . حتى في المدن القديمة التي لم بينها المسلمون حاولت الأسواق التجارية أن تكون في قلب المدينة بجانب الجامع من جهة وقصر الإمارة من جهة أخرى . ولقد يتعذر وجود دار الإمارة أو حتى الجامع في هذا المركز لكن الأسواق هي التي تظل هناك أي في القلب النابض للمدينة . ولقد أظهرت ذلك الحفريات التي تمت سواء في سيرا ف أو فاس أو الفسطاط تماما كما يظهر ذلك في المدن الباقية كدمشق وحلب وأصفهان وغيرها .

ويظهر أثر الأعيان أيضا في ذلك الكم الهائل من الأدوات والأواني المنزلية التي وصلت من العهد الإسلامي وتمثل مختلف المتاحف اليوم من كراسي القرآن إلى الأباريق وتجليد الكتب . ومن القناديل والجرار إلى الأنسجة والسجاد والسيوف . ومن القاشاني إلى المكاحل والأقراط وقطع العاج وآنية الماء والكؤوس والمحابر ومئات الأشياء الصغيرة من المعدن أو الخشب أو الفخار أو الصور والتزيينات التي تعكس أذواق الأعيان وإرتباط الجو المدني بهم . تكشف كم تلعب دورها في العلاقات الشخصية والاجتماعية الشديدة التعقيد فيما بين جموع هذه الطبقة . ثم إن التزيين المتكرر المتشابه يرمز إلى تساوي الجماعة الإسلامية بعضها مع بعض وإما الصور والرسوم الباقية فليس فيها ملك أو أمير ولكنها صور وتزيينات (على القاشاني أو الخشب أو المعدن أو الورق) تصور حياة الناس العاديين وأحلامهم وبعض قصصهم مع كتابات تصر دوما على إبراز الوجه الديني

لأصحابها مثل كلمات الملك لله، الباقي هو الله، أو بعض الأبيات الشعرية المماثلة.

إن أذواق هذه الجماعات من الأعيان يختلف بوضوح عن أذواق الرسميين «من الأمراء والحكام الذين يعبرون عن أذواقهم الجمالية والاجتماعية في الأعمال العمرانية الكبرى (جامع . قصر . ضريح . .) وفي الأدوات المرصعة بالجوهر أو المصوغة من الذهب . وهذه الأعمال تتجه إلى أن تتشابه وتتوحد فيما بين الأقاليم المختلفة في شكلها العام .

كما كانت لهذه الجماعات في المدينة مكانتها البارزة سواء من الناحية الاجتماعية أم الاقتصادية أم الثقافية لأنها كانت تشارك في رعاية الآداب والفنون . وهي التي تقدم الصدقات والمساعدات للأيتام والفقراء وتشارك في تمويل المشاريع العامة (من مساجد ومدارس وسبل ماء . . .) وتحتضن طلاب العلم المعوزين وضعاف الحجاج المنقطعين وتفتك الأسرى أحيانا كما كان منها ممنونو القصور والسيارفة (الجهابذة) وذوو النفوذ المالي في المدينة والحياة للضرائب وكان منها بخاصة تلك المجموعات التجارية التي تربط المدن بعضها ببعض بالقوافل والمراكب كما تضمن سيولة الأموال العامة فيما بينها بسلسلة من الرسائل والصكوك المتبادلة .

وأخيرا فإن هذه الطبقة هي التي كانت تعطي المدينة لونها الخاص بين المدن . وإذا كان محمد بن علي العباسي وصف المدن في مطلع القرن الثاني بإتجاهاتها السياسية، فإن الجاحظ في أواسط القرن الثالث وصفها من الناحية الخلقية ومن ناحية الاتجاه العام لطبقتها البورجوازية من الأعيان فقال :  
الأمصار عشرة : المرؤة ببغداد، والفصاحة بالكوفة، والصنعة بالبصرة، والتجارة بمصر (الفسطاط)، والغدر بالسري، والحسد بهسرة، والجفاء

بنيسابور، والبخل بمرو، والصلف ببلخ، والحرفة بسمرقند. ويعلق المقدسي على ذلك بقوله: «ولقد صدق لعمرى إلا أن بنيسابور أيضا صناعا حذاقا، وبالبصرة تجارات، وبمكة فصاحة، وبمرو دهاة، وجرجان موضع الوباء، والمروة.. والشام إقليم الأخيار، ونيسابور بلد الكبار.. وبلخ خزانة الفقه مع الرحب واليسار، أفقر.. ولا أدب من أهل هراة.. ولا أذهن من أهل الري، ولا أنقب من أهل سجستان، ولا ابخس من أهل عمان، ولا أحسن من أهل حمص وبخارى، ولا أقيح من أهل خوارزم.. ولا أشرب للخمور من أهل بعلبك ومصر، ولا أفسق من أهل سيراف، ولا أعصى من أهل سجستان ودمشق، ولا أشغب من أهل سمرقند والشاش، ولا أوطأ من أهل مصر.. وكل ما نذكر من عيوب أهل البلدان. فأهل العلم والأدب عنه بمعزل خاصة الفقهاء<sup>(١)</sup>..»

وإذا كان من الصعب علينا اليوم أن نأخذ مأخذ الجد والعلم هذه الأوصاف، الانطباعية التي لا تمت بصلة إلى العلم ولكنها أوصاف وأحكام قيم. ولكن مجرد ذكرها دليل على وجود الفروق بين المدن الإسلامية في السمعة وفي الاتجاه العام. ومثل ذلك ما ذكره المقدسي عن دمشق وأواخر القرن الرابع فبعد أن ذكر أبياتا في هجاء دمشق يقول:

.. وحسن سمت لهم ظاهرا اعلانهم ليس كاسرارهم  
لوجاءهم جار لهم قابسا ما قبسوه الدهر من نارهم  
أسد على الجيران اعداؤهم آمنة تخطر في دارهم

وعلق المقدسي بعد ذلك: وكذب في هذا البيت لأن الاعداء أبدا

(١) المقدسي - أحسن التقاسيم ص ٣٣ - ٣٥ وهو يضع بعد ذلك قواعد أخرى فكل بلد في اسمه صاد فأهل حمى إلا البصرة فإن اجتمع صادان مثل المصبصة وصرصر فنعود بالله.. وكل بلد يحيط به إنهار فإن في أهله شغباً.. الخ.



يخافونهم<sup>(١)</sup> لكن لا تنتهي الأحكام التي يصدرها المقدسي على المدن فهذه «عجيبة الفتن» وأهل تلك «عقلهم سخيّف ولسانهم قبيح» وثالثة «كثيرة الجهل والفسق» وأهل البطائح «نبط لا لسان لهم ولا عقل» وأهل مرو «أهل طنز وخبل يعرف ذلك من عقل...»<sup>(٢)</sup>.

## ٥ - الوعاء الفيزيائي للسكان (المنزل . الشارع . الحي)

لا تنعكس القيم الاجتماعية ولا يظهر الذوق العام في شيء - بعد الفنون والآداب - بقدر ما يظهر في تكوين المدينة . وليست تهمننا المدينة كبناء وشوارع ومنازل ولكن كمستقر للحياة المدنية فيها .

ففي الإطار المادي للمدينة تنعكس صورة النشاطات الحياتية كلها فيها ومدى تأثير القيم الاجتماعية والدينية في هذا الإطار . لقد أذابت المدينة الإسلامية بسرعة المجتمعات القبلية أولا ثم صاغت من كل الأمم التي اعتنقت الإسلام مجتمعا جديدا مختلفا طبقا لتوجهات ومعايير تحدت تدريجيا ومع توالي الأيام في هذا الوعاء الفيزيائي الذي أخذ شكلا خاصا نسميه المدينة الإسلامية .

واهتمامنا بالوعاء الفيزيائي لا يتصل بالفقه وما يمليه من مبادئ بقدر ما يتصل بعلاقات السكان بعضهم مع بعض .

ولقد تأخر الفقه كثيرا حتى ظهرت فيه بنتيجة التجارب الطويلة كتب من أمثال كتاب الماوردي : الأحكام السلطانية ، وكتاب ابن الرامي : الاعلان بأحكام البنيان ، وكتاب الجدار لعيسى بن موسى التطيلي ، وكتب

(١) المقدسي - احسن التقاسيم - ص ١٦٠ .

(٢) انظر المقدسي - المصدر السابق ص ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٨ .

الحسبة للشيزري وابن الأخوة وغيرهما. ولكن الحياة الاجتماعية الإسلامية بقيمها وممارساتها المعاشة كانت قد بدأت قبل ذلك بكثير وتجمعت الفتاوي فيها لتكون التعبير عن المنهج الحياتي للمدينة في الإسلام. وصارت مبادئها، مع الأيام، نوعاً من العرف العام له وظيفة القانون وضغطه والزاميته كما صار تطبيقها سلوكاً عاماً يلتزم به المسلمون حيث كانوا.

المنزلة أولاً هو الخلية الأولى في تكوين المدينة، والأسرة التي تسكنه هي الخلية الأولى في التكوين الاجتماعي. وهذه العلاقة بين الطرفين جعلت من الشكل المادي وعاءاً للفكر الاجتماعي المدني، كما جعلت هذا الفكر يبرز في شكله الجلي من خلال البناء ويخضع المنزل سعة وضيقاً لسعة المدينة ضمن أسوارها، ولحاجة صاحب البيت حسب كثرة أسرته وقلتها. ولقد دار ثروته. الخ. وقد كانوا يوصون أن تكون - أول ما يتباع وآخر ما يباع لأدراكهم أنها ركن المجتمع وشكله المادي.

ويروي الدينوري (القرن الثالث) وصية يحيى بن خالد البرمكي لابنه جعفر حين اختط داراً لبيئتها: «هي قميصك فإن شئت فوسعه وإن شئت فضيقه»<sup>(١)</sup>. بمعنى أن السعة والشكل يتبعان الوظيفة والقدرة المالية. وذكروا أن ابن التوام دخل على أحد البصريين وهو يبني داراً واسعة الذراع واسعة الصحن رفيعة السمك عظيمة الأبواب فقال: اعلم أنك قد ألزمت نفسك مؤونة لا تطاق وعبالاً لا يمتلك مثلهم. ولا بد ذلك من الخدم والستور والفرش على حسب ما ابتليت به نفسك. وإن لم تفعل هجنت رأيك. (٢) كما يذكرون أنه «مر رجل من الخوارج بدار تبني فقال: من هذا الذي يقيم كفيلاً؟»<sup>(٣)</sup> دلالة على الربط بين البناء وحاجة الإنسان.

(١) الدينوري - عيون الأخبار ج ٣ ص ٣١١.

(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣١٢.

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣١٣.

وكانت المنازل خلايا مغلقة وهذه الكلمة مالا ينتهي من التطبيقات الاجتماعية - الدينية الهامة . فالأساس في بناء المنزل هو الستروحمية الخصوصية ، وحجب الحرمات اتباعا لأوامر الدين التي أوضحت قواعد اجتماعية ثابتة تستقى كلها من المبدأ الإسلامي : لا ضرر ولا ضرار . ومن جملة ما نجم عنها :

(١) أن تخطيط المنزل هو الدوام سواء في المشرق أم المغرب موجه إلى الداخل . أي أنه مصمت من خارجه تماما فإن وجدت فيه نافذة للهواء أو النور كانت في أعلى الجدران لثلا تستخدم في الاطلاع على ما في الداخل ، في حين يفتح المنزل في داخله عن سعة للسماء والهواء . وتقوم فيه باحة تكبر أو تصغر يطوقها عدة غرف للنوم . وقد يجري في هذه الباحة الماء - عند توفره - وتزرع بالأشجار للمزيد من الظل ولتخفيف الحرارة وتجميل الداخل . بيوت دمشق أو القاهرة أو تونس أو فاس الأثرية كلها تحمل هذا الطابع الثابت . ذلك أن البيت مملكة المرأة تقضي فيه عمرها كله ، ومن حقها الترويح عن النفس بتحويل بيتها الداخلي إلى جنة .

(٢) وتراقب الدولة - بواسطة المحتسب - عدم الغش في البناء مع تناسب نوع المواد ومقاديرها مع نوع المبنى ، وصدق البنائين في البناء لثلا ينهار على أصحابه .

(٣) أن التوسع الأفقي للمنازل هو القاعدة الثابتة . فالطابق الواحد أو الطابقين هو أعلى ما تصله منازل المدينة الإسلامية بعامة . وقد وجه الخليفة عمر بن الخطاب إلى عدم التطاول في البناء . على أن تكائف السكان في المدن الكبرى مع ضيق المساحة ضمن الأسوار قد يلجئ إلى التوسع العمودي أيضا . وعند ذلك يصل البناء إلى خمس وسبع طبقات كما هو في القاهرة والفسطاط زمن الفاطميين والمهاليك ، وبعض منازل بغداد وفي اليمن وفي المدينة .

على أن التوسع العمودي هذا يترتب عليه مرة أخرى قضية الحفاظ على ستر الحرمات فلا يسمح فيه بنافذة تفتح على جار أبدا إلا أن كانت لا تطل ويقصد بها الضوء والهواء، ولا يسمح بارتفاعه إلى حد الأطلال على الجيران، كما لا بد فيه من عمارة السواتر لأن الجيران قد يستعملون السطوح للنوم فهي من حقوقهم. ومنعت حتى المآذن من الارتفاع إن كان فيها كشف لحرمات البيوت.

وقد ذكروا أن سليمان بن عبد الملك كان يزور مسجد الرسول الأعظم فنزل في بيت جده مروان ورأى نفسه تحت بصر المؤذن في مجلسه هذا فأمر بهدم المئذنة<sup>(١)</sup>. وسئل سحنون الفقيه عن مؤذن ينظر من المئذنة إلى عورات البيوت فأجاب بمنعه من الصعود إليها. ووضعوا لذلك قواعد منها ألا يسمع لغيره بالصعود، وألا يصعد إلا في أوقات الأذان والا يعمن النظر إلى البيوت ولقد فضلوا أن يكون كفيفا مبالغة في الحذر<sup>(٢)</sup>.

وقد يملك المنزل شخصان فلصاحب السفلى على صاحب العلو وبالعكس حقوق وواجبات متبادلة. ويحكم القاضي بكل الخلافات الناجمة عن كل ذلك كما يراعي الأمر نفسه عند الإرث والتقسيم للممتلكات البنائية وعلاقتها بعضها مع بعض بحيث لا تسمح بوجود خلاف بين الوارثين أو المتقاسمين.

(٤) وقد أثر مبدأ الستر على توزيع البناء وتكويناته داخل البيت فغرفة الاستقبال توضع في الغالب وراء الباب، وأما الباب نفسه فيقوم من ورائه دهليز مستور بدوره، أو ممر ملتولثا تقتحم عيون المارة كل البيت من الخارج. وقد كبر الدهليز أو الاستقبال في العهد العثماني ليشكل منزلة

(١) السهمودي ج ٢ ص ٦٢٥.

(٢) السقفي: كتاب في أدب الحسبة (باريس ١٩٣١) وابن الأخوة ص ١٧٦ و ١٧٧.

منفصلين متصلين معا: السلامك والحرمك أي مكان استقبال الناس  
ومكاناً آخر للحريم .

(٥) وأما واجهة الباب فهي في معظم الأحوال بسيطة البناء وقد تزين  
ببعض النحوت أو الكتابات البسيطة . لكن لا يتقابل بابان على محور واحد  
تطبيقاً لمبدأ الستر أيضاً وبسبب ضيق الأزقة .

(٦) وبناء المنازل يختلف حسب الأقاليم لكنه دوماً مغلق من الخارج  
وفيه باحة داخلية تضيق أو تتسع حسب رقعة الأرض وغنى صاحبها .

وقد كشفت حفائر سامراء عن طريقة بناء الدور في العراق في القرن  
الثالث وهي على مثال واحد تدخل إليها من دهليز مسقوف يفضي إلى صحن  
واسع مستطيل يتصل من جانب عرضه بقاعة كبرى، وفي الأركان غرف  
صغيرة، ويحيط بالصحن غرف متجاورات للسكنى . وثمة أفنية صغيرة لمرافق  
المنزل الذي لا يخلو من حمام ومجار أرضية وأحياناً على سراديب تقي من حر  
الصيف كما في أرجان وزرنج وسامراء . والمنزل من طابق واحد لكنه قد  
يرتفع كما في طرابلس والقاهرة وصنعاء إلى أربعة وخمسة وستة طوابق بسبب  
ضيق الرقعة لكنها عموماً لا تجاوز الاثنين . والسقوف عمامة مسطحة الا في  
مناطق الأمطار والثلوج فهي في مثل مدينة أمل مسنمة . وكان تلطيف  
الأجواء فيها يجري في الصيف بالمراوح وأهل بغداد ينامون في الليل على  
السطوح .

ولم تكن الحجرات غاصة بالأثاث . وكانت الصناديق هي مخازن  
الملابس ولا تستعمل الحيوانات للطعام لدى الطبقة المتوسطة فما دونها . لأن  
السماط يمد على الأرض . وإنما ظهر ذكر الأخونة الخشبية منذ أوائل القرن  
الرابع حين اهدى الخليفة لابن الفرات ثلاث موائد وكان ذلك شرفاً وهدية  
كبيراً لكبير .

وقد ابتكرت فيما بعد في بغداد إلى الأندلس ظاهرة النوافذ المثقبة، وهي ظاهرة تحفظ الستر وتمكن أهل البيت من الاطلاع على الشارع والزقاق وعلى الأبواب دون أن يروا كما ابتكرت الشرفات الصغيرة المغطاة بشبك حديدي أو خشبي كثيف مثقب مزخرف وتسمى في مصر بالمشربيات. لكنها كانت في بغداد تفتح في الطوابق السفلى كما في شيراز مما يسبب اصطدام الناس بها كما يتخذها العيارون سترًا للمداراة.

(٧) ويجب أن نذكر أن أنماط البناء المنزلي كانت تتنوع في المدن الإسلامية حسب المواد المتوفرة، وحسب المناخ الجوي، وظروف العصر، وتنوع الأقاليم. على أن ما كشفتته التنقيبات الأثرية في دمشق وحلب والبادية وبغداد وسامراء وقصر الاخيضر وسيراف، ومن المنازل الطولونية والفاطمية في مصر وفي منقباد وفي فاس وتنملل والقيروان والمدينة، وما بقي منها قائما وبخاصة في اليمن، كلها تعطي الانطباع العام نفسه من حيث الأخذ بمبدأ الستر والخصوصية. وهذا المبدأ هو الذي أعطى المدينة الإسلامية واحدة من أهم خصائصها التكوينية. وجانب كبير من تشابه المدن الإسلامية إنما يرجع إلى هذه القيمة الدينية - الاجتماعية الثابتة.

٨ - وقد عرفت بعض المدن الإسلامية الأولى البناء بالقصب وسعف النخل كالبصرة والكوفة لكنها سرعان ما تحولت إلى مواد البناء المتوفرة محلياً سواء كانت من اللبن والأجر (في المناطق السهلية المترية كبغداد وواسط والفسطاط) أو أبي الحجر (في المدن الجبلية والقلاع والحصون والجسور) وقد يستخدم الحجر الجيري (الكلسي) كما في الفسطاط لقرب تناوله من جبل المقطم. وشاهد المقدسي في بلبس مباني من الطين وأخرى من الأجر<sup>(١)</sup> وقد نقل ابن سعيد عن مشاهدة ومعاينة ان مباني الفسطاط كانت بالقصب

(١) المقدسي ص ١٦٥ - ١٦٦.

والطوب الأدكن والنخيل طبقة فوق طبقة وكذلك كانت مباني القاهرة من قصب وطين<sup>(١)</sup> وابنية دمشق كانت من الطين والخشب وقلما كانت من الحجارة الا في الابنية الدينية (كالجامع والمدارس) وقد بنيت بغداد وسامراء باللبن المشوي ذي المقاييس الكبيرة . واستخدم الخشب في بناء القبروان من جذوع الأشجار المحيطة بالموقع وكذلك كان شأن فاس ومراكش .

وكان المسلمون قد يستخدمون بقايا الابنية القديمة في بناء المدن . حاول ذلك المنصور حين اراد هدم ايوان كسرى فكثرت عليه الصعوبات وقال له خالد البرمكي : لا تهدمه لثلا يقال لم يستطع هدم ما بناه غيره .

ولكن تونس بنيت من انقاض قرطاجة وبنيت كثير من ابنية مصر من الآثار الفرعونية كما بنيت الاعداد من ابنية المغرب والاندلس ومدنها من بقايا واطلال المدن الرومانية السابقة ، وقد ربط ابن خلدون هذا العمل بالتدهور العام الذي يصيب المدن عند هدمها في حين جعله تلميذه المقرئ احدى مراحل التطور العمراني إذ يجري خراب العمران بعد كل هزة اقتصادية وما يتبعها من وباء وفناء ويتم بيع الانقاض لقيام بناء جديد .

٩ - النقوش والفنون والتزيين في المنزل الإسلامي سواء بالرخام والاعمدة أم بالنقوش التي تستر الجدران وتزين السقوف كلها داخلية . ومظاهر البيت ليس بشيء وقد يتعمد صاحبه اهماله بعدا عن العيون الجائعة . أما الداخل من الغرف والساحة المكشوفة والايوان فثمة المبالغة أحيانا بالتزيين والألوان وفيها ينكشف مقدار ثروة المنزل وصاحبه .

١٠ - وكان ثمة دوما بيوت تؤجر في مختلف المدن . يروي لنا الجاحظ حكايات مسلية عما كان يجري بين صاحب الدار والمستأجر لها . ولما كان

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٦ .

الخشب عزيز الوجود فقد كانت الرقابة ضرورية على السكان لئلا يذهب بعضهم بخشب الأبواب أو النوافذ أو السقوف .

١١ - وفي الأماكن التي كان الخشب فيها قليل الوجود - وهي كثيرة في العالم الإسلامي القائم على حوافي المناطق الشحيحة المياه - فإن الاثاث الخشبي كان نادرا في مصر وجنوب الشام والعراق وبعض المغرب، وقد استعاض الناس عن الطنافس والبسط وحشيات الصوف والقطن على الأرض، أو بالدكك المبنية في البناء نفسه . ولأكل كما للنوم (المساطب) .  
واتبع البناء الإسلامي ضرورات المناخ في البلاد الممطرة الرطبة فكانت سطوح المنازل مائلة والدار أكثر انغلاقا واحكاما كما في مدن الأندلس .

١٢ - وكان في البيوت نظام خاص للتهوية والتبريد منتشر في المشرق وبغداد كما في مصر حيث يسمى بالملاقف وهو - كما تدل النقوش - نظام فرعوني قديم ظل مستخدما حتى عهد قريب . وقد استلقت نظر عبد اللطيف البغدادي (أواخر القرن السادس) في مصر فكتب ان المصريين يجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة وقلما نجد منزلاً الا وفيه (بازاهنج) وبازاهنجاتهم كبيرة واسعة . للريح عليها تسلط . . . «<sup>(١)</sup> والكلمة فارسية تعني منفذ الهواء في اعلى المنزل بشوق الريح الرطبة من فتحاتها الى القاعات والايوانات كأنها نوع من تكييف الهواء . . . ويضيف البغدادي «انهم يحكمونها غاية الاحكام حتى انه يقوم على عمارة الواحد منها ما بين مائة الى خمسمائة دينار . . . وان كانت باذهنجات المنازل الصغيرة يعزم على الواحد منها دينار . . . » ولانزال نشهد نماذج منها في المدرسة الكاملة وخاتعاه ببيرس الجاشنكي في القاهرة .

(١) البغدادي : الاقادة والاعتبار ص ٣٨ وانظر الخفاجي ، شفاء العليل ص ٤٧ حيث يذكر ان كلمة باذاهنج معرب بادكبر وأنها على هيئة اسطوانة لها فتحة من الجهة الغربية يدخل منها النسيم فهي راووق النسيم .



١٣ - ولعل أهم ما يميز المنزل الاسلامي هو وجود الصحن فيه او الفناء المكشوف (كما في الجوامع) لكنه كان يتوسط البناء الذي تطيف كتلته به وتطيف معها الوحدات البنائية سواء كانت رئيسية ام ثانوية . فالصحن هو الوحدة الهامة التي تجمع المنزل حول مركز واحد وهو نواة التصميم لجميع العماير لأنه يؤدي عدة وظائف فهو يلطف حدة النور ويرشح الهواء من الغبار ويخزن بسبب انغلاقه الدفء في الشتاء والرطوبة في الصيف ويمنع مرور التيارات الهوائية ويصلح لزرع الأشجار التي تمنح الظل والجمال في داخل المنزل . . وكثيرا ما يحتوي في المدن الغزيرة الماء كدمشق وقرطبة مثلا على احواض مائية جارية بالاضافة الى انه مرتع الاطفال الامين ومجال التحرر من عيون المارة والجيران .

وكانت المنازل تبنى - على ما ذكر عبداللطيف البغدادي - كما يبنى غيرها من عمائر الحصون والقصور والسدود والقلاع والقناطر بواسطة مهندسين لا سيما اذا كانت من الابنية الكبرى وقد اشاد بهندستها وتربيتها وبراعة بنائها . وقال انهم اذا ارادوا بناء ربيع او دار ملكية او قبة استحضر المهندس وفوض اليه العمل ، فيعمد الى العرصة ، وهي تل تراب او نحوه ، فيقسمها في ذهنه ، ويرتبها حسبما يقترح عليه . ثم يعمد الى جزء من العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ثم يعمد الى جزء آخر . ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكامل الاجزاء من غير خلل ولا استدراك<sup>(١)</sup> ولهذا تكون المباني الاسلامية اجنحة مستقلة او مقسمة الى عدة مساكن كل مسكن كامل بجميع لوازمه وهي طريقة تمكن من الاستفادة الجزئية من المبنى ومن حماية المباني من هبوط الأرض بها . وقد اوضح البغدادي الطريقة في بناء الاسس في المناطق التي يتسرب فيها الماء كما في

(١) البغدادي : الافادة والاعتبار ص ٥٢ .

مصر وبغداد وذلك انهم كانوا يحفرون الآبار وينزلون فيها جذوع شجر الجميز المتين مع الأحجار فكلما نزلت نرحوا من حولها الماء حتى تستقر ثم يقيمون أسس البناء عليها بعد ردمها المتين .

ونخرج من المنزل إلى الأزقة والشوارع لنجد :

(١) أن الأزقة ضيقة وغير منتظمة بشكل عام والسبب أن الأسوار تضع المدينة في قالب حديدي . وبخاصة في فترات الأزمات . وحين يؤمن الناس فإنهم يتجاوزون الأسوار وتبنى عند ذلك منازل من ورائها قد تتحول إلى أحياء سكنية كما في دمشق والقاهرة وفاس وقرطبة والقيروان وبغداد . وهذا الضيق في الأزقة قد يسمح بسهولة الدفاع عنها في الأزمات أيضا وبسهولة التنظيف فالضيق ليس شرا كله وقد يعين على سهولة التعاون بين الجيران وزيادة الترابط بينهم .

وقد تكون الأزقة غير نافذة وعند ذلك يقوم حق الإرتفاق حكما بين المتخاصمين على المرور في الزقاق إن وجد تحاصم ، ويقوم حق الشفعة عند البيع للاحتفاظ بالتعاون الاجتماعي وبالتركيبة الاجتماعية للسكان .

٢ - ولا تفتح الحوانيت في الأزقة في مواجهة أبواب المنازل صيانة لمبدأ الستر، ولثلا يكون الحانوت مجمعا للعيون الراصدة . ويسمح بالحوانيت في الشوارع المتوسطة والكبيرة فثمة الأسواق العامة .

٣ - فإذا وصلنا إلى الشارع وهو شريان الإتصال في المدينة وجدناه يميل أكثر فأكثر إلى الإستقامة ويعرض حتى يبلغ حسب الشرع سبعة أذرع . لكن ليس يعني ذلك أن هذا الرقم قد احترم فقد يزيد في العرض أو ينقص عن ذلك ، وإنما حدد عرضه بمقدار مرور جمل بحمولته في راحته . ولما كان الماء ضروريا للمدينة كانت الروايا هي التي تلزم بتوسعة الشارع ، أما في

الأزقة الأضيق فالروايا على الحمير ويتوغل السقاؤون على القرب في الأزقة الضيقة .

٤ - وتلاصق البيوت في المدن الإسلامية تلاصقا كثيفا بسبب ضيق مساحاتها ولسهولة الحماية لها عند تقارب الأبواب والسطوح . وكثيرا ما تكون المنازل المتقاربة من أملاك مجموعة أسرية أو قبلية واحدة تطبيقا وتسهيلا للقيام بواجب صلة الرحم . ويكون ذلك في الغالب في أعقاب إنشاء المدن الجديدة أو سكنى المدن القديمة لكنه يتغير بعد ذلك بالإرث والبيع والهدم فيتغير التركيب السكاني للزقاق أو للحي الذي يرتبط به وقد لا يحتفظ الزقاق أو الحي من ذكرى سكانه الأوائل إلا بالاسم .

٥ - وشوارع المدينة الإسلامية لم تكن مصدراً للضوء والهواء بالنسبة للمنازل فالاعتماد الكلي في التهوية والاضاءة على فسحة المنزل الداخلية واما الشوارع فوظيفتها الاتصال اي للسير، ولرور الدواب بالأحمال وللبيع والشراء في دكاينها على الجانبين . فضيقها وتعرجها وسعتها إنما يحكمها مقدار الحاجة الى ذلك، والرغبة في تقليل مساحة الأوحال في الشتاء والتراب في الصيف، وضرورات التنظيف والرغبة في زيادة الظل . ولهذا كانت مسقوفة حيث يتكاثر الناس في المدن اي في الاسواق والقيساريات .

وقد خضعت الشوارع - وهي في الاعتبار ملك للسلطان - لاشراف المحتسب الذي يصلحها ويجدد ارضفتها ويؤدب من يحاول العدوان عليها لتقوم بوظائفها، كما يضمن نظافتها وحراستها ليلاً . ولهذا لم يكن المحتسب ليسمع بل انه ليهدم حتى المسجد اذا بني على مرافق الطرق كما يمنح المصاطب فيها لثلاث ضيق على المارة<sup>(١)</sup> ويمنع الباعة من الجلوس في جوانبها او

(١) النصيبي : (محمد بن طلحة القرشي الوزير) العقد الفريد للملك السعيد (القاهرة سنة ١٢٨٣) ص ١٧٦ ، وابن حبيب البغدادي الاحكام السلطانية ص ٢٤٤ .

وضع الامتعة والمواد فيها . وكان الورعون لا يشترون شيئاً ممن قعد على الطريق ليبيع<sup>(١)</sup> ولا يسمح للبيعة المتجولين بدخول الحارات والطواف على البيوت حفاظاً لحرمتها<sup>(٢)</sup> .

٦ - ولم يكن مبدأ «احياء الموات» مطبقاً في الزراعة فقط ولكن في المدن ايضاً وذلك بالبناء والتسقيف لأنه اول كمال العمارة التي يمكن سكانها<sup>(٣)</sup> والبغدادى (عبد اللطيف) يذكر عن اهل مصر والقاهرة انهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً من مصلحة كما ان للمحتسب حق التدخل لهدم الاماكن المتداعية للسقوط وحق التدخل في ارتفاعها .

وكانت بعض المنازل التي يقيمها الكبراء ، عدا قصور الخليفة والوزارة ، شديدة السعة يصلح فناؤها لحظ الرجال وبل الطين ووقوف الدواب ولبعضها بابان لدخول السكان والحيوان . وقد بلغ من سعة دار آل مروان في الفسطاط ان كان يطلق عليها اسم المدينة وهي الدار التي شيدها عبد العزيز مروان ، شقيق الخليفة عبد الملك سنة ٦٧ وكان يصب لسكانها كل يوم ٤٠٠ راوية ماء . وقد اشتملت على خمسة مساجد وعلى حمامين واكثر من قرن<sup>(٤)</sup> وبلغ من كثافة السكان في بغداد أو الفسطاط ان صارت الابنية تذهب علواً الى ثلاثة او اربعة طوابق وبعضها كان في مصر يبلغ مسبقه طوابق كالمناثر ويسكن الواحدة اكثر من مائتي نفس .

(١) ابن الحاج : المدخل ج ٤ ص ١٠١ وابن الإخوة : معالم القرية ص ٧٨ واحمد سعيد المجيلدى : التيسير في احكام التسعير ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) ابن حبيب : الأحكام السلطانية ص ١٦٩ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ١٣٠

(٤) المقدسي : ص ١٩٨ .

٥ - وفي إطار العلاقات بين البيوت المكتظة لا بد من مراعاة بعض الآداب العامة : فلا تفتح الميازيب على الأزقة مثلا، وتسئل البيوت عن الأقدار الموجودة أمامها. كما أن من الآداب الاجتماعية في المدينة الإسلامية عدم اطلاق الدخان، وسد مصادر الروائح الضارة. وعدم تلويث الماء الجاري إلى المنازل المجاورة.

٦ - ويشع كثافة المنازل ضرورة إنشاء بعض المرافق المدنية كالمسجد أولا ثم الحمام والسوق والكتاب (المسيد) وهي تزيد في ضيق المساحة السكنية وقد تلجأ إلى خارج أسوار المدينة والأمثلة على ذلك لا تحصى.

٧ - في الشوارع والساحات الفراغ فيها تظهر بخاصة سلطة المدينة ووظيفتها. وللمدينة الإسلامية منزلة كبرى في ثقافة المجتمع الإسلامي بحيث نستطيع القول أن الريف مهمل عامة في الفقه الإسلامي بالنسبة إلى ما خصص فيه للمدينة، فكل بحوثه محدودة في إطارها. والشوارع أوعية أساسية للنشاط الاجتماعي فيها والسياسي أيضا والاقتصادي. وهناك تقوم بصورة أساسية سلطة المحتسب وعمليات التبادل التجاري والتعليم الحرفي وترتبط العلاقات والاتفاقات.

ونصل أخيرا إلى «الحي» في المدينة. ومجموع الأحياء هو الذي يكون المدينة. ويختلف عدد الأحياء في المدن من مجرد حيين أو ثلاثة إلى خمسة عشر وعشرين حيا في المدن الكبرى. وهذه الأحياء إنما تمثل عملية التوسع السطحي للمدينة وعملية التوضع الجانبي للمنازل بعضها بجانب بعض. وبعض الأحياء كما في القاهرة وبغداد وقرطبة يبلغ في السكان خمسة عشر ألفا أو يزيد. والظاهرة الأساسية في الحي في المشرق والمغرب هي أنه يشكل وحدة داخل المدينة، بمعنى أنه قد يغلق بباب خاص به، وهو في داخلها. كما في فاس والقاهرة ودمشق. أو بأسوار كما في قرطبة وبخارى. ويساعد ذلك على أمن الحي وعلى قدرته الدفاعية للصمود ريثما تصل نجدة عند احتلال

المدينة . كما أنه يساعد على رقابة الآداب العامة وترابط المجموعة السكانية التي تقيم فيه . وغالبا ما كان أهل الذمة يجتمعون في حي خاص بهم خوفاً من الأزمات ونرى ذلك لا في المدن الكبرى فقط كقرطبة والقاهرة ودمشق وتبريز واصفهان ولكن في المدن الأصغر كالموصل وحلب ومدن الأندلس الأخرى .

هذا إلى أن الأحياء قد تناوأت ، لاسيما تلك الأحياء التي تكونت بشكل مذهبي كالسنة والشيعة في المدن الكبرى ، أو الشوافع والحنابلة (كما كان يجري في بغداد) . لاسيما وأن الأحياء في التكوين المدني للمدينة ظلت حتى وقت متأخر (حتى القرن الرابع) واضحة القسمة : فالمركز في المدينة للجميع وأما الأحياء فغالبا ما كانت لجماعات معينة (قبلية أو من حاشية الحكام ، أو جندهم ، مقسومة بين الوجهاء والموسرين وبين العامة . وفي الحي سوقه ومساجده ، لكن الصناعات الثقيلة (كنحت الأحجار) أو ذات الروائح السيئة (كالمصايغ والدباغة) أو الملوثة (كالقواخير) كانت تطرد إلى خارج الأحياء أي إلى خارج المدينة عمليا في الربض .

وخطة الحي المستقل الذي يغلق عليه ليلا بابه ، ضمن المدينة ، زيادة في الأمن كانت خطة شائعة لاسيما في المغرب والأندلس ومصر والشام . يقول ابن سعيد «بلاد الأندلس لها دروب بإغلاق تغلق بعد العتمة ولكل زقاق باثت (حارس ليلي) فيه . له سراج معلق . وكلب يسهر . وسلاح معد . وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم وإعيائهم في أمور التلصص إلى أن يظهروا على المباني الشديدة ويفتحوا الإغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوفاً من أن يقر عليهم أو يطالبهم بعد ذلك . . .»<sup>(١)</sup> .

(١) هلال الصايغ - رسوم دار الخلافة ص ٨ من النص .

ولما كانت المدينة للأحياء وكانت المدينة للأحياء وكانت مساحتها محدودة فإن ثمة أحياء خارج المدينة للأموات هي المقابر. وكل المدن الإسلامية تخرج موتاها خارج المدينة فلا يكاد يقبل فيها إلا بعض اضرحة الصالحين والأولياء. لذلك كانت المقابر ببساطتها وعريتها الكئيب أول ما يواجه القادمين إلى المدينة. وغالبا ما تكون مواقعها وراء الأسوار مباشرة لسهولة زيارة الأحياء للأموات في المواسم.

## ٦ - حياة الأسرة العامة وحياة القصور

ضمن هذا الوعاء الفيزيائي المدني كانت تعيش الأسرة المسلمة وحافظت قرونا طويلة على وضعها الطبوغرافي والسكني. وقلما عني الكتاب بالحديث عن حياة الأسرة، ولكننا قد نستطيع رسم صورة لها من خلال ضباب العصور والتقاليد التي ما يزال معظمها موروثا فيما بيننا.

فالأسرة الإسلامية أسرة أبوية بمعنى أن السلطة المطلقة فيها للأب (وقد استتبع هذا أو توافق مع أن يكون السلطان بدوره مطلقا للأمير أو الحاكم). فما هو خارج الدار فهو من مملكة الرجل وما كان في داخلها فهو من مملكة المرأة. على أن الكلمة الأخيرة للأباء وقد يضم المنزل زوجات الأبناء والأحفاد فيتبعون قرار رب الأسرة. وقد نذبت الزوجة حتى في القرآن الكريم للترين لزوجها ﴿ولا يسدين زينتهن إلا لبعولتهن﴾ وندين للتطيب<sup>(١)</sup>. وكانت ملابس النساء في جميع المدن متشابهة وهي قميص واسع طويل بأكمام واسعة عليه أزار يغطي جميع البدن، أبيض اللون. ولبست النساء في العصر المملوكي الطواقي والعمامة ولكنهن منعن من ذلك بأمر

(١) غويتاين : التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية (ترجمة عطية القوصي الكويت ١٩٨٠) ص

سلطاني . وكان بعضهن يزخرفن العمام والبطاقي بالذهب والحرير .

وقد أكثر بعض فقهاء العصر المملوكي من نصح النساء بإستكمال زينتهن داخل المنازل بتسريح الرأس وتزيين الشعر والتطيب للزوج «حتى يطيب قلبه» . ورغم ما شاع من أمر تعدد الزوجات فإنه لم يكن متاحا إلا للقلة من الطبقة الثرية والإرستقراطية ، ولا يمكن من الوجهة الحسابية تصور حدوثه على نطاق واسع في مجتمعات مستقرة يفترض أن يتساوى فيها عدد النساء والرجال . على أننا يجب ألا ننسى أن كثيرات منهن كن يشاركن الرجال في العمل بالشوارع ، كما زخرت الأخبار عنهن بالخلاعة والتحرر وغالبا ما يباشرن دون الرجال شراء حاجات البيت من طعام وملابس ، أو يذهبن إلى الحمامات والأعراس التي لا تنضبط فيها الأحكام الشرعية ، أو إلى المنزهات ويخلعن ستر الحياء ، أو إلى المقابر حيث يختلطن مع الرجال .

وابتداء من الأسر المتوسطة يبدأ ظهور العبيد والجاروي في الدور للخدمة ويزداد عددهم مع ازدياد الغنى . وبعض الجاروي كن للمتعة أما معظم العبيد فكانوا لمختلف الأعمال المنزلية . والطابع المنزلي الأساسي للرق في الإسلام واضح . إذ اعتبر العبد وكأنه أحد أعضاء العائلة مما يجعله ينسى ما يربطه بمسقط رأسه . ولكنه ظل على العموم كائنا بائسا ومتأخرا . ومتى اعتق صار فردا من أفراد المجتمع الإسلامي . ولم يكن العبيد يكلفون الأعمال الزراعية الا استثناء في منطقة السواد ، حيث كانت ثورة الزنج المعروفة أما في سائر المدن الإسلامية فكانوا أدوات عمل منزلي أو حرفي . وعتق الرقبة أمر مرغوب فيه في الإسلام ينفذه المسلم إن وقع في بعض الخطايا الدينية .

أما الاحتجاب فكان متمما لخصوصية البيت وستر الحرمات فيه . وكان محدودا في مطالع الإسلام ثم ازداد وانتشر بسبب اصطناع الجواروي زي



الحرائر. فازداد الحجاب كبرا وسترا ولونا لدى الحرائر ليفترقن بذلك عن الجوّاري السافرات فلا تقنحمن الأعين. فهو رمز أرسقراطية مالمبث أن انحدرفف الزمن المملوكف والعثماني لفسبح سبنا من القماش. وعلى أفر حال فقد كان الحجاب من صنع المدينة الاسلامفة. لأن الرفف ففبب تعمل المرأة مع الرجل فف الزرع لم فكن فابف له إلا قلفلا.

ولما كانت معظم الأسر فف سباق مع ضغوط المعفشة فقد كان الكفر من الآباء ففضلون فف مآلف المدن أن يعمل الآباء بدل أن. . . فف تعلموا. وكان التعلفم ترفا لا فطفقه إلا المآفنون له (أبناء الكتاب وأبناء الفقهاء والتجار وأبناء القضاة والمآفنفن)، أما الباقون فكانوا أمفل للاستغناء عنه ففبب فف الطبقات العلفا. فالمتعصم مثلا وهو ابن الرشفد كان أمفا لأن آباءه لم ففصور أن فعبه للآلافة، والتاجر الحموف الذي اشترى فاقوتا كان أمفا فاشترى العبد وعلمه لفكون كاتبا له. وإنما انآفرت مهنة معلمف الصبفة الكآتابف فف المغرب (المسفد) كما فف المشرق لأن بعض الطبقة المتوسطة كانت تستغنف عن الآهود المبكرة لابنآها سنة أو سنتفن لفسطفعوا قراءة القرآن وحبفظه والإمام بشفء من الحساب والآلف. وكآفرا ما كان الآباء أنفسهم فقومون بهذه المهمة أما المسورون فكانوا ففهدون بابنآهم إلى بعض المؤدبفن.

ولنلاحظ أن هذه الطبقة المتوسطة ظهرت ببطء فف المائة والآمسفن عاما الأولى من التاريخ الإسلامف، وبرزت إلى الضوء فف نهاية القرن الثاني. وأصبحت طبقة معتمدة آلال القرن الثالث، وأكدت ذاتها كعامل قوي هام اقآصادفا واجآماعفا آلال القرن الرابع. ولكنها لم فتنظم كطبقة أبدا فف آسد واحد منظم، ولم آحرز أبدا أفر نشاط سفاسف برغم أن أفرادها شغلوا المراتب الأولى فف الدولة. والفآرة ما بفن القرن الرابع والآماس التي شهدت أوج بورآواذفة المدن الإسلامفة ففمفز بالنفوذ الكامل لطائفة الآند الممالفك الذين كان غالبهم من الترك. . . وقد قام رجال هذه الطبقة بدور كبرف فف إنماء

التشريع الإسلامي . وكانوا عصب الإسلام والمنظمين لاحاديث الرسول ومفسري القرآن الكريم والعقيدة . . . »<sup>(١)</sup> .

ومن الصعب تقدير تكاليف المعيشة للأسرة في هذا العالم المترامي من المدن ، ولكن البناء عند بناء بغداد (القرن الثاني) كان يتناول بين الدرهم والدرهم ونصف يومياً في وقت كان فيه الدينار يساوي فيه ١٢ درهماً . وكان ثمن الشاة يساوي درهمين ونصف الدرهم .

ويذكرون أن الرجل من عامة الناس كان يكفيه هو وزوجته أيام الرشيد ٣٠٠ درهم سنوياً<sup>(٢)</sup> ، ويذكر التنوخي (من القرن الرابع) في بغداد أن الباعة المتجولين قد يبيعون بدرهمين في اليوم وقد يصل أجر المعلم إلى درهمين أو ثلاثة في اليوم أيضاً<sup>(٣)</sup> . أما الطبيب الذي يعالج العامة فيصل أجره إلى أربعة دراهم يومياً<sup>(٤)</sup> وقد يصل دخل بعض العامة إلى الدينار (١٢ - ١٣ درهماً) في اليوم<sup>(٥)</sup> علماً بأن بناء بيت متوسط حسن كان يكلف ألف دينار . وفي القرن الخامس استأجر صانعاً زجاج عاملاً لمدة عام في القسطنطينية على أن يدفع له خمسة دراهم يومياً مع وجبة غذائية بمبلغ درهم . وعامل البناء كان في القرن السادس يتناول خمسة دراهم ووجبة غذائية قيمتها درهم وربع الدرهم . والعامل الماهر في القرن السادس يتقاضى ما بين ٤ إلى ٦ دراهم مع وجبة غذاء . في حين كان العمال المتدربون والصبيان يتقاضون ما بين درهم ونصف إلى درهم وثلاثة أرباع الدرهم بدون وجبة غذاء . هذا كله يعني أن الصناع المهرة كانوا يحصلون على دخل شهري يزيد

(١) التنوخي نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) حنز: الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٣) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٣٤ .

(٤) ابن مسكويه / تجارب الأمم ج ٢ ص ١٩٧ .

(٥) الدوري / تاريخ العراق الاقتصادي ص ٢٠٩ .

في المتوسط على دينارين وهو ما تحتاجه أسرة من الطبقة الدنيا شهريا وتنخفض متوسطات الدخول الأخرى عن هذا الحد الأدنى<sup>(١)</sup>.

وتختلف الصورة كثيرا حين نتقل إلى حياة القصور ونقصد حياة الطبقات العليا من المجتمع وهي قوى الضغط وقوى المصالح فيه . وهناك لاحد للترف والبذخ والمقتنيات الثمينة . حياة الأسر العامة كانت حياة الأكثرية الصامتة العاملة . وأما حياة القصور فكانت حياة الطبقات العاطلة من المجتمع وصورتها هي الصورة المأخوذة عن العصور الإسلامية الأولى من عباسية وفاطمية لأن الكتاب لم يرووا غيرها لشذوذها وغرابتها وما فيها من مشير للأحلام . وهي على أي حال صورة . . الحياة الأقلية محدودة لا تمثل حياة المدينة الإسلامية وإن كانت تمثل حياة جانب محدود جدا من مالكي الثروة فيها من الخلفاء والوزراء والأمراء وكبار الدولة يلحق بهم ويقلدهم كبار الموسرين .

وتزخر كتب الأدب خاصة وكتب الأخبار والتاريخ بما روى من الأحاديث عن هذه الحياة الباذخة ، على أننا لا ننتبه إلى أن معظمها إنما يجري في العواصم الكبرى فقط (كبغداد خاصة والقاهرة وقرطبة) . وأحيانا في بعض المدن الأخرى وفي مناسبات وعهود محدودة . ذلك أن تدفق الأموال من الإمبراطورية الواسعة على بغداد وما قاسمتها عليه قرطبة ثم القاهرة كان من الوفرة بحيث يسمح بالغرق في الترف وعلى الأصح بغرق كبار القوم في الترف هم ومن يعيشون على فتات الموائد حولهم من شعراء وعلماء وأهل بلاط . وإذا سمعنا كلمة «اعطه الف دينار» تتردد آلاف المرات في آلاف الأحاديث والأخبار فليس يعني ذلك أن كل الناس قد نعموا بذلك الخير الفياض ولكنها أموال تتجمع من الأفاق بسهولة في بؤرة معينة فيجري

(١) غويتاين المصدر السابق ص ١٨٥ - ١٨٦ .

انفاقها بالسهولة نفسها في وجوه لا تنتهي من الإنفاق المسرف . ولا تدل هذه الثروات الهائلة التي كانت تتداولها أيدي الخلفاء والكبراء والأمراء على الفائض المالي الذي كانت تنعم به الأمصار الكبرى (كبغداد في عزها والقاهرة في أوجها وقرطبة في قمة مجدها) وعلى ما ينعم به الأمراء في المدن الهامة في الأقاليم المختلفة كنيسابور ومرو والموصل وحلب والقيروان وفاس وغيرها ، ولكنها تدل أيضا على مقدار المبالغة في ابتزاز الضرائب والتفنن في ابتكار مواردها . فهي ليست فوائض عن مستوى المعيشة العام لعامة الناس ، ولكن جانبا منها كان نتيجة المظالم التي يضعها بعض الأمراء على الرعايا فتتراكم . وقد يأتي أمير معتدل (كنور الدين محمود بن زنكي) فيخففها عن الناس ، لأسباب دينية وسياسية .

ولنلاحظ أمرا هاما هنا هو أن ثروات القصور لدى الخلفاء والكبراء لم تكن تتضخم إلا في العهود التي يبلغ فيها النشاط الاقتصادي أقصاه (في القرنين الثالث والرابع العباسيين) ، وفي القرنين الرابع والخامس بالنسبة للفاطميين ، وفي القرن الرابع بالنسبة لأموي الأندلس ثم العهد المملوكي في مصر . أما في العهود الأخرى فكان نقص الموارد يدفع بالضرورة إلى الاقتصاد في الإنفاق أي إلى خمود الحديث عن هذه الثروات الفائضة واستخدامها في العمران وامتلاك الرقاب وفي الهدايا الفخمة واقتناء النادر من الجوهرة الأنية السلاح . وإن لم يكن يدفع إلى الاختصار في الملابس المزركشة والأثاث المترف والموائد الفاخرة فقد كان ذلك من لوازم الملوك والكبراء والأمراء . . . وبيوت الكبراء أو قصورهم قد تصل تكاليف بنائها إلى ٣٠٠ ألف دينار (كبيت الوزير ابن الفرات) .

وكان تنامي الثروة وبالتالي تنامي الترف يجري تدريجيا ، فلم تكن حياة الترف في العصر الأموي قد بلغت حدها الأعلى ومع ذلك فإن مجموعة القصور التي بنوها في بادية الشام شاهد على مذهبهم في البذخ . فقصر الحير

العزلي مثلا، وقصر المشي وقصير عمرة الباقي برسومه الكاشفة، وبناء الجامع الأموي وقبة الصخرة ومسجد الرسول الأعظم قد استنفذ من الأمويين الكثير من الثروة. ولكنه على أي حال أقل بكثير مما توفر لخلفاء بغداد ورجالها من الأموال منذ المنصور حتى المعتصم. وقلائل هم الذين تعففوا عن الاستمتاع بالخليفة المهتدي الذي حرم الغناء والشراب وجميع وسائل اللهو، وبني قبة يجلس فيها للمظالم وأكثر من الصدقات. فتكاليف المنشآت في عهد المنصور - كما روى الخطيب البغدادي بلغت أربعة عشر مليون دينار وثلاثة وثمانين ألف درهم<sup>(١)</sup> وليس ذلك إلا لقصره داخل بغداد. وفي قصور البرامكة كانت الدراهم تكوم أكواما فيراها الرشيد، ومجالس اللهو والغناء تنوالى ويتنافس الكبار في شراء الجوارى والمغنيات. وبني المعتصم سامراء فإذا بالمتوكل يبني فيها تسعة عشر قصرا بلغ ما انفق في بنائها أربعة وتسعون مليون درهم<sup>(٢)</sup>. وانفق على مشروع النهر الذي فشل عشرة ملايين، وبني في قصره (البرج) منها بركة عظيمة بصفائح الفضة وفي وسطها شجرة من الذهب فيها كل طائر يصفر مكلل بالجوهر. وفي القصر سرير من الذهب عليه صورتا سيفين كبيرين. وحلى حيطان القصر بالسيفساء والرخام والذهب<sup>(٣)</sup>. وزاد الخلفاء من بعده قصورا أخرى عديدة في سامراء ثم في بغداد حين عادوا إليها ومن ذلك قصر التاج وقصر الثريا.

وقد وصف الخطيب البغدادي دار الشجرة في بغداد قائلا: «إنها كانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم عليها اطيوار مصنوعة من

(١) الخطيب / تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) اليعقوبي ج ٢ ص ٤٩٢ والطبري ج ٢ ص ١٨٣٤.

(٣) الشابشي / الديارات ص ١١٣.

الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها» وقال أيضا: <sup>(١)</sup> أن عدد الستور التي علقت على حيطان دار الخلافة حين زارها رسول ملك الروم بلغ ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج، أما عن البسط التي مدت فكان عددها اثنان وعشرون ألفا، ويقول هلال الصابي: إن خدم الخليفة المقتدر يومذاك وقضوا على طبقاتهم وبملا بسهم في جميع الدهاليز والممرات والصحون، وعليهم الثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمواكب الذهب والفضة والأسلحة <sup>(٢)</sup>. وكان للمقتدر حوالي ١١ ألف مملوك من الصقالبة والروم والسودان عدا عدد كبير من الغلمان الحجرية. وكان للخليفة المكتفي عشرين ألف غلام دارية (للدار) وعشرة آلاف من السودان والصقالبة <sup>(٣)</sup>.

وجلس أصحاب الخليفة الراضي معه على بعض الأجر وهو يراقب بعض الأبنية وحين أرادوا الإنصراف أمر لكل منهم بوزن أجرته ذهباً <sup>(٤)</sup>.

وذكر هلال الصابي أن دار الخلافة اشتملت أيام المكتفي بالله على عشرين ألف غلام دارية وعشرة آلاف خادم سوداً وأربعة صقالبة بيضاً وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وألوف من الغلمان الحجرية. وكانت النوبة ممن يرسم بحفظ الدار من الرجال المصافية خمسة آلاف رجل ومن الحراس اربعمائة حارس ومن الفراشين سبعمائة فراش... <sup>(٥)</sup>.

وعلى الرغم من الموقف المناوي الذي وقفه الفقهاء عامة والمتصوفة ضد اقتناء الثروة وتكديسها، ومن الإسراف في الانفاق فإن كبراء الدولة لم

(١) الخطيب المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٤.

(٢) هلال الصابي / رسوم دار الخلافة ص ١١ و١٢.

(٣) المصدر نفسه ص ٨.

(٤) التنوخي / نشوار المحاضرة ج ١ ص ١٤٥.

(٥) نص لابن سعيد، في المغرب (القسم الضائع) نقله المقري في نفع الطيب، ج ١ ص ٢٠٤.

يكونوا بأقل ثروة واسرافاً. ولم يكن الأمراء وبخاصة في العهد البويهبي دون الخلفاء في الثروة والبذخ، فقد بلغت ثروة عضد الدولة ثلاثين مليون دينار وعشرين مليون درهم<sup>(١)</sup>. وقد انشأ بستانا بلغت النفقة عليه وعلى سوق الماء إليه خمسة ملايين درهم<sup>(٢)</sup>. وجمع فخر الدولة من المال ما جعل تركته تبلغ مليوناً وثمانمائة وخمسة وسبعين ألف دينار دون حساب الذهب والفضة والجواهر والحلى<sup>(٣)</sup>.

وعلى مثل ذلك كانت ثروات الوزراء فعلي بن الفرات كان يملك من العين والورق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة ملايين دينار<sup>(٤)</sup>. وكان بداره مطبخان. مطبخ الخاصة ومطبخ العامة المختص بالحجاب ورجال القصر وأصاغر الكتاب وغللمان الدواوين. وكان يقدم إلى هذا المطبخ كل يوم تسعون رأساً من الماعز وثلاثون جدياً فضلاً عن العدد الوفير من الدجاج. والخبازون يخبزون فيه الخبز ليلاً ونهاراً. وقوم يعملون الحلواء عملاً متواصلاً، ودار كبير للشراب...<sup>(٥)</sup> وكانت ضياعه تغل كل سنة مليوني دينار<sup>(٦)</sup>. ويذكرون أن قصره يعتبر مدينة بذاتها. وقد انفق الوزير ابن مقله (مبتكر خط الثلث) على بناء قصره مائة ألف دينار والحق به بستاناً كبيراً. وكان في دار الوزير حامد بن العباس سنة ٣٠٦، نيف وثلاثون مائة ينفق عليها في اليوم مائتي دينار، وكان له ألف وسبعمائة حاجب، وأربعمائة مملوك يحملون السلاح. وقد ابتاع لابي الحسن المهلبى وزير معز الدولة في ثلاثة

(١) آدم متز / الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٤٨ .

(٢) الخطيب البغدادي ج ١ ص ١٠٧ .

(٣) ابن الأثير / الكامل ج ٧ ص ١٨٥ .

(٤) ابن خلكان / وفيات ج ١ ص ٣٥٠ .

(٥) هلال الصايغ / الوزراء ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٦) أحمد أمين / ظهر الاسلام ج ١ ص ١٠٤ و ص ١٠٦ .

أيام بألف دينار. وكان راتب محمد بن بقية وزير عز الدولة من الثلج في كل يوم ألف رطل . . .

وقد ذكروا أن عضد الدولة ترك ٢,٨٧٥,٠٠٠ دينار و١٠٠,٨٦٠,٠٠٠ درهم، عدا السلاح والجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والمتاع، وأن أبا الحسين الراسبي توفي سنة ٣٠١، وهو ليس أكثر من وال على ولاية فخلف ٤٤٥ ألف دينار و ٣٢٠ ألف درهم وحوالي ٤٥ ألف مثقال ذهب و ١٣٦٦٥ مثقالا لا من أنواع الطيب (العنبر والمسك وغيرهما)، و ٢٦٣ رأسا من الدواب، و ٤٠٠ غلام وكسوة يبلغ ثمنها ٢٠ ألف دينار، و ٨٨ ثوبا منسوجة بالذهب عدا الخيام والسروج والزجاج والأحجار الكريمة والمتاع. وكانت ثروة ال الجصاص في مصر أيام الطولونيين تقدر بملايين الدنانير.

وحكى المقرئزي أن الخليفة المعز الفاطمي أنجب بنتين: رشيدة التي تركت ثروة قدرها مليون وسبعمائة ألف دينار، واختها عبده التي تركت عشرات من خزائن الحلى وصناديق الجواهر ومنها خمسة أكياس من الزمرد، و ٣٠٠ قطعة من الفضة، وثلاثين ألف ثوب صقلي فاخر. أما ست الملك ابنة العزيز الفاطمي (واخت الحاكم بأمر الله) فقد تركت ثمانمائة جارية، وثمانى جرات مليئة بالمسك وقدرًا كبيرًا من الحجارة الكريمة<sup>(١)</sup> من بينها قطعة ياقوت تزن ثمانية مثاقيل.

هذه الثروات كانت كما قال عمر بن الخطاب تآبى إلا أن تخرج أعناقها على الدوام، وتبرز للناس في عدد من المناسبات وتصنع الحياة التي يسجلها المؤرخون باللون الوردى:

(١) المقرئزي: خطط ج ١ ص ٤١٥ و ٤٨٥.



١ - فبعضها كان ينفق في بناء القصور كما فعل المتوكل، وفعل خمارويه بن أحمد بن طولون الذي بنى دار الذهب لأنه طلى جدرانها كلها بالذهب. وكان في بستان القصر يغشي النخيل بالنحاس المغشى بالذهب. ثم شكوا إلى طبيبه الأرق فأشار عليه بأن ينام على سرير من الجلد المنفوخ بالهواء ويوضع السرير على سطح من الزئبق وهو مربوط بزنانير الحرير إلى أساطين من الفضة ليهتز به على مهل. فكانت هذه البركة من أعظم المهمم الملوكية وكان يرى لها في الليالي القمرية منظر عجيب «إذا تألف نور القمر بنور الزئبق» وفيها النار يخ المتمر الارستقراطي الذي جلب من الهند ثم ظهر منه البرتقال. وقد ذكر ناصري خسرو عن الأشجار التي كانت تزرع على السطوح في القاهرة، وعن اليهودي الذي كان على سطح داره ٣٠٠ جرة من الفضة فيها الشجر المزروع المتمر<sup>(١)</sup>. وكان الكبراء يتمتعون في المناطق الحارة بنوع من التكييف تطور مع الزمن؛ فالامويون كانوا يضعون الثلج ضمن حصر من النبات حول السدار، وفي العراق وإيران كانت السراييب أولا هي المأوى في النهار والسطوح في الليل كما في زرنج وارجان وبغداد وسامراء، ثم صار الكبراء يستعيضون عن ذلك قبة الخيش توضع فيما بين طياتها قطع الثلج الكبار. وفي عهد المنصور وبسبب بعد الثلوج كانوا يبلون الخيش بالماء كلما جف ويحكى المقدسي أنه رأى بقصر عضد الدولة في شيراز يبلها الماء على الدوام بواسطة قني من فوقها. وكان يستعمل في هذه البيوت والقصور في الصيف مروحة تعلق بالسقف أشبه بالشراع، ويشد بها جبل يديرها وتبل بالماء وترش بماء الورد فيما تزال تروح وتحيء بالرطوبة والطيب. وكانت حراقات دجلة تتخذ طريقة الخيش المبلل وترخي عليها ستور الكرابيس. وقد استهان قائد جند (من القرن الرابع) بالجنند البغدادي

(١) ناصري خسرو / الرحلة (نقلا عن آدم مترج ٢ ص ٢٢٠ ولم أجدها في النص العربي المعرب عن الفارسية للرحلة.

القادم إليه لأنهم في رأيه «قد الفوا بيوت دجلة وشرب النبيذ والثلج وبيوت الخيش المبلل وسماع القيان . . .»<sup>(١)</sup>.

وكان في حيطان قصر الذهب صور بارزة من الخشب تمثل خمارويه وتمثل خطاياهم ومغنياته بأشكال بلغت حد الكمال والبهاء ودقة الزخرف . وعلى رؤوس تماثيل النساء أكاليل من الذهب الخالص وأكاليل من الكوادرن (أنسجة الحرير الرقيقة) المرصعة بالجواهر، وعلى آذانها المثبتة في الحيطان بمسامير، أجراس ثقيل محكمة الصنع وقد لونت أجسادها بالأصباغ العجيبة التي تبدو للرائي كأنها ثياب حقيقية<sup>(٢)</sup>.

وكان في دار الشجرة من قصر المقتدر شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم تقوم في وسط بركة مدورة صافية، وللشجرة ثمانية عشر فرعا ولكل غصن شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة مفضضة وهي تتمايل في أوقات لها ويتحرك ورقها الملون كما تحرك الريح ورق الشجر . . . وكل من هذا الطيور صفر ويهدل<sup>(٣)</sup> وبنى الخليفة الناصر عبدالرحمن الأموي بجانب قرطبة قصر الزهراء فهو مدينة صغيرة (ومثله من بعده قصر الحمراء الذي بناه بنو الأحرار) وجلب له الرخام من أقطار البلاد والعمال المزيين، وخط فيه الأسواق والحدائق والحمامات والخانات والقصور وجعله متدرجا بعضه على بعض فالجزء الأعلى للقصور والأوسط للروضات والمنتزهات والثالث للدور والجامع . وانفق فيه ما تجاوز حد الإسراف وانفق في عمارته ما تجاوز حد الإسراف وهو ثلث مال الدولة سنين طويلة . ويقدرون نفقات البناء بأكثر من عشرة ملايين أوقية من الدراهم القاسمية

(١) آدم متر / الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢١١ - ٢١٢ .

(٢) المقرئزي، المخطط ج ١ ص ٣١٦ - ٣١٧ .

(٣) آدم متر / الحضارة الإسلامية ج ٢، ص ٢٢٠ .

الفضية<sup>(١)</sup>. وكانت قصور الفاطميين تملأ مدينة القاهرة كلها على مدى أكثر من قرنين. وأوصاف استقبال السفراء فيها حديث عجب. وكان بناء القصور مكلفا جدا لأن الخشب موجود في أطراف العالم الإسلامي، والفاطميون كانوا يبنون من خشب الخلنج على ساحل بحر الخزر، أما أدوات القصر فيختلط فيها الصيني بأنواع المعادن وأثاثه وتختلط فيها كل أنواع النسيج الفاخرة والمشهورة.

وحوالي أواسط القرن الثالث أحدث المتوكل نمطا من البناء لم يكن الناس يعرفونه هو المعروف بالحيري صار متبعا في القصور الكبيرة: فمدخل القصر من ثلاثة أجزاء باب كبير في الوسط وعن جانبيه بابان أصغر منه (ويسميان بالكمين). وكان المتوكل يجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه. وقد اتبعه في ذلك الكبراء حتى صار ذلك قاعدة في القصور. وبالغ بعضهم، فيما بعد، فبنى لقصر التاج، بعد أربعين سنة، خمسة أبواب تقوم بينها الأساطين. وكان قصر ابن طولون بثلاثة أبواب كأكبر ما تكون. ويتصل بعضها ببعض. وتفتح كلها في الأعياد والمناسبات.

وسعة القصور كانت واسعة جدا تشتمل أحيانا على مئات من الغرف عدا البساتين المحيطة، وكذلك كانت قصور القاهرة وقرطبة والزهاء، وقد اراد ابن الفرات جمع شمل أسرته في قصر فتكلف في اصلاح قصر دار البستان خمسين ألف دينار. وترك قصور الخلافة الواسعة ذات الابهاء الواسعة والصالات والأروقة التي كانت تحوي بين ٤٠ - ٩٠ غلاما من الحرس، وننظر في قصر عضد الدولة الذي رآه المقدسي وذكر أن فيه ٣٦٠ حجرة يجلس السلطان كل يوم في واحدة منها إلى الحول . . .

(١) راجع ياقوت / البلدان ج ٣ ص ١٦١.

ولم تكن بساتين القصور إلا جنات مليئة بالأزهار شديدة التنوع وأنواع الرياحين والشجر. واشتهر خمارويه بن طولون ببستانه في مصر كما اشتهر الخليفة القادر. ومن التطعيم في مثل هذه البساتين خرجت أصناف من الورد الأسود ومن المشمش ذي البذرة اللوزية.

٢ - وبعض الثروة كانت تتناهبها المصادرات حتى أصبحت هذه المصادرات موردا رئيسيا لدخل الدولة بعد عهد الواثق، فامتوكل صادر لبناء قصوره أموال اسحق بن ابراهيم بن مصعب وأموال أخيه. والمقتدر صادر أموال ابن الفرات للوزير (١٠ ملايين دينار) وابن مقله بعده. وكانت مبالغ المصادرات مخيفة دوما مما جعل بعضهم يدفن أمواله في الصحراء (كما فعل بحكم) أو يخزنها مع التجار والأصدقاء (كما فعل الوزير حامد بن العباس).

٣ - وبعض الثروة كان ينفق في شراء العبيد والجواري والوصائف والمبالغة في ذلك، وقد ذكرنا ممالك المقتدر والمكتفي من الصقالبة والروم والسودان. والغلمان الحجرية وممالك ابنة المعز.

٤ - وبعض الثروات كان يتجمد في شراء المجوهرات الثمينة والنادرة يستوي في ذلك أمويو الأندلس وعباسيو بغداد وفاطميو القاهرة، وفي كتاب الذخائر والتحف أخبار عجيبة حول ذلك في فصل كامل<sup>(١)</sup>، يتحدث عن الأحجار والدر والزمرد والياقوت الذي اقتناه الخلفاء والأمراء. ومن ذلك فص أبي مسلم الذي سقط من الرشيد وضاع، ونخلة الأكاسرة التي أهديت لمصعب بن الزبير مرصعة بالجواهر والياقوت والزبرجد وكان تقدير ثمنها مليوني دينار. وفص الجبل اشتراه المهدي بثلاثمائة ألف دينار. وكانت قيمة الجواهر الذي سلم من النهب ببغداد يوم فتنة الأمين والمأمون وقدموا به على

(١) انظر الذخائر والتحف (طبع الكويت) ص ١٥٥ - ص ٢٠١.

المأمون في مرو مليارا ومائة وستة عشر مليون درهم . وثمة الدرّة اليتيمة التي كانت لدى المقتدر ووزنها بثلاثة مثاقيل ، والمسبحة التي أهداها لزيدان القهرمانه<sup>(١)</sup> .

٥ - وبعض الثروة كان يذهب في المبالغة بالمآدب والتأنق في الملابس والرياش والطيب . وقد مر بعض ذكر المآدب وما يتفق فيها من أنواع اللحوم والحلوى وما فيها من الكثرة . وقد بلغ الترف ببعض الخلفاء أن يطلب كل يوم على مائدته طبقا من السنة العصافير، كما أن أحمد بن طولون أقام مأدبة في بعض أيام سنة ٢٦٠ ، ذبح فيها ألف كبش، وثلاثين ثورا، وخمسة عشر برذونا، وألف خروف، وألف جدي، وألف أوزة، وعشرة آلاف دجاجة، وعشرين ألف فرخ حمام على سبع وعشرين مائدة<sup>(٢)</sup> . وكان للفاطميين موائدهم الباذخة واسمطتهم في الأعياد والمواسم وبخاصة أول العام الهجري، وفي مولد النبي ﷺ، وفي غرة رمضان، وفي عيدي الفطر والأضحى . وقد ذكر المقرئ عند كلامه عن قصر عبدالرحمن الناصر (خليفة الأمويين في الأندلس) أن عدد فتيان قصره الزهراء بلغ ١٣٧٥٠ ، وأنه خصص لهم من اللحم كل يوم ١٣ ألف رطل عدا الدجاج والحجل والطيور والأسماك<sup>(٣)</sup> .

الملابس : وكان لها في تلك العصور قيمة كبيرة، فقد تفننوا في حياكتها وتطريزها وتزيينها بالذهب والجواهر، وفي تحديد أوقات لبسها . ومنها القلانس التي أمر بها المنصور فوضعوا العمائم فوقها وزينوها بجوهرة غالية والطيالسة من الحرير، والأقبية والديباج والأقمشة الموشاة بالذهب

(١) انظر ابن الساعي تاريخ الخلفاء ص ٦٩ - ٧٠ والمسعودي / مروج ج ٤ ص ١٧٠ .

(٢) الدخائر والتحف ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) المقرئ / نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٩ .

والفضة من الديبقي والتنيسي والشيرازي، ودراعات الخبز والجباب الغالية عريضة الأكمام. ولبسوا فوقها سلاسل الذهب المرصعة بالجواهر. وللخلفاء دون غيرهم من الناس لبس الخفاف الحمر في القرنين الثالث والرابع للهجرة<sup>(١)</sup>. أما نساء القصور فكانت ملابهن من الديباج الموشى بالذهب والفضة والجواهر وثياب الخبز والأبريسم والحريير. وكانوا يتفننون في اختيار الألوان والكتابة على العصائب وتزيين الزناتير معها بالدر والياقوت، وفي لبس الأزار قطعة قماش واحدة تلف على الجسم تحت السرة، ولكنها تمتلىء بخيوط الذهب والأبريسم وترصع بالجواهر. حتى النعال كانت ترصع للسيدة زبيدة زوج الرشيد. وكانت نعال أم المقتدر من الثياب الديبقية. هذا إلى أدوات الزينة من القلائد والأكاليل والتيجان ومن مناطق الذهب المرصعة بالأحجار والجواهر، ومن الخلاخيل والنعال المرصعة. وكانت نساء الكبراء - كما كان الرجال أيضا - يقلدون نساء الخلفاء ورجالهم كل على مقداره<sup>(٢)</sup> وبقدر مورده وطاقته في الإنفاق والإسراف فيه. وكانت الجوارى لدين نصيب من هذه الملابس فكن يلبسن أفخر الثياب والجواهر.

٦ - وكان الخلفاء وكبار الدولة يبالغون أيضا في الإنفاق أيام المناسبات لديهم كالأعذار والزواج والولادة. إن ذكرى زواج زبيدة مع الرشيد وعرس بوران على المأمون، وذكرى جهاز قطر الندى بنت خمارويه عند زواجها من الخليفة المعتضد العباسي ما تزال صورا ملونة فاخرة عما كان يجري في تلك العهود وما بذل فيها من البذخ المسرف. وبلغ ما انفق في عرس بوران ثمانية وثلاثون مليون درهم، وكان المأمون يجري كل يوم في جملة الجرايات على ستة وثلاثين ألف ملاح، وقد وصل أباهما بعشرة ملايين درهم، ووهب لأخيها مليون درهم. وكانت نفقة الحسن بن سهل في الوليمة

(١) ابن الجوزي/ أخبار الطراف ص ٤٨.

(٢) وانظر في الذخائر والتحف دعوة مفلح الخادم الأسود للخليفة المقتدر ص ١٠٧.

للمأمون أربعين مليون درهم . . . وبلغت الصلوات للحاشية خمسين مليون درهم<sup>(١)</sup> . . . هذا عدا شموع العنبر والكراع والرقيق والضياع والعقار والجوهر والدنانير والطيب والكساء والبزاة والصياغات . . . .

وثمة قصص تشبه الخرافة عما جرى يوم اعدار المعتز بالله ابن المتوكل<sup>(٢)</sup> . شرحها صاحب الذخائر والتحف في عشر صفحات . وما أنفقه المقتدر يوم ختان أولاده وبلغ ست مائة ألف دينار عدا من ختن بالمشات من اليتامى وما بذله يوم اعدار المعز لدين الله الفاطمي لأولاده الخمسة فقد جعل جميع ما ذكر من قبل حقيرا يسيرا . فقد أمر فجرى اعدار جميع صبيان مملكته في أفريقية ممن لم يطهر بعد لمدة شهر . وكان ربما طهر في اليوم الواحد اثني عشر ألف صبي ، وأنفق على كسوتهم وأهليهم ، وبلغ ما حمل إلى صقلية وحدها خمسون حملا من الدنانير، والحمل عشرة آلاف دينار . ومثل ذلك إلى كل عامل من عمال المملكة ليفرق على أهل عمله . هذا سوى الخلع والثياب والطعام والطيب . . . وكان وزن . . . الأكياس المفرغة فيما أنفق في هذا الإعدار مائة وسبعون قنطارا بالبغدادي<sup>(٣)</sup> .

٧ - المبالغة في الهدايا : وهو باب لا ينتهي من الإنفاق، وإذا كانت هدايا العرب الأولين في القرن الأول محدودة فقد بدأت المبالغة في الهدايا منذ القرن الثاني . فقد اهدى حسان القبطي إلى هشام بن عبد الملك وحاشيته ما قيمته مائة ألف دينار، وأهداه عبيدة بن عبد الرحمن القيسي وإلى أفريقية سنة ١١٤ عشرين ألف عبد وأمة . ومن صفايا الجوارى المتميزة سبعمائة جارية ومثل ذلك من الخضيان ومن الخيل والدواب والذهب والفضة والأنية

(١) الذخائر والتحف ص ٩٨ .

(٢) انظر الذخائر والتحف ص ١١٢ - ١٢٢ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٤ - ١٢٥ .

مالا يحصى كثرة<sup>(١)</sup>. واهدى عيسى بن ماهان والي خراسان إلى الرشيد هدايا ثمنها ثلاثون مليون دينار والرشيد يومئذ بالري. ومثل ذلك كثير كهدية قبيحة أم المعتز للمتوكل<sup>(٢)</sup>. وهدايا يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتضد مرة بعد مرة<sup>(٣)</sup>. وهدية قطر الندى إليه وهدايا أبيها إليه أيضا. وهدية المعز بن باديس صاحب المغرب إلى الخليفة الظاهر الفاطمي سنة ٤٢٠، وهدية الظاهر إليه<sup>(٤)</sup>. وهدية علي ابن مجاهد صاحب الأندلس إلى المستنصر الفاطمي سنة ٤٥٢، وقد قومت بمائة ألف دينار.

٨ - المبالغة في اقتناء الستور والثياب والمظلات والبنود والبسط من فاخر النسيج : فقصور الخلفاء ورجال الدولة والكبار ملأى بالزوالى المغربية، والمقاعد التسترية، والأقطاع المذهبة المغربية، والمطارج الارمنية، والسدياج التستري المقصب بالذهب، والفساتين السامانية والخسروان الضميم والفرقولي والديقي وغير ذلك، ومن نسيج تنيس إلى حرير الصين. وقد أحصى ما صودر من ابن الفرات بعد وزارته الأولى فكان منه : ألف ومائة طيلسان، وألف كساء، وألف ومائتا عمامة، وألف سروال، وألف مندبل صغير وغير ذلك من أصناف الكسي والفرش والآلات أمرا عظيما لفرط كثرته. وكانت ثيابه ديبقية كالهواء رقة، كل ثوب بسبعين دينارا، وثياب السراويلات بثلاثين دينارا. وكان يستعمل كل يوم أكثر من عشرة مناديل يستنشر في المنديل مرة واحدة ثم يرمى ويطلب غيره. . . . وكان مبلغ غلته من أرضه في كل سنة مليون ومائة ألف دينار. . . . وقد وجد له في مصادره الأولى هذه تسع وتسعون ومائتين من الطيب : من العود الأخضر

(١) الذخائر والتحف ص ١٥ - ١٦ .

(٢) راجع الذخائر والتحف ص ٣١ - ٣٢ .

(٣) المصدر نفسه الصفحات ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٥ .

(٤) المصدر نفسه الصفحات ٦٨ - ٧١ .



٨٠٠ من، ومن المسك ٤٢٠ منا، ومن الكافور نيف وستون، ومن العنبر خمسة وأربعون ألف مثقال، وألفا ثوب مطوية هذا غير الجواهر النفيس . . . ووجد له عينا خمسمائة ألف دينار<sup>(١)</sup>.

٩ - الإنفاق في شراء الأسلحة الموشحة بالجواهر والخيل والدروع واستعراض ما أخرج من خزائن الفاطميين يوم المجاعة الكبرى سنة ٤٦١ قد يكفي كما أحترق من «قرايات النفط عشرات الألوف . فأما الدرق والسيوف والرماح والنشاب فما لا يحصى بوجهه ولا سبب مع ما فيها من قصب القصة وثيابها المذهبات وغيرها، والبنود المخملية وسروج البنادين ولجمها وثياب الفرجية المصبغات و . . . والألوية والرايات . . . واحتاج السلطان بعد ذلك إلى إخراج بعض ما سلم من السلاح فأخرج من خزانة واحدة خمسة عشر ألف سيف مجوهرة . . . ووجد في خزائن السروج خمسة آلاف سرج كل سرج يساوي من سبعة آلاف إلى ألف دينار. وكان في هذه الخزائن المنهوبة من الطيب والنسيج والصيني والتحف والأحجار الكريمة وأسرّة الملك ما ملأ ثلاث عشرة صفحة من كتاب الذخائر والتحف الذي ألف في تلك الفترة نفسها في مصر<sup>(٢)</sup>.

١٠ - الإنفاق على مجالس الأنس والطرب . وقد كثرت هذه المجالس منذ خلافة المهدي العباسي في بغداد وخلافة العزيز الفاطمي في القاهرة، كما عرفت وانتشرت بيد الخليفة المنصور في قرطبة ثم لدى ملوك الطوائف في اشبيلية وغرناطة . وكان قوام هذه المجالس هم المغنون والمغنيات والجواري اللواتي كن يؤدبن لدى النخاسين لهذه الأمور خاصة، ومنهن من كانت تقرض الشعر، أو تحسن الضرب أيضا، وأسماؤهن مانتزال تشير في النفوس

(١) الذخائر والتحف / الصفحات ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) الذخائر والتحف ص ٢٤٩ - ٢٦٢ .

أجواء ألف ليلة وليلة أمثال عريب المأمونية التي اشتهرت بالغناء والضرب ونظم الشعر. وشاجة جارية عبدالله بن عبدالله بن طاهر، وعبدية الطنبوزية، وسلامة، ومتعة جارية زرياب، وحفصة بنت الحجاج، واعتماد جارية المعتمد بن عباد، وولادة صاحبة ابن زيدون. وليس اللواتي اشتهرن بالقلائل، فقد اجتمع منهن يوم اعدار المعتز بن المتوكل، مع عريب، بدعة وجاريتها سراب، وشادية وجواربها غدمان ومنعم ونجلة وتركية وفريدة ووافد وعرفان وحدائق... . فقد كان لكل جارية وصائف وجوقة معها من القيان. واشترت غريب المغنية بخمسة آلاف دينار واشترى ابراهيم بن المهدي أخرى بثلاثة آلاف. واشترى الرشيد من ابراهيم الموصلية جارية بستة وثلاثين ألف دينار<sup>(١)</sup>.

وكذلك اشتهر عدد من المغنين كابراهيم الموصلية وابنه اسحق. وقد بنى أبو الفرج الأصبهاني كتابه الأغاني على الأصوات المائة التي اختارها. وهناك زلز و ابن جامع ومخارق وجحظة المغني الذي ألف سبعة كتب في الغناء وابن بانه وهو مثله مغن مؤلف. وغيرهم كثير حتى لقد اجتمع منهم في اعدار المعتز مثلاً مع ابن بانه أحمد بن أبي العلاء، وابن الحفصي، وابن المكّي، وسلمك الرازي، وسليمان الطبال، وصالح الدفاف وزنم الزمار. وآخرون غيرهم<sup>(٢)</sup>. ويجب ألا ننسى زرياب الذي نقل إلى الأندلس كل هو بغداد وازيائها وتقاليدها. ومجالس الغناء واللهو كانت تعقد في جميع المناسبات من ختان وزواج وولادة أو تولية خليفة جديد، ويدون مناسبات كما تعقد بجانب دور الخلفاء في قصور الأمراء والكبراء والموسرين، ويتبارى فيها الندمان والمغنون والملهون ولا تخلو من الشراب. ولعب المغنون والمغنيات دورهم الواسع في تطور الحياة الاجتماعية وطبعتها بطابع خاص

(١) الذخائر والتحف ص ١١٧.

(٢) السعدي - مروج ج ٤ ص ١٥٧.

وادخال الترف والبذخ إلى قصور الطبقة العليا في المجتمع لدرجة أن الرشيد كان أول من جعلهم مراتب وطبقات حسب مقدرتهم الفنية، وأن بعض الخلفاء كالمعتد كان على ثقافة موسيقية واسعة لدرجة عقد المجالس لمناقشة أنواع الغناء والموسيقى والضرب وأصوله<sup>(١)</sup>.

وهذه المجالس كانت لها قاعاتها الواسعة في القصور وكان الخلفاء والكبراء يحرصون على أن تجري قصورهم عند بنائها على هذه القاعات لأن لها وظيفتها في حياتهم التي يحيون. يذكرون أنه كان في مجلس شرب الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين (في مطالع القرن السادس) ثمانية تماثيل لثماني جوار متقابلات. وكان منهن أربع بيض من الكافور وأربع سود من عنبر وكن مرتديات أفخر الثياب ومترينات بائمن الحلى وفي أيديهن احسن الأحجار الكريمة. وكان الأفضل إذا أخذ مكانه في صدر المجلس نكسن رؤوسهن. . . وحين يجلس تجعل في مجلسه صواني الذهب مصفوفة وفيها الأواني المملوءة بالجواهر فإذا أمر جعل مافي الأنية على الصينية فيملؤها ويجعل بدله الشراب<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن التاجر الفني مجرد فم يأكل ويتمتع أو حمال يحمل زكائب الذهب ولكنه كان على جانب من الثقافة يزيد وينقص فبعضهم كان أميا (كالسيد الذي امتلك ياقوت الحموي) وبعض كان شاعرا كشقيق ابن اللبانة الشاعر الذي كان شاعرا ولكنه لا يتكسب بشعره، وأبي بكر بن عبدالعزيز الشاعر الأندلسي الذي تلقى مكافأة على اعماله الشعرية في المربة ولكنه كان صاحب تجارة واسعة ودور نصير الأدب والعلم دور اتقنه عدد كبير من التجار والأثرياء وكانوا يتباهون بالحاشية التي تؤم مجالسهم من العلماء والشعراء. كما

(١) النوري. نهاية الأرب ج ٥ ص ٩٦.

(٢) ابن ميسر تاريخ مصر ص ٥٨.

كانوا يشاركون في تمويل المشاريع العامة من بناء مسجد (أو كنيسة) أو مدرسة أو سبيل ماء ويفتدون إخوانهم في الدين من الأسرى بكل مكان وقد افتدى مظفر الدين كوكبوري وهو في الموصل أسرى جزيرة ميورقة في الأندلس وكانت رباطات فلسطين في القرن الرابع مخصصة لهذا الغرض . . وكان بوسع التجار مع جاههم وعلاقاتهم أن يكونوا وزراء وكبارا في الدولة وكانوا أحيانا يتحكمون بها (كما جرى للأخوة تستري الذين تحكموا في الدولة الفاطمية حوالي ١٢ عاما مع أنهم من اليهود وذلك عن طريق وصية العرش وهي جارية سوداء كانوا قد أهدوها للظاهر فولدت له الخليفة المستنصر . . الخطر الوحيد الذي كان يهدد التجار هو الغضب الفجائي عليه وزوال الخطوة لدى الحكام فيقع في المصادر فأما غرق مركب أو نهب قافلة فقد كان تضامن التجار بعضهم مع بعض يؤمن كلا منهم على وضعه المالي . هذا الوجه الآخر المشرق للتجار كان يمنح المدن التجارية الكثير من التآلق ومن الصور الملونة ويغطي على مساويء تجمع الثروة والتصرف الخاطيء بها .

ولم تكف الطبقة العليا بامتلاك السياسة والثروة وصبغ المدن بصباغها وأذواقها، ولكن اضافت إلى ذلك زيادة جديدة بدأت الظهور منذ القرن الرابع فإذا بها في القرن السادس مؤسسة يحفظ قواعدها ونظمها كتاب الدواوين . هي الألقاب .

بدأت هذه الألقاب في القرن الرابع باضافة صفة الملك وصفات أخرى على رجال الدولة فهذا الملك العادل أو الناصر، وسرعان ما أضيفت الدولة إلى البويهيين خاصة أصحاب الدولة، فظهرت القاب معز الدولة ومجد الدولة ومنتخب الدولة، ثم دخلت حكمة الإسلام على الخط بدخول بعض العلماء والفقهاء في الألقاب فصار كبار القوم يضيفون إلى القابهم لقب سيف الإسلام، وعز الإسلام ونور الإسلام وأخيرا أضافوا كلمة الدين حين شملوا

كبار القضاة والفقهاء في القرن الخامس وما بعده . فهذا بهاء الدين والثاني زين الدين والثالث شمس الدين وذاك نجم الدين . فلم يأت القرن السادس إلا وكان لكل كبير في القوم ألقاب يجرها وتسبق اسمه وتزيد على السطرين . ودخل في اللعبة أمراء السلاجقة ودخل الفاطميون بالطبع فدخل معهم لقب السلطان والملك وأضيف للألقاب الأخرى وهكذا صار من جملة الجاه الاجتماعي أن يحمل الأمير في مطلع القرن السادس القاب : السيد الأجل الملك الأفضل أو «ناصر أمام الحق وهادي القضاة . . . مولى النعم رافع الجور عن الأمم مالك فضيلتي السيف والقلم» . كما طلب الأكمل بن الأفضل . وبلغت الألقاب النساء فهذه ست الملك وتلك المجلس الشريف . وليست كلمات عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين أسماء لأصحابها بل هي القاب غلبت على أسمائهم الأصلية : زنكي ، ومحمود ، ويوسف . لكن صلاح الدين مثله كمثله غيره كان يخاطب من الخليفة الفاطمي بالسيد الأجل الملك الناصر مصطفى الأئمة منجد الأمة صلاح الدين كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة أمير المؤمنين إلى المظفر يوسف بن أيوب العاضدي . والوزير الفاطمي اليازوري كتب له سنة ٤٤٢ الوزير الأجل الأوحى المكين سيد الوزراء تاج الأصفياء ، قاضي القضاة وداعي الدعاة علم المجد خالصة أمير المؤمنين . ثم زيد في نعوته الناصر للدين غياث المسلمين ، ثم تجدد له من النعوت بعد ذلك الأجل عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين والدنيا . . . وتوالت الألقاب المضافة إلى أصحاب الدولة والفقهاء والعلماء فلقب الوزراء : ، بالصاحب وبالجناب الصاحبى وبالمجلس وبالخضرة والمقر ثم الجناب العالى والمجلس السامى . وظهرت الألقاب المركبة : عمدة الملوك والسلاطين وعمدة أمير المؤمنين . . . ووجد المهاليك في هذه الألقاب ما يدعم موقعهم غير الشرعي من الحكم والسلطة فأتخذوا الألقاب كلها معا وان اشتهروا في الغالب بواحد منها اختصارا . وصارت الألقاب رسوما ومراتب

يتعلمها كتاب الإنشاء في الدواوين وتدخل في صلب عملهم أيام المهالك .

وبالإضافة إلى الألقاب صار لهذه الطبقة المدنية العليا رسوم بدق الطبول على أبوابها منذ القرن الرابع والخامس ، وصارت المدن في معظمها وخاصة في العواصم بغداد والقاهرة تسمع هذه الطبول في الصباح والمساء إمعانا في منح الجاه لكبار الدولة . ويكفي القاء الطبل عند باب احدهم ليعرف الناس جميعا أنه صار في موضع الغضب وهبوط المنزلة عند السلطان وقد استمرت هذه العادة حتى العهد العثماني .

وأما النساء في هذه الطبقة العليا فلم يكن أقل جشعا للثروة ولا أقل بذخا ولا طمعا بالألقاب . وهداياهن لا تقل مبالغة عن هدايا الرجال ولا جواريهن ولا أثائهن وملابسهن . وقد زدن على ذلك أمرين يشاركن فيهما الرجال :

أ - تدخلهن في الشؤون السياسية وهو ما لم يكن متاحا للطبقة الوسطى كلها بله نساؤها . واسماء أم المقتدر، وقبيحة أم المعتر، وحسن الشيرازيه . لعبن ادوارهن في عزل وتولية الخلفاء . بل لقد وصل الأمر إلى القهرمانات ، واقعدت أم المقتدر . . . قهرمانتها للمظالم وكان يحضر مجلسها عدد من الوزراء والقضاة والفقهاء<sup>(١)</sup> . والدور نفسه لعبته النساء في العهد الفاطمي وتكفي الإشارة إلى أخت الحاكم التي قتلت أخاها . وإلى أم المستنصر التي بقيت وصية عليه برغمه حوالي ثلاثين سنة .

ب - اشتغالهن بالشؤون الثقافية ومجالس الأدب والغناء والشعر وكان منهن الفقيهات والمحدثات أمثال : أمة الواحد المحاملي التي درست على أيدي عدد من علماء عصرها . وابنة ابراهيم الجري التي توفيت أوائل القرن

(١) ابن الاثير الكامل ج ٦ ص ١٦٣ وابن العبري مختصر الدول ص ٢٨٩ .

الرابع ، وخديجة بنت موسى بن عبدالله البقال (القرن الرابع) ، وفاطمة بنت أبي بكر السجستاني . وخديجة بنت محمد الشاهجانية . وبعضهن لحقن بحياة الزهد والتصوف . أمثال جوهرة زوجة أبي عبدالله البراني ، وزينب بنت سليمان بن العباس ، وميمونة المتصوفة وطاهرة التنوخية . . . وغيرهن . وقد خصص ابن عساكر (القرن السابع) جزءا من كتابه تاريخ دمشق لترجمة شيخاته من النساء . وهو واحد من عشرات سجلوا ذلك .

على أن هذا المنحى من تدخل في السياسة وشغل بالفقه والأدب كان نوعا من الترف لم يقيم به إلا عدد محدود من نساء هذه الطبقة، التي كانت تكتفي بالثروة عن كل شيء . وكانت تمنح المدن والكبرى منها بخاصة جوا من التنوع ، وتفتح فيها مجالات لشغل الناس وثرثرتهم .

ومن الملاحظ أن كثيرا من نساء الطبقة العليا كن غير عربيات ومن المملوكات اللواتي تزوجهن أسيادهن واعتقوهن . فجميع خلفاء بني العباس (عدا ثلاثة) كانت أمهاتهم من أمهات الأولاد ومثل ذلك يصدق في أولاد . . . الفاطميين أو الأندلسيين . ولم ينجم عن ذلك قيام التنافس والتعصب بين الأجناس المختلفة . ولكن نجم عنه اجتماعيا اختلاط الأعراق والأعراف والنظم الاجتماعية في قمة الهرم الاجتماعي . وسريان ذلك إلى الطبقة الوسطى أحيانا كثيرة . واعطاء المجتمع الاسلامي بعض سماته .

على أن الفترة ما بين أواخر القرن الخامس حتى مطلع القرن السابع ، يمكن أن تعتبر انقطاعا في الحياة الاجتماعية للمنطقتين الشرقية والمغربية من العالم الاسلامي على السواء ، ففي المشرق دخل السلاجقة الترك وأصبحوا الطبقة السيدة والحاكمة ، وفي المغرب دخل المرابطون ثم الموحدون على حياة الناس حتى في الأندلس . وغلب الطابع البربري . وهذا ما شكل نوعا من الانقلاب في حياة القصور على الاخص وفي حياة الطبقة الوسطى التي

اشتبكت بها وتوصفت في داخلها بحكم المساواة الإسلامية عناصر غريبة ليس من قبولها بد. وزاد في تمكن هذه العناصر الهجمة الصليبية الممتدة من أسبانيا إلى الشام، ثم الهجمة المغولية التي تمتها من أقصى المشرق إلى الشام أيضا. وقد نجم عن ذلك ظهور سلطنة المماليك فيما بين الشام ومصر ليتابع المجتمع الإسلامي حياته بتنظيم أكثر دقة ومراسم واضحة مقننة.

فكانت القصور السلطانية في القلعة تدعى بحواصل السلطان، وكانت مقسمة إلى مجموعة من الدور يشرف على كل منها مباشر من أمراء المثين، له المساعدون والغلمان العديدون. ومن هذه البيوت السلاح خانة (أو الزمردخانة) وتحوي جميع أنواع الأسلحة. ويشرف عليها أمير سلاح يضبط ما يدخل ويخرج منها من السيوف والقسي والدروع وآلات الحرب. ومنها الركاب خانة وتشتمل على أدوات الركوب من سروج ولجم وكلها مغشاة بالذهب والفضة برسم السلطان ويقال أنه كان بها ثلاثة آلاف قطعة مختلفة الأسماء والاستعمال. وثمة الطبلخانة لآلات الموسيقى الحربية ويشرف عليها أمير علم. وهناك الخوانج خانة وهي التي تشرف على المطبخ السلطاني والأسمطة والطيب وبه صبيان المطبخ (وقدارية) وكان يجري به ذبح ٧٠٠ طائر يوميا أيام الظاهر بيبرس وعشرة آلاف رطل من اللحم. وبلغت ما يتحصل في يوم واحد لطباخ السلطان زمن شعبان بن الناصر محمد في مهم واحد ثلاثة وعشرون ألف درهم من ثمن الرؤوس والكراع وسقط الطيور الذي يتبعه!

وثمة بعد هذا الشرابخانه أي بيت الشراب ويحوي الأشربة والأدوية والسفوفات والمعاجين في أواني الصيني الفاخرة، وهناك الطشت خانة وفيها أنواع الأواني والأباريق والصحون للغسيل بالإضافة إلى أدوات الحمام والوقود والكراسي والستائر والسجاد والوسائد والمناشف وفوط الخدمة. وهناك أخيرا



الفراش خانة وفيها أنواع الأثاث والفرش والخيام والتخوت وأدوات النوم للسلطان وجواريه ومماليكه كل حسب منزلته .

وكان السلطان يخلف القناطير المقتطرة من الذهب عند موته عدا ما في خزائنه من الديباج والحريز والثياب والخيل المسومة وآلاف المماليك باسمه . وقد بلغ جهاز أنوك بن السلطان الناصر حمولة ثمانمائة جمل وستة وثلاثين قطارا من البغال، كما بلغ الذهب في المصاغ والملابس المزركشة ثمانين قنطارا . ومع ذلك استصغره الناصر حين رآه . . . وبلغت مظاهر الترف حدها من الأثاث والرياش والستور والنوافير وصنابير المياه الساخنة والباردة . وكان للسلطان مرتب معين من الثلج يأتيه دون انقطاع في الصيف من جبل الشيخ في الشام، وله هجن وسفن تحمله حتى يصل الشرابخانة! ويمد السلطان ثلاث أسمطة في الصباح ومثلها في المساء وأحدها للسلطان وأمرائه وتنتهي برش ماء الورد على الحضور . وكان بعض السلاطين يتفاخرون بالثياب التي يشرف عليها أمير يسمى الجمدار وبعضهم يبدلها ثلاث مرات في اليوم ولا يعود إلى لبسها لأنه يهديها للأمراء . ويلبس السلطان الثياب البيض صيفا والملونة شتاء ولكنه يضيف إليها الفراء الفاخر من السمور وغيره ويزين أصابعه بالخراتم من الزمرد والماس والياقوت .

ونواب السلاطين في الشام كانوا السلاطين المصغرة . وكثيرا ما كان بعضهم ، وبخاصة نواب دمشق، يعتبرون أنفسهم مُوازين للسلطان في كل شيء .

ويطمعون في الحلول محله، وقد نجمت عن ذلك ثورات وحروب شتى . فالثروات كانت تتكدس لديهم، والأثاث الفاخر في قصورهم، والمواكب في حلهم وترحالهم، والشراب واللهو في مجالسهم . ولما كان الناس على دين ملوكهم فقد سرى ذلك في جميع الطبقة العليا من الدولة .

أما النساء (الحریم السلطاني أو الأدر الشريفة كما كانوا يسمونها) فقد كن يقمن في قاعات بالقلعة حولها البساتين والأشجار وكن في الغالب أكثر من زوجة واحدة. فالقاعة الكبرى لخوند الكبرى المفضلة، والثانية لخوند الثانية والثالثة والرابعة . . . وكان ثمة قاعات خاصة بالسراي والجواري من البيض والسود، ولكل زوجة من زوجات السلطان عدد كبير من الوصيفات وأربعة من الطواشية (الحضيان) بمثابة حرس دائم لها لا يفارقنها أبدا فإذا رزقت بمولود ذكر أقيم لها موكب بالقلعة!

وكما جرى في العصر العباسي جرى في العصر المملوكي من تخطى النساء دورهن إلى التدخل في السياسة أو الدخول في العلم. وشجرة الدر أشهرهن إذ أضحت سلطانة لمصر ثمانين يوما. برهنت فيها عن ذكاء وافر. وحين دب الخلاف بين الملك السعيد وأمراه سنة ٦٧٦ بعث أمه لمفاوضة الأمراء بالصلح. ولعب الكثير من نساء المهاليك مثل هذا الدور مثل ست جدق زوجة الملك الناصر التي شفعت للتجار، وطغاي زوجة الأخرى التي ألغت بعض المكوس. وقد ذكر عن السلطان اينال استسلامه لزوجته خوند زينب حتى صار لها نصيب وافر من السلطان في كل هدية ورشوة وصارت تدير أمور المملكة من ولاية وعزل<sup>(١)</sup>. ومثلها أم السلطان شعبان وزوجة السلطان برسباي وغيرهن.

ويسجل التاريخ بالمقابل عددا وافرا ممن اشتغلن بالعلم في العهد المملوكي ونظمن الشعر أو حفظن الحديث وأصبح بعضهن من المسندات الشهيرات فابن حجر يذكر أنه أخذ عن شمس بنت الناصر محمد وعن خديجة بنت العماد الصالحية. والسخاوي يذكر أخذه عن أمنة ابنة الشمس، وأمة الخالق ابنة الزين عبداللطيف، ورجب ابنة الشهاب أحمد وأم هانيء

(١) ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٦٥.

إبنة التقي محمد . . . واشتهرن منهن أيضا الواعظات والمتصوفات مثل خوند  
شكرباي زوجة الظاهر خشقدم التي لبست الخرقه الأحمديّة زمن الزوايا ولا  
الأربطة . . .

وقد ذكر ابن حجر في الضوء اللامع ما يزيد على ألف ترجمة كلها  
لنساء توفين في القرن التاسع ولعظمن نصيب كبير في الحياة العامة في ذلك  
القرن .

واحترم الممالك نساءهم كل الاحترام ولم ييخلوا عليهن بالمال والمتاع  
والمجوهرات ولقبوهن بالخوند والخاتون . وقد حصرت تركة احدى الخوندات  
فكانت نيفا وستمائة ألف دينار، وخلقت إبنة محمد الناصر ثروة طائلة من  
جملتها قبقاب مرصع قيمته أربعون ألف درهم<sup>(١)</sup> وكن يخرجن للنزهة على  
الخيول . أما إلى الحج فكان قطار من الجمال يرافقهن ويحمل كل الكماليات  
اللازمة لهن . هذا عدا الأمراء ويحتفلون بشفائها من المرض إحتفالا كبيرا فيه  
المشاعل والطبول والشموع ونساء الأمراء .

وشاعت تسمية بنات الطبقة العليا (ثم المتوسطة بالتقليد لها) بست  
الكل، وست الناس، وست الحكام، وست القضاة . على أن مكانة المرأة  
على أي حال كانت دون الرجل ولم يكن الممالك يتورعون عن الانتقام من  
أخصامهم بنسائهم . وقد شهدت شوارع المدن في القاهرة وغيرها سوق  
النساء فيها (كأخوات الملك برقوق سنة ٧٩٢) حاسرات ومعهن جواربين  
وهن يعولن! كما شهدت العديد من النساء يُجرّسن على الحمير!

وكانت ملابس النساء في الطبقات العليا تتصف بالكثير من المبالغة  
فهي من الأقمشة الرقيقة الفاخرة وقد يفصل بعضهن القميص من اثنين

(١) انظر خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ١٢١ والمقريري اسلوك ج ٢ ص ٨٨٨ وابن  
تغري بردي ج ٦ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ وج ٩ ص ٧٤ .

وتسعين ذراعاً من القماش البندقي ، وعرضه ثلاثة أذرع ونصف الذراع فمساحته أكثر من ٣٢٠ ذراعاً مربعة ، وتجاوز تكاليفه الألف درهم . ومثله الإزار الخارجي . وثمن الخف قد يصل إلى ما بين مائة وخمسة مائة درهم<sup>(١)</sup> وقد يوشع بالأحجار الكريمة كما يوشع القميص والعصائب . وقد دعا هذا إلى تدخل الدولة مرات للحد من ذلك الإسراف كما جرى سنة ٧٥١ وسنة ٧٩٣ وسنة ٨٥٠ وسنة ٨٧٦ ومنعت النساء من لبس الثياب الثمينة والبرد الحرير والعصابت المقتزعة في الطرق ، وتضرب من تخالف ذلك وتجرس<sup>(٢)</sup> لأن الزي كان يهبط من هذه الطبقات العليا إلى ما تحتها بالتقليد . ويذكر المقرئ أكثر من مرة أن عامة نساء عصره كن يطورن ملابسهن من باب التشبه بما تفعله نساء السلاطين والأمراء ويعيب عليهن ذلك<sup>(٣)</sup> . ويذكر في أحداث سنة ٨٥٠ أن نساء السلاطين وجواربهن أحدثن ثياباً طويلاً تسحب أذيالها على الأرض ولها أكمام واسعة سعة الواحدة منها ثلاثة أذرع . . . وتشبه نساء القاهرة بهن في ذلك حتى لم تبق امرأة إلا وقميصها كذلك<sup>(٤)</sup> . وقد كانت الأكمام في القرن الثامن قبل هذه البدعة ضيقة قصيرة تتبع بدعة أخرى لدرجة دعت بعض الفقهاء إلى المطالبة بمنعها . واستجد بعض النساء زمن الناصر محمد وضع الطرحة على الرأس وثمانية عشر ألف دينار إلى ما لا يقل عن خمسة . وفرق بين المسلمات والذميات في الملابس فالأصفر لليهوديات والأزرق للمسيحيات وباقي الألوان للمسلمات ولكن دون تشديد . . . وكانت النساء في عصر المماليك خاصة قد يخرجن للناس بكامل زينتهن

(١) المقرئ - المخطوط ج ٤ ص ١٢٧ .

(٢) المقرئ السلوك ج ٣ ص ٦٧٣ .

(٣) ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٦٥ .

وابن أبياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٨٩ .

(٤) انظر خليل بن شاهين : زبدة كشف المالك ص ١٢١ والمقرئ السلوك ج ٢ ص ٨٨٨

وابن تغري بردي ج ٦ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ وج ٩ ص ٧٤ .

بالحناء والوشم والعصائب وفاخر الثياب والعطر. وكل الحلى من الأطواق والأساور وقد تضع المرأة الخللخال فوق رجل السروال ليظهر!

تبقى في النهاية مشكلة في حياة القصور هي مشكلة الخدمة. وكانت الجوارى والخصيان هم الحل الأمثل لذلك، وقد كثروا حتى كانوا يعدون بالمئات والألوف في قصور الخلفاء وبالعشرات في قصور الكبراء. وأخبارهم تملأ كتب الأدب والتاريخ والسياسة ولسنا نقصد هنا إلى أن نعيدها هاهنا ولكننا إنما نقصد إلى إيضاح تأثيرهم في حياة المدن.

فالجارية (ومثلها الخادم العبد) كانت ترفا لا يطوله كل راغب، وأثمان الجوارى والعبيد كانت أكثر بكثير من طوق الرجل المتوسط وبعض الجوارى والخصيان كعبدة الطنبورية، وعريب وبرجوان الخصي وكافور وغيرهم ممن أوردت التواريخ أخبارهم وأخبارهن كانوا قد أصبحوا جزءا من الارستقراطية الحاكمة، ولونا من ألوانها. ولكننا نريد إلى الحديث عن الكتلة الخرساء من هؤلاء التي أهملها التاريخ فقضت حياتها كلها في القاع. تعمل كالطبقة العامة وأشد، ولكنها تعيش على هامش العبيد من المجتمع الإسلامي. الجارية التي كانت تعلم وتؤدب لتكون محظية أو وصيفة أو جارية قصر مغنية أو راقصة كانت تخرج من طبقتها إلى طبقة أخرى هي التي تتحدث عنها وعن قصصها كتب الأدب كما تتحدث عن ثرواتها وأسماؤها ونوادرها. وهي التي كتب فيها الجاحظ رسالة القيان كما كتب الوشاء في كتابه ذم القيان. وأثر هؤلاء في الأدب وفي نشر الذوق وحب الجمال والأناقة في المجتمع الإسلامي ليس ينكر وليس بالقليل. ولكننا نريد أن نترك الجوارى من محظيات وقيان مشهورات اللواتي ترتفع طبقاتهن مع ارتفاع أثمانهن وأعجاب الخلفاء والوزراء وكبار الأثرياء بهن واتخاذهن أمهات أولاد. وستكلم عما دون ذلك من كتل البشر المتنوعة التي لم ينح لها حتى التعبير عن

وجودها. ويطلق عليها مع إسم الجوارى أسماء : الأماء والسراري والعبيد  
والخصيان.

كانت الجوارى مختصات بما فوق الطبقة الوسطى والجمهرة الكبرى  
منهن كانت للخدمة. وليس من المعقول أن يكون للمتوكل أربعة آلاف  
جارية ويكن جميعا للفراش، فقصور الخلافة الواسعة وما يلزمها من خدمة  
وأثاث وتنظيف وطبخ وحركة. . . كان على هذه الفئة تدبرها. ودار الرقيق  
التي كانت موجودة في كل مدينة، وقد تكون في دار النخاس نفسها، كانت  
تحتويهن وقد يصطففن فيها للبقاء ولكنهن يُبعن طبقات، فبعضهن جوار  
عاديات للخدمة وبعضهن قيان للغناء والرقص والطرب وبعضهن محظيات  
يعرفن بجاهلن وبعضهن سراري للفراش والخدمة وقد يصل بعضهن إلى  
مرتبة «أم ولد» إن ولدت لصاحبها خلفا.

وكان ملك الرقيق مباحا للمسلمين والذميين على السواء رغم  
إعتراض السلطات الدينية النصرانية على ذلك. وقد ذكروا أن يوحنا بن  
ماسويه تلقى اللوم على ملك الجوارى وهو قسيس فقال : فمن الذي أباح  
للجائليق أن يتخذ عشرين ثوبا ولا يبيح لي ذلك؟ أن لزم دينه لزمناه فإن  
خالف خالفناه<sup>(١)</sup>. ويراقب التجارة ممثل للسلطة هو قيم الرقيق وكانت  
الجوارى يأتين من مصادر مختلفة : من السودان والزنج ومن الأتراك  
والصقالبة والأرمن. وكان أهم مركز في المشرق لبيع الرقيق الأبيض اللون  
هو سمرقند. وقد امتاز كل قوم منهم بعمل : فالهنديات لرعاية الأطفال  
والهنود لتدبير المنزل والصناعة اليدوية ومعظمهم يرد من قندهار.  
والسنديات النحيلات اشتهرن بالميل إلى السرور والفكاهة وبحسن  
الاستعداد للغناء. ومولدات مكة عرفن بالرقعة والعيون الناعسة، والأمة

(١) القفطي : أخبار الحكماء ص ٣٨٧.

البربرية لا تبارى في حسن الإنتاج وتقوم بأي نوع من العمل . وكان أحسنهن من اشترت من البربر وهي في التاسعة فقضت ثلاث سنين في مكة ومثلها في المدينة ثم رحلت إلى العراق في السادسة عشرة لتتشف . فإذا بيعت في الخامسة والعشرين جمعت بين جودة الأصل ودلال المدنيات ورقة المكيات وثقافة العراقيات . . . والسودانيات كن يغمرن الأسواق . وقد عرفن بالميل إلى الرقص والضرب ، والحبشيات عرفن بالضعف والترهل . والتركية ولود تجيد الطهي ، والرومية طيبة مخلصه . والعبد الرومي يجيد تدبير المنزل والنظام والقصد في الإنفاق والفنون الجميلة ، والأرمن عمال ولكن لا يعرفون العفة<sup>(١)</sup> . . .

وكان يوجد في بيوت الخاصة والطبقة الموسرة خليط من كل هؤلاء . وقد ذكر الطبري أن المأمون حين غضب على الفضل بن سهل أرسل فقتله باربعة من علمائه فكانوا: غالب المسعودي (الزنجي) ، وقسطنطين الرومي ، وفرج الديلمي ، وموفق الصقلي . وإذا لم يكن أصحاب الرقيق ينكرون على الجوارى أو العبيد تعليق الصليب في اعناقهم حتى في حضرة الخليفة<sup>(٢)</sup> ، فإن هذا يعني أن بيوت الطبقة المحركة في المجتمع الاسلامي كانت مفتوحة لمختلف التأثيرات من الأمم المختلفة سواء كانت تأثيرات عرقية نتيجة الزواج بالكثير من الأماء وتحويلهن إلى «أمهات أولاد» ، أم كانت تأثيرات في الدين وفي العادات والاخلاق وفي الزي والطبخ . وكانت تلك التأثيرات تنتاب البيت الاسلامي في الاندلس كما في خراسان وفي مصر كما في فارس . وكان المزيج الذي ظهر من كل ذلك أحد مميزات المجتمع في المدن الإسلامية .

ولما كان البيت الاسلامي حرما لصاحبه فإن العبيد لم يكونوا يصلحون

(١) احمد أمين - ضحى الاسلام ج ١ ص ٨٥ - ٨٧ .

(٢) الاغانى ج ١٩ ص ١٣٨ والطبري ج ١٠ ص ٢٠ .

كلهم للخدمة فيه . وكان لا بد من وجود ما يمكن أن نسميه الجنس الثالث الحيادي ليكون صلة الوصل بين مجتمع الرجال ومجتمع الحریم . وقد وجد المسلمون هذا الجنس الثالث في الخصيان . والخصاء محرم شرعا ولم يكن المسلمون يخلصون أحدا . ولكنها عادة بيزنطية قديمة اصطنعها المسلمون ووجدوا بها حلا لمشكلة الخدمة في القصور والبيوت دون خوف الاغواء على الحرم أو التعدي عليهم . لهذا كان وجودهم مقصورا على بيوت الخلفاء والطبقة العليا ، بسبب ارتفاع اثمانهم التي تبلغ أربعة أضعاف الخادم العادي ؛ نتيجة قتلهم . ولأن الكثير منهم كان يموت أثناء عملية الخصاء . وكانت تجري في أماكن معينة في اديرة صعيد مصر وفي مدينة هدية بالحبشة ، وبعض اديرة بيزنطة ، ويهود الاندلس (في مدينة بجانة) وأوروبا . وقد دخل الخصيان إلى حياة المدن الإسلامية قبل أواخر القرن الثاني . وذكروا أن الخليفة الأمين بلغ من كلفه بالخصيان أنه «طلبهم وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته في ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضا سهاها الجرادية ، وفرضا من الحبشان سهاهم الغرابية ورفض النساء الحرائر والاماء حتى رمى بهم . . .»<sup>(١)</sup> .

وحتى قال أبو نواس :

أكرم الخصيان حتى جعل التعنين دينا فافتدى الناس جميعا بأمير المؤمنين!

وحوالي مطلع القرن الرابع صارت كلمة «الخادم» في المجتمع المدني الإسلامي تعني الخصي وهو اسم اقرب إلى الاحترام ، كما قد يسمونه حسب مهنته بالمعلم والشيخ والاستاذ . وكثيرا ما كان هؤلاء الخصيان يلقون السخر من العامة الذين كانوا يصيحون بهم في الطرقات : يا عقيق! صب ماء

(١) الطبري ج ٣ ص ٩٥٠ (الطبعة الأوروبية) .



واطرح دقيق». وكانت قصصهم موضوعا دائما للتندر وتقليد أصواتهم مجالا للاضحاك .

وقد اشتهر الخصيان الترك بالصبر على المشاق في الحرب وأجادة الرمي ، وكان من بينهم قواد شجعان سواء في بيزنطة أم في الاسلام . أمثال مؤنس القائد، وفائق قائد السامانيين، وثمل القائد البحري وصاحب الانتصارات بطرسوس .

وكان لدى البويهيين والفاطميين بخاصة العديد من الخصيان البارزين مثل شكر خادم عضد الدولة، والخصي برجوان الذي ربي الحاكم بأمر الله، ولكن هؤلاء كانوا يجلبون في الواقع عشرات الألوف من الخصيان الذين يعملون في القصور وسطاء بين عالمي الرجال والحريم سواء في قصور طبقة، أم في قصور بخاري وبغداد والقاهرة.

ولما كان أغلبهم يتحول إلى الاسلام فقد كانوا ينالون المناصب الحربية وغيرها إلا الدينية . ومع ذلك فقد ذكروا أن واحدا منهم عين قاضيا في دمياط . وقد ظل الخصيان مادة الخدمة في القصور والبيوت في العصر المملوكي ، إلا أنهم لم يكن لهم في هذا العصر من مكان في الجو السياسي باعتبار أن المهالك كانوا يحتلون هذا الجو كله . والطرفان على أي حال من المملوكين .

## ٧ - حياة الطبقة الدنيا (العميارون، الاحداث، الحجرية، الحرافيش، الزعار):

هذه الطبقة التي كنا سمينها بقاع المدينة كانت لها بدورها حياتها المختلفة، وكانت تكثر في المدن الكبرى وتقل في المدن المتوسطة وتكاد تنعدم في المدن الصغيرة . وقد قدرها الطبري في بغداد يوم خلاف الأمين والمأمون

بعد نصف قرن فقط من انشاء بغداد بحوالي مائة ألف من هذه المدينة مما يكشف جاذبية المدن الكبرى لها وخطرها . وكثرة الأسماء التي تطلق عليها تكشف أنها تأتي من مصادر مختلفة لكنها كلها معدمة أو شبه معدمة . وإذا كانت الطبقة العليا هي لب المدينة ومركزها ؛ وإذا كانت الطبقة المتوسطة هي الاطار النشط الذي يقدم كل شيء للمدن ؛ فهذه الطبقة التي تسمى بالدنيا كانت تأتي في هامش الحياة في الإطار ولكنها كثيرة التفاعل والنشاط الهجومي مع الطبقات الأخرى المركزية وبصورة خاصة مع التجار والأثرياء . وشوارع بغداد في القرنين الثالث والرابع كانت خلية نحل تكتظ باخلاق من البشر فيهم العرب والترك والفرس والأرمن والديلم والروم والهند والصقالب والنوبة، وفيهم الباعة الجوالون وأصحاب الحوانيت والشواؤن والمكارية والطبالون والعبيد ومواكب الباعة يزحمون المنعطفات والزوايا . وعلى دجلة ملاحو المراكب . وفي حين يقتحم الجند الترك الأسواق بخيولهم والتجار على الحمير لا يبالون بالناس . ينادي باعة الزلاية والهراثسيون والشاربيون والراوسيون والفصادون والحجامون على قاصديهم ، وتتصاعد روائح قلائي السمك والطباخين والخبازين والنقانقيين والحلوانيين والدلالين والحمالين . وينصرف العطارون والاساكفة والحاكة والقطانون والكتانيون والسقاؤون والصياف والصاغة مع صبيانهم إلى دكاكينهم ، وتتصاعد ضجة الحدادين وطرق الصفارين وباعة البقل والجناثيين . وفي سط كل هذا الحشد المتنوع كانت تنسرب جماعات لا هي في أهل العمل ولا في الكدية والشحادة ، ولكنها أهل ذكاء وحركة ودهاء وخبائة حملت أولا اسم العيارين ، ثم اضاف الناس إليها أسماء كلها تعكس الموقف منهم كالسفلة والرعاغ والغوغاء والدهماء والزعار والطرارين . وليس لهؤلاء من مسكن إلا في اطراف المدينة الخربة ، ولا عيش إلا على ما يلتقطونه وبخاصة أيام الفتن . ويبدو أن بغداد في اتساعها السريع بعد انشائها هي التي اجتذبتهم . فلما كانت فتنة الأمين والمأمون كانوا قد اصبحوا قوة من مائة ألف رجل سلاحها الحجارة ، وعملها

الدفاع عن المدينة ونهبها معا . وكان الرباط الذي يربط بعضهم ببعض هو الفقر والاملاق . وكانت نشأتهم هجومية ضد السلطة واستمرت كذلك . ويروي الطبري قصيدة الخريمي ، في حصار بغداد سنة ١٩٨ قوله :

اخرجت الحرب من سواقطها      آساد غيل غلبا تساورها  
من البواري ترأسها ومن ال      خوص اذا استلأمت مفاخرها  
تغدو إلى الحرب في جواشها ال      صفوف إذا ما عدت أساورها  
كتائب الهرش تحت رايتها      ساعد طرارها مقامرها . .  
لا الرزق تبغي ولا العطاء ولا      يحشرها بلقاء حاشرها  
بمثل هام الرجال من خلق الصخر      يزود المقلاع بائرها . . (١)

وتكرر الموقف بعد ذلك مرات عديدة ومنها ما كان في فتنه سنة ٢٥٠ بين المعتز وأخيه المنتصر ولكن تدخل العامة في حياة بغداد إنما بلغ أوجه في القرن الرابع أيام البويهيين . ففي سنة ٣٣٤ استعان ابن شيرزاد بالعيارين والعامة لمحاربة معز الدولة البويهي (٢) وفي سنة ٣٦١ آثر فضائح البيزنطيين على الحدود وهزائمهم المتكررة للجيوش الاسلامية استنفر سبكتكين العامة والعيارين بأمر الأمير البويهي لمحاربتهم فتأر من العامة عدد كبير بأجناس السلاح والرماح والقسى حتى استعظم ما شاهده منهم لكنهم بدل أن يذهبوا للغزو وجدوها فرصة للخروج على السلطة وعجز السلطان عن إصلاحهم وإطفاء ثائرتهم (٣) . ولما ثار سبكتكين على بختيار البويهي استعان بالعامة والعيارين «فقود من رؤسائهم القواد وعرف العرفاء ونقب النقباء . . وصار له منهم جند» (٤) وفي عام ٣٨١ اشتد نشاط العيارين وكثرت الفتن بين

(١) الطبري ج ٨ ص ٤٥١ .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٢٩ .

(٣) المصدر نفسه ٨ ص ٢٠٤ ومسكويه ج ٢ .

(٤) مسكويه ج ٨ ص ٣٢٤ ، ابن الجوزي المنتظم ج ٦ ص ٦٨ .

العامّة في بغداد وزالت هيبة السلطان وتكرر الحريق في المحال . . .»<sup>(٤)</sup> وتمكن الفتى العيار البرجمي وهو أبرز مهدي الرمازيين أن يسيطر على بغداد خمس سنوات (٤٢١ - ٤٢٥) مزيجاً السلطان البويهي وبلغ من عجز الدولة أن العوام ثارت بجامع الرصافة ورجعوا الخطيب وقالوا: إن خطبت للبرجمي وإلا فلا نخطب لخليفة أو ملك<sup>(٥)</sup>.

وهذات العامّة مؤقتاً بعد مجيء السلاجقة لقوة السلاطين وجبروتهم لكنهم استأنفوا حركاتهم بعد السلاجقة العظام منذ أيام بركيارون فثاروا سنة ٤٩٠، ٤٩٣، ٤٩٧، ٥١٢، ٥١٤، ٥١٥، ٥٣٠، ٥٣٨، ٥٥٢، ٥٦٥ واستمروا على ذلك حتى مجيء الخليفة الناصر لدين الله الذي حول حركتهم النشيطة إلى حركة الفتنة.

هذه الحركات وأمثالها كانت وراء قيام الأسرة الصفارية في سجستان وفي غيرها، وهذه الجماعات كانت تقوى فقط بكثرتها وفقرها فلا شيء وراءها تخسره. ويبدو أنها وجدت بشكل محدود في مختلف المدن فانا نسمع، في هذه الفترة التي ضعف فيها المركز أن المدن قد كان يحميها «أهلها» في الشدائد المختلفة طوال القرنين الثالث والرابع<sup>(٦)</sup> كدمشق حين وقفت ضد القرامطة، وحمص وبصرى واذرعات في الشام وحلب والرقّة وحران والقدس والموصل. ومصطلح أهل المدينة في الغالب يعني المعدمين واشباههم ممن يجندهم الموسرون بأموالهم. ويبدو أن هذه الجماعات المدينية المعذمة كانت تتقارب

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٠٤.

(٢) ابن الجوزي - المنتظم ج ٨ ص ٧٨.

(٣) انظر ابن الأثير - الكامل، ج ٧ ص ٤١٥ و ص ٤٧٨ و ص ٧٦ - ٧٧ و ص ٥٢٣ - ٥٢٤ و ص ٥٤٢ و ص ٥٤٦ و ج ٨ ص ٥٤٦ و ٤٤٥ و ٤٧٥ بالاضافة إلى الطبري ٩ / ١٩٩، ومخطوط بغية الطلب ج ١ الورقة ٢٣١ ظ و ٢٣٢ و. وزبدة الخلب ج ١ ص ٨٩ و ١٠٥ و ١٣٧.

جدا مع طبقة العوام الدنيا فكانت النقلة بين الجماعتين دائمة والتعاون قائما، وتشكل في الأزمات قوة قد ترعب بسبب كثرتها العددية وطمعها في النهب، بالإضافة إلى ما ينفخ فيها من توجيهات المحرضين سواء كانوا من هذه الطبقة نفسها أو ممن يحنفون وراءها.

وقد شكلت هذه الطبقة من عامة وغوغاء مادة الحركة القرمطية في أواخر القرن الثالث مع من انضم إليها من الأعراب. وصارت تهديدا واضحا لبغداد والكوفة والبصرة ومدن وادي الفرات، وانتقلت إلى الشام فاستولت على دمشق وحمص وحماه وسلمية ومست حلب وبعضا من فلسطين. وإذا انهارت القرمطية في دمشق وما في شهاها فإن هذه المدينة اضطرت أن تدفع المبالغ الطائلة سنويا لقرامطة البحرين الذين آمنوا لها الطريق التجاري، كما اضطرت لذلك مدن فلسطين كالرملة ونابلس ويافا وعسقلان. ولكن القرامطة في هذه المرحلة الأخيرة كانوا قد تحولوا إلى دولة لا تشبه إلا في قليل القرامطة الأوائل الذين وضعوا لأنفسهم مبدأ: من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته. وبنوا لأنفسهم «مدينة الدعوة» الخاصة بهم فكانت المرآة تأتي بضمن غزها فتقدمه لقادة الحركة والصبيان يدفعون ما يأتيهم إليها. أما زعماء الحركة فكانا اثنين: دماغها المخطط (عبدان)، ويدها المنفذة (حمدان) المعروف بقرمط.

على أن الفشل الدموي لهذه الحركة السرية في الشام والعراق دفع الطبقات المهنية الصغيرة والغوغاء في طريق سري آخر على ما يظهر هو طريق التصوف الذي حاربت الدولة رموزه (كالخلاج). تماما كما حاربت القرامطة. لكنها تركت لأهل الحرف والمعدمين أن يتصوفوا ما شاؤوا ما دام ذلك لا يستهدف تغيير الملك أو تهديد النظام. وهكذا، مع اشتداد الثروات واشتداد الفقر انخرط صغار أهل الحرف في الفرق الصوفية وانتشر ذلك سواء في المشرق في خراسان ونيسابور، أو في المغرب وشمال إفريقيا حيث

كان الوسط الاجتماعي البربري متهيؤ لذلك . بدليل قيام المتصوفة من المرابطين بالتبشير الاسلامي بين السودان ، ثم باقامة الدولة التي عرفت باسمهم في المغرب ، ثم بانشقاق مذهب الموحدين وسيطرته على دولة المرابطين ولعبه الدور الاساسي في أمور المغرب حتى أواسط القرن السابع . وكانت القاعدة التي يرتكز إليها هؤلاء وهؤلاء انما كانت نتيجة تحالف طبقة العلماء مع طبقات العامة من القبائل وتوجيه القوى العامية عامة الوجهة الدينية باسم صحة الإسلام والدفاع عنه خاصة في اسبانيا الإسلامية التي أخذت تنهار .

على أن نجاح الحركات التي أخذت شكل اندفاع بشري قبلي في المغرب لم يقابله نجاح الطبقات العامية في المشرق الذي كانت المدن فيه هي مركز السلطة والنفوذ . كما كان قدم مؤسسات المدنية وبروز قيم المال فيه يحول دون انتصار الحركات السرية الثورية المعدمة كما فعل العباسيون من قبل . لذلك أخذت النقمة الاجتماعية على تكدس المال والثروة لدى الاغنياء تستسلم إلى الله ، وترى العوض في التصوف وفي قبول رقة الحال على أنه امتياز ، والفقر على أنه هبة من الله وقدر مقدور . لكن في محاولة لاصلاح المجتمع من خلال ذلك لا تهديمه ، وهكذا ظهرت منذ سنة ٢٦٠ (على يد أبي حفص عمر النيسابوري المتوفى بتلك السنة) كلمة الفتوة . وسئل بعضهم من يستحق هذه التسمية فقال : «من كان فيه اعتذار آدم وصلابة نوح ووفاء ابراهيم وصدق اسماعيل واخلاص موسى وصبر أيوب وبكاء داود وسخاء محمد ﷺ ورافة أبي بكر وحمية عمر وحياء عثمان وعلم علي ثم كان مع هذا كله يزدري نفسه ويحتقر ما هو فيه . . .»<sup>(١)</sup> .

(١) جيرالد زالنغر : الفتوة هل هي الفروسية الشرقية - دراسات اسلامية (بيروت - دار الاندلس ١٩٦٠) ص ٢٢٠ (نقلا عن كتاب اللامية للسلمي مخطوطة برلين .

وواضح من هذا الوصف أنه يرسم المثل الأعلى (الذي لا يمكن أن يكون) للإنسان الكامل كي يلاحقه الناس وعبثا ما يلاحقون . على أن هذا النشاط الصوفي التقشفي وان بقي موجودا دوما إلا أنه لم يستطع أن يستوعب كل ما يعتمل في نفوس الطبقة الدنيا من الطموحات والنزوات . وكثيرا ما كانت تهبط عن ذلك المستوى الاعلى النظري لتتعامل مع الحياة كما هي . بمرارتها وبؤسها ومكان العيش الاحسن فيها . الرضى والقناعة والاستسلام التي يقدمها التصوف كان سحابة صيف في حياة الحرفيين الصغار والباعة والمكدين والبائسين والغوغاء الذين لا يفهمون منه إلا السلبية . وهم يريدون ما يضعونه على النار، ولهذا اتجه معظمهم الى الفتوة يتسمون بها لأنها تؤمن لهم السعادتين : سعادة الدنيا الرغدة وسعادة الآخرة . أي أن التوجه في الطبقات المستورة والمعدمة أخذ من التصوف طريق الاخلاق، ومن القرامطة طريق الثورة ليكون منها مذهب الفتوة .

والفتوة كلمة استعملت في الجاهلية والاسلام للدلالة على الشهامة والكرم والمروءة دون أي اعتبار اجتماعي أو مفهوم ديني، ولكنها أخذت في العصر العباسي في العراق وايران صفة المذهب في الحياة . وقد نشأ هذا المذهب في المدن ونشأ شعبيا يرعاه زعماؤه الذين كانوا يجمعون النقيضين : فتكات اللصوص القاسية والمثل العليا للأخلاق الاجتماعية . فهم يسرقون ويقتلون وينهبون ما أمكنهم أن يفعلوا، ولكنهم في الوقت نفسه يحترمون الشجاعة ويتسمون بالشهامة ويحفظون الحرمات ويلتزمون بشرف الكلمة ويعفون عن استسلم، ويتقاسمون اللقمة، ولا يهاجمون الضعفاء . ولهذا انحصرت حياتهم ما بين القطبين المتبعدين منتهى السوء ومنتهى المروءة . . وانحصرت اعمالهم في مهاجمة الاثرياء وكبار التجار ورجال الشرطة والدولة . ولم يأت هذا الموقف عفوا ولكنه كان نتيجة ارتباط هذه الجماعات بتنظيماتها الحرفية (الاصناف) بصورة أساسية . ونتيجة لهذا الارتباط صار للفتوة

تنظيمات أبعدت عنها جموع الشحاذاة واللصوصية الدنيئة والزرع الذين ظلوا، في الغالب، على هامشها البعيد، وانشأت من قلب الكتلة الواسعة للعمامة جماعة الفتوة، ولهذا نجد أن الشكل النظري الذي تعرضه كتب «الفتوة» لهذه الجماعة يسير بعيدا عن حوادث الشغب والقتل والنهب والحرق التي كانت تقوم بها هذه الجماعات عمليا.

وقد تألفت جماعات الفتوة من أفراد يتسبون إلى بيئات اجتماعية وعرقية (وربما طائفية في أول الأمر) متباينة. وكانوا يعيشون مجتمعين عيشة يسر - على قدر الامكان - في جو من التعاون والتضحية المتبادلة والألفة بما في هذه الكلمة من معنى كامل يستوجهه طبعاً وجود هذه الجماعة بعيدا عن كل رابطة عائلية (لأن أغلبهم كانوا من فئة العزاب)، أو مهنية (رغم عمل بعضهم في بعض المهن) أو قبلية. وتتجاوز رابطتهم حدود المدينة الواحدة بمعنى أنهم تأخوا من مدن مختلفة. ويصعب علينا في المقابل أن نقول في عدد الفتيان الذين تفرغوا تفرغا تاما لمثل هذه المعيشة. أنه كان عددا جدا في كل حاضرة فالى جانب النصوص التي تحدثنا عن فتیان مسالمين منهم على هذا النحو؛ بين أيدينا نصوص أخرى تعرض لنا في أغلب المدن القديمة في المشرق (الساساني كنيسابور واصفهان وهراة ومرو) جماعات من الرجال لقبت القابا متنوعة وحقيرة أطلقها عليها كتاب يعادونها فلم يعد من اليسر التعرف عليها. ويبدو أن هذه الجماعات قد تبنت اسم (العيارين) الذين يوحى بفكرة الخروج على القانون<sup>(١)</sup>.

كانت فترات الأزمات في المدن الشرقية (اعتبارا من بغداد) هي الفترات التي يبرز بها هؤلاء على سطح الأحداث وينشرون الذعر في الأحياء المترفة، أو يقومون بنهب الأسواق واحراقها اذا امتنع أصحابها عن دفع

(١) كلود كاهن - تاريخ العرب والشعوب الاسلامية (ترجمة قاسم - بيروت ١٩٧٣) ص ٢٠٧.



الأتاوات المفروضة . وقد نجدهم منتظمين في عصابات متخصصة بقيادة رؤسائهم . وليس العيارون بالمجرمين ولا بالمثاليين ولكنهم عاشوا على هامش القانون ، كان لهم قانونهم الخاص القائم على التعاون فيما بينهم وعلى شرعية السرقة لصالح الجماعة . وكانت لهم روح الجماعة وسلوكها وإن لم ينتظموا تنظيمها جماعيا تاما . ولم يكونوا على مذهب ديني واحد فقد كانوا ينتسبون - وهذا طبيعي - إلى مختلف المذاهب المتعارضة . وبعض الباحثين يرددهم إلى الإسماعيلية خطأ ، (ولعل الأقرب للواقع أن نرد جمهورهم إلى المذهب الحنبلي الذي غدا في القرن الرابع / العاشر معقلاً في معاقل التمرد والثورة بين سواد الناس) . والفتيان عامة يناهضون السلطة القائمة أيا كانت ويتدخلون في المنازعات المحلية في المدن الكبرى وما كان أكثرها سواء كانت دينية أو مذهبية ، أم بين الأحياء أم بين فئات الشعب .

وكان العيارون والزعار يخفون في المدن التي ترابط بها حماية عسكرية ، وينتهون إلى الأنزواء في الظلام في انتظار المناسبات . أما في المدن ذات الحاميات العسكرية القليلة فكانوا يمارسون الضغط المستمر على الحكم والناس سواء ضد الحكومة أم معها . وهكذا كان بعض المتنفذين في المدن الكبرى يصطنع بعض التائبين من هذه الطبقة ليدخله في الشرطة ، ويكسب خبرته في جماعة . أما في المدن المتوسطة والصغرى حيث لا توجد شرطة ذات قوة فغالبا ما كانت الطبقة الوسطى هي التي تنشئ من هؤلاء جهاز الشرطة عمليا فيما يمكن أن نسميه بالحرس الوطني مستغلة مبادئ المرؤة فيهم . وغالبا ما فرضوا سلطانهم على الحياة العامة بل أنا لنرى أن إمارة بكاملها قد انبعثت عن حركة الفتیان (هي إمارة الصفارين)<sup>(١)</sup> .

(١) كلود كاهن - المصدر السابق ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

ويظهر الفتيان في العهد العباسي المتأخر وكأنهم يزاولون أعمالاً تدريبية، ولهم تنظيماتهم المشابهة لتنظيمات الاصناف والحرف، ومراسيمهم الاحتفالية بقبول العضو الجديد وتناول الانتخاب من شراب الملح احتفالاً به، والتزكية من قبل أحد الاعضاء القدامى، وتزويده بسر وال وحزام معينين من الجلد، وحلق جزء من شعر رأسه. فكان الفتيان الحقيقيون يعرف بعضهم بعضاً بازياتهم. ولعل هذه الطقوس مأخوذة في الأصل من التنظيمات الحرفية، فقد بقي أثرها واضحاً في هذه التنظيمات الى عصر متأخر. أو لعل هذه بالمقابل هي التي أخذت هذه التأثيرات عنها. وكان للفتيان إلى هذا رؤساء وقواد ونقباء وعرفاء في تسلسل يشبه تسلسل أفراد الجيش، وكان مثلهم الأعلى هو الإمام علي بن أبي طالب: (لا فتى إلا علي) فتى الاسلام الأول. ولا ينظرون إليه نظرة التشيع ولكن من زاوية الفتوة والمرؤة والشهامة وبعضهم في إيران يضيفون إليه سلمان الفارسي. وبعد أن كانت كلمة عيار شتيمة صارت مديحاً، ولهذا جاء في المعاجم المتأخرة (كتاج العروس) أن العرب تمدح بالعيار وتذم به.

ولعل التنظيمات الدقيقة للفتيان ظلت مجزأة ومضطربة ومتغيرة حتى مطلع القرن الخامس / ١١ م حين ازدادت العلاقة قوة من جديد بين التصوف والفتوة فازدادت دقة وترابطاً وتطوراً مع دخول كبار المتصوفة فيها والأرستقراطية المدنية. ثم تعددت الفرق وتكاثرت وكانت عنصر اضطراب وقلق في مدن المشرق وبخاصة في بغداد. واشتدت خلافاتها وظهرت فيها العصبية المذهبية (حنابلة - شوافع) والشيعية - السنية، إلى أن حاول الخليفة الناصر العباسي (٥٧٥ - ٦٢٢ / ١١٨٠ - ١٢٢٥) استقطابها واستغلالها في عهده الطويل الذي يمكن أن يعتبر صحوة الموت بالنسبة للخلافة العباسية. فقد أعاد تنظيم الفتيان تحت قيادته في نظام فرويحي يحمل الاسم نفسه. وكان غرضه من تجديد النظام استغلال هذه القوة في دعم

الامارة العباسية التي يحكمها (بغداد وما حولها)، وفي ربط الأجزاء الممزقة من الامبراطورية (كمملكة صلاح الدين) التي طلب من قادتها الانخراط في الفتوة (وقد لبسها صلاح الدين نفسه) لعل ذلك يعيد هبة الخلافة إلى ما كانت عليه منذ قرون . . . على أن فتوة الناصر التي وصفت في كتاب معاصر وضعه أبو عبدالله محمد بن العصار البغدادي (سنة ٦٤٢/١٢٤٢) وذكر منه كل قواعدها لم تكن كالفتوة الأولى فقد كانت تتكون من صناع المدن وغيرهم من العامة، كما تتكون من كبراء الدولة ورجالها على السواء. وقد انتقلت إلى مصر مع نقل الخلافة العباسية إليها ودرج سلاطين المماليك في مصر فيما بعد حتى القرن ٨/١٤ م على منح سراويل الفتوة للأمراء والأعيان المصريين في بعض الأحيان. ولعل هذا هو الذي دعا بعض الكتاب إلى تشبيه نظام الفتوة بنظام الفروسية الاوروبي رغم ما بينها من فوارق شتى.

على أن الملاحظ أن حركة الفتوة سادت في مناطق إيران وبغداد (حيث يغلب العنصر الإيراني)، وأخذ الأدب الفارسي يروي لنا منذ القرن الحادي عشر بعض تقاليدها، في حين أن المناطق التي كانت مسيحية بيزنطية كبلاد الشام ومصر ظهرت فيها منظمات مماثلة ولكنها تحمل إسم الأحداث وهم إسم شامي خالص. وبعض الباحثين مثل سوفاجيه والدوري وكاهن يرون نوعا من الإرتباط بين الفتوة وحركة الأحداث التي تكونت منذ أواسط القرن الرابع رغم بعض الفروق بينهما. فالأحداث في الواقع نوع من الحرس الوطني الذي كان رغم اصطدامه أحيانا كثيرة بالسلطان يحمل الطابع الحكومي الرسمي وينتمي بالولاء - ولو في الظاهر - إلى الطبقة الوسطى ورجالها الذي كان منهم رئيس البلد. ولم يكن للأحداث تلك الأيديولوجية الواضحة ولا ذلك التدريب ولا تلك المراسم المقننة في القبول للعضوية التي عرفت في الفتوة.

لقد كان الأحداث يعبرون في الواقع عن الرأي العام في مدن الشام ويقومون بالدفاع عنها ضمن أسوارها، وفي الأحياء في شبه ميليشيا شعبية جنباً إلى جنب مع الجيش الرسمي . كما يفرضون الأتاوات على التجار والموسرين والذميين كأنها جباية رسمية . وكان رئيس الأحداث يعتد بإتباعه ويشكل نوعاً من الحكومة تجاه حكومة المدينة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر . وقد حكم الأحداث مرة دمشق سنوات عديدة (حكم قسام السراب) وكان لهم في حلب صولتهم الواضحة . وتكشف وثائق الجينيزا ما كانوا يأخذونه من الأتاوة من يهود القدس . على أننا لا نرى فيما بينهم ذلك النزاع المذهبي أو الحزبي الذي كان يثور في بغداد، إلا في حلب حيث كان لأحداث الشيعة تنظيم، وللسنة تنظيم ولكل منها رئيسه والإتباع من النقباء والمقدمين والأفراد كما كان لهم مقرهم في المدينة وأحياءهم . وكثيراً ما كان حكام المدينة لا يجروون على فرض نفوذهم إلا بموافقة الأحداث ورأيهم ومن زعمائهم المشهورين في دمشق مثلاً بعد قسام السراب الدهيقين سنة ٣٨٧، وابن أبي طالب الجزار سنة ٤١٢ .

أما في مصر فيبدو أن النواة الأولى للزعار والعيارين كانت موجودة في الفسطاط وإن لم يكن لها وزنها الكبير أو تنظيماتها، ولعلها أضمحلت أيام قوة ابن طولون والأخشيد وكافور، وأبادت المجاعات التي رافقت السنوات الأخيرة من عهد كافور الكثير من رجالها . ولما جاء الفاطميون أواسط القرن الرابع اشتروا الناس بالإنفاق الواسع لادراكهم مدى خطر هذه الجماعات الشعبية المعارضة لهم ولا سيما لتشييعهم الإسماعيلي . فبالغوا في التقرب إلى الناس بتحديد الأسعار ومقاومة الغلاء والإحتكار وإفساح المجال للنشاط الحرفي والتجاري والتسامح مع الذمة ليمتصوا كل نقمة ممكنة . وهذا لا يعني عدم وجود هذه الجماعة التي تحيا على هامش المجتمع ولكن يعني أن هذه الجماعة لم تشكل حركة منظمة ذات هدف ايدولوجي أو دفاعي عن المدينة

كما في بغداد والشام وبقيت هامشية .

والهام إن الفاطميين استقطبوا طبقة الحرفيين صغارا وكبارا في سياسة تربوية عسكرية سبقوا بها فتوة الناصر في بغداد فقد جندوهم في فرقة عسكرية عرفت بإسم الغلمان أو الصبيان الحجرية (نسبة إلى الحجر أو الثكنة) التي كانوا يقيمون فيها بجوار دار الوزارة. ويفهم من كلام المقرئ أن هذه الجماعة كانت في البداية ومنذ عهد المعز من مهرة الصنائع وأولاد الناس<sup>(١)</sup> من مختلف المدن المصرية. وأنهم شاركوا مع الجيوش الرسمية في الحروب الصليبية الأولى ثم حل هذه الفرقة الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بعد هزيمته في عسقلان سنة ٤٨٧ وأعاد تكوينها من أبناء الجند فحسب. وينص المقرئ على أنه كان لهؤلاء الغلمان قيادة خاصة بها يتولاها أمير يقال له الموفق كما كان لها نقباء واستاذون وخدام برسماها. ويبدو أنهم كانوا يعدون أعدادا خاصا للقيام بالأعمال الفدائية التي تتقدم الجيش وكانوا يبيتون في حجرهم بعدتهم وسلاحهم وخيولهم بحيث إذا جردوا خرج كل لوقته . . . فكانوا في ذلك على مثال الذؤابة (أي المقدمة) والاستار<sup>(٢)</sup>.

أما في زمن الأيوبيين والمماليك فقد اختلف الأمر فلا أحداث هناك ولا حجرية ولا فتوة إلا شبحها الشكلي. كل ذلك كان قد انقرض خلال مائة وخمسين سنة من النضال الذي لا ينقطع مع الصليبيين ثم مع المغول لتظهر بدلا منه ومنذ عصر صلاح الدين وفي جيشه نفسه فرقة محاربة من العامة المتطوعين هي فرقة الحرافيش<sup>(٣)</sup>. وهم فرقة من المتطوعة لها قيادتها الخاصة وتتقدم الجيش النظامي في الهجوم دون أن تكون جزءا أساسيا منه. ومما

(١) المقرئ خط ج ١ ص ٤٣٢ .

(٢) المقرئ خط ج ١ ص ٤٤٤ .

(٣) في اللغة : احرفش الديك تهباً للقتال ومن هنا كانت التسمية .

يذكر لهؤلاء الحرافيش أنهم احتلوا قلعة بيت الأحزان في فلسطين بتهليلهم (الله أكبر) قبل أن يصل جيش صلاح الدين نفسه<sup>(١)</sup>. وكان لهم دورهم الفاصل ضد حملة لويس التاسع على دمياط سنة ١٢٤٧/١٢٤٩، حين كانوا يجتالون في اصطیاد الفرنج أو إحراق مراكبهم . . .

على أن العامة عاشت في العاصمة والمدن في مصر في ضيق وعسر بالقياس إلى حياة المماليك. ولاحظ الرحالة الأجانب الذين زاروا القاهرة في تلك الأيام أن في المدينة عددا كبيرا من الباعة والسوقة والسقائين والمكاريين والمعدمين أو أشباه المعدمين ممن يهيمون دون مأوى في النهار أو الليل وأجسادهم شبه عارية تقتحمهم خيول المماليك ويصطدم بهم المارة. وتفاوتوا في تقدير أعداد هذه الجماعات بين خمسين ألفا ومائة ألف. ولفتت الأنظار كثرة الشاحدين والذين يلحون في طلب الإحسان. وما كان ذلك إلا لأن طبقة المماليك بخاصة قد حرمتهم من ثروة البلاد واحتكرت حاصلها ورمت بقات الأوقاف لطبقة العلماء والتجار تاركة طبقات القاع تفتش عبثا عن معاشها. وهكذا دفع البؤس بعضهم إلى انتهاز الفرص للنهب والسلب وخطف ما يقع تحت أيديهم وكثير فيهم لون للعيش والشطار مما نجد ظللا واضحة له في حكايا ألف ليلة عن دليلة المحتالة والشاطر حسن وغيرها.

وقد أفادت هذه الطبقة الهامشية من المنازعات التي كانت تقوم بين أمراء المماليك وما أكثر ما كانت تقوم في القاهرة والإسكندرية كما في حلب ودمشق ونابلس والقدس فكانت تنحاز بالبذل إلى أمير دون آخر كما حدث سنة ٧٠٧. وحين اشتدت المنافسة بين الناصري ومنطاش سنة ٧٩١ تقرب منطاش إلى العوام وصار يقول : أنا واحد منكم وأنتم إخواننا وأصحابنا. ولكن العوام والخرافيش لم يصغوا لأن يكونوا أداة في خدمة المشترين

(١) المقرئبي نخطط ج ١ ص ٤٤٤.

لسواعدهم . بل إنهم في أيام الغلاء سنة ٧٩٨ هددوا المحتسب في القاهرة حتى انقطع أياما في بيته . وفي دمياط ثار العامة بواليهم وفسقه ، فحلقوا لحيته وجرسوه على جمل والمغانى تزفه ثم قتلوه . ولم تحتمل «المحلة» ظلم واليها سنة ٨٥٤ فنهبوه وأخرجوه عريانا وضربوه في الجامع حتى الموت<sup>(١)</sup> . وكان إذا مات أحد الولاة الظالمين دفتته الدولة في مقابر النصارى «خوفا عليه من العامة أن تحرقه لظلمه وعسفه»<sup>(٢)</sup> .

ويبدو أن جانبا من هذه الكتل العامية كانت تتصل بالطرق الصوفية على سبيل التقوى بها أو تأمين العيش وأن هؤلاء هم الذين اختصوا بلقب الحرافيش وهذا يعني أنه قد صار لبعض العامة مع الأيام ، تنظيمات وشيوخ ، أي صاروا فئة اجتماعية مميزة (منهم واحد اسمه أبو بكر في القاهرة عزل سنة ٨٥٠ فخلفه آخر اسمه حسن «بيذل الأموال»<sup>(٣)</sup> وقبله كان شيخ طائفة الجعيدية وسلطان الحرافيش على رجل اسمه أمير علي توفي سنة ٧٩١ وفي سنة ٨٠١ سجل المؤرخون موت الشيخ عبدالله شيخ الحرافيش . . .

وكان هؤلاء الحرافيش يظهرون في الأزمات المدنية كتلة ثورية متحركة قد تكون ضد الفئة الحاكمة أو معها ، وضد الأمراء وأهل الذمة والمنكوبين من الدولة وقد تنهب وتختطف أو تحافظ على المدينة كالشرطة . وفي إحدى تمثيلات خيال الظل المسماة «عجيب وغريب» يقوم الزعار بأعمال الشرطة<sup>(٤)</sup> . على أن عيش هذه الفئة في المدينة كان على الضنك والفاقة وهذا ما كان يجعلهم يبحثون عن العيش بكل وسيلة من السرقة والخيلة إلى

(١) ابن تغري بردي ج ٥ ص ٤١٤ وج ٧ ص ١٠٨ والسخاوي : التبر المسبوك ص ٣٢٢ وعقد الجمان (حوادث سنة ٨٢٠) .

(٢) ابن تغري بردي ج ٩ ص ١٣٧ .

(٣) السخاوي : التبر المسبوك ص ١٤٦ .

(٤) المقرئبي : خطط ج ١ ص ٨٩ .

الأعمال الصغيرة والشحاذة، وتكاثرهم في المدن الكبيرة كدمشق والقاهرة وحلب كان يبرزهم للعيون فيها لأن كثيرا منهم كان بلا مأوى بل ينام في الطرقات أو في أخصاص بالمنعطفات وفي الجوامع أو على أبوابها أما الملابس فمن الهلهيل المرقعة . ولكن بعض السلاطين كان يقف عليهم بعض الأوقات من باب التقوى أو الزلفى كما فعل بيبرس حين أوقف بعض الأوقاف لتغسيل الفقراء وتكفينهم ودفنهم، وأوقف سلطان آخر عليهم لشراء الخبز . وبعض كان يتصدق بمبلغ سنوي لسد حاجتهم . وفي المجاعات كانوا يخصونهم بالأموال (كما جرى سنة ٦٦٠ زمن بيبرس وسنة ٧٧٠ إذ أمر السلطان بجمع الحرافيش وعدهم وتفريقهم على الأمراء والتجار ورسم لكل حرفوش في اليوم رطلين خبزا فتوقفت الشحاذة إذ نؤدي في القاهرة بعد ذلك أن أي حرفوش شحذ صلب<sup>(١)</sup> . ومجموعة العامة والخرافيش في مصر كان لها ما يقابلها في الشام وهم من يسمون بالزعار وأهل الزعر وغوغاء الزعر وغوغاء الحارات وأوباش الزعر . كانوا نوعا من التنظيمات العسكرية المضادة والمكونة من الشباب المتمردين الناقمين . وفي حين كان الشيوخ والوجهاء هم حراس القيم الدينية والاجتماعية وكانت حماية الأمور الاقتصادية بيد المماليك كانوا يمثلون الثورة المضادة ضد الظلم الاقتصادي بالذات ولكن لا يجرؤون على تخطي القيم الدينية والاجتماعية لأنهم يصطنعونها وتشكل الستار لأعمالهم .

ولم تكن تجربة العوام العسكرية كثيفة في العصر المملوكي الأول وأن تكن هامة . فقد قاموا سنة ١٢٥٦/٦٥٨ بالدفاع عن حلب ودمشق ضد المغول وأدراجهم المماليك بين المدافعين . كما أشركوا في معركة حمص سنة ١٢٨٠/٦٨٠ وقامت قوات إضافية منهم في أسواق دمشق في فترة المعركة .

(١) ابن دقماق الجوهر الثمين ص ١٨٥ (حوادث ٧٦٦).



وفي سنة ٦٩٩/١٢٩٩ قام عامة دمشق بدورهم في الدفاع عن المدينة ضد قوات غازان . وبعد هزيمة المماليك كانوا من الشجاعة بحيث هاجموا الجيش المحتل حين سرت الشائعات بأن جيشا قادما من مصر للأتقاذ . وحين انسحب المغول تنظمت العامة للدفاع عن المدينة خوفا من هجوم جديد . وكان العرفاء ينظمون التدريب والمماليك يعينون لكل سوق قائدا . وتنظم في هذه الفترة ٥٠ ألف رجل للتمرين على السلاح وبينهم بعض الشيوخ والطلبة . وفي الإسكندرية دافع العامة هجوم الفرنج من قبرص . عليها في أواخر القرن الثامن وكانوا من أهل الحوانيت والدكاكين مع العوام . وفي سنة ٨٠٣/١٤٠٠ قام العوام في حلب وفي دمشق وانضموا إلى المماليك في الدفاع عن البلاد ضد هجمة تيمور . حتى في الحروب الخارجية دافعوا . وفي سنة ٧٨٥/١٣٨٣ قام الشعب في حلب ودفعوا ألف درهم عن كل رجل للدفاع عن المدينة ضد التركمان . وكانت تقاليد الحرب ضد الكفار تجر إلى القتال العلماء والصوفية وصغار المشايخ والطلبة لينضموا إلى المماليك في الحرب ضد الفرنج وضد أرمينيا . ولكن نفوذ العامة تلاشى مع قوة الدولة المملوكية وتساعد غناها الإقتصادي في القرن الثامن/١٤ م .

على أن أواخر هذا القرن لم تكن كأوله ومنذ حوالي سنة ٧٧٠ تبدأ سطوة العامة والزعار في الظهور بالشام حين اضحوا عنصرا هاما في كل حرب أهلية بين المماليك (سنة ٧٦٨ - ١٣٦٧/٧٠ وفي سنة ٧٨١ - ١٣٧٩/٧٨٣ - ١٣٨١) .

وحين كان الأمراء يستعينون بالشعب بعضهم ضد بعض ، وفي الحرب الأهلية التي بدأت سنة ٧٩٠/١٣٨٨ تدخلت جميع كتل العامة في الحرب وفي مختلف المدن . كان التكوين الاجتماعي والظروف العامة فيها تدفع إلى ذلك وتحدد تصرف الشعب : في القاهرة ناضل العامة مع السلطان

برقوق ضد منافسيه يلبغا الناصري ومنطاش . وكانت المدن في الشام أكثر تنظيماً ووعياً في هذه المنافسات وتجمعت دمشق حول قطبين : قيس التي ساندت برقوق، وكلب التي ساندت منطاش والتحققت عناصر عديدة من العامة ضد السلطان واستمرت الفتنة ثلاث سنوات (٧٩١ - ٧٩٤) وساند معظم الشعب منطاش ضد برقوق . وقاد عوام حلب شيوخهم في الاتجاه نفسه . وفي الحرب الأهلية التي اعقبت غزو تيمور لترك للشام لم يكن العوام أقل نشاطاً في هذا الجانب أو ذاك وقد ساند أهل حلب نوروز الحاكم ضد السلطان فرج سنة ١٤٠٩/١٤٠٦ ، وبعد ثلاث سنوات ساند العوام بدمشق السلطان فرج حتى موته سنة ١٤١٢/٨١٥ . وكانت العوامل الاقتصادية هي التي تحرك الجموع أحياناً كثيرة ولذلك ألغى برقوق سنة ١٣٨٩/٧٩١ عدداً من الضرائب لينال تأييد الجموع لعرشه المنهار، وفي سنة ١٤١٣/٨١٥ ألغى أمير نائر بدمشق ضرائب السوق والمكوس غير الشرعية ليكسب التأييد الشعبي . لكن العوام لم يكونوا يتحمسون كثيراً للتجنيد مع المماليك . وكانت مصالح الوجهاء والعوام هي التي تلعب دورها في التعاون مع هذا الفريق أو ذاك . وغالباً ما كان العامة يستخدمون أسلحتهم وهي الحجارة والنشاب والنهب حيث يجدون منفعتهم .

وكان أهم ما يقارب بين المماليك وبين العامة وأكبر إغراء يحنونهم به هو النهب وإطلاق يد العوام والزغار والخرافيش لنهب دور الأمراء المفضوب عليهم . وهكذا مثلاً أعطى بيبرس سنة ١٢٧٣/١٢٧٤ ممتلكات بعض هؤلاء للنهب العام .

وجرى مثل ذلك الكثير في القاهرة ودمشق وغيرها . ومما جرى في القاهرة نذكر أحداث سنة ١٣٦٠/٧٦١ ، سنة ١٣٦٦/٧٦٨ ، سنة ١٣٦٧/٧٦٩ ، سنة ١٣٦٨/٧٧٠ ، سنة ١٣٧٩/٧٨١ ، سنة ١٣٨٠/٧٨٢ ، سنة ١٣٩٠/٧٩٢ ، سنة ١٣٩٧/٨٠٠ ، سنة ١٣٩٩/٨٠٢ ، سنة

١٤٠٠/٨٠٣ . . . وجرى مثل ذلك في دمشق مرات عديدة منها سنة  
١٣٤٧/٧٤٨ وسنة ١٣٥٠/٧٥٢ وسنة ١٣٥٨/٧٥٩ . . .

ولعلنا نستطيع أن نكشف دور العوام والزعار في بلا الشام بوضوح أن  
نحن إقترينا أكثر فأكثر من الأحداث وتبيننا مدى الإضطراب والقلق اللذين  
أورثتهما هذه المجموعات لبلاد الشام في تلك الفترة. بسبب الظلم الذي  
تقاسيه المدن. فقد صار الزعار قاعدة الصدام الشعبية ضد كل المظالم وكان  
تدخل هؤلاء في الأمور العسكرية يضع العديد من المشاكل في سياسة المدن  
أيام العهد المملوكي الأخير: كانت المدن الشامية من وراء زعارها تتور:  
ضد التعسف الضريبي، ضد الغلاء، ضد التلاعب بالنقد، ضد سرقة  
الماليك للحاجات التي يريدون، ضد كسر إقفال الدكاكين ونهبها. وكان  
الأمراء متهمين بالإشتراك في ذلك. وكان احتجاج الجماهير يتجلى في النهب  
عند قلة الأغذية وغلاء السعر وفي الهجوم على المخابز (كما في مجاعة سنة  
١٣٧٣/٧٧٥) وفي ضرب المحتسب. وفي التجمهر أمام قصر الأمير ورجم  
ماليكه (كما جرى سنة ١٤٣٩/٨٤٣) حين أجبر التجار على بيع بضائعهم  
بأرخص من السعر.

وكانت الفتنة تتور مصطنعة أحيانا لأن بعضهم كان يوزع الأموال  
لإثارتها. كما كانت كل أزمة في الحبوب تنقلب حركة سياسية كما جرى سنة  
٨٩٣ حين قتل وأحرق رسول السلطان في دمشق وسنة ١٤٧٥/٨٨٠ حين  
هوجم نائب السلطان وأحرق بيته وكما جرى في حلب سنة ١٤٨٠/٨٨٥  
حين أراد الوالي فرض ضريبة لإرسال حملة إلى ماردين فقتله الشعب وقتلوا  
نائب السلطان الذي أشار عليه بذلك. وفي سنة ٨٥٢ حين جرس الحاكم  
بعض الفلاحين الذين جاءوه محتجين فضر بهم وطاف بهم البلد فثار الشعب  
لإنقاذهم. وكانت الحركات الثورية تتحول بسرعة في المدن الشامية إلى  
مقاومة شعبية منظمة تصل حد الثورة على الحكام. ويبدأ العامة في التحرك

ثم يصبح الحديث لدى المؤرخين عن «أهل المدينة» والسبب أن مدن الشام أصغر وأكثر تمازجا وانسجاما من القاهرة. وفي هذه الفترة تحولت أحياء المدن الشامية إلى وحدات ذات أسوار ونظام في الدخول والخروج. ولهذا أحرقت حركة الحوراني (سنة ١٤٨٤/٨٨٩) في حلب أحياء عديدة. كانت الأحياء وبخاصة في دمشق قواعد المقاومة منذ سنة ١٤٧٥/٨٨٠ حين قاومت الحكم وقتلت الضباط ورفضت دفع الأتاوات (الشاغور والصالحية كانا أشد الأحياء عنادا ورفضاً).

في هذه الفترة ظهرت كلمة الزعار في دمشق وصارت تعني جماعة عسكرية منظمة هم ورثة (الأحداث) السابقين في الشام وشكلوا بذلك مشكلة مرعبة للحكم الذي دخل عصر المماليك الثاني أي عصر الإنهيار الإقتصادي وزيادة الفقر وتفشي البطالة مما جعل الزعار أكثر ضراوة وتمللا وحركة.

لقد كانوا أهم وأقوى ميليشيا عسكرية منظمة في المدن في العصر المملوكي، ولذلك أضحووا القوة المقابلة للمماليك وللحكم المملوكي ولذلك فإن العلاقة الثلاثية الدنيايمكية القائمة ما بين الزعار والمماليك وباقى سكان المدن تكشف عن مظاهر هامة من مقاومة المدن. ومن الطرق التي كان كل من المماليك والمقاومة والسكان يسلكونها لخدمة مصالحهم وإقامة النظام في المدن.

كان الزعار منظمون ذاتيا؛ صارت لهم قصة شعر خاصة (الفرعاق)، وثياب خاصة خارجية أشبه بالثياب الرسمية. وكان بعضهم من النهابين والحرامية وأنصاف المجرمين ولكن بعضهم كان من أصحاب الحوانيت الصغيرة ومن التجارين وصغار الحرفيين. أحد زعمائهم كان يدعى (ابن الطباخ) وآخر اسمه السمكري وثالث اسمه ابن الأستاذ. وقد تنظموا في

دمشق حسب الأحياء فهم أبناؤها ولكنهم ليسوا بسبب تمردهم من تكوينها الأصلي. وكانوا يتساندون فيما بينهم ولكل حي زعيم رئيس يدعى كبير الزعار. ومنذ سنة ٩٠٢ حتى سنة ٩٠٧ نعرف أسماء عدد من هؤلاء الزعران الكبار : نعرف أربعة في حي الشاغور، ونعرف إسم قريش والسيد قريش (ولعله من الأشراف) والجاموس وأبو طاقية وابن بكر بن المبارك وابن المحوجب والسيد ابراهيم وجميل وفتيان الأقباعي وإسماعيل بن القرواني. وكان هؤلاء أيضا قاض هو القاضي تقي الدين قاضي الزعر، كما صارت مقاومتهم تنظم على مستوى المدينة كلها لا على مستوى الأحياء فقط.

وهكذا كان الزعار يقاومون جباة الضرائب بتحريض العلماء والوجهاء أحيانا (كما جرى سنة ٩٠٢). وكانوا يقاومون الحكام مرات عديدة وينجحون في طردهم كما جرى في التمرد الواسع بدمشق وحلب سنة ١٣٨٨/٧٩٠، وانقسمت كل منهما على أساس المذاهب. وسنة ٨٠٤ حين طردت دمشق حاكمها خارج المدينة سنة ١٤٠١/٨١١ حين ثارت حماه وثار عامة السوق ضد احتجاز بعض الرهائن ورجعوا حاكم القلعة. وسنة ١٤٤٤/٨٤٨ حين تسببت ثورة في حماه في نقل الحاكم إلى الإسكندرية. وفي سنة ١٤٧٧/٨٨٢ طرد العامة حاكم حماة خارج البلد. وفي سنة ١٤٩٨/٨٩٦ حين تسببت الثورة في قتل مائة من العامة عدا الموظفين.

ومن الملاحظ أن الشيوخ (في دمشق وطرابلس خاصة) كانوا يساندون العامة ومساندتهم كانت هامة بسبب الأيديولوجية الدينية في حين كان الوجهاء على الغالب يساندون المالك ضمانا لمصالحهم.

لكن كان للزعار إنفصالهم الجزئي عن مجموع سكان المدينة... ويتفقون ضد الحكومة وقد يتفق الزعار في حي ضد الأحياء الأخرى ويفرضون «الخوة» أي الأتاة على التجار ولا يدفعون الضرائب ولكنهم

يخربون أحياءهم بقدر ما يحمونها ويدخلون النظام العام في الفوضى بأكثر مما يدافعون عن الظلم الواقع . وكان لها شعاراتهم وشاراتهم الخاصة ولهم في الوقت نفسه من الشئائل ما يذكرنا بنظام الفتوة الذي لم يبق منه أيام المماليك إلا شبحه . فقد كانوا يتعاونون فيما بينهم ويكفون عن أي عمل مسيء في أحيائهم (من فسق أو شراب أو تدمير أو قتل) ويحفظون الكلمة وتهزهم النخوة والمرؤة ويدافعون عن المظلومين . لكن العنف الشديد كان ميزة أعمالهم وربما كان سبب الضغط والظلم الشديد . ومعظمهم كان يعمل ولكن في الحرف الصغيرة والدكاكين وهذا يعني أنهم متصلون بحياة المدينة العاملة وسكانها العاملين وبيعهم الطرق الصوفية أحيانا ومن هنا نجد أن بعض الوجهاء وبعض شيوخ الدين يلتحقون بهم .

واعتبارا من سنة ١٤٨٥/٨٩٠ في أواخر العهد المملوكي يعترف المماليك بالزعار قوة عسكرية ويدخلونهم في الجيش بوصفهم قوة مشاة إضافية مساعدة للحرب ضد البدو والأعداء الخارجيين . كان ذلك حين ازدادت الحاجة إلى المحاربين تحت ضغط العثمانيين على سلطنة المماليك وحرب الطرفين حول أضنة وطرسوس .

ففي سنة ١٤٨٨/٨٩٣ استعرض الزعار (من حي الشاغور) في عرض رسمي خاص أمام نائب السلطنة وفي سنة ٨٩٥ أضيف حوالي ٣ آلاف من زعار الأحياء إلى مشاة الجيش وهم بالسلاح الكامل في استعراض عام رسمي . ودفعت لهم الحكومة في الغالب أجرتهم للحرب ضد البدو وتهدة المشكلات في القرى .

واستعرض الزعار للحملات الحربية بعد ذلك سنة ١٥٠٠/٩٠٦ وسنة ١٥٠٤/٩١٠ و١٥٠٧/٩١٣ وسنة ١٥٠٨/٩١٤ وفي هذا الإستعراض الأخير أرسلوا في حملة عسكرية إلى حوران .

وظل الزعار يقومون بالدور نفسه في العصر العثماني الذي بدأ في البلاد العربية سنة ١٥١٦/٩٢٣ وصنة ١٥١٧ . ففي سنة ٩٢٧ طلبت حكومة الثائر الغزالي من الزعار المعونة على تهدئة الثورات والدفاع عن أسرهم وأعراضهم ضد الترك . وطلبت من شباب الأحياء القيام بمظاهرات (عراضات) وإظهار السلاح وعينت لكل جماعة قائدا منها . . . وأضحلت سلطة الزعار تدريجيا بعد ذلك وبقيت أشباح منها إلى مطلع القرن الحالي تحت الإسم التركي (زكرتية).

## الفصل الثامن

### الأوضاع الاجتماعية حياة الله و حياة الجد

كانت هذه الاحتفالات تضم ألوانا شتى من الأعياد في المدن : بعضها ديني وبعض رسمي وبعض محلي ، وبعض عائلي . وفيها ما هو من ابتكار التجمعات المدنية الإسلامية وبعضها تقليدي سابق للإسلام . وبعضها دوري في حين أن بعضها الآخر يكون في المناسبات فقط . ولكنها تدل كلها على أن المجتمع المدني كان في حاجة إلى الترويح عن النفس بشكل أو بآخر ولو بالبكاء وفي حاجة إلى كسر الرتابة اليومية بالخروج عليها . وإذا كان بعضها يدل على عمق الشعور الديني في المجتمع ؛ فإن بعضها الآخر كان يدل على رقة المظهر الإسلامي في الحياة العامة وعلى الرغبة في الإشتراك في الجانب الاجتماعي والمسلمي من الأعياد التقليدية والنصرانية .

#### أ - الأعياد الدينية الإسلامية :

تعقدت مراسم وتقاليد هذه الأعياد وأضيفت إليها من خلال المجتمع الإسلامي مواسم وأعياد أخرى ، نابعة من بعض العقائد : فعيد الفطر غدا في العهد العباسي على شيء كثير من الأبهة والعظمة<sup>(١)</sup> ، تسطع الأنوار فيه في

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨ ص ١٧١ .



بغداد وغيرها من المدن في المشرق؛ وفي المغرب والأندلس في جميع ليالي العيد، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل، وتزدحم الأسواق بالناس وقد لبسوا الجديد الذي أعدوه لهذه المناسبة، كما تزدحم الزوارق على دجلة وعلى النيل، وفي الموانئ بأبهي الزينات، وتتألأ الأنوار في قصور الخلافة ويجلس الخلفاء لتقبل التهئة، وقد جرت العادة في بغداد وغيرها من المدن كدمشق والقدس ومكة ونيسابور أن تشعل قناديل المساجد وشموعها طيلة أيام شهر رمضان وتخرج الإنعامات خلال الأيام الأربعة السابقة للعيد من دار الخلافة إلى العامة والخاصة<sup>(١)</sup>. ويقول المقدسي : وإعلم أن خمسة في خمسة مواضع من الإسلام : حسن رمضان بمكة، وليلة الختمة بالمسجد الأقصى، والعيدين بصقلية، ويوم عرفة بشيراز، ويوم الجمعة ببغداد. وأيضا ليلة النصف من شعبان بإيليا (القدس) ويوم عاشوراء بمكة حسن<sup>(٢)</sup>. وكان من مراسم الخلافة أن يغادر الخليفة قصره إلى صلاة العيد في موكب مهيب، وعليه بردة الرسول الأعظم، وبين يديه مصحف عثمان، ومعه رجال الدولة بالأقبية السود، ويكبر الناس عند مروه وعند وصوله إلى الجامع وينادون : (السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام). فيرد عليهم التحية بلثم أطراف البردة والتلويح بها. ويعود الموكب بعد الصلاة إلى القصر لإستعراض الجند بكامل ملابسهم وخيولهم<sup>(٣)</sup>. ويجلس الخليفة على كرسي مرتفع في دست كامل أرمي أو خز، ومن خلفه الغلمان والخدم متقلدين السيوف. وتعد في مواجهة الخليفة ستارة ديباج فإذا دخل رفعت ومتى أريد صرف الناس مدت<sup>(٤)</sup> وكان الأمراء يرتدون القباء الأسود وأما

(١) الكازروني : مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية (تحقيق كوركيس وميخائيل عواد بغداد ١٩٦٢) ص ٢٥.

(٢) المقدسي ص ١٨٣.

(٣) التنوخي /نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٩٠ وابن الجوزي المنتظم ج ١٠ ص ٣٥.

(٤) هلال الصايغ : رسوم دار الخلافة ص ٩٠ - ٩١.

القضاة فالطيلسان والعمائم السود.

ومواكب القواد والوزراء لم تكن أقل بكثير من مواكب الخلفاء. روى هلال الصابي عن موكب القائد نازوك أنه يسير وبين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى أصحاب النفط وعددهم كبير. وبلغ من شدة الزحام أن الرجل كان لا يستطيع اجتياز الموكب. وتشهد المدن الأخرى شكلا مصغرا من مواكب الخليفة والقواد في عالم الإسلام كله، ويتكرر ذلك المشهد في جميع المدن يوم عيد الأضحى الذي يرافقه تقديم الأضاحي. وقد ذكروا أن الخليفة المقتدر حين بويغ وزع في يوم التروية (٨ ذى الحجة) ويوم عرفة (٩ منه) من البقر والغنم ثلاثين ألف رأس، ومن الإبل ألفي رأس<sup>(١)</sup>. وكان شهر رمضان هذا الشهر الذي يتجلى فيه منتهى الكرم عند المسلمين. ويحكى عن الوزير ابن عباد أن داره كانت لا تخلو في كل ليلة من ليالي رمضان من ألف نفس تظفر. وأن صدقاته في هذا الشهر تعدل مبلغ ما يطلق منها في جميع شهور السنة.

واهتم العباسيون بالمولد النبوي الشريف والاحتفال به مع ازدياد التعظيم للرسول ﷺ منذ مطلع القرن الرابع الهجري (حوالي سنة ٣٠٠هـ)، ولو أن أهل الصلاح اعتبروا ذلك بدعة. كما صار الناس بعد استقرار البويهيين في بغداد يحتفلون بمولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين وزوجته فاطمة الزهراء لكن الإهتمام بهذه الموالد كان مقصورا على الشيعة.

وقد أبرز البويهيون، إلى ذلك، الاحتفال بغدير خم وإحياء ذكراه (وهو يوافق ١٨ من ذى الحجة). ويذكرون أن الرسول الأعظم حين مر بهذا الغدير وهو عائد من مكة إلى المدينة أخذ بيد علي وقال: «أنت عندي بمنزلة

(١) ابن الجوزي المصدر نفسه ج ٦ ص ٦٨.

هارون من موسى . من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»<sup>(١)</sup> . وكان الشيعة يحيون هذا العيد بالصلاة ركعتين في صبيحته . وكان أول من احتفل بهذا العيد هو معز الدولة سنة ٣٥٢ فضربت الدبابدب والبوقات وأسرع الناس إلى قبور الأولياء في الكوفة وبغداد<sup>(٢)</sup> . واستمر الاحتفال طول العهد البويهي رسميا . ثم صار احتفالا شيعيا إلى اليوم .

ومقابل عيد الغدير كان عامة السنة يحتفلون بذكرى يوم الغار ابتكره لهم الشيوخ (ويوافق ٢٦ من ذى الحجة) وكانوا في هذا اليوم يبالفون بالزيينات وإيقاد النيران ونصب الأعلام وإقامة الأفراح . وقد استمر ذلك طيلة القرن الخامس<sup>(٣)</sup> . وقد أضاف البويهيون موسما دينيا آخر هو يوم عاشوراء ذكرى استشهاد الحسين فقد أرغم معز الدولة الناس على الاحتفال بهذا اليوم فمنع الطباخين من طهي الطعام ، ونصبت القباب في الأسواق وعلق عليها السواد وخرجت النساء مرسلات الشعور بلطمن في الطرقات ، وإقيمت المآتم في الدور والمساجد . وقد كانت الأسواق تغلق في هذا اليوم في بغداد والمدن الأخرى وتقام فيها المآتم والنواح أيضا ويتشع الشيعة بالسواد . ويرددون في مجالس خاصة كيفية الاستشهاد وبيالفون في تنميق الحديث حتى غدا «عاشوراء» مؤسسة اجتماعية استمر الاحتفال بها إلى اليوم .

وثمة من الإحتفالات الدينية الصغرى احتفال ختم القرآن إذ يجوب الأحداث بعض الشوارع ينشدون الأناشيد وتقام المآدب وتوزع الخلع على المقرئين إن كان أهل الحدث من ذوي اليسار .

(١) ابن الجوزي/المنتظم ج٨ ص ١٦ وص ١٤٦ .  
(٢) ابن الجوزي/المنتظم ج٧ ص ١٦ .  
(٣) التويري/نهاية الأرب ج١ ص ١٧٧ ، وابن الجوزي/المنتظم ج٧ ص ٢٥٧ .

وكان العباسيون يشرفون على تنظيم موكب الحج السنوي من بغداد .  
يختارون للحجيج كله أميرا هو في العادة من الأشراف الطالبين ويتم اختياره  
بدار الخلافة بحضور القضاة والأشراف والفقهاء . ويخلع عليه الخليفة  
فيذهب بمن تجمع في بغداد إلى مكة مفوضا منه بالخطبة وبحماية قوافل  
الحجاج الذين يجتمعون من مختلف أنحاء المشرق في بغداد . وثمة مواكب  
ثانوية تذهب من دمشق ومن مصر ويتقدم الموكب حامل العلم وضاربو  
الكوسات وجند السفر والقواد والدعاة والحجاب<sup>(١)</sup> . وينصب أمير الحج  
هناك لواء الخليفة ويخطب بإسمه ويعلق قناديل الفضة والذهب التي حملت  
إلى الكعبة بإسمه والاستار لها . وعند العودة يحتفل بالعائدين ويقدم لهم  
الخليفة الخلع والهدايا<sup>(٢)</sup> .

وقد تضاعفت الأعياد والمواكب حين صارت القاهرة مقرا للخلافة  
الفاطمية وصارت تشهد مواكب الخلفاء الفاطميين فيها . فقد كان من  
سياستهم ان يبهروا الناس بالمواكب الفخمة ، وبالمزيد من إظهار التزين  
والأبهة وكانت مواكبهم على نوعين : المواكب العظام : موكب أول العام  
وأول رمضان والجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان وصلاة عيدي الفطر  
والأضحى ، وموكب وفاء النيل وفتح الخليج . ما المواكب الصغرى فكانت  
تسمى المواكب المختصرة - على قول القلقشندي<sup>(٣)</sup> . وتحدث عند ركوب  
الخلفاء لمناظرهم ويكون ذلك عادة في أيام السبت والثلاثاء سائر الأشهر ،  
ويصحب الخليفة الوزير والحرس الخاص ويسمون صبيان الركاب ، فيمر  
الموكب بالجامع العتيق حيث يجد مصحفا يقال إنه مصحف علي بن أبي  
طالب فيقبله فإذا انقضت الصلاة استأنف الخليفة السير إلى دار الملك<sup>(٤)</sup> .

(١) الكازروني مقامة في قواعد بغداد ص ٧٤ .

(٢) ابن الجوزي / المتظم ج ٧ ص ٧٥ .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٣ - ٥٢٠ .

(٤) المقرئزي خطط ١ ص ٤٨٤ .

وقد اعتاد الخلفاء الفاطميون أن يضيفوا إلى مراسم الاحتفال بالعيدين إقامة مادبتين يستقبل فيها الخليفة الخاصة في قصر والعامّة في قصر آخر. وقد حضر أحدها ناصري خسرو سنة ٤٤٠ ووصفها : قائلا أدخلني الحاجب من بوابة القصر الرئيسة وقد رأيت في طريقي اثني عشر قصرا يؤدي كل منها إلى الآخر. وكل قصر يفوق سابقه بمحتويات لا تصدق . . .

وراح بعد ذلك يذكر كرسي العرش الذي هو من الذهب الخالص ومن ورائه صورة ميدان صيد تتعارك فيه الفرسان والطرائد حتى تكاد تنطق. والبسط الحريرية البالغة النعومة والشبابيك التي تحطف الأبصار، وهيئة المائدة السلطانية التي تصل حد الإعجاز، وفي وسطها شجرة اترنج من السكر محملة بتمر من قطع السكر (ويستهلك القصر في يوم العيد خمسين ألف رطل) ومن حولها آلاف الصور، ويحمل إلى القصر كل يوم حمل أربعة عشر بعيرا من الثلوج لتبريد المياه السلطانية وللأمراء نصيب منها<sup>(١)</sup>. ويذبح الفاطميون لهذه الموائد مالا يقل عن ٢٥٦٠ رأسا من النوق والبقر والجاموس والكباش<sup>(٢)</sup> كل مرة. وتقدم في كل منها مالا يقل عن عشرين قنطارا من الحلوى. وحكوا أن يانس الصقلي صاحب الشرطة السفلى في القاهرة سنة ٣٠٨، حمل في رمضان السهاط وقصور السكر والتماثيل وأطباق فيها تماثيل من الحلوى، وحمل أيضا علي بن سعد بن المسيب المحتسب القصور وتماثيل السكر وطافا بها شوارع القاهرة.

وفي مطلع العام الهجري يقيم الخليفة صلاة العيد التي تتخللها التسابيح وينشر العلمان اللذان على المنبر، ويخطب الخليفة خطبتين. ثم

(١) ناصري خسرو/ الرحلة سفرناق ص ١١٢ - ١١٤.

(٢) المقرئزي خطط ج ١ ص ٣٨٨ والمقفى (مخطوط اسنامبول رقم ١٣٦٦ ج ٢ ورقة ٢٠٦).

وانظر للمزيد من التفاصيل كذلك القلقشندي ج ٣ ص ٥٢٨ و ٥١٤ و ٥١٥ و ٥١٦ و ٥٠٢ و ٥٠٣ و ٥٢٠.

ينصرف إلى قصره في موكبه حيث تكون الموائد قد مدت للناس . وأما يوم غديرخم فقد عني الفاطميون به أي عناية واعتبروه من أهم الاحتفالات الدينية لأنه يكون الجذر الشرعي لدولتهم . وكان السنيون في مصر يشهدونه للفرجة وللتمتع بمواكبه وبما ينحرون فيه لأنهم يفضلونه على عيد الأضحى . ويجتمع الناس في الجامع الأزهر ويخرجون إلى القصر لنوال الجوائز ويخرج الخليفة إلى قنطرة المقس ويستعرض الاسطول ويباركه ويدعوه له . ويعود بعد ذلك إلى القصر وقد سبقه الوزير ويصعد كرسي الدعوة وهو منبر بدرجات ومن حوله الوزير وكبار الدعاة ثم يتلو قاضي القضاة حديث غديرخم . ثم يصلي بالناس ركعتين وينفض الجمع بالتهاني ويتوجه الوزير لذبح الأضاحي تماما كعيد النحر، وينتهي الحفل بسماط فخم في القصر ويتوزع الطعام والأكسية وتوزيع الأيامي .

وكان ليوم عاشوراء لدى الفاطميين مكانة . ومع أنه قديم سابق للإسلام إلا أن صدفة وقوع مقتل الحسين فيه جعل له مكانة خاصة يعبر فيها الشيعة عن منتهى الحزن بمختلف الأشكال . ولم ينقله الفاطميون عن البويهيين لاهو ولا يوم غديرخم لأن الفاطميين سبقوا في الاحتفال بهما منذ كانوا في أفريقية . وحين انتقلوا إلى القاهرة كان للاحتفالين جو أكثر أثرا وأوسع تنظيما . في حين ظل السنيون على العادة القديمة من صوم هذا اليوم والاحتفاء به والتزين وإقامة الولائم . وفي هذا اليوم تعطل الأسواق في الدولة الفاطمية ، ويخرج المنشدون فيسيرون إلى الجامع العتيق (جامع عمرو) ثم يسيرون في موكب ينوح ويبكي ويحتجب الخليفة عن الناس حتى إذا علا النهار ركب قاضي القضاة والشهود بملابس الحداد إلى مشهد الحسين ، ثم يأتي الوزير فيجلس في صدر المكان ويتناوب القراء القرآن وينشد الشعراء قصائد الرثاء ، ثم ينصرف الوزير إلى داره ويدخل قاضي القضاة ومن معه إلى باب الذهب (أحد أبواب القصر) فيجدونه مفروشا بالحصر بدل البسط .

فيجلس ويجلس الناس ويقرأ القراء وينشد المنشدون . ثم يقام سباط الحزن ويقدم فيه خبز الشعير والمملحات والأجبان والألبان والعسل . ويحضر الخليفة السباط ويجلس على كرسي من الجريد ومعه آله وحاشيته حفاة وهم ملثمون . ثم ينصرف الناس إلى النواح بالطرقات والمدينة مغلقة الحوانيت . وينحر الفاطميون الإبل والغنم عند مشهد الحسين للفقراء<sup>(١)</sup> . وقد كانت الإضطرابات تقوم في مصر قبل دخول الفاطميين إليها بسبب هذا اليوم<sup>(٢)</sup> ولكنها قلت بعد قيامهم بمصر . كما أن الاحتفال بعاشوراء ازداد في عهد المستعلي (٤٨٧ - ٤٩٥) ووزير الأفضل الجمالي بصورة لم تعهد من قبل . وقد ظل يوم عاشوراء إلى الآن أحد مظاهر الإنفصال بين السنة والشيعة الذين يعبرون بدورهم عن مناقضة عاشوراء بالسنة التي استنها الحجاج بن يوسف لأهل الشام والعراق أيام عبد الملك بن مروان من الاستحمام والتكحل والتطيب وإظهار الفرخ وطبخ بعض أنواع الأطعمة ومنها الحلوى المعروفة بعاشوراء في مصر .

ومن الاحتفالات التي أبرزها الفاطميون الاحتفال بموالد آل البيت (علي والحسن والحسين وفاطمة الزهراء) وليلة أول رجب ومنتصف شعبان وغرة رمضان . فلكل عيد منها نظامه . هذا إلى موكب صلاة الجمعة في الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان . وقد وصفه المؤرخون كثيرا من المقرئزي إلى القلقشندي إلى بان تغرى بردى وابن ميسر . إذ يشرف صاحب المال على تآثيث المساجد الثلاث (الحاكم والأزهر وعمرو) ويصلي فيها الخليفة الجمعة على التوالي . وتفرش الأرض بالطنافس وينحر قاضي القضاة المنبر والقبة ومقصورة الخليفة قبل وصوله ويرتدي الخلفاء الثياب البيض وعمامة بيضاء

(١) انظر المقرئزي / خطط ج ١ ص ٤٣١ وما بعدها .

(٢) المقرئزي : الفاظ الحنفا ص ٩٧ .

من الحرير، ويلقون الخطبة التي يكون ديوان الإنشاء قد أعدها. ويسير الموكب رواحا وعودة بين الجند وقرع الطبول وزنين الصنوج ووقع حوافر الحرس الكثير. وكانت تكتب له الآيات بالحرير على طرفي المحراب لثلا يخطىء في القرآن. أما الأسواق والدور في الطرقات فكانت تأخذ منتهى زينتها<sup>(١)</sup>. وقد أبطل الأفضل الجمالي أوائل القرن السادس أمر جميع الموالد سواء منها النبوي أو العلوي أو الفاطمي أو مولد الإمام الخاضر<sup>(٢)</sup>.

وكان لمواكب خروج الحج واستقباله مراسمها أيضا. وقد عني الفاطميون بها بإرسال الاستار السنوية إلى الكعبة منذ صارت مكة لهم، وكان في مصر دار نسيج خاصة هي دار الكسوة وتمائل دار الطراز، وعملها طوال السنة إعداد الكسوة التي تصنع من الديباج الأحمر المرصع بالياقوت الملون، وفي حافات الستراثنا عشر هلالا من الذهب في كل منها أترجة ذهبية بداخل كل واحدة خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر. . . وقد نقشت على حافات السترايات بحروف الزمرد الأخضر وعطرت بالمسك.

وقد ألغى الأيوبيون والمماليك بعض أعياد الفاطميين مما يتصل بالمذهب الشيعي ولكنهم زادوا في تعقيد الباقي وبالغوا فيه فكان إحياء رمضان يفتح المجال لكثير من المظاهر الدينية : من ترقب رؤية الهلال الذي يجتمع له الناس بعد عصر اليوم الأخير من شعبان في دار القاضي الشرعي ويركبون جميعا إلى مرتفع خارج المدينة يلتمسون رؤية الهلال. فإن ثبتت الرؤية أوقد التجار الشموع في الحوانيت وكثرت الأنوار والمشاعل في المساجد والطرقات وتحول الليل نهارا. وأخذ الناس جماعات في الانشاد والغناء ودق الطبول طول الليل وحمل الفوانيس الملونة. وفتحت المطاعم أبوابها طول

(١) انظر التفاصيل لدى المقرئزي خطط ج٢ ص ٢٨١ ولدى ابن تغري بردي.

(٢) المقرئزي/الخطط ج١ ص ٤٣٢.



الليل . ويطوف مسحرو الأرباع بالطبلة في القاهرة . أما في الإسكندرية فيدقون على الأبواب وينادون على الناس ، وكذلك في دمشق وحلب .

وكانت قراءة صحيح البخاري في قلعة القاهرة من أهم المظاهر في رمضان وفي بعض المدن الأخرى : كالقلعة في دمشق وحلب بحضور السلطان وقاضي القضاة . إلى أن تسلطن المؤيد شيخ فصار الاحتفال بالقراءة يبدأ من أول شعبان ويدعى إليه المشايخ والطلبة . وكان عددهم سنة ٨١٩ يزيد على الستين حرفا لكل منهم ألف درهم . وكانت تدور في هذه المجلس مناقشات فقهية كثيرا ما تحولت إلى الجدل العنيف وإلى الخراوات . إلى أن منع السلطان جقمق المناقشة سنة ٨٤٢ هـ وعند ختام البخاري يحتفل الناس احتفالا كبيرا في القلعة وترسل الخلع وتوزع الأموال<sup>(١)</sup> .

وكانت صدقات المهاليك تردى في رمضان . وقد اعتاد السلطان برفوق أن يذبح في كل يوم من أيامه خمسة وعشرين بقرة توزع لحومها مع ما يجيز من آلاف الأرغفة ويضاف من الطبخ . ويمد السهاط للناس وكانت عدة الطاعمين عليها لا تقل كل يوم عن خمسة آلاف . وكان السلاطين والأمراء يعتقدون كل يوم ثلاثين عبدا على عدد أيام الشهر وتصرف لأصحاب الجامكيات رواتب إضافية وبخاصة من السكر لعمل الحلوى . وقد بلغ راتب السكر أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون في رمضان سنة ٧٤٠ ، ثلاثة آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار . منها ستون يوميا برسم الندار السلطانية . وكان مثل ذلك كله يجري على درجات متفاوتة عن الأمراء والكبراء وطبقات الشعب الوسطى . ويحتفلون بختم البخاري ختمة القرآن بالطبل والدفوف والأبواق أحيانا كثيرة<sup>(٢)</sup> .

(١) ابن ميسر/ تاريخ مصر ص ٤٤ .

(٢) انظر المقرئبي السلوك ج ٤ ص ٤٧٢ وص ٢٠٦ وص ٨٢٣ وص ٩٩١ .

وابن حجر : ابناء الفخر ج ٢ ص ٣٨٠ - ٣٨١ وابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٣٠

ويستعد الناس في نهاية الشهر لعيد الفطر بالملابس الجديدة والكمك وبالسّمك المشقوق (في القاهرة والإسكندرية). ويزفون إمام صلاة العيد حتى المسجد وبأيديهم القناديل، وهم يكبرون طول الطريق. ويعودون به في الموكب نفسه. ويخرجون قبل ذلك إلى القبور لينصرفوا بعد الصلاة إلى زيارة الأهل والنزهات على النيل أو في البحر أو في البساتين والغوطات، وقد نجم عن ذلك في العصور المتأخرة كثير من المفاسد التي عاجلها سلاطين المماليك بتهديد المكارية والمراكبية بالإحراق<sup>(١)</sup>.

أما الحفل الرسمي بالعيد فيقوم به السلطان إذ يصعد ناظر الخاص في آخر أيام رمضان بموكب كبير حاملا الخلع، ويدخل الأمراء جميعا تلك الليلة للتهنئة وتقبيل يد السلطان وفي الصباح يخرج في موكب من أفخم المواكب إلى الصلاة في الحوش السلطاني. ثم يعود إلى الأيوان الكبير حيث يمد سباط حافل تبلغ تكاليفه في بعض السنوات خمسين ألف درهم ثم يخلع السلطان على الأمراء والكبراء. كما يفرج عن بعض المساجين<sup>(٢)</sup>.

ويستعد الناس للحج في النصف الأخير من رجب وتحتفل القاهرة ودمشق وحلب بخاصة بدوران المحمل الدورة الأولى. وقد استحدثها السلطان بيبرس سنة ٦٧٥ لإعلام الناس أن طريق الحج آمنة. وكان دورانه من أجل الاحتفالات فينادي على ذلك قبل ثلاثة أيام وتزين الأسواق ويكثرى الناس البيوت على جوانب الطريق للفرجة عليه. ويكون الدوران يوم خميس أو اثنين وتوضع كسوة الكعبة على جمل ويسير الموكب بالقضاة والعلماء وبمرمحة السلطان ويذهب بعض الناس في حجة صارت تسمى

= وابن تغرى بردى : حوادث الدهور ج ٣ ص ٥٤١ .

(١) المقرئزي : السلوك ج ٣ ص ٦٧٢ .

(٢) ابن أياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٧٤ ، والمقرئزي خطط ج ٣ ص ٣٢٦ و ٣٧٢ ، السلوك

ج ٣ ص ٣٨٦ وج ٢ ص ٨٨١ ، وابن تغرى بردى / النجوم ج ٥ ص ١٩٧ .

بالحجة الرجبية ولكنها لم تكن منتظمة .

ويعاود المحمل دورته في شهر شوال للذهاب إلى الحج وقد تخلل هذا التقليد الديني مع الأيام نوع من المساخر بدأه العامة قصد إضحاك الناس في زي بشع ، وأفراس في هيئة مزعجة ، ثم اختص به صغار المهاليك فصاروا يسمون : «عفاريت المحمل» أو «أوباش المهاليك السلطانية» فيخطفون العمائم ويصفعون الأقفية ويحرقون اللحى بالنار وربما خطفوا النساء والصبية وفرضوا الأتاوات على المارة يجيئونها غصبا حتى صار الناس يترقبون فراغ المحمل ليتخلصوا من هذه المصائب<sup>(١)</sup>.

وأبقى المهاليك على الاحتفال برأس السنة الهجرية فكان الخليفة والقضاة الأربعة يصعدون إلى القلعة لتهنئة السلطان الذي يخصص في هذه المناسبة منحا وأرزاقا إضافية لأرباب الرواتب . وقد صار من العادات تهنئة السلطان بأول كل شهر هجري ، كما صار منها منح العطايا لكل وارد على الموسرين والكبراء . وأبقى المهاليك أيضا على يوم عاشوراء فقد اعتبره فقهاء عصر المهاليك من المواسم الشرعية الرئيسية التي يجب فيها التوسعة على الأهل وإخراج الزكاة وطبخ الحبوب والتزين فيما كان الشيعة يبقونه كما كان يوم بكاء وإنشاد في قصائد النائحين .

وكان الاحتفال بالمولد النبوي من المواسم الكبرى في العهد المملوكي حرص المهاليك والناس معا على الاحتفال به بشكل يفوق الوصف من التعظيم والفخامة وفي الليلة الكبرى منه تقام للسلطان خيمة تسمى خيمة المولد تكلفت أيام قايتباي ثلاثين ألف دينار «فكانت من عجائب الدنيا»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر المقرئبي : السلوك ج ٤ ص ٨٠٠ و ٨١٨ ، وابن تغري بردي : حوادث الدهور ج ٣ ص ٥٣٨ ، والنجوم ج ٧ ص ٥٠٧ - ٥٠٨ .

(٢) ابن اباس بدائع الزهور ج ٣ ص ١٦ - ١٧ .

وعلى أبوابها أحواض الليمون والأكواب الفاخرة وحوها غلمان الشرانجانه  
لمناولة الوافدين من كبير وصغير. ويجلس السلطان في صدر الخيمة وعن يمينه  
شيخ الإسلام وعلى يساره قاضي القضاة ويتعاقب المقرئون وينعم عليهم  
السلطان بالحرير والمال. وبعد صلاة المغرب تمد الأسمطة. وبعد الطعام  
ينشد المنشدون مدائح الرسول ويقرؤون قصة مولده حتى ثلث الليل ثم يأتي  
الخليفة والقضاة لينعم عليهم السلطان ثم يبدأ السماع والغناء حتى الفجر  
والسلطان وبين يديه الأموال يعطي منها كيساً بعد كيس. وبعضهم يفرق في  
تلك الليلة أكثر من أربعة آلاف دينار. ثم يوزع السلطان في الصباح كمية  
من القمح على الزوايا والربط. وأما باقي الناس فيترقبون المولد لعمل  
الولائم والتصدق بالصدقات وقراءة الموالد وزاد بعضهم فأحضر المغاني وفرق  
الطرب وكثرت البدع بذلك وجرت العادة أن «ينقط» المدعوون صاحب  
الدار.

ولم يكن الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب وغرناطة بأقل روعة. وهذا  
الاحتفال لم تكن له صبغة رسمية إلا في وقت متأخر في أواخر القرن السابع  
الهجري (١١٣م). وقبل ذلك كان الاحتفال به فردياً لا حكومياً رسمياً ثم  
استن صاحب سبقة وطنجة الشريف أبو القاسم القرقي (ت سنة ٦٧٧) هذه  
السنة وجعل يوم المولد عيداً وطنياً رسمياً في دولته فشاركت في الاحتفال  
وبذلت الأموال عن سعة وقد ألف الشريف نفسه كتاباً حول هذه المناسبة  
سماه الدر المنظم في مولد النبي المعظم. فلم تلبث هذه العادة أن انتقلت بعد  
ذلك إلى بلاطات فاس وغرناطة وتلمسان وتونس فصارت الدولة تشترك في  
احتفالات المولد. . . . ولا زالت هذه السنة متبعة في المغرب واختصت مدينة  
سلا بإعداد موكب عظيم يعرف بموكب الشموع يخرج فيها في مساء يوم  
المولد (١٢ ربيع الأول) وفي مقدمته نائب السلطان.

ومن الاحتفالات الجماعية التي بدأت خاصة منذ العهد الأيوبي ما يتصل ببعض المواقع المقدسة أو اضرحة الأولياء وكان في كل مدينة أو حولها العديد من هؤلاء كالسروجي والشيخ رسلان وغيرهما في دمشق، وقبر خالد بن الوليد في حمص، ومقام ابراهيم بقلعة حلب، والسيد أحمد البدوي في طنطا وغيرهم. فكانت الطرق الصوفية تقيم لكل من هؤلاء وامثالهم موسما في يوم معين من السنة تخرج فيه بالطبول والدفوف والسناجق وتطوف المدينة ومن مثل هذا ما نظمه صلاح الدين بعد فتح القدس لهذه المدينة من موسم يجتمع فيه الناس إليها ويتوافق مع كثرة توافد الفرنج للزيارة هذا بالإضافة إلى موسم الحج فيها يوم مواعده.

#### ب - الأعياد الرسمية :

وتكون عند تولية الخليفة أو عند شفائه من المرض أو عودته من سفر أو حرب أو احتجامة. ولم يكن لها عند العباسيين من مراسم تلفت النظر ولا لدى الفاطميين ولكنها أخذت في العهد المملوكي كل مراسمها. فعند الاحتفال بالسلطان الجديد يجتمع القضاة والأمراء بالقلعة قبل دفن السلطان الراحل ويجلس الخليفة ويأتي السلطان فيقوم له الجميع ويجلس دون الخليفة بدرجة. ويلقي الخليفة خطبة يوصي بها السلطان بالعدل والإحسان ثم يبایعه ويفوض إليه جميع أمور المسلمين ثم يخلع عليه خلعة سوداء ويقرأ عهد الخليفة للسلطان على الناس ثم يوقعه ويوقع القضاة الأربعة. ثم يمد سباط عظيم ويتقدم الأمراء بتقبيل الأرض للسلطان ثم تضرب الطبول بالبشائر في القلعة وتزين البلد وترسل المكاتبات بالسلطان الجديد إلى الولايات للعلم بها وإقامة الزينات ويخرج هو في موكب حاملا عهد الخليفة بالسلطنة وقد أمسكه بيده وجميع الأمراء مشاة ويتوجه الموكب إلى القلعة ليجدوا السباط الهائل ينتظر.

وإذا عوفي السلطان من مرضه ضربت البشائر وتخلق الخدام بالزعفران وتوزع زوجاته على الخدم والخاصية والاعيان البنود الحرير الأصفر ويستمر ذلك سبعة أيام والأفراح مستمرة بالقلعة والكوسات تضرب ويقام للأمراء عند خروج السلطان سهاط هائل . أما الناس فيسرعون إلى اقامة الزينات «على جاري العادة» ويتفننون في أنواع الترف»<sup>(١)</sup> . وقد شهد ابن بطوطة تلك الاحتفالات عند شفاء السلطان الناصر محمد من كسر في يده، وشهد زينات تجار الأسواق في القاهرة بالحلل والحلي والحرير عدة أيام . وجرت العادة على توزيع الصدقات بهذه المناسبات وعلى اجتماع أصحاب الملاهي بالقلعة وعمل النفط ولعب الأعراب بخيولها ورماحها تحت القلعة .

وعند عودة السلطان من سفر إلى الشام أو الحجاز تحتفل القاهرة باستقباله فينادى بتبييض الحوانيت وتزيينها وتضرب الكوسات بالقلعة، والطبلخانة بدور الأمراء عدة أيام ثم يدخل السلطان المدينة وقد اصطفت المغاني على الجانبين في الدكاكين وفرشت الشوارع بشقق الحرير واستقبلته خوند الكبرى بنثر خفاف الذهب والفضة على رأسه<sup>(٢)</sup> . أما إن كان عائدا من حرب فستحضر المغاني من أعمال مصر كلها وتذق البشائر ويتفاخر الناس في نصب القلاع ( وهي أقواس النصر) وينشيء كل أمير في الأحياء قلعة أو أكثر . ويستأجر الناس الشبايبك والأبواب للفرجة . ويخرج الناس : فالمسلمون بالختات واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل وعلى رأس الجميع القضاة والأمراء والأعيان . ويحترق الموكب الأسواق والأسرى مكبلون في نهايته وسناجقهم منكسة وطبولهم مشققة . وتضاء الدكاكين بالشموع

(١) انظر ابن تغري بردي النجوم ج ٩ ص ٦٤ ، ابن حبيب : درة الاسلاك ج ٦ ص ٣٩ وجه .

ابن حجر ابناء الفصح ج ١ ص ٤٥٣ ، والمقرئزي السلوج ج ٢ قسم ٢ ص ٣١٨ .

(٢) انظر المقرئزي السلوك ج ٣ ص ٦٧٦ ، وج ١ ص ١٣٨ وابن اياس : بدائع ج ٢ ص ١١٠

و ١٩٣ .

والقناديل وتخرج المغاني بالدفوف والزغاريد والرجال بالضجيج والدعاء، وتنصب أحواض الشراب للناس ويلعب المهالك بالرماح ويخلع السلطان على الأمراء أرباب العمائم ورجال الديوان . .

ويتصل بالأعياد الرسمية : المواكب السلطانية وقد شهدنا بعضها في العصرين العباسي والفاطمي وكان لها في العصر المملوكي بهجتها، بما زادوا فيها من المراسم والألوان لتوطيد ملكهم وإبراز قوتهم وشرعيتهم . وقد كانت لهم في ذلك رسوم تظاهي أعظم الرسوم التقليدية في ممالك اليوم ولا يمكن حصرها . فقد كان لكل صاحب وظيفة مكانه المحدد في الرسم المملوكي ودوره المحدد في العمل وفي الركوب . فأمر الجاندار هو الحاجب وعليه الدوران حول السلطان بالزفة صباحا ومساء في سفره . والاستادار وله أمر البيوت السلطانية والسلاحدار والشرابخانة . وجرت العادة أن يخرج السلطان من أحد قصوره الجوانية في القلعة إلى القصر الكبير . والأمراء بالخدمة «أي بالحضرة السلطانية أربع مرات في الأسبوع . ومواكب السلاطين قسمان : قسم يجري داخل القلعة كاستقبال السفراء والرسول الأجانب وموكب الأيوان وموكب الأسطبل ليظهر السلطان باجل مظهر له على سرير الملكي الأخضر العالي كالمنبر ويقبل السفراء والأمراء الأرض بين يديه أن وجدوا، أو يكون المجلس للمظالم فيحضره القضاة الأربعة بمراسم ولكل صاحب وظيفة مكانه المحدود .

وثمة القسم الثاني من المواكب خارج القلعة وهي الأهم عند السرحات للصيد أو للعب أو في مواكب العيدين أو كسر الخليج . ولكل موكب منها تقاليدته التي لا يجوز الخروج عنها . ومنها العصائب السلطانية وهي رايات صفر عليها القاب السلطان واسمه مطرزة بالذهب، والمظلة ويعبر عنها بالخبر وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب وفي أعلاها طائر من الفضة المطلي بالذهب يحملها بعض أمراء المثين . وأمام السلطان وعن

جانبيه ووراءه كل فرقة من الجند في مكانها ومقامها وترتيبها . . حتى أنواع المراكب وصفاتها كانت محددة . فكان لا هم للدولة إلا حفظ هذه الرسوم .

### ج - الاحتفالات الأسرية :

وكانت هي الأعياد التي لا تنقطع للطبقة الوسطى احتفالا بزواج فيها أو ولادة أو ختان أو حجامة أو مأتم . ولا تخلو أسرة من ذلك فإذا بلغت هذه الاحتفالات الطبقة العليا أخذت أبعادها في البذخ والترف والولائم والانفاق الواسع مما مر بنا بعضه . أما سائرها فكان له تقاليد المعروفة من الولائم ونثر الدراهم ، وتوزيع الشراب ، ومن قراءة الموالد ، واحضار المغاني . لا يختلف ذلك بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه إلا في العادات والتقاليد المحلية وكثير منها موروث عما قبل الإسلام .

### د - الأعياد والاحتفالات السابقة للإسلام :

تبني المسلمون العديد من الأعياد الفارسية والمسيحية أو على الأقل لم يمنعونها بل شاركوا فيها وإذا رأى بعض الباحثين بها نوعا من رقة الدين فالواقع أن قبولها كان ناجما عن التسامح الإسلامي وعن حب التسلية والفرح بالأعياد والمواكب .

أولا : الأعياد الفارسية ، ويأتي النوروز في الطليعة منها لأنه أهم أعيادهم ورأس السنة الفارسية ومطلع الربيع . وكانت الاحتفالات به تستمر ستة أيام وقد احتفل الناس به على اختلاف طبقاتهم منذ مطلع العهد العباسي وكانوا يتبادلون فيه التهنئة والهدايا - على العادة الفارسية - وكان المتوكل أكثر الخلفاء الأوائل اهتماما بهذا العيد وتوزيع الهدايا فيه وقد منح (الضمان) الشاعر الخليل في مائة دينار عن كل بيت . وكان العامة هم أكثر



الناس مشاركة في هذا العيد الذي جعلوه يعدل عيدي الفطر والأضحى في مدن المشرق . وكان أصحاب السهجات يحضرون مجلس المتوكل فينثر عليهم النقود نثراً وبلغ من تقريبيهم أن كادوا يجذبون رداة ذات مرة . فأمر ببناء مجلس عال ينظر فيه إليهم<sup>(١)</sup> . وقد كانت الهدايا تتبادل بين جميع الناس من الخلفاء والوزراء والأمراء إلى عامة الشعب وقد أهدي المأمون في مناسبة النيروز سقط ذهب فيه قطعة عود هندي<sup>(٢)</sup> . على أن الخلفاء كانوا يفرقون على الناس أشياء منها صور مصنوعة من عنبر وملوك السامانيين في بخارى يخلعون على قوادهم الخلع الربيعية والصيفية . وكان من مظاهر النيروز أن يرش الماء على المارة حتى لقد أكثروا من ذلك مرة فأصاب الجنود والشرطة منهم ماء كثير حتى نودي في الأسواق ببغداد سنة ٢٨٤ بالنهي عن رش الماء لكن العادة عادت بعد ذلك وذكر البيروني أنها ما تزال موجودة سنة ٤٠٠<sup>(٣)</sup> ويذكر المقدسي أن اعياد المجوس كان يشترك فيها المسلمون «فرسوم المجوس في السوس بفارس مستعملة . وفي أعياد الكفرة تزين الأسواق، وفي شيراز يعبدون مع المجوس في النيروز والمهرجان . . .»<sup>(٤)</sup> .

ولم يكن أهل مصر أقل احتفالاً بالنوروز من أهل المشرق فهزال هذا العيد إلى اليوم هناك ويعرف بشم النسيم يخرجون فيه إلى المنتزهات والنيل . لكنه كان يجري في مطلع السنة القبطية (أول توت - آخر اغسطس) . وهو عيد قبطي في الأصل ولكنه أخذ اسمه من النيروز الفارسي<sup>(٥)</sup> . وكان يحتفل به النصارى والمسلمون على السواء . ويوسع الناس على أنفسهم فيه بالخلوى

(١) التنوخي : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ١٤٠ .

(٢) القلقشندي / صبح ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٣) البيروني، الآثار الباقية ص ٢١٥ - ٢١٨ ، والطبري ج ٨ ص ١٨١ .

(٤) المقدسي، الصفحات ٤٢٩ ، ٤٤١ .

(٥) المقرئزي خطط ج ٢ ص ٣٠ - ٣١ .

ويتهادونها من هريسة وزلاية . ويلزم النساء أزواجهن بجلب البطيخ  
الاخضر والخوخ والبلح كأنه فرض عليهم وقد يؤدي الاخلال بذلك الى  
الخصومة . وكان العامة بمصر ينتخبون في النوروز رجلا يسمونه أمير النوروز  
يطلي وجهه بالدقيق والجير ويركب في الشوارع على حمار وعليه ثوب أحمر أو  
اصفر وتسير معه الجموع فيتسلط على الناس في طلب رسم رتبه وفي يده دفتر  
مثل دفتر المحتسب فمن لم يدفع رشه بالماء والأقذار والتراب . وكان الناس  
يضرب بعضهم بعضا بالجلود والانطاع ، الفقراء في الشوارع والأغنياء في  
دورهم ولا يعترض رجال الشرطة على ذلك . فإن غلظ مستور فخرج من  
بيته لقيه رش الماء فأفسد ثيابه فأما أن يفتدي نفسه أو يفتضح . وكان يرش  
الماء على الناس في الحارات ويحي المنكر في الأسواق وفي الدور أهل  
الخسارات ، حتى الصبية في مكثهم يهجمون على معلمهم وقد يرمونه في  
البر إلا أن يفتدي نفسه بالمال .

وفي سنة ٣٣٥ ابطل الاخشيديون رش الماء ثم ابطل المعز هذا العيد  
سنة ٩٧٤/٣٦٣ . ولكنه عمل في العام التالي على أكبر صورة لم ينفع تأديب  
الناس عليه ثلاثة أيام فظل جاريا حتى عاد السلطان برقوق فأبطله أواخر  
القرن السابع / ١٣ م بعد أن وصل حد شرب الخمر جهارا ونزع الناس  
ثيابهم فالمحتشم منهم بثوب رقيق<sup>(١)</sup> .

لكن العيد عاد زمن ابنه فرج بن برقوق فكان يحتفل به احتفالا كبيرا  
فيقضي الوقت مع ندمائه في معاورة الخمر . وعبثا حاول بعض السلاطين ،  
بعد ذلك ، الغاء هذا العيد . ولكن الناس كانوا يعتبرونه عيدا يجب أن تعطل  
فيه الأسواق والمدارس ويجري اللعب ، طول العصر المملوكي . وهو أشبه  
الأعياد بعيد الكرنفال .

(١) المقرئزي : الخطط ج ٢ ص ٣٢ .

وثمة في مدن المشرق والعراق عيد المهرجان (في ٢٦ أكتوبر / تشرين الأول) أي في وسط الخريف. وتقوم الاحتفالات به ستة أيام ويشترك فيه جميع طبقات المجتمع فكأنه تكرر ليوم النوروز في تبادل الهدايا ومنح الخلع ويجلس الخليفة في هذا اليوم للعامّة: يقول الجاحظ «ولا يحجب عن الخليفة أحد في يومي النوروز والمهرجان صغيرا ولا كبيرا ولا جاهلا ولا شريفا.». وكان المهرجان إلى جانب النوروز أكبر الأعياد. وكان القواد ورجال دار الخلافة يتلقون الخلع من ملابس الشتاء والعامّة يغيرون فيه الفرش والآلات والملابس. ويمتاز هذا العيد بأن الرعية فيه تهدي إلى السلطان.

على أن العيد الفارسي الذي يشبه النوروز في مصر فهو عيد الكوسج ويكون في الأيام الخمسة التي تكس فيها السنة الفارسية ولذلك فهو يدور مع السنة. وكان الكوسج يركب فيه على بغل ويطوف في شوارع المدن الفارسية والعراقية ويطالب الناس بمطالب فمن تأخر رشوا عليه ما يفسد ثيابه. ويزعمون أن الله يقدر في هذا اليوم الحظوظ للناس ويتخذونه يوم لهو وطرب وسرور<sup>(١)</sup>.

ثانيا: أما الأعياد النصرانية، التي تيناها المسلمون أو شاركوا فيها فكثيرة وكانت تجري في المدن النصرانية السابقة على سواحل المتوسط في الشام ومصر والأندلس ولا أثر كبير لها في المشرق الساساني وإن كان بعضها يحتفل به في بغداد ومدن العراق. وكثير منها كان يتصل باحتفالات أقدم من النصرانية نفسها سواء في مصر أو الشام أو العراق وكانت تقديسا لمواضع معينة أو شخصيات تحيي ذكر بعض الألهة القديمة. ولم تندثر هذه الأعياد بسبب جذورها الاجتماعية العميقة ولكنها بدلت ثيابها فقط. غير أن الإسلام

(١) المسعودي / مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٤ وأدم متز / الحضارة ج ٢ ص ٢٩٥.

كدين لم يتقبلها لأنه يرفض الأساطير ولكن العامة كانت تتقبلها على أنها عادة جارية مرتبطة بمقدسات يصعب على الناس أو يخافون التخلي عنها. وأكثر ما كانت تقوم هذه الأعياد في الأديرة. وعلاقة المسلمين بشكل عام مع الأديرة المنتثرة من أقصى الصعيد إلى أقصى أرمينية وبغداد إلى أقصى بلاد الأندلس لم تكن سيئة إن لم تكن حيادية أحياناً وحسنة جداً لدى بعض الجماعات فقد كان لهذه الأديرة دورها الاقتصادي كمستودع للنقود ومصارف وكثيراً ما استخدمتها بعض الشخصيات الكبرى لاختفاء الثروات ثم الحصول عليها بأساليب غير شرعية، كما كانت فنادق للمسافرين من جميع الملل ومراكز لتعاطي الشراب وقصائد الشعراء في ظباء الأديرة وغلمانها باب كبير واسع. كما كانت مقراً لخصاء العبيد (وبخاصة أديرة أرمينية والصعيد). لهذا كله كانت تجتذب إليها ألواناً من الناس في أعيادها الموسمية. وكان الاشتراك فيها وفي الأعياد النصرانية الأخرى شائعاً ومحبيباً أحياناً. ومن هذه الأعياد:

عيد أحد الشعانين: وهو يوم عيد كبير للعامة ولعله كان عيد أشجار الزيتون من قبل وكان يسمى في مصر بعيد الزيتون. وكانت الوصائف فيه يظهرون في مقر الخلافة ببغداد متزينات بابهي الحلل وفي أعناقهن الصليبان من الذهب وبأيديهن سعف النخل وأغصان الزيتون<sup>(١)</sup>. وكان رسم هذا العيد في بيت المقدس أن يخرج النصارى في موكب يحملون أغصان الزيتون ويشقوا به شوارع المدينة بالقراءة والصلوات وقد أشهروا الصليب ويركب معهم وإلى البلد بموجبه كله ويذب عنهم ومعه جماهير من المسلمين. وفي مصر وسائر مدنها كانت تزين الكنائس في هذا العيد بأغصان الزيتون وسعف النخل المصفور كالصليبان ويفرقوا منها على الناس. وقد منع الحاكم بأمر الله ذلك في بيت المقدس وسائر مدن مصر. وأمر ألا يحمل أحد سعفه

(١) الاغانى ج ١٩ ص ١٣٨.

نخل أو غصن زيتون وألا يرى ذلك في يد مسلم أو نصراني . لكن العيد كان أقوى وقد عاد بعد ذلك واستمر إلى العهد الصليبي .

**عيد الفصح :** وكان النصراني والمسلمون في بغداد ومدن العراق يقصدون فيه دير سمالو شرقي بغداد، فلا يبقى أحد من أهل الطرب واللهور إلا حضره . وهناك يدور الشراب . ويحتفل به في مدن الشام كلها وفي مدن مصر على أنه من الأعياد التي تسمح باللهور .

**عيد السدق :** (أو ليلة الوقود أو عيد الوقود) : ويكون لعشرة تمضي من هذين ماه أي في ليلة عيد الميلاد كما ذكر ابن الأثير وأبو الفداء . وكانت تشترك به مدن فارس والعراق كما تشترك به مدن الشام ومصر لأن النيران والشموع كانت تشعل في ليله (مما يقربه من الزرادشتية) وتستعمل فيه أنواع مختلفة من الدهان<sup>(١)</sup> . ويحكى ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٢٩ / ١٠٣٨ عن قوم اجتمعوا في عكبرا لايقاد النار على عاداتهم . وجرت العادة في القرن الرابع على التبخير في ليلة الوقود لدفع المضرة . وصار في رسوم الملوك ايقاد النار في تلك الليلة وتاجيجها وإرسال الوحوش فيها وتطير الطيور في هبها والشرب والتلهي حولها . والبيروني ينتقد ذلك ويدعو بانتقام الله ممن يفعله<sup>(٢)</sup> . ولعل أشهر ليالي الوقود هي تلك التي أمر بها مزداويج أمير بلاد الجبل فقد جمع لها الوقود من كل مكان قبل مدة ونقل إلى وادي زرین روز قرب أصبهان، وأمر بجمع النفط والنفطين والزراقات، وباعداد الشموع العظام ولم يبق جبل مشرف أو تل ظاهر إلا وضعت عليه الاحطاب والشوك وصيدت له الغربان والحداء وعلق بمناقيرها وأرجلها الجوز المحشو مشاقة ونفطا . وعمل بمجلسه

(١) البيروني / الآثار الباقية ص ٣٢٢ و ص ٢٢٧ والقلقشندي / صبح ج ٢ ص ٤٢٢ مسكويه / تجارب الامم ج ٥ ص ٤٧٩ وما بعدها . وأبو الفداء ج ٢ ص ٣٨٨ (حوادث عام ٣٢٣) .

(٢) البيروني / الآثار الباقية ص ٢٢٦ .

الخاص تماثيل من الشمع وأساطين عظام لم ير مثلها ليكون الوقود في ساعة واحدة على الجبال وفي كل مكان وعلى الطيور التي تطلق . وعمل له سباط عظيم في الصحراء . جمع فيه من الحيوانات والبقر والغنم آلاف عديدة وزين بما لم تجر العادة بمثله . . . فلما حضر ورأى كل ذلك استصغره واحتقره واغتاظ وانسحب إلى خيمته لا يكلم أحدا<sup>(١)</sup> .

وفي أيام الفاطميين بمصر كانت ليالي الوقود لها روعتها ولم تكن ذات أصل نصراني أو فارسي ولكنها اختلطت بالإسم مع ليالي الوقود تلك وهي ذات أصل إسلامي يرجع إلى زمن عمر بن الخطاب الذي أمر الناس في مكة أن يوقدوا النار في غرة المحرم ليهتدي بها الحجاج ثم أمرهم عبدالله بن داود الوالي بعد ذلك بإيقاد النار أول رجب<sup>(٢)</sup> . ثم صارت النار توقد في المدن أول ومنتصف شهري رجب وشعبان . ولذلك كان الشيعة يصومونها كصومهم رمضان وما يزال ذلك قائما إلى اليوم . وكانت المساجد تضاء بالأنوار الساطعة بعد الغروب ويقام موكب يتقدمه قاضي القضاة على جواد يحيط به ممثلو الخليفة والحجاب والقراء . . والمؤذنون يحمدون الله ويدعون للخليفة وبأيديهم الشموع المضاءة . ومن وراء الموكب جموع الشعب حتى يصل إلى باب الزمرد حيث يكون الخليفة في انتظاره وتزداد الأضواء والشموع ليرى الجميع وجه الخليفة ويخطب خطباء الجوامع أمامه فيلوح للناس بكمه علامة الانصراف . ثم يستأنف الموكب سيره إلى دار الوزير وهناك يترجل قاضي القضاة والآخرين ويخطب الخطباء . ثم يعود الموكب مارا بالمساجد المضاءة إلى مصر . وكان حكام القاهرة ومصر يعنون عناية واسعة بضبط النظام والأمن بالشرطة والغفر<sup>(٣)</sup> . وكانت توزع على المساجد

(١) مسكويه / تجارب الأمم ج ٥ ص ٤٧٩ .

(٢) المقرئزي خطط ج ١ ص ٤٦٦ .

(٣) المقرئزي خطط ج ١ ص ٤٥٠ .

كميات كبيرة من الزيت للإضاءة . وكان ما يخص الجامع العتيق منها فقط أحد عشر قنطارا لكل ليلة . عدا ما يوزع من الهبات والهدايا والاحسان والحلوى<sup>(١)</sup> التي تمتليء بها دكاكين الباعة . وكان من الرسوم الفاطمية توزع الحلوى والسّمك على أرباب الدولة وتحميل الفقراء الفوانيس ولهم على كل فانوس درهم<sup>(٢)</sup> .

عيد خميس العدس : وهو الخميس المقدس وكان عامة النصارى لا يأكلون فيه سوى العدس الذي يعتبر طعام الحداد . وفي هذا اليوم كانت تضرب في مصر خرايرت تفرق على أهل الدولة وأهل الاسكندرية يخرجون فيه إلى المنارة بمآكلهم فمنهم من يذكر الله أو يصلي ، ومنهم من ينصرف إلى اللهوه . ولا يزالون كذلك حتى منتصف النهار<sup>(٣)</sup> . وفي مدن الشام يسمى هذا العيد بخميس البيض أو الخميس الأزرق وكان يباع فيه كما يباع في القاهرة بيض مصبوغ «يقامر به العبيد والصبيان والغوغاء وينتدب من جهة المحتسب من يروعههم ويمنعهم»<sup>(٤)</sup> .

عيد البر بارة : ويأتي في أول الشتاء (٤ ديسمبر / كانون الأول) يقول المقدسي أنه من أعياد النصارى التي يتعارفها المسلمون ويقدرّون بها الفصول وبه يعرف وقت الأمطار . ومن أمثال الناس إذا جاء عيد بر بارة فليتخذ البناء زمارة يعني فليجلس في البيت<sup>(٤)</sup> .

عيد الغطاس : وله بمصر خاصة احتفاله الكبير ، فكثير من النصارى يغطس فيه في النيل (كأنه عيد الماء المقدس) .

(١) المقرئزي خطط ج ١ ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٢) المقرئزي . خطط ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) المقرئزي خطط ج ١ ص ٢٦٦ .

(٤) المقدسي ، ص ١٨٢ .

وكان من الرسوم القديمة التي ابتدعها المسلمون أن يركب متولي الشرطة السفلى ليلة الغطاس في موكب كبير وتوقد بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل فيطوف الشوارع وينادي بعدم اختلاط المسلمين بالنصارى في تلك الليلة وإلا ينكروا عليهم عيدهم . وكان النصارى الملكانية يخرجون في موكب كبير بالصلبان المشهورة والأناجيل المرتلة «وكان لأهل مصر وأهل الملل والمذاهب بها في هذا العيد من الطيبة والفرح ما لا يكون لهم في غيره من أيام السنة وأعيادها»<sup>(١)</sup> . ويقول المسعودي في ليلة الغطاس أنه حضرها بمصر سنة ٣٣٠ ومحمد بن طغج الاخشيدي في قصره المعروف بالمختارة وقد أمر فأسرج من جانبي الجيرة والفسطاط الف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر مشات الألوفا من الناس منهم في الزوارق ومنهم في البيوت الدانية من المسلمين والنصارى ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ومعهم المآكل والمشارب والملابس وآلات اللهو والذهب والفضة وهي احسن ليلة تكون بمصر واشملها سرورا . ولا تغلق الدروب ويغطس اكثرهم بالنيل ويزعمون أنه أمان من المرض ونشرة من الداء<sup>(٢)</sup> . وكانت العادة أن يضاء سوق الشعاعين اضاءة عظيمة وتبقى حوانيته مفتوحة إلى منتصف الليل ويتحول إلى سوق للبغايا يعرفن بسيماهن<sup>(٣)</sup> . وفي سنة ١٠٢٥/٤١٥ نزل الخليفة الظاهر للفرجة على الغطاس ونزل معه الحرام ، وضرب بدر الدولة متولى الشرطتين لهم خيمة كبيرة وأمر الخليفة بإيقاد النار والمشاعل في الليل فكان وقودا عظيما<sup>(٤)</sup> .

(١) آدم متر/ الحضارة ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) المسعودي : مروج ج ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٣) المقرئزي / الخطط ج ٢ ص ٩٦ .

(٤) المصدر نفسه نقلاً عن المسيحي المعاصر .



وكان ثمة أعياد أخرى عديدة للأديرة حول بغداد والموصل وفي دمشق والقدس والقاهرة ومصر . ولهذه الأعياد مواكبها الموسمية وقاصدوها . وكان منها فيما يذكر الشابشتي ٣٦ ديراً كانت منتزهات لأهل العراق والشام و ١٩ في مصر (١) وقد أضاف إليها ناشر كتاب الديارات ٣٢ ديراً آخر . وجمع فيها ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار مائة وستة أديرة . ولاشك أن كثرتها وبقائها القرون الطويلة دليلان على أنها كانت تقوم بوظائف اجتماعية - اقتصادية في المجتمع الاسلامي .

ومن هذه الأديرة دير المطيرة، وبستان القس، ودير مارحنا، ودير القصير في القاهرة، ودير الثعالب في بغداد، الذي لا يتخلف عن عيدهِ أحد من النصارى والمسلمين لتوسطه في البلد وكثرة بساتينه، ودير اشموني بقطربل وكان من الأعياد العظيمة ببغداد يجتمع أهلها إليه كاجتماعهم إلى بعض أعيادهم ولا يبقى أحد من أهل التطرب واللعب إلا خرج إليه . فمنهم في الطيارات ومنهم في الزبازب (بدجئة) والسميريات . ويتنافسون فيما يظهرون هنالك من زيهم وبياهون بما يعدونه لقصفهم وتضرب لذوي اليسار منهم الخيام والفساطيط وتعزف عليهم القيان . . فهو أعجب منظر وأطيب مشهد وأحسنه (٢) . وكان الغريب الذي ينزل بغداد ويسأل عن اعجب وأبهى ما يستحق فيها أن يرى مما يسره ويسلي يقال له : انتظر عيد اشموني .

وثمة عيد الأحد من الصوم المسيحي وهو من أيام اللهو عند المسلمين ويعمل في دير الخوات بعكبرا المشهورة بنبیذها ويبلغ اللهو أقصاه في ليلة المشوش حين «يختلط النساء بالرجال فلا يرد أحد أحدا عن شيء وهو من

(١) الشابشتي : الديارات (وقد جمعنا ما ذكر منها في كتابه في طبعة كوركيس عداد الطبعة الثانية - بغداد ١٩٦٦) .

(٢) الشابشتي كتاب الديارات (طبعة توركيس لمواد الثانية - بغداد ١٩٦٦) ص ٤٦ .

معادن الشراب ومنازل القصف ومواطن اللهو<sup>(١)</sup> . وقد تكلم ابن خلدون فيه عن شيء يسمى : الكرج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف قبية يلبسها النسوان ، ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويثاقفون . . .<sup>(٢)</sup> كما كان يوم الأحد الرابع من الصوم المسيحي عيداً في دير درمالس يجتمع إليه نصارى بغداد ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة الا تبعمهم وكان الناس يقيمون فيه الأيام . . . على أننا يجب أن نلاحظ أن هذه الأديرة لم تكن وظيفتها اللهو للمسلمين والعبادة للنصارى ولكن لها دورها الاقتصادي فقد كان بعضها على الأقل مستودعاً للنقود ومصارف . وكان بعض شخصيات تلك العهود يخفون فيها ثرواتهم كما كانت كثيراً ما تستخدم فنادق للمسافرين بالأجرة ، ومراكز لتعاطي الشراب وبيعه وبعضها (في أمربنة والصعيد) مقراً لإخفاء الرقيق . وكانت أعيادها السنوية أسواقاً تجارية واسعة موسمية بجانب ما يقوم فيها من اللهو .

ومن الأعياد الكبرى بمصر عند النصارى عيد سرعان ما تقبله المسلمون هو عيد الخروج إلى سجن يوسف بالجيزة . وكانت عادة العامة والسوقة أن يطوفوا قبل الخروج أسواق البلد بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار ما ينفقونه في خروجهم . وحدث سنة ٤١٥ / ١٠٢٥ أن اشتد الغلاء فامتنع التجار عن الدفع فأمرهم الخليفة الظاهر بدفع ما جرت به العادة ، وكان يطلق للمحتفلين ضعف ما أطلق لهم في السنة الماضية فخرجوا إلى الجيزة عبر النيل ومعهم التماثيل والمضاحك والخيال والحكايات والسماجات وخرج الخليفة إلى الجيزة فأقام يومين ليرى الجماعة فضحك منهم واستظرفهم<sup>(٣)</sup> .

(١) الشابستي / كتاب الديارات ص ٩٣ .

(٢) انظر مجلة المشرق ج ٩ / لسنة ١٩٠٦ ص ٢٠١ .

(٣) المقرئزي / الخطط ج ١ ص ٢٠٧ (نقلا عن المسيحي) ، وأدم متر / الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

وكان للناس عند خليج الخور مجتمع يكثر فيه لهوهم ولعبهم، وفي سنة ٤١٥ اجتمع عند كنيسة المقدس خلق كثير من النصارى والمسلمين في الخيام للأكل والشرب واللهو وشوهد من سكر النساء ما ينجل ويقبح ذكره<sup>(١)</sup>. ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد في الثامن من مايو وكان النصارى يلقون فيه في النيل تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموقى ويزعمون أن النيل لا يزيد كل سنة إلا بذلك وكان اجتماع الناس له في شبرا ويرحل إليه جماعة من أهل الفجور واللهو والفسق. ويصرفون فيه أموالا لا تحصى ولا يبقى مغن أو مغنية ولا صاحب لهو ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ونحو ذلك إلا خرج لهذا العيد وكان يباع فيه من الخمر خاصة بما يزيد على مائة ألف درهم فضة وقد أبطله السلطان الناصر محمد بن قلاوون في مطالع القرن الثامن<sup>(٢)</sup>.

ويبقى أخيرا عيد خاص بمصر هو عيد وفاء النيل وكسر الخليج وكان يقام للاحتفال بذلك موكب خاص للولادة أو للخلفاء الفاطميين أو لسلاطين المماليك وكان من أعظم الاحتفالات بمصر. وقد وصف ناصرى خسرو كيف حضره الخليفة المستنصر (القرن الخامس) في عشرة آلاف فارس بالخيول المطهمة والدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة. والديباج المطرز باسم الخليفة، وبلي هؤلاء صفوف الجمال بالهوادج المزركشة يقودها الجند مع البغال بعدة الذهب.

ويسير الجند فصائل في صفوف منتظمة ميممين فم الخليج عشرين ألفا من بربر كتامة وخمسة عشر ألفا من المغاربة (البلطيان) وعشرين ألفا من المصاورة، وخلفهم من الترك والديلم عشرة آلاف (ويسمون بالمشاركة)

(١) القرينى ج ٢ ص ٩٦، ومتر / المصدر نفسه ص ٢٩٢.

(٢) القرينى الخطط ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ ومتر / المصدر نفسه ص ٢٩٢.

وخمسة عشر ألفا من البدو وثلاثون ألفا من السودان (عبيد الشراء) وبلي ذلك عدد من الأرقاء (القصرين)، والموظفين على مراتبهم والشعراء والعلماء والأمراء والقادمون من خارج مصر من المغرب واليمن والنوبة والحبشة وآسيا الصغرى وجرجان وتركستان ومن أبناء سلطان دهلي في الهند. هذا بالإضافة إلى ثلاثمائة من الديلم المشاة هم حرس الخليفة بالحلل السندسية يحملون المعاول والمزاريق. ووراء الخليفة حامل المظلة ومحف بهما الخصيان يطلقون البخور حتى إذا وصل فم الخليج سجد الناس له اجلالا وإكبارا، ونزل في سرادق عظيم يعرف بالقاطول فيه سرير الملك وهو مصنوع من الحرير الرومي المكلل بالجواهر ويتسع لخمسمائة فارس . .

وكان الاحتفال يبدأ بتلاوة القرآن ثم بقصائد الشعراء ثم بهدم فم الخليج، ويهرع الناس إلى زوارقهم فرحين في حين يعود الموكب كما جاء . . . وبصرف النظر عن المبالغات الرقمية التي أملاها على ناصري خسروحماسته للفاطميين، لكونه منهم ومن دعواتهم، فإن تناسي الأرقام لا يحجب عن القاريء مدى فخامة الموكب، ولا مدى احتفاء الفاطميين بهذا اليوم، لأنه يمثل شريان الحياة بالنسبة لمصر.

وقد حافظ المهاليك على هذا العيد. فراقبوا ارتفاع النيل السنوي بدقة واحتظوا لهبوط منسوبه أو للاحتفال بوفائه، ولأن توالي النقص سنوات يعني المجاعة التي طالما ضربت مصر في العهد الفاطمي والايوبي. فقد كانوا عند انخفاض المنسوب يعيشون بالقراء والمحدثين والقضاة الأربعة إلى مقياس النيل في الروضة لتلاوة القرآن والدعاء. ويطوف المنادون في القاهرة داعين إلى الصيام والتوبة ويصلون صلاة الاستسقاء في الجوامع الثلاثة. وقد ينزل السلطان وهو يبكي ليدعو الله ويشارك في ذلك الكبار والصغار والمسلمون وأهل الذمة أما إذا حدث العكس فإن السلطان يأمر بالسهر على الجسور لئلا تهدمها المياه. وينادي كل يوم في القاهرة بمقدار الزيادة ومقارنتها بالعام

السالف . وعند الوفاء يعلق على الشباك الكبير بدار المقياس ستر يتولى تعليقه متولى الفسطاط وتكون تلك الليلة من ليالي الفرحة العظيمة . إذ يوقد الناس الشموع والقناديل ويستأجرون المراكب بالأجور الباهظة للاحتفال في اليوم التالي بكسر الخليج الذي كان يقوم به في العادة ابن السلطان وندر أن يقوم به السلطان بنفسه<sup>(١)</sup> . وكان السلطان إذا خرج لم يخرج بموكب ولا غاشية كما في الأعياد الأخرى وحين يصل مقياس الروضة يمد سباطا كبيرا من الشواء والحلوى والفاكهة . وبعد أن يتناول منه الكبراء يسمح للعامّة بتخاطف مافيه . ويعلق صاحب المقياس في عموده اثناء فيه زعفران ويركب السلطان حرافته ويركب الأمراء الحراريق إلى حيث سد الخليج فيتزل ويسبح هو والأمراء في الماء ومواكب المتفرجين تنظر فيفتح الخليج ثم يتم ذلك الأمراء ويعود في حرافته لينعم بالخلع على من اشترك في ذلك . . . . . ويوم كسر الخليج يوم مشهود في القاهرة تغلق فيه الأسواق ويكون مناسبة كبرى للفرح والطرب واللهو وركوب النيل في جماعات ويكتب السلطان بذلك إلى سائر أعمال الدولة ليعم الفرحة الجميع<sup>(٢)</sup> .

(١) لم يتم بذلك بعد الظاهر ببيروت حتى سنة ٨٤٥ إلا الظاهر برقوق (المقريزي - السلوك ج ٣ ص ٤٨) .

(٢) انظر في ذلك كله ابن تغري بردي النجوم ج ٦ ص ٣٧٦ وج ٨ ص ١٦٦ وج ٦ ص ٤١٣ وحوادث الدهور ج ٣ ص ٤٩٦ ، وانظر كذلك ابن دقماق : الجوهر الثمين ص ٢١٣ ، والمقريزي السلوك ج ١ ص ٣٧٧ ، وابن حبيب درة الاسلاك ج ١ ص ١٢٣ وابن ابياس صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١١٤ وبدائع الزهور ج ٢ ص ٧٤ ، والسخاوي التبر المسبوك ص ٣١٠ ، وخليل بن شاهين زبدة كسف الممالك ص ١٣٩ ، والقلقشندي / صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٩٧ .

## التسلية والترويح

تعددت طرق التسلية في العالم الإسلامي وتنوعت . وكان منها العزف والغناء والشرب كما كان منها الهوايات والنزهات والحكايات المتنوعة والألعاب ، فلعبة الشطرنج كانت لعبة هندية الأصل منتشرة في المدن التي غزاها المسلمون الأوائل في العراق وايران ويروى أن عمر بن الخطاب سأل عنها مقامرة هي ؟ فقيل له : إنها تسلية لا تشبه أي لعبة فيها لعبة اخرى فقال : أفلا ينظرون إلى صوركم ؟ وقد انتشرت في العالم الإسلامي في العهد العباسي في الاندلس حتى الشام واليمن . وكان الفقهاء لا ينظرون إليها نظرة قبول لأنها تلهي عن ذكر الله ، وكان أهل المدينة لا يزوجون لاعب الشطرنج ثم تساهلوا في أمر ذلك ويذكرون من فتاوى سهل بن سهل مفتي نيسابور (المتوفى سنة ٤٠٤ / ١٠١٣) في الشطرنج قوله : إذا سلم المال من الخسران والصلاة من النسيان فذلك أنس بين الخلان .

كما يذكرون أن أبا العباس شريح (من القرن الخامس) قال في الشطرنج إذا سلمت أيديهما من الطغيان ولسانها من العدوان وصلواتهما من النسيان فهو مباح بين الأخوان غير محرم على الخلان . (١)

واشتهر عدد كبير من المسلمين في التاريخ بالشطرنج ولعبه . ومنهم من كان يلعب اثنين معا وثلاثة . وكان الصولي الكاتب (حوالي سنة ٩١٢ / ٣٠٠) أحسن لاعب في الشطرنج في عصره وقد مهد له ذلك دخول دار الخلافة في بغداد (٢) . وكان من الشطرنج نوع يلعب في قصر الخليفة المعتضد حوالي أواخر القرن الثالث الهجري وذلك بألة مستحدثة تعرف

(١) الراغب الاصفهاني : محاضرات الادباء ج ١ ص ٤٤٧ .

(٢) السعودي / مروج ج ١ ص ٣١١ .

بالجوارحية وتسمى أجزاؤها بأسماء حواس الإنسان (الجوارح)<sup>(١)</sup>. ومن الشطرنج ما يلعب على رقعة مربعة حمراء من آدم، ومنه ما يلعب على إله مستطيلة أو آلة مدورة منسوبة إلى الروم، وثالثة تدعى النجومية أو الفلكية وأبياتها اثنا عشر عدد ابراج الفلك ينقل فيها سبعة أمثلة مختلفة الألوان على عدد الأنجم الخمسة والنيرين وعلى ألوانها<sup>(٢)</sup>. وكان جلوس اللاعبين بعضهم إلى بعض صامتين مجال تساؤل، وفسر العرب وضع العجم للشطرنج بانهم لا علم لهم وكانوا إذا اجتمعوا تلاحظوا تلاحظ البقر. فجعلوا الشطرنج مشغلة! وقد لعب الشطرنج عدد من الخلفاء منهم المأمون<sup>(٣)</sup>. وكان الخاسر فيه قد لا يدفع بعض المال كما في المقامرة لكن قد يتكلف بعض الأطعمة أو الحلوى.

ولم تكن لعبة الشطرنج عامية ولكنها لعبة الخاصة. فهي ارسقراطية خاصة بالملوك والأمراء لا بالفقراء والأراذل وقالوا: مثل الفقير الذي يلعب الشطرنج كمثل الأعمى ينظر في النجوم. وقد الفت فيه الكتب ومنها نوادر الشطرنج التي وردت في كتاب حكاية أبي القاسم، وكتاب الشطرنج لأبي زكريا الحكيم وكتاب آخر في القرن التاسع لم يعرف مؤلفه.

وقد ظلت لعبة الشطرنج شائعة في العصر الفاطمي في مدن مصر والشام والحجاز وأفريقية كما شاعت في عصر الخلافة وملوك الطوائف في الأندلس. على أنها في العصر المملوكي انتشرت في الطبقة المتوسطة من التجار والكبراء بدليل الكتب التي الفت فيها. وكان سلاطين المهاليك وأمراؤهم يلعبون الشطرنج مع المقربين من الأمراء والعلماء والأدباء.

(١) المسعودي / مروج ج ٨ ص ٣١٤، وابن النديم / الفهرست ص ١٣١.

(٢) انظر المسعودي مروج ج ٨ ص ٣١٦ وص ٣١٣، وطيفور/كتاب بغداد ص ٢٩٣.

(٣) الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤٤٨ وص ٤٤٩.

وحرص بعضهم إذا خرج في أسفاره أن تحمل معه كمية ضخمة من العاج برسم خراط الشطرنج حتى إذا لعب السلطان به مرة واحدة أخذه بعد ذلك أرباب النوبة وجدد للسلطان غيره<sup>(١)</sup>.

وشبيه بها لعبة النرد وهي فارسية الأصل وكانت تعتمد على الحظ وتلعب بفصين على رقعة فيها ثلاثون أو أربعة وعشرون أو اثنا عشر بيتا، وقد شبه بعض الحكماء النرد بالأرض الممهدة لساكنيها ومنازل الرقعة وهي أربعة وعشرون بساعات الليل والنهار وبيادقها وهي ثلاثون بعدد أيام الشهر واختلاف لون البيادق باختلاف بياض النهار وسواد الليل ومنازلها الأربع بالطبائع الأربع وشبه ما يخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجاري على العباد... ولهذا ظل أهل الورع ساخطين على النرد، وأبو الليث السمرقندي يسميه «عمل الشيطان هو وسباق الحمر والصيد بالكلاب ومهارشة الكباش والديوك<sup>(٢)</sup>» لأنه كان في الغالب يلعب على رهان كالمقامرة.

وقد ذكر الأدفوي (من القرن الثامن) لعبة أخرى يتسلى بها الفضلاء في مجالسهم<sup>(٣)</sup> وتفصيلها أن يجلس جماعة ويكتبون أوراقا في بعضها صورة شخص صاحب متاع وفي البعض الآخر صورة لص. فإذا حصلت صورة صاحب المتاع في يد أحدهم قال: يا جماعة ضاع لي كذا وكذا وأريد فلانا يحضر اللص! . . . .

ومن أبواب التسلية سباق الخيل. وكان معروفا في الجاهلية واستمر في الإسلام في المناطق العربية خاصة ورووا على لسان الرسول الأعظم حديثا

(١) المقرئبي / السلوك ج ٣ ص ٧٢٩ وقد ذكر أن الكمية تبلغ خمسة قناطير من العاج.

(٢) آدم منز - الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٥٩.

(٣) الأدفوي / الطالع السعيد ص ٢٧٨.



يقول أن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللهو إلا ثلاثة : هو الرجل مع امرأته ، واجراء الخيل ، والنضال . غير أن الفقهاء اشترطوا ألا يكون السباق على مال . لكن المقامرة كانت واردة فيه حتى لقد بلغ أن كان السابق يأخذ حصان المسبوق في عام ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م<sup>(١)</sup> . وعرفت البصرة والكوفة والفسطاط بهذه التسلية ، وقد تولى مصر سنة ٢٤٢ / ٨٥٦ يزيد بن عبدالله التركي وكان متشدداً في الدين فعطل الرهان وأمر ببيع الخيل التي كانت تتخذ للسلطان ، وكان ينفق عليها من مال الدولة جرياً على العادة السابقة للإسلام . ولكن الخيل جرت من جديد سنة ٢٤٩ / ٨٦٣ وكانت حلبة السباق أيام خماروية بن طولون تقوم مقام الأعياد ، وفي سنة ٣٢٤ شرع الأخشيد في اجراء حلبة السباق على رسم أحمد بن طولون<sup>(٢)</sup> الذي كان قد بنى حلبة للخيل سماها المنظر وصفها المؤرخ القضائي (ت / ٤٥٥) فقال إنها من عجائب الإسلام الأربعة مع رمضان بمكة ، والعيد بطرسوس (الشعر) ، والجمعة ببغداد<sup>(٣)</sup> . وإنما كان ذلك لما كان يرافقها من الزينة الكاملة وركوب الغلمان والعسكر بالعدد الكاملة ، وما يجتمع فيها من البشر لمشاهدة السباق واللهو .

وقد عني الخلفاء الفاطميون كالعباسيين على السواء بعرض الخيل قبل سيرها في المواكب وكان الخليفة الفاطمي يجلس على مرتبة عالية في المبنى المعروف بالسدلي ويستدعي الوزير وكبار الدولة ويشاهده الحاضرون بأبهى حلله ويفتح الحفل بتلاوة قرآنية ثم يجري استعراض الخيول والدواب . وينتهي الحفل بتلاوة قرآنية أخرى ويرخى الستر على الخليفة . وكان سباق الخيل من أحب التسلية إلى الخلفاء والكبراء والأمراء حتى لقد ألف فيه

(١) آدم متر - الحضارة الإسلامية ص ٢٥٩ .

(٢) آدم متر / الحضارة الإسلامية / نقلاً عن المغرب لابن سعيد ص ١٨ .

(٣) المقرئزي خطط ج ١ ص ٣١٨ - ٣١٩ .

المؤلفون. ويذكر... المسعودي أن لعيسى بن هبة المصري كتابا يسمى الجلائب والحلائب ذكر فيه كل حلبة أجريت في الجاهلية والإسلام.

وكان الصيد مجالا للهو لجميع الخلفاء والكبراء، فمنذ العصر الأموي حتى العصر المملوكي الآخر بما في ذلك أمراء خلفاء وملوك الأندلس. فصور الطراد على القصور الأموية وقصائد الشعراء في الطراد وبخاصة للغزلان وحر الوحش والطيور كانت تملأ جانبا من التسلية للقائمين بها، وجانبا من الحياة الفنية للشعراء والمصورين. وليس كثيرا بين الخلفاء من لم يمارس الصيد، وكتب الأدب والقصص مملوءة بأخبار ذلك. وقد ألف فيها المؤلفون أمثال كشاجم وغيره.

ومن أولع بالصيد ولعا شديدا خمارويه بن طولون فكان يخرج له في جهات الأهرام ولا يكاد يسمع بسبع إلا قصده. وأوقع به بواسطة رجال يلبسون اللبؤ ثم وضعه في قفص ودخل به مصر ليراه الناس<sup>(١)</sup>. وأولع الخليفة العزيز الفاطمي بجوارح الطير يجلبها من السودان وغيره كما أولع بالصيد وبخاصة صيد السباع<sup>(٢)</sup>. وكان الخليفة الأمر الفاطمي يمنح دير نهبيا عشرة آلاف درهم كلما مر للصيد بقربه.

وظهرت في تمجيد الصيد منذ أيام امرئ القيس وفي العصر الأموي والعباسي قصائد تعرف بالطرديات منها قصائد المتنبي في الصيد بالشام وإن كان معظمها يدور حول امتداح كلاب الصيد ووصفها.

وكان أشهر الوحوش الضارية هو الأسد، وكان العرب يعتبرونه بعض السباع والضواري التي تعيش قرب المدن وتملا وادي الفرات ووادي نهر

(١) المقرئزي/خطط ج ١ ص ٣١٨.

(٢) ابن خلكان : وفيات ج ٢ ص ٢٠٠ (مادة العزيز).

العاصي ووادي النيل وجبال السماق والجزيرة وجبال البورز والوادي الكبير في الأندلس . وقد ذكروا أن الخليفة المتقي ( ٣٢٩ - ٣٣٣ / ٩٤٠ - ٩٤٤ ) خرج إلى الشامية بجوار بغداد لصيد السباع<sup>(١)</sup> . ويحكى عن خمارويه أنه كان لا يسمع بأسد إلا بحث في طلبه . وفي قصور الأمويين بالشام صور حائطية لصيد الوحوش ، وأقام المعتصم في قصره بمدينته الجديد سامرا حيراً كبيراً للوحوش وكان في قصر الخليفة المقتدر ببغداد حوالي سنة ٩١٢/٣٠٠ دار بها قطعان من أصناف الوحش وصار يرسل إليها كل غريب من الحيوان من جميع البلاد وأقام خمارويه في مدينة القطائع بمصر حيراً للوحش . ولكل وحش بيته . ويحكى عن المعتز أنه أطلع عبيد الله بن عبدالله بن طاهر وهو في ضيافته على عراق بين فيل وأسد<sup>(٢)</sup> . وكان في قصر المقتدر ببغداد دار بها قطعان من أصناف الوحش وصار يرسل إليها كل غريب من الحيوان من أطراف البلاد . وكان جعفر بن الفضل بن الفرات وزير الفاطميين بمصر يهوى النظر إلى الأفاعي والحيات والعقارب . وكان في داره قاعة مرخمة فيها سلال الحيات ولكل حية أو عقرب اسمها فهذه البتراء وتلك ذات القرنين والعقرب أبو صوفة . . . وكان لها حواة لصيدها ورعايتها . وكان الوزير يشيهم ويبدل لهم الجزيل<sup>(٣)</sup> .

وقد جاءنا من القرن السادس ١٢م كتاب وضعه الأمير أسامة بن منقذ بإسم (الاعتبار) ويذكر فيه العديد من قصص الصيد والوحش في ما يشبه مذكرات حياته . وقد ذكر أخبار الصيد في عصره حول مدن الشام والجزيرة وتجاربه وتجاربه والده (وهو) (الأمير الشيرزي الصياد) في (مكافحة الأسود والضواري) و(أخبار الصيد) . وحكى عن أخبار الصيد التي حضرها في

(١) متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٦٤ نقلاً عن المنتظم لابن الجوزي .

(٢) الشاشتي كتاب الديارات ص ١١١ .

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ج ٢ ص ٤٠٩ - ٤١٠ والمقريري / خطط ج ١ ص ٣١٩ .

الشام والجزيرة ومصر قائلا : «أنا ذاكر فصلا فيما حضرته وشاهدته من الصيد والقنص والجوارح فمن ذلك ما حضرته بشيزر في صدر العمر، ومن ذلك ما حضرته مع ملك الأمراء اتابك زنكي بن اقسنقر رحمه الله، ومن ذلك ما حضرته بدمشق مع شهاب الدين محمود بن تاج الملوك رحمه الله، ومن ذلك ما حضرته بمصر (وكانت للفاطميين الأخيرين)، ومن ذلك ما حضرته مع الملك العادل نور الدين محمود . . . رحمه الله، ومن ذلك ما حضرته بديار مع الأمير فخر الدين قرا ارسلان . . . (الارتقى) رحمه الله . . .»<sup>(١)</sup>. وجميع هؤلاء كانوا من ملوك تلك الفترة كما كان صيدهم يجري حول المدن التي يعيشون فيها ويحكمونها. وكان بعض هذا الصيد يجري بواسطة البزاة التي كان لها من يربها ويدربها على صيد الجوارح وقد وضعت في ذلك الكتب العديدة التي عرفت بإسم كتب البيزرة.

ولم تختلف الصورة في العصرين الأيوبي والمملوكي عن هذه الصورة في القرن السادس، وقد اشتهر المهاليك بألعاب الفروسية والصيد وأقاموا لأنفسهم أحواشا (استراحات) في مختلف أقاليم مصر ودورا زودوها بالشباك والصيادين، كما أقام نوابهم في الشام مثل ذلك لصيد الطيور والذئاب والخنازير الوحشية والغزلان. واهتم هؤلاء وهؤلاء بطيور الصيد وكلابها على اختلاف أنواعها فأنفقوا في مطاعمها وعينوا لها البازدارية. واعتاد السلطان اينال تدريب بزاته بإرسال الطيور أمامها لتصطادها ويتسلى بذلك السلطان. وكانت للسلطين سرحات للصيد في الربيع يسرح فيها السلطان كما يسرح نوابه في الشام عدة مرات إلى مواضع مخصوصة وجميع الأعيان في خدمته مثل سرياقوس وشبرا والبحيرة والغربية في مصر، ومثل وادي بردى وبانياس

(١) انظر كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ (تحقيق فيليب حتى برنستون ١٩٣٠) ص ١٠٣ - ١١٣ و ١٩٢ حتى ٢٢٦.

ووادي العاصي في الشام . وقد اعتادوا في هذه المناسبات اصطحاب الأمراء والكبراء واصطحاب الأطباء والأدوية أيضا، وتضرب حلقة من الفرسان حول الوحوش وتنفر بالضجيج ليجري صيدها حيث حشرت ويبتدىء السلطان ثم باقي الأمراء .

وقد انتشرت لعبة الكرة أو الجوكان والصواجحة (البولس) منذ القرن الرابع / ١٣م (وهي لعبة فارسية الأصل). ولكنها لم تبلغ أوج الولع بها إلا في القرن السادس حين مارسها السلاجقة الترك وكانت نوعا من التدريب العسكري في الفترة التي رافقت الحروب الصليبية . بالرغم من أن الفقهاء لم يكونوا ينظرون إليها بإرتياح فإن نور الدين وصلاح الدين كانا يلعبانها في المرج الملاصق لمدينة دمشق من الغرب (ساحة المرجة حالياً) . كما كان يلعبها الأمراء الأيوبيون والمماليك من بعد . ويعتذر نور الدين عن لعبها بأنها مران حربي للرجال والخيال . وقد بلغت هذه اللعبة إلى المماليك فتباروا بها وشغفوا وأنشأوا لها الميادين ووضعوا لها نظاما خاصا وحددوا اوقات اللعب بها وحفلاتها . وخصصوا منهم من يشرف عليها بإسم الجوكندار (أي حامل الجوكان) وهي عصا اللعب . وقد اعتاد السلاطين حين يخرجون لها أن يفرقوا على الأمراء حزامات خيول من الذهب . وكان ملعبها يخطط ويقف العدد الكبير من الفرسان عن جانبيه وفي وسط الساحة كرة يتجادبونها، ويقيم المهزوم وليمة للآخرين ربما تكلفت مائتي ألف درهم لما يذبح فيها ويبذل من الحلوى . وربما تحمل السلطان النفقات تخفيفا عن الأمراء .

ومن وجوه التسلية : التزهة إذ كانت التزهات إلى الرياض والبساتين مألوفة في كل مكان . ويميز الناس منها ثلاثة مواضع أو أربعة هي جنان الأرض . شعب بوان في فارس وصفد سمرقند وغوطة دمشق وقد يضيفون

اليها الأبله وقالوا: وأفضلها غوطة دمشق<sup>(١)</sup>، وقد ذكر المقدسي أنه وجد في كتاب بمكتبة عضد الدولة: عروس الدنيا دمشق<sup>(٢)</sup> إلا أن العالم الإسلامي كان حافلا مملوءا بمواضع النزهات حول المدن في الأرباض ذات الخضرة والنضارة سواء في الأندلس أم تركستان أم في مصر والمغرب. وكانت الأرباض حول المدن أو الأنهر العظيمة كالنيل ودجلة هي المنتفس لها والوسيلة للترويح وتغيير أجواء المدينة. ولم تكن النزهات تطيب إلا مع الطرب والغناء واللعب والشراب. وقد كانت الديارات المنتشرة في العراق والشام ومصر والأندلس توفر ذلك ولكن لا يؤمها إلا أهل الشراب والفسق في الغالب. أما أهل السماع فكانوا يكتفون به وكان متوافرا في قصور الكبراء والأمراء بما لديهم من المغنين والجواري.

ومع أن الفقهاء كانوا يكرهون السماع ويكتبون في ذمه بوصفه الطريق إلى الإنحراف ويسجلون ذلك على أصحابه إلا أن معظم الناس من الخاصة والعامية ومنهم بعض العلماء والفقهاء كانوا يميلون رغم ذلك إلى سماع المغاني. وقد يترك بعضهم شيخه ليذهب إلى سماع مغنية. وقد تصبح مغنية من الشهرة بحيث يذكرها المؤرخون (كبدعة الحمدونية المغنية التي ذكر وفاتها ابن الأثير). وفي كتاب الأغاني مئات القصص عن الغناء والمغنين كما في كتاب الامتاع والمؤانسة. وفي كتب عديدة أخرى عن الغناء ضاعت مع الأيام. ومجالس الغناء كانت لدى أهل اللهو تعدل في القيمة مجالس العلماء وتكثر عنها كثيرا في العدد. وكان الخلفاء العباسيون يقيمون للغناء مجالس أكثر مما يقيمون للعلماء وكذلك كان يفعل رجال الدولة. الذين لم تكن تطيب أمسياتهم إلا بغناء الجواري والمغنين.

(١) باقوت معجم البلدان ج ١ ص ٥١٣.

(٢) المقدسي ص ١٥٩.

واهتم سلاطين المماليك بالغناء والموسيقى اهتماما كبيرا وشجعوا المغنين والمغنيات . وكان تزمت بعض العلماء في هذا الأمر لا يعدله الا تسامح الآخرين فيه . وقد وصف أحد علماء الأزهر في ذلك العصر بأنه اشتهر بالتقشف والزهد والبعد عن زخرف الدنيا ولكن مع ميل إلى سماع المغاني والرقص واللهو<sup>(١)</sup> . وكان مؤرخو العصر يكترون من ذكر المغنين والمغنيات كما يكثر الشعراء من ذكر الغناء بما يدل على مكانتهم الاجتماعية مثل عبدالعزیز الحفني (المتوفى سنة ٧١٠) والذي كان أعجوبة زمانه في الغناء، وخديجة الرحابية (المتوفاة سنة ٨٨٧) وكانت ذات حظوة كبيرة لدى أهل الدولة، وخوي العوادة التي قيل أنها لم يدخل مصر مثلها في الغناء وضرب العود، وناصر الدين محمد المازوني الأستاذ في فن النشيد<sup>(٢)</sup> . وقد فرضت الدولة على المغنين ضريبة باسم «ضمان المغاني» استمرت حتى ألغها السلطان شعبان سنة ٧٧٨ .

وقد ادى اهتمام الناس بالغناء إلى أن ألف عدد منهم «التصانيف المفيدة في علم الموسيقى»<sup>(٣)</sup> ومن اشتهر بالبراعة في هذا الفن يومذاك الأمير اشقتمر المارديني (ت ٧٩١٠)، والفقيه أحمد بن محمد بن بركوت، والأديب محمد بن علي بن عمر المازني .

وقد شغف كثير من السلاطين المماليك بالموسيقى والغناء حتى جرت العادة في القرن الثامن / ١٤ م أن يكون لكل سلطان أو ملك جوقة من المغاني في قصره . ودفع ذلك بعض السلاطين إلى تقريب أهل الموسيقى

(١) ابن تغري بردي النجوم ج ٦ ص ١٣٦ .

(٢) انظر ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٥٤ ، وابن حجر الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٤ و ص ٩٥ ، والسخاوي : الضوء السامع ج ١٢ ص ٣٣ ، وابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) ابن تغري بردي النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٦١ .

والغناء فإذا سمع بمغن أرسل في طلبه وكلفه تعليم جواريه فن الغناء كما فعل  
الناصر محمد بن قلاوون مع المغني كتيلة بن قرانفان<sup>(١)</sup>.

أما في الأندلس فكانت قصص المغنين والمغنيات أكثر من أن تحصى .  
وقد اشتهرت اشبيلية باحتضان الغناء الأندلسي خاصة ، وكان من ملاحظات  
ابن رشد الذكية قوله : إذا مات عالم باشبيلية وأريد بيع كتبه حملت إلى  
قرطبة ، أما إذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية . وقد  
شاء أمراء الأندلس أن يجعلوا منها صورة أخرى من الشام تماثلها ، كما تحاكي  
كل ما في بغداد من حياة ورفاه لثلا يفوتهم العباسيون بشيء . فكل ما يفد من  
بغداد أو من المدن الكبرى في المشرق كان يستقبل باعجاب ، أو بامثال على  
الأقل ، في مدن الأندلس سواء كان عالماً أو لباساً أم عادة . ويكفي مثل  
زرياب المغني العراقي الذي قدم قرطبة زمن عبدالرحمن الثاني فثبت التقاليد  
المشرقية في الأندلس (هو علي بن نافع ولد عام ١٧٣ / ٧٨٩ وتوفي سنة  
٢٤٣ / ٨٥٧ م) ومكث حوالي نصف قرن حكماً في الأناقة وفي الذوق  
الشخصي والأزياء الجديدة وطرق الطعام وسيدا للموسيقى الأندلسية التي  
تطورت منذ ذلك الوقت . ثم أضاف إليه موسيقيو الأندلس ومغنوه  
اختراعات فنية هي العود ذو الأوتار الخماسية (بدل الثلاثة) والمضرب من  
مخلب النسر بدل المضرب الخشبي .

وكانت مغنيات قصر الأمير عبدالرحمن الثاني من المتأديات بالغناء في  
المشرق ، وكن يسمين بالمدينيات الثلاث لأنهن اشترين من المدينة ومنهن  
فضل التي نشأت وتلقت في قصر الرشيد تربية شعرية وموسيقية لا مثيل لها .

ومن وسائل التسلية العامة خيال الظل (أو ظل الخيال) ويبدو أنها لعبة

(١) ابن حجر الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٦٥ (ترجمة كتيلة).



قديمة صينية عرفها العرب منذ القرن الأول. فقد ذكروا أن الشاعر جريرا انشد شعرا فقال له مخنث ويل لي يا يابا فقالوا له: اسكت ويلك هذا جرير قال وأي شيء يقدر يعمل لي؟ أن هجاني أخرجت أمه في الحكاية<sup>(١)</sup>. وتروي القصة أيضا عن دعبل الخزاعي أوائل القرن الثالث: إذ قال دعبل الخزاعي لعبادة المخنث والله لاهجونك. قال والله لئن فعلت لاخرجن أمك في الخيال...<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن هذا الفن لم يكن منتشرا لقله الحديث عنه أو كان فنا شعبيا سفيها فتحاشى ذكره الخاصة. على أن عامة الناس كانوا يعرفونه في العراق وفي مصر حيث كانوا يخرجون في بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات...<sup>(٣)</sup> والخيال أشبه بشيء بقراكوز ويقوم على شخصيات من الورق المقوى تتمفصل أعضاؤها ويحركها صاحبها بعيدان أو خيوط في أصابعه. ويسرى من خلالها تمثيلات وراء شاشة يلقي عليها النور الخلفي ظل تلك الشخصيات. وتسمى حكايات الخيال: البابات (ج. بابه).

ويبدو أن خيال الظل بقي فنا شعبيا وإن شاهده فيما يقال صلاح الدين الأيوبي، والقاضي الفاضل ذات مرة واعجبا به ثم صار من الفنون التي يرغب بها المماليك وسلاطينهم مثل قانصوه الغوري الذي كان عند خروجه إلى بر الجزيرة يصطحب خيال الظل والمغاني للتسلية. وحين فتح السلطان سليم مصر احضروا له خيال الظل فانشرح صدره له وانعم عليه بثمانين ديناراً وخلع عليه وأخذه إلى استامبول<sup>(٤)</sup>. على أن بعض سلاطين المماليك كانوا قبل ذلك قد أمروا بجمع أصحاب الخيال واحراق أدواتهم من

(١) مخطوط الأجرية المكتبة (المتحف البريطاني رقم ٧٤٤ ج ٥ الورقة ٣١ ظهن).

(٢) الشاشني / الديارات ص ١٨٧ - ١٨٨.

(٣) المقرئزي / المخطوط ج ١ ص ٢٠٧ نقلا عن المسيحي المتوفى سنة ٤٢٠).

(٤) ابن اياس / بدائع الزهور / ج ٣٢ ص ١٢٥.

الشخص ومنعهم من العودة إلى مثل ذلك لما في تمثيلاتهم من «المنافية للدين والأخلاق»<sup>(١)</sup>. ويقترن خيال الظل أيام الممالك بمصر بشخصية ابن دانيال أبي عبدالله محمد الأديب الموصل الكحال الخزاعي (المتوفى سنة ١٣٢٩/٧٦٠) فقد ألف فيها كتاب خيال الظل ثلاث تمثيلات حين رأى أن هذا الفن قد مجته الاسماع!

وتلهى الناس بأعمال أخرى عديدة لم يكن لها ذلك الرواج العام أو البقاء معظمها عامي شعبي ومنها:

أ - السهجات: وهي التنكر بوجوه بشعة والتقليد للناس وقد كانت تمثل أمام المتوكل وحاشيته يوم النيروز.

ب - المحاكاة: وهي تقليد الناس بأصواتهم. وقد عرف بذلك رجل بغدادي يسمى بابن المغازلي كان يقف على الطريق ويقص أنواع الأخبار المضحكة بلهجات كل قوم من البدو إلى الزنج إلى الخدم إلى السند والترك.

وقد اسمع المعتضد بنوادره المضحكة فأمر باحضاره بين يديه<sup>(٢)</sup>. وفي أوائل القرن الرابع كان أبو الورد خادم الوزير المهلبى من عجائب الدنيا في المطايب والمحاكاة. مما يضحك الثكالى<sup>(٣)</sup>. وفي القرن الخامس نجد محمد بن أحمد أبا المطهر الأزدي يؤلف كتابا سماه حكاية أبي القاسم البغدادي ويعتبر فيه مثل هذه المحاكاة والتمثيل بابا من أبواب الأدب ووسيلة لوصف أخلاق العامة ببغداد وما يتخلله من الكلام القبيح.

ج - الألعاب الرياضية مثل الصراع وقد شجعه البويهيون. ويحكى

(١) السخاوي: التبر المسبوك ص ٣٥٣، وابن تغري بردي / حوادث الدهور ١/١١٧.

(٢) المسعودي / مروج الذهب ج ٨ ص ١٦١.

(٣) الثعالي: ينيمة الدهر / ج ٢ ص ٤٢.

أن معز الدولة كان يشتهي رؤيته فعمل له بحضرته حلقة في ميدان ونقام ثمة شجرة تعلق عليها ثياب الديباج وفي أسفلها كيس دراهم . ويقف على سور الحلقة أصحاب الطبول والزمرور وعلى الباب أصحاب الدبادب ثم يؤذن للعامّة بالدخول ويأخذ الغالب ما على الشجرة وتحتها . ثم انتشر ذلك في الأحداث ببغداد فكم عين قلعت وكم رجل اندقت . .

ومن الألعاب الرياضية السباحة التي شغف بها شبان معز الدولة فتعاطاها أهل بغداد حتى بلغوا أن واحدهم يحمل كانونا فوقه حطب متقد وقدر للطعام ويسبح واقفا إلى أن ينضج الطعام ويأكل منه إلى أن يصل دار السلطان . وكانت السباحة في مصر والإسكندرية بدورها من الرياضات الشعبية المعروفة .

ومن ألعاب الرياضة كذلك رفع الأثقال (وكان يسمى المعالجة) والمثاقفة (وهي التمرس بالجلاد والطعان) والملاكمة والمشابكة ومعظمها كانت تجري عليها المقامرة .

د - منافرة الحيوانات (أو محاربتها) : وذلك بإثارة بعضها ضد بعض : كمنافرة الديوك حتى موت أحدها . وكانت شائعة ببغداد وبراهنون عليها . ومناطحة الكباش وهي مثلها . وتطير الحمام وكانت مكروهة وتسقط أهلية الشهادة عن صاحبها لأنه يخرج بطوره إلى السطوح لتطيرها ويطلع بذلك على الحرمات .

ومن هذا الباب كان الدبابون الذين يروضون الدببة ، والقرادون الذين يدرّبون القروود وكان لعملهم رواجه الشعبي دوما لظرافته .

على أن أهم ما انتشر في العهد المملوكي لعبتان اقتضتھا طبيعة العصر المملوكي الحربية ومهنة المهالك ولم تكونا تسلية بقدر ما كانتا مرانا حربيا

خاصا بالمهاليك وهما :

لعبة رمي القبقق : وهي محاولة رمي السهم من خلال حلقة منصوبة بأعلى عمود في الساحة . وقد يستبدل بالحلقة قرعة (يقطينة) . وينعم السلطان على الفائز بفرس إن كان من الأمراء وبخلعة إن كان مملوكا . ويرمى القبقق أحيانا لإظهار الفرح والسرور فقد أقيم مثل هذا الحفل أيام الملك الأشرف خليل بن قلاوون بمناسبة ختان أخيه الناصر محمد بن قلاوون وابن أخيه مظفر الدين موسى بن الملك الصالح علي . ولحضور اللعبة مراسمها من العدد والسلاح الكامل . ويخرج أهل القاهرة للفرجة عليها ويراهنون وينصبون الأماكن لبيع البقول والمأكول والمشارب<sup>(١)</sup> وكثيرا ما كان ينتهي لعب القبقق بمران جماعي بين فريقين تلمع بينهما السيوف وتدور الرماح<sup>(٢)</sup> .

لعبة رمي البندق : وهي كرات من الطين أو الخصى أو الرصاص ترمى بها الطيور . وكان المهاليك يمارسونها أيضا كنوع من التدريب على الرمي . وكان لها شأنها في مختلف المدن ومن السلاطين الذين شغفوا بها : الأشرف خليل بن قلاوون . وهي أساس البندقية .

وأما في غرناطة ، البقية الباقية من الأندلس ، فكان لها مصارعة الثيران . وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة أنها كانت معروفة في أيامه وذكر لها طريقتين :

الأولى : الصراع بين الثور والأسد . وذكر أنه شهد ذلك بنفسه وقد أسفرت عن انتصار الثور وجرح الأسد وقد خرجت بعد ذلك طائفة من المسلحين ناوشوا الأسد حتى قتلوه بعد أن افترس بعضهم .

(١) المقرئزي/خطط ج ٣ ص ١٨١ .

(٢) ابن تغرى بردى/النجوم ج ٢ ص ٣١١ .

الثانية : كانت بين الثور والإنسان وكانت منتشرة بين علية القوم .  
 والطريقة كما وصفها ابن الخطيب أن يطلق الثور (أو البقر الوحشي كما  
 يسميه) ثم تطلق عليه كلاب اللاق المتوحشة فتأخذ في نهش جسمه وأذنيه  
 وتتعلق بها في صورة القرط . . . وهذا العمل التمهيدي كان الغرض منه  
 الحد من قوة الثور وتهذيب حركته (وهو ما يقوم به رماة السهام اليوم وطاعن  
 الرمح) ثم يأتيه فارس مغوار يصارعه على فرسه المدرب ثم يقتله في النهاية  
 برمحه . . . وقد تحدث عن هذه المصارعة الشاعر ابن زمرك في أكثر من  
 قصيدة ومناسبة : ومن قوله :

وطاردت الصوار بكل ضار      كما اتبعت عفريتاً شهابا  
 ضربت به على الأذان منها      فلم تسطع حراكا واضطرابا  
 تعرف أت تحت الأرض ثوراً      فرام بأن يشق له التاربا  
 وقوله :

سود وبيض في الطراد تتابعت      كالليل طارده بياض نهار  
 أثبت فيه الرمح ثم تركته      خضب الجوانح بالدم المدار .<sup>(١)</sup>  
 القيم الاجتماعية والمفاسد :

ما من شك في أن المجتمع المثالي، مجتمع الملائكة، لم يخلق بعد على  
 الأرض وأن الله حين خلق الخلق كان يعلم أنه يستخلف فيها «من يفسد  
 فيها ويسفك الدماء» ولهذا أرسل الأنبياء والرسل واحداً بعد الآخر.  
 والمجتمع الإسلامي كان كغيره من مجتمعات الأمم في التاريخ فيه الجمهرة  
 الصالحة التي تمشي حسب القيم الاجتماعية - الدينية وفيه من يخالفون . على

(١) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٧٦ (ط . القاهرة ١٣١٩)  
 والإحاطة مخطوط الاسكوريال ورقة ٤٤١ وانظر المقري - نفع الطيب ج ١ ص ١٥٧ وص  
 ١١٦ . وازهار الرياض ج ٢ ص ١٠٦ .

أن انحلال القيم والأخلاق إنما يلحق مجتمعات المدن بخاصة بسبب سعتها الاجتماعية وتكاثر الأهواء والناس والثروات الضخمة وتنوع المنازع فيها وضغط الحياة. ولم تشذ المدن الإسلامية عن هذا كله. ومع أننا سنتحدث عن المدن الإسلامية. إلا أن هذا لا يعني الحديث عن مجتمعات إسلامية «نظرية» أو مثالية. ولكن عن مجتمعات واقعية فيها من كل لون وفيها أيضا الأمراض الاجتماعية الموجودة في غيرها. وإذا تحدثنا عن جانب الصلاح والدين والتقوى فيها وعن الجماهير المتبعة للقيم الاجتماعية المثلى فثمة في قلب هذه المجتمعات أوساط لو وجهنا إليها النور لوجدنا أن طلائعها الديني الخادع يخفي وراءه أمراضا متوطنة خبيثة. ولا تكتمل معرفتنا بأجواء المدن إن لم نضيف إليها هذه الأمراض المدنية. ولا نقصد أن جو الريف أنقى وأطهر ولكنه بسبب ضيقه وقلة الثروة فيه وانغلاقه أكثر رقابة على المفسد التي قد تظهر فيه، والثروة إن كانت تفتح بعض أبواب المفسد فإن الفقر بالمقابل يفتح الأبواب لمفسد أخرى وكلا الثروات الضخمة والفقر الشديد من ميزات المدن والكبيرة منها بصورة خاصة. ولا تختلف في ذلك مدن الأندلس عن مدن فارس ولا مدن الشام عن مدن مصر أو المغرب.

أ - فاليسر : كان منتشرا في جميع المدن كبيرها وصغيرها وله طرق مختلفة تنتهي كلها إليه. وقد شغف الكثيرون به رغم تحريمه في القرآن الكريم. وقد وجد في عصر الرسالة (كما يحكون عن مقامرة أبي هب والعاصي بن هشام حتى أخرجه من ماله وكاد يقامره على حرته). كما وجد الميسر في العصر الأموي وأيام العباسيين. ويروى عن ابن جامع المغربي في عصر الرشيد أنه قال : «لولا أن القمار وحب الكلاب شغلاني لتركتم المعنين لا يأكلون الخبز»! ويحكى عن الشريف الرضي (أواخر القرن الرابع) أنه أفرط في معاقبة أحد العلويين لأنه كان يقامر بما يتحصل له من حرفة يحترفها

ويترك أطفاله للحاجة<sup>(١)</sup>.

على أن القهار كان متفشيا في الطبقات العامة الدنيا أكثر منه في الطبقات الخاصة والعليا، لأن المعدمين يحسبون أنهم يصلون به بسرعة إلى الثروة في حين أن للموسرين مباحج أخرى تملأ حياتهم. لهذا تغمض أخبار القهار مع ما يغمض من أخبار العامة والطبقة الدنيا في مجتمع المدن الإسلامية من فاطمية ومملوكية وأندلسية. ولكن الناس كانوا ينظرون إلى المقامر نظرة دنيا. وقد رووا من طريف حيل اللصوص أن لصا كان يدخل البيت فيحفر فيه حفرة لطيفة كأنها بئر النرد وي طرح فيه جوزات كأن إنسانا يلاعبه ثم يخرج مندبلا فيه مقدار مائتي جوزة فيتركه بجانب الحفرة ويسرق البيت فإن دهمه صاحبه صاح : أنا أقامرك بالجوز منذ شهر وقد أفقرتني ولما قمرتك الآن في قماشك قمت تصيح بي أي لص؟ بيني وبينك دار القهار. . . فيخاف المسروق الفضيحة ويهرب السارق<sup>(٢)</sup> وكان في بغداد من يضمن القهار فيها بالفي درهم كل شهر، وقد ضمن رجل يعرف بابن الخواصة من الأمير شيرمردى (في القرن الرابع). وكان إذا عجز عن الضمان التقط من يجتاز بيابه والزمهم دفع ما يحتاجه أو يقتلهم فيدفعون، وكان مظهراً للقهار والعيارة والفجور وبيع الخور<sup>(٣)</sup>.

وكانت دور القهار مواضع معروفة في المدن. وكان من مهام المحتسب رقابتها. ويأخذون منها أحيانا ضريبة شهرية، كما كان ثمة عملاء لهذه الدور يغرون الناس بالمقامرة ويسمون «بالمطمعين». وقد قبض مرة على جماعة من المقامرين حين أمر الأخشيد بمنع دور القهار والمواخير وكان بينهم شيخ فقالوا

(١) آدم متر/الحضارة ج ١ ص ٢٦١.

(٢) التنوخي/نشوار المحاضرة ج ١ ص ٧٩.

(٣) التنوخي/نشوار ج ١ ص ٣٤٩.

هذا مطعم . فلما سأل عن معنى ذلك قالوا أنه ما يزال بالمقامر يطعمه حتى يقامر على ثيابه ونعله وربما اقترض . فمنحه الأخشيذ منحة على أن يتوب فلما انصرف بها قال ردوه . . . لقد أطمعناك فهات المنحة . ومده فضربه مائتي عصا (١) .

وإزداد المقامر نفشيا في عصر المهاليك حتى بين صغارهم لكنه ظل على نظرة الإحتقار التي يرمقه بها المجتمع .

ب - الفاحشة : ولا علاقة لها بالفصل الاجتماعي بين المرأة والرجل ولكن الظاهرة الجنسية معروفة شائعة في كل العصور والأمم وقد عرفت حتى في العصر الإسلامي الأول، وقد زادت انتشارا في المدن، في العصر العباسي رغم شرعية تعدد الزوجات في الإسلام وكان من مظاهر ذلك الاستهتار الذي عرف به الشعراء الماجنون، بعد أن كانت ألفاظ الجنس قبل ذلك لا تستعمل إلا في الهجاء المقذع . ولكنها صارت في العهد العباسي نوعا من الواقع غير المذكور ومن التظرف حتى لدى من لا يمارس الفحش عمليا . وذبوع القول الفاحش حتى بين الطبقات العليا وتقبل المجتمع لها ليس سوى صورة من الصور التي تعكس ما في قاع المجتمع من واقع . وعلية القوم من الكبراء والشعراء لم يكونوا يستنكفون عن استخدام الألفاظ الفاحشة في أحاديثهم أو شعرهم . وإن كانوا قد بدأوا يستنكرونها ترفعا وتقية في القرن الرابع . ففي شعر بشار وأبي نواس وابن المعتز والبحري والسلامي وابن الحجاج وابن عصبام المصري وقاضي البقر الشاعر، ما يندى له الجبين خجلا على أنه كان في ذلك الوقت مقولا مقبولا . ولكنهم في القرن الرابع أخذوا على الوزير سليمان بن الحسن (حوالي سنة ٣١٩/٩٣١) أنه كان يظهر اللفظ القبيح بين يدي الخليفة ما يجلب الوزراء عنه فاستنقصه الخلق وهجاه الشعراء

(١) ابن سعيد/البيان المغرب ص ٣٠ (عن آدم متر).



واستعظموا الوزارة لمثله<sup>(١)</sup>. لكن الصاحب بن عباد وزير البويهيين (في أواخر القرن الرابع) لم يكن يستنكف في شعره أفحش الأوصاف. وكان هلال الصابئ وهو من كبار الكتاب إذا هجا أتى بالألفاظ المقذعة وبالفحش الكبير. ولم يكن مثل هذا القول إلا بعض الظواهر لما في المجتمع نفسه من مرض يطفو بخاصة على السطح في الأعياد العامة. وقصص الأديرة والديارات تحكي الكثير منه.

وهذه المؤسسة الاجتماعية ظهرت سافرة على سطح المجتمع الإسلامي في القرن الرابع لدرجة أن عضد الدولة البويهي، فرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة كان يضمنها ضامن كل سنة وذلك اتباعاً لسنة أهل الهند رغم مخالفة ذلك للشرع الإسلامي بحجة أن ذلك يحثي الرعية من غراب الجند<sup>(٢)</sup>. وقد ذكروا في حكاية مخترعة أن عضد الله نفسه خطب أميرة حمدانية فرفضته زوجاً، فلما أسرها أخذ مالها وألزمها أن تؤدي لقاء عتقها مالا مختلف في جمعه إلى دار القحاب فانتهزت فرصة من حراسها وأغرقت نفسها في دجلة<sup>(٣)</sup>. وفي مدينة اللاذقية كان المحتسب يجمع القحاب والغرباء من الروم وينادي على كل واحدة منهن ويتزايد الفسقة فيهن لليلة ثم يؤخذن إلى فنادق الغرباء. بعد أن تأخذ كل واحدة خاتماً يسمى خاتم المطران ليكون حجة بيدها من تعقب أعوان الوالي لها. ومن وجدت بغير خاتم تعاقب<sup>(٤)</sup> ويحكي ابن حوقل أنه ليس في بلدان المغرب من الفواحش الظاهرة وتعاطي الأمور المنكرة والفسق الشنيع مثل ما في المشرق<sup>(٥)</sup>. والمقدسي ينوه بظهور

(١) عريب بن سعيد القرطبي/صلة تاريخ الطبري ص ١٦١.

(٢) البيروني: تحقيق ما للهند ص ٢٧٩ والمقدسي ص ٤٤١.

(٣) آدم متر: الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٧٤.

(٤) القفطي: اخبار الحكماء ص ٢٩٨ على أن هذا النظام لم يذكر إلا حين أن استولى البيزنطيون على اللاذقية.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٧٠.

الفسق في مدن يذكرها . . . فأهل عمان يفسقون . . . والزنا بعدن ظاهر . . .  
والفساد كثير ببغداد . . . وعدول شيراز لواطون وتجارهم فسقة . . . وفي  
السوس (بفارس) ترى دور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة . . . وفي المقابر  
مجتمع الفساق . . . وقد بنى عضد الدولة على نصف فرسخ من شيراز  
مدينة . . . وجعل لها عيداً كل سنة يجتمع فيه للفسوق واللهو . . . وبشيراز  
دور الزنا ظاهرة<sup>(١)</sup> والحربية كانت مقصد الفساق في بغداد.

وقد ثار الحنابلة سنة ٣٢٣/٩٣٤ لمطاردة المنكر ببغداد وعظم أمرهم  
حتى صاروا يكبسون دور القواد والعامّة فإن وجدوا نبذا أراقوه وإن وجدوا  
مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء وصاروا يعترضون في مشي الرجال مع  
النساء والصبيان . فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن من معه وإلا ضربوه  
وسلموه إلى صاحب الشرطة . . . حتى أرهجوا بغداد . . .<sup>(٢)</sup>

ولم تكن المدن الأخرى بمنجاة من ثورات المتدينين على هذا المنكر .  
على أنه لم ينته في أي مكان وقد بلغ الأمر بالحاكم بأمر الله أن منع الحذائين  
من صنع أحذية النساء حتى لا يخرجن من البيت إلا لبيوت أزواجهن أو إلى  
القبر . حتى صار الاحتجاب عادة أرستقراطية فلا يخرج إلى السوق إلا  
الجواري ومع ذلك فقد كان البغاء الخفي يصبح ظاهراً في الأعياد كالنوروز  
وفتح الخليج في مصر وفي خليج الخور وعيد الشهيد<sup>(٣)</sup> .

وفي مطلع عصر المهاليك حاول الظاهر بيبرس أن يظهر المزيد من  
التقى بعد أن وصل الحكم باغتيال زميله قطز، وبعد أن نقل الخلافة  
العباسية إلى مصر فحاول أن يحد من البغاء فأبطل المكوس المقررة على البغايا

(١) انظر المقدسي الصفحات ١٠٣ ، ١٣٠ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٤١ وغيرها .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٢٩ - ٣٣٠ .

(٣) المقرئزي / السلوك ج ٣ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ وابن تغري بردي النجوم ج ٩ ص ٤٧ .

منذ العهد الفاطمي ومنع البغاء في القاهرة وسائر مدن المملكة . وحبس البغايا حتى يتزوجن وجعل المهر لا يزيد على أربعمئة درهم يعجل منها مئتان فقط رغبة في الاسراع بزواجهن<sup>(١)</sup> ولم يمض عهد بيبرس حتى عاد البغاء أمرا عاديا أو مهنة اعترفت بها الدولة . وفرضت على البغايا نتيجة لذلك ضرائب مقررة وجمعت منها «جملة مستكثرة» وتنظم الأمر فجعلوا له ضامنة تذهب إليها البغي فتسجل اسمها عندها ليسمح لها بممارسة «المهنة» حتى وقفت البغايا في شوارع مصر<sup>(٢)</sup> علنا كما في سوق الشعاعين . ولم يقتصر ذلك على القاهرة والمدن الكبرى بل عم ذلك بلاد الصعيد والوجه البحري حيث خصص للبغايا حارات معينة ، في كل مدينة .

وجاء عهد الناصر محمد بن قلاوون فألغى بعد الروك الناصري من جديد ضريبة حقوق القينات وكانت مقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة<sup>(٣)</sup> . وقد زادت الفحشاء بعد ذلك في العصر المملوكي الثاني، في فترات الانهيار الاقتصادي .

ج - الشذوذ الجنسي : تفشى هذا الشذوذ مع ازدهار العصر العباسي أواخر القرن الثاني ، وزاد مع ازدياد هذا الازدهار في القرون التالية وقد كان معروفا قبل في سجستان وخراسان ودخل العراق فيما يقولون مع دخول الجند الخراسانية إليه يوم الثورة العباسية . وكان العرب عادة يسمحون بخروج النساء مع الجيش ولكن أبا مسلم الخراساني منع ذلك . وكان هذا الشذوذ، في مطلع تفشيه يتوارى وراء الأناث فقد ذكروا أن الأمين قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بهم واشتغاله اتخذت الجواري

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٩ ، المقرئزي : السلوك ج ١ ص ٥٧٨ وج ٤ ص ٤٧١ .

(٢) المقرئزي السلوك ج ٤ ص ٣١٢ .

(٣) المقرئزي / الخطط ج ١ ص ١٤٤ .

المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن والبستهن الأقبية والمناطق . . .  
وبعثت بهن إليه فاستحسنهن واجتذبن قلبه وأبرزهن للناس من الخاصة  
والعامة. فاتخذ الناس الجوارى المطمومات والبسوهن (ملابس الرجال)  
وسموهن الغلاميات<sup>(١)</sup>. وبرز إثر ذلك مذهب في الأدب العربي هو التشبيب  
بالغلاميات ويعنون الغلمان أو العكس حتى صار التغزل بهوى الغلمان يعدل  
ما قيل في النساء لكثرتة. وقد لا يكون كله دليلا على الشذوذ وانتشاره،  
ولكنه يدل دون شك على أن الشذوذ صار شائعا معروفا حتى لقد استهتر به  
عدد من الشعراء وجاهروا به مثل مصعب والسلامي (ت/ سنة  
١٠٠٣/٣٩٤) والخبزاري بل قاله المحتشمون من الشعراء كأبي فراس  
وشعراء الصوفية . . .

وتفنن الناس في أسماء الغلمان بما يدل على ما يقصدون منهم فسموا  
بفاتن ورائق ونسيم ووصيف وريحان وجميلة وبشرى. ويذكر أبو حيان  
التوحيدي في الامتاع والمؤانسة قوله: «وقد أحصينا ونحن جماعة في الكرخ  
أربعمائة وستين جارية في الجانبين (جانبي بغداد)، ومائة وعشرين حرة،  
 وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحدق والحسن والظرف  
والعشرة. هذا سوى من كنا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه،  
وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في الوقت،  
أو ثمل في حال، أو خلع العذار في هوى حالفه واضناه . . .»<sup>(٢)</sup> وبلغ من  
تفشي الشذوذ أن صار إحدى مشكلات الفقه المبحوثة واختلفوا في وجوب  
الحد فيه.

ولم ينبج من هذا الشذوذ العامة والخاصة ولكن إنما افتضح وسجل في

(١) المسعودي / مروج الذهب ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) التوحيدي / الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ١٨٣ .

كتب الأدب على الخاصة فيذكرون أن الأمير بختيار أسره في إحدى المواقع غلام فزعم أن فجيعة بفقده فوق فجيعة بالملكة . . . وكان لسيف الدولة غلام باسم مؤنث هو ثمل وكان عزيزاً عليه<sup>(١)</sup>. وقد نجم عن الولع بالعلماء قصص كثيرة ملأت كتب الأدب منها حكاية الأصفهاني صديق نسطورية (أوائل القرن الرابع) الذي مات عشقاً لمحمد بن جامع الصيدلاني، وحكاية أحمد بن كليب النحوي مع الفتى اسلم وقد أفضى ولعه به إلى التخليط والموت. وحكاية عيسى النصراني بالرها الذي عشقه سعد الوراق فصار في النهاية إلى الجنون على باب الدير الذي لجأ إليه عيسى. والحكاية التي يرويها التوحيدي عن الغلام الموصلية الذي ملأ الدنيا عيارة وخسارة وافتضح بسببه أصحاب النسك والوقار، وعن غلام ابن عرس الذي كان يحضر المجالس فيلقي أزاره ويقول لأهل المجلس: اقترحوا واستفتحوا فإني ولدكم . . . فلا يبقى أحد في الجماعة لا ينبض عرقه . . .<sup>(٢)</sup> وقد بلغ الأمر ببعض العلماء أن منعوا المرء من أن يغشوا دروسهم.

وسرت العدوى إلى المدن الأخرى في المشرق خاصة وفي مصر والأندلس. فقد كانت بغداد المدينة التي تبتكر البدع وتقلدها المدن الأخرى. فلم تكن القاهرة وقرطبة بسبب سعة مجتمعهما وتنوعه وكثرة الاجناس والعلماء فيها بأقل من بغداد في هذا الأمر.

وقد برز هذا الداء على سطح المجتمع مرة أخرى أيام الحكم المملوكي فكان مؤسسة اجتماعية معروفة بين المماليك وعبر المقرئ بصراحة عن انتشاره بينهم بوصفهم مجتمع رجال فقط. قائلاً: فشا في أهل الدولة محبة الذكرا. حتى عمدت النساء إلى التشبه بالذكور في ملابسهن. وعرف

(١) مسكويه / تجارب الأمم ج ٦ ص ٤٦٩ و ص ٨١.

(٢) التوحيدي / الامتاع ج ٢ ص ١٧٤.

السلطان قطز والسلطان برقوق في عريها بمحبة الذكران وقيل عن السلطان حسن الذي عرف بحب النساء أنه «لم يكن له ميل للشباب كعادة الملوك من قبله!»<sup>(١)</sup>. وقد خلع السلطان كتبغا من السلطنة بسبب غلام<sup>(٢)</sup>. ويروي ابن حجر أن أحد أبناء السلطان الناصر محمد شغف بغلام اسمه عثمان وتهتك فيه فأمر السلطان بحبس الغلام فهدد ابنه بالانتحار وامتنع عن الطعام حتى افرج عنه وجاؤوه به<sup>(٣)</sup>.

وفي العصر المملوكي الثاني تهتك الكثيرون في هذا المرض والذي انتشر بين رجال القلم كما بين رجال السيف واتهم به الكتاب والقضاة والصوفية على السواء دون أن يؤثر ذلك على مراكزهم الاجتماعية وأن كان يسجل عليهم ولا يحظون في المجتمع بالاحترام اللازم.

د - الخمر: هي محرمة في الإسلام وقد امتنع عنها من كان يشربها في عهد الرسالة وما بعده، ولكننا نجد بعض شاربها بين الفاتحين كأبي محجن الثقفي مثلاً. ولكنه مثل شاذ على أن دخول العرب الفاتحين إلى العراق والشام ومصر وفارس - وكانت صناعتها فيها تجارة هامة مقررة واسعة - جعلهم على تماس دائم من صانعيها المستفيدين من بيعها ومع شاربها من الذمة فتساعحوا معهم لأن دينهم لا يجرمها. وهكذا كان الاخطل يدخل على عبد الملك بن مروان ولحيته تقطر خمرا فلا ينكره ويتهادى في كلامه فيتركه. لكن لم ينقض العهد الأموي حتى سجل المؤرخون فيه عددا من شارب الخمر حتى من الخلفاء كالوليد بن يزيد، رغم نهي القرآن الكريم عنه. وكان أهل

(١) ابن تغري بردي / النجوم ج ٥ ص ١٥٨.

(٢) المقرئزي / خطط ج ٣ ص ٣٤.

(٣) ابن حجر / الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٩٤ والمقرئزي / السلوك ج ٢ ص ٦٦١ - ٦٦٢ (حوادث ٧٤٥).

الحجاز يعتبرونه من الكباثر حتى أن عمر بن عبدالعزيز وهو وال هناك قبض على أحد العلويين مع جماعة يشربون فجعل الحبال في اعناقهم وطوفهم في المدينة . لكن مدن العراق كانت تتسامح في الشراب لا ترى فيه بأساً<sup>(١)</sup> . وبصورة خاصة حين توطد الحكم العباسي هناك ودخلت الخمر القصور وتداعى الماجنون إلى الديارات المتعددة حول بغداد والموصل ، وحلب وذلك أن صناعة النبيذ التقليدية ظلت على حالها من العمل والرواج ما بين فارس إلى الاندلس . وكانت تغذي المدن عن طريق أهل الذمة بالكميات التي تطلبها . وكان الخمارون الذين يبيعون النبيذ لا يسألون الشارب عن دينه . ولعلمهم يفرحون باتساع ذمم الناس لبضاعتهم المحرمة ، اعتباراً من قمة الهرم الاجتماعي حتى قاعدته . وهكذا امتلأ شعر الشعراء في هذا العصر بذكر الخمر والخمارين والساقين الغلمان والساقيات وهم في الغالب نصارى . وصار ذكر الخمر مذهباً واسعاً من مذاهب الشعر لمن يشربها أولاً يشربها .

وصارت للخمر مجالسها في القصور ، ولهذه المجالس رسومها إذ يلبسون لها المعصفر من الثياب وينثرون الورود والرياحين ويصنعون منها الأكاليل ويقضون الليل في معاقرتها ، وفي رواية القصص عن السكر والسكرارى .

وإذا كان القليل من الخلفاء والسلاطين من عرف بالشذوذ فإن القليل منهم من لم يعرف بالشرب . وهكذا تنزل السلم الاجتماعي إلى قاع المدينة لتجد الشاربيين من كل الطبقات وفي جميع المدن وفي جميع العصور . كما أن هان على الناس تحريمها مع الأيام فاستجازوها لأنفسهم . يحكى المقدسي أن المشايخ في مصر لا يتورعون عنها حتى ترى الشيخ منهم سكراناً<sup>(٢)</sup> . ويحكى

(١) الطبري ج ٣ ص ٥٥٢ .

(٢) المقدسي ص ٢٠٠ .

عن ابن دريد اللغوي البصري المشهور أن عواده في مرض الموت كانوا يستحيون من العيدان المعلقة والشراب عنده وقد جاوز التسعين<sup>(١)</sup>. وقد حرم الخليفة القاهر الغناء والخمر سنة ٣٢١ ولكنه كان مع ذلك لا يصحو من السكر<sup>(٢)</sup>. وجاء الراضي بعده وكان قد حلف ألا يشرب ولم تمض سنتان على خلافته حتى أخذ يستفتي الفقهاء في يمينه ليجدوا له مخرجا منه. وأعطى نديمه وأستاذه الموصلى على ذلك ألف دينار يتصدق بها. وكان الخليفة المستكفي قد ترك الشراب فلما استخلف سنة ٣٣٣/٩٤٤ دعابه من وقته<sup>(٣)</sup>. وكان الشراب في القصور مختصا بما يقدم من الشراب على الموائد من الخمر التي اشتهرت بها قطربل أو عكبرا أو بعض الأديرة في الدلتا والصعيد.

وكانت الخمر عادة لدى عدد من كبار ذوي المناصب الشرعية كقضاة الوزير المهلبى الثلاثة : ابن قريعة وابن معروف والتوحي . كانوا يشربونها ويبلون بها لحاهم ويرقصون<sup>(٤)</sup>. ومثله قاضي بغداد المتوفى سنة ٤٢٣ الذي كان يطلبها فتقدم له بأسمائها : راح وخنديس وقارم . . . فلما قيل له أنها الخمر، حرد ورفض حتى قالوا إسما آخر فشرب السادس والسابع حتى تبطح في المجلس ولف في طيلسانه إلى داره<sup>(٥)</sup>. ويحكى عن ابن طباطبا نقيب الطالبين بمصر (ت سنة ٣٥٢/٩٦٣) أنه رغم مكانه الديني الكبير قال في الخمر :

(١) ابن تغرى بردى النجوم ج ٢ ص ٢٤٦ (ط. ليدن).

(٢) آدم مترج ٢ ص ٢٤٥.

(٣) الثعالبي/يتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠٦ ، ومترج ٢ ص ٢٤٦.

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٦٠.

(٥) ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٦٠.



أترك الشرب والأنوار دائمة والكل منها على الأنوار منشور؟<sup>(١)</sup>

وفي العهد الفاطمي نهى الحاكم بأمر الله عن شرب النبيذ فلما استطب ابن انسطاس الطيب وأشار عليه بالنبيذ عاد فأباحه ثم عاد فحرمه بعد موت ابن انسطاس حتى منع بيع العسل وكسر جراره وغرق في النيل شيئا كثيرا للتجار ومنع عمله<sup>(٢)</sup>. ولكنها كانت شائعة لا يستحي منها لدى الكثيرين حتى أن الشاعر محمد بن أبي الجرع دعا بعض أصدقائه إلى وليمة في قصيدة طويلة وقال فيها يغريهم :

وقهوة بنت كرم صفت من الذم صفوا  
ما شعشت قط إلا سطت على هم سطوا

وفي آخر العهد الفاطمي كان يكتفى بإغلاق حانات الخمارين كما كانت شائعة في جنود الجيش حتى في أيام نور الدين بن زنكي حتى قال له أحد الشيوخ كيف ترجو أن تنتصر والخمر فاشية في العسكر؟ فأمر بمنعها. بالقاهرة ومصر، منع بيع الخمر في آخر جمادى الآخرة وفي الأشهر الحرم. الثلاث بعده<sup>(٣)</sup>. ويحكى عن نساء مراكش قبل رجائها ولعنهن بالشراب فبلادهم كثيرة الاعتاب ويحدثنا بعض الرحالة انه في أول جني العنب يكون الكثير من أهل مراكش سكارى. ولا تسل عن موائد الشراب والصبوح والغبوق في الأندلس وعن الغزل بالساقى :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع  
ونديم همت في غرته وبشرب الراح من راحته  
كلما استيقظ من سكرته جذب الزق إليه واتكا  
وسقاني أربعا في أربع

(١) ابن سعيد : المغرب . ص ٤٩ ، ومتزج ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) المقرئزي / خطط ج ١ ص ٤٩١ .

(٣) آدم متز / الحضارة ص ٢٤٤ .

وفي الشام كان الشراب معروفا شائعا. ونجد في سيرة الطبيب أبي الحكم الوهراني (المتوفى سنة ٥٤٩/١١٥٤) قصيدة من امتع الشعر عمن يدعو أصحابه للشراب وما الذي يجري به؟

وعند هذا تحضر السواطى ويمزج النبيذ باحتياط  
فواحد يقول هذا صرف ويقلب الماء ولا يكف  
وآخر يقول ذا معود فاجتنبوا الماء ولا تعودوا  
للندامى ابدا فنون يظهرها الخمر فستبين...

وينتهى مجلس الخمر في الصباح بالبحث عن الأحذية وبالتماس الزيت للسراج وبالخصومة التي قد تنتهي إلى الجراح والقتل! ولم يتورع ابراهيم بن القاسم ابن الرقيق القيرواني وهو شيخ من كبار شيوخ أفريقية (ت. بعد سنة ٩٩٨/٣٨٨) أن يكتب كتابا في الخمر والمخمورين - وقد طبع - وعنوانه : (قطب السرور في وصف الخمر) كما كتب كتاباً ثانياً بإسم الراح والإرتياح.

ولم تكن الخمر في مصر المملوكية بأقل انتشارا منها في البلدان الأخرى. ولعلها كانت أشد فكانت الخمر تعصر علنا وتباع كأى بضاعة وبلغ ما بمصر في خزانة البنود للسلطين في بعض السنين ٣٢ ألف جرة<sup>(١)</sup>. ولم يكن الرحالة الأوروبيون يجدون أية صعوبة في التماس النبيذ الفاخر فضلا عن أن الكثيرين من أهل البلاد يتظاهرون بشربه. وقد عرفت مصر منه أنواعا عدة منها : القمز ويصنع من لبن الخيل، والبشتكي نسبة للأمير الذي صنعه، والمرز ويعمل من القمح، والتمر بغاوى وينسب إلى مبتكره الأمير ترمبغا ويمزج فيه الزيت والماء في جرار تدفن في زبل الخيل حتى تتخمر. ومنها أنواع رديئة تصنع من الخبز وتسمى في الشام بالفقاع وفي مصر بالبوزة.

(١) ابن قاضي شهبه/الأعلام بتاريخ أهل الإسلام ج١ ص ٥١، والمقريزي السلوك ج٢ ص

وقد أسرف المماليك والناس في معاقره الخمر، وفي تهاديها وتقديمها في أفراحهم وولائمهم . ويروى عن السلطان فرج أنه كان لا يكاد يثبت على سرج الفرس من السكر كلما عاد من رحلة صيد . وقيل عن المنصور سيف الدين حفيد قلاوون أنه عكف في قصره على الشراب مع ندمائه من الأمراء حتى لا يكاد أحدهم يفيق ساعة - وبلغ ما استهلكه بعض الأمراء في اليوم خمسين رطلا . وإذا حج أمير ظن الناس أنه يتوب عنها فلا يكاد يرجع حتى يرجع إليها . وكثيرا ما كان بعض السلاطين يحتاج إلى كمية كبيرة من الخمر الإضافية لظرف طارئ فكان يوزعها على طوائف أهل الذمة فإن تخلفوا (كما جرى سنة ٨١٦) جبيت منهم بالعنف والعسف والضرب!<sup>(١)</sup>

وكان العامة على دين ملوكهم في هذا الأمر . فلا يكاد يقع هجوم على كنيسة أو بيت ذمي حتى ينهب العامة جرار النبيذ ويشربوها لثلاثتد منهم<sup>(٢)</sup> . وكانت الخمر في كثير من الحفلات الشعبية تعتبر من مستلزمات الطرب ودواعيه وتمامته<sup>(٣)</sup> . وقد راهن بعض الفقهاء أصحابه أن يشربها على المنبر . . . وفعل إذ تصنع البلغم ونادى صديقا له قدم له منها زجاجة فشربها عن آخرها<sup>(٤)</sup> .

صحيح أن بعض السلاطين منع الخمر وأراقها وبخاصة في أيام الأزمات والشدائد تقريبا إلى الله . كما حدث في سنة ٧٠٩ أيام الناصر محمد وسنة ٧٨١ وسنة ٨٣١ وسنة ٩٢٢<sup>(٥)</sup> . ولكن هذه التوبات العابرة لم تكن تدوم إلا ريثما تزول الشدة، ثم يعود الناس إلى ما كانوا فيه من قبل .

(١) المقرئزي / السلوك ج ٤ ص ١٢١ و ٢٠٤ .

(٢) العيني / عقد الجمان (حوادث سنة ٧٢١) .

(٣) المقرئزي / السلوك ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٤) الجوبري / المختار في كشف الأسرار ص ٣٥ .

(٥) المقرئزي / خطط ج ٣ ص ٣٤ .

ويمكن أن نضيف إلى هذا الذي شاع في المدن أمورا أخرى منها :

هـ - الحشيش : ولم يظهر إسمه في مؤلفات الفقهاء إلا في القرن الثالث وقد حرمه الشافعية وأباحه الأحناف ولا ذكر له في حكايات القرن الرابع ولعله لم يكن شائعا حتى استخدمه الإسماعيلية في أواخر القرن الخامس وفي السادس ثم شاع في مصر بخاصة . فلما كان العصر الأيوبي المملوكي كان للحشيش شأنه . وكما قال المقرئزي «فشئت هذه الشجرة الخبيثة فشوا كبيرا وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كثيرا وتظاهروا من غير احتشام»<sup>(١)</sup> . وفرضت الدولة عليه ضريبة فصارت تمدها بجملة كافية من المال حتى ألغيت سنة ٦٦٥ ، وأبطل بيبرس ضمان الحشيشة وأمر بتأديب من أكلها . ولم يقتصر تفشي الحشيش على الطبقات الشعبية ولكنه دخل الطبقات العليا ، مع المفاسد الأخرى ، فشغف به بعض العلماء والقضاة بل أفتي بعضهم بإباحته ونظم الكثير من الشعراء والصوفية القصائد في امتداح مزاياه وتفضيله على الخمر .

يقول ابن دانيال :

قل للذي ترك الحشيشة جاهلا      وله بكاسات المدام ولوع  
 فإن المدامة لو أردت تطوعا      هي المحرم والحشيش ربيع!  
 وقال بعض الصوفية عنها أنها :

تؤجج نارا في الحشا وهي جنة      وتبدي مريسر العيش وهي نبات

كما شغف به الصوفية والفقراء شغفا كبيرا حتى أطلق عليه المعاصرون اسم حشيشة الفقراء . وحتى صار انتشار الحشيش مرافقا لانتشار الطرق الصوفية . ولا شك أن لمريسر العيش وسوء المعيشة وكثرة الفقر آثارها في الهرب إلى المخدر وفي انتشاره وبخاصة في النصف الأخير من العهد المملوكي .

(١) المقرئزي / خطط ج ٣ ص ٣٤ .

أما الأعياد في غرناطة، بقية الأندلس يومذاك، فكان يصاحبها في كثير من الأحيان لا شرب الخمر فقط ولكن الحشيش أيضاً. فقد انتقل إلى المغرب كما يلاحظ من النصوص والأشعار في القرن الثامن الهجري/ ١٤م. بسبب الإضطراب والخمول في ذلك العهد. ويقص ابن الخطيب نادرة لطيفة حول الأمر يوم أطرى أمام صاحب الشرطة في عهد السلطان أبي سعيد البرميخو «اجتناب الناس الخمر فقال له في الملاء المشهود: والحشيش كيف حالها؟ إنزل إلى بيت فلان وفلان وعد كثيراً من الساسة والأوغاد والصفاعين ورسم مكانهم... فانصرفت إلى ما ذكر فوالله ما أخطأت شيئاً عما رسم ولا فقدت شيئاً بما ذكره...»<sup>(١)</sup>.

و- الرشوة (البرطيل): ولم تكن بدعا في المعاملات بين الناس ولكنها كانت تجري على قلة ويفتضح هنا وهناك في أخبار محدودة ممارسوها من الكتاب أو القضاة سواء في الأندلس أم في المشرق كذلك الوزير الذي ولى ١٧ واليا خلال أيام لمدينة البصرة بالرشاوي المتصلة وقال فيه أحد الشعراء:

وزير لا يمل من الرقاعة يسولى ثم يعزل بعد ساعة  
إذا أهل الرشى اجتمعوا إليه فخير القوم أكثرهم بضاعة!  
لكن التدين كان هو الذي يكبح مثل هذه الأمور دون أن يلغيتها أو على الأقل يجعل أصحابها يتحاشون التظاهر بها.

لكنها منذ العصر المملوكي صارت شائعة حتى كانت الوظائف الدينية نفسها تشتري شراء، أو تضمن ضماناً ويزاحم عليها المتهافتون لما تدر من السعة والمال وسريع الأوقاف.

---

(١) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (نشر العبادي - مجموعة تراثنا - القاهرة ١٩٦٨) ص ١٨٣.

وتحكمت الرشوة في ولاية الخطط السلطانية والدينية كالوزارة والقضاة وولاية الأقاليم والحسبة، حتى مشيخة بعض الزوايا وخطبة بعض الجوامع . فصار «لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل» بوصفها تدر الأجزل . وكم في المصادر عن هذا العصر من قصص التزاحم بين القضاة ومدرسي المدارس ومشيخات الطرق على هذه الوظائف، ومن نوالها عن طريق الرشوة . فإذا وصلوها استمروا في رشوة موظفي الدولة من أوقافها ليضمنوا بقاءها . وقد حدث سنة ٨٠٩ أن تولى منصب الحسبة في القاهرة - وهو منصب ديني خطر - أربعة في شهر واحد لأن أولي الأمر فرضوا على المنصب مالا معيناً فمن قام بنفسه أن يليه زاد المبلغ ويخلع عليه ثم يزيد الآخر فيصرف الذي سبقه . ويتقاضى المحتسب عن مخالقات الأسواق مقابل ما يدفعه لها أصحابها لكي يؤدي المحتسب مبلغ الضمان وزيادة<sup>(١)</sup> . . . وعرف العامة ذلك فكانوا يفاوضون على قضاء مصالحهم . ثم تطور الأمر حتى صارت المناصب تباع ويها صغار الأولاد أيضاً . سرى ذلك في مناصب التدريس والقضاء والخطابة ومشيخة التصوف<sup>(٢)</sup> وعلق المقرئزي على ذلك قائلاً قوله المعري : فيانفس جدي أن دهرك هازل!

ز - رافق ذلك كله في العصر المملوكي الثاني مبالغة الناس في التوسل بالأولياء والمشايخ لتحقيق المآرب وقد نقلوا ما يرونه في دنياهم من وساطات إلى العالم الديني . فحسبوا بعض الشيوخ ذوي كرامات وخوارق . ومن الغريب أن بعض كبار السلاطين والعلماء والكبراء كانوا يؤمنون بذلك فلكل رجل منهم شيخ يؤمن بكراماته ويروي معجزاته الخارقة . وكان أخص

(١) انظر ابن حجر أبناء القمر ج ٢ ص ١٧٧ وج ١ ص ٧٢٩ والمقرئزي / السلوك ج ٤ ص ٨٣٢

والسخاوي ذيل رفع الأصر ص ٣٩٧ .

(٢) المقرئزي / السلوك ج ٤ ص ٨٢٢ .

موضوعات هذا الاعتقاد هم المجاذيب الذين تمتعوا في ذلك العصر بتكريم لم يعرفوه في أي عصر آخر. وكانوا في حياتهم يقصدهم الناس أفواجا وفيهم القاضي والعالم والأمير، وعند مماتهم تقام لهم الجنائز الفخمة وتنصب لهم القباب وتندر لهم الندور. . . وتربط الخيوط على شبابيكهم لتذكيرهم بإصحاب الحاجات! فأبن حجر يقول أنه مازال يعيش ببركة أحد هؤلاء المجاذيب، والسلطان الغوري يصر قبل خروجه لمحاربة السلطان سليم العثماني على اصطحاب شيخ الرفاعية (خليفة الرفاعية) وخليفة السيد البدوي معه للبركة. والظاهر برقوق دفن حسب وصيته عند أقدام المجذوب الذي يؤمن به. . . حتى صارت زيارة قبور الأولياء مؤسسة اجتماعية وركنا من أركان الحياة الاجتماعية. وحاول بعض المعاصرين كابن الزيات والسخاوي وضع كتب مستقلة يحرصون فيها ويذكرون غرائبهم وكراماتهم. وبلغ الأمر ببعض الأولياء إن صارت لهم موالد يحتفل الناس بها. (فالسيد البدوي مثلا له ثلاثة موالد في السنة)، ولكنها مهرجانات ظاهرها ديني وتمهليل، وباطنها كل منكر. ويذكرون أنهم عثروا صبيحة اليوم التالي لمولد الشيخ الأمبائي على أكثر من مائة وخمسين جرة خمرة متناثرة في المزارع المجاورة<sup>(١)</sup> ذلك أن هذه الموالد كانت نزعات ترفيحية لا علاقة لها بصاحب المولد ولا بالدواعي التي دعت له ومعظم روادها لم يكونوا يعرفون باب زاويته<sup>(٢)</sup>. وكانت النساء فيها بقدر الرجال والاختلاط قائم والدفوف والشنوف تضرب. وإذا كانت هذه الموالد أشبه بالأسواق الدورية لتصريف البضائع فإنها كانت من الجهة الأخرى تحملا من كل رابط ديني أو اجتماعي.

(١) ابن حجر أبناء القمر ج ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ والمقريري/ السلوك ج ٣ ص ٤٨٧.

(٢) ابن تغري بردي/ النجوم ج ٥ ص ٤٤٣ (ط. كاليفورنيا).

## الفصل التاسع

### الحياة الدينيّة - ١ المسلمون

الحياة الدينية في المدينة الإسلامية هي روحها المسيطر وعمادها. باعتبار أن الدين الإسلامي هو العمود الذي قامت عليه الحضارة العربية الإسلامية كلها، ومن الصعب فصل الحياة الدينية لوحدها عن جوانب الحياة الأخرى في المدينة الإسلامية، فهذه المدينة هي وحدة مشتبكة بعضها مع بعض، مترابطة، وفي كل مظهر من مظاهر الحياة كان للدين أثره سواء في تأسيس هذه الظواهر المختلفة أو في دعمها أو إعطائها الشكل الإسلامي. ولهذا تفيض جوانب الحياة الدينية لتشمل في طياتها الكثير مما يتصل بالواقع الاجتماعي - الاقتصادي أو بالوضع السياسي أو الثقافي للمدينة. وقبل البدء، علينا أن نقدم بين أيدي البحث بضع ملاحظات :

الأولى : أن الإسلام دين كلي : أنه ليس دين عبادات فقط ولكنه أيضا ممارسات حياة. والماوردي في كتابه أدب الدنيا والدين يوضح ذلك مقيماً الإسلام نظاماً شاملاً للحياة يشمل كل أسباب الحياة اليومية على المستويين العام والخاص ولكل جماعة المسلمين. «فالحياة الإسلامية إنما تكمل بالتوازن بين أمور الدين والدنيا» لأنه من صلحت حاله مع فساد الدنيا لن يعدم ان يتعدى اليه فسادها ومن فسدت حاله مع صلاح الدنيا لم



يجد لصلاحها لذة . . . لأن الإنسان دين بنفسه . . . (١) . «صلاح الدنيا يتحقق لسته أشياء هي : الدين المتبع ، والسلطان القاهر ، والعدل الشامل ، والأمن العام ، والخصب الدائم ، وأخيراً الأمل الفسيح ، والدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الأمور نفعا في انتظامها . . .» .

الثانية : أنا لا نعني بالحياة الدينية في المدينة المسلمة ذكر العقيدة وما يتصل بها في الكتب المعتمدة من قرآن وتفسير ومن سرديات السنة والسلف وعلوم الكلام ، ومن مناقشات فلسفية وتصوف ونظريات في الفيض وآراء هؤلاء وأولئك من السنة والشيعة ، وإن انشعب هذا والتقى بذلك . ذلك البحث النظري يتصل بالمثل الدينية العليا وبالفقه . وإنما تهتمنا الممارسات العملية للحياة المتصلة بالدين . وهمنا الدين الحي نفسه ومدى الإلتزام بأوامره ونواهيه والقيام بالفروض أو بالمعروف والاعتكاف أو حلقات التصوف . وما يساند ذلك من عمران ديني في المدينة وطبقات في الناس . فكلمة الإسلام لا تشمل العقيدة فحسب ولكن تشمل خاصة انعكاساتها في الثقافة ، وطرائق السلوك والتصرف باعتبارها جميعاً تحمل الطابع الإسلامي .

الثالثة : أن من غير الواقعي أن نسوم المدن الإسلامية كلها موقفاً موحداً في العمل الديني ، لا سيما مع امتداد الفترة في الزمن واتساع الرقعة في المكان ، وتنوع الثقافات السابقة في الأمكنة التي وصلها الإسلام . فالملامح التي سوف نذكر قد ينقصها الكثير وقد تنكشف عن كثير من الثغرات . والطابع المحلي لا بد له من أن يترك آثاره حتى في الحياة الدينية .

الرابعة : أن المدينة الإسلامية التي نقصد ليست تلك التي بناها المسلمون فقط ، ولا تلك المدن الملكية التي بناها الأمراء مقرأً للحكم

(١) الماوردي : أدب الدنيا والدين ص ٩٧ .

والسكن . ولكنها الوحدة الحضارية التي نشأت وتطورت فيها الحضارة العربية الإسلامية بمراكزها ومذاهبها ومؤسساتها وأهل الذمة فيها، وبطرائق البناء وال عمران ، وعادات الأكل والملبس ، والأعياد الدينية والتقاليد . وهكذا ففي كلمة المدينة الإسلامية - كما نعالج - معنى أوسع من مدينة المسلمين . إنها وحدة مدنية حضارية من وحدات دار الإسلام .

الخامسة : أن النظرة الغربية إلى الدين ، من خلال المسيحية خاصة وكهنوتها ليست تهمنا لأنها ليست نابعة من جوهر الإسلام ؛ ولكن من الرغبة في المقارنة بالنظم المسيحية . في حين يختلف دور المسجد الجامع في المدينة الإسلامية اختلافاً بينا عن وظيفة الكاتدرائية في الحضارة الغربية رغم اشتراكهما في عملية العبادة . ويظهر اختلافهما سواء في أنواع هذه الوظيفة أو في الذين يقومون بطقوس العبادة فيها . فللكاتدرائية دورها في التسجيل المدني للمواليد والوفيات وحفلات الزواج وفي القسم السكني مما لا يعرفه المسجد الجامع الذي يقوم بوظائف أخرى .

السادسة : ليس يهمننا وصف المذاهب الدينية الإسلامية باليمين واليسار والوسط فذلك أمر مرفوض . فالمالكية ليست حزب اليمين ، ولا الشافعية حزب اليمين المعتدل ، ولا يمثل الحنابلة اليمين المتطرف كما ليست الحنفية حزب يمين الوسط ، والظاهرية حزب يسار الوسط . والشيعية ليست هي أحزاب اليسار والمعارضة واعتبار السنة هي المذهب الرسمي . إن في ذلك إسقاطاً من عصر على عصر ومن حضارة على أخرى فالخطأ في ذلك مزدوج .

## ١ - المسجد والجامع

مركز الإشعاع الديني ورمزه في المدينة هو الجامع . إنه القلب الروحي فيها ، وهو لا يتوسطها في الناحية العمرانية فقط ، ولكنه يتوسط الفكر الديني

الإسلامي كله فيها أيضا، باعتباره قطبها الأول، وباعتباره يمثل السلطة الرسمية الحاكمة في المدينة، وباعتباره أخيرا المركز السياسي والقضائي والثقافي لها بحكم الوظائف التي يقوم بها. فهو لم يكن للعبادة فقط كالمعابد الأخرى ولكنه امتداد لفكرته أيام الرسالة. حين كان مركز لقاء المسلمين الأسبوعي ومكان عدالتهم أيضا وتعلمهم. وقد برزت الحاجة إليه بهذه الوظائف الثلاث الإضافية، في القرون الثلاثة الأولى للإسلام، فكان المسجد الجامع سواء في البصرة والكوفة أم في نيسابور ودمشق أم في القسطنطينية والقيروان وقرطبة، هو الذي يجمع المسلمين كل أسبوع، ويبلغهم بالموقف السياسي ومقررات الدولة أو يتلو عليهم أخبار المسلمين في البلاد الأخرى مع الصلاة. فهو إذن مركز سياسي إعلامي وفيه على الأغلب كان يجلس القاضي للحكم بين الناس عند بابه، أو لدى بعض سواريه. فهو المحكمة. وفيه كانت تعقد الحلقات للقصص (الوعظ) والتوعية الدينية والتعليم وتدریس الدين والعلوم الإسلامية الأخرى من تفسير ونحو وبيان ولغة. وفيه منذ أوائل القرن الأول أيام سليمان ويزيد وهشام أبناء عبد الملك ظهر علم الكلام، وظهر البحث في صفات الله وعدله (أي المطالع الفكر الاعترالي مع عمرو بن عطاء)، كما ظهر الفكر الصوفي (مع الحسن البصري وغيره). بالإضافة إلى العملية التربوية الدينية التي كان يقوم بها المعلمون للصبيان والفتيان وطالبي العلم في بعض أركان المساجد الجامعة وعند بعض سواريه.

وظهرت في الوقت نفسه الحاجة إلى المزيد من بناء المساجد مع تكاثر المسلمين. وقدروا أن عمال الوليد بن عبد الملك كتبوا إليه (أو أن عبد العزيز بن مروان والي مصر) كتب إليه أن بيوت الأموال ضاقت من كثرة

أموال الخمس من الغنائم فكتب إليهم يأمرهم باستغلالها في بناء المساجد<sup>(١)</sup>.

وإذا نحن صدقنا الرقم الذي يعطيه المقدسي (من أبناء القرن الرابع) للمدن وهو ١٦٠٠ مدينة إسلامية أو حولها فنحن نقدر أن عدد الجوامع في الجملة قد لا يزيد كثيرا على ٢٥٠٠ جامع في العالم الإسلامي كله حتى القرن الرابع. باعتبار أن عددا من المدن كان بها جامعان وثلاثة جوامع (كبغداد)، وأحيانا بعد ذلك في القرون السادس والسابع والثامن والتاسع أكثر من ثلاثة كما هو الحال في القاهرة المملوكية، ثم في استامبول وفي بعض حواضر الهند. وقد لا يكون المقدسي في الرقم الذي قدمه للمدن أيضا قد أدخل في حسابه جوامع القرى وهي كثيرة أيضا. وعلى أي حال فالمساجد الجامعة كانت دون أي شك موجودة في كل مدينة وبلد وقرية كبيرة. وقد زادت زيادة كبيرة مع الأيام حتى أن مدينة القاهرة في العصر المملوكي أيام المقرئزي (النصف الأول من القرن التاسع) كان فيها ١٣٠ مسجدا تقام فيها الجمعة<sup>(٢)</sup>. في حين قدرها خليل بن شاهين الظاهري بأكثر من ألف مسجد<sup>(٣)</sup> جمعت الجوامع والمساجد وهو قد يجد تبريره في أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأمراؤه بنوا ثمانية وعشرين مسجدا.

وهذه كلها للصلوات اليومية. فقد أذن للجماعة الإسلامية منذ أيام الرسول، وبخاصة في أيام عمر بن الخطاب بعد اتساع الفتوح، باتخاذ أي مكان طاهر مسجدا للعبادة سواء كان في البيت أم في الصحراء. فتكاثرت المساجد في المدن بمقدار التكاثر السكاني وكثافته، منذ القرن الأول للهجرة.

(١) السيوطي / حسن المحاضرة / ج ٢ ص ٩.

(٢) المقرئزي / خطط ج ٢ ص ٢٤٥.

(٣) خليل بن شاهين الظاهري / زبدة كشف المالك ص ٣١.

وأذا كان الجامع «رسمياً» فالمسجد أهلي، وإذا كان الجامع متعدد الوظائف فالمسجد وحيد الوظيفة: إنه معبد فقط. وقد يستخدم للتدريس فيستغل المؤدبون أوقات فراغه من المصلين. والمسجد الجامع إنما يبنى للمدينة كلها ومن قبل السلطة. أما المساجد فتبنى من جانب الأفراد والجماعات. تُقى من جهة، وفضلة يسار وغنى من جهة أخرى. وغالبا ما كان المسجد يحمل اسم الجماعة التي بنى لها (سواء أكانت قبلية أم جماعة محلة من المحلات) أو اسم بانيه نفسه أحيانا.

ولما كان المسجد لا يحتاج إلى أكثر من غرفة تكبر أو تصغر وتضم المصلين لذلك تعدد المساجد التعدد الكبير ولا سيما في الحواضر الكبرى ويروون أنه كان في بغداد حوالي سنة ٣٠٠ هـ ثلاثة جوامع فقط وبها /٣٠/ ألف مسجد(؟) سوى ما زاد بعد ذلك<sup>(١)</sup>.

فكان الناس يصلون صفوفًا وراء الجامع تمتد حتى دجلة بل وفوق (السميريات في النهر. وينقل المكبرون) التكبير من واحد إلى آخر<sup>(٢)</sup>. وكان في البصرة في القرن الثالث سبعة آلاف مسجد ولم تزد الجوامع في القرن الرابع على أربعة. وفي الفسطاط زادت المساجد الجامعة في هذا العهد نفسه إلى سبعة. وكان الزحام يشتد في صلاة الجمعة بجامع عمرو بن العاص حتى تمتد الصفوف في الأسواق على أكثر من ألف ذراع من الجامع، وحتى تمتلئ القياسير والدكاكين. وكان عدد مساجد قرطبة أواسط القرن الرابع ٤٩٠ مسجدا على قول بن حوقل أو ثلاثة آلاف على قول بن عذارى<sup>(٣)</sup>!

(١) هذا ما ذكره اليعقوبي البلدان ص ٥٠ ولعل أيدي النساخ لعبت بالرغم فجعلت الثلاثة ثلاثين. والنص عنده (وهو من القرن الثالث): «وأحصيت المساجد فكانت ثلاثين ألف مسجد سوى ما زاد بعد ذلك وأحصيت الحمامات فكانت عشرة آلاف حمام سوى ما زاد بعد ذلك» وهي مبالغة واضحة.

(٢) آدم ميتز / الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٦٣.

(٣) ابن عذارى / البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ - ٢٣٤.

وكان في دمشق أيام نور الدين ٢٣٤ مسجدا عددها ابن عساكر واحدا واحدا<sup>(١)</sup>. وذكر ابن جبير أن بالاسكندرية التي يصفها بأنها أكثر بلاد الله مساجد، عددا يتراوح بين ٨ إلى ١٢ ألف مسجد<sup>(٢)</sup> حسب تقدير المقلين والمكثرين. أما بغداد فقد ذكر هذا الرحالة أن فيها في الجانبين الشرقي والغربي مالا يأخذه التقدير فضلا عن الإحصاء. كما ذكر أن جوامعها كانت أحد عشر جامعا<sup>(٣)</sup>. وفي بلرمة بصقلية نيف وثلاثمائة مسجد. ويعلق ابن حوقل على هذا العدد ويفسره قائلا :

«وبصقلية من المساجد في مدينة بلرمة. والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة بها من وراء سوريتها عامرة أكثرها قائمة على عروشها بحيطانها وأبوابها نيف وثلاثمائة مسجد يتواطأ أهل الخبرة منهم في علمها. . . . ؟ ويتساوون في معرفتها وعددها. . . يعرف ذلك جميعهم غير مختلفين في مقدارها. ولم أر لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار التي تستولي على ضعف مساحتها شيئا، ولا سمعت من يدعيه إلى ما يتذكرة أهل قرطبة من أن بها خمسمائة مسجد، ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكرته في موضعه على شك مني فيه. وأنا محقق بصقلية لأنني شأهت أكثره. ولقد كنت واقفا ذات يوم بها. . . فرأيت من مسجد (أمامي) في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصري ومنها شيء تجاه شيء، وبينهما عرض الطريق فقط. وسألت عن ذلك فأخبرت أن القوم لشدة انتفاخ رؤوسهم كان يجب كل واحد منهم أن يكون له مسجدا مقصورا عليه لا يشاركه فيه غير أهله وحاشيته، وربما كانا أخوين منهم متلاصقة دارهما. . . . وعمل كل واحد مسجدا. (أو كان أب وابنه) . . . وكان

(١) ابن عساكر / تاريخ مدينة دمشق / الجزء الثاني ص ٢٣٧ - ٢٤٧.

(٢) ابن جبير - الرحلة ص ١٧.

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢١٥.

رغبته في ابتناؤه أن يقال مسجد الفقيه ابن الفقيه وهو حدث له من نفسه محل  
عظيم وخطر جسيم . . . . . لبأوه وصلفه . . . (١)

وتتميز الجوامع بتخطيطها وباحتوائها على عناصر معمارية لا توجد في  
المسجد كالمئبر بخاصة، والمقصورة، وإن كان من الممكن أن يحوي المسجد  
مئذنة متواضعة وركنا للوضوء، وكتاباً لتعليم الصغار وبخاصة في المغرب  
حيث يسمون الكتاب للصغار حتى اليوم باسم (مسيد) وهي محرفة عن كلمة  
مسجد بإبدال الجيم ياء كما في بعض اللهجات العربية .

وجوامع الأمصار كانت تغص بروادها أيام الجمع حتى كان الناس  
يصلون في الطرقات وعلى ظهور المراكب في القاهرة وفي بغداد، وكان هذا  
المظهر عاما في المدن كبرها وصغرها، وفي القرى ذات المناير . أنه لم يكن  
حاجة دينية فقط ولكنه حاجة اجتماعية واقتصادية أيضا، هذا في حين أن  
المساجد كانت تؤهل في فترات الصلوات، ومن قبل جماعة الحي نفسه . وقد  
ينزل فيها بعض المنقطعين من المسافرين وبعض الفقراء أو الصوفية ممن  
تسمح لهم الرعاية المحلية بالإقامة . وقد يتخذ بعض هذه المساجد ومنذ بنائه  
زوايا للمتصوفة، وقد تبنى المساجد ملحقة بالأربطة وعند ذلك فلا حد  
لعددها، لأنها تكون بالآلاف فعدد الأربطة في ما وراء النهر وحده - فيما  
ذكروا - كان عشرة آلاف أو حول هذا الرقم . . .

وتتباهي المدن الإسلامية وما تزال بسعة مساجدها . وإذا كانت السعة  
ناجمة عن سعة المدينة وكثرة سكانها بصورة أساسية فإن تزيينها إنما يرجع إلى  
أمرين : شدة التقى، وغنى الدولة التي تبنيتها . وتعبر الشعوب كلها عن تقاها  
بالزينة التي تهبها لمعابدها وليس يشذ المسلمون عن ذلك . فالتألق بجانبه  
الفني وجانبه الديني من جهة أخرى ونعني بجانب التقى والبذل من أجل الله

(١) ابن حوقل ص ١١٥ .

﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾ . فالتألق في البناء زيادة في التقى وفي التقرب من الله . وكما تحوي المعابد جماع ما لدى الأمم من فنون كذلك تتجلى في الجوامع جميع الفنون الإسلامية . فهي بحق «جوامع» لهذه الفنون من زخرفة وخط وهندسة معمارية وصناعات فنية تطبيقية تتجلى في القناديل والشمعانات والثريات ، وفي فرش الجامع من السجاد والبسط وغيرها .

وقد عرفت المدن الإسلامية عددا حسنا من الجوامع الواسعة كل السعة . وكان أولها دون شك مسجد مكة الذي أقيم حول الكعبة وقد طهره الرسول الأعظم من الأوثان بعد أن جعله الله قبلة المسلمين . والكعبة مكعب طول ضلعه تقريبا ١٢ مترا . ويقوم من حولها مساحة واسعة هي صحن المسجد للطواف والصلاة ويحيط بالصحن أروقة تحملها أقواس على أعمدة . والكعبة مغطاة بستار كان الخلفاء العباسيون ثم الفاطميون يتبارون في تزيينه بالآيات الذهبية وإهدائه كل سنة إليها . وقد جدد هذا المسجد ووسع مرات عديدة تبعا للحاجة التي تظهر مع ازدياد عدد المسلمين .

على أن أول وأعظم الجوامع الواسعة التي بنيت بعد ذلك هي الجامع الأموي بدمشق الذي بناه الوليد بن عبد الملك بين سنتي ٨٦ - ٩٤هـ / ٧٠٥ - ٧١٤ . وهو على شكل مستطيل طوله ١٥٧ مترا بعرض ٩٧ مترا وهو المستطيل الذهبي . وفي زواياه غرف من عشرة أمتار بعشرة أخرى . وهو قسمان قسم مغطى هو الحرم ، وآخر مكشوف هو صحن المسجد : فيه نافورة ماء هي الميضاة . وقبة تقوم على أعمدة ؛ هي بيت المال . وفي زاويته الشرقية مشهد للإمام الحسين . وقد كان الصحن لسعته يستخدم متنزها لأهل دمشق في القرن السادس . وقد اجتمعوا فيه ينثرون الرماد والتراب على رؤوسهم ويستنجدون بالله حين حاصرهم الصليبيون في الحملة الصليبية الثانية وكادوا يحتلون المدينة . ويحيط بالصحن من جهاته ثلاثة أروقة تفصلها عن الصحن



سلسلة من الأقواس المستديرة تقوم على أعمدة مضاعفة كما في الحرم لتسمح بالارتفاع الشديد. وفوق أوسط الحرم قبة كانت دوما مزدوجة (قبة فوق قبة) مغطاة من الخارج بالرصاص بارتفاع يزيد على خمسين مترا لهذا كانت تدعى دوما قبة النسر. وفي الأركان ثلاث مآذن له. وقد كان الجامع يوم بني مغشي بالفسيفساء الذهبي المزين برسوم البيوت والأشجار والأنهار. ولكن الحرائق التي أصيب بها أكثر من مرة لم تبق إلا على القليل من بهائه الأول الذي كان في نظر الأولين أروع الجوامع بوصفه أول الجوامع الواسعة وجامع الدولة الكبرى والوحيدة في العالم. ولهذا أصبح هذا الجامع النموذج الذي قلد في كثير من جوامع الشام ومصر.

وقد سبق المسجد الأموي وعاصره في البناء المسجد الأقصى بداه عبد الملك بن مروان وأتمه ابنه الوليد، ولم يكن بالكبير ولكن الساحة التي تقوم بينه وبين قبة الصخرة كانت تعطي صحنه سعة هائلة. وكانت أبوابه مغطاة بالذهب في العصر الأموي. ويعتبر نموذج المساجد في غربي الإسلام ببواباته المفتوحة على الصحن، وقد جدد مرات عديدة بسبب الزلازل والحريق وبسبب سوء الاستخدام أيام الصليبيين، كما استخدم ذهب أبوابه أيام المنصور لاصلاحه.

وعاصر بناء الجامع الأموي بدمشق جامع ثالث هو الروضة النبوية، جامع الرسول الكريم في المدينة وقد تغيرت معالمه بالتجديد وبالتوسعة مرة بعد مرة وزال الفسيفساء الذي كان يكسوه. وفي هذا الجامع بدأ التقليد الإسلامي بوجود الضريح ضمن المسجد، وبخاصة بعد الحريق الذي دمره سنة ١٢٥٤/٦٥٤ سنة ١٤٨١/٨٧٥ حين أعاد بناءه السلطان قايتباي. وقد أضيفت إليه سنة ١٨١٧ قبة خضراء عظيمة بناها السلطان العثماني محمد الخامس ثم أعاد السلطان عبد المجيد بناء الجامع كله بين سنتي ١٨٤٨ - ١٨٦٠ وذلك قبل التوسعة التي تمت في العهد السعودي بين سنتي ١٩٥٣ -

١٩٥٥ وقبل التوسعة الأخيرة التي تجرى اليوم في عهد الملك فهد بن عبد العزيز.

ومن المؤسف أنه لم يبق من جوامع بغداد القديمة أثر هام ولكن جامع سامراء وجامع أبي دلف قد يمثلان الفترة العباسية الأولى. وجامع سامراء الذي بناه المعتصم يمتد على مستطيل أرضي ٢٤٠ متراً × ١٦٠ متراً. يشتهر بمئذنته الملوية المبنية على بعد ٢٠ متراً من الجامع والتي يصعد إليها من خارجها على الخيل، وترى منها بقايا الأعمدة وسور الجامع وآفاق سامراء البعيدة. وعن شرقي الجامع وغربه من الجانبين بوابتان ضخمتان وثمة بوابة ثالثة من الشمال أصغر منها ويدخل ويخرج منها المصلون الذين يتسع الجامع منهم لحوالي ثمانين ألفاً إلى مائة ألف من المصلين. وأما جامع أبي دلف الذي بناه المتوكل بين سنتي ٨٥٩/٨٦١ في شمال سامراء وله مخطط الجامع السابق نفسه فهو من الخارج على مستطيل ٢١٥ متراً × ١٤٠ متراً بساحة داخلية تبلغ ١٥٦ متراً × ١٠٤ أمتار. وله بدوره مئذنته الملوية التي ما تزال محفوظة ولو أنه كالسابق له بني من اللبن والأجر وتظهر فيه آثار التزيينات التي كان يضمها. ولم يقلد من هذين الجامعين إلا المنارتان في مصر، وفي عهدهما نفسه، إذ بنى ابن طولون مئذنة جامعته تقليداً لهما، ولكن الجامع على شكل مربع تقريباً (١٦٢ متراً × ١٢٣ متراً) من جهة و١٤٠ من الجهة الأخرى، والساحة الداخلية على شكل مربع ضلعه ٩٢ متراً. ولم يكن في مصر قبله إلا جامع عمرو بن العاص الذي ضاق بالناس، وهو مستطيل ولكن مقياسه الحالية لا تتفق مع مقياسه الأولى فقد رمم وجدد عدة مرات. وكان في الأصل حرماً للصلاة مقياسه ٣٠ متراً × ١٧/٥ م تقريباً وبدون صحن. وقد أعاد بناءه قره بن شريك وإلى الأمويين سنة ٧١١ - ٧١٢ ووضعت فيه على مثال جامع دمشق قبة لبيت المال.

ومن العصر نفسه كان جامع القيروان الذي كان بدوره مستطيلاً

صغير المقاييس ثم وسع وجدد أكثر من مرة سنة / ٧٠٣ وسنة / ٧٧٢، ثم أعيد بناؤه سنة / ٨٣٦ فأضحى يتكون من ساحة داخلية تحيط بها أقواس تحمل الأروقة ومن حرم للصلاة، في مساحة تبلغ ٧٥م × ١٣٠ مترا تقريبا.

وإذا نحن استثنينا الجامع الأموي بدمشق ومسجد الرسول الأعظم اللذين زينا عن سعة بالفسيفساء فإننا لا نكاد نجد شيئا من الزينة في هذه المساجد الأولى. فقد بنيت كلها على أساس السعة للمصلين لا على أساس إبراز غنى الدولة، وثلاثة منها بناها الولاة. وأما جامعا سامراء فإن واحدا منها هو جامع أبي دلف لم يستخدم لأنه ما إن انتهى حتى هجرت المدينة. وأما الأول فقد تكون فيه بعض الزخرفات في القبة والمحراب ولكن الخراب أتى عليهما. ويجب أن نتظر القرن الرابع بصورة خاصة ليظهر التزين وتظهر الأبعاد والفخامة في جامع قرطبة الكبير. وصحيح أنه بني في عهد عبد الرحمن الأول (سنة ٧٨٥ - ٧٨٨) وابنه هشام ثم وسع أكثر من مرة، وقد كان مرفوع السقف بعمد فوق عمدة فصار مربعا بضلع ١٢٥ مترا يضاف إليه ساحة خارجية مزروعة (١٢٥ × ٤٥ مترا)، لكن هذا الجامع لم يبن فقط لاستيعاب المصلين ولكن أدخل عليه من الزينة والفسيفساء الذهبية ما يُبهر سواء في قبابه أم على محرابه أم في بواباته ونوافذه وأركانه حتى صار تحفة معمارية فنية تبهت لها عيون الناظرين. وبدأ بذلك عهد الجوامع المزخرفة.

وقد بدأت الزخرفة أولا بمواد البناء نفسها حفرا ولعبا بخطوط العمارة. وإذا أخذت في المغرب طريقة التزين با Arabesque فقد أخذت في المشرق طريقة التغطية بالقاشاني على الغالب والتزين بالآيات المخطوطة والزخرفة البارزة.

وقد حرص الخلفاء والولاة دوما على تعهد المساجد الجامعة في المدن، واعتبروا ذلك من واجباتهم الدينية الأولى كما اعتبروا بناءها في الأصل، ثم

توسيعها عند الحاجة من هذه الواجبات . ولو تذكرنا جوامع المدن الكبرى التي نعرف لوجدنا ذلك قائما في جميع العهود وجميع الأقاليم والمدن . فهي أشبه «بالدائرة» المتممة لدار الإمارة لا يتم ظهور إسلام الحكم إلا بها . ولهذا كانوا على الدوام يهبونها الهبات اللازمة، ويزودنها خاصة بنسخ القرآن الكريم . وكان الوليد بن عبد الملك أول من حمل الطعام إلى المساجد في رمضان .

ويحدثنا ابن طيفور أن المأمون أمر كاتبه أحمد بن يوسف أن يكتب إلى جميع عمال الدولة بالإكثار من استعمال القناديل في المساجد في شهر رمضان وتعريفهم الفضل في ذلك . فكتب له رسالة مطولة تحكي أن في ذلك «أنسا للسابلة وإنارة للمجاهدين ونفيا لمظان الرب وتزينا لبيوت الله من وحشة الظلمة»<sup>(١)</sup> .

كما اهتم أهل الشام خاصة بإنارة مساجدهم بالقناديل المعلقة فكانوا يوقدون طيلة أيام السنة دون انقطاع (لتوفر الزيت لديهم) فكانت وظيفة مسجد القدس من الزيت يبلغ مائة قسط كل شهر<sup>(٢)</sup> وكذلك كان يفعل أهل مكة بالبيت العتيق<sup>(٣)</sup>، وذكروا أن ابن طولون علق في مسجده الجامع بالقطائع السلاسل النحاسية المفرغة والقناديل المحكمة كما فرشها بالحصر العبدانية والسامانية المشهورة<sup>(٤)</sup>، ثم استعمل المسلمون التناير الضخمة (أو الثريات)، ويحدثنا السيوطي أن الحاكم بأمر الله حين جدد الجامع الأزهر جعل فيه تنورين من الفضة الخالصة وسبعة وعشرين قنديلا من هذا المعدن، كما أنزل من قصره سنة ٤٠٣ إلى مسجد عمرو بالفسطاط/

(١) ابن طيفور/ بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ج ٦ ص ١٢٠ .

(٢) المقدسي حسن التقاسيم ص ١٧١ .

(٣) المقدسي ص ١٨٢ .

(٤) المقرئزي / خطط ج ٢ ص ٢٦٦ .

١٢٩٠ / مصحفا بعضها مكتوب بماء الذهب ليتمكن الناس من قراءة القرآن، كما بعث مع هذه المصاحف بتنور كبير من الفضة يزن مائة ألف درهم. واضطر العمال لضخامة حجمه إلى خلع عتبات المدخل لادخاله وتركيبه في موضعه<sup>(١)</sup>. ولكن هذه التنانير التي يتحدث المقدسي عن مثلها في القدس<sup>(٢)</sup> كانت باهظة التكاليف لما تستهلك من الزيت والقطن الفتيل والصيانة فلم تكن تستعمل إلا في رمضان.

ويشير المقرئزي إلى الاهتمام البالغ الذي كان يوليه الفاطميون للمساجد وأعدادها قبل شهر الصوم فأخضعوها لإشراف القضاة المباشر يطوفون عليها ويقومون بلوازمها، وذكر أن الحاكم بأمر الله أمر بعمل جرد عام للمساجد التي لا غلة لها (أي لا أوقاف) أو لا تكفيها غلاتها فوجد أنها تزيد على ٨٣٠ مسجدا تحتاج من النفقة إلى ٩٩٦٠ درهما شهريا (بمعدل ١٢ درهما في الشهر لكل مسجد)، فأوقف عليها جميعا الحبوس ليصرف من ريعها على فقهاءها وقرائها ومؤذنيها، ولإجراء الأرزاق على من يقومون بخدمتها. وشملت المعونة حتى ثمن الأكفان لهم<sup>(٣)</sup>.

ويحدثنا ابن صاحب الصلاة بأسلوبه المنمق عن جامع قرطبة في ليلة القدر فيصف القناديل ونضضتها، وسلاسلها الذهبية اللامعة وأشعتها والشموع وقد رفعت على المنار رفع البنود. الخ، وكانت المواسم والأعياد الدينية هي أعياد الجوامع كالعيدين، وأيام المولد النبوي، وليلة القدر، وليلة النصف من شعبان وأيام رمضان. وكانت إضاءة التنانير أهم ما يميز هذه الأعياد. وقد بقي كثير منها ومن القناديل والشموع المضخمة وحاملاتها

(١) السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٢.

(٢) المقدسي - المصدر السابق ص ١٨٢.

(٣) المقرئزي / خطط ج ٢ ص ٢٩٥.

(الشمعدانات) حتى اليوم في المتاحف تنبىء عن صنعتها وزخرفتها بالآيات الكريمة.

ونعد من الأمثلة البارزة في الجوامع الباقية اليوم:

— جامع إشبيلية الذي بناه الموحدون وهو بسعة ١٥٠ متراً × ١١٠ أمتار وله خمس قباب يتميز بها على طول خط القبلة. ولقد هدم وحوله الإسبان إلى كاتدرائية كبرى ما تزال تحتفظ بزينة الجامع ومقرنصاته. وبقي من هذا الجامع منارته المعروفة بالخير ألدأ وصحنه المملوء بشجر البرتقال. وبعض البقايا الأخرى. وارتفاع الخير ألدأ يقارب ٧٤ متراً بقاعدة تبلغ ١٥ متراً وقد بنيت سنة ١١٨٤/٥٨٠.

— جامع القرويين في فاس: وهو أقدم جوامع المغرب بنته سيدة من الفهريين لألفين من الأسر التي طردها الفاطميون من القيروان، كما طرد الأمويون بعد ثورة الربض ٨ آلاف عائلة من أرباض قرطبة فلجأوا إلى موقع فاس نفسه. والجامع الأول لم يكن أكثر من مصبل صغير ضلعه ٣٠ متراً، وقد وسع في القرن العاشر (الرابع الهجري) عدة مرات وبنيت منارته المربعة على مثال منارة القيروان ومنارات الشام. وبعد انتصار الموحدين أعيد بناء المسجد على يد علي بن يوسف سنة ١١٣٥/٥٣٠ الذي أعطاه أبعاده الحالية (٨٥ متراً × ٧٠ متراً)، وقبابه العشر على طول خط القبلة التي زينتها ببعضها بالمقرنصات. وقد وضع فيه منبر خشبي رائع الحفر من القرن الثاني عشر، وثريا ضخمة سنة ١٢٠٣/٥٩٩.

وقد قام هذا الجامع، كالأزهر، بدور الجامعة الدينية فكان أحد المراكز الأساسية لتدريس الدين ولتعلم الثقافة الإسلامية في المغرب كله.

— جامع الكتبية في مراكش الذي بناه عبد المؤمن مكان قصر المرابطين

المعروف بدار الحجر. بعد فتح مراكش بقليل. انتهى الجامع أولا سنة ١١٥٧/٥٥٢ لكنه أضيف إليه جامع آخر دشن سنة ١١٥٨/٥٥٣ وهدم الأول. بني جامع الكتبية على مخطط مستطيل (٩٠ × ٦٠ مترا) وعليه من الجانبين بوابات. وفي أوسطه سبع قباب وقد أراد الموحدون العودة إلى سيرة السلف فلم يببالغوا في تزيينه واكتفوا بما يوحي به من الخشوع والطمأنينة. وبما يزين المحراب والزوايا. أما منارته فترتفع ٦٩ مترا يضاف إليها سهم فيه أربع كرات تصل بها إلى ٧٧ متراً، وهي عبارة عن ست غرف بعضها فوق بعض يدور من حولها سلم مغلق يصل إلى الأعلى وعليها زخرفات تختلف من جانب إلى آخر.

– جامع القصبة في مراكش بناه الموحدون أيضا (يعقوب المنصور سنة ٥٨٠ - ١١٨٥/٥٨٩ - ١١٩٠) على مربع تقريبا (من ٧١ مترا × ٩٨ مترا) وحرم الصلاة فيه مستطيل. ويتميز بصحنه الواسع وبقبته المقامة فوق البوابة الشمالية وبمئذنته المزينة هندسيا بزخارف بارزة.

– جامع حسان في الرباط: والرباط بنيت في مكان رباط للجهاد أيام عبد المؤمن الموحي وحفيده يعقوب المنصور لتكون عاصمة للموحدين. ولهذا بنوا فيها جامعا هو في المساحة أكبر جوامع المغرب فهو مستطيل أطواله (١٨٣ × ١٤٠ مترا) وليس أكبر منه في المشرق إلا مسجد سامراء. ولكنه لم يستخدم ابدا وإنما بقي ليدل على مدى طموح المنصور ولم تستكمل مئذنته المربعة الهائلة. وقد أقيم على مجموعة هائلة من الأعمدة (٣٢٤ عمودا) الثقيلة وهي في هذا وفي تغطيته يشبه جامع قرطبة. وكل جدرانها مدعمة بدعائم. والمئذنة المربعة مزخرفة وكان عليها أن تبلغ ٨٠ مترا دون حساب السهم الأخير ولكن لم يبن منها سوى الثلث أو أقل. وكان ممكنا أن تكون أعلى مآذن المغرب.

- جامع تنملل : كان في الأصل جامعا دون أي زينة ولكنه عند إصلاحه من قبل عبد المؤمن الموحد حظي بعقود مزينة بما يشبه المقرنصات وتقوم مثذنته فوق المحراب وهو يتفرد بذلك بين الجوامع .

- جامع الجزائر : بناه السلطان علي بن يوسف الموحد في نهاية القرن السادس / ١٢م . على نموذج جامع القرويين وجامع تلمسان وهو مستطيل الشكل إلى التريبع (٥٠ × ٤٠م) وأعمدته ثقيلة وصحنه صغير جدا .

- جامع تلمسان أسسه أيضا علي بن يوسف الموحد وهو بطول ٦٠ مترا وعرض أربعين . ولكن إحدى زوايا المستطيل مقطوعة فلا يزيد العرض عندها على ثلاثين مترا ، وأبوابه تفتح وراءها على عدة أقواس ، والصحن صغير جدا وفيه تزيينات زخرفية وأقواس مقرنصة .

- جامع الزيتونة في تونس هو الجامع الأكبر فيها . بناه عبيدالله بن الجحباب سنة ١١٦هـ / ٧٣٤ وربما كان ذلك على أنقاض معبد قديم أو كنيسة ، ولكن بنائه أعيد ثم أعيد أيام الأغالبة . ويبدو أن الخليفة المستعين ٢٤٧ - ٢٥٢ / ٨٦٢ - ٨٦٦ مول إصلاحه وتوسعته أيام زيادة الله الأغلبي . وقد قام على ذلك المهندس فتح في أواخر سنة ٢٥٠ / ٨٦٤ . وقد أضيف إليه فيما بعد سنة ٣٨٠ - ٣٨٥ / ٩٩٠ - ٩٩٥ قبة أخرى على المدخل . وزيادات عديدة في عصور مختلفة . وهو يقلد جامع القيروان بحرمه وصحنه وأعمدة الأروقة . ويزيد عليه في التزييق . وقد قام هذا الجامع ، كالأزهر والقرويين بمهمة الجامعة الدينية في إفريقية .

- الجامع الأزهر : أقامه الفاطميون بجانب قصورهم في القاهرة لا ليكون مركزا لصلاة الجمعة ، فقد كان لها في مصر الفسطاط جامعا : عمرو وابن طولون - ولكن ليكون مركزا للدعوة الإسماعيلية الفاطمية وفيه كان



يدرس داعي الدعاة ويتخرج الدعاة المبعوثين إلى أنحاء الأرض للتبشير  
بإمامة الفاطميين الشاملة . فهو إذن جامعة دينية وضع حجره الأول في  
جمادى الآخرة في سنة ٣٥٩ ابريل (نيسان) سنة ٩٧٠ وانتهى في شعبان سنة  
٣٦٢/يونيو حزيران سنة ٩٧٢ . ولكن البناء الحالي بعيد عن أن يكون هو  
البناء الأول، فقد وسع وجدد عدة مرات ودون انقطاع . ولكن مازال فيه  
ملامح من البناء . وللجامع منائر ثلاث بنيت في العهد المملوكي وآخرها  
(منارة الغوري) في مطلع القرن السادس عشر وتحمل رأسين كأغما تشير الى  
ان الدولة كانت يومذاك برأسين هما الخليفة والسلطان .

وحرم الجامع في معظمه مغطى ، وصحنه في الوسط صغير بالنسبة  
لحجمه وهو مستطيل عرضاني أكثر من طولاني . وقد تبعته مع الأيام أروقة  
يسكنها الطلاب القادمون من أنحاء الأرض الإسلامية لدراسة علوم الدين .  
وقد قضى الأزهر السنوات المائتين الأولى من عمره في تحريج الدعاة  
الفاطميين الشيعة ثم أغلقه صلاح الدين عن صلاة الجمعة فبقي معطلا  
حتى نهاية العهد الأيوبي إلى أن أمر السلطان الظاهر بيبرس بإصلاحه وترميمه  
وعين له الفقهاء والمحدثين والقراء وأقيمت به من جديد صلاة الجمعة لأول  
مرة / ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ وسرعان ما استعاد هذا الجامع مكانته  
وزاد . عليها لأنه صار معهدا سنيا أيضا وقد إليه طلاب العلم من كل  
مكان واشتهر علماءه في ذلك العهد شهرة حسنة وهكذا كان يوجد فيه فضلا  
عن أهل الريف من مصر أعاجم وزيا لعة ومقاربه وأشوام وسودانيون .  
وصار لكل طائفة من هؤلاء رواق يعرف بهم ويشغلون فيه بالعبادة والعلم  
الديني . ورأى ذلك الأمراء والأثرياء فقصدوا الجامع بأنواع البر من الأموال  
والأوقاف والأطعمة والحلويات ولاسيما في المواسم ، معونة منهم  
للمجاورين . وعكف كثير من الناس في ذلك العصر على المبيت بالجوامع -  
كما في الأزهر - طلبا للبركة ولاسيما في ليالي البرد أو الحر وليالي شهر رمضان .

وقد استمر ذلك حتى سنة ٨١٨هـ حين جعل الجامع الأزهر تحت نظر الأمير  
سودون فأمر بإخراج كل من فيه من المجاورين ومنع من المبيت فيه لكن ذلك  
لم يمنع في الجوامع الأخرى في كثير من أركان العالم الإسلامي .

وزادت مكانة الأزهر كثيرا في العهد المملوكي لما لمسوه من فائدته في  
منحهم السمعة الدينية الكبيرة خارج نطاق مصر، وفي السودان والشام بوجه  
خاص فلم يكونوا يولون أمره إلا لأحد الأمراء أو لكبار القضاة . وفي  
الأزمات الطبيعية كتنقص النيل أو انتشار الوباء . وما أكثر ما كان يحدث  
ذلك - كان الاجتماع فيه للاستسقاء وللضراعة إلى الله وعلى رأس . .  
المجتمعين القضاة والفقهاء والقراء كما كان الأزهر مكان الاحتفال بقراءة  
انتصارات السلطان في حروبه والدعاء له .

وقد تعددت الجوامع كثيرا في القاهرة سواء في العهد الفاطمي الذي  
كان خلفاؤه يتهمون من قبل العباسيين بالكفر، أم في العهد المملوكي الذي  
كان سلاطينه المهالك يدفعون عن أنفسهم باستمرار تهمة اللاشريعة بالمزيد  
من الارتباط بالإسلام وبإعمار المساجد وما يتصل بها من المؤسسات الدينية :  
وهكذا بني في القاهرة مسجد الحاكم الذي بناه هذا الخليفة الفاطمي الحاكم  
(وهو خراب اليوم) ، وجامع الجيوشي الذي بناه الوزير بدر الجمالي وأواخر  
القرن الخامس ، وجامع الصالح طلائع بن رزبك سنة ٥٥٥/١١٦٠  
والجامع الأحمر الذي تعود واجهته إلى سنة ٥١٩/١١٢٥ . وكان الفاطميون  
يبرهنون بها عن ارتباطهم بالدين الإسلامي الحنيف ضد الدعاية العباسية  
والسلجوقية المناهضة .

وجاء المهالك بعد ذلك ولديهم عقدة اللاشريعة فبنوا جامع السلطان  
بيبرس سنة ٦٦٥ - سنة ٦٦٧/١٢٦٧ - ١٢٦٩ وبني الناصر محمد بن  
قلاوون سنة ٧١٨/١٣١٨ جامع المشهور الذي مازال قائما خارج القاهرة في

قلعة الجبل بعد أن أصبحت مقرا للحكم المملوكي وذلك في موضع جامع قديم وضم إليه الكثير وعمره أحسن عمارة بالرخام الملون مع قبة جليلة ومقصورة من حديد لصلاة السلطان واختار له أفضل المؤذنين وأفضل القراء... (١).

وبني في القاهرة بعد ذلك أعداد من المساجد الجامعة منها: جامع سنقر سعدي سنة ١٣١٥/٧٢٥ وجامع الأمير المارداني على الطريق من باب زويلة إلى القلعة سنة ١٣٤٠/٧٣٩، والجامع الأزرق الذي بناه المملوك اقسنقر سنة ١٣٤٦/٧٤٥ وقد كسب اسمه من تغشيته بالقاشاني الأزرق كسب بها قسم من جدار القبلة سنة ١٦٥٢، وجامع السلطان المؤيد (٨١٨ - ٨٢٣/١٤١٥/١٤٢٠م) البالغ التزيين والذي يغشى البرونز بواباته. وأخيرا جامع محمد علي الذي استلهم وقلد الجوامع العثمانية في قلعة القاهرة.

إن هذا التعدد في جوامع القاهرة إنما نجم عن ازدياد سكانها بجانب الرغبة في رضى الله وفي الدفاع عن الذات.

لكن الشام لم تحظ بمثل هذا الخصب في الجوامع فقد اكتفت القدس ودمشق بما فيها من جامعين واسعين كل السعة. ولم تعد دمشق عاصمة مملكة أو امبراطورية فلم تزد فيها إلا ثلاثة جوامع بناها بعض نواب السلطان المملوكي هي جامع تنكز وجامع التوبة، وجامع يلبغا وليس فيها شيء من الزخرف إلا في البوابة الكبيرة لجامع تنكز. وقد بنيت هذه الجوامع خارج المدينة لأنه لا متسع في داخلها لبناء وهي تدل على التكاثر السكاني في الدرجة الأولى، في دمشق، حول نيابة السلطان كما تدل على التقى الديني. وبني بعدها في العهد العثماني جامع الشيخ محيي الدين بن العربي ثم جامع

(١) المقرئزي / خطط ج ٢ ص ٣٢٥.

السنانية وبعض الجوامع الأخرى .

وقد أخذت حلب نصيبها بدورها من الجوامع : فمسجدها الجامع الكبير وهو المدعو بجامع زكريا، بني سنة /٧١٥ على موقع كاتدرائية بيزنطية . واسمه ، كاسم النبي يحيى بدمشق ، يدل على أصل المكان كما أنه بني على مخطط مشابه للجامع الأموي بدمشق . وقد جدد كغيره ثم جدد . وبخاصة سنة ١١٥٩/٥٥٤ وسنة ١٢٥٨/٦٥٦ ومنارته الحالية من سنة ١٠٩٠/٤٨٣ .

وثمة في حلب جامع التوتة الذي بني في مكان جامع قديم في أواسط القرن السابع / ١٣ م . وجامع الأطروش وهو ذكرى بعيدة لتشيع المدينة القديم وقد بني على الأسلوب المملوكي بالمقرنصات وانتهى في مطلع القرن الثامن / ١٤ م .

أما الموصل فقد ازداد عدد جوامعها كما ازداد تزيين هذه الجوامع في ظل العهد الأتابكي ٥٢٢ - ١١٢٧/٦٣٠ - ١٢٣٣ ، وفي النصف الأول من القرن السابع بخاصة مع ازدهار المدينة في عهد بدر الدين لؤلؤ ومن جوامعها التي تعود إلى هذا العهد الجامع الكبير المتميز بمئذنته المائلة . والجامع الأحمر الذي بني على ضفة دجلة ومسجد النبي يونس على الضفة الشرقية . وثمة جامع من أكبر جوامع الموصل يسمى بجامع النبي جرجيس وقد وسعه تيمورلنك حين احتل المدينة سنة /١٣٩٣ .

وندع مدن العراق الأخرى : بغداد والكوفة والبصرة فقد كانت لها أمجادها السابقة ولم تبن فيها بعد جوامع عظيمة . ونصل إيران :

— في شيراز المسجد العتيق الذي بني في القرن السادس كان جامع قديم بناه الصفاريون في القرن الثالث .

— في الدامنان : مسجد قاري خانة وهو من أقدم مساجد إيران بني في القرن الثالث . ثم أعيد بناؤه في العهد السلجوقي ومنارته بدوره أقدم المنائر . ويسمى أيضا مسجد الأربعين عمودا بسبب صفوف أعمدته في الحرم والأعمدة خاصة الصحن وثمة فيها مسجدي جمعة وهو أيضا من العهد السلجوقي وتاريخ منارته سنة ٤٩٧ / ١٠٠٦ .

— في أصبهان : مسجدي جمعة يعود إلى العصر السلجوقي وهو أعظم أثر بقي في ذلك العصر . كان حتى القرن الرابع (١٠م) مسجدا على الشكل التقليدي في المشرق . ولكن ملكشاه (توفي سنة ٤٨٥ / ١٠٩٢) أعاد بناءه بأربعة أواوين ، وصحن واسع جدا . وقد أغدق على محرابه ومنبره وأواوينه الضخمة الكثير من التزيين . وفي أصبهان بني عباس الأول ما بين سنتي ٦١١ / ١٦٢٩م مسجدي شاه في موقع ميدان شاهي على نمط المسجد السابق ولكنه غشاه (جميعا) بالقاشاني من واجهات البوابات الضخمة إلى الأواوين إلى المآذن إلى القباب وإلى الجدران الداخلية . أما المحراب فمن المرمر . يريد أن يجعله جنته على الأرض .

— وفي كرمان عدة مساجد منها مسجدي ملك من سنة ٤٤٠ / ١٠٤٨ بناه السلاجقة . ومسجدي جمعه بناء المظفريون سنة ٧٤٨ / ١٣٤٩ وهو مسجد تقليدي بأربعة أواوين مغطاة بالسيراميك الأزرق . ومسجدي بامنار الذي بني سنة ٧٨٨ / ١٣٩٠ ويتميز بقبته المغطاة بالسيراميك .

— وفي مشهد بني جوهر شأد في القرن ٩هـ / ١٥م مسجدا ضخما مساحة صحنه ٨٤ × ٩٥ مترا ولكنه مسجد تقليدي بأربعة أواوين مغطاة بالسيراميك الأزرق مع القبة . وقد توالى على استكمال البناء أكثر من عشرة ملوك .

— وفي تبريز أقيم المسجد الأزرق سنة ١٤٦٥ على الأسلوب

التيموري في سمرقند أي ببوابة ضخمة جدا وقباب ضخمة بصلية الشكل وماذن على ركني البوابة . وقد غشي الجامع بالسيراميك الأزرق - ومن هنا كان اسمه - ويتميز بأنه شبيه بمساجد الشتاء فإن صحنه مغطى - كما في بعض مساجد الأناضول - بقبة يدخل النور من أعلاها . كما أن السيراميك التزييني فيه ليس أزرق كله ولكن فيه كل الألوان . وفيه للترزين أيضا كتابات بالنسخي والثلاث . وهو الآن بحالة سيئة .

- وفي قيرامين مسجدي جمعة ومقاييسه ٤٠ × ٦٠ مترا . وصحنه في وسطه بناه سنة ٧٧٢/١٣٢٢ الأمير المغولي أبو سعيد ، على مخطط تقليدي بأربعة أواوين وبوابة للمدخل . ونرى في أطلاله بقايا السيراميك بحالة جيدة .

- وفي يزد ثمة مسجدي جمعة الذي بني سنة ٧٧٢/١٣٧٥ ببوابة كبيرة وحرم تعلوه قبتان وسيراميك جميل النقش وكتابات من الآيات القرآنية على القاشاني .

- في بخارى تكثر المشاهد والأضرحة لكن المجموعة المعمارية كاليان ، تتميز بالمتذنة التي تأخذ شكل برج عال جدا مستدير بعلو ٥٠ مترا وعليها المقرنصات في الأعلى ونشهد مثلها في كابول وفي غزنه ودلهي . وهي من الأجر وقد بنيت خارج جامع كاليان (مثل متذنة سامراء) وهذه المتذنة هي الباقية من جامع قديم جدد زمن الشيبانيين ويعود إلى سنة/١٥١٤ وله المخطط التقليدي المشرقي للجوامع بأربعة أواوين وبوابات كبيرة تصل بينها رواقات تغطيها ٢٨٨ قبة صغيرة .

على أن أقدم مساجد بخارى هو مسجد ماهوكي - عطاري . وقد بني

بعد دخول العرب إلى المدينة مسجد صغير حل محل معبد وثني سابق<sup>(١)</sup> وقد جرده ووسعه الفضل بن يحيى البرمكي وأمر بزيادة القناديل لإضاءة المساجد في إمارته كلها في شهر رمضان وأنفق في ذلك المال الوفير وأصبح بذلك المثال للولاة والحكام الذين توالوا بعده<sup>(٢)</sup>. ثم أعيد بناء المسجد في القرن ٤هـ / ١٠م لأن فيه بقايا تزيينات وقواعد من ذلك العهد ولكن المسجد الحالي يعود إلى القرن السادس / الثاني عشر م. وقد أهمل هذا الجامع وهو صغير - فانهارت الأرض تحته ٤/٥ مترا.

- في سمرقند تهدم المسجد الكبير مسجد بيبي هانم الذي بناه تيمورلنك وانتهى سنة ١٤٠٤ وذلك بعد قليل من موته. وكان على شكل مستطيل واسع (١٦٧م × ١٠٩ أمتار). وطحنه يبلغ ٧٨ مترا × ٦٤ مترا وهو يتكون بدوره من أربعة أواوين عميقة وأقواس عالية جدا لأن تيمور أراد رفع جامعهم إلى الأعلى على غير التقاليد الإسلامية وكان البناء من الأجر والقباب الضخمة لا يمكن أن تحملها الأقواس ولهذا انهار. وبقاياها فيها السيراميك والزينات التي تكشف بهاءه.

- في هرة بني المسجد الكبير (مسجدي جمعة) من قبل غياث الدين سام سنة ٦٠٣/١٢٠٠ ولكن أعيد بناؤه في نهاية القرن الخامس عشر من قبل حسين بايقرا وغشي بالسيراميك.

وقد حظيت كل المدن الإسلامية في الهند بجوامعها المزينة والواسعة كما حظيت مدن الأناضول. وإذا عبر الهنود عن تقاهم بضخامة مبنى الجوامع

---

(١) الترشيحي: تاريخ بخارى ص ٧٤ ويذكر الترشيحي أن أهل بخارى كانوا في أول إسلامهم يقيمون صلاتهم بلغتهم القومية فكانوا يجعلون رجلا ممن يعرفها ويعرف العربية يصيح فيهم عند الركوع بكيتا نكيت وعند السجود نكوتبا نكوتي. وأن الأمير أغرى الناس بالإسلام باعطاء كل من يصلي درهما.

(٢) الترشيحي / المصدر السابق ص ٧٥.

وتزيينها بالمرمر والآيات فقد عبر الأتراك العثمانيون عن المعنى نفسه بتلك المساجد الضخمة التي أقاموها في استانبول وأماصية وبورسه وأدرنة وأرضروم وقونية اقسرأي وسيمواس وأزمير وغيرها، وقد تميزت هذه الجوامع التي كان من أبرز مهندسيها سنان باشا باتساع فراغ الحرم فيها وضخامة القواعد التي تقوم عليها القباب التي بنيت على شكل قطاع من كرة كما تميزت برشاقة المآذن ودقتها.

ومن الهام أن نلاحظ أن وظيفة المسجد كانت تشمل في ما تشمل الصلوات كما تشمل عمل القاضي والعالم والزاهد المنقطع والمدرس ومقرئ القرآن. كما كان يستخدم أحياناً للراحة والنوم وأحياناً للتعزية كما في المشرق، وأحياناً للكدية أو اللهو.

والمساجد، منذ أيام المأمون كانت تزدهن بالثناير (الثريات) وبالقناديل المعلقة بالسلاسل والتي أصبحت أحياناً من الفضة وأحياناً أخرى مذهبية. وقد عمل في المسجد العتيق (جامع عمرو) بالقسطنطينية تنور كبير من الفضة فيه مائة ألف درهم أنزل من قصر الخليفة الحاكم سنة ٤٠٣/١٠١٢<sup>(١)</sup> وقد نهب الصليبيون حين دخلوا القدس قبة الصخرة وقناديل الفضة المعلقة بها وكانت نيفاً وأربعين قنديلاً وزن كل قنديل ٣٦٠٠ درهم وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً. وغنموا منه ما لا يقع تحت إحصاء حتى رخصت الفضة في الأسواق<sup>(٢)</sup> ولم يكن أثاث الجامع فخماً وغاية جماله في البسط الممدودة ووسائل التنوير، وقد تحظى بعض جوامع الخلفاء الكبرى ببعض الزيادات

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٥ (ط. مصر ١٣٢٧).

(٢) انظر ابن الأثير - الكامل حوادث سنة ٤٩٢ وسبط ابن الجوزي: مرآة الزمان - مخطوط باريس حوادث سنة ٤٩٢.



في ذلك فقد ذكر في أوقاف الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر حين جرده أن يجري امداده بالحصر العبادانية والحصر المصفورة وبالعود الهندي والمسك والكافور للبخور في أيام الجمع وفي رمضان وبالشمع وبالمشاقة لسرج القناديل والفحم للبخور وبأربعة حبال وستة دلاء آدم وعشر قفاف ومائتي مكنسة وبأزيار فخار وأجهزة حملها وبالزيت للوقود وبتنورين من الفضة وسبعة وعشرين قنديلاً من الفضة أيضاً<sup>(١)</sup>.

وكان أهم ما في المساجد هو القرآن الكريم، كتاب الله، وكثرة عدد النسخ منه. وكثير منها كان يوقفه عامة الميسورين عليها. ولم يكن مسجد يخلو منه وإن كانت توجد في مكتبته بعض الكتب الدينية الأخرى. ولما ولي قضاء مصر الحارث بن مسكين سنة ٢٣٧/٨٥١ كشف أمر المصاحف التي في المسجد وولي عليها أميناً من قبله وكان أول من فعل ذلك من القضاة<sup>(٢)</sup> وقد حظيت المصاحف المنسوبة لعثمان باهتمام خاص وكانت في الأصل خمسة: مصحف عثمان في المدينة، ومصحف أسماء في جامع عمرو بن العاص بمصر وكان يقرأ من ثلاث مرات في الأسبوع، وكان الخليفة الفاطمي يقبله ويتبرك به، ومصحف جامع دمشق، ونحن نجده عند دخول الصليبيين في طبرية وقد نقله طفتكين أتاك دمشق إليها ثم كانت خزانة تفتح كل يوم بعد الصلاة لتبرك الناس بلمسه وتقبيله ويكثر الإزدحام عليه - كما يقول ابن جبير - وقد زادت هذه المصاحف المنسوبة لعثمان زيادة كبيرة في القرن الرابع. وقد جاء أحد العراقيين إلى مصر بنسخة منه وفيها أثر دق - كما يقول - وذكر أنها استخرجت من خزائن المقتدر فجعله القاضي في الجامع ضمن خشب منقوش وكان يقرأ فيه يوماً وفي مصحف أسماء يوماً حتى رفع

(١) المقرئزي - الخطط ج ٢ ص ٢٧٤ والسيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٩٥.

(٢) الكندي: الولاة والقضاة ص ٤٦٩.

بأمر العزيز بالله الفاطمي واقتصر على مصحف أسماء<sup>(١)</sup>. وفي الوقت نفسه سنة ٩٧٩/٣٦٩ جلس الخليفة ببغداد عند تتويج عضد الدولة وعلى كتفيه البردة وبيده القضيب وبين يديه مصحف ينسب لعثمان<sup>(٢)</sup>. وحكى الشريف الإدريسي أنه كان في مخزن جامع قرطبة مصحف يرفعه رجالان لثقله فيه أوراق في مصحف عثمان. وهو الذي خطه بيمينه وفيه نقط من دمه وكان يخرج صبيحة كل يوم جمعة ويتولى اخراجه رجالان من قومه المسجد يمشي أمامها رجل بشمعة وللمصحف غطاء بديع منقوش بأغرب ما يكون النقش وأدقه وأعجبه. وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه. ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه...<sup>(٣)</sup>

وكانت المساجد عامة تحت اشراف القضاة وإدارتهم لها ولأوقافها وكان من عادة قاضي القاهرة الفاطمي أن يطوف في الايام الثلاثة الأخيرة من رمضان ليتفقد حاجة المساجد من الأثاث والقناديل والترميم<sup>(٤)</sup> لكن الكثير من المساجد لم يكن له ما يكفيه من النفقة. وقد قدر عدد المساجد التي لادخل لها في مصر سنة ١٠١٢/٤٠٣ فكانت نحو من ٨٣٠ مسجداً أمر الحاكم بوقف عدد من الضياع عليها وقدر لكل مسجد منها ١٢ درهماً في الشهر. على أن معظم المساجد كانت تعيش على الهبات الفردية - بجانب الأوقاف - ويتطور ذلك المتطوعون كما جرى عند توسعة جامع اصبهان سنة ٨٤١/٢٦٦. وكان الأمر نفسه يجري عند تزويد الجامع بالماء وهو ضروري للظهور وللوضوء وللشرب فكان بعض الكبراء أو الموسرين يتبرع بإيصاله كما

(١) المقرئزي - المخطوط ج ٢ ص ٢٥٥.

(٢) متر - الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٣٤ (نقلاً عن ابن الجوزي).

(٣) المصدر نفسه ص ١٣٥ نقلاً عن الإدريسي.

(٤) المقرئزي: المخطوط ج ٢ ص ٢٩٥.

جرى في بغداد وميفارقين ونيسابور وسمرقند وقرطبة . وكثيراً ما نجد في المساجد مكاناً خاصاً للوضوء «مبضأة» وبعضها كان يقوم في منتصف صحن الجامع كما في دمشق وجامع ابن طولون وغيرها .

وقد دخلت على أعمال العبادة في الإسلام ، مع تطور الزمن ، مظاهر لم تعرفها القرون الأولى ومن ذلك التطريب في القراءة . والأذان بشكل جماعة . ويحكى ابن رسته أنه كان بجامع صنعاء ٢٢ مؤذناً يؤذنون معاً واحدهم إثر الآخر ثم يأخذون في الإقامة بصوت واحد<sup>(١)</sup> . وصارت قراءة القرآن تقرأ بالتلحين منذ القرن الثاني ولو أنكرها مالك والشافعي . وضع ذلك الحارث بن مسكين قاضي مصر سنة ٢٣٧ . وقد اتخذ الوعاظ من هؤلاء القراء ما يشبه (الكورس) لمجالسهم .

## ٢ - المجالس الدينية

ولا ينتهي الحديث عن دور الجامع في الحياة الدينية للمدينة دون الحديث عن المجالس الدينية التي كانت تعقد فيه وقد تنوعت منذ الأيام الأولى ففيها مجلس العلم والتعليم ومجالس الوعظ ومجالس القضاء ومجالس القراء ومجالس الصوفية وأركان لوعظ النساء .

١ - مجالس تعليم الدين : كلمة العلم لم تكن تعني منذ القرنين الأولين للهجرة سوى العلوم الشرعية . وقد اتخذت الجوامع والمساجد مقرات لها ولنشرها وبهذا الشكل وجدت مجالس التعليم للدين وسنأتي على وصفها في الحياة الثقافية للمدن لكن لا بد هنا من تناولها كظاهرة دينية فقد كان الناس صغاراً وكباراً يدرسون العلم في الجامع أو المسجد تبركاً فيهما

(١) ابن رسته - الإغلاق النفيسة ص ١١١ .

وكان تأديب الصبية يتم فيها لتعويدهم الإتصال المباشر بالصلاة والعبادات منذ الصغر ولاستغلال فراغ المساجد والجوامع في غير أوقات الصلاة .

وكان التعليم بكل درجاته يجري فيها ولكنه تعليم ديني في الدرجة الأولى ويخدم الدين . وحلقاته العليا في كتلتها الأساسية دراسة للعلم على علمائه المشهورين يقصدهم الطلاب من كل مكان . ومن ذلك دراسة علوم القرآن من التفسير وأسباب النزول وغيرها وعلوم الحديث وما يتصل بها ، ودراسة الفقه في أصوله وفروعه .

وفي الجامعات أسست المذاهب الإسلامية وتفرعت . وفيها جرى الجدل والنقاش في صفات الله وفي العدل والتشبيه وفي القضاء والقدر ، وفي القراءات والسنن . ومن أجل تدريسها وضعت منذ سنة ١٤٥ وتأسيس بغداد أسس التأليف للعلوم . وفيها ألف العلماء مذاهب الفقه وكشفوا زيف بعض الأحاديث أو وضعها وابتكروا علوم الجرح والتعديل وعلم الرجال ثم امتدوا فتناقشوا في خلق القرآن فترة قبل أن ينصرفوا عنها .

وابتكروا علم الكلام ليقضوا في وجه الباحثين عما تشابه منه ! ولما دخلت الفلسفة اليونانية وتركت آثارها في هذه العلوم زاد الجدل حدة وانفصل العلماء بين متعصب للعلوم النقلية (علوم الإسلام من قرآن وحديث ولغة) والعلوم العقلية (من منطق وفلسفة وميتافيزيك) واستحكم العداء فلم يهدأ عدة قرون ولكنه مزق الضمائر لدى أمثال أبي حامد الغزالي حتى عاد إلى السنة والتسليم . . .

كل ذلك كان يجري في المساجد والجوامع من معظم المدن الإسلامية في جدل حر منفتح حتى على الملحددين والزائفين وحماسة في النقاش ملأى بالتدين . وليس أكثر من النصوص والأخبار عن الحلقات التي كانت تعقد بمجالس العلماء والفقهاء والمحدثين والحفاظ والقصاص في المساجد ولإعداد

طلابها المتكاثرين : وقد اشتهرت في القرن الأول حلقة عبدالله بن عباس في المدينة ثم الحسن البصري في البصرة وحلقة الزهري فيما بين المدينة ودمشق . هذا الثالث من المدن مضافا إليه الكوفة كان مراكز نشأة العلم الإسلامي حمل عبء رواية العلوم المختلفة ثم حملت عبء كتابتها المدينة (مالك بن أنس) المتوفى سنة ١٧٦ في الموطن)، وبغداد (في المسند مع أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١) وشارك المدينتين في ضبط الحديث : بخارى فيما وراء النهر (مع البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ / ٨٦٨ في صحيحه) ونيسابور (مع مسلم بن الحجاج في صحيحه الآخر وقد توفى سنة ٢٦١ / ٨٧٣ ومدن أخرى ظهر منها أصحاب الكتب الأربعة الأخرى المعروفة بالسنن وهي ترمذ (التي نشأ فيها الترمذي / ت سنة ٢٧٩ / ٨٩٢) ونسا (التي نشأ فيها النسائي ت . سنة ٣٠٣ / ٩١٩) وسجستان (التي ظهر فيها أبو داود السجستاني / ت . سنة ٢٧٥ / ٨٨٨) وقزوين (التي أطلعت ابن ماجه ت سنة ٢٧٣ / ٨٨٦) . وأضحت هذه الكتب الستة مع الأيام كتباً ذات مكانة دينية أولى لدى السنة لا يتقدمها إلا القرآن الكريم .

كانت مجالس الفقه تحظى ، لعدة أسباب ، بالأفضلية الأولى في المساجد والجوامع . وبعد عبدالله بن العباس اشتهر في المدينة أبو عثمان ربيعة بن فروخ ، فقيه أهل المدينة ، وأستاذ مالك . وكانت حلقتة في المسجد النبوي تضم مع الإمام مالك ، الحسن بن علي ، وأشرف أهل المدينة . فلما توفي (سنة ١٣٦) قال مالك : أذهبت حلاوة الفقه . كما اشتهرت حلقة وأصل بن عطاء بأنها الام التي أوجدت المعتزلة . وكانت حلقات جعفر الصادق لا تقل شهرة عن أي المجالس الأخرى . ويجتمع إليها الشيعة . في حين كان السنة في تلك الفترة يجتمعون إلى أبي حنيفة النعمان في الكوفة ، ثم في بغداد . وقد بقيت المدينة لحرمتها الدينية مركز «العلم» بالمعنى الديني حتى أواسط القرن الثاني وفيها برز مالك بن أنس (ت سنة ١٧٦) ونشأ ودرس . .

الشافعي قبل أن يذهب إلى بغداد ثم مصر . وبقي ابن حنبل القاعدة الصلبة لعلمي الحديث والفقه في بغداد . وتعرض من أجل ذلك لعاصفة خلق القرآن وأوذى فيها .

وليس هؤلاء بالطبع هم كل العلماء الذين كانوا ينتحون باحدى اسطوانات الجامع ، ويلقون دروسهم في الطلاب الذين يتحلقون حولهم ، فمن هؤلاء الكثير الكثير ولهم المجالس التي لا تحصى كثرة . ولم تقتصر هذه المجالس المشهورة على بغداد التي انتقل إليها مركز العلم من المدينة وصارت قطب العالم الإسلامي في كل شيء ولكن توزعتها جميع المدن الإسلامية من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب . وإذا اشتهرت مجالس نيسابور وبغداد والفسطاط والقيروان وقرطبة فلم تكن المدن الأخرى أقل شأنًا وسمعة كالقدس واشبيلية ودمشق وحلب والموصل والري ومرو وهمدان وغيرها .

وفرسان هذه المجالس بدورهم لا يحصون ومنهم : أحمد بن ابراهيم الدورقي (ت . سنة ٢٤٦) والحسين الكرابسي (ت . سنة ٢٤٨) وحيد بن زنجوم (ت . سنة ٢٥١) وأبو محمد السمرقندي (ت . سنة ٢٥٥) وأبو عبدالله محمد بن كرام السجستاني شيخ الكرامة (ت . سنة ٢٥٥) ويحيى بن معاذ الرازي (ت . سنة ٢٥٨) وأبو بكر الأزم (ت . سنة ٢٦١) وأبو ابراهيم المزني (ت . سنة ٢٦٤) . وأبي حفص النيسابوري شيخ خراسان (ت . سنة ٢٦٥) وداوود بن علي الأصبهاني الفقيه الظاهري (ت . سنة ٢٧٠) والربيع بن سليمان المرادي صاحب الحلقة في مصر (ت . سنة ٢٧٠) وأبو حاتم الرازي حافظ المشرق (ت . سنة ٢٧٧) والإمام الخبر أبو اسحق الحربي (ت . سنة ٢٨٥) وكان أحد أركان الدين ، والحافظ أبو عبدالرحمن حنبل الذهلي (ت . سنة ٢٩٠) . والإمام محمد بن نصر المروزي الرئيس في الفقه والحديث والعبادة (ت . سنة ٢٩٤) والزاهد أبو عثمان الحبري شيخ نيسابور وواعظها (ت . سنة ٢٩٨) والقاضي أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج

شيخ الشافعية ببغداد (ت. سنة ٣٠٦) والإمام محمد بن جرير الطبري المؤرخ المفسر الفقيه (ت. سنة ٣١٠) وأبو منصور الماتريدي (ت. سنة ٣٣٣) وشيخ الإسلام أبو بكر النيسابوري (ت. سنة ٣١١) ويطول بنا التعداد جداً لو تتبعناهم أو لوتبعنا البارزين منهم. وكما تنوعت المجالس في علومها كما اختلفت في أعداد من يحضرها. وإن غلبت عليها علوم الحديث والفقه وقد ذكروا أن مجلس أبي حامد بن محمد الأسفراييني (ت. سنة ٤٠٦) إمام الشافعية ببغداد الذي «يلتقي في مجلسه بمسجد عبدالله بن المبارك ما بين الثلاثمائة والسبعمائة من الفقهاء»<sup>(١)</sup>.

ولو قرأنا المقدسي في أحسن التقاسيم لوجدنا الكثير جداً منها في معظم المدن التي وصفها ولوجدناه يعيد مثلاً رواية مجلس جدل حضره من هذه المجالس وما ورد فيه كمجلس أبي الميكالي في نيسابور<sup>(٢)</sup> أو يصف جامع عمرو في الفسطاط فيقول: ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامعهم... وبين العشائين جامعهم مختص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب... والحكمة. دخلتها مع جماعة من المقادسة فرجما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين ووروا وجوهكم إلى المجلس فننظر فإذا نحن بين مجلسين على هذا جميع المساجد وعددت فيه مائة وعشرة مجالس. فإذا صلوا العشاء أقام بعضهم إلى الثلث. وأكثر سوقهم إذا رجعوا من الجامع ولا ترى أجمل من مجالس القراء به...<sup>(٣)</sup>

ويدهي أن هذه المجالس العلمية الدينية لم تكن متشابهة، ولا كانت في علم واحد. فقد كانت ثمة آلاف منها بكل صقع. ولهذا تعددت عدداً

(١) آدم متر - الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٥١ - ٢٥٢.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٧٤.

(٣) المقدسي - أحسن التقاسيم ص ١٨٦ - ١٨٧.

ونوعا وكيفا . فكثيرا منها كان املاء على الطلاب خشية التشتت أو النسيان في علوم القرآن والحديث، ولكن بعضها كان مناظرة وجدلا كمجلس رضي الدين النيسابوري فقد كانت حلقة في مسجد البخاري وراء النهر تضم ٤٠٠ من نابهي الطلاب، وعليها اقبال عظيم لأنها تعطي الطالب فرصة الحوار والمناقشة بالرأي والجدل حوله . وقد عرف رضي الدين بأنه «استاذ البشر»<sup>(١)</sup> . ونجد مثل هذه الحلقات في جامع القيروان كما في فاس وفي قرطبة التي كان يقصدها مع المسلمين دارسو العلم من الغرب وأوروبا .

### ٣ - الإحتفال بصلاة الجمعة

لم يكن لصلاة الجمعة في الأصل إحتفال ديني خاص ولكنها أخذت إحتفالها من مواكب الخلفاء الذين كانوا يخرجون إليها كل أسبوع، وكانت في العهد الأموي هينة بسيطة وتعقدت في العهد العباسي بعض التعقيد لكن الفاطميين جعلوها كيدا بالعباسيين من المواكب الرسمية الأسبوعية . فكانوا يقيمونها بإحتفال عظيم في المسجد الجامع في وسط المدينة، في حي السوق الكبير . وأما صلاة الجمعة في رمضان فلها مراسيم خاصة لأنه شهر للصوم والعبادة فكان الخليفة يذهب إلى المسجد الأنور الكبير (الأزهر) في موكب ضخم وعليه المظلة وعباءة بيضاء ويفرش المحراب بثلاث طراحيات من حرير الدبقي الأبيض وعلى يمين المحراب وشماله ستران من الحرير المرقدش بالآيات الكريمة . ويبخر القاضي المنبر والقراء ويدخل الخليفة ثم القاضي ويصعد المنبر فيسلم على الحاضرين . ويصعد الوزير فيقبل يديه ورجليه<sup>(٢)</sup> وهكذا إلى آخر الرسوم .

(١) المقدسي / المصدر السابق ص ١٩٧ - ٢٠٥ .

(٢) المقرئزي / الخطط ج ٢ ص ٢٨١ .



وربما كان شبيها بذلك ما صار إليه الخلفاء العباسيون في مساجدهم الخاصة ببغداد. ولكن معظم الخطباء في جل الجوامع الإسلامية السنية كانوا يصعدون المنبر وعليهم ثياب سوداء من عمامة وبردة وطيلسان والسواد شعار العباسيين. ويتقلد السيف ويضرب بقائم السيف المنبر في أول ارتقائه وفي منتصف السلم وحين يصل إلى أعلاه يسلم على الحاضرين يمينا وشمالا . . . ويتم الخطبة والدعاء حسب تبعية البلد. وهذا على الأقل بعض ما وصفه ابن جبير أيام صلاح الدين في القاهرة<sup>(١)</sup>.

ويصف ابن بطوطة خطبة الجمعة في البيت الحرام بمكة بعد ذلك بمائة وخمسين سنة فيذكر أن الخطيب كان يأتي في السواد (من كسوة الملك الناصر محمد بن قلاوون) بين رايتين سوداوين. وبين يديه أحد القومة وفي يده الفرقة (شبه السوط) يضرب بها الفضاء تنبيها لحضور الخطيب الذي يقبل الحجر الأسود أولا ويدعو عنده ثم يقصد المنبر ورئيس المؤذنين بين يديه وعلى عاتقه السيف. وتركز الرايتان على جانبي المنبر وعند صعود الخطيب يقلده المؤذن السيف فيضرب بقائمة ضربة حين يدخل المنبر وثانية ثم ثالثة ثم إذا وصل أعلاه ضرب الرابعة . . .<sup>(٢)</sup> ويكون سيف الخطيب حقيقيا إن كان البلد فتح حربا أما أن فتح صلحا فمن الخشب.

وقد لاحظ ابن جبير أن صلاة الجمعة في المسجد النبوي تستغل لجمع المال. وقد عجب من أن الخطيب يطلب الكدية (المكافأة) من المصلين. وهي بدعة غريبة لم ير مثلها في بلاد الموحدين بالمغرب أو الأندلس. فكان الخطيب يطيل فيها بين الخطبتين على غير العادة ريشا ينتهي أعوانه الذين يتخطون الصفوف والرقاب يجمعون له الهبات وخاصة من الأعاجم فمنهم

(١) ابن جبير/ الرحلة ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) ابن بطوطة/ الرحلة ص ٩٩ - ١٠٠.

من يطرح الثوب النفيس ومنهم من يخرج الشقة الغالية من الحرير. ومنهم من يخلع عمامته لهم أو يتجرد من بردته أو يدفع بعض النقود عما يعني أن الأمر صار عادة ومعروفا للناس. أما النساء فمنهم من كانت تطرح خلخالها. ومن تخرج خاتمها فتلقيه لهم<sup>(١)</sup>.

#### ٤ - مجالس القصاص والمذكرين :

كانت تعقد مجالس القصاص في مساجد المدن والقرى على السواء وهي نوعان : عامة تشبه مجالس الوعظ للتذكير بالله وبالطريق القويم وتفسير العقيدة، وخاصة استنها معاوية بن أبي سفيان بعد صلاة الصبح يقف فيها القاص فيذكر الله ويصلي على النبي ثم يدعو للخليفة وأهل بيته وحاشيته وجنده<sup>(٢)</sup> وقد بقيت لهذه المجالس الصبغة الدينية حتى القرن الثاني وكان من رجالها قضاة وأدباء بليغون<sup>(٣)</sup>. وقد بدأت هذه المجالس تنحط في القرن الثالث حتى أصبح القصاص في القرن الرابع. يقص الأساطير والخرافة باسم الدين، ولهذا يتزايد ازدحام العامة عليه. وأصبحت مجالسه لاتعقد في المساجد فحسب ولكن في الطرقات والأسواق والمنابر<sup>(٤)</sup>. وابتدعوا الروايات الكاذبة ووصفوا لها الأشعار ومنهم من ينشد الشعر الغزلي وينوح به على الموت، ومنهم من يثير الخلافات المذهبية. وقد لعب بعض الوراقين دورهم في وضع القصص لهم ونشر أخبار الخوارج والمعجزات حتى تدخل الخليفة

(١) ابن بطوطة / الرحلة / ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٢) المقرئزي / خطط ج ٢ ص ٢٥٣.

(٣) الجاحظ / البيان والتبيين ج ص ٣٦٧.

(٤) البغدادي : تاريخ بغداد ج ٣ ص ١٢٣ وانظر ابن الجوزي المنتظم ج ٨ ص ١٠ والسبكي معيد النعم ص ١١٣ والشعالبي / يتيمة الدهرج ج ٣ ص ٣٦٦ / وابن الجوزي تليس ابليس ص ١٢٢.

سنة ٢٨٤ فممنعهم من الجلوس في المساجد والطرقا لرواية الخطايا واثاره النعرات الطائفية<sup>(١)</sup>. وتكرر ذلك زمن عضد الدولة سنة ٣٦٧. وفي سنة ٤٠٨ أيام الخليفة القادر الذي أمر بضربهم لعملمهم على تحريك الفتن الطائفية. كانوا قد أصبحوا أدوات للزيف والتحريرض<sup>(٢)</sup>. وقد وصفهم المسعودي بالكذابين، والمقدسي بأنهم يروون الأعاجيب والترهات والأباطيل. ولم يكن لهم بقاء بعد طردهم من المساجد ثم الأسواق فانتهدت صناعتهم وحل محلها مجالس الذكر التي يمثلها أهل التقى والصلاح الذين استمروا في المساجد حتى ما بعد القرن السادس.

#### ٥ - مجالس الوعظ والإرشاد والدعوة :

بجانب مجالس العلم ذات الأثر الايجابي في الإسلام والترغيب فيه هناك مجالس الوعظ والإرشاد. وهي تتناول الجانب الترهيبى السلبى والإرشاد للطريق القويم. والعمالان متلازمان ويتم أحدهما الآخر. وقد درج الناس إلى ما بعد القرن الثالث على تسمية الشيوخ الذين يعتمدون الوعظ عملا بكلمة قصاص ولعل السبب في ذلك اعتمادهم على قصص القرآن وعلى القصص التي كانوا يتصيدونها من هنا وهناك لجعل وعظهم ماديا ملموسا قريب المثل. وكان القصاص يعين تعيينا من قبل الخليفة أو الوالى في مصر ولا شك أنه كان كذلك يعين في الحروب لرفع القوى المعنوية للجنود.

وقد شاعت مجالس الوعظ خاصة في العصر العباسي في الحرمين الشريفين وفي بغداد والمدن الكبرى وبخاصة في الثلث الأخر منه. وكانت

(١) الطبري / ج ٨ ص ١٨٢.

(٢) الذهبي / العبرج ١ ص ٦٥ - ٦٦.

تلقي الأذان الصاغية أحيانا فتنتهي بتوبة التائبين الذين تجز نواصيهم علامة التوبة والرجوع إلى الله . وكثيرا ما ذكر أن نساء الخلفاء كن يستمعن إلى من يعجبن من الواعظين ففتح لهن طاقة على المسجد . أو يؤذن لهن بحضور الواعظ إلى قصر الخلافة ليسمعوا الخليفة والحرم<sup>(١)</sup> . وكثير من المتصوفة كانوا يبدؤون واعظين للناس إلى أن صار الوعظ حرفة من جهة وعملا دينيا من جهة أخرى .

خلال هذه المرحلة كانت مجالس الوعظ عامة وخاصة ثم توحدت ، لكنها كمجالس القصص انحطت منذ القرن الثالث إذ تعرض لها كما يقول ابن الجوزي الجهال من العوام والنساء فانصرفوا عن العلم إلى الكسب المادي والبدع التي جرت على ألسنتهم كالقصاصين<sup>(٢)</sup> . ولبس بعضهم الثياب الفاخرة . وخلع ثياب الزهد كالواعظ محمد بن أحمد الشيرازي وابن سمعون الواعظ<sup>(٣)</sup> ولم يعودوا يفترقون عن القصاص لا في أماكن جلوسهم في المساجد والأسواق والمقابر ولا في إثارة للطوائف بعضها ضد بعض كالسنة والشيعة أو المذاهب بعضها ضد بعض كالشوافع والحنابلة<sup>(٤)</sup> حتى أصبحت المساجد مراكز دعاية لهذا الفريق أو ذلك أي صارت سياسية بدل أن تكون دينية كما جرى في فتنة بغداد سنة ٤٠٨ بين السنة والشيعة<sup>(٥)</sup> وكان الذي فتح لهم الباب هو الخليفة الراضي سنة ٣٢٣ حين طلب منهم نشر قراراته ضد الحنابلة وكذلك فعل بنو بويه حين هياؤا الناس للاحتفال بيوم عاشوراء سنة

(١) ابن جبير/ الرحلة ص ١٩٥ - ٢٠٠ (ط. بيروت ١٩٦٤).

(٢) ابن الجوزي/ تلبس إبليس ص ١٢٠ - ١٢١ والغزالي.

(٣) ابن الجوزي إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٣١ / المنتظم ج ٨ ص ١٣٤ و ١٩٨.

(٤) أبو الفداء/ المختصر ج ٢ ص ٧٤.

(٥) الذهبي/ المعبر ج ٣ ص ٩٨.

٣٥٢<sup>(١)</sup> وبقدر انحراف الوعاظ عن طريقهم بقدر ما كان العامة يزدادون في مجالسهم ويتلذذون بها<sup>(٢)</sup>. ولم تنفع كثيرا نصائح الغزالي في الحرص منهم أو في منع النساء من حضور هذه المجالس. ولكن الدولة تنهت فكانت تطرد من ينحرف عن الوعظ<sup>(٣)</sup> أو تصدر المراسم تحدد مجال القول لهم كما حدث حين اشتدت الفتنة المذهبية سنة ٣٨١ في عهد الخليفة القادر وعرفت بالاعتقاد القادري ثم تلاها مرسوم آخر بالاعتقاد القائم سنة ٤٢٣.

وما كان يجري في بغداد كان يجري على شكل مصغر أو ضعيف في المدن الأخرى.

لكن ما أن جاء القرن السادس حتى كان للوعاظ رسومهم المحددة في المجلس مع انفجار الحروب الصليبية وجرى الرسم على أن تكون مجالس الوعظ جارية على مدار الأسبوع في بغداد في القرن السادس، أما في المدن الأخرى فلها مواعيدها المقررة عند بعض الإسطوانات. ولها أيضا أوقاتها في بعض الأحيان. ولعل السبب في أن العصر كان عصر وعظ وارشاد هو محاولة إثارة الضمائر ضد السيوف الصليبية، وضرورة مقاومتها والخلاص منها.

وقد جرى الرسم، في ذلك العهد على بدء مجلس الوعظ بالمنشدين يرتلون القرآن الكريم بشكل جوقة مع الألحان والتطريب وبعد أن يخطب الواعظ يتلقى الرقاع بالأسئلة وفيها هموم الناس اليومية. ويختتم الحفل بكثير من دموع الاستغفار وبكمية من النواصي التي يجزها الشيخ من بعض التائبين، علامة التوبة.

(١) ابن الأثير/ الكامل ج ٦ ص ٢٤٨ والشعالبي ثمار القلوب ص ١١٥.

(٢) ابن الجوزي/ تليس ابليس ص ١٢٠.

(٣) الغزالي/ إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٢١.

وقد جرى الرسم المعتاد مثلاً على أن يقيم ابن الجوزي صباح كل سبت في الجامع ازاء داره على دجلة وغير بعيد عن قصور الخلافة مجالسه الوعظية الفخمة. يبدأ منها قراءة القرآن أثر الصعود على المنبر. ويعدد ابن جبير الذي حضر بعض هذه الدروس أكثر من عشرين قارئاً كان على كل اثنين منهم أو ثلاثة قراءة آية يتلونها على نسق بتطريب وتشويق، فإذا فرغوا تلتهم طائفة أخرى على عددهم بأية ثانية ولا يزالون يتناوبون الآيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة لا يكاد المتقد الخاطر يحصيها عدداً أو يسميها نسقاً. ويقف ابن الجوزي بعد ذلك ليخطب خطبة تجمع كل تلك الآيات بشكل يذكر بقوله تعالى: ﴿أفسح هذا ام أنتم لا تبصرون﴾! وبعد الخطبة تنهال عليه المسائل في الرقاع فيجيب عليها بأسرع من طرفة عين. وتشغل هذه الإجابات معظم المجلس ويلحق بها من الوعظ ومن الآيات البينات ما يجعل القلوب تطير إليها اشتياقاً وتذوب النفوس احتراماً. . . إلى أن يعلو الضجيج وتردد بشهقاته النشيج ويعلن التائبون بالصياح ويتساقطوا تساقط الفراش على المصباح كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ويمسح (ابن الجوزي) على رأسه داعياً له. ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الأذرع إليه. ويعلق ابن جبير: «فشاهدنا هؤلاء بملاً النفوس انابة وندامة ويذكرها هول يوم القيامة. فلولم نركب شبح البحر ونعتسف مفايزات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابعة. . . والحمد لله أن من بقاء من تشهد الجهادات بفضلته ويضيق الوجود عن مثله<sup>(١)</sup>. وثمة وصف آخر كتبه ابن جبير لمجلس عقده محمد بن عبداللطيف الخجندى الاصبهاني (المتوفى سنة ٦٢٦/١٢٢٨) في المسجد النبوي وكمسان الخجندى رئيس الشافعية ورأس العلماء. فصعد الكرسي المعدلة بازاء الروضة المقدسة

(١) الغزالي / المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٢٩.

واصطف قراؤه الذين حضروا معه فابتدروا جوقة في قراءة القرآن بنغمات عجيبة وتلاحين مطربة شجية وهو يلحظ الروضة المقدسة فيعلن بالبكاء . وبدأ خطبته بالعربية فوعظ الحاضرين ثم استخدم اللسانين العربي والفارسي . وكان يلحظ الروضة الشريفة بين الفينة والفينة ويردد .

هاتيك روضة تفوح نسيما صلوا عليه وسلموا تسليما

وتنادى رئيس الشافعية في الوعظ إلى أن أطار نفوس الأعاجم خشية ورقة فتهافتوا عليه وهم يعلنون التوبة وقد طاشت الباهم وذهلت عقولهم . وكان اعلان التوبة يتمثل في جز النواصي اعلانا للخضوع والتذلل . فكان الشيخ يجزها بالمقص واحدة بعد أخرى ويخلع عمامة ليضعها على رأس . . . المجزوز تكريما ويسرع بعض الحاضرين ليضع عمامته على رأس الشيخ طلبا للبركة ويتوالى قص الشعر وتبادل العمامات مرات ومرات . . .

وقبل أن ينهى الخطيب جلسة وعظه قال لا بد للواعظ من كدية (مكافأة) وأنا اسألکم حاجة وأعلن الجميع شاهقين استعدادهم التلبية فقال: حاجتي أن تكشفوا رؤوسكم وتبسطوا أيديكم ضارعين أن يرضى هذا النبي الكريم عني وأن يسترضي الله عز وجل لي . . . وأخذ يعدد ذنوبه وخطاياها حتى أطار الناس عمامتهم وتضرعوا له إلى الله باكين . . . ويعلق ابن جبير قائلا: فما رأيت ليلة أكثر دموعا ولا أعظم خشوعا من تلك الليلة . . . (١) وقد حضرها إحدى الأميرات وهي الخاتون بنت الأمير سعود . ويروى ابن بطوطة مثل ذلك من مجلس وعظ الإمام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية هناك . وكان يجلس في المدرسة النظامية بعد صلاة العصر فيقرأ القراء على العادة ثم يعظ إلى أن يبادر التائبون إليه سقوطا على يده ووقوعا ويبدأ جز النواصي وتوزيع البركة على الراغبين .

(١) ابن جبیر/ الرحلة ص ١٧٧ - ١٧٩ .

وقد لفت نظر ابن بطوطة نساء شيراز فلإنهن يجتمعن كل اثنين وخميس وجمعه بالجامع الأعظم «فربما اجتمع منهن الألف والألفان بأيديهن المراوح يروحن بها من شدة الحر. وهو يضيف: إنه لم ير اجتماع النساء في مثل هذه الأعداد الكبيرة في أي بلد من البلاد التي زارها»<sup>(١)</sup>.

وكان بعض مجالس الوعظ يميز أمن المدن واستقرارها أحيانا فمجالس ابن تيمية الحنبلي المتشدد انتهت به مرتين إلى السجن وإذا نجا من الأولى فقد قضى ببئر السجن في المرة الثانية. كان معظمها عن أهل دمشق كل التعظيم ولكنه كان يندفع فيروى من الوعظ والفقهاء ما يغضب الفقهاء الآخرين. وقد انتهى أمره في المرة الأولى إلى المحاكمة والسجن في القاهرة والإسكندرية حتى تشفعت به والدته عند الملك الناصر فأطلق وعاد إلى دمشق. ووقع ابن تيمية مرة أخرى فيما منع عن قوله من التجسيم فعارضه فقيه مالكي يقال له ابن الزهراء وأنكر ما تكلم به وقام المصلون إلى المعترض فأوسعوه ضربا بالأيدي والنعال وزاد في سخطهم أنهم اكتشفوا حين سقطت عمامة شاشية حرير فانكروا عليه لباسها وحملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضي الخنازيرة فأمر بسجنه وعززه بعد ذلك.

وكانت ردة الفعل عنيفة لدى فقهاء المالكية والشافعية الذين أنكروا تعزير ابن الزهراء ورفعوا الأمر كله إلى ملك الأمراء بدمشق (سيف الدين تنكز) الذي عرف بالخير والصلاح فكتب بكل ذلك إلى السلطان الناصر محمد في القاهرة وصدر أمر السلطان بسجن ابن تيمية فبقي سجينا حتى مات... فقد كان العصر المملوكي عصر اتباع كامل. ويروون أن أحد الشيوخ تجرأ فانتقد في مجلس وعظ أحد الصحابة الذين خانوا الرسول الأعظم في معركة حنين فحاكموه وقضوا بسجنه في بيته شهرا وحرمانه من

(١) ابن بطوطة / الرحلة / ص ١٢٧.



## التدريس والوعظ .

ومن الهام أن نضيف هنا أن ما ذكرناه كان يجري في المناطق السنية .  
أما الشيعة فكانت لهم مجالسهم بدورهم . ولهم تنظيماتهم الأخرى المختلفة ،  
لا يخفونها في أي مدينة نزلوها لأن قوام حياتهم الدينية :

فهم لا يرون خلافة الأمويين أو العباسيين بل ولا الراشدين (عدا  
علي) شرعية ولا يقبلون من الحديث إلا ما جاء عن الأئمة المعروفين لديهم  
وهم يؤمنون بأن هؤلاء الأئمة هم اثنا عشر، فرط منهم الأولون وغاب  
الأخير المهدي فهم ينتظرون ظهوره إلى اليوم . وهؤلاء هم الإمامية ولم يكن  
لهم كبير خطر لأن علماءهم الكبار كالكليني والطوسي كانوا فقهاء أكثر منهم  
دعاة ووعاظا ولكن الفرع الإسماعيلي هو الذي حاول تقليد الدعوة العباسية  
ليصل إلى الحكم فكانت دعوته تقوم على البرزخ ما بين السياسة والدين  
(وهي الإسماعيلية الأولى) وكانت أول أمرها دعوة سرية استمرت حوالي مائة  
وأربعين سنة (١٤٣ - ٢٨٠) هـ وفي حلقاتهم الدينية الدعائية كانوا يبشرون  
بالإمام المنقذ وبحق أبناء بنت الرسول في الحكم دون العباسيين الغاصبين .  
ولكن لمثل هذه الدعوات السرية مخاطرهما إذ ربط بها الدعوة قضية العدل  
الاجتماعي أواخر القرن الثالث فأمنت الكثير من الجموع في السواد، سواد  
العراق خاصة، وفي البحرين بقرب الفرج ووصلوا درجة القبول بالهجرة إلى  
بلد جيد بينونه لأنفسهم وقد فعلوا . وكانت المرأة تحمل كل يوم ثمن غزلها  
والرجل كل كسبه إلى راعي المدينة . ويكتفي كل امرئ من ذلك بمقدار  
حاجته . وعلى هذا الأساس انتشرت الدعوة في البحرين ووجدت الدولة  
القرمطية في هجر . ولكن هذا الانحراف لم يعجب الإمام القابع في سلمية  
فحاول الحرب منه ما استطاع وحين حكم القرامطة دمشق وحمص وسلمية في  
الشام لم يجدوه لأنه هرب إلى الرملة ومنها إلى مصر ثم منها إلى أفريقيا  
والمغرب حين كان داعي دعائه أبو عبدالله الشيعي قد مهد له الأمر . . وهناك

في القيروان قامت الدولة الفاطمية .

الذين وضعوا الفلسفة الفاطمية ونظموا دعوتها ومجالس الوعظ والإرشاد فيها بالغوا في تقديس الأئمة . واعتبروهم خلفاء العالم كله . وكلاء الله على الأرض كل الأرض ابيضها وأسودها لكنهم لم يكونوا يريدون حمل جميع الناس على مذهبهم الديني واكتفوا بايجاد الكتلة الدينية السياسية التي تحيط بهم والتي نفت عن الإسلام أولاً مازعموا أنه من إضافة عمر أو غيره . مثال ذلك صلاة التراويح باعتبارها مما وضعه عمر بن الخطاب . وحين أعلن ذلك القاضي محمد بن عمر المروزي أنه احق خليف في جامع القيروان فقال : لقد لطفت بنا أصلحك الله في هذا فلما احتلت لنا في ترك صيام رمضان لكفيتنا مؤونته كلها ! فقال المروزي : اذهب عني ياملعون وأمر بدفعه . . . (١)

على أن حاشية النفاق زادت في قدسية الإمام وسمع منها الأئمة ما تقوله من رأي وأقوال باعتبارها سياسة وليس ديناً . في حين أنه يمس صلب الدين . وكان هذا ما يثير الشك لدى الناس في صدق عقيدتهم فقد قبلوا أن يسمعوا من الشاعر محمد البديل قوله للإمام الخليفة :

حل برقادة المسيح	حل بها آدم ونوح
حل بها احمد المصطفى	حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالي	وكل شيء سواه ربح !

كما قبلوا من محمد بن هانيء شاعرهم الأندلسي أن يقول :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار	فاحكم فأنت الواحد القهار
---------------------------	--------------------------

(١) ابن عذاري / البيان المغرب / ج ١ ص ١٥١ - ١٥٢ .

كما قبلوا ايضا التسامح مع أهل الذمة كل التسامح واصطناعهم في الوزارة وفي الوظائف الخطيرة والكبرى .

وهذا الكلام ، في اطار تفسيراتهم وعقائدهم مقبول . ولكنه لدى السنة هو الكفر الصراح الذي جعل الناس في افريقية والمغرب ينكمشون عنهم . فيما وصلوا مصر كان قد انتشر في العالم الإسلامي خبر أخذ القرامطة للحجر الأسود من الكعبة عشرين سنة . ولم تستطع استار الكعبة التي دأب . . . الفاطميون على إرسالها سنويا إلى مكة التغطية على هذا التعدي الصارخ على حرمة البيت والحجر . لكن الناس كانوا يتطلعون إلى ذهب المعز بقدر ما يتطلعون إلى الذهب الذي أتى به لاسيا أنهم قبل وصوله بعشر سنوات كانوا قد وصلوا حالة من المجاعة شديدة وقاسية . وقد بدأ بعضهم تحت تأثير الدعوة الفاطمية بالاحتفال بعيد الغدير يقوم به جماعة من المغاربة مع جماعة من أهل مصر . فلما فتح الفاطميون دعوتهم في مصر تهافت عليها الناس التهافت الواسع تملقاً للسلطة وانجذابا لجدتها وغناها . ويذكرون أن القاضي محمد بن النعمان حين جلس في القصر لقراءة علوم آل البيت تزاحم الناس فمات في الزحمة أحد عشر رجلا كفتهم العزيز بالله . . . لكن الرأي العام الديني ارتجف كله في أنحاء الامبراطورية الفاطمية حين أعلن الحاكم بامر الله (أو قبل أن يعلن دعواته الكبار باسمه) أنه الحاكم بامر الله وأنه تجسيد الله على الأرض . فكان في ذلك ضياع الخليفة اخراج الفئة التي آمنت بذلك وهي الدرزية التي انحازت إلى جبال جنوب لبنان وقبعت هناك .

ولعله منذ هذا الوقت اضطرب الجهاز الدعائي الفاطمي واهتزت مصداقيته لدى الناس بعد أن كان جيد التنظيم في عهد الفاطميين الأوائل . فقد قسموا العالم إلى اثنتي عشرة جزيرة أو اقليما ورتبوا الدعوة على سبع درجات أو على اثنتي عشرة درجة . وأبقوا على السرية فيها وإن كان البارزون

الأولون إنما ظهروا بحكم اتصاﻟهم المباشر بالدولة . وحين جاؤوا مصر جاؤوا بجهازهم الدعائي كله وجعلوا بؤرته ومقره في الأزهر فكانت مجالسه مجالس لهذه الدعوة طوال الحكم الفاطمي .

ولم يعدوا في مصر المناوئين والمعارضين من أهل البلاد فكانت قوتهم ترتكز على المغاربة الذين أتوا معهم وعلى السودان الذين جلبوهم من الجنوب المصري وعلى مجموعات من المتطوعة والأرمن اصطنعوها وعلى البدو الجاهلين . . هذا على الأقل في الفترات الأولى من الحكم الفاطمي بمصر . أما السكان الأصليون فقد بقيت الجماعة التي قبلتهم طبقة رقيقة على وجه المجتمع . وبقي السواد الأعظم على الشك في عقيدتهم مما سهل على صلاح الدين فيما بعد ازالته بعد ازالته دون كبير عناء ، لولا مقاومة بعض البؤر الفاطمية التي زرعوها وبقيت هنا وهناك . وقد أخذ عليهم الناس الكثير من الأمور ومنها ادعاء معرفة الغيب . فقد القى أحدهم للمعز رقعة على المنبر فإذا فيها :

بالظلم والجور قد رضينا      وليس بالكفر والحقاقة  
إن كنت أوتيت علم غيب      فاذكر لنا صاحب البطاقة

وتأمل الناس من اصطناع أهل الذمة ومداراتهم فكتب أحدهم في اليهود أيام يعقوب بن كلس :

يهود هذا الزمان قد وصلوا      غاية أمالهم وقد ملكوا  
الملك فيهم والمال عندهم      ومنهم المستشار والملك  
يا أهل مصر قد نصحت لكم      تهودوا قد تهود الفلك!

وقال آخر في النصارى :

تنصر فالتنصر دين حق      عليه زماننا هذا يدل

وقل بثلاثة عزوا وجلوا      وعطل ما سواهم فهو عطل  
فيعقوب الوزير اب وهذا ال      عزيز ابن وروح القدس فضل!

وأصر الفاطميون على سياسة التسامح مع الذمة لأنها من صلب أفكارهم . فلما استورز العزيز عيسى بن نسطورس واستتاب بالشام يهوديا اسمه منشأ كتب أهل مصر رقعة جعلوها في يد صورة عملوها من الورق واقعدوا الصورة في يد العزيز والرقعة في يدها وفيها: بالذي يعز اليهود بمنشأ والنصارى بعيسى بن نسطورس واذل المسلمين بك ألا كشفت ظلامتي . «! ويذكرون أن العزيز تنبه لموقف الناس من هذا التسامح فقبض على الرجلين وصادرهما . على أن الفاطميين لم يرجعوا عن هذه السياسة فقد اصطنعوا الوزير اليهودي التستري ثم قتلوه / سنة ٤٤٠ / ١٠٤٨ م واصطنعوا الوزير الأرمني الأفضل الجمالي وابنه بدرًا سنين طويلة حتى قتل بدر .

واستمرت مجالس الدعوة الفاطمية حتى نهاية العهد الفاطمي فلما انقضت الدولة كانت فروعها في اليمن وشرقي أفريقيا وفي الهند هي التي قامت بها لا بشكل دعوة سياسية ولكن بشكل دعوة دينية ماتزال تفرعاتها قائمة إلى اليوم .

## ٦ - مجالس القضاء والاحتساب :

وهي من متمات الإطار الديني للحاكم فقد كان القضاء والاحتساب يعتبران خطة دينية منذ عهد الرسالة . لا يقوم بها إلا من عرف الشرع وكان له من العقل والفهم والعدل ما يؤهله لها لهذا كانت مجالس القضاة في القرون الثلاثة الأولى ! إنما تكون في الجوامع . قرب أحد أبوابها ليكون أسهل اتصالا بالناس وانتقل بعض القضاة إلى بيوتهم فجعلوها مجالس لهم وبعض كان يقوم بدار الإمارة . لاسيما حين صار للقضاة خطة متكاملة أي وظيفة

واسعة الأعمال منذ القرن الرابع فكانت تحتاج إلى مجلس واسع وإلى شهود عدول يعينهم القاضي، وإلى من يسجل ومن يحفظ. أما المحتسب فكان مكانه في موضع من الأسواق ليكون على اتصال مباشر بها. على أن هذين المنصبين اللذين كان يختص الخليفة نفسه أو قاض قضاة بغداد بتعيين رجالهما في مختلف المدن والذي كان يرفضها بعض الفقهاء، تورعا وخشية (كأبي حنيفة أيام المنصور) مالبا منذ القرن الخامس أن اضحيا مطمعا وموضع تنافس ورشوة للحصول على أحدهما.

وكان القضاة العباسيون يحكمون في الأمور بمقتضى المذهب السني الحنفي (كأبي يوسف والشيباني) رغم شيوع المذاهب الأخرى، في حين كان القضاء في المغرب والأندلس على المذهب السني والمالكي عامة فلما قامت الدولة الفاطمية - ولها فقهها الخاص - كانت الأحكام الرسمية تقضي حسب المذهب الشيعي الفاطمي. وقد مر بنا في حديث المقدسي، بعض من حديث القضاء والقضاة خلال الحديث عن المذاهب.

وتعدد القضاة ومجالسهم في بعض المدن مع اختلاف مذاهب السكان فوجدت مجالس القضاة الخوارج حيث وجدوا رغم وجود القضاة الآخرين من الشافعية أو الحنفية أو المالكية وقد يعين في المدينة الواحدة حسب مذاهبها حسب اتساعها أكثر من قاض.

أما الذين قبلوا كل مذاهب السنة وعينوا في كل مدينة كبير قضاة أربعة ومحتسبا فهم المهاليك الذين استوت عندهم المذاهب وأرادوا إرضاء الجميع. وأحيوا منصب قاضي القضاة العباسي القديم فجعلوه منصبا خاصا يمنحونه لأي شيخ يرتضونه من شيوخ المذاهب.

وقد كان بعض سلاطين المهاليك يحترمون القضاة ومجالسهم «لأن بهم

عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون»<sup>(١)</sup> وكانوا بالنسبة إليهم قوة معنوية عظيمة أمام الشعب. فالشيخ فتح الدين محمد بن سيد الناس يدخل على السلطان لاشين فلا يدعه السلطان يقبل الأرض حسب العادة ويقول له: أهل العلم منزهون عن هذا، ويجلسه بجواره. وإنما كان احترامه لما يحمل من شعار الدين<sup>(٢)</sup>. وكان السلطان برقوق إذا دخل عليه عالم أو فقير من الدراويش قام له قائماً<sup>(٣)</sup>. وكان السلطان خشعاً على سرير الموت فلم يمنعه ذلك من القيام للعلماء عند الدخول عليه<sup>(٤)</sup> والإشراف قايتباي مرغ وجهه على قدمي شيخ عبدالقادر الدشطوطي<sup>(٥)</sup>. بل كان السلطان ينزل مرة أو مرتين من القلعة في الأسبوع لزيارة بعض القضاة أو العلماء في مجالسهم أو لعيادتهم وربما حاول بعض السلاطين حمل نعوش بعضهم<sup>(٦)</sup>.

هذا إلى أنهم اصفوا على القضاة ألقاب التكريم ومنها: أعز الله تعالى أحكام المجلس العالي القاضوي<sup>(٧)</sup> الأميري «وسمحو لهم بركوب الخيل كالمهاليك ولو أن هؤلاء كانوا ينفسون عليهم ذلك أحياناً. وانتقلت عدوى الاحترام إلى الناس مما جعل الكثير من الشيوخ والقضاة يعتدون بأنفسهم.

على أن هذا المنصب العظيم رغم حرمة الدينية ورغم احتفاظه بمكانته في المغرب ما لبث أن انحط مع انحطاط أمور كثيرة في دولة المهاليك فكان شراؤه والرشوة فيه والاحتيال للوصول إليه من الأمور الشائعة...

(١) المقرئزي / السلوك ج ٣ ص ٣٨٣.

(٢) ابن تغري بردي / النجوم ج ٨ ص ١٠٨.

(٣) المقرئزي / السلوك ج ٣ ص ٥٢٣ وابن تغري بدري النجوم ج ٥ ص ٤٢٢ و ٥٥٩.

(٤) ابن تغري بردي / حوادث الدهور ج ٣ ص ٥٥٥.

(٥) الشعرائي / الطبقات ج ٢ ص ١٩٠.

(٦) ابن تغري بردي ج ٥ ص ٣٧٨ والمقرئزي / السلوك ج ٣ ص ٤٤٤.

(٧) القلقشندي صبح الأعشى ج ٣ ص ١٨٣.

حتى لقد استنكرها الناس . وذلك لما يحمل المنصب من الجاه وما يدور من المال . وكانت له دائرة خاصة انفصلت تمام الانفصال عن الجامع .

ولم ينج الإحتساب من هذا الانحطاط فصار وظيفة ارتزاق وتسلط على الناس لاختطة دينية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . ظهر ذلك كله بخاصة منذ النصف الثاني من القرن الثامن الهجري . فتكالب الشيوخ على المناصب وعلى أوقافها أنزل مكانتهم وأبرز حقد المماليك عليهم كما أن اشتطاطهم في الترف كان يكذب مقامهم الديني . وهكذا نرى المنادي ينادي في القاهرة سنة ٧٨١ وسنة ٧٩١ بالألا يركب معمم فرسا<sup>(١)</sup> . وقد خرق الأمر بعد ذلك كما حدث سنة ٨٥٤ وسنة ٨٥٨ فاعتدى المماليك على القضاة والشيوخ المخالفين وسلبوهم مراكبهم<sup>(٢)</sup> . وان عادوا مرة أخرى إلى ركب الخيول<sup>(٣)</sup> وأما الرفاه فكثير فيهم فكان القاضي عبدالله بن عبدالرحمن (ت سنة ٧٦٩) كثير التأنق في مأكله وملبسه ومشربه<sup>(٤)</sup> وجمال الدين بن عبدالله (ت سنة ٧٤٣) شغف باقتناء الخيول والمسابقة عليها وفي اسطبلات النعام والغزلان وله دار كلفته الأموال الطائلة ، وزينها بالرخام<sup>(٥)</sup> . كما ملأ بعض القضاة دورهم بالجواري والخدم وما يعجز الملوك مضاهاته . ومماليك العالم الزيني وقفوا مرة للسلطان فزادوا على ثمانين غير الصغار وذلك شيء لم نعهده<sup>(٦)</sup> لتعمم . هذا عدا ما كان في بيوتهم من الرياش والأثاث والكتب

(١) ابن تغري بردي : حوادث الدهور ج ٣ ص ٥٣٤ .

(٢) ابن حجر : رفع الأصر ص ١٢٥ / وابن تغري بردي : حوادث الدهور ج ١ ص ٧٦ . وج ٢ ص ٢٠٥ .

(٣) ابن حجر : أبناء الغمر ج ٢ ص ٢٧٧ ب .

(٤) ابن حجر : رفع الأصر ص ١٢٥ ب .

(٥) ابن قاضي شهبه : الاعلام ج ١ ص ٣٦ المقريزي خطط ج ٣ ص ١٢٣ .

(٦) ابن تغري بردي / حوادث الدهور ج ٢ ص ١٦٧ .



النفيسة والأواني الثمينة التي يصعب تقريرها<sup>(١)</sup> ومصدر هذه الثروات هي الأوقاف على المؤسسات العلمية كالمدارس والمساجد والخانقاوات والمرتببات السخية من الدولة والتجارة مع التجار مما جعلهم يتوارثون المناصب ارثا.

وهكذا لم تعد خطة القضاء عملا دينيا ولا الاحتساب وإنما تحولتا في العهد المملوكي إلى وظيفتين دنيويتين من وظائف الدولة ولو أن نوع عملها ديني، شرعي.

### المذاهب والطوائف في المدن :

كان طبيعيا حين تكاثر المسلمون مع تعدد ثقافتهم أن يظهر أثر ذلك في فهم القرآن الكريم ومعالجة الأفكار فيه . ولم يكن للإسلام وهو الدين الشامل أن يفهم في كل مكان ومن جميع الناس على وجه واحد . ولهذا تباينت ومنذ القرن الأول للهجرة أفكار الناس وآراؤهم وبخاصة منها السياسية التي ما كان بإمكانها أن تظهر إلا بملابس دينية تتلاءم مع طبيعة العصر والدولة ! ومنذ أواخر القرن الأول كان الناس يتجادلون في صفات الله وفي التوحيد والعدل والقدر . وكان المركزان المدنيان الأساسيان اللذان هما قطب الحركة :

دمشق التي ظهر فيها أمثال غيلان الدمشقي ومعبد الجهني ، والبصرة التي ظهر فيها الحسن البصري والجعد بن درهم وواصل بن عطاء أول المعتزلة لكن بعض الأمصار الإسلامية البارزة عرفت في تلك الفترة بهواها الديني - ذي المنبع السياسي . «فأما الكوفة وسوادها - على قول الوصية العباسية المشهورة فشيعة علي ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول كن

(١) ابن قاضي شعبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ١ ص ٤٦ .

عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل . وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان فهناك العدد الكثير . . . وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء .

وهذا التقسيم السياسي الديني للمدن لم يكن في الواقع كاملا فقد كان ثمة جماعات سياسية - دينية اخرى أهمها :

- الخوارج الذين انتشروا في مدن الجزيرة وسجستان وفي عُمان وفي جبل نفوسه ومدن شمالي إفريقيا وتفرقوا إلى فرق شتى منها الإباضية والصفرية في عُمان وإفريقيا ومنها الازارقة في الجزيرة والبيهسية . ؟

- الشيعة : وكانوا في البصرة والكوفة والمدينة ومكة . ولكنهم تحت ضغط الحكم الأموي تفرقوا إلى فرق شتى : عديدة فمنهم غلاة متطرفون كان منهم أصحاب الجعد بن درهم وبيان بن سمعان والمغيرة بن سعيد العجلي ومنهم الكيسانية والسبئية والخناقون والرافضة والجناحبة والبشرية والخطابية والعميرية والبزيفية والمفضلية والمعمرية . . .

ورغم تبرز آل البيت من هؤلاء الغلاة إلا أنهم في الواقع استخدموهم . وشكلت هذه الفرق حالات من التقديس حول آل البيت . وكانت في أواخر القرن الأول جماعتان من آل البيت تعملان سياسيا رغم الضربات التي وجهت لهما : الجماعة الزيدية المعتدلة التي قتل زعيمها زيد بن علي زين العابدين بن الحسين سنة ١١٢٢ قرب الكوفة . وكان زيد مثل جده يحاول عبثا الوصول إلى الكوفة لاتخاذها قاعدة ثوره فلم يصلها كما لم يصل جده من قبل . وجماعة أبي هاشم محمد بن الحنفية الذي يقال أنه عهد بالأمر لمحمد بن علي بن عبدالله بن العباس . هذه الجماعة الأخيرة جماعة ابن العباس هي التي قادت ، بعد تعثر ، الثورة العباسية في خراسان ضد الأمويين ونجحت فيها . وكانت نقطة ارتكاز الجماعتين وجمهورهما من الأقرباء في

المدينة . لكن ضرورات العمل السري كانت تجبرهما على العمل في مكة والكوفة والحريمة وعلى العمل في الأطراف البعيدة بين عرب خراسان .

وتنقص الصورة كثيرا إذا لم نذكر جماعتين آخريين : المرجئة الذي أعلنوا الكف عن الحكم على علي ومعاوية وغيرهما إلى أن يحكم الله بينهم .

— الأكثرية الصامتة وهي الأكثر عددا وانتشارا والتي كانت قاعدة الخلافة الأموية وتسمى بأهل السنة والجماعة وكانت موزعة بين مدن الشام بخاصة واليمن والقيروان ومدن الأندلس . وكثير من مدن إيران وفارس .

بعض هذه الفرق لم تكن بذات شأن ولكنها مذاهب سياسية لبست البرقع الديني وكلها إنما بدأت في الظهور بعد معركة صفين ثم في عهد يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان وأولاده من بعده . وقد حمد الكثير من هذه الحركات ، وماتت حتى أسماؤها منذ مطلع العصر العباسي . وتغيرت الصورة بكاملها تقريبا خلال القرن الثاني للهجرة : إذ ضربت بالتدرج القوى الأخرى جميعا فخدمت في أواخر القرن ، إلا الشيعة فقد ناصبوا أبناء عمهم العباسيين العداء ، بعد أن رأوهم يرتقون الخلافة على اكتاف التشيع . وتغيرت مشارب المدن الإسلامية وأهواؤها السياسية الدينية تغيرا أساسيا .

ترك العباسيون التشيع فور الوصول إلى الحكم فصاروا في معظم الأمصار وفي عرضها هم أهل السنة والجماعة وهم بالتالي الأكثرية الصامتة وصارت ركيزتهم الأولى في مدن خراسان : في نيسابور ومرو وهراة وبوشنج ونسا وأبيورد والطالقان وطوس وسرخس ، أي في شمال شرقي إيران وأرغمت مدن بلخ وجرجان والري ونهاوند ، رغم مقاومتها على السير مع الثورة العباسية . ثم صار مركز الثورة في الكوفة في العراق وصارت خراسان هي القاعدة الرديفة . وبعد بناء بغداد في العراق ابتلعت هذه المدينة كل القوى العباسية وجمعتها فيها .

أما الشيعة فقد غلب على سلالة الحسين الموقف الهاديء في حين غلب الموقف المقاتل على سلالة الحسن رغم هزيمة محمد النفس الزكية أمام المنصور في المدينة سنة ١٤٥ ومع أن زعيم الحسينيين إذا ذاك الإمام جعفر الصادق (شقيق زيد) قد انصرف إلى الأمور الدينية إلا أن أبناءه لم يفعلوا وقاد أحدهما (اسماعيل) دعوة سرية استمرت ١٥٠ سنة واثمرت في النهاية بظهور الدولة الفاطمية في إفريقية . وهكذا صارت مدن خراسان والجبال وفارس والعراق والشام ومصر واليمن سنية عباسية في حين صارت مدن الأندلس سنية أموية، بعد انتصار عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) فيها وصارت إفريقية والمغرب خارجية (أباضية وصفرية) على أن هذا الظاهر العام لا يجب أن يخفي عنا الدقائق المتنوعة والكثيرة التنوع فيه :

فقد كانت حتى في شيراز وفي بغداد نفسها جماعات أموية متعصبة . وقد حاول الخليفة المعتضد سنة ٢٨٤ أن يذيع منشورا على الناس فيه التهجم على الأمويين ولعنهم . وكتب المنشور بالفعل في خمس عشرة صفحة . لكنهم نصحوه ألا يفعل وإلا ينشره خوفا من العامة<sup>(١)</sup> . وكان مركز الجماعة الأموية في دمشق وفلسطين . وشهد المسعودي كتبا في تمجيدهم في طبرية<sup>(٢)</sup> . وقد ظهر في هذه المنطقة أكثر من سفياني يدعي أنه السفياني المنتظر وأن الخيول من الغرب سوف تأتي لدعمه (كما جاء الدعم العباسي من المشرق وتفاءل العباسيون به) .

— وكانت في الكوفة خاصة وفي بغداد وسامراء جماعات شيعية ظاهرة ومستترة تعمل . وفيما بين القرنين الأول والثاني بدأت تظهر، ضمن الإطارين السني والشيوعي على السواء، مذاهب وأفكار وآراء دينية متفرقة

(١) الطبري ج ١٠ ص ٥٤ - ٦٣ (وفيه نص المنشور كله) (٣/٢١٦٤ إلى ٢١٧٨) .

(٢) المسعودي / التنبيه والإشراف ص ٢٨٩ - ٢٩٢ .

وإن كانت تعتمد كلها على القرآن الكريم والسنة . ولم يكن لها دخل في الجرو السياسي ولكن في فقه الدين . إذ كان لا خلاف على قبول القرآن وكان الخلاف قليلا في تفسير بعض آياته فقد اختلفت المذاهب خاصة في السنة .

فهنالك أولا : مذهب أبي حنيفة (المتوفى سنة ١٥٠ وجعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨) في الفقه . والإثنان يعتمدان الرأي . كان الأول يعيش في الكوفة والثاني في المدينة المنورة وقد قضيا معظم حياتهما في ظل الحكم الأموي . وصار لكل منهما تلاميذ وانصار لمذهبه .

واعتمد الخلفاء العباسيون ابن حنيفة في بغداد وصار قضاؤهم به لأنه يتوسع في الرأي ويلائم ما يريدون من الأفكار فبرز من الاحناف أبو يوسف قاضي الرشيد ببغداد وتلميذه الشيباني . في حين اعتمد الشيعة مذهب الامام جعفر الصادق فصار أبا الفقه الشيعي الذي لم يكن يقبل من السنة إلا ما أتى عن طريق آل البيت والأئمة . وقامت وراء شخصية أبي جعفر كل المذاهب الشيعية عدا الزيدية التي هربت مع أنصارها إلى اليمن وانتشرت فيه .

ثانيا : ثم ظهر مذهب مالك بن انس (المتوفى سنة ١٧٦) في المدينة وهو يعتمد السنة .

ثالثا : ظهر مذهب الشافعي (وهو من مواليد غزة) فيما بين المدينة وبغداد ثم توفي في القاهرة سنة ٢٠٤ وهو يعتمد الرأي والسنة معا .

رابعا : وأخيرا ظهر مذهب أحمد بن حنبل الذي عاش في بغداد واضطهد فيها ثم مات سنة ٢٤١ وهو يتشدد في قبول السنة .

على أن المذاهب لم تنته . فقد ظهر أيضا مذهب الأوزاعي في الشام ومذهب الليث بن سعد في الفسطاط ومذهب سفيان الثوري في الكوفة ، وداوود الظاهري في اصبهان ، ثم الماتريدي في ما وراء النهر والأشعري في

خراسان والعراق . وتكاثر الفقهاء المجتهدون فكان منهم الكثير أمثال الطبري المؤرخ وغيره وناقضوا في كثير من القول أفكار غيرهم وتعصب أنصار كل فقيه لرأيه وأصر عليه . وهكذا :

انتشر المذهب المالكي في إفريقية والمغرب والأندلس وكان من العاملين على نشره سحنون . وذاع المذهب الشافعي في مصر بحكم تعصب أهل مصر له ، وفي خراسان بسبب تكاثر فقهاء الشافعية هناك . واعتصمت الحنبلية في بغداد والشافعية معها . كما بدلت الشام بالأوزاعية الشافعية في حين اقبلت على الحنيفة بلاد خراسان وما وراءها من أرض الترك .

كان العصر كله من حوالي أواخر العصر الأموي إلى أواخر العصر العباسي الأول اذن يموج بثني الأفكار والآراء التي تقذفها بغداد بخاصة . ويجب أن نضيف إليها دون شك :

أ - مذاهب المعتزلة العديدة التي وجدت المرتع الخصيب في هذا الجو الديني الحر فانتشرت في البصرة والكوفة والأهواز وبغداد واليمن وكان من أنصارها سنة وشيعة على السواء تفرقوا شعبا ونحلا . وقد سيطرت آراء المعتزلة على الخلافة العباسية في بغداد وغيرها حوالي ١٥ سنة ( ٢١٦ - ٢٣٤ ) هـ فحمل الناس حملا في بغداد ومصر والشام وخراسان على القول بأفكارها التي اوضحت «رسمية» وكان أشد ما ألم الناس والعلماء منها تلك المشكلة التي نبعت فيما بين البصرة وبغداد والتي عرفت بمحنة خلق القرآن وعاصرت بروز مدينة سامراء . وكان من المتعصبين لها القاضي ابن أبي داؤد فكانت مذهبها جديدا كعاصمة جديدة . ويمكن أن نعتبر الفترة المعتزلة فترة انتصار المنطق الصوري في سامراء حتى جاء المتوكل فعاد إلى سنة اجداده وإلى المذهب الحنفي .

ب - مذاهب أهل الكلام الذين ظهوروا منذ القرن الأول مع الحسن

البصري وكان من أبرز الأخيرين منهم أبو الحسن الأشعري .

هذه الأفكار والمذاهب لم تكن كل شيء في الجو الديني في المدن الإسلامية الرئيسية ونقصد في بغداد خاصة وفي الأمصار الأخرى التي كانت ابتعدت عن المركز نقص جو التعصب فيها للأفكار والآراء واكتفت بأن تكون الصدى لما يجري في العاصمة . فلقد كانت هي والكوفة والبصرة خاصة تموج بمختلف التيارات الفكرية . وتصطنع فيها أحيانا المذاهب القديمة لباسا إسلاميا لتظهر .

وقد تفتت الزندقة منذ العصر العباسي الأول في مدن العراقين العربي والعجمي وفي مدن الجبال وفي بعض خراسان . والزندقة مانوية . ولكنها لبست لباس الإسلام لتنفذ إلى الناس وكانت مذهباً زارادشتياً له في التبشير دعوة نشطة ورجال حتى في إفريقية وفي الشام أيام العهد الأموي . لكنها ركزت نشاطها في أوائل العصر العباسي على العراق وكان من الزنادقة شعراء معروفون (كبشار بن برد وأبي نواس) وكتاب في الدولة ورجال فكر وقد بلغ من خطرها أن تنبه الخليفة المهدي إليها فجعل لها مراقباً حكومياً هو صاحب الزنادقة يتعقبهم حيث يوجدون واستمر ذلك حوالي سبعين أو ثمانين سنة حتى أصبحت الزندقة تهمة سياسية يرمي بها من تشاء الدولة التخلص منه . ولم تقتصر الزندقة على الهزء من القيم الإسلامية ولكن دعت إلى تفسخ الأخلاق والتحلل والانحراف . كانت تعرف أن الإسلام هو العماد الذي قامت عليه الدولة فهي تهاجمه وتهدد الدولة في جوهر كيانها . وقد ساهم أصحاب الديانات الأخرى في الترويج للزندقة (التي رافقتها من الناحية الاجتماعية الحرمات الشعرية) كالحزمية والراوندية وغيرها فكان ذلك هو السبب الأساسي في ظهور علم الكلام والمتكلمين . ذلك أن الصراع انكشف وصار علنياً بين الإسلام والأديان الأخرى منذ أواخر القرن الثاني .

نخلص من هذا إلى أن المذاهب الإسلامية (والمتردقة) كثرت في المدن حتى إذا كان القرن الرابع وجدنا المقدسي يقول:

«أعلم أن المذاهب المستعملة اليوم في الإسلام والتي لها خاص وعام ودعاة وجمع ثمانية وعشرون مذهباً. أربعة في الفقه وأربعة في الكلام وأربعة في الحكم فيهما وأربعة مندرسة وأربعة في الحديث وأربعة غلب عليها أربعة رستاقية: فأما الفقهيات فالحنفية والمالكية والشفعية والداوودية (ولم يذكر المقدسي المذاهب الفقهية الأخرى لأنها كانت قد ضعفت كالحنبلية، والليثية والأوزاعية ولا ذكر المذاهب الشيعية التي قامت على تراث جعفر الصادق). وأما الكلاميات فالمعتزلة والنجارية والكلامية والسلمية (وكلها من المعتزلة). وأما الذين لهم فقه وكلام فالشيعية والخوارج والكرامية والباطنية. وأما أصحاب الحديث فالحنبلية والراهوية والأوزاعية والمنذرية، وأما المندرسية فالعطائية والثورية والأباضية والطاقيّة، وأما التي في الرساتيق (ويقصد أنها منتشرة في الريف) فالزعفرانية والخرمدينة والأبيضية والسرخرسية، وأما التي غلب عليها أربعة من شكلها فالأشعرية على الكلابية والباطنية على القرمطية والمعتزلة على القدرية والشيعية على الزيدية والجهمية على النجارية. فهذه جمل المذاهب المستعملة اليوم ثم تشعب إلى فرق لا تحصى. ولما ذكرنا ألقاب وأسماء. . . يعرف ذلك العلماء. وهن أربعة ملقبة، وأربعة ممتدحة، وأربعة منكورة وأربعة مختلفة فيها، وأربعة لقب بها أهل الحديث، وأربعة معناهن واحد، وأربعة يميزهن التحارير. ويستطرد المقدسي فيذكر الفروق الفقهية بين هذه الفرق. ثم يقول: «وأعلم أن أصل مذاهب المسلمين كلها متشعبة من أربع: الشيعية والخوارج والمرجئة والمعتزلة». ولم يذكر أهل السنة والجماعة لكن اعتبرهم «السواد الأعظم». ولذلك يقول: «ولم أر السواد الأعظم إلا من أربعة مذاهب: أصحاب أبي حنيفة بالمشرق (خراسان) وأصحاب مالك في المغرب (والأندلس) وأصحاب الشافعي بالشام وخرزائن نيسابور



وأصحاب الحديث بالشام وأقور (شمال العراق) والرحاب وبقية الأقاليم  
ممتزجون . . . (١) وذكر المقدسي فيما بعد ما أدخله الفقهاء على المذاهب  
الأربعة من تعديل طفيف مع الأيام (٢) في مختلف الأمصار. كما ذكر الميزات  
في فقهاء كل مذهب.

وهذه الروايع التي استخدمها المقدسي في المذاهب استخدمها أيضا  
في توزيع القراءات القرآنية. والقراءات في ذلك العصر كانت شيئا خطيرا في  
الحياة الدينية بين الناس وكانوا يميزونها ويتعصبون لها وقد يتشددون فيها:  
يقول المقدسي: «وأما اصحاب القراءات المستعملة اليوم فعلى أربعة أقسام:  
حروف أهل الحجاز وهن أربع: قراءة نافع وابن كثير وشيبة وأبي جعفر.  
وحروف أهل العراق وهن أربع أحرف: عاصم وحمزة والكسائي وأبي  
عمرو. وقراءة أهل الشام وهي لعبدالله ابن عامر. وحروف الخاص وهن  
أربع: قراءة يعقوب الحضرمي، واختيار أبي عبيد، واختيار أبي حاتم،  
وقراءة الأعمش. وأكثر الأئمة على أن الجميع على صواب» (٣).

وقد ذكر المقدسي خبرا عن التعصب المذهبي قال فيه أنه كان في مجلس  
أبي محمد السيرافي فقال له أنت رجل شامي وأهل ناحيتك أصحاب حديث  
يتفقهون للشافعي فلم تفقهت لأبي حنيفة؟ فشرح له المقدسي مزايا أبي حنيفة  
ومذهبه في حجج عديدة حتى قال له السيرافي لقد عرفت من مذهب أبي  
حنيفة ما لم أكن أعلم (٤) وروى . . . المقدسي خبرا آخر يتعلق بالتعصب  
للقراءات جرى معه في اليمن وأفهم صاحبه السبب في تفضيله لها  
فاقنعه (٥).

(١) المقدسي ص ٣٧ - ٣٩.

(٢) المقدسي ص ٣٩ - ٤١.

(٣) المقدسي ص ٣٩.

(٤) المقدسي ١٢٨.

(٥) المقدسي ص ١٤٢.

هذه المذاهب الفقهية والقراءات كانت تتوزع على الأقاليم الإسلامية على الشكل الآتي:

فالحجاز «قليل الفقهاء والمذكورين والقراء» ومذاهبهم بمكة وتامة وصنعاء وقرح سنة. وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراه غالية (أباضية). وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وهجر وصعده شيعة. وشيعة عمان وصعده وأهل السروات وسواحل الحرمين معتزلة إلا عمان (الأباضية). والغالب على صنعاء وصعده أصحاب أبي حنيفة. والجوامع بأيديهم. وبالمعافر (في اليمن) مذهب أبي المنذر. وفي نواحي نجد اليمن مذهب سفيان الثوري. . . والعمل بهجر على مذهب القرامطة وبعمان داوودية لهم مجلس. . . (١) والقرارات بمكة على حرف ابن كثير واليمن قراءة عاصم، ثم قراءة أبي عمرو مستعملة في جميع الأقاليم (٢).

وقد حصل في العراق عدة من المذاهب: فالغلبة ببغداد للحنفية والشيعة مع جليلة فقهاء العراقيين بالأعوام. وبه مالكية وأشعرية ومعتزلة ونجارية. وبالكوفة الشيعة إلا الكناسة ففيها سنة. وبالبصرة مجالس. وعوام السالمية وهم قوم يدعون الكلام والزهد ويكثر المذكورين بها منهم ولا يتعاطون الفقه ومن تفقه منهم تفقه لمالك. . . وأكثر أهل البصرة قدرية وشيعة وثم حنابلة. وببغداد غالبية يفرطون في حب معاوية (٣). ومشبهة وبربهاريه. . . والغالب على فقهاء هذا الإقليم (العراق) وقضاته أصحاب أبي حنيفة. والقراءات السبع مستعملة في الأقاليم وكانت في القديم ببغداد حروف حمزة. وحروف يعقوب الحضرمي بالبصرة ورأيت أبا بكر الجرتكي

(١) المقدسي ص ٩٥ - ٩٦.

(٢) المقدسي ص ٩٧.

(٣) روى المقدسي خبرا جرى معه إذ رأى في الجامع بواسط مدرسا يباليغ في مكانه معاوية عند الله فلما نهاه أقبل الناس عليه بالضرب حتى أفقده بعض معارقه / ص ١٢٦.

يؤم بها في الجامع ويذكر أنها قراءة المشايخ<sup>(١)</sup> وأما في شمال العراق والجزيرة فمذاهبهم سنة وجماعة. إلا عانة فلإنها كثيرة المعتزلة ولا ترى في الرأي غير مذهب أبي حنيفة والشافعي. وفي حنابلة، وجلبة للشيعة لم تقسم الأهواء قلوبهم، ولا يتعاطى الكلام فقهاؤهم يختارون قراءة عبدالله بن عامر<sup>(٢)</sup>. وأما الشام فإقليم «قليل العلماء ولا خطر فيه للمذكرين. مذاهبهم مستقيمة. أهل جماعة وسنة. وأهل طبرية ونصف نابلس وقدس (بلد صغير شمالي طبرية) وأكثر عمان وأريحا شيعة ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم في خفية. وبيت المقدس خلق من الكرامية لهم خوانق ومجالس ولا ترى به مالكيًا ولا داوديا. وللأوزاعية مجلس بجامع دمشق. والعمل كان فيه على مذهب أصحاب الحديث. والفقهاء شفعوية. وأقل قسبة أو بلد ليس فيه حنفي وربما كانت القضاة منهم (في حين) أن العمل في الإقليم على مذهب الشافعي. والصدور ثم شفعوية. . . واليوم (سنة ٣٧٠ - ٣٩٠) أكثر العمل على مذهب الفاطمي (لأن الفاطميين احتلوا الشام الجنوبي حتى دمشق وبسطوا النفوذ على الشمال (حتى حلب سنة ٣٥٨) والغالب فيه من القراءات حروف أبي عمرو إلا بدمشق فإنه لا يؤم بالجامع إلا من يقرأ لابن عامر. وهي شائعة فيهم مختارة عندهم وقد فشت قراءة الكسائي في الإقليم ويستعملون السبع ويجتهدون في ضبطها. . .<sup>(٣)</sup>

وأهل خراسان وما وراء النهر «مذاهبهم مستقيمة غير أن الخوارج بسجستان ونواحي هراة. . . كثيرة. وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة وللشيعة والكرامية بها جلبة والغلبة في الإقليم أصحاب ابن حنيفة إلا في كورة الشاش وإبلاق وطوس ونسا وأبيورد وطراز وسنجاج وسواد بخاري

(١) المقدسي / ص ١٢٨ .

(٢) المقدسي / ص ١٤٢ .

(٣) المقدسي ص ١٧٩ - ١٨٠ ، وانظر ناصري خسرو - سفرنامه ص ٥٣ .

وسنج الدندقات واسفرايين وجويان فإنهم شفعوية كلهم والعمل في هذه المواضع على مذهبهم ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس والمروين ولا يكون قاضيا إلا من الفريقين . . . ونيسابور أيضا شفعوية واحد جامعي مرو أيضا . . . وللكرامية جلبة بهراة وغرج الشار ولهم خواناتق بفرغانة والختل وجوزجانان، وبمرو خانقة وأخرى بسمرقند. وبرساتيق هيكل (بما وراء النهر) أقوام يقال لهم بيض الثياب مذهبهم تقارب الزندقة، وأقوام على مذهب السرخسي لهم زهد وتقرب. وأكثر أهل ترمذ وأهل الرقة شيعة وأهل كندر قدرية، والشار يصلي العيدين على قول عبدالله بن مسعود . . .»<sup>(١)</sup>

وأهل طبرستان «مذاهبهم مختلفة. أما قومس وأكثر أهل جرجان وبعض طبرستان فحنفيون والباقون حنابلة وشفعوية. ولا ترى بيار صاحب حديث إلا شفعويا. والنجارية بجرجان وللكرامية (وهم يرجعون إلى أبي حنيفة) بجرجان وبيار وجبال طبرستان حواناتق وللشيعة بجرجان وطبرستان جلبة . . . ويتعصب كل لمذهبه «هذا التعصب إنما أشاره الجهال والمسرفون من القصاص وغيرهم. أما الأمة فعلى ما ذكرت ونواحي الديلم شيعة وأكثر الجبل سنة . . .»<sup>(٢)</sup>

وأهل أمينية «مذاهبهم مستقيمة إلا أن أهل الحديث حنابلة. والغالب بدليل مذهب أبي حنيفة ويوجدون في بعض المدن بلا غلبة . . . وكان بدليل خانقاه وعندهم معرفة بعلم التصوف أما علم الكلام فلا يقولون به ولا يتشيعون . . .»<sup>(٣)</sup>

وإقليم الجبال للمذكرين والفقهاء به ذكر وصيت . . . مذاهبهم مختلفة.

(١) المقدسي ص ٣٢١ - ٣٢٣.

(٢) المقدسي ص ٣٦٥ - ٣٦٧.

(٣) المقدسي ص ٣٧٨ - ٣٧٩.

أما بالري فالغلبة للحنفيين وشم نجاريه الأرساتيق القصبة فانهم زعفرانية يقفون في خلق القرآن (أي يتعصبون في ذلك)، وبالري حنابلة كثير لهم جلبة والعمام قد تابعوا الفقهاء في خلق القرآن. وأهل قم شيعة غالبية قد تركوا الجماعات وعطلوا الجامع إلى أن الزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه. وهمذان وأجنادها أصحاب حديث إلا الدينور فإن بها خاصا وعماما وجلبة للذهب سفيان الثوري. . . . وعلى ذلك كان أهل أصفهان في القديم يختارون قراءة أبي عبيد وأبي حاتم وأدغام أبي عمرو وابن كثير<sup>(١)</sup>.

وأما الأهواز فيه المذكورون لهم جلبة وأدنى صيت، وبه متقريون إلا الأهواز، ورباطات وتصوف إلا العسكر. . . ومذاهبهم مختلفة. هو أكثر الأقاليم معتزلة. أما العسكر وأجنادها فحنابلة. . . ونصف الأهواز شيعة وبه أصحاب أبي حنيفة كثير ولهم فقهاء وأئمة وكبراء. وبالأهواز مالكيون وبهلا متصوفة<sup>(٢)</sup>.

وأما ابن حوقل فيذكر أن «ما ينتحلونه من الديانات والمذاهب. والغالب عليهم الإعتزال والغلبة لأهله، دون سائر النحل»<sup>(٣)</sup>.

وأما فارس «فالعامل فيه على مذهب أصحاب الحديث. وأصحاب أبي حنيفة كثير وللداودية دروس ومجالس وغلبة ويتقلدون القضاء والأعمال. . . والشيعنة بسواحله كثير. والصوفية بشيراز كثير. . . وفيه عدة مذاهب من حنفيين وشفيعيين وداوديين ومعتزلة وحنابلة وشيعة ولا ترى الداودية بإقليم أكثر منهم به. يقلدون الحكومات ولهم مجالس ورؤوس وفتاوي إلا أن الغالب والمستعمل أهل الحديث وأكثر الشيعة بالرجال. وليس لهم قراءة

(١) المقدسي ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٢) المقدسي / ص ٤١٤.

(٣) ابن حوقل ص ٢٣٠.

يختارونها ولا للمذكرين به صيت ثم للصوفية جلبة بشيراز<sup>(١)</sup>.

وأما كرمان فالمذاهب الغالبة للشافعي إلا جيرفت . وقد قل الفقهاء بها وبدأ أهل الحديث يغلبون الأبهرموز . وليس لمذكريهم علم كثير<sup>(٢)</sup> . وأما السند فليس للمذكرين به صيت . . ومذاهبهم أكثرهم أصحاب حديث . . وأهل الملتان شيعة . ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذاهب أبي حنيفة . وليس به مالكية ولا معتزلة ولا عمل للحنابلة . . . قد أراحهم الله من الغلو والعصية والهرج والفتنة<sup>(٣)</sup> .

ونعود إلى مصر لنراها على «مذاهب أهل الشام غير أن أكثر فقهاءهم مالكيون . وسائر المذاهب بالفسطاط موجودة ظاهرة وثم محلة الكرامية وجلبة للمعتزلة والحنبلية ، والفتيا اليوم (سنة ٣٧٠ - ٣٩٠) على مذاهب الفاطمي . والقراءات السبع فيه مستعملة . غير أن قراءة ابن عامر أقلها . ولما قرأت بها على أبي الطيب بن غلبون قال : دع هذه القراءة فإنها عتيقة . . . والغالب عليهم والمختار عندهم قراءة نافع . . .<sup>(٤)</sup>

والمذاهب (في المغرب) والأندلس على ثلاثة أقسام : أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظهروا (عثرُوا) على حنفي أو شافعي نفوه ، وأن عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه . ويسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي إنما هو أبو حنيفة ومالك . وكنت يوماً إذا كر بعضهم في مسألة فذكرت قول الشافعي فقال أسكت من هو الشافعي ؟ إنما كان بحرین أبو

(١) المقدسي / ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٢) المقدسي / ص ٤٦٨ .

(٣) المقدسي / ص ٤٨١ .

(٤) المقدسي ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

حنيفة لأهل المشرق ومالك لأهل المغرب . أفنتركها ونشتغل بالساقية . ورأيت أصحاب مالك ييغضون الشافعي قالوا أخذ العلم عن مالك ثم خالفه . وما رأيت فريقين أحسن اتفاقا وأقل تعصبا منهم : حتى قالوا أنه كان الحاكم سنة حنفي وسنة مالكي . . . » وقد وقع لهم مذهب أبي حنيفة عن طريق وهب بن وهب الذي ذهب إلى المشرق لتلقي مذهب مالك فلما وجدته مريضا سأل عن من يعادله فدلته مالك على أبي حنيفة . . . وفشا مذهب أبي حنيفة في المغرب . والقسم الثالث مذاهب الفاطمي وهي على ثلاثة أقسام أحدهما ما قد اختلف فيه الأئمة ، والثاني الرجوع إلى ما كان عليه السلف . والثالث ما تفرد به مما لا يخالف الأئمة وإن لم يعرف له قدمه . . . وهم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول . ويقولون بمذهب الإسماعيلية ولهم فيه سر لا يعلمونه ولا يأخذونه على كل أحد إلا من وثقوا به بعد أن يحلفونه ويعاهدونه . وإنما سموا باطنية لأنهم يصرفون ظاهر القرآن إلى بواطن وتفسير غريبة . وهذه الأصول (هي) مذاهب الأدريشة وغلبتهم بكورة السوس الأقصى وهي قريبة من مذاهب القرامطة . . . وأكثر أهل صقلية حنفيون وقرأت في كتاب صنفه بعض مشايخ الكرامية بنيسابور أن بالمغرب سبعائة خانقاه فقلت لا والله ولا واحدة . فأما القراءات في جميع الأقاليم فقراءة نافع فحسب . . .»<sup>(١)</sup> .

ولقد تعمدنا أن نطيل في هذه الصورة الشاملة للمذاهب والقراءات وتوزعها في أواخر القرن الرابع الهجري لأنها تعطي الصورة الكاملة عن الحياة الدينية في تلك الفترة التي تعتبر فترة الأوج الفكري في الإسلام ، بجانب كونها فترة الأوج الاقتصادي . ونلاحظ أن هذه الصورة سوف تستمر ولكن مع بعض التعديلات في بعض جوانبها حتى القرن السادس . وقد

(١) المقدسي ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

يعني هذا أن ذلك التداخل الواسع بين المذاهب والقراءات وذلك التشابك سوف يكونان أقل تشعبا وتشابكا فيما بعد، بسبب موت بعض الأفكار واتساع الآخر. وما كان ذلك الغياب ولا ذلك الإندثار ناجما عن ميل الحضارة العربية الإسلامية بعد النضج إلى التوقف. ولكنه كان أيضا نتيجة تورع الآخرين عن نقض آراء الأولين وتحرجهم ورغبتهم في عدم تكاثر الآراء باضفاء نوع من القداسة على ما سبق منها والتوقف عما يلحق وهذا ما سمي بإغلاق باب الاجتهاد.

فمنذ مطالع القرن الخامس شهد العالم الإسلامي تحولا عميقا في الموقف من العقيدة ومن مذاهبها وذلك بانتصار مذهب أهل السنة والجماعة على المذاهب الكلامية الأخرى وبخاصة مذهب الاعتزال الذي تأخذ الشيعة بأكثره. ففي العراق أعلن الإمام أبو الحسن الأشعري الشافعي (ت سنة ٣٣٤) انفصاله عن الاعتزال وعودته للسنة بعد أن قضى أربعين عاما يؤمن بها، وفي بلاد ما وراء النهر كان الإمام أبو منصور المائريدي الحنفي (المتوفى سنة ٣٣٣) يلاحق أبا القاسم الكعبي إمام المعتزلة في بخارى وسمرقند ويؤسس مدرسة أهل السنة والجماعة، وفي مصر أصدر الإمام أبو جعفر الطحاوي (المتوفى سنة ٣٢١) بيان السنة والجماعة ثم انصرف عن العقيدة والبحث فيها إلى الفقه فذاعت شهرته على أنه فقيه. وأغلق بذلك باب الاجتهاد العقائدي تدريجيا مع تلاميذ هؤلاء فصاروا وبخاصة الأشعرية والمائريديية علمي أهل السنة والجماعة. وحين انساح السلاجقة الأحناف في أواسط القرن الخامس ثم جاءت حروب الفرنجة وآلامها في آخر القرن كانت الفلسفة أيضا قد تلقت ضربتها القوية في المشرق على يد أبي حامد الغزالي (ت. سنة ٥٠٥) فجاء القرن السادس والمعتزلة كانوا قد انكمشوا كثيرا في مختلف الأقطار والمدن، وكان أهل الفقه وأهل الحديث هم الأقوى عامة. وأما في حلب فقوي المذهب الشيعي كما قوي في الديلم والجبال وفي



بغداد بفضل البويهيين وظهر المذهب الفاطمي في مصر. ولكن في الطبقة الحاكمة ومن والاهما وفي الجند. أما باقي الناس فبقيت على المالكية والشافعية. وفي المشرق فشا المذهب الحنفي وزاحم الشافعية المنتشرة وتركزت كل التعصبات في بغداد حيث قامت الفتن والتي لا تنقطع بين الحنابلة المتشددين والشوافعة والشيعة وهي فتن كانت ذات ضحايا وحرائق وألوان من الحقد غير قليلة. وقد رأى بعض الحنابلة ضعفهم في بغداد فهاجر قسم منهم إلى القدس بعد سنة ٤٧٠ أي بعد استردادها من الفاطميين وبشروا بمذهبهم، فلما احتلت القدس من قبل الفرنج تحرك المركز إلى دمشق وانشأ مدينة للمذهب الحنبلي صارت أقوى مركز له خلال العصر المملوكي كله وهي مدينة الصالحية. ولنلاحظ أن الخلاف السني الشيعي جعل الناس يهتمون ابن العلقمي - عن حق أو غير حق - بالتآمر مع المغول ضد الخلافة العباسية السنية لتهديمها نتيجة لوجود هذا الخلاف.

وجرى نوع من الانقلاب المذهبي فيما بين عهدي نور الدين وصلاح الدين في مصر والشام. فمنذ دخل أول الجند الغز حلب أخذوا يقتلعون المذهب الشيعي الذي ما لبث أن قام بتدميره فيها كل من نور الدين الذي أزاحه أولاً، ثم صلاح الدين الذي ألغاه مع الخلافة الفاطمية في مصر. فلجأت المذاهب الشيعية إلى مناطق إيران في الديلم والجبال وفارس وبعض خراسان ولجأت الفاطمية إلى اليمن والهند. في حين اتسعت المذاهب السنية وبفضل علماء إيرانيين في الشام ومصر فصارت الأكثرية سنية في المغرب والشام واليمن والعراق، وانحصر الشيعة في جيوب محدودة موزعة في العالم الإسلامي وإن كانت كتلتها الأساسية في إيران. فكانت منهم جموع عديدة في البصرة والكوفة والأهواز وسواحل فارس، ومنهم الإسماعيلية في بعض الريف الفلسطيني وفي عكا وأريحا وعمان ونابلس وبعض أرياف مصر. وبعض اليمن في زبيد وفي شرقي أفريقيا وفي بعض السند وسحبستان،

وأمامية في ترمذ وقم وبلاد الديلم وشيراز والرجان . وأما الأدارسة بالمغرب فشيعة زيدية . لكن هذه الجيوب كلها حتى لو اجتمعت لم تكن تشكل في أي مكان أكثرية خطيرة . أو على الأقل تهدد الدولة القائمة .

ومع أن التشيع كان في الأصل (في القرنين الأول والثاني وبعض الثالث) عربيا إلا أنه اضحى الآن فارسيا . ولما كانت بعض مذاهبه كالإسماعيلية قد قضت أكثر من ١٥٠ سنة تعمل في السر لذلك فقد تشعب منها جماعات عديدة منها الجماعة القرمطية التي انتشرت في القرن الرابع في السواد واليمن ثم في البحرين ونجحت في المغرب (بقيام الدولة الفاطمية) ثم استولت على مصر وانبثت فيها المذهب الدرزي أولا منذ مطلع القرن وبخاصة بعد غياب الحاكم الحاكم سنة ٤١١ فاستقر في جنوب لبنان وفيما حول حلب ثم أنبت المذهب المعروف بالإسماعيلية الباطنية في أواخر القرن مع الحسن الصباح وأصحابه في ألموت (بجبال البورز) وفي الشام (في مصياف والقدموس) . وكان لها فرق من الفدائيين لاغتيال أعدائها . ولطالما أرهبت وقتلت من تريد قتله في إيران والعراق والشام ومصر قبل أن تندثر في أواخر القرن وتنحاز بعد سقوط الفاطميين إلى اليمن وإلى شرقي إفريقيا وإلى المناطق الشمالية الغربية في الهند، في حين احتفظ الخوارج الأباضية بجباهم في عُمان وفي جبل نفوسه وبعض مدن إفريقية والمغرب .

ويأتي المماليك وحكم المماليك بعد ذلك فنجد أن التعقيد والتشابك المذهبان ما يزالان قائمين في كل مكان من العالم الإسلامي ولكن الأسماء القديمة تضيع فلا تذكر . فلا مرجئة مثلا ولا زعفرانية ولا معتزلة، ولا نجارية ولا قرمطية . وتتوازن المذاهب السنية في عيون الإدارة المملوكية الذين كانوا يكرهون التشيع وييجلون كل الفقهاء بسبب حدائهم في الدين . فإذا هم يقبلون المذاهب الأربعة المعتمدة ويعينون من كل مذهب قاضيا . وينسحب المذهب الفاطمي إلى بعض أركان اليمن وإلى شرقي

إفريقيا الساحلي وإلى السند.

وفيا كانت المذاهب السنية تتوطد وتنتشر في معظم العالم الإسلامي كانت إيران تتجه ببطء إلى المذهب الشيعي الذي كان له عدد من القواعد في إيران وزادها انتشارا بعض ملوك المغول الذين أسلموا على هذا المذهب . فقد أسلم السلطان محمد خدا بنده على مذهب «الروافض» كما يقول ابن بطوطة بناء على نصيحة أحد مستشاريه من المسلمين وهو الفقيه جمال الدين الذي قرر لدى الرجل - وهو حديث عهد بالإسلام - أن علي بن أبي طالب هو ابن عم الرسول ووريثه . فصدر الكتب السلطانية بحمل الناس على «الرفض» والتشيع إلى كل من العراقيين العجمي والعربي وفارس وأذربيجان وأصفهان وكرمان وخراسان . وامتنع أهل بغداد من قبول الياسة (القرار) في باب الأزج وأكثرهم من الخنابلة وقالوا لا سمع ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع في يوم الجمعة ومعهم السلاح وبه رسول السلطان . . . . . وحين صعد الخطيب هددوه وحلفوا إن غير الخطبة أو زاد أو نقص فإنهم قاتلوا وقتلوا رسول الملك . . . فخطب الخطبة المعتادة . . . والتقى باسم علي ومن تبعه كعمار . . . ومثل هذا فعل أهل شيراز وأصفهان . وقد هم خدائنده بقاضي شيراز مجد الدين وأمر باحضاره إلى مصيفه في قره باغ ورميه للكلاب المفترسة التي ابتعدت عنه فكانت نوعا من الكرامة للشيخ أذهلت السلطان فهروا إليه حافي القدمين يقبل رجلي القاضي ويأخذ بيده ويخلع عليه . . . وصار رسول الملك إذا سار إلى مجد الدين نزع شاشيته (الكلاه) وقبل رجله وقعد صامتا على رسول امراء التتر . (١)

وبقي أمر التشيع في إيران بين مد وجزر حتى جاء العهد الصفوي وكان نذر الملك عباس في معركة (غالديران) وانتصاره فيها سببا في انتصار

(١) ابن بطوطة / الرحلة ج ١ ص ١٣٨ .

المذهب وإجبار الناس عليه واستقرار الحكم الصفوي على أساسه .

أما في الهند فكانت المذاهب الإسلامية كلها تختلط مع بقايا دينية هندية حتى وجد من يحاول هناك إقامة دين يجمع الأديان كلها في واحد (تجربة أكبر) .

والملاحظ أن دخول السلاجقة أحدث انقلابا اجتماعيا في المجتمع المشرقي في حين أحدثت الحروب الصليبية في المشرق نوعا من الانقلاب الديني . وكان انقلاب مماثل قد سبق وظهر في المغرب مع المرابطين ثم الموحدين نتيجة للحرب الصليبية الأخرى المسماة بحرب الاسترداد في الأندلس وإذا كانت الحروب في الأندلس والمغرب قد نجم عنها زيادة التعصب الديني لدى الطرفين وضباع الأندلس في مطالع القرن السابع ، وزيادة الارتباط بالمذهب السني المالكي فإن الحرب الصليبية في المشرق نجم عنها مع زيادة التعصب الديني نوع من التمسك الشديد بالسنة والسلف والتقليد . وزادت الأحاديث والروايات عن قدسية القدس مثلا بشكل واسع واكتسبت دمشق سمعة دينية هائلة بوصفها المدينة التي لم يستطع دخولها الصليبيون . وكثر، مع كثرة المدارس ، جمهور العلماء التقليديين الذين لهم الخطوة لدى الحكام مما جعل الشام ومصر خاصة مركز غليسان ديني لا ينقطع منذ أواسط القرن السادس حتى نهاية السابع . وانصهرت الفرق التي ظهرت في القرن الرابع خاصة بعضها مع بعض لتحل محلها المذاهب المعتمدة من جهة ولتظهر في الوقت نفسه التيارات الصوفية وما يتصل بها . وتكثر الأساطير الدينية حول معجزات بعض الشيوخ .

وهكذا عرف عصر الماليك نشاطا دينيا منقطع النظير ليس السرفيه هو أن الماليك غرباء عن البلاد وأهلها فقط ويريدون الظهور بمظهر الشرعيين لا المغتصبين ، ولكن لأن هذا العصر أيضا جاء بعد عصر المحنات

الصليبية التي هزمت الهجمات المغولية التي تلتها بالإضافة إلى أن الدين الإسلامي برز (وبخاصة في المذهب السني منه) بوصفه المدافع الأول عن العقيدة والأرض والناس والمذلل للكفار فارتفع المد الديني السني خاصة وزاد التمسك بالتراث والسلف . وقد ساعد على ذلك دفع الناس في الاتجاه نفسه :

أ - الحكام المماليك وحلقاتهم ليتقربوا من الشعب ما داموا انتصروا على الصليبيين والمغول وما داموا يقيمون شعائر الدين ويحيون سنن الأولين ويعمرون مساجد الله فهم إذن حكام صالحون . لاسيما وقد أقاموا في القاهرة الخلافة العباسية بعد أن انهارت في بغداد .

ب - العلماء الذين وجدوا في ذلك مجاهم الأوسع للدعوة إلى الدين والتمسك به وشكلوا بذلك طبقة حاكمة بجانب الطبقة السابقة لا يجرؤ أحد على معارضتها فإن فعل كباين تيمية وابن دقيق العبد استعانوا عليه بالسلطات اضطهادا وعسفا .

ج - المتصوفة الذين أعطوا أنفسهم الصفات الروحية ونظموا عالم الروح على مثال التنظيم في العهد المملوكي فثمة «القطب» وهو السلطان وثمة المريدون وهم الأعوان وثمة السالكون وهم الجند على مراتبهم .

وبهذا الشكل تكاثرت الفرق الصوفية وتشعبت كل التشعب . وإذا ظهرت الجيلانية أو القادرية في بغداد اتباع عبدالقادر الجيلاني والرفاعية اتباع أحمد الرفاعي منذ القرن السادس فإن فيضا لا ينتهي من الفرق الصوفية ظهر بعد ذلك ومنها ما كان تحت تأثير المهاجرين من الأندلس والمغرب فرارا من «الكفار» وقد توضعوا على الساحل المصري كأبي العباس المرسي وأبي القاسم القباري وأبي الحسن الشاذلي، والسيد أحمد البدوي .

على أن معظم الجهود الدينية في عصر المهاليك توجهت للوقوف في وجه المذهب الشيعي ذلك أنه على الرغم من الجهود التي بذلها نور الدين في الشام (وفي حلب خاصة) وصلاح الدين في مصر فقد بقيت آثار من المشكلة الشيعية لم تستأصل تماما رغم ضغط الحكم السني وانتشاره.

فقد ذكروا أن بلدة أصفون (قرب الأقصر) كان فيها في القرن الثامن «طائفة من الإسماعيلية والرافضة والإمامية وطائفة من الدرزية «الحاكمية». وحكى بعض مزارعي الصعيد أن غالب مزارعي بلدنا اشراف علوية. وقد تميز هؤلاء في العصر المملوكي بالعمائم الخضراء ومعظمهم شيعة زيدية ويجهرون بذلك. ووصف ابن حجر بعض معاصريه فإنه فاضل أديب ولكنه يميل إلى الرفض، ووصف آخر في الإسكندرية بأنه شديد في مذهب التشيع من غير سب ولا رفض. وحدث أكثر من مرة أن ثار في القاهرة أيام المهاليك جماعة من السودان والركبدارية والغلمان فيشقون المدينة صائحين يا آل علي! واعتبر ابن تيمية بعض طوائف الشيعة أكفر من اليهود والنصارى وأفتى بالقضاء عليهم. وفي الوثائق الوقفية لذلك العصر يتضح أحيانا الصراع بين السنة والشيعة حين يشترط الواقف «ألا يسكن» في الرباط بمكة أو المدينة إلا أهل السنة الفقراء دون الروافض والشيعة فلا يعطي أحد منهم حجرة وإن كانت خالية وتبقى خاوية . . .».

وإذا كان السبب الأساسي في إقامة الخلافة العباسية في القاهرة هو جر الغطاء الشرعي على المهاليك فلا شك أن من جملة الأسباب أيضا إقامة رمز سني مقابل ضياع الشيعة مناهضتهم وقد نجح المسعى إلى حد كبير تحت ضغط الحكم المملوكي. فالسيوطي يقول: أن مصر منذ أصبحت دار الخلافة العباسية «علت فيها السنة وعفت منها البدعة»، ويقول الادفوي عن أسنا في بلاد الصعيد بأن التشيع فيها كان فاشيا والرفض ماشيا فجف حتى خف». ويقول عن بلدة أصفون أنها كانت معروفة بالتشيع البشع لكنه خف

بها وقل». وكان لتدابير المهاليك دورها في هذه التصفية وقد لجأوا إلى استعمال العنف فيها أحيانا لكبت التشيع حتى إن الناس في ذلك العصر إذا أرادوا الكيد لأحد دسوا عليه من يرميه بالتشيع فتصادر أملاكه وتنهال عليه العقوبات والإهانات حتى يظهر التوبة من الرفض<sup>(١)</sup> وقد ظهر أثر ذلك في الشعر والأدب أيضا.

وفي الوقت نفسه حارب المهاليك التشيع بشكل غير مباشر منذ أمر السلطان الظاهر بيبرس (سنة ٦٦٥/١٢٦٧)، بعد إقامة الخلافة العباسية في القاهرة، باتباع المذاهب السنية الأربعة وتحريم ما عداها. وأمر بالأيوبي قاض ولا تقبل شهادة شاهد ولا يرشح لوظيفة الخطابة أو الإمامة أو التدريس إلا من كان مقلدا لأحد هذه المذاهب<sup>(٢)</sup>.

وحارب المهاليك التشيع بطريقة ثالثة - كان قد نظمها وأبرز أهدافها بوضوح نظام الملك الوزير السلجوقي (قتل سنة ٤٨٥) - وهي المدارس السنية فمنذ القرن الرابع ظهرت المدارس المنفصلة عن الجوامع في نيسابور وغيرها لكن نظام الملك وزير السلاجقة حولها إلى مدارس لتلقين الإسلام على المذهب السني بإقامته للمدرسة النظامية في بغداد. ومنذ أوائل القرن السادس انتشرت هذه المدارس بسرعة في المشرق كله وتكاثرت في القدس والقاهرة ودمشق وحلب وبغداد وفي مدن المغرب ومدن خراسان وصارت تقذف بخريجيها دعاء مسلحين بالعلم للوقوف في وجه المذهب الشيعي الذي كانت له بدوره مدارس وتنظيماته وقد سبق بها أهل السنة في الجامع الأزهر وجوامع عكا والرملة وغيرها.

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٦.

(٢) المقرئزي - خطط ج ٢ ص ٣٤٤.

وقد اتبع صلاح الدين الطريق نفسه فكان معظم رجال عصره من خريجي هذه المدارس ومن مشايخها ثم تابعه من بعده المهاليك فكان الجامع والمدرسة مؤسستين متكاملتين واحدة للعبادة ثم التعلم والأخرى لتعلم الدين على المذهب السني ثم العبادة .

وكذلك كان الأمر في العراق . فالحكيم المغولي الابلخاني لم يهتم كثيرا بالسنة والشيعة قدر اهتمامه بالحكم والأمن وتنفيذ الياسا . وحين أسلم من أسلم منهم على المذهب السني لم يحملوا الحقد على الشيعة ولا كافحوا نشاطها وهكذا كانت إيران خاصة منطقة مفتوحة لجميع الأفكار الدينية التي برز فيها بعد ظهور الصفويين المذهب الشيعي بعد أن كان قد تجذر في مدن قم وسجستان وترمذ وشيراز والأهواز وسواحل فارس وبالإضافة إلى تكاثر الشيعة في العتبات المقدسة (كربلاء والنجف) وفي البصرة وفي بلاد الديلم في الجبال وفي الملتان (التشييع الفاطمي) من السند .

وإذا لم يكن من ضرورة في المغرب لمحاربة التشيع بسبب قلة أنصاره وطرده من عرف بتشيعة من الأندلس وتمسك الدول المختلفة في المغرب بالسنة شعبا وحكومة فإن التدابير المملوكية في الشام يبدو أنها كانت أخف قسوة منها في مصر وأقل جدوى . وربما كان للتضاريس الجغرافية دورها . ففي حين زالت الجيوب الشيعية من المدن أي من أريحا وعبان ونابلس ، ومن حلب التي ضاع فيها واحد من أعظم المؤرخين هو ابن أبي طي بضياع مؤلفاته ذات التوجه الشيعي ، نجد أن المذاهب الخاصة كلها تتجه إلى الجبال وتحتمي بها فالدرزية في جنوب لبنان وحول حلب النصيرية في جبل السماق ، والإسماعيلية في جانب منه وفي جبل لبنان . ونزل في البقاع (حول بعلبك) المتاورة وفي جبل عامل الأمامية . وفي الجبل نفسه الموازنة . . . في حين زال التشيع من المدن الساحلية كعكا وصور وطرابلس .



## ٤ - العلماء

هم ممثلو الحياة الدينية ومحركوها . ولا نقصد بالعلم هنا أوسع من المعنى الذي اصطلح عليه في الحياة الإسلامية وهو التفقه في الشريعة الإسلامية وفي ما ينبغي له من العلوم وندع جانباً ما كانوا يسمونه بعلوم الأوائل وأصحابها .

ويأتي الصحابة في طليعة القائمة من هؤلاء العلماء . لقد انحازوا بعد الفتح كل إلى مدينة فجماعة في الكوفة وأخرى في البصرة وثالثة في دمشق أو فلسطين أو مصر أو أفريقية . وقد أعطتهم هذه المدن كل التكريم وادخلتهم في مفاخرها وتبارت في تعدادهم وذكر «فضل» البلد بسبب وجودهم فيه . ولما هلك هذا الجيل الذي بلغ عدده / صحابياً - على اختلاف ذلك العدد - ظهر بعده جيل التابعين ثم تابعي التابعين . ولم يكن هؤلاء طبقة مميزة ولكن الناس جعلوهم كذلك وعنهم أخذ العرب الفاتحون الأولون وأهل البلاد الأخرى القرآن الكريم وبعض تفسيره والسنة المشرفة وتفاصيلها والمبادئ الأولى في الفقه والشريعة . وصاغوا بذلك علوم الدين الأولى في الأمصار المختلفة . وإليهم كان المرجع في السؤال عن حدود الشرع ، وإن اختلفت آراؤهم في بعض هذه الحدود .

هؤلاء الذين ملأوا المدن في القرن الهجري الأول تلاهم في القرن الثاني جيل الفقهاء الذين تعمقوا في الدين نتيجة تعقد الحياة وضرورتها وتمدينها المتزايد وظهر حتى النصف الأول من القرن الثالث «كتلة الفقهاء الأساسيين الذي جمعوا العلوم بالقرآن والحديث واستنبطوا منها فقه الشريعة» فكانهم هم الذين صاغوا الشكل الأساسي للفقه الإسلامي . ونشروه في الناس . فعبده الله بن أبانص (وهو من السابقين) وأبو حنيفة والإمام جعفر الصادق ومالك بن أنس ، والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي

وأحمد بن حنبل وداود الظاهري هم نجوم العلم بالدين في تلك الفترة وهم أصحاب المذاهب المعروفة . وهم الذين كتبوا أول من كتب أمور الفقه في حين قامت مجموعة أخرى من بعدهم سجلت الحديث النبوي ومنهم أصحاب الكتب الستة : الصحيحان للبخاري ومسلم والسنن لأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

غير أن الأمور لم تجر بهذه البساطة التي نذكر فقد وجد في مختلف المدن أصحاب أهواء كما وجدت بين هؤلاء آراء شتى . فتفرقت المدن في أهوائها وآرائها . وإذا كان لأحد لا يجرؤ على تحريف القرآن الكريم فقد وجدت دوافع شتى لوضع الحديث أو تحريفه ونجم عن ذلك تباين يكثر أو يقل في الآراء الفقهية وهي التي تعتمد الحديث كمصدر أساسي ثان لها . وتراكت كمية واسعة من الأحاديث النبوية حار الفقهاء في قبولها أو رفضها ووضعوا لتفقيتها علوم الحديث . وتدخلت الأهواء السياسية خاصة وشذور من الأديان السابقة وأطراف من الفلسفة وضواغط من الحاجات المستجدة ليتشكل في الإسلام عدد من المذاهب والنحل . وكان هؤلاء العلماء وراءها وأقطابها الرئيسية هي : السنة والتشيع ويمكن أن نضيف الخارجية وانتحت كل نحلة موضعا من العالم الإسلامي الواسع تدعوفه لأفكارها .

لم يشكل العلماء في العهد الأموي طبقة دينية . فلا كهنوت في الإسلام . ولكنهم كانوا محترمي العلم والرأي فحسب لأسباب دينية محضة . وقد زاد احترامهم في العهد العباسي الأول حتى كان الرشيد يصب الماء على أيدي بعض العلماء ، وحتى كان يبقى واقفا في مكة يستمع الحديث من مالك بن أنس . ولكن العلماء صاغوا لأنفسهم مكانتهم الخاصة في هذا العهد من احترام الخلفاء والحكام والناس لصفتهم العلمية ومن معرفتهم بدقائق الدين وتخريجها . مما لا يعلمه الآخرون . ومن جهل الجمهور بالدين وقلة المعرفة بأسرار اللغة العربية وحاجته إلى الهداة . وهكذا صار العلماء في العصر

العباسي شبه طبقة مميزة تحتكر إلى حد كبير شؤون الدين فقها وقضاء وفتوى ومعرفة . وبرز منصب القضاء وهو خطة دينية على البزخ بين الدين وبين الوظيفة الرسمية ليزيد من نفوذ الحياة الدينية ويدعم موقف الدولة .

ولما كانت الأهواء السياسية والتنافسات بين العلماء تلبس الثوب الديني منذ القرن الأول إذ لم يكن لها من سند غيره فقد استمرت تلبسه طويلا وتغطي به على النزاعات المريرة التي كانت تقوم بسبب المصالح تارة والتنافس أخرى بين جماعات الملل والنحل في مختلف المدن . وقد تبلور ذلك في بغداد خاصة حيث كانت المنازعات الشيعية - السنية أو السنية - السنية (بين الحنابلة والشوافع) تصل حد احراق الأحياء والثورات المحلية والقتل والتخريب . وعانى جميع الأطراف من هذه النكبات التي كانت تضرب المدينة بين فترة وأخرى . وكان موقف الدولة بالطبع بجانب أنصار مذهبها ، في حين كانت تسمي المعارضين بأصحاب البدع . وقد تراوحت هذه البدع بين الخلاف على أمور ثانوية في الدين كالاباضية والشيعة ، وبين الخلاف على الدين كله وابتدع أمور فيه أو إحياء أفكار من الأديان القديمة (كالبابكية والخرمية والبرغواطية) وقد روى العلماء لهذه الحرب «قانونا» ونعني حديثا نبويا يقول : (كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار) .

وإذا كانت السنة قد نشأت في العهد الأموي وبكل مكان تحت شعار أهل السنة والجماعة ودعمها العباسيون من بعد بكل قوتهم خوفا من وثوب أبناء عمهم العلويين ، فإن التشيع عربي نشأ في الواقع في الأوساط العربية ، في الكوفة ، واعتصم بالمدينة المنورة فترة طويلة قبل أن يتفرق زعماءه إلى المشرق في طبرستان ومع الأدارسة إلى المغرب ، ومع الزيدية إلى اليمن ، وتبنى المذهب بعض علماء إيران ودافعوا عنه ولكن على ضعف . وإنما انتشر وقوى في سواد العراق والبحرين وفي الشام مع القرامطة فلما سحقوا فر

زعماؤه الأساسيون إلى أفريقية حيث قامت الدولة الفاطمية . في حين كان البويهيون في المشرق قد استولوا على الحكم في بغداد ويدعمون المذهب ويقربون علماءه رغم سنية الخليفة ويحيون العتبات المقدسة في الكوفة والنجف وكربلاء قدسياتها المنسية .

وقد احتفظت الدولة الفاطمية باحترامها الكلي للعلماء، ولكن من رجال مذهبها . وفرضت العمل به رسميا على الناس . فالبدعة لديهم هي السنة التي يمثلها العباسيون . وزادت في التكريم بسبب القضاة الذين تحتاجهم على المذهب الفاطمي والدعاة الذين تتوسع بواسطة دعوتهم بين مختلف الأقطار . فقد كانوا أدوات العمل بالنسبة إليها تلقنهم مبادئها تلقينا ليكونوا الستة المستعدة . على أن المذهب الإسماعيلي الفاطمي بعكس الامامية لم يكن يألف العمل العلني في المدن، فكان دوما على السر والكتمان والتعليمية . وفي المرة الوحيدة التي ظهر فيها ببغداد على يد البويهيين منذ سنة ٣٣٤ وحتى أيام البساسيري في منتصف القرن الخامس لم يستطع التشيع ان يثبت رغم طول المدة ببغداد وتراجع . وإذا كان الحمدانيون قد دعوا التشيع في حلب فإن الفاطميين لم يفلحوا كثيرا في المدن الداخلية وظلوا ينشرون دعوتهم على الأطراف : يثبتونها في حلب وفي اليمن وفي شرقي أفريقيا والهند .

وأما المذاهب التي تفرعت عن الفاطمية فلم تألف المدن وبقيت تعتصم بالجبال كالدرزية في جنوب لبنان وفي الريف حول حلب والإسماعيلية في الموت من ايران والقدموس ومصيات في الشام .

وظل خوارج أفريقية على علمائهم ولكنهم حوصروا بالقوى الأغلبية العباسية ثم القوى الفاطمية وبالقوى الأموية الأندلسية فكان العلم الخارجي شبه مغلق، وقائما في الجبال المتاخمة للصحراء الكبرى فلم يؤثر هؤلاء العلماء

إلا في اطار مجموعتهم ، ومثله كان الأمر مع خوارج عُمان في الجزيرة العربية .  
أما الأندلس التي كانت تتبارى مع بغداد في كل شيء فقد كان العلماء  
بجانب عملهم في الفقه والحديث قضاة وسفراء ووزراء مما يكشف مكانتهم  
الهامة لدى أهل الحكم ولدى المجتمع الأندلسي .

وقد استمر الأمر على ذلك حتى أواخر القرن الخامس حين تنبه  
العباسيون والسلاجقة معا إلى شأن الدعاية في خصامهم السياسي الديني مع  
الشيعة بعد أن صارت لهم دولة باذخة في وسط العالم الإسلامي هي الخلافة  
الفاطمية ، فاستخدم نظام الملك (وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقي)  
المدارس لتخريج دفعات بعد دفعات من مشايخ السنة للدفاع عنها . ونجم  
عن هذا التطور على الجانبين الشيعي والسني أن تكرر مع الأيام قيام علماء  
دين متخصصين في الدعوة لمذاهبهم ولكن :

إذا كان المبدعون الواصفون لأسس الفكر الديني الإسلامي قد ظهوروا  
في المرحلة الأولى حتى أواخر القرن الثالث فإن من جاء بعدهم في المرحلة  
الثانية كان في جهرته من الشارحين لتلك الأسس والمحافظين عليها أمثال  
الماوردي والغزالي والخطيب البغدادي وابن ماکولا والزغشري والأشعري  
والماتريدي وابن حزم وابن عبد البر . . .

وفي هذه المرحلة الثانية ظهرت كتب الرجال وكثرت . وبحث الناس  
في العلماء وسجلوا أسماءهم ومواليدهم ووفياتهم ومؤلفاتهم وآراءهم وما قيل  
فيهم . وما زالت هذه المؤلفات تتوسع فيما بعد حتى أصبحت موسوعات  
سجلت تاريخ العلم والعلماء في الإسلام بأدق الصور وأكملها وما من أمة في  
العالم سجلت تاريخها الفكري بمثل ما سجله المسلمون في كتب التاريخ  
والرجال والوفيات وبخاصة في العهد المملوكي التالي .

وفي هذه المرحلة الثانية أيضا نسج العلماء وحدة العالم الإسلامي التي استمرت تتمكن وتتوثق عدة قرون بعد ذلك . فإن توخي الصحيح في الحديث والسنة والزام العلماء أنفسهم بأخذها من أفواه عارفها بذاتهم دون الكتب أوجد في العالم الإسلامي حركة غير عادية توازي الحركة التجارية من سفر طالب العلم والعلماء على السواء من قطر إلى قطر لتصيد الرواة والسماع منهم . وإذا كانت بغداد دوما هي المحجة للجميع في هذه الفترة فإن جميع المدن الإسلامية كانت تتلقى وتصدر هؤلاء الباحثين عن صحيح الحديث في القاهرة أو القيروان أو أقصى الأندلس . وصار العالم الإسلامي كله في وضع من الغليان العلمي والحركة الدائبة . وكان بعضهم يعد في شيوخه ثلاثة آلاف شيخ وبعض يقضي في الترحال ثمانية وعشرين سنة (كابن النجار) وبعض يبحث عن رواية حديث في أقصى الأرض . ولم ينقطع هذا السيل من التحركات أبدا وإن تقلص وقصرت مسافته بعد سقوط بغداد وتمركز العلم والعلماء في القاهرة .

أما المرحلة الثالثة الأيوبية المملوكية أي منذ القرن السادس وما بعده حتى العاشر فقد ساد التقليد وزاده قوة خوف المسلمين من الأخطار التي أحاققت بالاسلام من الغرب (الصليبي) ومن الشرق (المغولي) . وفي هذه المرحلة برز العلماء على السطح كطبقة دينية واضحة وزادهم قوة أن الحكام الذين كانوا في وسط العالم الإسلامي كانوا من المماليك الذين لا شرعية لهم ولا أصول ولا مأيؤهلهم لحكم المسلمين سوى أنهم محاربون ، فكانوا بحاجة إلى أن يجروا على أنفسهم الرداء الديني . لاسيما وأنهم حديثو عهد بالاسلام . فلم يكتفوا بنقل الخلافة العباسية إلى القاهرة ليقفوا خلفها ، ولكنهم أكرموا العلماء كل الإكرام للدرجة التي جعلوهم فيها طبقة كهنوتية مميزة عرفت باسم «أهل العمامة» أو المعتمدين وجعلوا منهم أرباب الوظائف الدينية من القضاة والمفتين إلى المؤذنين وخطباء الجوامع ، وزادوا فمنحوهم من الألقاب

الكثيرة والمال الجزيل ما جعلهم في معظم الحالات ادوات طيعة في يد الحكام . على أن طبقة «أهل العمامة» لم تكن مغلقة كطبقة المماليك . وكانت مفتوحة لكل فقيه ينه . ومتى سلك الطريق تميز بعمامة من نوع معين ورداء خاص يحدد مركزه الديني والاجتماعي معا .

وبالرغم مما تعرض له المعممون أحيانا في العهد المملوكي من الامتهان نتيجة حقد طبقة أرباب السيوف على امتيازاتهم فقد حظوا بصورة عامة بالكثير من الإحترام والاجلال بدءا بالسلطين والامراء وانتهاء العامة بحكم ما للدين الذي يحملونه من مكانه في النفوس . وقد ذكر العيني الأسباب التي دعت إلى استحقاق الملك المؤيد للسلطة فقال : أولها الفضل والكرم والاحسان إلى أهل العلم<sup>(١)</sup> وحكى ابن بطوطة انه سمع بمصر أن السلطان الناصر محمد قال لجلسائه «اني لا اخاف احدا الا شمس الدين الحريري قاضي قضاة الحنفية»<sup>(٢)</sup> .

وروي أن السلطان شعبان التمس مرة من القاضي أبي البقاء السبكي أبطال وقف . فرفض القاضي طلب السلطان بغلظة وقال : إسمع يامولانا السلطان إن كنت ما تعرفني فأنا أعرفك بنفسي ثم خرج من حضرته بغير سلام<sup>(٣)</sup> . وذكروا أيضا أن السلطان الظاهر بيبرس زار الإسكندرية سنة ١٢٦٣/٦٦١ ورغب في زيارة الشيخ محمد بن منصور القباري ولكن الشيخ لم يسمح للسلطان بالطلوع إليه «ولم يكلمه إلا وهو في البستان والشيخ في علية»<sup>(٤)</sup> .

(١) العيني : السيف المهندي ص ١٩٧ .

(٢) ابن بطوطة / الرحلة ٢ ص ٨٨ .

(٣) ابن حجر / رفع الإصر ص ٢٣٢ .

(٤) المقرئزي / السلوك ج ١ ص ٤٩٩ (حوادث ٦٦١) .

وقد بلغ من نفوذ العلماء أنهم كانوا يقفون أحيانا في وجه السلاطين معارضين مثيرين للناس وأسماء العز بن عبد السلام وابن دقيق المعيد وابن تيمية إنما برزت واشتهرت لهذا السبب. على أن جمهرة العلماء المعممين كانت في نوع من الحلف القوي مع السلاطين والأمراء هم يجلبونها ليحتموا بها وهي تستغل هذا الإجلال تارة في التشفع والوساطة لبعض الناس وتارة في المصالح الخاصة والسيطرة على الأوقاف وجر المنافع. وقد عرف الناس مكانة العلماء لدى السلاطين من رؤية بعضهم وهو ينزل من سرير الملك ليقبل أقدام الشيخ، ورؤية الآخر وهو يقوم واقفا لإستقبال آخر، فبالغوا بدورهم في إحترامهم كما بالغوا أيضا في استغلال مكانتهم لقضاء مآربهم. ومن ذلك أن الشيخ أحمد الذرعي دخل على السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر يطلب أبطال عدد من المظالم والرسوم والمكوس فأجابه إلى كل ما طلب<sup>(١)</sup>. وليست بالقليلة تلك المرات التي كان يدخل فيها الشيوخ إلى السلاطين في التماس وظيفة أو شيخة أو عقار أو اقطاع فيخرجون ظافرين بما يريدون.

هذه الطبقة من العلماء كانت المسيطرة على الحياة الدينية في كل مدينة وكثيرا ما كان بيدها الحل والعقد.

(١) ابن قاضي شعبة : تاريخ أهل الإسلام ج ٢ ص ٦٤.



## الفصل العاشر

### الحياة الدينية - ٢ التصوف والذمة والحياة العامة

#### ١ - التصوف

كلمة «صوفي» وتصوف نشأت أول مرة في مدينة الكوفة وفي الأوساط الشعبية بالذات في القرن الثاني للهجرة / ٨ م. وصف بها جابر بن حيان الكيميائي الزاهد المعروف وأبو هاشم الكوفي المتصوف وعبدك الصوفي (المتوفى ببغداد سنة ٢١٠ / ٨٢٥). وكانت الكلمة أول أمرها مقصورة على الكوفة، ثم لم يمض على ذلك خمسون عاما حتى أضحت تطلق على الصوفية كافة بالعراق (مقابل الملامتية وهم صوفية خراسان) ثم أخذ هذا الاسم يطلق بعد قرنين على أهل الزهد والانقطاع والباطن كافة<sup>(١)</sup>.

ونعرف في القرنين الأول والثاني ما يزيد على أربعين زاهدا عابدا يمكن أنهم يحملوا هذا اللقب (منذ أبي ذر وحذيفة حتى عبدك) وكانوا أول أمرهم متفرقين لا رابطة بينهم ولا فلسفة تجمعهم ثم تجمعوا في النهاية في فريقين أحدهما البصرة والآخر الكوفة. فأما البصريون فكانوا من بني تميم على

(١) ماسنيون/ الموسوعة الإسلامية (الترجمة العربية) ج ٥ ص ٢٦٦ وما بعدها وعننا أخذنا بعض المعلومات في هذا الفقرة. ولنلاحظ أن لفظ التصوف أطلق على بعض الشائرين في الإسكندرية آخر القرن الثاني سنة ١٩٩ / ٨١٤ ولعلمهم من أصحاب الربض.

السنة، ويجنحون إلى الإعتزال، أمثال الحسن البصري (ت سنة ١١٠) ومالك بن دينار وفضل الرقاشي وعبدالواحد بن زيد (المتوفى سنة ٧٩٣/١٧٧) صاحب طائفة الزهاد في عبادان. وأما الكوفيون فكانوا يمانية مفطورين على النقد وعلى المذهب الشيعي ويميلون إلى الأرجاء وشيوخهم في التصوف ربيع بن خيثم (توفى سنة ٦٧/٦٨٦) وأبو إسرائيل الملائي (ت. سنة ٧٨٩/١٦٥) وجابر بن حيان وإبراهيم بن أدهم (ت. سنة ٧٨٩/١٦٥) في عزوة بحرية للروم) وكليب الصيداوي ومنصور بن عمار وأبو العتاهية وعبدك. وقد قضى الأخيران الشطر الثاني من حياتهما في بغداد التي غدت مركز الحركة الصوفية بعد سنة ٢٥٠ أي حين بلغت أوجها من المال والحركة النشيطة وبدأت تعقد فيها الحلقات للمناظرة في الدين وتلقى فيها أول الدروس الصوفية في المساجد.

وكان طبيعياً أن يستعر الخلاف على الفور بين الفقهاء والمحدثين من جهة وبين الصوفية من جهة أخرى وأن يستنصر السنة بالسلطة لمحاكمة أمثال ذي النون المصري؛ (سنة ٢٤٠) والنوري وأبي حمزة (ما بين سنتي ٢٦٢ - ٢٦٩/٨٧٥ - ٨٨٢). وما كان الصوفية الأولون يتوقعون الإصطدام لا بأولى الأمر من الجماعة الإسلامية ولا بالفقهاء وأهل الحديث والسنة فيها لأنهم جنحوا إلى العزلة، وآثروا الفقر، لتلاوة القرآن والتماس القربى من الله. ولكن تكاثر هؤلاء كان نوعاً من ثورة الضمير على ما يصيب الناس من المظالم سواء في المدن أو الريف مما شعر معه الحكام من جهة والفقهاء من جهة أخرى نوع من التهديد للنظام العام. وإذا كانت الخوارج أول الفرق التي أظهرت العداة للصوفية - كما ظهر في حالة الحسن البصري - فقد أنكرها أيضاً الشيعة الأمامية لأنها تستحدث بين المؤمنين ضرباً من الحياة الشاذة (لبس الصوف والاعتكاف في الزاوية ورفض الحياة الدنيا وعدم

اللجوء إلى الأمام) رابطاً أهل السنة في رفضهم ولم ينكرهم في أول الأمر إلا فريقان :

أ - الحشوية : فابن حنبل يرى أن التصوف يصرف الإنسان عن العبادة ويرى بعض تلاميذه كأبي زرعة أن التصوف ضرب من الزندقة .  
ب - المعتزلة والظاهرية : لأن التصوف بما يتصل به من العشق الإلهي النظري يقوم على التشبيه .

لكن عامة أهل السنة رأت في عباداتهم مالا ينكر وقبلت رسائلهم (التي ألفها مثال ابن أبي الدنيا (المتوفى سنة ٢٨١) . . وأبو طالب المكي المتوفى ٩٩٦/٣٨٦ في كتابه قوت القلوب، والإمام الغزالي المتوفى ١١١٢/٥٠٥ في كتابه أحياء علوم الدين . وأن صبوا غضبهم على القائلين بالحلول منهم كالحلاج، وعلى القائلين بوحدة الوجود أمثال السهروردي وابن عربي . لكن هذا الغضب ازداد متأخراً جداً على أيدي ابن الجوزي وابن تيمية وابن قيم الجوزية (وهم جميعاً من الحنابلة) .

على أن التصوف قد ازداد . وكثر المتصوفة عدداً في مدن العراق وإيران والشام ومصر بل وفي مدن الأندلس . وظهرت له دولة مع قيام المرابطين ثم الموحديين في المغرب . والسبب في ذلك هو ردة الفعل على مظالم الحياة العامة، ورفضهم لها . وإذا جرب بعض الفرق الجواب عليها بالشورة (كما فعل القرامطة وبعض الخوارج) فإن الصوفية ردوا عليها بالانسحاب من الحياة والاعتكاف والخلوة مع الله . وبعضهم انحاز إلى الجبال كما في جبل لبنان<sup>(١)</sup> . وبعض إلى بيت المقدس (كما فعلت رابعة العدوية) . وبعض إلى معتكفات أخرى صغيرة كبعض المآذن كما فعل بعض متصوفة المغرب زمن الموحديين حتى سميت المثذنة بالصوفية . وكما فعل الغزالي في جامع دمشق،

(١) انظر المقدسي ص ١٨٨ وص ١٨٩ .

وبعض إلى المدن المقدسة كمكة والمدينة، أو إلى الأربطة التي تكاثرت كل التكاثر على الحدود في بلاد الروم (كما في طرسوس) أو في أقصى تركستان أو أقصى المغرب ابتغاء الجهاد في سبيل الله. وبهذا الشكل ظهر التصوف بكل مكان من المدن الإسلامية وكأنه طريق آخر مقبول من طرق العبادة والدين، وإن كان رافضوه ينطلقون من مبدأ يجعلونه حديثاً من أحاديث رسول الله، وهو أن لا رهبانية في الإسلام! أما الإعتكاف في بعض المواسم كالعشر الأخير من رمضان فهو من التقى وليس من التصوف.

وقد لخص سمنون أحد المتصوفة مذهبهم في العبادة بأن «الصوفي لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء» فالزهد والفقر هما طريقاه ويقومان على التوكل على الله، والجهاد الحق هو جهاد النفس فالأمر إذن انسحاب سلبي من الحياة. وقد تساءل بعض المتصوفة عما إذا كان الغني الذي يعبد الله خيراً أم الفقير الذي يحتمل فقره؟ وقالوا أن اليد العليا (التي تعطي أي تتخلى عن الدنيا ومسراتها) خير من اليد السفلى (التي تأخذ الحياة الدنيا وزينتها) فالفقراء هم المفضلون. وإذا كان المعتكفون في الأربطة والزوايا يقضون فراغهم بقراءة القرآن، فبعض يقضيه في ذكر الله، وتكرار ذلك الذكر ومن هنا ظهرت منذ القرن الثالث مفارقة أخرى بين المتصوفة وأهل السنة تتعلق بأن للصلاة أوقاتاً معلومة محددة. والمتصوفة يضيفون إليها ما يجعلها سلبية ولا تتفق مع أوامر الله. في حين أن هؤلاء يرون في الذكر (أي ترداد ذكر الله) رياضة لا غنى عنها للنفس كي تنكسر. وقد يلجأون إلى عقوبة الذات لو شعروا بخفوت حماسهم عنها. ومن هنا جاء مبدأ حب الله في ذاته، وبرز عدد من المتصوفة في القرن الثالث: كالمحاسبي (أبي عبدالله بن أسد العنزى المتوفى سنة ٢٤٣/٨٥٧) في بغداد وذو النون المصري (ت/سنة ٢٤٥/٨٥٩) أبي التصوف في مصر، والجنيد تلميذ المحاسبي (ت/سنة ٢٩٨/٩١٠) في بغداد والشبلي تلميذه (ت. سنة ٣٣٤/٩٤٥) في خراسان

الذي تصوف وهو في الأربعين، وترك مناصبه. وقد أُرعبه مصير الحلاج حرقاً فتصنع الجنون. وأبي طالب المكي (ت. سنة ٣٨٦/٩٩٦) في مكة، والقشيري (ت. سنة ٤٦٥/١٠٧٤) الفقيه الأشعري في أصبهان.

وقد تزايد كره المحدثين والحنابلة بخاصة لهذه الجماعة لما تتصوره من أن المثل الأعلى لحياة المسلم هو في الإنسحاب من الدنيا، ولما تصطنعه من إسناد التصوف إلى الرسول والصحابة، ولما تزعمه من بقاء الوجود بفضل رجال الغيب المستورين (٣٠٠ من النقباء وأربعون من الأبدال وسبعة أمناء وأربعة عمد ثم القطب وهو الغوث) وكلما خلا مكان أحدهم حل مكانه آخر. ولما تقبل به من الرخص التي أستنها الصوفية الأولون من أمثال البسطامي والشلبي إلى الدراويش والمجازيب والمعتوهين الذين يتحررون من التبعات، وينشدون الشعر في مديح الخمر (الالهية) والساقى كما في اشعار ابن الفارض والتستري ورباعيات الخيام ومثنويات العطار والرومي وغزل حافظ السعدي وقصائد جامي... وهو باب صار ضرباً من الأيبن العربي والفراسي. هذا إلى أن كثيراً من المتصوفة رفضوا تقاليد العبادة المتعارفة بإعتبار أنها إنما وضعت للعامة، واتبعوا طريقهم الخاص في العبادة وهو طريق يتجاوز القرآن والسنن. وقد تسمى أهل التنسك والعبادة بالقراء في حين سموا المشتغلين بالعلوم والفتيا والشريعة بأهل الرسوم، بإعتبار أن المعرفة الحدسية المباشرة أعلى من العلم. ذلك كله قام الصراع بين الطرفين في كل مدينة ومكان، وكان يأخذ حدوده القاسية في بغداد فكان الفقهاء والمحدثون يصمون المتصوفة بالزندقة... (نتيجة كلمات المتصوفة)، وبالتشبه بالرهبان (نتيجة الملابس الصوفية) وأدخلوا الشك في عقيدة المتصوفة على أساس أن عبادة الله تكون بالقيام بما أمر به الله، والمتصوفة يريدون تجاوز ذلك والاتصال بين العبد الذي هو لا شيء والله الذي هو كل شيء. و طال الصراع طويلاً بين الجانين. ولما لم يكن في الإسلام من سلطة

عليها سوى القرآن والسنة فقد قبل أهل السنة والشيعة المتصوفة المعتدلين في إيران والعراق والشام ومصر والمغرب والأندلس، ورفضوا المبالغين. ولم يكونوا يتخرجون من نسبة إلهيار الدين والشرع إليهم، وتأخر القوة الإسلامية إلى طرائقهم في العبادة كأبي يزيد البسطامي (٢٦٠/٨٧٤) والحسين الحلاج (أحرق سنة ٣٠٩/٩٢٢) في بغداد. وقد همدت المبالغة في التصوف فترة طويلة بعدها حتى أعادها أمثال أبي حامد الغزالي الذي مات سنة ٥٠٥ في مطلع القرن السادس والسهرووردي الذي قتله ابن صلاح الدين في حلب بأمر من أبيه سنة ٥٨٧/١١٩١ وابن عربي الأندلسي، وابن مرسية الذي مات في دمشق سنة ٦٣٧/١٢٣٩، وعمر ابن الفارض المصري الشاعر (ت. سنة ٥٧٧/١١٨٤). لكن كلا من هؤلاء كانت له طريقته في فهم التصوف. فإذا كان الجميع يردون الوصول إلى «الحق» فإن بعضهم استخدم للوصول إليه كلمة التوكل، وذو النون المصري وابن كرام لفظ المعرفة. والبسطامي لفظ الفناء (وهو ضد البقاء). والترمذي لفظ «الولاية». وكان أكثر الفرق انتشارا هي الكرامية في خراسان وبغداد وفلسطين حتى القرن الرابع ثم اختلط التصوف بالفلسفة أكثر فأكثر فظهرت فيه مذاهب ثلاثة :

- الاتحادية التي انتشرت مع ابن مسرة في الأندلس ومع أخوان الصفا في العراق ومع الفارابي في الشام.
- الإشراقية التي عرفت مع السهروردي الحلبي والجلدكي، من خراسان، وصدر الدين الشيرازي.
- الوصولية التي حملها ابن سينا في المشرق وابن طفيل وابن سبعين في المغرب والأندلس.

وهكذا مر التصوف في أطوار تعاون عليها المتصوفة في المشرق والمغرب وكانت كلها رفضا لما عليه العلماء والفقهاء من أهل السنة والشيعة. ولما عليه

العامة . فالتصوف :

— كان يعني أولا الكمال الديني والتمسك بالشرع والزهد والفقر مقابل إقبال الناس على الدنيا وملاذها .

— ثم لما حدثت العلوم الدينية (من فقه وتفسير وحديث) وأقبل الناس عليها وقف المتصوفة يطلبون ما وراءها من صفاء القلب والروح .

— ولما أختلط الأمر بالفلسفة اليونانية والهندية أصبح الكمال الديني لدى المتصوفة هو في التماس الإيمان عن طريق المعرفة والمكاشفة والحلول .

— ولما شاعت أقوال الفلاسفة والمتكلمين تكلم الصوفية في الحق واليقين ووحدة الوجود . وفي أولياء الله رجال الغيب وفي كراماتهم .

وهذه الأفكار صارت تشكل تيارا هاما من تيارات الحياة الدينية في المدن الإسلامية لاسيما بعد القرن الثالث حتى إذا جاء القرن السادس ظهرت في التصوف وعلى أساس المرحلة الأخيرة خاصة من مراحلها اتجاهات جديدة في الفكر الصوفي انحرفت به إلى الطرق الصوفية ومشايخها . وكان لذلك أسبابه العديدة :

أ - فقد شهدت مدن العالم الإسلامي وأريافه على السواء هجمات مدمرة لم تقتلح الزروع والثروات فحسب ولكنها اقتلعت السكان من أماكنهم أحيانا كثيرة : فقد جاء السلاجقة أولا من الشرق فدمروا بعد المشرق آسيا الصغرى والشام ، وجاء الصليبيون من الغرب بعد أن أعلنوا الصليبيات في الأندلس وصقلية يحتلون ساحل الشام ومصبات تجارته ويرمون سكانه بين قتيل أو عبد أو طريد لاجيء .

وما أن انتهى القرن السادس حتى كان المغول يطرقون أبواب العالم الإسلامي من المشرق ثم يندفعون في سحبه نصف قرن أو أكثر . وفي الوقت نفسه لم يكن الحكام في المنطقة ، إذا استثنينا نور الدين وصلاح الدين ، من

النوع الذي يأبه لآلام الشعب إن لم يزيدوها بالمظالم المختلفة .

وكان الموحدون في أقصى المغرب على النهج نفسه في استنزاف ثروات الناس لحروبهم ولشروعاتهم الباذخة . وانهارت خلافة بغداد على يد المغول فهال ذلك الناس جميعا وظنوا إنها نهاية العالم لأنهم كانوا - بعد طول معايشة للحكم العباسي - يظنون أنه يمك نظام الكون كله . وانتهى المغول بالعراق وإيران يحكمونها بدين مختلف، وعادات مختلفة، في حين انفصل المهاليك في مصر والشام عن الشعب . وزادوا في ابتزازه والضغط عليه باعتبارهم القوة التي خلصته من المغول ثم من الصليبيين . هذا إلى كثرة الفتن واختلال الأمن وتكاثر النكبات من زلازل ومجاعات وأوبئة . . . ذلك كله كان من شأنه أن يدفع الناس للبحث عن مخرج . وكان المخرج «الديني» موجودا فلحقوا به .

وأما نتائج هذه الأزمات كلها فكانت :

أ - تحول الصوفية من الشكل الفردي إلى الشكل الجماعي . صارت طرقا جماعية بعد أن كانت فردية تجمع أفرادها لممارسة العبادات على طريقته .

ب - صارت طرقا لها نظمها ومراسمها في القبول وفي العلاقة مع الأشياخ والآداب الطرائقية . فثمة بيعة وأناشيد وتلقين وأذكار وأوراد . . ومظاهر خاصة، وتلاوات، وطاعات تبذل، ورتب ضمن الطريقة لا يمكن تجاوزها من الشيخ والمقدم إلى المرید والعريف .

ج - صارت لها موارد ثابتة مما أوقفه الواقفون عليها وعلى المنتسبين إليها .

د - صارت نوعا من المهنة «القدسسية» تعدل - أو تفضل - أي مهنة يصطنعها الناس .



هـ - حظيت بمكانة رفيعة في المجتمع وبتأثير جعلها تشكل أديانا من خلال الدين ودولا ضمن كل دولة .

و - لم تعد مقصورة على أفراد مثقفين ولكنها فتحت للعامّة وللمعتوهين والمجاذيب كما فتحت لكبار رجال الدولة والسلاطين .

ولنلاحظ أنهم تفرعوا عن المذهب السني فالسنة هي التي أفرزتهم واصطبغت بهم في القرون ما بين السادس إلى الحادي عشر والثاني عشر . ولا يجب أن يأخذنا العجب أن عرفنا أن ظهور الرجال الأساسيين في التصوف الجماعي وفي انحراف التصوف من الشكل الفلسفي إلى الشكليات الظاهرية ، ومن الممارسة الشخصية إلى الجماعية ، ومن الخاصة المثقفة إلى العامة إنما كان قبل أواسط القرن السادس لاسيما بعد اغلاق باب الاجتهاد وحاجة الناس إلى متنفس ديني يحتمل تطلعاتهم ويسوقها في اطار الدين . وأن هذا التيار تكاثر التكاثر الواسع وتنوعت طرائقه ، وهكذا يمكن أن نعد منذ ظهور الطرق الصوفية في القرن السادس إلى مطالع هذا القرن حوالي ٢٠٠ طريقة أساسية أو مستقلة ولكنها مرتبطة بالجذور الأساسية لبعض الطرق . منها خمسون على الأقل ما يزال لها وجود حتى اليوم أو حتى عهد قريب . على أنها جميعا كان لها في مكة والمدينة زوايا خاصة ولمعظمها زوايا أخرى في المدينة . وليس ذلك لأنها الحرمين الأقدسان فحسب ولكن لأنها المقصودان من أنحاء العالم الإسلامي . وحتى نهاية العهد العثماني كان للطرق جميعا بيوتها في استامبول .

ويقدر أن عدد المنتسبين للطرق في مطالع هذا القرن قد يصل إلى ٣٪<sup>(١)</sup> من المسلمين وقد تناقص الآن جدا ، ولكنه كان في العهد المملوكي العثماني يزيد على ثلاثين في المائة إن لم يكن أكثر من ذلك ، ولم تنشأ كل

Islamologie (F.M.Pareja) Imp. Beyrouth 1957-1963 P. 773.

(١)

الطرق معا ولكن نشأ بعضها من بعض وبعضها وراء بعض : ففي القرن السادس / ١٢ م ظهر من أمهات الطرق :

– القادرية (أو الجيلانية) التي أسسها عبدالقادر الجيلاني (توفي في بغداد سنة ١١٦٦/٥٦١) وقد نشرها تلاميذه في حياته . والحنابلة يقاومونها فهي لا تستلهم المبادئ الحنبلية أبدا . ولطريقته تقديرها الخاص الذي جعلها تنتشر في جميع العالم الإسلامي من المغرب إلى الصين ويكون لها فروع عديدة .

– الرفاعية التي أسسها أحمد الرفاعي (توفي في بغداد سنة ١١٨٣/٥٧٨) وهي منتشرة في آسيا الصغرى والشام ومصر وشعارها العمائم السوداء ولها فروع عديدة في أماكن عدة منها الهند . واتباعها يلتهمون النار ويمشون عليها ويستخرجون الأفاعي من أوكارها .

– الشاذلية (أو المدينية) اتباع أبو مدين من تلمسان (ت . سنة ١٠٩٧/٤٩١) ، والشاذلي من تونس (توفي سنة ١٢٥٦/٦٥٤) وهي تعرف باسم الأخير ولها فروع في طول المغرب وفي مصر وآسيا الصغرى والبلقان والنوبة وجزر القمر .

– السهرودية التي أسسها عبدالقادر السهرودي (ت . سنة ١١٦٧/٥٦٣) واتباعها يتوزعون بصورة خاصة في أفغانستان والهند .

ثم ظهرت في القرن السابع (الثالث عشر) القلندرية : وقد أسسها في إيران ساوجي المتوفي سنة ١٢١٨/٦١٥ ثم دخلت الشام والهند . ولكنها اضمحلت قبل أواخر العهد العثماني . وهي تقتضي مريدتها أن يعيشوا على الكدية والصدقات . يحجوا حفاة وأن لا يملكوا شيئا .

وثمة طريقة تشبهها في الأندلس . وقد انتشرت القلندرية في إيران وآسيا الصغرى والهند (ولا يزالون يسمون الشحاذ في الهند كلندر ولا

يرفضون له طلباً) وبعض القلندرية كان يخلق مع رأسه حواجبه وريف عينيه .

– الأحمدية (أو البدوية): انشأها في مصر أحمد البدوي (المدفون في طنطا سنة ١٢٧٥/١٢٧٦) وهي جد شائعة في مصر وشعارها اللون الأحمر ولها فروع عديدة. وهي شيء آخر غير الأحمدية التي ظهرت في الهند.

– المولوية: أسسها جلال الدين الرومي الشاعر الصوفي المشهور (المدفون في تركيا القرن ١٢/٦) وتتميز هذه الطريقة بالوصول إلى حالة الوجد عن طريق الدوران المحوري حول النفس مع الموسيقى. واتباعها يسمون دراويش. وقد انتشرت كل الانتشار في تركيا والشام ومصر والعراق. وكان سلاطين بني عثمان يحترمونها.

ثم ظهرت في القرن الثامن / الرابع عشر البكطاشية: أسسها رجل اسمه بكطاش غطت حياته الأساطير. وكانت طريقة شعبية وتنافس المولوية. وفيها تقاليد عديدة تجاوز الإسلام لهذا وجدت الانتشار في البلقان المسلم (البانيا). وفيها خليط من المذاهب السنية والشيعية والمسيحية ويجتمعون من على ثالث ثلاثة هم الله ومحمد وعلي. وفي احتفالاتهم يوزعون الخبز والخمر والجبن ويشترك بها النساء دون حجاب ويمكن اعتبارها بالنسبة للمسلم طريقة مزندقة.

وقد اشتهرت جداً في الدولة العثمانية لأنها تتوافق مع تشكيل الدولة وتنوع الجند فيها. وحين سحق محمود الثاني سنة ١٢٤٢/١٨٢٦. . الإنكشارية قطع رأس شيخ البكطاشية وكبار أعوانه معه. ولكنها مع كل هذا ازدهرت بعد ذلك. مركزها في تيرانا، لكن لها تكايا في أماكن عديدة منها تكية في مصر.

— النقشبندية التي أسسها بهاء الدين النقشبندي من بخارى (ت .  
سنة ٧٩١/١٣٨٩) وقد انتشرت في الصين وتركستان وقازان والبلاد العثمانية  
والهند وجزر ماليزيا وكان لها فروع في الشام ومصر وغيرها .

وظهرت في القرن التاسع (الخامس عشر) الستارية : وهي طريقة  
أسسها عبدالله الستاري (المتوفى سنة ٨٠٩/١٤٠٦) في ملوة بالهند ولها اتباع  
في افغانستان والهند والملايو .

وظهرت في القرن الثاني عشر / (١٨ م) التيجانية ومؤسسها هو أحمد  
بن مختار التيجاني (ت . سنة ١٢٩٦/١٧٨١) في عين مهدي في المغرب .  
وهو يزعم أن رسول الله تجلى له وأمره بترك كل الطرق ووعدته بمعونة الله في  
تأسيس طريقة جديدة له . ومريدوه يدعون بالأحباب . ومع أنها طريقة  
ترفض العمل بالسياسة فإنها لجأت إلى السلاح للمحافظة على بقائها وكان لها  
علاقاتها الطيبة مع الفرنسيين حين احتلوا الجزائر والمغرب<sup>(١)</sup> . وهي منتشرة  
في المستعمرات الفرنسية السابقة في أفريقيا .

وفي القرن الماضي ظهرت السنوسية : وهي أقل الطرق في قضايا  
التصوف أسسها محمد علي السنوسي في ليبيا وإن كان هو نفسه جزائري  
الأصل . وتوفي في جغيبوب سنة ١٢٧٦/١٨٥٩ وقد وطدها ابنه من بعده  
بعد أن قادها ٤٨ سنة وكان لها دورها في دفع الناس للعمل المثمر وفي مقاومة  
الاستعمار الإيطالي .

وظهرت المهديّة اتباع محمد المهدي في السودان في أواسط القرن  
الماضي .

(١) كانت زوج أحمد التيجاني فرنسية وهي مدفونة بجانبه ويحمل قبرها صليبا .

هذا الطرق مع عشرات التفرعات لها والتي تحمل أسماء الذين فرعوها (مثل عرودك والجباوي والعيسوية والإمبابية والدسوقية والرحمانية والشيبانية والزيبانية وغيرها) ملأت الحياة الدينية في المدن الإسلامية ما بين القرنين السابع للهجرة والثالث عشر وادخلت عليها مفهوم الغيب الطاغي بشكل رهيب . وتركت الناس تعيش فيما وراء الواقع أكثر مما تعيش فيه . وتؤمن بأمور غيبية صارت أشبه بأن تكون من صلب العقيدة حتى أن الذين لم يسلكوا في الطرق كان قسم كبير منهم يؤمن بها ويتفق مع معطياتها الغيبية والروحية .

على أن الأثر الديني لهذه الطرق اختلف من منطقة إلى أخرى تبعاً لمدى تقدم ثقافتها وللطبقات التي لحقت بها . فقد حققت في البلاد المتخلفة ثقافياً تأثيراً دينياً هائلاً كما جرى في المناطق المغربية وفي السودان الغربي والصحراوي والشرقي تجلى في ابقاء طرق القوافل مفتوحة ، وإيقاف قطع الطرق وإقامة زوايا في المواقع الإستراتيجية يجد فيها المسافر المعونة وفيها مدارس قرآنية . ورفع المستوى الحضاري للقبائل والمجموعات الزنجرية المسلمة . وهذا ما عزز سمعة الطرق فيها ودفع الجماعات للإقبال عليها لاسيما وهي تعطيمهم مع الإيمان المظمن الأمان وتشبع رغبتهم في الانتساب إلى جماعة «سرية» خاصة ترفعهم عن مستوى أمثالهم . وأهم من هذا كله أن هذه الطرق هي التي نشرت الإسلام في تلك المناطق وأعدت سكانها ليكونوا مطيعين كل الطاعة ، كارهين لأي تدخل أجنبي . ومن هنا كان قادة الثورات ضد الاستعمار كما كان المصلحون للدين من مريدي هذه الطرق .

وأما في المناطق المتقدمة الثقافة فقد نقص نفوذ الطرق بعض النقص . ولكن وجود بعض الحكام والأمراء ذوي الثقافة الضحلة كان يعززها . وكثير من سلاطين الممالك كانوا يعتبرون تأييدها من أعمال الدين سواء كان ذلك رياء منهم أو اقتناعاً . فالسلطان برقوق رتب للمدرسة التي انشأها بين

القصرين في القاهرة عددا من الصوفية ورتب لهم المرتبات الكبيرة<sup>(١)</sup>.  
 وخوند شكرباي زوجة السلطان خشقدم غلب عليها التصوف فاتبعت  
 الطريقة الأحمدية وخرجت مرات لزيارة ضريح البدوي في طنطا وحين ماتت  
 غطيت حسب وصيتها بخرق رقعة مما يلبسه الفقراء. بدلا من البشخانة على  
 عادة الخوندات. وجعل أمام نعشها اعلام وسناجق أحمدية<sup>(٢)</sup>. وكان الأمراء  
 على هذا العطف فحسام الدين لاجين كان «يحب الفقراء ويجمعهم على  
 سباطة»<sup>(٣)</sup>. والأمير طوقاي العمري (ت. سنة ٨٠٠) كان «نقيب  
 الفقراء»<sup>(٤)</sup>. أما إذا تعرض لرجال الطرق أحد بما يمسه فإن العامة هم  
 الذين يقومون إليه يريدون قتله<sup>(٥)</sup> لأنهم كانوا يصفون هؤلاء «الفقراء» إلى  
 الله بأنهم ملوك الآخرة الذين يدخلون الجنة قبل الأغنياء<sup>(٦)</sup>.

لكن استفحال أمر الطرق ورجاؤها بهذا الشكل أوجد لها بالمقابل  
 الكثير من الأعداء لابين شيوخ الفقه والحديث والعلم بحكم الزحام على  
 الجاه والثروة، ولكن بين بعض الحكام والسلاطين أيضا وبخاصة في القرون  
 الأخيرة. ولكن هؤلاء حين كانوا يقاومونها لم يكونوا يظفرون بسبب  
 تجذرها كعبادة دينية في الشعب. ويذكرون أن أحد سلاطين المرينيين من  
 القرن العاشر / ١٦م رأى نفسه مضطرا لإصدار أمر بنفي أحد المرابطين  
 «فوجد أن كل أهل مكناس قرروا نفي أنفسهم معه»<sup>(٧)</sup> وفي كل مرة كان  
 الوزراء العثمانيون يضطرون لأي اجراء جدي ضد بعض الطرق كانوا

(١) ابن تغري بردي / النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦٠٠.

(٢) ابن تغري بردي / المصدر نفسه ج ٧ ص ٨٠٩.

(٣) ابن حبيب / درة الأسلاك ج ١ ص ٣٣.

(٤) العيني : عقد الجمان حوادث سنة ٨٠٠ هـ.

(٥) ابن حجر / الدرر الكامنة ج ١ ص ٣٠٢ - ٣٠٣ في ترجمة أحمد بن محمد الحنبلي.

(٦) التويري الامام بالاعلام ج ٢ ص ٥١٧ الى ص ٥١٨.

(٧) بالفرنسية P. 772 Islamologie.

يصطدمون بمعارضة الشعب، رغم سوء الأعمال التي كانوا يعرفونها عنهم لأنهم يخشون أن يثيروا نقمة عدد من «أحباب الله».

وأفرزت هذه الحالة الدينية الشعبية طبقة ممن يسمون بالأولياء «وأهل الله» نفقت كل النفاق على الناس ونسبوا إليها الكرامات والمعجزات ونصبوا لها الأضرحة ونذروا لها وتوسلوا بها وانتشرت أضرحتها في المدن وفي أطرافها وفي الأرياف. والولي بالمعنى الديني هو المقرب من الله المملؤ ببركته (وهو يسمى بالفارسية بير، ويدعى في المغرب بالمرابط وسيدي وبمولاي. وفي جميع المغرب يستخدمون كلمة لالا للدلالة على النساء من هذه الجماعة.

وفكرة الأولياء يرجعها بعضهم إلى الرسول الأعظم وإلى الخلفاء الراشدين لكن المتكلمين ناقشوا مكان وجودهم كأصحاب كرامات وكأحباب مميزين عند الله واختلفوا في ذلك. ولكن التصور الشعبي حسم الأمر بالإجماع المخالف للإسلام والذي يجعل الولي ممكن الوجود. بل جعله الوساطة بين الله وعبده باعتباره الطريق المختصر إلى الله والوساطة إليه ودعمت ذلك سمعة بعض الأولياء وما نسب إليهم من الكرامات. وجاءت الطرق الصوفية لتزيد في هذا الاعتقاد وفي أنهم منفتحون على عالم الغيب ويعرفون الآتي وتتصل بركاتهم بما يستخدمون من أدوات أو يقولون من أقوال. وبهذا الشكل انتشرت في معظم البلاد الإسلامية مجموعة واسعة العدد جدا من الأولياء لم تكن موجودة قبل القرن الخامس، أو كانت قليلة جدا. ولكننا نجد أبنيتها تتكاثر بكل مكان في الأرياف والمدن وعلى الشواطئ منذ القرن السادس / ١٢م وتشمل جماعة متباينة من الأضرحة بعضها من بقايا العقائد الأولى من التاريخيين والأستوريين وبعض من مجاهدي الحروب الصليبية، وبعض ممن اشتهروا بالتقوى، وبعض من آل البيت. وكلهم يدرجون في قائمة الأولياء بما في ذلك عدد من النساء الوليات

وخاصة من آل البيت ويمتد نفوذهم الروحي على مقدار سمعتهم . وقد تختص الأسطورة بعضهم ببعض الأعمال كالحمل أو الخلاص من الأسر أو الشفاء من المرض ، أو فك الأزمات ؛ ففي دمشق ثمة ولي متخصص ببراء الظهر . وفي القاهرة آخر مختص بضمان الحمل . وفي الصحراء الكبرى يفرون إلى مولاي بوزيان (ت سنة ١١٤٥/١٧٣٣) صاحب الطريقة الزيانية إذ أنه بينما كان يصلي عدا بعض اللصوص على قطع أغنام وكله من نذور الناس له فظهر الخضر بشكل أبي زيان وهاجم اللصوص فوقعوا موتق وشهد ذلك الرعاة فعادوا ليجدوه يدرس تلاميذه بعد الصلاة . وصار أبو زيان منذ ذلك الوقت حامي القوافل ويكفي نداؤه بقلب طاهر كي يحضر ويعاقب المعتدين .

والأولياء على أي حال نوعان : المعروفون وهم الظاهرون للناس وهم كثير نرى بعضهم في كتاب الزيارات للهروي وفي سفرنامه لناصري خسرو . وهناك رجال الغيب الذين لا يعرفهم أحد ولكنهم أقطاب الوقت وهم سبع درجات من ملامح الإحترام في وجوههم . وكلما خلا واحد منهم (أي مات) حل محله آخر لثلاثا تفقد الدنيا توازنها . ففي الدرجة الأولى يأتي الغوث الأعظم ثم يأتي القطب ثم النقباء ثم يأتي بعد ذلك الأوتاد الأربعة الذين يسكون بجهات الأرض الأربع اعتبارا من المركز في مكة . ثم يأتي دور الأبرار الذين هم دوما على سفر في أنحاء الدنيا السبع . ويأتي في النهاية الأربعمون بدلا ، الذين من أجلهم يرضي الله عن العالم ويأتي الثلاثمائة الأخيار المختارون . . وإنما تنظم هذا النظام في العهد المملوكي موازيا للنظام الذي كان عليه الماليك في الحكم . فلهؤلاء مملكة الدنيا وللأولين مملكة الغيب والأخرة . وتبدو قبور هؤلاء الأولياء للعامّة كأنها مسامير العقيدة الدينية ولذلك كثرت جدا في المدن الكبرى بغداد/ القاهرة/ دمشق/ القدس . نجد بين ما نجد في بغداد قبر الحلاج والجيلاني والرفاعي ، وفي



حلب قبر السهرودي وفي استامبول قبر أبي أيوب الأنصاري وفي دمشق قبر ابن عربي والأربعين والسروجي والسيدة نفيسة، وفي الموصل قبر النبي يونس وفي طنطا بمصر قبر البدوي وفي القاهرة قبور السيدة زينب ومقام الحسين، وفي الاسكندرية المرسي أبو العباس، والقباري، وفي القيروان سيدي عقبة. وفي مراكش قبور السبعة الحماة ومن بينهم سيدي سليمان الغزولي، وفي الهند قبر أجمر والخواجه معين الدين الجشتي وفي بخارى قبر جامي الشاعر وهكذا فلكل مدينة حاميتها من الأولياء. وبين الأولياء أيضا يعدون الخضر وله مقامات كثيرة (منها واحد في الجامع الأموي بدمشق) وقد نسجت حوله مئات الأساطير ويعتقدون أنه يسكن القدس ويصلي كل جمعة في خمسة جوامع بدءا بمكة والمدينة . . .

ولهؤلاء الأولياء أعياد سنوية، ومواسم تعرفها المناطق المحلية وتقبل عليها من كل مكان وقد تنشأ حول اضرحتهم قرى ومراكز سكنية مع الأيام وهذا يظهر بخاصة في المغرب، حول اضرحة المرابطين الذين تحظى أسرهم بعدهم أيضا بنوع من الإحترام يصل درجة التقديس وتجعل منهم «نبلاء» يحظون بامتيازات خاصة.

على أن هذه الطرق لم تحافظ لا على نظمها الصارمة، ولا على الزهد في الدنيا ومثالياتها، ولا على المظاهر الاجتماعية الأخرى. وما لبثت أن تدهورت منذ القرن الثامن / ١٤م وتسللت إليها جماعات من المرتزقة والأدعياء المعتوهين صارت مع الأيام هي المسيطرة عليها. ونشأت ضمنها طبقة من الدراويش أو المجاذيب عرفوا بتصرفاتهم الغريبة. ويعزوها الناس إلى انجذابهم نحو الله وإلى «الحال» الذي يأخذهم. فهم في الدنيا وليسوا فيها. والواقع أنهم هبطوا بالحياة الدينية إلى مستويات بررت لدى العلماء والسلطات كرههم وحب الخلاء منهم. ومن ذلك أن جماعة من القلندرية في مصر كانوا يتجولون في الأسواق أشبه بالمجانين «وطرحوا التقيد بآداب

المجالسات والمخاطبات وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ولم يبالوا بتناول شيء من اللذات المباحة واقتصروا على رعاية الرخصة . . ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى واقتصروا على ذلك<sup>(١)</sup>. وكانت لهم زاوية في القاهرة ذكرها المقرئزي ولهم أخرى في دمياط شهدها ابن بطوطة.

وأفعال المجاذيب البهاليل كثيرة كانت تشهدا وتقبلها كأمر عادي معظم المدن الإسلامية فبعضهم يدور وعشرات المسايح في عنقه والجراب في وسطه، وبعض يجلس نفسه في قفص ويتحرك على رأس حمال، وبعض يركب خشبة أو قطعة جريد يصور لها ما يشبه الوجه ويمسك بيده ما يشبه السوط ويجعل لها سيرا وينطلق في الشوارع كأنه على دابة<sup>(٢)</sup>، ومنهم من اتخذ في أيديه سوارين من الحديد أو حمل طوقا حديديا في عنقه ووضع حلقا في أذنيه والاعلام على رأسه، ومنهم من كان ينام له اتباعه على الأرض ليمشي بفرسه عليهم . أو يقيم الاحتفالات لأكل النار أو للمشي عليها حفاة ولضرب الشيش (السيخ الحديدي) في خدودهم أو جلد بطونهم . . دون أن تراق منها نقطة دم . . . ولذلك فإن كبار العلماء كانوا يقفون أحيانا منهم بين بين . كما فعل ابن خلدون الذي وصفهم بأنهم قوم بهاليل معتوهون أشبه بالمجانين العقلاء وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين . . .<sup>(٣)</sup>. لكنها على أي حال كانت «الولاية» المزيفة فقد أصبحت لاسيما في العصور المتأخرة «طريقة» حياة بدل أن تكون طريقة عبادة وانغمس الكثيرون من أهل الطرق الصوفية في شرب الخمر، وحب

(١) المقرئزي / خطط ٢ ص ٤٣٢ - ٤٣٣ (ط - بولاق).

(٢) انظر السخاوي / الذيل على رفع الأصر ص ٣٧.

(٣) ابن خلدون / المقدمة / ص ١٢٤ - ١٢٥.

المرد والشذوذ، وفي المخدرات وادعوا من الكرامات والمعجزات مالا يقوم به بشر: مثل قولهم لطبق من النحاس: كن ذهباً فيكون. وكذلك المشي على الماء والكشف عن حال الموتى وسماع كلامهم بل أحيائهم والكلام عن المستقبل والماضي...<sup>(١)</sup> وحكى الشعراني عن كرامات بعض معاصريه من الأولياء ذكر أن شيخاً يأتي بالحلفاء من الصحراء فتخرج قلقاساً. وهذه امرأة تشتهي جوز الهند فلا تجده فتذهب إلى شيخها الذي ينبت لها في الحضرة شجرة تأخذ منها ما تشتهي. وهذا رجل يحتاج بعض المال فيدله الشيخ على ساقية يغترف منها ما شاء من الذهب. ومن الأولياء من يجعل التراب والرصاص ذهباً ومن يسخر التماسيح في عبور النيل ومن يمجج من الحجاج إلى مكة وهو قائم في مكانه. ومن يطير في الهواء بغير جناح ومن يأمر عصاه فتكون إنساناً<sup>(٢)</sup>. وتنتشر أخبار ذلك كله بين العامة ويتكون حول الولي بهذا الشكل مجموعة من الأساطير تحدد مكانته بين الناس.

ويزداد الولي احتراماً إذا كان مجذوباً وعند ذلك يبلغ اعتقاد المعاصرين فيه أقصاه ويقصدونه أفواجا ما بين عالم وأمير وقاض ورئيس<sup>(٣)</sup> وإن هجر وهو العالم الجليل كان يعتقد أنه مازال بفضل بركة أحد المجاذيب<sup>(٤)</sup> وهم يتقاتلون على شعرة منه إذا حلق وعلى بعض مائة إذا توضع ذخيرة لهم. وإذا ازدحم المرضى طلباً للشفاء عند هؤلاء وعند مزاراتهم<sup>(٥)</sup> فإن اعتقاد السلاطين والأمراء بهم لم يكن أقل من ذلك فالسلطان برقوق طلب أن يدفن

(١) السخاوي / تحف الأحباب / ص ٣٣٣.

(٢) الشعراني: الطبقات ج ٢ ص ١٤٢ - ١٩٢.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم ج ٥ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ وابن حجر أبناء القمر / ج ١ ص ٣٢٩ - ٣٧٦.

(٤) ابن حجر: أبناء العمر: أحداث سنة ٧٧٧.

(٥) ابن قاضي شهبة، الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ٢ ص ٨٢ - ٨٣، ج ٥ ص ٢٥٥ والسخاوي التبر المسبوك ص ٣٠٢.

عند أقدام مجذوب كان يؤمن به<sup>(١)</sup>. والسلطان الغوري حين خرج إلى مرج دابق الزم خليفتي السيد البدوي والسيد الرفاعي بالخروج معه<sup>(٢)</sup>. وإذا توفي بعض المجاذيب أقيمت له الجنائز الضخمة كبعض الأمراء وربما دفن في تربة بعض السلاطين. ويواظب الناس على زيارة قبره تبركا به. ووضع الهروي كما حاول ابن الزيات والسخاوي وضع كتب في كيفية الزيارة وتقاليدها وأمكنتها باعتبارها أمرا دينيا يشرح الصدر! ويحتفلون بموالديهم فبعضهم كالسيد البدوي له ثلاثة موالد في السنة. وكان بعض السلاطين يرعاها كالسلطان قايتباي. ولكنها كانت أعيادا شعبية للفسوق والخمر والنزهة. . . ومن القائمين بها من لا يعرف باب الزاوية منذ سنين<sup>(٣)</sup> ويختلط فيها الغناء بنقر الدفوف والرجال بالنساء. . . الحسنة الوحيدة لهذه الأعياد كانت أنها، مقابل هبوطها بالمفهوم الديني تملأ فراغ الناس بالفرح والبهجة وتملأ جيوب الباعة والتجار وخدم الولي بالمال.

### الأربطة والزوايا والخانقاوات والتكايا والأضرحة :

هي الجانب المادي العمراني الذي ظهر في المدن وخارجها مع ظهور التصوف وانتشاره. وفي الأصل لم يكن للأربعة من علاقة بالتصوف إلا من زاوية محددة هي الجانب الديني من الجهاد والإنصراف له. فالمرابطون نوع من المقاتلين نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله والانقطاع لهذا الجهاد. ولما كان القتال على الحدود والدفاع عنها قد ظهر مبكرا في الإسلام فقد ظهرت الأربطة بدورها مبكرة وانتشرت بأعداد ضخمة على حدود تركستان وكان

(١) ابن تغري بردي / النجوم ج ٥ ص ٦٢٤ (ط. كاليفورنيا).

(٢) ابن إياس / بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٢ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم ج ٥ ص ٤٤٣ .

منها مدن كاملة في أرمينية (مثل المنصورة) وعلى الجبهة مع الروم (مثل طرسوس). كما ظهرت. في أقصى المغرب وعلى الطريق إلى السودان حتى ظهرت هناك دولة حملت اسم المرابطين. فأهل الرباط يجمعون بين الحياة الدينية وحياة الجهاد أو أنهم يفهمون الحياة الدينية لا يكملها إلا الجهاد وقد يندرون ذلك نذرا لفترة محدودة أو طول العمر. وقد ذكرت مدينة طرسوس في الكتب على أنها رباط.

وقد عرضنا من قبل للأربطة من وجهة النظر الحربية يوم كانت محارس ومناظر ومراكز دفاع أولي عن المنطقة الإسلامية كلها. لكنها لم تعد بذات نفع كبير بعد ذلك حين تحول الأعداء سواء في الشرق (مع السلاجقة والمغول) أو في الغرب مع الصليبيين وصلبيي الأندلس) إلى الهجوم المباشر الذي لا ينقطع. وحلت القلاع منذ القرن الخامس محل الأربطة وبخاصة في المشرق والأندلس ومع فقد وظيفتها في بعض المواقع كانت أماكن حسنة لمن يريدون الانقطاع للعبادة مع الجهاد أو مع أدعاء الجهاد. وللصوفية الذين يريدون الاعتكاف حين تكاثروا في القرن السادس وما بعده. وهكذا تغيرت وظيفة الرباط مع تغير سكانه وغلبت عليه في المشرق خاصة صفة الملجأ للمتصوفة، في حين أنه بقي في أقصى المغرب وفي ثغور أفريقيا يحيط ببقايا من وظيفته الأولى فترة طويلة لعلها تتصل ببقاء الحاجة إليه لربط الصلات التجارية مع السودان، ولبقاء السواحل الأفريقية مهددة بالقراصنة الأوروبيين.

وهكذا خلق انتشار التصوف في المشرق مبررا لبقاء الأربطة ولبنائها ولكن مع تغير معناها لتصبح دورا للتصوف الجماعي. وليس يفترق الخانقاه (وهو لفظ فارسي) في معناه عن الرباط لكنه منذ وجد كان يعني دارا للصوفية الجماعية أيضا مع كونه مدرسة للمريدين، وكذلك الزاوية فقد كانت تعني

مكان اجتماع أصحاب الطرق من المتصوفة وربما كانت تحمل معنى أصغر من معنى الخانقاه أو الرباط كأن تكون معتكفا أو مسجدا صغيرا للصلاة ومازالت بعض المساجد الصغيرة في مصر والشام والعراق تحمل اسم زوايا. ولكن اللفظ في المغرب تطور فصار يقصد به الخانقاه أو منزل الصوفية وأقرب الأمثلة على ذلك زوايا السنوسية في ليبيا وأفريقية. وابن بطوطة من قبل يقول أن الخانقاه هي الزاوية. وأما التكية فوجدت في العصر العثماني خاصة لتحمل المعنى نفسه ولتحمل معه لا وظيفة الملجأ فقط ولكن وظيفة الإحسان وتأمين الطعام الكامل للنازلين فيها وللطارئين. وإذا شئنا ترتيب هذه الكلمات زمنيا وجدنا أن الرباط ظهر أولا في جميع البلاد الإسلامية ثم ظهرت الخانقاه في المشرق خاصة، والزاوية في المغرب في العهد المملوكي وظهرت التكية في النهاية مع العثمانيين. وعلى أي حال فإن الكلمات الأربع اختلطت في المعنى منذ العهد المملوكي وكان بعضها محل محل بعض إلا لدى أصحابها الذين كانوا يختارون لها ما يروقهم من الأسماء الثلاث حسب ما يقصدون. فالرباط الذي شاهده ابن جبير في مدينة رأس عين في الجزيرة هو خانقاه انشأها الصوفية، والرباطان اللذان ذكرهما ابن بطوطة في مكة ليس لهما أي صفة حربية وهما للزهد والاعتكاف، والرباطات الأربعة التي أقيمت في حلب كذلك. وكان أحدها ملحقا بمدرسة من مدارسها وبضريح منشئه وكان بالضريح قراء وصوفية، مع فقد كل الصفات الحربية فيها.

وقد ذكر المقرئ أن بيبرس الجاشنكير بنى رباطا قرر به مائة من الجند وأبناء الناس (أي المماليك) الذين قعد بهم الوقت<sup>(١)</sup>. كما بنيت رباط خاصة للنساء تكون كالمودع للنساء الأرامل فكأنما اضححت عملا من أعمال التدين وعملا من أعمال الخير الاجتماعي. وكان الذين ينون الرباط يرجون فيه

(١) المقرئ / الخطط ج ٤ ص ٢٧٦.

المثوبة والأجر. وبني السلطان سليم الأول، عند فتحة البلاد العربية تكية بجانب جامع الشيخ محيي الدين في دمشق، ثم بنى سليمان الأول تكية أخرى على ضفة بردى باسمه. ولم تكن الربط والزوايا والخانقاوات في عصر المماليك ولا التكايا العثمانية منازل عبادة صوفية رغم كثرتها بل أضحت مأوى لطوائف المريدين في الطرق الصوفية يقيمون فيها ليلهم ونهارهم، ولأصحاب العاهات والعجز وكبار السن والعميان فضلا عن المطلقات والعاجزات من النساء. بمعنى أنها تحولت عن وظيفتها الأولى في التعبد لتصبح نوعا من الملاجئ الاجتماعية لمن قذفهم المجتمع إلى خارجه.

وقد كان الأمراء المماليك «يتنافسون في بناء الزوايا» في مدن الشام ومصر كما قال ابن بطوطة في القرن الثامن<sup>(١)</sup> بسبب ظاهرها الديني. وشيدوا منها الكثير كما شيد المرابطون والموحدون والمريدون في المغرب مثل ذلك. فصار للعبادة مركزا آخر غير المسجد والجامع. وإن كانت عبادة مشوبة بشيء غير قليل من السلبية والالتكال والرياء. وكان إذا تم بناء إحدى الزوايا في مصر أو الشام تحمّل السلطان بنفسه أو صاحب النيابة أو كبار الأمراء فقاموا بافتتاحها في حفل لا يغيب عنه بالطبع القضاة الأربعة وكبار رجال الدين ومشايخ الصوفية<sup>(٢)</sup>. وصارت مشيخة الخوانق وظيفه من الوظائف يتنافس عليها الشيوخ ويصدر بها قرار من ديوان الإنشاء السلطاني. ويعامل شيخها حسب أهمية مؤسسته<sup>(٣)</sup>. وقد ذكروا أن بعض السلاطين كالسلطان شجاع اعتاد النزول بين الحين وآخر إلى إحدى الزوايا لحضور السماع وقد يترافق ويتواجد مع الصوفية إلى آخر الليل<sup>(٤)</sup>. وتمتعت كل خانقاه بأوقاف تدر من

(١) ابن بطوطة / الرحلة ص ٧١.

(٢) ابن تغري بردي / النجوم ج ٦ ص ٧٩ - ٨٤ ابن حبيب درة الأسلاك ج ٢ ص ٢٩٣.

(٣) القلقشندي / صبح الأعشى ج ١١ ص ٣٧٠.

(٤) ابن تغري بردي النجوم ج ٦ ص ٣٤٠ وابن حجر ابن القمر، ج ٢ ص ١٣٥.

الموارد ما يكفي للمنقطعين فيها وما يدفع إلى التنافس في الحصول على مشيختها. وحرصت حجج الأوقاف على تحديد العدد كما حرص عليها النازلون فلا ضيافة عندهم لمتصوف عابر إلا ثلاثة أيام لأن زيادة العدد من شأنها انقاص الجراية اليومية بسبب الموارد المحددة.

وكانت كل خانقاه وحدة قائمة بذاتها. في داخلها غرف الخلوات وفيها حمام ومطبخ وفي بعضها خزائن للأدوية وقد يخصص لها طبيب وجراح (كما في خانقاه الغوري). وللصوفية آداب في الخانقاه واجتماعات أسبوعية ونظام صارم في الزيارات والغياب والطعام. ولكل منهم «سجادته» ولكنهم لا يتحركون إلى شيء إلا بأمر الشيخ ولا يقبلون زائرا إلا بعد اختباره وربط النساء كانت أشد صرامة في الملابس والسلوك.

على أن أمر الخوانق تغير في العهد المملوكي الأخير وتخلوا عن النظم والآداب. وصارت اذكارهم جوقات مسموعة ولذلك سميت (بالسماعات) ورافقتها المزمارة والطبل والدف. وصارت لمشايخ الخانقاه اسمطة فاخرة كما صارت مجالسهم تجمع - كما يقول العيني - «الأراذل وأصحاب المغاني والملاهي»، ومنهم من كان يصرف أوقاف الخانقاه في اللهو والخمر دون ستر. وتعاطى بعضهم الخشيش وسموه حشيشه الفقراء». في الوقت الذي زادت فيه أعداد المتصوفة كثيرا نتيجة الفقر والمظالم. وقد حاول بعض السلاطين اصلاح الأمور كالسلطان جقمق ولكن جهودهم فشلت.

وأما أربطة افريقية والمغرب والأندلس فقد تأخرت كثيرا حتى فقدت صفتها الحربية وإن ظلت على مبناها الأول أشبه بالحصن الصغير الذي كان يبني في المشرق للمراقبة والدفاع الأولى. وكانت شواطئ افريقية تعج بالرباطات، كما كانت في الأندلس ثغور منذ عهد المرابطين وترصع الرباطات ثغورها. وما دفع إلى كثرة الرباط إلا الحمية الدينية لأنها عمل بر



وتقوى وجهاد. فهي الإسلام الكامل في الوقت الذي هي فيه عمل عسكري لحماية الدولة. لذلك كانت هي التي تبنيتها لكن من الأربطة الصغيرة كان أيضا من بناء الأفراد. وقد كثرت في أرباض مدن طرابلس وصفاقس. وأول رباط أنشئ في إفريقية هو المونستير شيده الوالي هرثمة بن أعين أيام الرشيد سنة ١٧٩/٧٩٥م، ثم شيد زيادة الله الأغلبي رباط سوسة سنة ٨٢١/٢٠٦. وكان مجاهدة البحر يخرجون منه لغزو صقلية. أما العصر الذهبي للرباطات هناك فهو القرن الثالث عندما ضاعف الأغالبه عدد الرباطات والمحارس على طول الشواطئ الشرقية<sup>(١)</sup>. ومع ذلك بقي للمونستير فضلها حتى أن الشهداء في القرن السادس كانوا يدفنون فيها. وكانت بقية الشواطئ المغربية أقل ازدهاما بالرباطات ولكن بعضها كان ضد برغواطة الدولة المتزندقه (رباط سلا)، وبعضها كان لرد غارات قراصنة الشمال والفايكنغ (كما رباطي نكوز وارزلة).

وكان سكان الرباط كالثأن في اربطة المشرق، متطوعين يقضون مددا محددة في الرباط أو يقضون حياتهم كلها. ومعهم حاميات يستبدل بها مرات كل سنة في رمضان وعيد الأضحى). لكن الأربطة ظلت تحتفظ بأهميتها العسكرية وطابعها الحربي في القرون ما بين الخامس إلى العاشر (١١ - ١٦م) لأن القتال الذي بقي مشبوبا مع النصاري في الأندلس أبقى على وظيفتها. والرباط الذي أنشئ على جزيرة من جزر السنغال الأدنى هو المعقل الذي خرج منه بربر لتونة للجهاد وانشأوا دولة المرابطين. وكان للموحدين رباطان<sup>(٢)</sup> أساسيان هما: رباط تازا الذي حصنه عبدالمؤمن سنة ١١٣٢/٥٢٨ حين خرج لقتال المرابطين. ورباط الفتاح الذي بقي اسمه علما على مدينة الرباط. وقد كان المعسكر الكبير الذي تتجمع فيه الجيوش

(١) الموسوعة الإسلامية/ ج ١٠ (الطبعة المترجمة العربية) ص ٢٠ - ٢٢.

(٢) الموسوعة: المصدر نفسه ص ٢٢.

للإبحار إلى الأندلس .

وظل المغاربة يشيدون الأربطة والمحارس حتى القرن الثامن / ١٤ لتنبههم إلى نزول النصارى على الشاطيء وكان يرباط فيها عدد من المرتزقة والمتطوعين ، ونجد في القرن العاشر (١٦م) قيام رباطات من نوع رباط آسفي له شأنه في مقاومة الغزو البرتغالي . لكن التأثير المشرقى كان قد زاد وصارت كلمة الرباط في المغرب تحمل المعنى الذي تحمله في المشرق أي صارت موقعا دينيا لا اعتكاف المتصوفة كالحانقاه ودرج عليهم اسم الزاوية .

ويلفت النظر في هذا المجال انتشار عدد كبير من أضرحة الصحابة والعباد والصالحين والمتصوفة في طول العالم الإسلامى وعرضه وهي سنة بدأت منذ عهد الخلفاء الراشدين ، في اقامة ضريح الرسول الأعظم في مسجده ومنزله . وبالرغم من أن بعضها سابق للإسلام (كقبر النبي هابيل في دمشق ، وقبر موسى والخضر وكنيسة القيامة في القدس) فإن معظمها اسلامي عريق ظهر مع الصحابة والتابعين في معظم الأراضي المفتوحة كقبر عقبة في صحراء بسكرة شرقي الجزائر . وأبي عبيدة بن الجراح في وادي الأردن ، وخالد بن الوليد في حمص وقد بنيت حولها الجوامع . وقد تبع ذلك تكريم اضرحة آل البيت في النجف وكربلاء والكاظمية ومشهد وقم ودمشق . وفي مصر حيث يقوم مشهد الحسين ومشهد زين العابدين إلى جانب مشهد السيدة سكينة والسيدة زينب ثم نفيسة وغيرهم من السادات . وتدعى هذه الأضرحة من جانب الشيعة بالعتبات المقدسة . وقد حظيت هذه العتبات خلال العهد الفاطمي بمصر بالذخائر النفيسة وقناديل الذهب والمباخر والمجامر ، كما حظيت بمثل ذلك الأضرحة التي في العراق في ظل العهد البويهي . وظهرت في الوقت نفسه أضرحة الصالحين والنسك والعباد بكل مكان وكثرت خاصة بعد القرن السادس والعصر الصليبي سواء في المغرب

أم في المشرق وكان منها في المغرب رباط تسكولت جنوب وهران، ورباط تافرطاست القائم على حدود وادي سبو حول قبري اميرين من أمراء المرينيين وفيه أروقة الطلاب (المقرئين).

ورباط العباد: وهو مجموعة من المنشآت الخيرية التي قامت بالغرب من تلمسان حول ضريح الصوفي الشهير سيدي بومدين<sup>(١)</sup>. وهي تشبه ما قام في المشرق أيضا من جامع الشيخ محيي الدين بن عربي وجامعه وتكيته حول قبره مثلا. وما قام حول قبر عبدالقادر الجيلاني في بغداد وحول قبور بعض السلاطين والأولياء في مصر. ونذكر بخاصة منها المشهد الحسيني في القاهرة الذي أقيم حول البقعة التي دفن فيها رأس الحسين فقد نقل من مسجد دمشق إلى عسقلان أولا بأمر من بدر الجمالي الوزير الفاطمي ثم نقل إلى القاهرة سنة ٥٤٨ حين سقطت عسقلان بيد الصليبيين. ودفن في قصر الزمرد عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة فكان كل داخل من العاملين في القصر يقبل الأرض أمام القبر.

أما في عاشوراء فتنحر الإبل والشياء ويكثر النواح والشتم لقتلة الحسين وأضحى تعطيل العمل ذلك اليوم سنة فاطمية. وحين جاء صلاح الدين وسع المشهد الحسيني وجعل فيه حلقة تدريس وفقهاء وفوضها للبهاء الدمشقي. وحين آل الأمر إلى الوزير معين الدين ابن حموية جمع من أوقافه ما تمكن به من توسعة المشهد فبنى إيوان التدريس ومساكن الفقهاء المدرسين. وحين احترق المشهد سنة ٦٤٠ أطفأ النار الأمير جمال الدين بن يعمر واصلح ما احترق<sup>(٢)</sup>. وقام بعد ذلك حي كامل في المنطقة ما يزال قائما ويعرف باسم الحسين.

(١) المصدر نفسه ص ٢٤.

(٢) انظر المقرئزي / خطط ج ١ الصفحات ٤٢٧ - ٤٣٩.

وتتميز من أضرحة آل البيت ثلاثة تحولت بسبب الصفة المقدسة التي تحملها إلى مدن وهي الأضرحة التي في العراق: لعلي بن أبي طالب وابنه الحسين، ولموسى الكاظم الإمام السابع.

فبعيدا عن بغداد والبصرة وبجوار الكوفة نشأت مدينتان دينيتان خاصتان بالشيعة هما النجف وكربلاء، كما نشأت مدينة ثالثة قرب بغداد هي الكاظمية وكان فيها جميعا تجمعات سكنية حول أضرحة مقدسة.

فالكاظمية في الأصل مقبرة لبغداد دفن فيها الإمام الكاظم سابع أئمة الشيعة، والامام محمد الجواد (التاسع منهم). وكانا يزاران من قبل اتباعهما كما يزار موقعا النجف وكربلاء. وحين جاء البويهيون أقاموا حول ضريح الكاظم مقاما ما لبث أن تحول إلى مستوطنة فيها المنازل والدور ثم صار مدينة صغيرة. والمشهد الحالي فيها من بناء الشاه اسماعيل الصفوي (٩٠٧ - ٩٣٠ / ١٥٠١ - ١٥٢٣) وقد عني الصفويون بتنمية هذه المدينة وأقاموا فيها مشهدين بقتين مذهبتين. مغلفتين بالقاشاني. وفي عهد الشاه عباس الأول (٩٨٩ - ١٠٣٨) بني مسجد جامع يتسع لعدة آلاف من المصلين يسمى الآن بالمسجد الصفوي.

وترتبط نشأة «النجف» بضريح الامام علي فقد وجدت منذ القرن الثاني جماعات شيعية تسكن حول قبره كان يحيط سكنها يزيد على / ٢٥٠٠ / متر ورغم أن المتوكل منع السكن وهدم الضريح والدور، إلا أن ابنه المنتصر أعاد البناء<sup>(١)</sup> وعاد الشيعة إليه وتلاحق البناء منهم حتى صار في القرن الرابع / ١٠ م مدينة كان فيها قرابة الفين من آل البيت عدا السكان<sup>(٢)</sup>. وعني البويهيون بعد ذلك ببناء القبر والمساجد وبإهدائها الأموال والهدايا

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٧٥.

(٢) مسكويه / تجارب الأمم ج ٦ ص ٤٠٥.

الشمينة . وفي العهد العباسي الأخر، وبخاصة في زمن الناصر ( ٥٧٥ - ١١٧٤/٦٢٢ - ١٢١٩ ) صارت النجف مدينة ذات حركة عمرانية واسعة منفسحة للعين على حد قول ابن جبير، إلا أن تطور المدينة الهام إنما كان في عهد الايلخانيين والجلالين الذين بذلوا الجهد في اجراء الماء للمدينة وبناء المدارس والخانقاوات فاضحت النجف - على قول ابن بطوطة - من أحسن مدن العراق وأكثرها سكانا وانظفها أسواقا وأكثرها مدارس وزوايا وخانقاوات معمورة أحسن عمارة ومزينة بالقاشاني الملون<sup>(١)</sup> .

وأما كربلاء فتأخرت قليلا عن النجف . وقد هدم المتوكل قبر الحسين هناك سنة ٢٤٧ واعداه ابنه المنتصر فأخذ الشيعة يتوافدون عليه واتخذوا من حوله الدور والقصور والأسواق ولم يمض قرن إلا وكان من حوله مدينة صغيرة بآلاف الناس<sup>(٢)</sup> وقفزت البلدة قفزتها العمرانية - كغيرها - زمن البويهيين فاشترك الناس في الزيارات والمصليات بعد عداوات كانت تنشأ بينهم<sup>(٣)</sup> . وأعطى فخر الملك البويهي بالغ اهتمامه للمدينة التي زاد عمرانها فيما بعد في العصر الجلائري فصارت مساحتها على قول القزويني<sup>(٤)</sup> الفين وأربعمائة خطوة (أي م ٢) يحفها - على قول ابن بطوطة - النخيل وفيها الزوايا والقناديل من الذهب والفضة في مساجدها . وفيها المدارس والأسواق .

وعلى أي حال فهذه المدن الثلاث نماذج للمدن الدينية وللجامع التي تنشأ حول الأضرحة بعد مسجد الرسول الأعظم، ومسجد النبي يحيى (الجامع الأموي بدمشق) وبعض المساجد الفاطمية التي عاصرتها في مصر .

(١) ابن بطوطة / الرحلة ١٧٦ .

(٢) محسن الأمين / أعيان الشيعة / ج ٤ ص ٢٩٧ .

(٣) مسكويه / المصدر السابق ج ٦ ص ٤٠٧ .

(٤) المستوفي القزويني : نزهة القلوب ص ٢٠٧ .

## ٢ - الدين في مظاهر الحياة العامة

نادام الإسلام ديننا ودنيا فقد كان لابد من أن تصطبغ حياة الناس به لتأخذ الجو الإسلامي في كل نواحيها ومعنى ذلك أن الإسلام لابد أن يدخل أعماقها وحتى النخاع الشوكي منها. ولاشك أن الحياة العامة مع ما ورثته من القرون الأولى في الشام وفارس ومصر وأفريقية والأندلس كانت بطيئة التحول إلى حياة دينية اسلامية كاملة ولكنها في النتيجة تحولت فاصطنعت أوامر الله والسنن التي جاءت عن رسول الله وأن أضيف إليها الكثير. وما من شك في أن السنن هي التي لعبت الدور الأساسي في تكوين دقائق الحياة اليومية للمسلم لأن القرآن الكريم إنما أتى بالقواعد العامة، فأما أحوال المعاش من طعام وشراب وآداب وملبس ومسكن فذلك ما تحدده السنن بسبب كثرتها وتنوع أغراضها، وهي تناول ما بين الملبس والملبس والمسكن إلى الطب الذي ألفه فيه ابن قيم الجوزية (ت لسنة ٧٥١/١٢٥٢) سماه الطب النبوي.

أ) في الشراب: أول ما تتميز به المدينة الإسلامية منع بيع الخمر ﴿إنما الخمر والميسر والأزلام والأنصاب رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾. وفي بعض الأحاديث لعن لبائعها وحاملها وشاربها لكنها لما تعتبر بجانب تحريمها نجسة. ومع أن أبا حنيفة قد أجاز النبيذ الذي لم يخمر، إلا أن الكافة على تحريمه سواء سمي نبيذا أم خمرا أم قهوة أم فقاعا. على أن هذا المنع كثيرا ما كان يخرق وقد وجدت في مختلف المدن الإسلامية جماعات من رقيقي الدين لم يكونوا يأبهون لهذه المعصية كثيرا فيتعاطونها وإن صاموا وصلوا.

ب) في الطعام: الأساس في أمر الطعام عامة هو الإباحة لكن بعض القيود وضعت على بعض المأكول فكما حرمت الخمر في الإسلام من الأشرطة، كذلك حرم لحم الخنزير فخلت الأسواق منه لكن الإلتزام بتحريم الخنزير

كان أشد رغم وجود النصارى ضمن المجتمع الاسلامي لأن تحضير الخمر كان ممكنا أن يجري في مخازن مغلقة أما الخنزير فتحتمل تربيته إلى مزارع لا يتيسر الأغضاء عنها، لاسيما أنه كان خاصا بالنصارى ولا يأكل الخنزير اليهود. وقد اعتبر نجسا عند الفقهاء مما يصعب معه التخلص من رجسه ولهذا انقرضت تربية الخنازير في البلاد الإسلامية كل الإنقراض.

صحيح أن أحد زنادقة المغرب في أوائل القرن الرابع من كانوا لا يزالون على تربيتها في قبائل غمارة واسمه حاميم ادعى النبوة ووضع لأصحابه قرآنا باسمه وأحل لهم - فيما أحل لحم الخنزيرة باعتبار أن القرآن حرم لحم الخنزير فقط<sup>(١)</sup> لكن ذلك كان شذوذا تافها ما لبث أن انقرض.

أما لحوم الخيل فكانت تؤكل أحيانا. والمذهب الحنفي الذي انتشر في ايران الشرقية وتركستان يحل لحم الخيل التي درج الترك - بوصفهم رعاة خيل - على أكلها وعلى كره لحم البعير. لكن المذاهب الأخرى حرمتها باعتبارها من لوازم الجهاد وليست من ذوات الأظلاف المشقوقة كسائر النعم. وبعض أهل الجريد في المغرب كانوا يأكلون لحم الكلاب «وكانوا يسمونها ويعلفونها بالتمر. . . ويسمون الواحد منها بالخروف وقد عاين المهدي الفاطمي ذلك أثناء رحلته إلى سجلماسة. كما كان بعضهم في جبال نفوسة يأكل لحم الذئب الذي يهاجم الغنم لكن ذلك كله كان شذوذا. والأساس في الطعام في البلاد الإسلامية كان لحوم الشياه والبعير والبقر بأنواعه والطيور والسماك.

وقد رويت عن الرسول الأعظم ﷺ أحاديث في تفضيل بعض المأكول كالتمر والثريد والخبز وبعض الفاكهة فكان المسلمون يميلون إليها. وصار

(١) الاستبصار ص ١٩١.

الخبز سيد الأوقات كما كان اللحم سيد الأدم ويتمتع العسل بمكانة خاصة باعتبار أن القرآن الكريم قال عنه أن «فيه شفاء للناس» كما تحظى المأكولات المذكورة في القرآن - وهي من مأكولات منطقة البحر المتوسط - ببعض الإيثار عند المسلمين كالقول والقشء والعدس والبصل والزيت والعنب والتين والزيتون اللذين أقسم بهما سبحانه وتعالى - مكانتهما الخاصة .

والشيعة يرفضون لحم الجمل . لا يأكلونه، رغم أنه حلال وكان الرسول الأعظم يأكل منه في حله وترحاله وإن كانت فيه قسوة غير محمودة . ولعل السبب في ذلك ذكرى واقعة الجمل بين الإمام علي والسيدة عائشة .

ولا خلاف في آداب الطعام الذي يبدأ بالبسملة وينتهي بالحمدلة تماما كما تبدأ الصلاة بالتكبير وتنتهي بالتسليم ، ويجب أن يتم الطعام باليد اليمنى بعد غسل اليدين . لأن الاستنجاء إنما يكون باليد اليسرى ، ومن السنن تصغير اللقمة وجودة المضغ وعدم الأكل في الطريق فإن ذلك يسقط العدالة عند الفقهاء . وهي آداب تجعل الطعام نوعا من الأعمال ذات الحرمة والتقدير .

غير أن الكثيرين من المسلمين لم يكونوا يتقيدون بهذه الآداب وكانت أسواق المدن الكبرى من بغداد أو نيسابور إلى دمشق والقاهرة وحتى قرطبة تعج بالشوائن والقلائن والطباخين والهراسين وبائعي الزلاية والكعك والحلوى من لوزينج وكنائف وقطائف، بل كان الناس في كثير من المدن يأكلون في المساجد والجوامع أو يجعلونها للنزهة (كالجامع الأموي في دمشق) . وقد يتخذونها سوقا . وكان مما يثير دهشة الأندلسيين أن يروا ما رأى ابن سعيد حين انتهى إلى جامع عمرو بن العاص في الفسطاط إذ عاين جامعا كبيرا قديما البناء . . . وأبصر العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا «والبياعون يبيعون أصناف المكسرات والكعك . . . والناس يأكلون في أمكنة



عديدة غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك وعدة صبيان بأواني ماء يطوفون على من يأكل .

وقد جعلوا ما يحصل لهم منه رزقا، وفضلات مآكلهم مطروحة في صحن الجامع وفي زواياه والعنكبوت قد عظم نسيجه في السقوف والصبيان يلعبون في صحنه على أنه حسن الرونق . . . وهو سر مودع فيه من وقوف الصحابة رضوان الله عليهم في ساحته عند بنائه . واستحسنت ما أبصرت فيه من خلق المدرسين لإقراء القرآن والفقه والنحو في عدة أماكن .

وسألت عن موارد أرزاقهم فأخبرت أنها من أموال الزكاة . . . . .

واندهاش الأندلسيين دليل على أن أمر آداب الطعام وغيرها كانت ما تزال مرعية بصرامة في المغرب في عهود المتزمتين من المرابطين والموحدين والمرينيين .

(ج) في الملبس : مذهب الإسلام في كل شيء هو الاعتدال ، والقصد منه هو الخوف مما ينجم عن الترف من الانحلال . ولا نريد الخوض في الممنوع والمباح من الملابس كلبس الحرير وما في حكمه للرجال واستخدام الذهب والفضة حلياً أو آنية . ونظافة الملبس وأخذ الزينة عند كل مسجد والتطيب وستر الجسد والإحرام بثوب غير مخيط . .

فإن ذلك يدخل في باب الفقه ولكننا نتبع الواقع التاريخي فقد يكون الفاتحون الأولون يراعون عدم الترف اضطرارهم لأنهم لا يجدونه وليس في مكنتهم شراؤه، ولكنهم سرعان ما عرفوا هذا الترف ونعموا به حين حلوا بمصر والشام وإيران والأندلس . وانغمس أكابر القوم في استخدام ما يستخدمه الأقوام الأخرى من الدمقس والحرير والقسي والاترج والمشيخة والديباج والخنز، ونسمع عن استخدام العديد من الناس لهذه الملابس دون

تخرج على أنفسهم وفي بيوتهم حتى أن خدام أنس بن مالك رؤى وعليه برنس أصفر من خز<sup>(١)</sup>.

والواقع أن التحرج كان في الثياب أقل منه في أي شيء آخر. وقد عرف الناس منذ العهد الأموي أنواع الملابس الثمينة. وأنواع الطنافس والستر والتنيسي والوسمي، والبرود اليمينية كانت شائعة ولها صناعاتها. وشوارع بغداد في العصر العباسي لم تكن تخلو منها كغيرها من الحواضر، وكلما ازداد الغنى - كما في بغداد - زاد معه الترف والتأنق وتنوعت الأزياء. ولم نعد نرى الخلق أو الخشن من الثياب على الطبقة العامة والمكدين أو المتصوفة الذين آثروا لبس الصوف. أما الذين أتوا بسطة ولو قليلة من العيش فكانوا لا يتخرجون من المغالاة في الملابس الفاخرة.

وكتب الأدب، والتاريخ وكتاب الأغاني ونشوار المحاضرة للتنوخي وكتاب التحف والهدايا للخالدين، وأمثالها مملوذة بالأخبار التي تكشف أنواع الثياب وموادها. وصار لبعض الأعمال ملابسها الخاصة كالطيلسان للقاضي، وملابس الجنند (التي نظمها المنصور) وأزياء خاصة للوزراء يتلقونها من الخليفة عند التعيين، وللتجار أيضا ملابسهم وتعرفهم بسيماهم. . . ومع أنه لا كهنوت في الإسلام فقد كان للفقهاء أيضا زيهم الذي يعرفون به وللكتاب زي.

وقد ميز الخلفاء في بعض الأحيان أهل الذمة بملابس خاصة (كما جرى أيام المتوكل والحاكم بأمر الله).

وكانوا يعتقدون أنهم بتغيير ملابس أهل الذمة يميزون المؤمنين بالإسلام عن غيرهم. ولا يكتفون بمغايرة اللون (وهو الأصفر والأزرق في

(١) البخاري: الصحيح ج ٤ (كتاب الثياب) باب المزور بالحريير (ط. مصر ١٩٣٢).

الغالب) ولكن يلزمون الذمي بوضع صليب خشبي على صدره للنصراني أو كرة لليهودي مع شد الأوساط بالزنانير!

أما الحادثة التي ذكروا فيها أن الرسول الأعظم خلع بردته فيها على كعب بن زهير الشاعر الذي كان يهجوهم ثم جاءه ثائبا فقد كان لها أثرها البعيد في التاريخ الإسلامي إلى اليوم . وأصبحت الخلعة منذ العصر العباسي خاصة أمرا مقررا له مراسمه الخاصة في حين اشترى العباسيون هذه البردة من سلالة صاحبها وأخذوا يرتدونها في المواسم الخاصة . فما زالت تتوارث حتى انتهت إلى سلاطين بني عثمان (وهي الآن في متحف طوبقاي في استانبول) . أما الخلع التي كان يخلعها الخلفاء والسوزراء على من يريدون تكريمه فكانت ألوانا من الثياب . وكانت لها أيام الفاطميين في مصر معاملتها الخاصة ودرجاتها تماما، كما كان لأستار الكعبة . وهو تشریف يلبسه صاحبه في المناسبات الرسمية . وكانت هذه الخلع تمنح لموظفي الدولة وللسفراء الأجانب كما تمنح لأهل الذمة باعتبارها نوعا من التكريم والمباركة الدينية .

ونستطيع أن نعرف أنواع الملابس من كثرة أسمائها التي شاعت في العصر العباسي فهناك العمامة للرأس وهناك الثوب والحلة والأزار والقميص والسراويل والرداء والبرنس والجبّة والقباء والبردة والحبرة والشملة والحميضة (ذات الاعلام الملونة) وكلها من ملابس العرب بالإضافة إلى النعال والخف في الأرجل . وقد دخل عليها القلنسوة والقيلسان والخفتان والقرطق والصدار والبدنة والكلوتة والكبندة . . وغيرها وكلها من المباح .

ولم يعترض الفقهاء في قرطبة على ما حمله زرياب المغني إليها من الأزياء البغدادية المصبغة الزاهية الألوان بل جرى العكس إذ تقبلها الناس ، وأولع بها حتى من تقضي مراكزهم الاجتماعية والدينية بالاقتصاد في التألق ، فالقاضي محمد بن بشير برغم ما كان يتصف به من العلم والورع والزهد كان

يعقد مجلسه في المسجد الجامع وهو في أزار مورد ورداء معصفر وشعر مفرق .  
وحدث ذات يوم أن أتى رجل من خارج قرطبة يسأل جماعة في الجامع عن  
القاضي فدلوه عليه فلما رآه رجل إلى القوم يقول: تو سمت فيكم الخير  
فدلتموني على عزاف! فقالوا ما غررناك أبدا أنه القاضي محمد بن بشيرا<sup>(١)</sup>  
وإذا كان هذا حاله خاصة فإنه يدل على مقدار عدم التحرج حتى لدى  
القضاة في الملابس . وهكذا نجد شباب الفقهاء في بغداد أيام ابن الجوزي ،  
أواخر القرن السادس / ١٢ م . يرتدون الحرير ويتحلون بالذهب<sup>(٢)</sup> ونجد  
فقهاء المالكية بدمشق أيام ابن بطوطة على ذلك أيضا<sup>(٣)</sup> ونجد أن من هدايا  
نور الدين محمود بن زنكي عمارة من الحرير! بخمسمائة دينار .

ولم يكن الفاطميون ، خلفاء وقضاة وكبار دولة أقل تأنقا أو اسرافا في  
أمر الملابس ، وكما كان لدى العباسيين ازياء للوظائف كذلك كان لدى  
الموظفين الفاطميين . وبصرف النظر عما كان يصنع في مصر من أنواع النسيج  
الفاخر كالكلموني في دمياط وتيس ، والقرقيبي والديبقي فقد كانت هناك دار  
خاصة للكسوة بناها المعز الفاطمي تفصل الثياب للخاصة برسم الخلع ،  
وكان عيد الفطر عيد الخلع لكثرة ما يوزع فيه منها . وقد أمدنا المقرئزي  
بصفة مطولة بمخصصات الخليفة والأمراء والوزراء والموظفين من ملابسه دار  
الكسوة .

وكان للخليفة ألبسة خاصة لمختلف الأعياد والمواسم والولائم موشاة  
بخيوط الذهب والفضة يبلغ ضمن الثوب منها ٥٠٠ دينار وثمان المنديل  
الواحد خمسة دنانير ويمنح الوزراء وأولاد الخلفاء ثيابا خاصة في المناسبات

(١) اخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ١٢٧ والخشني قضاة قرطبة ص ٣٢ .

(٢) ابن الجوزي - تلبس ابليس ص ١٢٢ .

(٣) الذخائر والتحف الصفحات ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ وغيرها .

من الحرير والذهب . وقد ذكر ابن منجب الصيرفي في وثيقة يرجع تاريخها إلى سنة ٥٣٥ تنص على ما أرفق بالكتاب من حبل أهداها الخليفة لأحد الأمراء<sup>(١)</sup> .

وفي كتاب الذخائر والتحف الذي كتبه مجهول بعد أواسط القرن الخامس نجد ألوانا وأشكالاً من الملابس التي ظهرت في تركيات الخلفاء والوزراء وكبار الدولة أو في ذخائرهم أو في هداياهم أو في تركيات أمهات الخلفاء وذويهن أو في المستخرج المنهوب من خزائن المستنصر بالله الفاطمي .

وأما في العهد المملوكي فقد كانت بلاد مصر والشام مهرجانا من الملابس المتعددة بعكس ما كان في المشرق حيث كانت الملابس متشابهة بين الجميع . ويذكرون أن قاصدا من عند تيمورلنك في أواخر القرن (التاسع / الرابع عشر) وصل إلى السلطان برقوق فأخذ ينظر إلى الناس في شوارع القاهرة فلقي أقواما وخلقا كثيرا مختلفي الهيئات والملبوس فسأل عنهم فسموا له كل طائفة فتعجب من ذلك وقال : نحن في بلادنا ملبوس السلطان والأمير والخدم والفلاحين هيئة واحدة . . .<sup>(٢)</sup>

وهكذا كان من السهل على من يمر بمدن الدولة المملوكية أن يتعرف إلى مكانة الشخص ومركزه الإجتماعي من ملبسه كما يحدد صنعته وعمله ودينه . ويقول ابن حجر في ترجمته لنجم الدين الحسين بن علي على أنه تفقه «ثم ترك ذلك وتزيا بزري الفقراء وبعد مدة عاد وتزيا بزري الفقهاء»<sup>(٣)</sup> ولام الناس فقيها كان «يلبس ملابس الفقهاء فتزيا بزري الجند . . .» .

(١) المقرئبي : خطط ج ١ ص ٤١٢ .

(٢) خليل بن شاهين - زبدة كشف المالك ص ٨٨ .

(٣) ابن حجر - الدرر الكامنة ج ٢ ص ٦٠ - ٦١ .

أما ملابس المتصوفة فكانت في هذا العصر من المرقعات الملونة بين  
أحمر وأخضر وأصفر، وأسود وأردية من الخلفاء أو الخوص أو الليف مبالغه  
في الزهد. وقد يلبسون الجلود. ويضعون على رؤوسهم القحوف  
والطراطير. ولما كان المتصوفة يتلقون «الطريقة» على شيوخهم فقد كان هؤلاء  
الشيوخ يعطونهم ملابسها وهي ما سمي بالخرقة. وقد أصبحت الخرقة  
شعارا لهم حتى يقال لبس الخرقة من فلان أي أخذ العهد عليه وصار من  
مريديه.

وبعض الصوفية اتخذ الخرقة والعمامة من لون معين وبالغ بعضهم في  
موضوع اللبس ويذكرون عن بعضهم ومنهم السيد البدوي أنه كان يخلع  
ثوبه لغسل أو لغيره حتى يهتري عليه فيبدل به غيره<sup>(١)</sup>. وكان امراء الشاذلية  
على العكس إذ كانوا يتجملون في الملابس والهيئة<sup>(٢)</sup>. وكان المولوية يلبسون  
الملابس البيضاء «والكلاه» الخاكي اللون. أما مشايخ الطرق فكانوا يميزون  
أنفسهم بمحاكاة العلماء في لبس ما يسمونه بالدلق وأن يكون غير سابل ولا  
طويل الكم ويرخون من عمامتهم ذؤابة لطيفة على الأذن اليسرى لا تكاد  
تبلغ الكتف<sup>(٣)</sup>.

وقد اعطى الإشراف من آل علي بن أبي طالب امتياز وضع علامة  
خضراء بارزة على العمامة أيام السلطان شعبان سنة ٧٧٣ تعظيما لقدرهم  
وليقابلوها بالقبول والإقبال ويمتازون عن غيرهم بهذا المنوال<sup>(٤)</sup>. ويصغر  
التجار من عمامتهم جدا في حين اعتاد الوزراء وأرباب الوظائف الدنيوية لبس  
الفراجي كالعلماء ولبس القبع المزركش والعنبرينة.

(١) الشعرائي - الطبقات ج ١ ص ٢٤٧.

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٤٩.

(٣) الفلقشندي - صبح الأغشى ج ٤ ص ٤٣.

(٤) المصدر السابق ج ١١ ص ١٦٢.

وتختلف ملابس أرباب الوظائف الدينية باختلاف طبقاتهم ومراتبهم فللقضاة والعلماء العمام الكبار وعلى طرف العمامة ذؤابة طويلة يرسلها بين كتفيه، وثياب طويلة متسعة الأكمام. ويمتاز قاضي القضاة بلبس طرحه تستر عمامته وتسدل على ظهره. وقد تمسك العلماء والفقهاء بهذه الأزياء حتى اصبحت كأنها فرض عليهم ولا قيمة بدونها.

وأما ملابس المهاليك فكانت تتبدل بين فترة وأخرى حسب هوى السلاطين إلا لباس الرأس وهو كلونات صفر مضرية بكلبندات فقد لبسوها منذ العصر الأيوبي ولم يتغير لونها إلى الحمرة إلا في عهد السلطان شعبان. وكانت بغير عمام أو شاشات فسمح لهم بشاشات صغيرة لكن هذه العمام لم تستمر طويلا فقد نزعوها، وأكثر الأمراء والمهاليك والاجناد منذ النصف الأول من القرن التاسع من لبس الطواقي بغير عمام ونوعوا فيها ما بين أخضر وأحمر وأزرق كما يفعل الصبيان والبنات<sup>(١)</sup> وكانت ثيابهم في معظمها الأقبية الثرية والتكلاوات فوقها، ثم القباء الإسلامي يشد عليه السيف من جهة اليسار. أما الأمراء والمقدمون فلبسوا أقبية قصيرة الأكمام وكانت معظم مناطقهم من الفضة المطلية، وكانت ألبسة الجميع من مهاليك وموظفين من اللون الأبيض صيفا من القطن وشتاء من الصوف. وقد سمح للقضاة بتلوينها أيام السلطان برقوق سنة ٧٩٩ لجميع المعممين<sup>(٢)</sup> كما سمح للمهاليك بلبس فوقانيات من الصوف الملون المبطن بفرو السنجاب الفضي. وللأمراء أنواع السمور الثمين<sup>(٣)</sup>.

ولنلاحظ أن ملابس النساء التقليدية أصابها موجة التطور وصارت

(١) المقرئزي - الخطط ج ٣ ص ١٦٨ .

(٢) ابن حجر. أبناء الغمرج ١ ص ٤١٤، السيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢١٨ .

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج ٤ ص ٤١ .

لها أزياء بين فترة وأخرى فالمقريزي (النصف الأول من القرن التاسع) يعيب على عوام النساء أنهن تشبهن في الملبس بنساء الملوك والأعيان<sup>(١)</sup> ثم يصف كيف أن نساء السلاطين استحدثن ثيابا طويلة تسحب أذيالها على الأرض ولها أكمام واسعة «ثم تشبه نساء القاهرة بهن في ذلك حتى لم تبق امرأة إلا وقميصها كذلك»، في حين أن غيره أخذ على النساء في القرن الثامن قبل ذلك «تلك البدعة التي أحدثتها في ثيابهن من جعلها ضيقة وقصيرة».

وأما في المشرق بعد سقوط بغداد سنة ١٢٥٨/٦٥٦ وقيام دولة المغول الأيلخانية فقد غير الناس ملابسهم على مثل ما رأوا عليه حاكمهم. فالناس على دين ملوكهم. ويقول ابن الطقطقي: «فانظر كيف كان زي الناس زمن الخلفاء. فلما ملكت هذه الدولة - أسبغ الله إحسانها وأعلى شأنها - غير الناس زيهم في جميع الأشياء. ودخلوا في زي ملوكهم بالنطق واللباس والألات والرسوم والآداب. من غير أن يكلفوهم ذلك أو يأمرؤا به أو ينهؤهم عنه. ولكنهم علموا أن زيهم الأول مستهجن في نظرهن، مناف لاختيارهم فتقربوا إليهم بزيهم. وما زال الملوك في كل زمان يختارون زيا وفنا فيميل الناس إليه ويلهجون به».

وهذا من خواص الدولة وأسرار الملك<sup>(٢)</sup>، وهذا يعني بوضوح أن تغيرا جذريا أتى على الزي العباسي السابق في العراق وإيران وتبني الناس مع الرسوم والآداب، أزياء المغول الجديدة.

(د) المسكن الإسلامي والشارع: المسكن الإسلامي حرم. وهذا يعني أنه واجب الإحترام والحرمة من الآخرين. وواضح من قوله تعالى: ﴿إِنْ

(١) المقريزي السلوك حوادث ٧٩٣.

(٢) ابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٣.



الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ﴿١٠﴾ . ومن قوله :  
«لا تدخلوا البيوت حتى يؤذن لكم وتسلموا على أهلها» ان الدين الإسلامي  
يفترض ستر الحياة الخاصة عن الناس وصيانتها بأن يكون المسكن مغلقا على  
نفسه غير قابل للإطلاع على ما فيه من قبل غير أهله .

ولهذا تتحجب المرأة في الطريق وتأخذ حريرتها وزينتها في المنزل، كما  
تحمي به الأولاد . ولذلك كانت الدار الإسلامية في مختلف المدن مغلقة من  
الخارج في حين أنها منفتحة من الداخل على فسحة تتسع وتضيق حسب  
الأحوال وتمدها بالشمس والهواء وربما جعلت فيها بعض الأشجار لتكون  
أرواح للنفس أو أجرى فيها الماء . وتدور غرف الدار من حولها .

وتتلاصق الوحدات السكنية في المدن الإسلامية على أساس أن كل  
واحدة منها وحدة مستقلة تماما ولهذا لا يجوز فتح أي مجال للإطلال منها أو  
عليها . بمعنى عدم فتح نافذة أو العلو في البناء لدرجة الاطلاع على المنزل  
المجاور .

وترتبط المساكن بالشوارع ارتباطا عضوياً وثيقاً وتأثر:

— بحجم المدينة إن كانت ذات سور يحددها أم لم يكن لها سور وقد  
تبنى بعض الأبنية خارج السور وتشكل انتفاخات وأحياء سكنية إضافية .

— بحجم الطريق وفيها إذا كان «طريق السابلة النافذ» أم طريقا خاصا  
غير نافذ .

— بمقدار الأمن . فقد ظهرت في المغرب أو المشرق بوابات للأحياء  
السكنية وبخاصة منذ القرن السادس . وتفتح البوابات بمعرفة أصحابها  
وبمواعيد معروفة .

وسوف نرى أن الحياة الاجتماعية - الدينية قد ألزمت سكان المدن الإسلامية بعدد من القواعد في البناء، وعرض الشوارع وانفلاق الأحياء وصيانة الحرمات .

### هـ - الأضرحة والمقابر :

اتخذت المقابر بوجه عام مواضعها حول المدن الإسلامية : أما في الخلاء على حافة الصحراء أو على التلال المحيطة بالمدينة أو على بقايا المقابر القديمة . أو في الجزر الرملية إن وجدت بين المعمور . إنها مدينة الأموات وتشكل مدينة أخرى بجانب المدينة ويزورها أهل المدينة في المناسبات الدينية فيقرؤون القرآن الكريم ويضعون بعض الغصون الدائمة الورق (كالأس) أو بعض الزهر .

وفي مصر دعت النيرة على الأرض الزراعية الى اتخاذ المقابر في الجزر المنتشرة في بحيرات شمال الدلتا أو في الصحاري الموجودة على طرفي وادي النيل .

على أن التمييز الطبقي - المالي أو التمييز الديني والاجتماعي أصاب المقابر الإسلامية فظهرت فيها الأضرحة وهي المقابر ذات القباب التي كثرت ضمن المقابر نفسها وفي داخل المساجد في المدن والكثرة الغالبة فيها هي لموت الأنبياء والأولياء (وبعضهم من خارج الإقليم كمقابر الأولياء في مصر ومعظمهم من المغاربة) . وسرعان ما كانت القصص الأسطورية وحكايات الغيب تضيفي التقديس على هذه الأضرحة لتصبح مكان دعاء ونذور واستخارة وهي منتشرة في طول العالم الإسلامي وعرضه . وقد أعطانا الهروي الرحالة في القرن السادس بعض الصورة عنها في مناطق حلب حتى اليمن بما في ذلك العراق وقبرص ومصر . كما أعطانا ناصري خسرو صورة

أخرى عنها في رحلته قبل أواسط القرن الخامس حين زار الجزيرة وحلب والشام وفلسطين ومصر والحجاز ودار اليمن إلى الإحساء بالبصرة .

وأعطتنا كتب الرحالة الآخرين كصاحب الاستبصار بعض صورها في الخط الممتد ما بين مصر والمغرب .

على أن بعض الأضرحة في العصر المملوكي كانت من بناء المساليك لأنفسهم وكانوا يلصقونها بالمساجد والرباطات وكانت مثل هذه الأضرحة تبنى بقباب غاية في الأناقة والزخرفة والانتقان في الكتابة النافرة . ويتنافس السلاطين والأمراء في التأنق بها حتى صارت سجلا حافلا للفن الإسلامي في عهودهم (كجامع السلطان حسن في القاهرة ومجموعة الأبنية حوله) وهي مبالغت في نقل الجاه مع الموتى إلى قبورهم بعد الموت . وعلى أساس مثل هذه الأضرحة التي بلغت حد التقديس ظهرت مدن النجف وكربلاء في العراق . وظهرت الكاظمية في بغداد وقامت الأضرحة الأخرى كضريح عبدالقادر الجيلاني وضريح أحمد الرفاعي وضريح السيد أحمد البدوي في طنطا وأبو العباس المرسي في الإسكندرية .

### ٣ - أهل الذمة

كان حوض البحر المتوسط الإسلامي كله وحتى أواخر العهد الأموي يحوي أكثرية مسيحية أرثوذكسية، على المذهب البيزنطي في مدن المغرب، وعلى القبطية اليعقوبية في مصر، وعلى الأرثوذكسية السريانية والنسطورية في الشام والعراق . وكان لكل جماعة بطريرك منهم فيما عدا المغرب فبطريرك القبط في الاسكندرية وبطريرك الروم الارثوذكس في انطاكية (وقد نقل الكرسي إلى دمشق فيما بعد) وثم بطريرك آخر بالقدس . وبطريركية السريان في الموصل أو المدائن . وقد أوجد الأمويون بطريركية الموارنة في لبنان ووصل

من مسيحيي سورية إلى عرش البابوية في تلك الفترة خمسة رجال، وعاش فيها بين دمشق والقدس يوحنا الدمشقي أكبر فلاسفة الأيقونية المسيحية في عصره<sup>(١)</sup> حتى آخر العهد الأموي (توفي سنة ١٣٢ / ٧٥٠).

وأما في العراق (الذي كان يختلط فيه المسيحيون مع الفرس المجوس من الزرادشتين والمانوسين والمزركيين) وفي (المشرق) أي فارس والجزبال وخراسان وغيرها فقد كان المجوس هم الأكثرية الساحقة وقد قبلوا منذ عهد عمر بن الخطاب على أنهم كتابيون<sup>(٢)</sup>. ويدفعون كأهل الذمة الجزية. وكان يختلط في المدن المشرقية والشامية واليمينية والمصرية والمغربية مع السكان زمر محدودة من اليهود، وكانوا جالية كبيرة في مختلف مدن الأندلس لكنهم كانوا كثيرين في الاسكندرية وفي بعض مدن الشام والعراق واليمن وفارس.

على أن هذه الصورة كانت تتغير باستمرار لمصلحة المسلمين. وكانت الجاليات من يهود ونصارى ومجوس تتآكل دون انقطاع ليزداد المعتنقون للاسلام.

ويمكن أن نعتبر أن نهاية القرن الثاني هو بدء التوازن العددي أو الزيادة العددية للمسلمين على أهل الذمة. فبعد أن كان للمناوية الزارذشتية أتباعها في المغرب ونفوذها في الشام<sup>(٣)</sup> وقوتها في العراق والجزبال نجد أنها تنقرض من جميع معاقلها الا من الجزبال (شمال شرقي إيران). وفي حين كان الانتقال من المسيحية إلى الاسلام سهلا في الشام ومصر كانت الأقليات اليهودية متماسكة في كل مكان مستفيدة من التسامح الإسلامي سواء في

(١) الذميون هم في ذمة المسلمين ويدخل فيهم عدا النصارى واليهود والمجوس: الصابئة من السامرية.

(٢) البلاذري - فتوح البلدان ص ٩٥ - ٩٩.

(٣) ابن النديم - الفهرست (طبع لندن) ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

الأندلس أو في ظل العباسيين في المشرق. إلا المجوسية فقد كان تحول أنصارها بطيئا. وهكذا نجد أن بطريك السريان تيهانوس يقضي ساعات من الجدل في بغداد مع المهدي والرشد مثلا، ويحكمها في الخصومات بين اتباعه ويصبح للخليفة تعيين البطريرك، ونجد أن زعامة القبط تظل على علاقة محدودة وأحيانا حسنة مع ولاية مصر. أما في إيران فقد كانت المجوسية (الزارادشتية) من زرادشتية أصلية ومزدكية ومانوية، هي المسيطرة وبخاصة الأصلية في فارس وخراسان، والمزدكية في إقليم الجبال، والمانوية تموت وخاصة بعد حملة «الزندقة» التي شنّها عليها العباسيون. وقد ذكر ابن حوقل أن فارس (وهو من القرن الرابع) «أن بيوت نيرانها كثيرة أيضا ويعجز علمها من سوى الديوان إذ ليس من بلد ولا ناحية ولا رستاق إلا وبها عند كثير من بيوت النيران، غير أن المشاهير التي يفضلونها على غيرها في التعظيم منها بيت نار الكاريان ويعرف ببيت نارفرا وبيت نار بجره وينسب إلى دارا. وبه تحلف المجوس في المبالغة بأيمانهم، وبيت نار عند بركة جور ويسمى بارين وحدثني من قرأ عليه بالفهلوية أنه أنفق عليه ثلاثون ألف درهم. وبيت النار على باب سابور يعرف بسيوخين، وآخر على باب سابور يعرف بجنبذ كاوسن، وبكازرون بيت نار يعرف بجفته وبها أيضا بيت نار يعرف بكوذان، وبشيراز بيت نار يعرف بالكاريان وبها بيت آخر يعرف بهرمزد (علما بأنها مدينة محدثة بناها محمد بن القاسم ابن عم الحجاج)، وعلى باب شيراز بقريّة السوكان بيت نار يعرف بالنسريان ويرى هذا البيت من شيراز. (١) ويضيف ابن حوقل في مكان آخر قائلا: «وقد انتحل قوم من الفرس ديانات ومذاهب خرجوا بها عن المذاهب المشهورة فدعوا إليها. . . ولو أن أهمل ذكرهم ضرب من المعصية على الدين وياب من التحامل عليه لأضربت عنه. . .».

(١) ابن حوقل ص ٢١٢.

وقد وقف الناس منهم على التلبس : ومن عرف من هؤلاء الخلاج (الصوفي المعروف) ، ومنهم أبو سعيد الجنابي (زهيم قرامطة البحرين) ، ومنهم أبو جعفر الشلمتاني (وهو من دعاة الاسماعيلية)<sup>(١)</sup> .

ويذكر المقدسي أن اليهود في بلاد العرب أكثر عددا من النصارى<sup>(٢)</sup> (ولعلمهم يتركزون في المدن التجارية الساحلية) وأما في العراق فإنه مجوس وذمة نصارى ويهود<sup>(٣)</sup> . وكان مبلغ النفقة على معبد المجوس في المدائن من المال ضعف خراج فارس<sup>(٤)</sup> مكرر . وأما شمال العراق وفي الجزيرة : فليس به مجوس ومعادن الصابئين بالرها وحران في جميع المملكة (الإسلامية)<sup>(٥)</sup> ، أما في الشام فالسامرة فيه من فلسطين : أي (الرملة) إلى طبرية ، ولا نجد فيه مجوسيا ولا صابئا<sup>(٦)</sup> . وأما خراسان وما وراء النهر فيه يهود كثيرة والنصارى قليلة وأصناف المجوس<sup>(٧)</sup> . وإقليم الديلم وكثير الذمة<sup>(٨)</sup> . ويغلب النصارى في إقليم أرمينيا ونجد في إقليم الجبال اليهودية أكثر من النصارى والمجوس به كثيرة<sup>(٩)</sup> . وإقليم خوزستان قليل النصارى غير كثير اليهود والمجوس<sup>(١٠)</sup> . . . وفارس «المجوس به أكثر من اليهود . وبه نصارى قليل . . .»<sup>(١١)</sup> أما السند فذمته عبدة الأوثان<sup>(١٢)</sup> . وأما كرمان فقد بقيت على مجوسيتها طوال العهد

(١) ابن حوقل ص ٢٥٧ - ٢٥٩ .

(٢) المقدسي ٩٥ .

(٣) المقدسي ص ١٣٧ .

(٤) مكرر ابن رسته الأغلاق الخطيرة ص ١٨٦ .

(٥) المقدسي ص ١٤٢ .

(٦) المقدسي ص ١٧٩ .

(٧) المقدسي ص ٣٢٢ .

(٨) المقدسي ص ٣٨٧ .

(٩) المقدسي ص ٣٩٤ .

(١٠) المقدسي ص ٤١٤ .

(١١) المقدسي ص ٤٤٠ .

(١٢) المقدسي ص ٢٠٢ .

الأموي ولم تسلم إلا أيام العباسيين في القرن الثالث . ونأتي إلى مصر فنجد أن «عامة ذمته نصارى يقال لهم القبط . ويهود قليل»<sup>(١)</sup> وأما المغرب فهو كثير اليهود<sup>(٢)</sup> ومثله الأندلس .

على أن هذا العرض العام قد لا يكفي لايضاح التوغل الذمي في المدن الإسلامية من جهة كما لا يوضح نوع العلاقات الدينية التي كانت بين المسلمين وأهل الذمة في المدن . ويمكن لنا أن نتبع ذلك بشيء من العمق والايضاح .

### أولا : النصارى في المدن الإسلامية

كانت كلمة النصارى (وماتزال) بالنسبة للمسلمين إسمًا عامًا لاتباع السيد المسيح وعلى هذا الأساس سوف نستعملها . لكن الاسم العام كان ينضوي تحته على عدد من النحل المختلفة أيام الفتح الإسلامي : كالأقباط اليعاقبة في مصر ، والملكانيين الروم الارثوذكس أتابع بيزنطة في مدن الشام ، واليعاقبة السريان في الشام والعراق ، والنساطرة في العراق وإيران ، والموارنة في جبل لبنان . وقد اختلفت سير حياتهم الدينية كما اختلفت علاقاتهم مع الدول الإسلامية من مكان إلى آخر ومن عصر إلى عصر . ولكننا نשמلمهم مضطرين ، بكلمة الذمة ونختار - مضطرين أيضا - بعض الملامح المعبرة عن وضعهم الديني في المدن الإسلامية لاعطاء صورة عامة عنهم في هذه المدن في ظل الحكم الإسلامي .

تعود علاقات النصارى مع المسلمين في المدن المفتوحة بخاصة إلى العهود العمرية فكثيرا ما ذكرت هذه العهود على أنها تحكم العلاقة بين الذمة

(١) المقدسي ص ٢٠٢ .

(٢) المقدسي ص ٢٣٦ .

وبين المسلمين . لكن لهذا العهد صورا مختلفة عديدة . أورد بعضها ابن عساكر<sup>(١)</sup> وغيره وإن كانت تحوي جميعا تأمينا لأهل الذمة بعدم المساس بحياتهم الدينية وبكنائسهم . على أن الواقع التاريخي يؤكد أن معظم العلاقات الدينية الذميمة المسلمة إنما كانت تخضع لهوى الحكام ومدى تقواهم أو مصالحهم أو تأثيراتهم بالجو السياسي أو الديني العام وليس ثمة من قاعدة عامة سوى التسامح الدائم الذي كان يظهره الحكام - مهما كان سببه - نحو الذميين .

ففي بناء أو هدم الكنائس لدينا كمية من الأخبار متناقضة . مع أن المذاهب الأربعة متفقة على عدم استحداث كنائس أو بيع في دار الإسلام ، ويبالغ بعضهم كأبي سعيد الأصبخري وأبي علي ابن أبي هريرة فيرى أنه لا يجوز ترميمها أيضا لكننا نلاحظ في الأخبار التاريخية اختلاف المواقف حسب الأقاليم وحسب هوى الحكام وحسب المعاهدات المبرمة أيام الفتح . فقد أخذ المسلمون منذ الفتح ربيع كنيسة ماريوحنا في حمص ونصف كنيسة هيت . بينما نص أحد نصوص ومعاهدات الرها على عدم استحداث كنائس جديدة . ويذكر حنا النيقى أن المسلمين في مصر وافقوا على عدم احتلال أي كنيسة . وعلى عدم التدخل في شئون الأقباط بأي صورة من الصور<sup>(٢)</sup> وكذلك جاء في العهد المعطى من عمر لأهل ايلياء بيت المقدس . لكننا نجد أن كنيسة مارمرقص في الإسكندرية بنيت ما بين سنتي ٣٩ - ٥٦ هـ على قول المقرئزي<sup>(٣)</sup> ، وبنيت أول كنيسة بالفسطاط (المدينة الإسلامية) في حارة الروم

(١) انظر ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق ج ١ ص ١٧٨ و ص ١٤٩ و ص ٢٤١ و ص ١٥٠ وانظر كذلك الأبهى : المستطرف ، ج ١ ص ١٢٤ البلاذري : فتوح ج ١ ص ١٤٣ .  
(٢) نرتون - أهل الذمة في الإسلام (ترجمة حسن حبشي - القاهرة ٦٧) ص ٣٦ - ٣٧ راجع البلاذري - فتوح (ط . المنجد) ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .  
(٣) المقرئزي - خطط ج ٢ ص ٤٩٢ .



زمن ولاية مسلمة بن مخلد على مصر (بين سنتي ٤٧ و ٦٨)، وأذن عبدالعزیز بن مروان لإثنين من خدعة ببناء كنيسة في حلوان تعرف بكنيسة الفرائشين .

وأصاب زلزال سنة ٦٠ - ٦١ بيعة الرها الكبرى فأمر الخليفة يزيد بترميمها واعادتها إلى سابق عهدها<sup>(١)</sup> .

وعند الفتح لأسبانيا حدث أن هدم موسى بن نصير إحدى حملاته جميع الكنائس التي صادفها في طريقه وحطم نواقيسها ولما استسلمت ماردة أخذ الفاتحون أملاك الذين هربوا إلى جليقية ووضعوا أيديهم على الكنائس وذخائرها في حين كان خالد بن عبدالله القسري يبني وراء سور الكوفة كنيسة لأمة النصرانية . وكان المسيحيون يدقون الناقوس حين يؤذن المؤذن للصلاة، كما أن ترانيمهم كانت تعلق صوت الإمام<sup>(٢)</sup> . وقبل ذلك كان رجل غني من أغنياء انصنا بمصر العليا قد بنى ديرا كبيرا في الجبال . كما أذن الوليد بن رفاعة والي مصر باعادة بناء كنيسة أبي مينا ظاهر مدينته حين شكوا المسيحيون من تعرض بعض المسلمين لهم في الذهب والمجىء .

وفي حين جدد أسقف بيت عبو كنيسة الدير في هذه المدينة سنة ١٢٥ وأصر والي الموصل على تغريمه ١٥ ألف درهم، نهب أبو الجراح بشر بن أوس دير مار مريم قرب بلبيس، ثم ما لبث أن رد إليه بعد قليل كل ما استولى عليه . وهدم مروان بن محمد أثناء هربه إلى مصر جميع كنائس طما عدا واحدة ثم حول ثلثيها إلى مسجد<sup>(٣)</sup> . وفي سنة ١٤٦ كتب المنصور إلى يزيد بن حاتم بالتحول من العسكر إلى الفسطاط وأن يجعل الدواوين في كنائس القصر بالفسطاط .

(١) تريتون المصدر نفسه ص ٤١ - ٤٢ .

(٢) تريتون المصدر نفسه ص ٤٥ والأغاني ج ١١ ص ٥٠ .

(٣) تريتون - المصدر السابق ص ٤٦ - ٤٧ .

وفي زمن المهدي بني دير للروم في بغداد ولم يكدها، بن الرشيد يتولى الحكم حتى أمر بهدم جميع الكنائس المستحدثة بمصر. فاستجاب الوالي علي بن سليمان لأمره وهدم كنيسة مريم ومحارس قسطنطين. وبذل الأقباط له خمسين ألف دينار في تركها فرفض. وكانت قد هدمت قبل ذلك بعشرين سنة أثر ثورة قامت في سخا. ولما جاء موسى بن عيسى أيام الرشيد نفسه سمح للنصارى بتجديد هذه الكنائس. وأكد عبدالله بن لهيعة قاضي مصر أن جميع البيع في مصر إنما بنيت زمن الصحابة والتابعين<sup>(١)</sup>.

وإذا كان مفهومنا أن يهدم الرشيد بعض كنائس الثغور مستعملا انقراض اثنتين منها في بناء مدينة الحدث<sup>(٢)</sup>، ومفهوما أن تسمح فوضى الحكم أيام صراع الأمين والمأمون، يهدم أديرة وادي هيب (المعروف بوادي النظرون)<sup>(٣)</sup>. فقد أعيد بناء هذه الكنائس بعد سنين معدودة وأذن لإثنين من خدم المأمون ببناء كنيسة في جبل المقطم وشيد أحد الأثرياء كنيسة في بلده (بوره)<sup>(٤)</sup>.

وقد وفد العرب المسلمون من حران، والرها وسميساط على قائد المأمون عبدالله بن طاهر يطلبون هدم الكنائس التي استحدثت في السنوات العشر الأخيرة فرفض، في حين أمر أخوه محمد بهدم الكنائس في بيت نهرين<sup>(٥)</sup> ثم أمر المتوكل بهدم كل البيع المحدث في الإسلام<sup>(٦)</sup>.

(١) المصدر السابق ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) الطبري (٧١٢/٣).

(٣) المقرئ - الخطط ٤٩٢/٣.

(٤) تريتون المصدر السابق ص ٤٩.

(٥) تريتون المصدر السابق ص ٥٠ - ٥١.

(٦) الطبري ج ٣ ص ١٤١٩.

«يتجلى لنا مما سبق أن الكنائس كانت تبنى بحرية وبموافقة السلطان أحيانا وبمساعده. وليس هناك حتى سنة ١٥٠ أو سنة ١٧٠ أي أمر بعدم بناء الكنائس، إلا ما يذكر من عمر بن عبدالعزيز وهو أمر مشكوك فيه. والمتوكل كان أول من حرم سنة ٢٣٥ بناء بيعة جديدة»<sup>(١)</sup>، وكان الدافع لذلك تناقص اعداد النصارى وزيادة اعداد المسلمين عليهم ولذلك كانت العامة في بغداد وغيرها، من بعده تقوم بنفسها بهدم بعض الأديرة والكنائس وتبدأ عمليات التعصب. وهكذا هدم العامة ببغداد دير كليلا يسوع سنة ٢٧١ - ٢٧٢ ونهبوه<sup>(٢)</sup>. وأحرقت كنيسة مريم بدمشق سنة ٣١٢ ونهب دير النساء بجوارها وألم الدمار بكنائس أخرى. وبعد قليل نسمع عن تحطيم كنيستين في الرملة وعن غيرها في عسقلان وقيسارية وهدمت سنة ٣٢١ الكنيسة خارج حصن تيس فأحرقه العامة ثم أعيد بناؤه بمساعدة الأخشيديين<sup>(٣)</sup>. وفي سنة ٣٢٥ أحرقت الأبواب الشرقية لكنيسة القيامة في القدس ونصف ديرها وامتدت يد السلب إلى الكنيسة ذاتها. وبعد ذلك بعام أو عامين نهبت كنيسة مريم الخضراء في عسقلان. وخربت وأعان اليهود على ذلك، كما أحرقت كنيسة القبر المقدس سنة ٣٥٥، فتعهد كافور لملك الروم بإعادة بنائها. . .<sup>(٤)</sup> وقبل ذلك افتك الأسقف كنائس تيس من أبي بكر محمد بن طفج الأخشيد بمبلغ خمسة آلاف دينار<sup>(٥)</sup> «وكان مسلك الحكومة يختلف باختلاف الأزمنة فحين ثارت حمص، بمسلمها ونصرانيها على الدولة سنة ٢٤٠ أمر المتوكل بنفي المسيحيين وهدم كنائسهم<sup>(٦)</sup> عقوبة لهم. وانهدم

(١) تريتون المصدر السابق ص ٥١.

(٢) الطبري ج ٣ ص ٢١٠٧.

(٣) المقرئزي - خطط ج ٢ ص ٤٩٤.

(٤) تريتون المصدر السابق ص ٥٢.

(٥) المقرئزي خطط ص ٥٥.

(٦) تريتون ص ٥٤.

جانب من كنيسة أبي شنودة في مصر فلما أفتى محمد بن علي العسكري بجواز ترميمها ثار به العامة رغم حماية الحكومة له وللكنيسة ومنعوه . لكنها بنيت بعد سنوات سنة ٣٦٦<sup>(١)</sup> . وأمر الخليفة العزيز الفاطمي بإعادة كنيسة مرقص أبي مرقودة إلى البطريك بعد أن تعرض له العامة ودفع من جيبه تكاليف ترميمها تحت حراسة الجنود .

وكان عهد الحاكم بأمر الله هو عهد المحنة العظمى للمسيحيين وكنائسهم التي أمر الحاكم سنة ٤٠٣ أو سنة ٤٠٥ بهدمها وبيع أدواتها، انتقاما للموقف البيزنطي منه . وهكذا هدمت «آلاف» على حد قول ابن العبري من البيع في مصر والشام من بينها كنيسة القيامة في القدس وكنيسة أبي شنودة في مصر، ومرق العامة أخشابها . لكن الحاكم لم يلبث بعد سنوات، حين اتفق مع بيزنطة أن أمر بإعادة بنائها وأتم ابنه الظاهر ترميم كنيسة القيامة . ولكن كنيسة جرجس التي أعيدت لأصحابها في عهد المستنصر لم تسلم من شغب العامة ونهبهم وانتظرت سنين حتى تم ترميمها<sup>(٢)</sup> وحفظت كنيسة المرتوني بمطف الخلفاء الحافظ والظاهر والعاقد من أواخر الفاطميين .

وحين قدم الصليبيون إلى الشام مرت الحياة الدينية المسيحية في الشرق كله بنوع من الأزمة والتوتر، وصار الناس يتحسسون من كل ما يمس النصرانية لاسيما حين وجدوا أن الفرنج الصليبيين لم يبقوا في المدن التي احتلوها جامعا إلا فيما ندر كجامع عكا الصغير (أبقوه للتجار المسلمين) . وحولوا الجوامع كنائس على طول الساحل الشامي في انطاكية وجبله وطرابلس وصور وعكا ويافا وقيسارية والقدس وطبرية ونابلس، كما نصبوا

(١) الكندي - الولاة والقضاة ص ٥٥٤ .

(٢) أبو صالح الأرمي، تاريخ، ص ٣٥ - ٣٦ .

صليبا من الذهب فوق قبة الصخرة وحولوا الجامع الأقصى إلى اصطبل .  
لكن الفتح الصلاحي عاد فأعاد كل شيء إلى ما كان من قبل ، ولكن ذلك  
كان بعد قرابة تسعين سنة في بعض المدن وقرابة مائة وتسعين أو مائتين في  
بعضها الآخر .

على أن موقف القادة المسلمين من الكنائس ومن المسيحيين ، وبخاصة  
أولئك الذين تعاونوا مع الصليبيين كالأرمن والموارنة كان مختلفا . وكانت  
تجري خلال الحروب بعض الاعتداءات المتبادلة وإن كانت لا تمس كثيرا  
المسيحيين الوطنيين كالقبط في مصر والسريان والملكانية في العراق والشام  
الذين ظلت حياتهم الدينية تجري في مجراها الطبيعي في مصر ودمشق و حلب  
والموصل وبغداد وإن كانت تحمل بعض التحفظ من جانب النصارى وبعض  
الترقب من الجانب الإسلامي . على أن الجو السياسي العام كان أميل  
للتسامح عند زوال الأزمات الحادة بين الطرفين .

وهكذا فحين صدر مرسوم فاطمي سنة ٥٦٤ بتملك القبط لكنيسة  
يوحنا المعمدان في منطقة باب زويلة من مصر شغب العامة ومنعوا تنفيذه  
بسبب اذلال القبط عليهم ، فأوقفوا تنفيذه لكنها أعطيت لهم سنة ٥٧٣<sup>(١)</sup>  
و حين استولى نور الدين بن زنكي على الموصل أمر بهدم جميع الكنائس  
والأديرة المستحدثة فيها ، لكن سرعان ما أعيد بناؤها . لكن العامة كانوا قد  
هدموا ديرا بأرض نينوى وديرا آخر<sup>(٢)</sup> . وفي الرها هدمت كنيسة أياصوفيا  
حتى أسسها عقوبة للمسيحيين الذين أعانوا الفرنج على احتلال المدينة فترة  
قصيرة بعد فتحها ، ونقلت أنقاض الكنيسة لبناء جامع في حران وقلعة في  
الرها نفسها . كما اتهدم بعض الكنائس الأخرى . وفي حين كان العامة

(١) أبو صالح الأرمني تاريخ ص ٣ - ١١ .

(٢) تريتون - أهل اللمة ص ٥٩ .

يجردون بعض الكنائس بعد فتح مدن فلسطين وغيرها من حديدتها وأخشابها وأبوابها أحيانا كان أمثال نجم الدين الأرتقي أمير ماردين يساير النصارى في منطقتهم وهي مملوءة بهم ويعاون في بناء الكنائس ويسمر مع السمار في الأديرة .

وقد غزا المغول المشرق الإسلامي ودمروه كما دمروا الخلافة العباسية في المشرق . وعلى الرغم من أن النصارى قد أعانهم في ذلك وفرحوا للنكبة الإسلامية ، وتعاونوا مع الفاتحين في بعض المدن ، إلا أنهم في المدن التي استردها المسلمون بعد ذلك كمدن الشام دفعوا الثمن غاليا . ففي دمشق تمادوا في شرب الخمر في رمضان وفي اهراقه على ملابس المسلمين ، خلال الاحتلال المغولي . كما صاروا يرغمون أصحاب الخوانيت على الوقوف لهم إذا عبروا ، وبالفنون في مواكب أعيادهم ويصيحون : انتصر دين المسيح . فلما طرد الترنهبت بيوت النصارى وهدم بعضها ، ودمرت كنيسة كنيستان ، وذبح بعضهم ، وأسر بعض آخر . ونال مثل ذلك اليهود أيضا .

وحدث سنة ٦٦١ أن هدمت كنيسة في الناصرة<sup>(١)</sup> وفي سنة ٦٦٩ استردت انطاكية من الفرنج وأحرقت بعض كنائسها بسبب الانتقام الحربي .<sup>(٢)</sup> وعاد الرأي الفقهي بعد ذلك إلى الفكرة السلفية التي استقرت منذ القرن الثالث فأفتى ابن دقيق العيد سنة ٧٠٠ بألا يجوز هدم إلا ما استجد بناؤه من الكنائس . فأغلق بعضها في مصر والشام لأيام معدودة . ولكن السلطان محمد الناصر أذن سنة ٧١٧ بترميم كنيسة «بربارة» فلما جعلها النصارى راتعة البناء سعى بعضهم لدى السلطان حتى أمر بهدمها .

(١) أبو الفداء - المختصر ج أخبار سنة ٦٦١ .

(٢) ابن العبري - مختصر تاريخ الدول ص ٥٠٠ .

ولما كانت فتنة القاهرة سنة ٧٢١ أصابت الأئمة الكنائس المصرية عامة فخرّب الكثير منها بيد العامة ونهبت لكن بعضها مالبث أن أعيد بناؤه . على أن الهدم الرسمي إنما كان يتجه دوما لما استجد بها شغب أهل الشغب، ويعدد المقرّبي أسماء كثير من البيع التي أصابها التدمير ويقول أنها جميعا - بما في ذلك كنس اليهود - مما أحدث بعد الإسلام بلا خلاف!

وإذا كان هذا هو الموقف من الكنائس «في المدن الإسلامية» وهذا مبلغ ارتباطه بأهواء الحكام وبالظروف التي توجههم فإن علاقة النصارى بالدولة الإسلامية كانت أفضل بكثير. على أننا يجب أن نلاحظ ملاحظة هامة هي أن الريف على أطراف الحوض المتوسط وفي بلاد إيران هو الذي كان يحتفظ بالكتلة الزمنية من مسيحية وزارادشتية . أما القوى الدينية الموجهة لهذه الجماعات فهي التي كانت تسكن المدن وتقيم العلاقات مع الحكام المسلمين وهي علاقات يتبين من قدرتنا على تعداد الأزمات فيها وتسجيلها واحدة واحدة إنها كانت على الدوام علاقات حسنة، وكانت علاقة تعاون مستمر لا يؤثر الموقف الديني فيه إلا أضعف التأثير. وكثيرا ما نقلت الخلافات الداخلية بين الجماعات النصرانية إلى الحاكم الإسلامي أو الخليفة للحسم فيها. فالخلافات المارونية هي التي دفعت لتدخل الدولة في رئاسة الطائفة إلى إقامة البطريركية المارونية زمن هشام أواخر العهد الأموي . وجرى مثل ذلك بعد وفاة البطريرك حنا السمنودي حوالي سنة ٦٨٣/٦٥ في الإسكندرية، وأغلق عبدالعزیز بن مروان البطريركية استجابة لكتابه النصراني . واختلف نصارى العراق فتدخل عبدالملك بن مروان سنة ٦٧ وعين للبطريركية في المدائن حنا نيشوع مطران نصيبين<sup>(١)</sup> . لكن الأمر

---

(١) عمرو بن متى - بطاركة كرمي المشرق ص ٥٩ وكان لنصارى العراق من السريان مقر بطريركي في المدائن، منذ عهد الفتوح حتى ما بعد نهاية العصر الأموي .

زاد تضييقا بعد ذلك فحين مات يوحنا السيناوي بطريرك المدائن المعروف بالأبرص سنة ٧٦ رفض الحجاج تعيين بديل له فظلت البطريركية شاغرة أربع عشرة سنة حتى مات الحجاج<sup>(١)</sup>.

وكذلك لم يسمح الوليد بعد موت يوليانوس بطريرك انطاكية بتعيين آخر مكانه . واستطاع الملكانيون دفع ألف دينار إلى قسرة بن شريك ليسمح بتعيين نسطاسيوس بطريركا في الاسكندرية<sup>(٢)</sup> . لكن الأمر عاد مقبولا بعد ذلك في نهاية القرن الأول، وأقر تعيين عدد من البطاركة . حتى أن الخلفيدونيين الذين قضوا سبعا وسبعين سنة دون بطريرك استطاعوا تعيين بطريرك لهم . وأذن الخليفة هشام لبعضهم بأن يقيم في انطاكية . . بعد أن نقلوا كرسيها من الاسكندرية إلى هذه المدينة . وحين توفي اثناسيورص عمده هشام إلى تعيين خلفه يجنس، كما عين جملة من الأساقفة معه<sup>(٣)</sup> . وهكذا صار من التقاليد التي وجدت في العهد الأموي أن يكون تعيين رأس الطائفة بيد رئيس الدولة رسميا، وأما دينيا فكان الأمر لكبار المطارنة والقساوسة . طبق ذلك في جميع المذاهب وهذا ما سمح للسلطة أحيانا بالتدخل المباشر ضد رغبة الجاليات .

وجاء العهد العباسي الطويل فاستمر ذلك على أن البطريرك (أو الجائليق كما يسمونه يومذاك) كان خاضعا للأثرياء في الجالية وفي الحكومة، فقد طلب المنصور من أساقفة كرمي المدائن اختيار اثناسيوس بطريركا فكان . لكنه حين مات بعد سنتين قامت الخصومات ضمن الجالية وحبس المنصور بعض المرشحين في حران حتى مات . وانتخب بدلا منه بطريرك

(١) عمرو بن متى، بطاركة كرمي المشرق ص ٦٠ .

(٢) ساويرس: سير البطاركة ص ١٤٠ و ص ١٤١ .

(٣) ساويرس المصدر السابق ص ١٦٣ .



تعج الكنائس بالجند والفرسان عند زيارته لها بدل رعاياه المسيحيين . وقد تولى بطريرك المدائن منذ سنة ١٥٨ (سنة وفاة المنصور ولمدة أربع وأربعين سنة ميلادية ١٥٨ - ٢٠٤) البطريرك طيما ثاوس الذي كان على علاقة طيبة جدا مع المهدي والرشيد والأمين حتى المأمون يجادلونه ويأنسونه إليه ويمضون أمور النصارى على ما يريد . على أن السلطات كانت تراقب كبار رجال الكنيسة مراقبة دقيقة في بعض الأحيان، وتحسم خصوماتهم بالتدخل المباشر وحسب قناعاتها، وأحيانا حسب المال الذي يبذل . وقد حدث نزاع في كنيسة أنطاكية حوالي ٢٠٥ - ٢١٠ تدخل في حسمه لصالح أحد الطرفين (وهو ديونيس) عبدالله بن طاهر قائد المأمون . ولكن الخصم أفرام بعث بأخيه إلى الخليفة واستطاع استخراج أمر بتعيين أخيه فلم يستطع عبدالله نقضه<sup>(١)</sup> . وكان دير المدائن هو الدير الذي يجري فيه تنصيب البطريرك قبل الإسلام ، واستمر ذلك حتى ما بعد سقوط بغداد بيد المغول . لكن البطارقة تقريبا من السلطة سكنسوا في دمشق بدلا من انطاكية ، وفي مصر بدل الإسكندرية ، وفي الكوفة ثم بغداد بدلا من المدائن . وقد نقل المقر إلى بغداد البطريرك سبريشوع أيام المأمون حين أعاد بناء دير قديم يعرف بدير مارفتيون ووجد بناء بيت الشهداء المجاور له وجعله مقرا له سنة ٢١٠<sup>(٢)</sup> . أما مقر الجاثليق الأرمني فظل في قلعة الروم بالجزيرة بين رعاياه .

ولقي المسيحيون شدة عابرة زمن المتوكل الذي أمر بلبسهم «الغيار» (أي اللباس المغاير للمسلمين ، وكان الأزرق للمسيحيين والأسود لليهود) . وأنفذ أمره لكل مكان ، من مصر حتى خراسان كما أمر أن لا يركبوا الخيل ، وأن يميزوا بيوتهم بعلامة<sup>(٣)</sup> . لكن هذه الشدة كانت عابرة وما لبثت أن

(١) مكرر ترينتون - أهل اللمة ص ٨٧ - ٩٠ .

(٢) عمرو بن مني المصدر السابق ص ٧٠ .

(٣) انظر تفصيل ذلك لدى عمرو بن مني المصدر السابق ص ٧١ .

انهارت أواخر عهده . بل سمح ببناء الكنائس وبنى الكثير منها ومن الأديرة . وقد أثبت البطريرك يوانيس سنة ٢٨٠ هـ واجبات البطريرك الدينية في عهد كتبه على نفسه : أن لا يثقل على الرعية ولا يتناول أكثر من الواجبات المعهودة ولا يضطهد أبناء البيعة . «وإذا سهل الله شيئا وزعه على المساكين والمحتاجين والأيتام والأرامل . . . وأنا مخلوع من البطريركية ولست بنصراني بالجملة إن لم أف بذلك . وضمنت القيام بجميع ما عاد بعمارة البيع ودفع الشرور عنها وتكميل الوصايا الحسنة وأداء الجوالي (الجزية) عن الضعفاء ، والاجتهاد في تخليصهم بالقول والعمل متى حصلوا في الحبوس ، كما يجب على الأخوة المسيحيين . وأراعي المستورين والمضطرين والمحبيين على أيدي الناس في خفاء ، وأعني بأمر من يموت من الغرباء بالقيام بتجنيزه ودفنه ، إذا كان عضوا من أعضاء المسيح ولا أجوز في تقبيل (تلزيم) البيع طلبا للزيادات بل أسلمها إلى القوم الأتقياء الذين يخافون الله وأزيل العار بالأسياميذات السمونية التي تؤخذ عليها الرشا ويقاطع بسببها ، ولا أقبل على ذلك رغبة من أحد ولا أسلم رتبة الكهنوت إلا لمستحقها بعد البحث والاستقصاء في أمره ، ولا أسيم قسا ولا شماسا إلا على موجب القانون . . . ولا أسيم غنيا لا يصلح . . . (١) وطلب أخيرا أن يؤخذ العهد نفسه على الألام التي كانت النصراني تشكو دينيا منها والأعمال «غير الشرعية» التي كان يقوم بها القادة الدينيون المسيحيون ، قبله . ومع الأيام صار البطريرك موظفا أو أشبه بالموظف الرسمي في الدولة يعين بموجب مرسوم يصدر عن الخليفة ويحدد مهامه ويوصيه بما يفعل . وصارت له كغيره مراسيم للتنصيب فكان البطريرك المختار للمدائن يؤخذ الإذن أولا من الخليفة وتقام السفن في دجلة للإنحدار إلى المدائن لاكمال مراسم التنصيب ، ويقوم مطران جنديسابور أو نصيبين

(١) المصدر السابق ص ٨٢ .

برئاسة الاحتفال بذلك، وتلبسه «البيرون» (وهي غطاء للرأس كالقلنسوة أو القبع لا يلبسه غيره) ومعه ستة مطارئة هم أصحاب جنود يسابور والبصرة ونصيبين والموصل وأربل وياجرمي وحلوان (العراق)<sup>(١)</sup>. وكان بطريك المدائن يعتبر الجائليق الأول في الدولة العباسية، والمقدم على البطاركة الآخرين من روم وبعاقبة وملكانية، في جميع البلاد<sup>(٢)</sup>. وحين يرجع البطريرك من التنصيب يطلب الإذن على جاري العادة ليسلم على الخليفة.

وكان شأن البطريركية يعظم أو يضعف بمقدار حسن علاقاتها مع الحكام ومقدار شخصية البطريرك. ولما كانت تعتبر «من رتب الدولة الكبرى» - ولو أنها ضمن الدولة الإسلامية - فإنها كثيرا ما كانت تلعب بها الرشاوى والاهواء. وتجرى فيها الخصومات ضمن الطائفة. وتمهد لصاحبها سبيل الثروة الواسعة. فقد كانت تركة عمانويل البطريرك النسطوري سنة ٣٤٩ حين مات ٧ آلاف مثقال ذهب و ٦٠٠ ألف درهم فضة<sup>(٣)</sup>. وفي أيامه بنيت عدد من البيع منها بيعة بدار الروم ببغداد، والبيعة العتيقة أيضا. على أن البطريركية ان كان ممكنا أن تكون زمن الهدوء العوية بيد الحكام إلا أنها كانت في الأزمات ملاذا لرعاياها أو على الأقل هذا ما كان يعتقد المسيحيون في رئاستهم العليا<sup>(٤)</sup>. وقد حدث نزاع في الكنيسة حوالي سنة ١٠٥٧/٤٤٩ إذ اختير بطريركان أحدهما في قلعة المنصور، والآخر في آمد وقد رشا أحدهما الحكام الدنيويين. وجرى الشيء نفسه في ماردين بعد ذلك بسنوات قلائل وتسلم والي الموصل سنة ١٢٨٧/٦٨٦ كثيرا من الهدايا في سبيل الميل مع أحد الطامعين<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر عمرو بن متى - اخبار بطاركة كرسي المشرق الصفحات ٨٥، ١٢٦ وص ٩٠.

(٢) انظر منشور الخليفة سنة ١١٣٨ لدى تريتون - أهل الذمة ص ٩٣.

(٣) عمرو بن متى - المصدر السابق ص ٩١.

(٤) تريتون - أهل الذمة ص ٩١-٩٢.

(٥) المصدر السابق ص ٩٣.

وجرت بين سنتي ٥٨١ - ٥٨٩ قضية مماثلة في بطيركية أرمينية إذ اتهم بعض الطامعين البطريرك قرياقاريوس بأن له ولدا وكان هو نفسه من أقربائه . ورشا الوالي فنصبه بطيركا ورسم عددا من الأساقفة ولم يتخلص البطريرك من هذا الطامع إلا بواسطة كتاب من الخليفة بعث للحصول عليه الهدايا الوفيرة إلى بغداد<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت هذه ملامح من علاقة النصارى دينيا بالدولة فسوف نبحت في فصل البنى الاجتماعية علاقتهم بالمسلمين عامة .

### ثانيا : اليهود في المدن الإسلامية

كان اليهود منتشرين في الجزيرة العربية قبل الإسلام على امتداد خط التجارة بين فلسطين واليمن ، كما كانت لهم مدنهم الخاصة أحيانا وحصونهم . وقد أخرجهم عمر بن الخطاب ، مع غيرهم من النصارى من الجزيرة لكنهم ظلوا يتوزعون المدن في مصر والشام والعراق ، ويمتدون منها إلى شمالي إفريقيا ثم الأندلس ، وإلى إيران والمشرق . وقد ذكر المقدسي - فيما سبق - وجودهم في مختلف المناطق . على أن المؤلفين المسلمين قلما يشيرون إلى هذا الوجود استصغارا لهم وعلى أساس أنهم فئة ضئيلة مستضعفة ، من جملة أهل الذمة .

وكما لم يكن المسيحيون مذهباً واحداً كذلك لم يكن اليهود على مذهب ديني واحد فهم فئات ومذاهب شتى منها السامريون سكان جبل السامرة حول نابلس ، ومنها الربانيون والقراؤون وهذه النحل تفرقت فيما بينها إلى نحل عديدة وتفرقت كلها حول الاعتراف بأسفار التوراة والتلمود أو افكار

(١) متر - الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٧٧ .

بعض هذه الأصول في المشنا وغيره . ويتميز بعد ذلك الفريسيون (أي المنعزلون) الذين هم كبار الأحرار والذين يدعون أنهم أكثر الناس معرفة بالشريعة ويسمون أنفسهم بالحسيديم أي «الأتقياء» مقابل جمهور اليهود (عوام الأرض) - كما يسمونهم - الذين يحتاجون الهداية في الدين . وفي «عهد أبي جعفر المنصور ظهرت فرقة العنانية (نسبة لرأس الجالون عنان بن داود) .

على أن اليهود كانوا في الواقع مجموعة دينية متواصلة بعضها مع بعض استغلت التسامح الإسلامي لإقامة الروابط بين أفرادها في المدن المختلفة ، لاسيما وأنه كانت لهم محاكمهم الخاصة التي يقر بها الإسلام .

وقد كشفت وثائق الجينزا (التي وجدت بمصر القديمة) أن قضايا اليهود المدنية كانت تنظر في العهد الفاطمي أمام قضاة يهود . وكان ذلك جاريا من قبل في العهدين العباسي والأموي . وكان اليهود يستأنفون بعض هذه الأحكام أمام قضاة مسلمين . ونسمع عن سجن خاص باليهود في الموصل<sup>(١)</sup> لكنهم كانوا يكونون في كل مدينة مجموعة قد تختص «بحارة» خاصة أو حي كما في دمشق أو القاهرة أو قرطبة حيث كان لهم حي باسمهم ، أو تنشر حيث تشاء في المدينة كما في بغداد وتستر وشيراز ونيسابور وسجلماسة . وقد يغلبون على البلد كما في مدينة (تركونه) . ويقال أن الحاكم بأمر الله هو الذي أفرد لليهود حارة زويلة وأمرهم بسكنائها وألا يخالطوا المسلمين في حين تقول رواية أخرى أنه أسكنهم حارة اسمها «الجودرية» .

وكانت لليهود أحيانا جاليات كثيرة العدد وغالبا ما كانت توجد في المدن التجارية . فكان لهم في الاسكندرية إبان الفتح الإسلامي جالية يتراوح عددها بين أربعين وسبعين ألفا<sup>(٢)</sup> . ومن الواضح أن العهد العمري

(١) متر - الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٧٧ .

(٢) تريتون: أهل الذمة ص ٩٩ .

طلب اخراجهم من القدس ومنع عنهم سكنها كما أن من الثابت وجود نص خاص باليهود في معاهدة الصلح التي عقدت بين العرب الفاتحين والبيزنطيين<sup>(١)</sup>. ويذكرون أن اليهود أعانوا العرب المسلمين على افتتاح الأندلس لما كانوا يلقونه من العنت مع القوط. وكانت مدن الأندلس: مثل أليسانه والبيرة وطلبيطة تزدهم بهم<sup>(٢)</sup>. كما كانوا يكثر في قرطبة وطركونة مدينة اليهود على قول ياقوت وفي غرناطة التي كانت تعرف «بغرناطة اليهود» وفي المرية وبرشلونة<sup>(٣)</sup>. وكانت في بالرموحارة باسمهم<sup>(٤)</sup>.

ولنلاحظ أنهم سرعان ما وجدوا في المدن الإسلامية الأولى التي أنشأها المسلمون: البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وشيراز وكان لهم حي خاص أطلق اسمه على جزء من المدينة وسمي باليهودية<sup>(٥)</sup>.

وقد التزمت الدولة الإسلامية منذ الفتح بمبدأ حرية العقيدة للذميين أهل الكتاب. وقد جرت محاولة في زمن عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) لإخراج اليهود من الوظائف اتباعاً لسياسة عمر بن الخطاب لكن هذه المحاولة فشلت. وإذا تكررت في عهد المتوكل (٢٣٤ - ٢٤٧) ثم في عهد المقتدر سنة ٢٩٥ فإن اليهود كالتنصاري عادوا بسرعة إلى الجهاز الإداري للدولة، كما عادوا وفيهم الصاغة والتجار الكبار والصيارف والجهابذة وأصحاب الضياع والأطباء إلى حياتهم التي سبق أن اعتادوها من قبل. فلهجة تلك المراسيم التي كانت تضيق على أهل الذمة كانت دوماً أعلى

(١) السيوطي - حسن المحاضرة ج ١ ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) المقرئ - نفع الطيب ج ١ ص ١٤٨.

(٣) انظر الخشني - قضاة قرطبة ص ٦٤.

(٤) ابن حوقل ص ٨٥.

(٥) ابن حوقل ص ٣٠٩.

وأقصى من تطبيقاتها الوقتية . ويستدل من كتابات المؤرخ القبطي ساويرس بن المقفع أن ثمة نوعا من العداوة قوامها التنافس - كانت قائمة بين اليهود والنصارى سواء في مصر كما ذكر، أم في بغداد أم في الأندلس . وكانوا ينعنونهم «باليهود الكفرة» . على أن ذلك لم يكن يؤثر على الحياة الدينية للفريقين تجاه الدولة المسلمة . وكان الحكام سواء في المشرق أم في المغرب يستخدمون النصارى واليهود والمجوس أطباء أو جباة ماليين، أو موظفي إدارة أو صيارفة أو يشتركون معهم في التجارة دون أن يتدخلوا في ديانتهم إلا ما قد يكون من التمني عليهم أحيانا باعتناق الإسلام (كما جرى مع هلال الصائبي) .

وقد وصل بعض اليهود إلى أعلى مناصب الدولة سواء في المشرق أو في الأندلس ومن أبرزهم يعقوب بن كلس .

ولم يكن العرب يرهبون شيئا من اليهود لأنهم جاليات متفرقة في البلاد ولا دولة من ورائهم تجمعهم كالنصارى الذين كانوا كثرة كبيرة ولهم مدنها في طول العالم الإسلامي وعرضه (كالمجوس في إيران)، ومن ورائهم بيزنطة التي ما انفكت تحارب المسلمين على جبهة عريضة تمتد من آسيا الصغرى عبر جزر بحر ايجه حتى صقلية والبر الطويل (إيطاليا) . ولهذا قبل المسلمون اليهود دون حرج . و«أنزل معاوية جماعة كبيرة منهم في طرابلس»<sup>(١)</sup> كما أنزلهم المسلمون عند فتح الأندلس في مدن قرطبة وغرناطة وطلليطلة واشبيلية .

ويهمنا من أمر اليهود هنا حياتهم الدينية وتنظيماتها\* فقد كان يرأس

(١) البلاذري - فتوح ج ١ ص ١٥١ ويضيف البلاذري «وهم الذين في المنيا» .

\* أخذت الكثير من معلومات الفقرات التالية عن كتاب: اليهود في الحضارة الإسلامية: لعطية القوصي (القاهرة ١٩٧٨) .

اليهود رئيس ديني يدعى «برأس الجالوت» ومعنى الجالوت يساوي معنى الجالية في العربية وكان يجمع الضرائب منهم ويسراقب محلاتهم في الأسواق وينظر في جرائمهم ومقاضاتهم وله السيطرة التامة عليهم. وقد ورث العرب الفاتحون، بين ما ورثوا، رئاسة الجالوت عن الفرس والبيزنطيين. لكن لم يكن له في الاسلام حبس ولا ضرب وليس له إلا «أن يغرم المال الذي يجمعه من اتباعه»<sup>(١)</sup>. ويذكر اليهود أن الخليفة عمر بن الخطاب أقر الحاخام البستاني رئيسا على عموم الطائفة في الدولة الإسلامية وأن هذا المنصب بقي في أعقابه يتوارثونه وقتا طويلا. وتلصق المصادر اليهودية بعمر نفسه منحه لقب رئيس الجالوت للمنصب ولكنه دون شك قديم<sup>(٢)</sup>. وصيغة الجالوت غير موجودة في العربية وهي عبرية سريانية. ويضيف كتاب اليهود أن الخليفة عليا ابن أبي طالب أقر بيت البستاني على رئاستهم ولقبهم لأنهم أعانوه واستقبلوه ورحبوا به عند فتح بروز شابور القريبة من مجادينا وأن الامر استمر على ذلك طول العهد الأموي والعهد العباسي وأن مقر الحاخامية انتقل في هذا العهد من المدائن إلى القدس<sup>(٣)</sup>. ثم عاد فانتقل مع العباسيين إلى بغداد. وبعد فترة قصيرة صار تعيينه يصدر من ديوان الإنشاء مثله مثل كل الموظفين.

وكان لرأس الجالوت عند تعيينه مراسم ذكرها ناتان البابلي الذي هاجر إلى إفريقية سنة ٣٣٩/٩٥٠ تتضمن اجتماع المجلس الديني الأعلى، ونفخ الشابور (البوق)، وتقديم الهدايا إليه من جميع الجالية والانشاد للتوراة. وكان في العراق أكاديميتان لليهود واحدة في سورا وأخرى في

(١) المقرئ - نفع الطيب ج ١ ص ١١٦ وما بعدها و ص ١٧٠.

(٢) الجاحظ - الحيوان ج ٤ (ط. القاهرة ١٩٦٦) ص ٢٧.

(٣) الطبري ج ١ ص ٧٤١ (طبعة لندن ١٨٧٩).



بمبادينا<sup>(١)</sup> فيأتي رجالهما إلى الاحتفال ورئيساهما عن شماله ويمينه، ثم يعلن رأس الجالوت أرقام الدخل الوارد من كل المدن (التي يوجد فيها جاليات يهودية)، ثم يدعو للخليفة وممثلي الحكومة الذين يقدمون المساعدة للأكاديميات اليهودية ثم يوضع طومار العهد على المنبر ليقرأ جانباً منه قارئان، وينتهي الحفل بتلاوة من التوراة يتلوها رأس الجالوت الذي يعود بعد ذلك إلى بيته ويبقى حول البيت جمهور اليهود سبعة أيام، ثم يعود رأس الجالوت إلى المعبد يتلقى التهاني. وكان رأس الجالوت هو المسؤول عن دفع كامل الجزية عن اليهود يساعده ممثلوه الدينيون معه في البلاد، ولم تكن هذه الجزية كبيرة لأن رأس الجالوت كان يتقاضاها دينارا على الفرد في السنة. ويذكر بنيامين التطيلي سنة ٥٧٠ أن دخل رأس الجالوت من الضرائب المفروضة هو مائتا ألف دينار<sup>(٢)</sup>. مما يدل على أن عدد اليهود في المشرق يقارب هذا العدد. وربما كان عددهم في الأندلس والمغرب لا يزيد كثيرا عن الرقم نفسه. وقد جرت العادة على أن يجزل رأس الجالوت عند تعيينه العطاء للخليفة والأمراء ورجال الدولة وكان الوالي يساعده على جمع ما يقضي به على اليهود من مال. وكان من جملة أعمال رأس الجالوت بحكم وظيفته أن يكون القاضي (دايان) وأن يختار للجاليات في المدن المختلفة قضاة. وإذا استمر بيت البستاني في توارث الرئاسة فقد احتفظوا أيضا لكل منهم بلقب (ناسي) أو أمير. وقد وجد خطاب بتعيين رأس الجالوت سنة ٩١٨/٣٠٦ ورد فيه «أن رأس الجالوت ألقى بعض أبيات الشعر بالعربية أمام الخليفة<sup>(٣)</sup>. وكان رأس الجالوت زمن الخليفة المتقي العباسي (٣٢٩ - ٣٣٣) هو دانيال بن حسداي من أسرة البستاني وله عشرة أعوان. وكان مسلمو

(١) دويتوف نفسه ج ٢ ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٢) تريتون - أهل الذمة ص ١٠٤.

(٣) غوينابن: عرب ويهود (بالإنجليزية) ص ١٢١.

عصره يدعونه بسيدنا ابن داود، وكان المكتفي هو الذي بوأه الرئاسة على اليهود حتى أصبح من فرائض السلطة أن يقوم الناس أجلالا له إذا مر بهم ومن لم يقف ضرب مائة سوط. وكان يذهب للقاء الخليفة مساء كل خميس فيقبل يده ويجلس والأمراء المسلمون وقوف بين يديه<sup>(١)</sup>. والسبب في ذلك ما كان رأس الجالوت واليهود يقدمونه من المال والقروض للخليفة وخزانة الدولة في أزمتها يومذاك. وقد أعجب بنيامين التظلي الذي زار بغداد حوالي سنة ١١٦٨/٥٦٤ بما كان لرأس الجالوت من مقام بالبلاط وأطنب في وصف استقباله ومكانته. وكان رأس الجالوت يحمل من الألقاب في القرن السادس ما يدل على مكانته ويكتب له ديوان الإنشاء: الرئيس الأوحده والأغر والأخص والكبير وشرف الطائفة...<sup>(٢)</sup>.

وقد برز في العصر العباسي منصب ديني آخر لم يعد يقل مكانة عن رئاسة الجالوت هو منصب الجامعون (ومعناها المعظم) ويحمله كبار علماء الشريعة اليهودية<sup>(٣)</sup>. والإسم قديم لكنه برز في ظل الإسلام لأن علماء اليهود استغلوا الحرية الدينية المعطاة لهم وحرية التنقل وحرية التعليم. وكان رئيسا الأكاديميتين سورا ومبيادينا يحملان هذا اللقب وصار لهم من ينوب عنهم (تكديم) لدى الجاليات المختلفة للفتيا في شؤون الدين اليهودي وفي القانون المدني... وفي جمع التبرعات أيضا للجامعونية التي كانت منصبا دينيا فحسب. مما جعله في نظر اليهود أعلى من رأس الجالوت الذي كان منصبا رسميا تتدخل فيه الدولة الإسلامية. ومقر الجامعونية كان بالطبع في سورا ومبيادينا لكن المقدمة منها كانت جامعونية سورا بينما كان جامعون مبيادينا يلقب

(١) تريتون: أهل الذمة ص ١٠٤ عن رحلة بنيامين التظلي ص ١٣٦ الحاشية رقم ٦ و ص ١٣٧ الحاشية رقم ٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى (القاهرة ١٩١٥) ج ٢ ص ١٧٤.

(٣) دوينوف: المصدر السابق ص ٣٥٨ وغوثباين: يهود وعرب ص ١٢٢.

برأس الشفاعة (يشيفا) على أنها تساوتا في المكانة منذ القرن السادس .  
وتعقد جاعونية سورا اجتماعات نصف سنوية في شئون الدين يحضرها  
المجلس الديني الأعلى (السنهدين) وسبعون متعلما كل حسب مرتبته وتعقد  
في ختامها امتحانات للموجودين . ويلحق بهذه الأكاديميات محاكم عليا  
يحضرها الجاعون لحل المشكلات الدينية الهامة .

وللجاعون أن يختار قضاة المدن (الديانين) ويحمل كل منهم لقب رابي  
ويعطيه الجاعون شهادة بممارسة القضاء . وكل ديان يرأس المجالس التعليمية  
في منطقته وينظر في الأحوال الشخصية للطائفة ويتسلم من كل يهودي مبلغا  
من المال . وجاعون «سورا» ينوب عن رأس الجالوت عند وفاته حتى يتم  
اختيار رأس جديد<sup>(١)</sup> .

وقد بقي الجاعونيم يمارسون نشاطهم في العراق خلال العهد الأموي  
فلم ينتقلوا إلى الشام ، واستمروا على ذلك خلال العصر العباسي الأول حتى  
ظهر سعديا سعيد الفيومي (٢٧١ - ٣٣١/٨٨٢ - ٩٤٢) أعظم رجال  
التعليم اليهودي الذي نظم التعاليم اليهودية وفلسفها<sup>(١)</sup> . وقد عين جاعونا  
لسورا سنة ٩٢٨/٣١٦ كما تدل على ذلك بعض وثائق الجنيزا وقد ذكره ابن  
النديم وذكر ما وضع من الكتب . وكان طبييا فيلسوفا ولغويا شاعرا ، كما  
كان من كبار التجار وله ثروة كبيرة من تجارته العالمية وهو أول من ترجم  
التوراة إلى العربية ، وعلى تعاليمه ظهرت طائفة الربانيين ضد الفريق العنانية  
التي عرفت باسم القرائين الذين تأثروا بالمعتزلة وكانت آراؤهم صدمة للذين  
وجدوا في سعديا الفيومي أفصح مدافع عنهم ، بعد أن اتسعت المعركة بين  
الطرفين . وهكذا جرت عادة الدولة العباسية باعطاء رئاسة الجالوت إلى

(١) دهنوف : المصدر السابق ص ٣٦٠ .

الربانيين الذين صار مذهبهم هو المذهب الرسمي لدى الدولة<sup>(١)</sup>.

على أن نفوذ الجاعون اقتصر على الدولة العباسية ولم يشمل الشام الذي وقع منذ أواسط القرن الرابع بيد الفاطميين، ولا الأندلس الذي كان للأمويين. وما أن بدأ الاحتلال الفاطمي للشام سنة ٣٥٨ هـ حتى برز انفصال يهود الشام ومصر عن التبعية للمشرق. لاسيما مع وجود أكاديمية يهودية ثالثة في فلسطين مقرها القدس ولها جاعون منذ ما قبل الفتح الإسلامي وهو من أسرة مائير الربانية. وقد استغل الفاطميون سمعتهم الطيبة في معاملة اليهود فنجحوا بسرعة في فصل جالياتهم في الشام ومصر عن رئاسة جالوت بغداد.

وأقاموا رئيسا لليهود من عندهم عرب بلقب (سرهساريم) أي أمير الأمراء. أو أمير الدياسبورا (أكاديمية الشتات اليهودي الرئيسية) أو الناجد ومقره في مصر. وكان له تعيين الأحبار والقضاة في إطار الدولة الفاطمية كما كان له اختصاصات رئاسة الجالوت والجاعون معا (أي السياسية والدينية) ولو أن الشام ظلت تتبع دينيا جاعون فلسطين بمعنى أنه يرأس الربانيين والقرائين والسامرة معا<sup>(٢)</sup>. وتسلم النجادة بمصر أسرة داود أولا ثم أسرة سعديا في حين احتفظ رئيس اليهود بفلسطين بلقب ناسي.

وقد تولى منصب الناجد بمصر بعض الأطباء اليهود البارزين مثل: الشيخ المهذب بن الموفق أواخر القرن الخامس<sup>(٣)</sup>. ثم تولاه في أواسط القرن الطبيب أبو منصور بن حنانيا<sup>(٤)</sup> واستمر يشغله حتى العهد الأيوبي حين مات

(١) الفلقشندي - صبح الأعشى (القاهرة ١٩١٥) ج ١١ ص ٣٨٥.

(٢) غويتاين: عرب ويهود (بالإنكليزية) ص ١٢١ ١٢٢. goitein: Jews and Arabs P.121

(٣) تريتون أهل الذمة ص ١٠٤ (الطبعة الثانية).

(٤) مان: اليهود في مصر ج ١ ص ١٥٥.

سنة ١١٩٥/٥٩٢ . وكانت الحكومة الفاطمية تقدم معونة سنوية للإنفاق على أكاديمية فلسطين في القدس<sup>(١)</sup> . فكان لها بهذه الطريقة الحق في اختيار رئيس الأكاديمية . وكان الخلفاء الفاطميون متسامحين جدا مع كل الطوائف من مسيحية ويهودية ومجوسية وغيرها بوصفهم مستخلفين على العالم كله وليس على المسلمين . وكان يشرف على الأكاديمية سبعون معلما ربانيا يسمون السنهدين (المجلس الديني الأعلى) يرأسهم سبعة هم الجاعون وأبو بيت الدين وخمسة أحبار آخرين لهم لقب مقدم<sup>(٢)</sup> . وتفيد وثائق الجينزا أن مقر الأكاديمية لم يستمر في القدس فقد انتقل تارة إلى الرملة ومرة إلى عكا وكان ذلك نتيجة لتكاثر جماعة القرائين في القدس وتأثيرهم وبخاصة بعد انقطاعهم عن بغداد وتبعيتهم للحكم الفاطمي . وكان القراؤون يرسلون البعثات من الأحبار لنشر أفكارهم ويأتيهم الأحبار من القسطنطينية وأوربا للتدريس معهم . وقد أثمر نشاطهم الفكري بظهور عدد من العلماء والنحويين والدينيين وبخاصة في القرن الخامس<sup>(٣)</sup> . في الوقت الذي كان نزاعهم مع الربانيين يصل أوجه .

وكما لعبت الرشاوى بمنصب رئاسة الجالوت في بغداد لعبت بمنصب الناجد في مصر . ومن ذلك رئاسة رجل اسمه زوطه تولى النجادة ثلاث مرات ثم انتقل إلى اسرة جديدة هي آل ميمون وكان أولهم موسى بن ميمون الفيلسوف والطبيب الأندلسي المعروف<sup>(٤)</sup> قبل ذلك بكثير أي منذ غزو الصليبيين للشام . انتهى أثر أكاديمية فلسطين بسبب طرد اليهود من القدس

(١) غوثباين: دراسات في التاريخ الإسلامي (بالإنكليزية) نيويورك ١٩٧٥ الصفحات ٨٢ ٨٣ .

(٢) مان: اليهود في مصر ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ Mann: Jews in Egypt col I .

(٣) مان: نصوص ودراسات في التاريخ اليهودي والأدب (نيويورك ١٩٧٢)

Mann: Texts and Studies in the His. of Jews. (N.Y. 1972)

(٤) دبتوف - المصدر السابق (بالإنكليزية) ص ٨١٩ .

واحراق معابدهم وطرد السامرة من نابلس معهم وفقد الناجد والناس معا والقراءون سلطاتهم هناك ونشطوا في الفسطاط والقاهرة. حتى استرد صلاح الدين القدس وعين ليهود الشام رئيسا عرف بلقب رئيس اليهود وأول من حمل اللقب هو عبادة بن علا لكن القرائين كانوا قد جعلوا من مصر القديمة مركزا استمر طويلا بعد ذلك.

وفي الوقت نفسه لم تعد النجادة بمصر بذات قيمة منذ عهد صلاح الدين بسبب الحاق مصر ببغداد وعودة سلطة رأس الجالوت إلى مصر مع أكاديميتي سورا وببادينا. يثبت ذلك خطاب وجد في الجينزا من رأس الجالوت ببغداد يقر فيه للناجد بمصر تعيينه سنة ٥٦٧ لكن موسى بن ميمون استطاع بمكانته لدى صلاح الدين أن يصبح «رأس الأمة»، ويظل رئيسا ليهود الشام ومصر حتى وفاته وأن يعطي الرئاسة لسلالته كلها من بعده حتى سنة ١٣٨٦/٧٨٨. حين انتقلت النجادة إلى أسرة جديدة<sup>(١)</sup>.

وكان لكل مدينة تحوي جماعة من اليهود مجلس أو جمعية يرأسها «مقدم» الجماعة<sup>(٢)</sup> سواء في مصر أو الشام وكان ذلك بعلم السلطات وبتعيين منها. وعمل المقدم ديني اجتماعي بحت يؤدي الخدمات الاجتماعية للفقراء والعجزة والأرامل ويقيم الصلوات والمراسم الدينية ويسهل أمور الطائفة لدى السلطة<sup>(٣)</sup>. وكان ثمة وظيفة أخرى هي وظيفة الخزان وهو الخطيب في الكنيس وثالثة هي لامام الصلاة (مثل ياهازبور = قاري الزابور) أي قارئ ما هو مكتوب مسطر<sup>(٤)</sup>.

(١) دبتوف: المصدر السابق ص ٨١٩ وغويتاين - المصدر السابق ص ١٢٣.

(٢) فويتاين المصدر السابق ص ١٢٣.

(٣) غويتاين: دراسات في التاريخ الإسلامي ص ٢٩٠ (بالإنجليزية).

(٤) القلقشندي - صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٤.

وثمة وظيفة ثالثة هي وظيفة القاضي (دايان) ويتولاها من يعينهم رئيس اليهود أو الجامعون. يضاف إلى ذلك وظيفة الناسي ويتولاها المنتسبون لبيت داود، ووظيفة رأس الملة وهي لكبار الأحرار ويعتبرون قضاة القضاة<sup>(١)</sup>.

وتكشف الدلائل والوثائق أن هذه التنظيمات الدينية كانت تتكامل منذ القديم وأن الترابط بين الجاليات اليهودية قد ازداد وتقوى تحت الحكم الإسلامي لاسيما مع تولي اليهود مناصب المال في الدولة وسيطرتهم على التجارة العالمية عن طريق الجماعة الرادانية، ووصول بعضهم إلى مناصب الولاة والوزراء (مثل ميشا وابن كلس والتستري والفلاحي) في العهد الفاطمي.

وكان لليهود الأندلس مسيرة أخرى وأن تكن مشابهة. فقد كان عددهم هناك أوفر وأدلاهم على الدولة أكبر وتوغلهم في ارهاب الدولة أكثر. وقد استغلوا كره القوط لهم في التقرب من العرب ومعاونتهم على اسقاط الدولة القوطية وكانت صلاتهم التجارية مع المغرب والمشرق تسمح لهم بالمؤامرة الواسعة التي حاكها القوط في مجمع طليطلة سنة ٦٩٤ وتخلصوا بها من كثير من اليهود سواء عن طريق النفي أو عن طريق الإجمار على المسيحية أو باسترقاقهم. لذلك وجد اليهود في الفتح العربي فرجا لهم كما عاملهم الغرب معاملة طيبة إذ كانوا لا يجدون في كثير من المدن المفتوحة غيرهم كما في البيرة وغرناطة وقرطبة. ولم يصدر الأمرام ثم الخلفاء المسلمون منذ الفتح الإسلامي للأندلس أي تشريعات خاصة في اليهود باعتبار أنهم من أهل الذمة<sup>(٢)</sup> ولكنهم تساعوا معهم كل التسامح واعتمدوا عليهم وهذا ما سمح

(١) مان: اليهود بمصر (الإنكليزية) ج ١ ص ٢٧١.

(٢) انظر حسين مؤنس - فجر الأندلس (القاهرة ١٩٥٩) ص ٥٢٣ وأحمد بدر دراسات في تاريخ

لليهود بتنظيم شؤونهم تدريجياً وبالإتصال بالجاليات اليهودية في المشرق .

ولهذا فقد بالغ المؤرخون بعد ذلك في الدور الذي لعبه اليهود في الفتح الأندلسي . وكان من نتائج ذلك أن تجمع اليهود في قصبات المدن الأندلسية في أحياء خاصة بهم عرفت باسم حارة اليهود أو الجودرية ، ولم يكن ذلك بسبب الاضطهاد ولكن بمبادرة ذاتية تهدف إلى التساند . وكانت جالية اليهود في كل مدينة تؤلف (الجماعة) ويرأسها واحد منهم يدعى البروريم (أي المقدمين) أو النعاميم ، ولهم مستشارون هم اليوعاظيم (الوعاظ) . وكانت مناصبهم انتخابية لمدة عام ثم صار السلف يعين الخلف<sup>(١)</sup> . وهم المسؤولون أمام السلطة عن جمع الجزية والضرائب .

وطبيعي أن ينفصل يهود الأندلس عن يهود المشرق في الرئاسة الدينية على الأقل . وإذا كان للأندلسيين ناقد وناسي فلم يكونوا يتبعون رأس الجالوت في بغداد ولا الأكاديميات هناك . وكانت لهم أكاديميتهم الدينية التي عرفت باسم الكلية ولها رئيس ، المعروف باسم رأس كالا . وهو في الوقت نفسه رأس ربانية اليهود في أسبانيا . وكان رئيسها زمن الخليفة عبدالرحمن الناصر هو حسيداي بن اسحق . على أن استقلالها كان سياسياً فحسب ، أما في الأمور الدينية فكانت تتبع أكاديميتي بغداد فترة طويلة وأبناء اليهود يذهبون إليهما لاتمام دراستهم للتعاليم اليهودية وإليهما ترسل الأسئلة الدينية . وحين وضع الجاعون عمران الأندلسي أساس القديس اليهودي وتعاليم الصلاة أرسل بذلك إليهم ولم تنفصل الأندلس دينياً عن بغداد إلا

---

الأندلس ص ١٠ ومحمد عبدالله عنان - دولة الإسلام في الأندلس (القسم الأول - القاهرة ١٩٦٠) ص ٣٢ . وابن عذارى . البيان المغرب (بيروت ١٩٥٠) ج ٢ ص ١٧ ولسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق عنان - القاهرة) ص ١٠٧ والمؤلف المجهول - أخبار مجموعة (مدريد ١٨٢٧) ص ١٢ .

(١) حسين مؤنس - فجر الإسلام (القاهرة ١٩٥٩) ص ٥٢٤ .



في أواخر القرن الخامس .

احترم حكام الأندلس تعاليم اليهود فكان لهم قضاتهم (الديانون) وقوانينهم ومحاكمهم . وهم في الوقت نفسه كنسهم ومعابدهم لا يمنعون منها . كما انقسموا إلى ربانيين وقرائين ، واحتدم الصراع بين الطرفين فترة طويلة . وكانت لهم تجارتهم وصناعاتهم وثرواتهم الكبيرة . وهذا ما جعل الفترة الأندلسية هي العهد الذهبي لليهود ولثقافة اليهودية . وخلالها ظهر أعظم علماء اليهود في العصور أمثال حسيدي بن اسحق ، ومناحيم يعقوب الطرطوشي اللغوي ، ودناش بن لبراط الشاعر ، واسحق بن سليمان الفلكي الفيلسوف الطبيب . وتقدمت الدراسات التلمودية في القرن الرابع وكان من أكبر شارحي التوراة الحبر شوشيل وابنه شانانيل وموسى بن حنوك . . . وفي تلك الفترة زاد اتصال اليهود مع مملكة الخزر وأرسل حسيدي ملكها مرات عديدة ، كما ظهر الراي المعروف ابن النغزلة (٣٩٣ - ٤٥٩/٩٩٣ - ١٠٥٥) الوزير الكاتب الأديب .

وكان بعض يهود الأندلس يهاجرون إلى المشرق بسبب الخلافات الدينية مع أندادهم هناك ومنهم يوسف ابن أبطور الشاعر الذي ترجم بعض التلمود إلى العربية . ولكن الكثيرين كانوا يبقون في الأندلس رغم الدسائس ، ومنهم ابن النغزلة الذي جمع بين رئاسة الربانية وبين الوزارة<sup>(١)</sup> وظل حتى نهاية حياته الحاكم الحقيقي في دولة بني زيري الصنهاجية . لكن ابنه يوسف اغتر بمكانة ابيه فحاول إقامة إمارة لليهود في المرية فانهى بالقتل سنة ٤٦٩ على باب غرناطة . وإذا ظهر العديد من الأطباء . ومن علماء اللغة

(١) دافيد كاسيل ، حسيدي : شمس اسحق (بالانجليزية) (كونيكتيكت ١٩٧٥) .

اليهود في تلك الفترة، فقد ظهر أيضا العديد من الأخبار وعلماء الدين اليهود. ولعل أبرزهم موسى بن ميمون الذي كتب في التشريع اليهودي وفلسفة العقائد، ثم سافر إلى المشرق وصار طبيب صلاح الدين ورئيس الملة عنده. وهو الذي حاول إقامة التقارب بين الرابانيين والقرايين وأدخل في كتاباته نتائج علم التوحيد وعلم الكلام الإسلاميين<sup>(١)</sup>.

على أن اليهود مالوا، مع ظهور ما يسمى بحرب الاسترداد الصليبية إلى الإسبان ووضعوا أنفسهم في خدمتهم وبخاصة في عهد المرابطين والموحدين مما دعا إلى اضطهادهم. وقد بدأ ذلك مع حاجة يوسف بن تاشفين إلى المال لمتابعة حروبه وكان اليهود أغنى التجار وخاصة في مدينة أليسانه. فلما مر بها أرغمهم على افتداء دينهم بمبالغ مالية ثم طرد اليهود حيث ثبت اتصالهم بملك أراغون الفونسو الأول (١١٠٥ - ١٣٣٤) وطلبهم منه فتح غرناطة<sup>(٢)</sup>. واتفق يهود غرناطة مرة مع بعض الثوار ضد الموحدين فانتصر عبدالمؤمن الموحي وأصدر ابنه الذي قاد الجيش أمرا باجلاء اليهود عن المدينة إلا من أسلم منهم.

وخرج بهذا الشكل كثير من اليهود مع النصاري إلى الأراضي القشتالية حاملين معهم ثقافتهم العربية ودينهم اليهودي. ومنهم إبراهيم بن الفخار ويوسف بن وقار الطليطي. وقد ألزم عبدالمؤمن من بقي منهم في مناطقه بلبس الغيار لأنه شك في إسلامهم. ولم يطبق ذلك طويلا لأن الأندلس ضاعت بسرعة من أيدي الموحدين. ولم يبق من فترة الاضطهاد سوى لبس اليهود للعمائم الصفراء!

(١) القفطي اخبار الحكماء ص ٧٩.

(٢) لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة (تحقيق عنان - القاهرة ١٩٥٥) ص

١١٥ - ١٢٠.

ويمكن أن نلخص أحوال الذمة عامة في القرن الثامن وما بعده بقول ابن الأخوة: أن دورهم صارت تعلق على دور المسلمين ومساجدهم، وصاروا يدعون بالنعوت التي كانت للخلفاء ويكون بكناهم فمن نعوتهم الرشيد وأبو الحسن وأبو الفضل . . . كما ركبوا مركوب المسلمين ولبسوا أحسن ملبوسهم<sup>(١)</sup>. ومثل هذا يقال عن وضع الذمة، في الفترة نفسها في المغرب وفي غرناطة بالإضافة إلى أن المسلمين من رجال ونساء وحتى مشايخ الصوفية كانوا يطمئنون إلى أطباء اليهود والنصارى ويتركونهم يتولون علاجهم<sup>(٢)</sup>.

---

(١) ابن الأخوة: معالم القرية ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) الشعراني: ذيل لواقع الأنوار ص ٣٦٩ وابن حجر الدرر الكامنة ج ٤ ص ٣٨٠ .

## الفصل الحادي عشر

### الفعالية الاقتصادية - ١ سيطرة المدن

لا تقوم الحياة الاقتصادية بالمدن وحدها كما لا تقوم بدونها فكأن المدن في وظيفتها هي الجزء المتمم للعملية الاقتصادية التي تحتاج كي تزدهر إلى الانتاج الواسع وإلى التنوع الشديد فيه زراعيا وصناعيا وإلى الأسواق الجامعة . والمدن هي التي تؤمن كل ذلك . ومن جهة أخرى فان الفعالية الاقتصادية هي التي تخلق المدن أو على الأقل تحدد مواقعها ووظائفها كما تحدد كثرتها وقلتها ومدى نموها . وقد كانت أوروبا في الفترة الإسلامية أرض غابات لا تحوي أكثر من عشر المدن الإسلامية . ولذلك كان اقتصادها ريفيا لا يسمح بالحركة الحضارية في حين أن المنطقة الإسلامية كانت في أوج نشاطها الحضاري فاستطاعت أن تضيف إلى المدن القديمة فيها حوالي ٣٥٠ مدينة أخرى جديدة عدا ما أنشأه المسلمون في المناطق الأخرى ( من أفريقيا السوداء والهند والعالم الماليزي وفي تركستان ) ، وواضح أن التكاثر السكاني ليس وحده الذي يدعو لذلك فالسبب الأساسي في هذه الحركة المدنية النشطة هو انصهار العالم الساساني مع عالم البحر المتوسط ولأول مرة في وحدة اقتصادية واحدة قامت على علاقات تجارية واسعة بين مدن العالمين ، وعلى طرق برية وبحرية تربط بينها ، ونقد اسلامي موحد مهيمن ، ولغة تجارية واحدة . وقد أدخلت هذه الوحدة في دورتها الاقتصادية المغرب وصقلية والأندلس وأوجدت في هذه المناطق

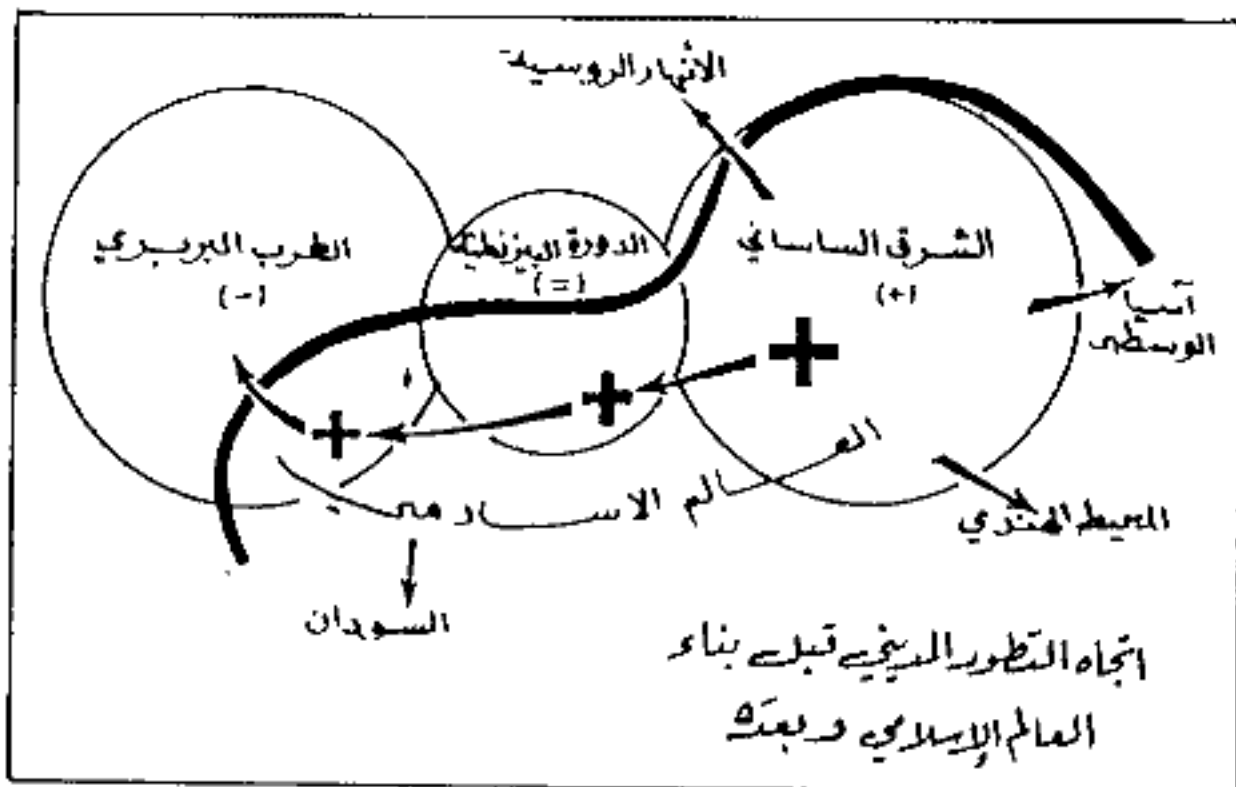
أسواقاً استهلاكية واسعة قوامها المدن الجديدة في المغرب ( القيروان وتونس ، وفاس ) والمدن التي بعثت فيها الحياة من جديد ( بالرمو وقرطبة وأشبيلية ) مع مثيلاتها في المشرق ( الاسكندرية والفسطاط ودمشق وبغداد ) . ان اقامة هذه الشبكة من المدن وربط العلاقات فيما بينها هو الذي أعطى العالم الإسلامي هيكله الاقتصادي والاجتماعي والثقافي . وقد أصبحت هذه المدن نقاط الارتكاز والقوة المحركة للحياة الاقتصادية . وأولية المدينة في هذا العالم الإسلامي ظاهرة ثابتة ورئيسية فمن قرطبة إلى سمرقند كانت الحضارة الإسلامية حضارة مدنية تتميز بتحرك واسع للناس والأفكار والبضائع بشكل حر فيما بين جميع أقاليمها . وقد ظل هذا العالم الإسلامي مجموعة من الجزر المدنية المترابطة بعضها مع بعض بروابط فكرية وبشرية ودينية واقتصادية واجتماعية متماسكة حتى وجهت إليه الغزوات المتخلفة من أطرافه في المشرق والمغرب والشمال ضربات مزقته وان لم تستطع تمزيق نواته المركزية ( مصر ، الشام ، العراق ) كما لم تستطع سحقه لأن هذا التمزيق أوجد في كل منطقة مركزاً حضارياً خاصاً به ومتعاوناً مع المراكز الأخرى ، اقتصادياً وثقافياً .

ونستطيع أن نضيف إلى هذه النواة المركزية التي يمكن أن نسميها - كما سماها بعضهم - منطقة البرازخ أطراف الجزيرة العربية ومنطقة الخليج التي كانت عقد التبادل التجاري العالمي .

كان هذا الازدهار المدني ما بين القرنين الأول والسادس ٧ - ١٢ م ، وكانت المنطقة الإسلامية خلال هذه القرون مسرحاً لحركة عمرانية مدهشة يكاد معدلها أن يكون بناء مدينة كل سنتين . وبعض هذه المدن أصبح بسرعة ، أكبر مدن العالم ( كبغداد ) ، أو من أكبرها ( كالقاهرة - الفسطاط ، وقرطبة ) . وصل سكانها في فترة محدودة ( كبغداد خلال السنوات الأربعين الأولى لانشائها ) إلى حوالي المليون نسمة . بالإضافة إلى توسيع وتخوير المدن القديمة وازديادها في الرقعة والسكان والاشعاع الحضاري . وهو أمر يتعدى

مستوى الحركة المدنية التي عرفها العصر الهلنستي الأول منذ الاسكندر . وهو نفسه الذي أعطى العالم الاسلامي هيكله المادي ودورته الحضارية الكبرى .

قبيل الفتوح الاسلامية كانت كثافة الحركة المدنية تتزايد من الغرب إلى الشرق ، أي من الغرب البربري والاوروبي إلى الوسط البيزنطي إلى المنطقة الساسانية التي يسمح لها تداولها النقدي الفضي - الذهبي وانفتاحها الكلي على آسيا الوسطى والهند ويدها العاملة الكثيرة من الرقيق أن تزدهر فيها المدن وتزداد . فلما تم توحيد هذه المنطقة ( عدا أوروبا ) وجدت الحضارة الاسلامية من التزايد السكاني ، ومن تدفق الذهب ، ومن الأعداد المتزايدة فيها من العبيد ( ترك . زنج . سلاف ) ، ومن شبكة الطرق التجارية الممتدة من الصين حتى أسبانيا ، ومن أفريقيا السوداء حتى أعماق تركستان ، ما يدفعها لإنشاء مدن جديدة أخذت تزداد بعكس الوتيرة الأولى من الشرق إلى الغرب ، الذي كانت مدنه الرومانية ، وهي أهم ما فيه تنحط انحطاطا شديدا وتخرّب . وكان نشوء القيروان وفاس في المغرب وتضخم قرطبة وبالرمو في أسبانيا وصقلية هما المؤشران على ذلك .



ففي ما بين العراق والمشرق ( أي في المنطقة الساسانية ) أنشأ المسلمون على سيف الصحراء بلدي البصرة والكوفة قبل أن يتوغلوا قليلا ليينوا واسط شيراز وبغداد . وكان ذلك في مناطق زراعية تمتلئ بالقمح والشعير والرز وقصب السكر والنخيل ، من أجل الغذاء . وبالقطن والكتان من أجل الكساء . كما أنها في فيض من الأيدي العاملة يؤمنها الزنج ، أما مادة البناء في العراق خاصة فكانت من الطين المجفف ( وهذا ما جعل بقايا الأبنية فيها أكواما من التراب ) ومن الخشب المستورد . وهكذا تحولت المعسكرات العربية المؤقتة الى مدن ، وأصبحت بسرعة كبيرة كثيفة السكان بمن هاجر إليها سواء من جزيرة العرب أم من الموالي الهاريين من الأرض ، وصارت البصرة والكوفة وواسط بعد ثلث قرن من بنائها تزيد على مائة ألف من السكان وتجاوزت بغداد في المساحة كل حد عرفته المدن القديمة وكانت أقرب في المساحة الى باريس القرن التاسع عشر وبنيت فيها الاحياء في شرقي دجلة خاصة وقارب سكانها المليون - فيما يقدرون - وهو رقم ضخم في تلك العصور . وكانت سامراء على وتيرتها في السرعة سواء في البناء أم في تكاثر السكان ( وأن لم تعمر طويلا ) . وقد رافق هذا التوسع المدني توسع مماثل في التطور الاقتصادي الهائل والثروات ، وفي الثقافة ونمو العلوم . ذلك أن جميع مدن العراق إنما أقيمت على عقد تجارية متصلة بمنطقة البرازخ والانتقال ومكملة للمدن الساسانية القديمة : تستر والسوس والأهواز والموصل وكان هذا الصف من المدن يتصل في أقصى شرقه بمناطق لا مدن فيها ولكن طريق الحرير هو الذي يمدها بالحياة ويصلها بالصين .

فيما بين الجبهتين الشرقية والغربية للعالم الساساني لم تكن المدن متوضعة بانتظام على أطراف الشبكة الهندية كما في العراق ولكن حسب توزع الواحات الواسعة الخصبة وتناقض الصحراء معها وحسب ممرات الجبال . وهكذا كانت مواقع زرنج أو هراة أو نيسابور أو بخارى وسمرقند . والفاتحون العرب الذين

نزحوا الى هذه المدن الجديدة لم يمسوا الريف كثيرا بالسكنى ، ولكنهم أقاموا في المدن القديمة أو حولها في الربض وبنوا لهم فيه مدنا خاصة الى جانبها . وهكذا نشأت المدن المزدوجة ( أو التوائم ) في مرو وبلخ وبرقان وبخارى وسمرقند كان فيها القلعة والمسجد الكبير والسوق ، الثلاثي الاسلامي . واتصلت مع الأيام هذه « الشاهستان » مع المدينة الأصلية .





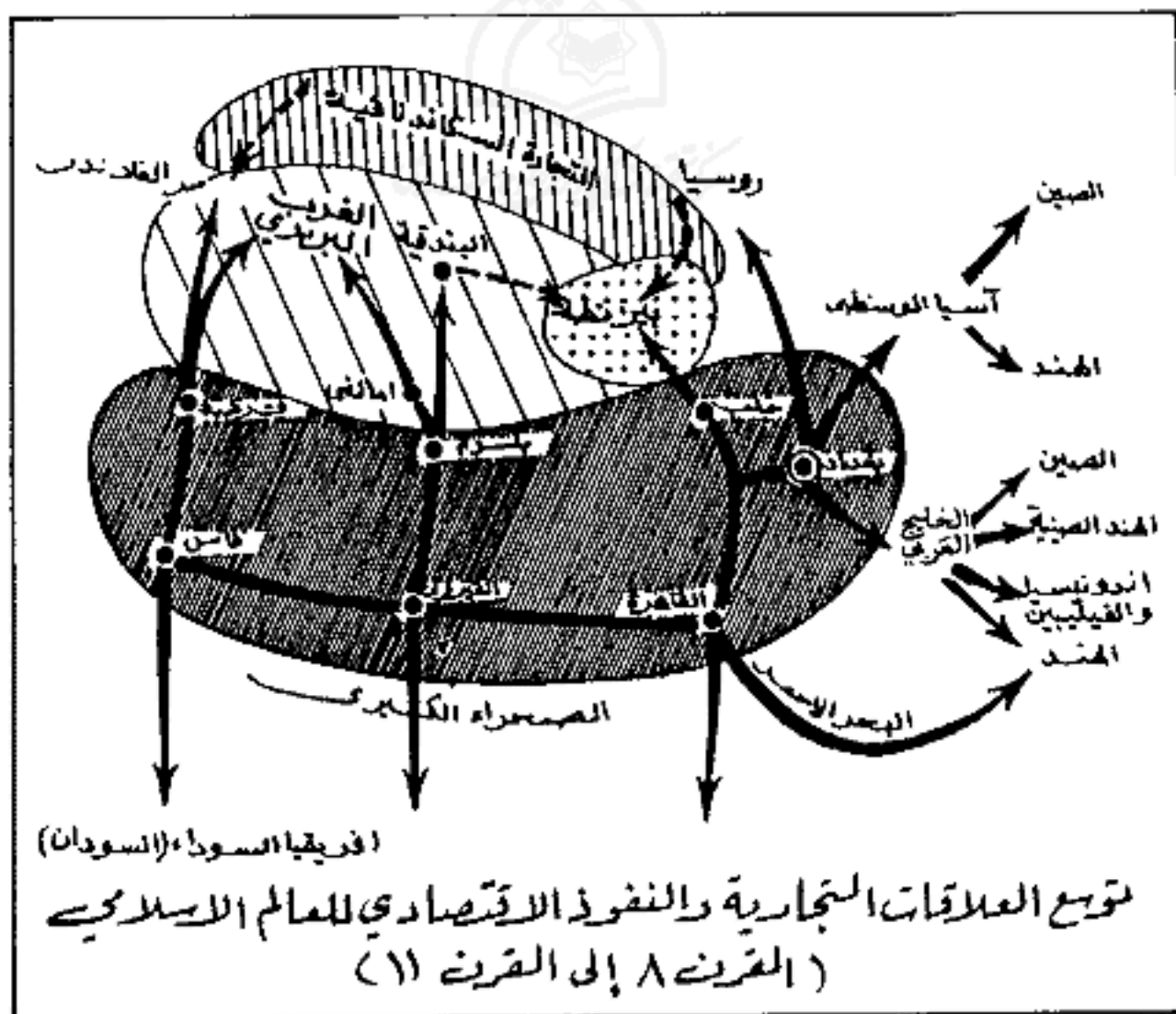
وارتبط بهذا التطور أمران آخران هما تطور أنظمة الري بإعادة الحياة إلى الألفية القديمة ، وضرورات الدفاع ضد هجمات البدو بإنشاء الأسوار والحصون والقلاع والأربطة ، فوجدت أسوار تزيد على مائة كيلو متر في بخارى وسمرقند وبلخ ، كما وجدت الأربطة على الجبهة مع الترك بعشرات الألوف . لكن هذا كله إنما كان نتيجة التطور التجاري ، الذي كان يحركه عن طريق القوافل ، تجار الجملة الكبار . وكانت المدن هي العقد والمحطات على طريق التجارة . فسمرقند ( التي زاد سكانها على نصف مليون ) كانت عقدة طريق الحرير وكان فيها عدة تجمعات سكنية ، وأحياء تحيط بالمدينة ، وسور كبير ، ومدينة نواة ( شاهستان ) ، وقلعة ، وقناة ماء كبرى متفرعة ، وشوارع مرصوفة ، وحرف يدوية بل وحدائق مقصوفة النباتات على شكل ثيران وجمال وغيرها .

وأما في منطقة البرازخ ( الشام ومصر ) فكانت المدن والمرافئ هي المفصل ونقط التلاقي مع مختلف التجارات والأقوام . فدمشق التي كاد المد البدوي أيام البيزنطيين أن يغطي عليها عادت عاصمة الدنيا مع الأمويين وزادت غوطتها بإنشاء فرع جديد لبردى ( فرع يزيد ) وأضيفت إليها أبنية كان أروعها بناء الجامع الأموي . والقدس كسبت في الفترة الأموية ذاتها بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى كما كسبت الحجاز بناء المسجد النبوي . والمبالغة في الانفاق على هذه المنشآت لا تعكس الثروة التي تدفقت على المنطقة فقط ، ولكن تكشف العناية الكبيرة التي بذلها الأمويون في أمور الري والزراعة في المنطقة ، وفي استصلاح الأرض ، وبناء الموانئ من جديد . فصارت دمشق لا عاصمة سياسية فقط ولكن مركز تكاثف سكاني واسع ، ومركز إنتاج زراعي حرفي قوامه العنب والمشمش والخوخ والقمح من حوران ، والسيوف وأدوات النحاس والأنسجة الدمشقية من حرير وقطن . وقد قلدها في ذلك خط المدن الداخلي ما بين حمص إلى حلب . أما الموانئ فشهدت بعثا وتجديدا واسعين في

طرابلس وصور وعكا وجبيل وصيدا وأنطاكية فقد بنيت لها أرصفة جديدة ومرافق تفتح وتغلق ( كما في عكا وصور ) وصار بعضها قواعد للأسطول . وعرفت المدن التي على الحدود مع الروم حياة ونشاطا لم تعرفها منذ عهد طويل . وأعيد انشاء الكثير منها أكثر من مرة ، بسبب الحروب المستمرة . وكانت حاجاتها من الطعام واللباس والسلاح ومواد البناء تحمل اليها من كل مكان . استمر ذلك ما يقارب ثلاثة قرون ونصف القرن .

وأما مصر فقد جاءها الفتح الاسلامي باقتصاد تبادلي عريض محل الاقتصاد الريفي الذي كان يحكمها في العهدين البيزنطي والروماني لأنه أدخلها في منطقة البرازخ . ووادي النيل الذي يشبه مدينة واحدة كثيفة السكان ممدودة على طول الوادي مع تضخم في رأسه هو الدلتا ، شهد اندفاعا مدنيا واسعا خلال العهد الاسلامي قد تدل عليه المدن الأربع التي قامت عند التقاء الصعيد بالدلتا ، والتي كانت في الأصل معسكرات وقصوراً ملكية ( الفسطاط ، العسكر ، القطائع ، القاهرة ) . وعند هذه النقطة كانت الأقنية التي لا تحصى تتفرع في مروحة الدلتا ، وتتجمع فيها بالمقابل الحياة المدنية في مصر من جوامع ضخمة ، وقصور باذخة ، وأسواق ملأى بالبضائع ، واتصال مباشر مع الوادي كله ومع البحر بواسطة الاسكندرية ودمياط . انتهى هذا التطور الواسع بظهور مدينة ضخمة تشمل مالا يقل عن نصف مليون نسمة في حركة تجارية وثقافية ومالية دائمة . وكانت مدن مصر تصدر القمح الى الحجاز أول الأمر ثم أخذت تصدره في العهد العباسي الى بغداد عن طريق البصرة . ولم يؤثر انتشار الورق واختفاء البردي الذي اقتصت به مصر على قوتها الاقتصادية لأنها اعتمدت على انتاجها من القمح وقصب السكر والقطن والكتان ، وعلى نسيجها الدقيق الذي اشتهر في تنيس ودمياط ، وعلى استغلال الطريق البرية البحرية المارة من المحيط الهندي والبحر المتوسط .

وأما في أفريقيا والمغرب فقد كانت الظروف الجغرافية تجعل منها منطقة مرور في الدرجة الأولى ما بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب وبالرغم من أنها تحولت إلى الزراعة تدريجياً ، لكن ثروة المنطقة التي دعت إلى إنشاء ما يزيد على ثمانين مركزاً مدينياً فيها إنما ترجع إلى توسطها بين العالم الزنجي والبحر المتوسط ، وإلى كونها امتداداً طبيعياً لساحل المتوسط ، وصلة الوصل مع الأندلس وصقلية . وعبرها تمر كل البضائع والناس والتأثيرات اليها . ولهذا شهدت المنطقة قيام التجمعات المدينية على طولها ( مابين القيروان وفاس ) وعلى الخطوط الموازية لذلك . وقيامها على عرضها ( سجلماسة وأرجلة . المزاب ) . وعلى الخطوط الموازية لذلك . وعلاقة خطوط الطول هذه بخطوط العرض هي بالذات العلاقة التجارية بين مبادلة الذهب والعبيد



بالملاح والحاجات الصغيرة . وبفضل ذهب السودان انتعشت مدن أفريقيا وموانئها ، كما استطاعت الأندلس أن تحتفظ بحضارتها الباذخة مدة طويلة ، ومن وراء ذلك بدء الانتعاش في أوروبا . وكان الأغالبة والرستميون والادارسة والفاطميون هم كبار بناء المدن في المغرب .

بنيت القيروان كمعسكر كما بنيت فاس كملجأ للهاربين من القيروان ، والهاربين من الربض القرطبي وتضخمت المدينتان القطبان بسرعة وصار للقيروان مدن تابعة مثل رقادة في القرن الثالث / ٩ م ( ومحيطها أربعة وعشرين ألف ذراع حوالي ١٢ كم ) وقبلها كانت العباسية وبعدها بنيت صبرا المنصورية وكلها مدن بأسوار وجوامع وقصور وأقنية ماء وتجارة واسعة وحدائق وحمامات وخانات للقوافل وأسواق . وأخيرا بنيت مدينة المهديّة على البحر .

وبنيت تونس من أنقاض قرطاجة فبلغ من توسعها أنها بدورها صار لها مدينة تابعة هي تنس . وصار لها مرفأ بيني الأساطيل لحماية المغرب وبنيت على التوالي بلدة أشير سنة ٩٣٥ والجزائر ومليانة ومدينة ( سنة ٩٤٦ ) ثم قلعة بني حماد ( سنة ٣٩٨ / ١٠٠٧ ) .

وأما في المغرب الأوسط فقامت مدينة تاهرت ( سنة ١٤٣ / ٧٦١ م ) على بعد ١٠ كم غرب تاهرت الحديثة وكانت عاصمة الرستميين الخوارج الذين توغلوا في الصحراء ، متجهين الى أراضي السودان وبنوا أيضا مدينة سدراته قرب وارجلة . ثم أوغلوا مرة أخرى الى منعزلات شبكا - المزاب . وقسموا المزاب سنة ٤٧٠ / ١٠٧٧ الى خمسة أقسام بعد أن حفروا الآبار التي تجاوزت في العمق مئات الأمتار . ثم أقيمت مدن تنس ( سنة ٨٧٥ م ) ، ووهران ( سنة ٩٠٢ ) اللتين انشأهما المغامرون الأندلسيون أسواقا لهم مع البربر ، فما لبثت أن تحولت إلى مدن .

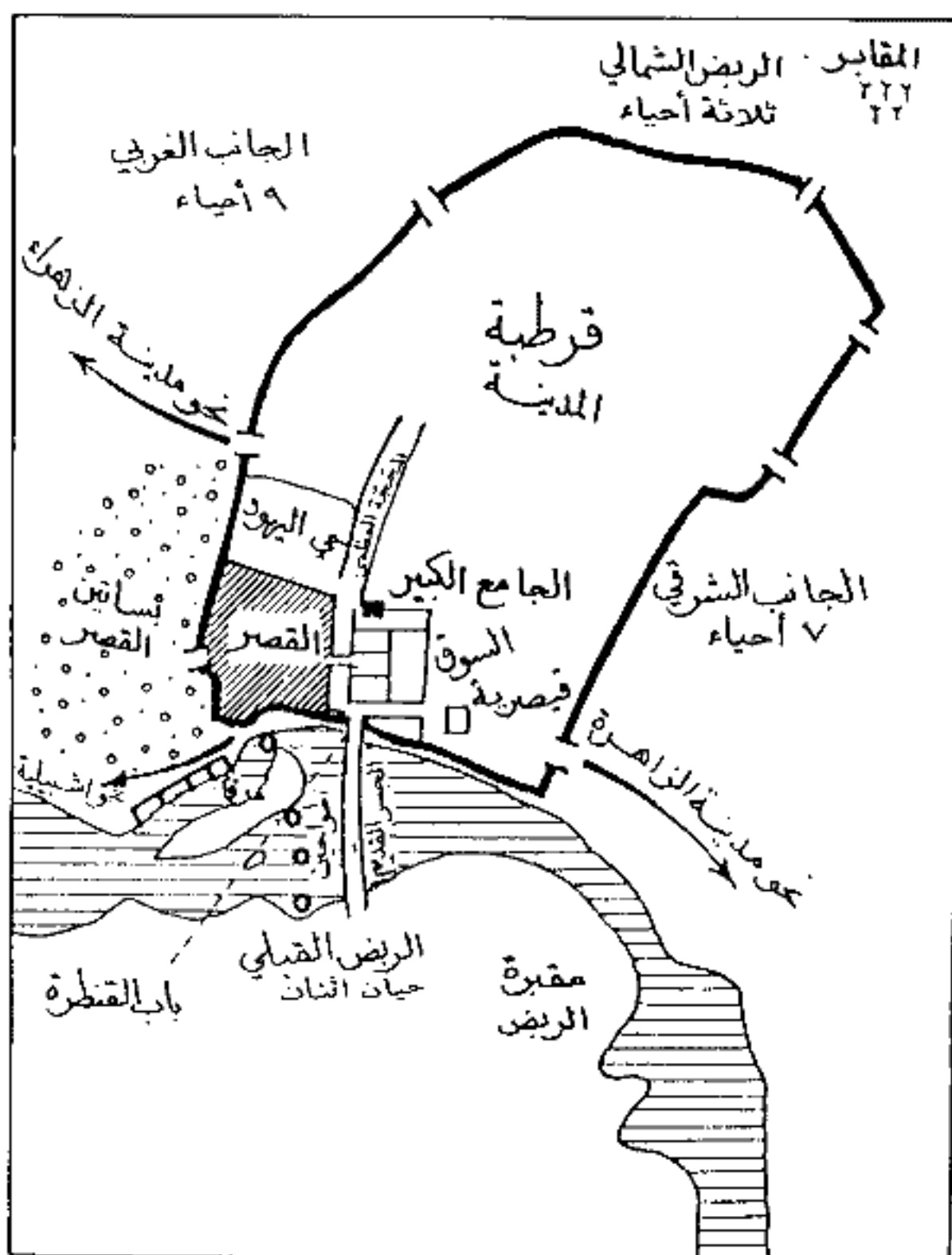
وأما في المغرب الأقصى فقد كانت المدن الرومانية القديمة قد اندثرت

( أمثال فولوبيليس ، سبتة ، طنجة ) وان كانت طنجة أكبر تجمع سكاني يوم وصول الادارسة الى المغرب . وانشئت فاس ( سنة ١٩٢ / ٨٠٧ أو سنة ١٧٠ ) على النموذج المشرقي كالقيروان ، ولكنها قامت كمدينتين على طرفي واد واحد ما لبثتا أن اتحدتا ، وشهدت المدينة توسعا ضخما جدا في مساجدها وحماماتها وطواحينها وشوارعها حتى كانت تنيف في مطلع القرن الخامس / ١١٠ م على مائة ألف نسمة . وانشئت في الفترة نفسها مدينة البصرة في أقصى المغرب على البحر ثم انشئت وجدة ( سنة ٩٩٤ ) وايفلي في القرن التاسع في السوس الأقصى فربطت نهايات الطرق عابرة الصحراء . وفي سنة ١٠٧٧ / ٤٧٠ انشئت مراكش . بناها المرابطون . ولهذا التوسع المدني المتفجر في هذه المناطق علاقته المباشرة مع ازدياد العلاقات بين المشرق والمغرب من جهة ( بما في ذلك أسبانيا وصقلية ) وفيما بين بلاد السودان والمنطقة الاسلامية ومن ورائها المنطقة الاوروبية من جهة أخرى . كما أن له علاقته بالتفجر السكاني الكبير في بلاد البربر التي كانت في تلك الفترة مستودعا للرجال المحاربين ، وكان فتح العرب لاسبانيا ولصقلية يعتمد عليها ، كما كانت الحركات الثورية وجيوش الفاطميين في معظمها منها ، وهذا التكاثر هو الذي زاد الانتاج الزراعي في المنطقة من حبوب وغيرها .

وكان الاندفاع المدني في أسبانيا أقل نشاطا واستند الى تطوير المراكز القديمة أكثر من استناده الى انشاء مراكز مدنية جديدة . وهكذا شهدت المدن التي كانت انحطت في أواخر العهد البيزنطي نهضة جديدة سريعة لم تعرفها في كل تاريخها . انبعثت مدن الوادي الكبير ( قرطبة وأشبيلية ، وقادس وملقة ) ومدن التاج طليطلة وأشبونة ( لشبونة ) ومدن الايبير ( سرقسطة ) وكان أهم ما أنجزه الفاتحون المسلمون اقامة مرفأ على البحر المتوسط يصلهم بالمشرق ( المربة وتعني برج المراقبة ) ومرفأ القصر على المحيط الأطلسي وقد أقيما في فترة واحدة من قبل الامراء الامويين لفتح طريق التجارة على المتوسط وعلى الاطلسي .

وكانت المرية خاصة تصنع الأقمشة الحريرية كما تصنع السفن وتطورت فيها صناعة الخشب والحديد والأشربة .

على أن أهم تلك التطورات هي التي أصابت قرطبة التي لم تكن شيئاً



## قرطبة

كثيرا عند وصول المسلمين لأن طليطلة هي التي كانت العاصمة التقليدية للملوك القوط الغربيين . ولكن موقع قرطبة نحو الجنوب جعلها أفضل للفاتحين وانتقل الوالي المسلم السادس أيام الأمويين اليها وقام بإنشاء السور واعادة بناء الجسر الكبير على النهر واقامة المطاحن على مساقط المياه وبني الحي الجنوبي ( الأقدم ) منها على النهر فبثت المدينة أن تضخمت حتى خرجت من أسوارها في الشمال والشرق والغرب . وقام في الضفة الأخرى في جنوبها الربض القبلي وصار لها في الشرق سبعة أحياء ، وفي الشمال ثلاثة ، وفي المغرب تسعة . واضطر الامراء والخلفاء من بعد الى إدخال التوسعات المتتالية على جامعها الكبير ، هذا عدا البساتين التي تطوق كل ذلك . ثم بنيت المدينة التابعة لها الزهراء بما عرف عنها من بذخ للخلاص من الزحام والاضطرابات في المدينة . وقد تطلبت عشرات السنين في البناء و ١٠ آلاف عامل متخصص جلبوا من أنحاء الأرض ثم أقام المنصور بن أبي عامر مدينة تابعة أخرى هي الزاهرة ، في شرقي قرطبة شكلت مع المدينة الأم منطقة مدنية حقيقية هي قرطبة الكبرى التي كان يسكنها حوالي نصف مليون نسمة . وكان من وراء هذا التوسع إنتاج اقتصادي ضخم من الحبوب والقطن والخشب والمصنوعات المعدنية والعبيد ومن ورائه كذلك تدفق الذهب السوداني عن طريق المغرب كل ذلك سمح لما نستطيع أن نسميه بحضارة الأندلس أن تثبت نفسها ولو كانت جذورها الأولى مشرقية .

ونستطيع أن نقول الأمر نفسه عن صقلية التي نقل العرب عاصمتها من سيراكوزة الى بالرمو . وتضخمت هذه المدينة لسبب من قوتها الاقتصادية المتزايدة سواء بالانتاج الزراعي والقطن أم بالمصنوعات أم بالعبيد الصقلية فصارت لها أحياء واسعة ومساجد كثيرة جداً ( ٣٠٠ مسجد ) ، وحي خاص بقصر الامارة والادارة ، يحيط به سور بأربعة أبواب هو حي الخالصة . وكان حي الصقلية أوسع الأحياء فيها . ثم قام بنتيجة التوسع الحي الجديد كما

قامت من حول بالرمو عدة مدن أخرى تابعة مما جعل بالرمو الى اليوم عاصمة صقلية وبقيت سيراكوزة بالمقابل مدينة صغيرة .

هذا الازدهار المدني الذي يمكن أن يجعل من العهد الاسلامي العهد الذهبي للمدن ولهيمنتها الاقتصادية كان يقوم على عدة عوامل من القوى يمكن أن تتلخص فيما يلي :

١ - السيطرة التامة على الريف .

٢ - التجمع الحرفي في المدن وتنظيمات العمل .

ويلحق بذلك ثلاثة أمور :

أ - مستوى المعيشة والدخل في المدن .

ب - الضرائب .

ج - رقابة المدينة ( الاحتساب ) .

٣ - تيارات الذهب وقوة النقد الاسلامي .

٤ - نشاط التبادل التجاري المحلي والعالمي على نطاق واسع .

٥ - ويمكن أن نضيف إلى ذلك عاملاً إضافياً : خامساً هو توفير جميع الخدمات اللازمة للتطور الاقتصادي .

## ١ - السيطرة على الريف

حين كان الفتح الإسلامي كانت المشكلة الأساسية هي التساؤل عن تؤول اليه الأرض المفتوحة . هل هي غنائم فتقسم أخماساً بين الدولة والأفراد أم هي ملك الدولة ؟ وقطع الأمر عمر بن الخطاب فجعلها كلها لبيت مال المسلمين . ولكنها كانت ثلاثة أنواع من الأرضين كما كانت بحاجة إلى من يزرعها :



– فثمة أولا الأراضي الموات وهي واسعة وقد آلت لبيت المال بشكل آلي .

– وثمة الأراضي التي بقي عليها أصحابها وقد أبقوها لهم على أن يدفعوا عنها الخراج ( بين ٣٠ - ٤٠٪ من الانتاج ) .

– وأما الأراضي التي نزع عنها مالكوها القدماء من القرس والروم في مصر والشام والعراق وفارس أو كانت للمعابد أو للأسر الحاكمة والنبلاء السابقين فقد اعتبرت لبيت المال . وتوزعها الفاتحون على أن يدفعوا عنها العشر ( ١٠٪ من الانتاج ) وقد سميت بالصوافي .

ونجم عن ذلك تدمير الاقطاع القديم واقامة أقطاع جديد بدلا منه للوارثين الجدد ، أي اعادة توزيع الملكيات العقارية السابقة على المالكين الجدد الذين لم يكونوا يهتمون بالزراعة قدر اهتمامهم بغنائم الحرب ، وكانوا يستقرون في المدن - المعسكرات التي أنشأوها في البصرة واسط والفسطاط ويقيمون فيها ، ويتركون لوكلائهم ادارة تلك القرى والمزارع التي أخذوها من الحكومة .

وكان مما يعيب الفاتحين أن يبيعوا اراضيهم . وقد أنتجت أراضي أحدهم ذات مرة كمية هائلة من البطيخ فأنزله أسواق البصرة فقال عنه أحد زعمائها : أما وجد في عجائز الدهناء من يوزع فيهن هذا البطيخ حتى يبيعه ؟

على أن المدن الجديدة التي أنشأها الفاتحون دور هجرة ومعسكرات ما لبثت أن تحولت مراكز استقرار . أضحت مدناً . واتجه سكانها الى الحياة الحضرية . وبدأت المفاهيم القبلية فيها بالتراجع . وكان زعماء القبائل أول من تنبه إلى قيمة الأرض واستزادوا من امتلاكها وتمثل ذلك في محاولاتهم أخذها باحياء الموات أو من ملاكها القدامى وتحويلها من أرض خراجية الى أرض عشرية . الشيء الوحيد الذي تغير على هذه الأرضين هو أن الفلاحين عليها

أصبحوا أحرارا بعد أن كانوا في العهد البيزنطي والساساني عبيداً للأرض لا يحق لهم مفارقتها . وقد نجم عن هذه الحرية أن ترك الكثير من الفلاحين أراضيهم ليكونوا الطبقة الدنيا في المدن الجديدة . وفتح ذلك بالمقابل المجال أمام الملاكين للتوسع في ملكياتهم للأرضين . وبلغ الطمع في الملاكين أن استغلوا ثورة ابن الأشعث في البصرة ( ٨١ - ٨٣ / ٧٠١ - ٧٠٣ ) وأحرقوا سجلات الديوان وادعوا ملكية أراض من الصوافي أو من أرض الخراج . وكان للأمويين دورهم في أقطاع أراض كثيرة في الشام ومصر خاصة وفي فارس لأنصار البيت الأموي . واليعقوبي يذكر أن معاوية دقق في صوافي ملوك فارس وجعلها صافية لنفسه وأقطعها جماعة من أهل بيته . وتقدم مسلمة بن عبد الملك بأن يعطي أراضي البطيحة مقابل احيائها فاعطيت له وحصل له من ذلك أرضون وطساسيج كثيرة . وحفر فيها نهرين يعرفان بالسيبين ، وتألف الأكراد والمزارعين . ومثل ذلك فعل خالد القسري والي العراق ( ١٠٥ - ١٢٠ ) الذي نشط نشاطا واسعا في استصلاح الأراضي وامتلاكها في السواد حتى أضحت غلات أراضيها عدة ملايين من الدراهم كل سنة وكان يستطيع أن يؤثر على أسعار السوق بهذه الغلات مدا وجزرا . وقام هشام بن عبد الملك فاحتجز لنفسه أراضي شاسعة في أنحاء مختلفة كانت من أهم موارده . وهكذا تحولت معظم الارستقراطية العربية الى ارستقراطية مدنية من الملاكين .

وليست لتهمنا هنا الأزمة المالية التي نشأت عن ذلك وطريقة الإلجاء التي كان الناس يتهربون بها من الضرائب عن طريق الادعاء بأنها لمالك من الارستقراطية ، فيدفعون عنها العشر بدل الخراج ، وينقصون بذلك ميزانية الدولة النقص الخطير . ولكن الذي يهمنا هو أن ملك الأراضي أصبح لارستقراطية المدن . وأن القنانة أي عبودية الأرض عادت فظهرت من جديد وكان تناقضها مع مبادئ الإسلام أحد الأسباب في ظهور الحركة الشعبية في المدن الاسلامية الكبرى كالبصرة والكوفة .

ومن جهة أخرى فان ضريبة الجزية كانت في السواد والجزيرة وفي مصر وخراسان على الرأس ، لكنها جعلت جماعية . بمعنى أنها تجبى من القرية بمقدار محدد مفروض عليها دون اعتبار لمن قد يهرب من السكان . وكان الهرب من الكثرة بحيث اضطر الحجاج الى دمع الفلاحين على أيديهم ليُعرفوا في المدينة . وبعضهم كان يعلق في رقبتة ما يشعر بذلك . وهكذا كان ثمة تبادل في قوى الريف والمدينة : فالأيدي العاملة في الريف تهرب الى المدن ، والمدينة بالمقابل تزيد من سيطرتها على الريف مما شكل أزمة كبرى للانتاج الزراعي .

ولم يظهر هذا الاتجاه في مدن العراق الحديثة فقط ولكنه ظهر في المشرق كما في مصر والمغرب . وكان ضعف الروابط القبيلية ونمو القيم الاسلامية بالمقابل مما يزيد في جشع اشراف القبائل على الاستملاك . أما عامة الأفراد فلم يكن لهم ذلك الادراك المبكر . وكانوا أدعى الى التذمر بسبب قلة الموارد والى الحركات الثورية منهم الى الرضى . ففي واحتي مرو وهرات وغيرها حيث توسع العرب في امتلاك الأرض ، وراح بعضهم يقيم فيها ويستغلها في نوع من الاقطاع الزراعي ، كان هؤلاء الاقطاعيون في معظمهم يسكنون المدن . وكلاؤهم هم الذين يشرفون عليها . وقد تمثلت الشكوى من هذا الوضع في برامج بعض الثورات كثورة زيد بن علي زين العابدين سنة ١٢١ / ٧٤٠ الذي طالب بالدفاع عن الضعفاء ، ورد العطاء الى من سلب منه ، وتوزيع الفيء بالعدل . وفي خطبة يزيد الثالث ( بن الوليد ) ( سنة ١٢٦ هـ ) الذي وعد بالتوقف عن حفر الأنهار ، وامتلاك الأراضي ، وبناء القلاع ، وطالب بعدم أرهاق الفلاحين . ولكن التيار كان أقوى منه فلم يبق في الخلافة سوى قرابة خمسة أشهر . وعلى الجملة كان المجتمع الأموي في أواخره قد تحول الى مجتمع يعتمد الاقتصاد الزراعي ، يعنى بالأرض وأستملاكها واستصلاحها ولكن عن طريق الوكلاء . أما المالكون الكبار فكانوا في معظمهم يقطنون المدن ، وسيطروا لا على أنتاج الريف فقط ولكن على أنتاج المالكين الصغار فيه أيضا

بحكم قوتهم وتحكمهم في الجباية وسوء طرقها ، وتعسف عمالها ، وتصرف  
الدهاقين في أساليبها واستخراجها ، واخذها أضعافاً من الضعفاء .

وقد التقت في هذا مصالح الارستقراطية الفارسية مع الارستقراطية  
العربية . فلم يكن الدهاقين في خراسان والعراق أقل استغلالاً للمالكين  
الصغار أو جوراً عليهم في الجباية من غيرهم . بالإضافة الى اعطاء أعوانهم  
نصيبهم فيها . وقد أثار هذا مثلاً ثورة عارمة في بلاد الصغد سنة ١١٠ هـ على  
الوالي أشرس بن عبدالله السلامي .

ثم جاءت الثورة العباسية وكان نقباؤها في خراسان كلهم عرباً فيما عدا  
واحداً . وهذا يعني أنها كانت قيادة عربية صريحة من كبار ملاك الأراضي في  
خراسان . وقد انتصرت في العراق ثم في الشام ومصر . وكان أول ما فعله  
العباسيون أن استولوا على أراضي الأمويين في هذه المناطق ، وأعادوا توزيعها  
على أنفسهم . ولم يتغير الوضع في هذه الناحية فقد ظلت الكتل الواسعة من  
الأراضي تابعة لأصحابها في المدن . كما تابعوا الاهتمام بربها واستثمارها  
الشديد لدرجة أن بعض أهل القرى اضطروا ( كما في فلسطين ) الى هجر  
أراضيهم والهرب منها . وبدأ بعض الملاكين يقيم في أراضيهم ويترك المدن  
ولكنهم ظلوا نفراً محدوداً ، ومن جملتهم عيسى بن موسى حين كان مغاضباً  
للمنصور . وخفتت حدة القبليّة النفور من الزراعة . ومسح العباسيون  
الأراضي الخراجية في بعض الجهات كالشام وخراسان ومصر لتحديد الجباية  
عليها وأحلوا محلها ضريبة عينية هي نسبة من الانتاج . وهذا يعني أخذ  
الضريبة من الأرض المزروعة فقط مما يجعلنا نميل الى أن الزراع قلوا وأن الأرض  
المتروكة دون زرع قد زادت . والهجرة من القرى الى المدن قد توسعت رغم  
العناية بنظم الري في بعض المناطق وبتنشيط الزراعة .

تكامل هذا الاتجاه في القرنين الثالث والرابع ، وإذا كان سواد العراق قد

أضحى يعادل في خواجه أغنى أراضي الدولة ، فإنما كان ذلك نتيجة أعمال الأمويين فيه وغنى مدنه من البصرة والكوفة وواسط وأخيراً بغداد . وفي هذه الفترة نمت المدن نمواً كبيراً وتطورت الحياة فيها واتخذت صفاتها الرئيسية ، في حين أن الريف أضحى أكثر فأكثر تحت سيطرة ملاك المدن الذين وصل بعضهم الوزارة . وصارت كلمة « أقطعتك كذا وكذا » من جملة الهبات المعهودة لدى الخلفاء سواء في منطقة الخلافة العباسية أم في منطقة الخلافة الفاطمية بعدها . وإذا تطورت الحياة الزراعية فقد كان ذلك باتجاه توسع الملكيات الزراعية ، وظهور الاقطاع الزراعي بصورة واضحة واسعة . وقد كان للتجار دورهم في ذلك . واتجه بعض الملاكين الى تطوير الزراعة باستعمال الأسمدة ، وكسح السباح لاستصلاح الأراضي ، وظهرت الزراعة المركزة . ولم يكتف الملاكون الكبار بعمل الفلاحين الاعتياديين بل عملوا على شراء الرقيق - وخاصة من الزنج - لاستغلالهم في استصلاح الأرض وفلاحتها . كما جرى في منطقة البصرة التي شهدت قيام الاقطاعات الكبيرة واستغلال الفلاحين بصورة ظهر أثرها لا في ثورة الزنج فقط ولكن في حركة القرامطة وفي زيادة تدفق أهل القرى على المدن الكبيرة كبغداد والفسطاط والقيروان وقرطبة ، وكثرة قيام الحركات الشعبية فيها كثورة أهل الربض في قرطبة وثورة فلاحى الدلتا أيام المأمون . وثورة القرامطة في الشام وحركات العيارين والشطار في بغداد خاصة . وقد كان الريف على الدوام هو الذي يقدم وقود هذه الحركات في المدن بما يقدمه اليها من زحف الطبقات الفقيرة والدنيا . وإذا أبرز القرامطة في تدابيرهم التعاطف مع الفلاحين بالغاء الاقطاع الزراعي واعادة النظر في توزيع الأرض والغاء رقب الأرض وتقديم السلف للفلاحين فقد كان كل ذلك رد فعل على الأوضاع السائدة والتي جعلت الريف رهناً بسيطرة المدينة التامة .

ويمكن أن نستبين مدى الاستغلال المدني للزراعة من ثورة كبار الملاك . فغلة أم المعتز كانت عشرة ملايين دينار كل سنة ، وغلة أم المستعين مليون

دينار . وقد أقطع المكتفي وزيره العباس بن الحسن ضياعاً تبلغ غلتها خمسين ألف دينار في السنة . وقد ترتفع الى ثمانين ألفاً أيام وزارته . أما غلة الوزير ابن الفرات فكانت تبلغ مليون دينار حين يتولى الوزارة وتنخفض الى ثمانمائة ألف حين يتركها . وكانت واردات الوزير أحمد الخصبي من اقطاعاته مائة وثمانين ألف دينار سنوياً .

وكانت مشكلة مصر أدهى من ذلك لأن الارتباط بفيضان النيل صعوداً وهبوطاً قد جعل الفلاحين منذ زمن طويل عبيداً لها وللمرابين الموجودين في المدن . وقد عرفت مصر أزمة جفاف حادة قبيل دخول الفاطميين لها هي التي هدمت الحكم الأخشيدي ومهدت للفاطميين ، حاملي ذهب المغرب ، أن يدخلوا البلاد رغم تشييعهم المرفوض - دون قتال . وقد قام هؤلاء أول ما دخلوا ، بسلسلة من الاصلاحات كان منها السماح للفلاحين بالتنقل واشراف الحكومة على الخراج وتحديدته من قبل المركز واعادة النظر فيه بشكل دوري . وأهم من ذلك أنها هدمت جانباً واسعاً من طبقة الملاك من الأخشيديين والترك والمتمولين السابقين لمصلحة فلاحى الأرض . لكن الخراج ما لبث أن عاد مرهقا ويزداد أرهاقه ، ودورات الجفاف كانت تتوالى لدرجة جعلت الفلاح من جديد تحت رحمة الضامين الذين يشترون الخراج من الدولة ، ويجبونه لحسابهم بالمزاودة عليه .

ولم يكن حكام المغرب أو الأندلس إلا مقلدين لحكام المشرق في أعمالهم الزراعية ، وكان الكثير من أراضي الأندلس الخصبة وريفها الغني ملكاً لرجال البلاط أو الملاكين الكبار وأحياناً لجواري الامراء . ويدار من قبل الوكلاء . وكانت المدن كلما ازدادت قوة وسعة كقرطبة وأشبيلية وطليلة تزداد استغلالاً وأرهاقا للفلاحين الذين كانوا في جانب كبير منهم من أهل الذمة .

وأعقب الحركات الشعبية ، ورافقتها ، الزحف الأجنبي الاحتلالي

الذي ظهر قبل أواسط القرن الرابع عشر/ العاشر في المشرق . وكان من نتائجه استيلاء البويهيين الشيعة على بغداد . وكانوا جماعة ريفية آلفت في بلادها حياة أقطاعية تقوم على رؤساء القبائل . وقد جاؤوا على رأس جيش من الديلم يجيد الحرب ولكنه لا يعرف قيمة الأرض فغزوا الخلافة العباسية في عقر دارها وكانوا فاتحة عهد السيطرة الأجنبية عليها . ولقد حكموا كأجانب لا تهمهم شؤون الأهلين ، ولا يعينهم إلا الحصول على أكبر قدر من الضرائب والمال . وبدلاً من أن يدفعوا الرواتب للجند ذهبوا إلى اقتطاعهم الأراضي والقرى يأخذون وارداتها بدل الرواتب . ويصف مسكويه بداية هذه العملية بقوله : « وفي هذه السنة ( سنة ٣٣٤/٩٤٦ ) شغب الديلم على مقر الدولة شغباً قبيحاً فضمن إطلاق أموالهم ( أي رواتبهم ) في مدة ضربها لهم . فاضطر إلى خبط الناس واستخراج الأموال من غير وجوهها . فأقطع قواده وخواصه وأتراكه ضياع السلطان وضياع المستترين وضياع ابن شيرزاد وحق بيت المال في ضياع الرعية ( أي عامة الأراضي ) وصار أكثر السواد مغلقاً . وزالت أيدي العمال عنه . ولقي السير منه من المحلول فضمن أي أعطى بالضمان . واستغنى عن أكثر الدواوين فبطلت . . . » وهكذا جرى انقلاب في الملكية الزراعي إذ انتقلت من طبقة أثرياء المدن إلى قيادات العسكر ولكنها لم تغير من الواقع شيئاً فهؤلاء القادة العسكريون كانوا ( الآن ) سادة المدن ولم يغادروها إلى الريف . فالانقلاب كان في نوع المستثمر لا في طبيعة الاستثمار . وقامت بذلك بداية الاقطاع العسكري الذي ربط القرى بجند المدينة وأعطى نسبة محدودة بالضمان لبعض المدنيين فيها . وتصرف المقطعون على أساس أن الأرض ملك لهم فأدى ذلك إلى خراب الكثير منها فكانوا يطالبون بغيرها لتخرب بدورها . « وصار الرسم جارياً - كما يقول مسكويه - على أن يخرب الجند اقطاعاتهم ثم يردوها ويعتاضوا عنها من حيث يختارون . . . » وزاد الحال قسوة ، سوء الغلمان والوكلاء الذين وضعوا لإدارة الأرض فكانوا « لا

يضبطون ما يجري تحت أيديهم ولا يهتدون الى وجه تسمير وصلاحه ويقطعون أموالهم بضرور من الفساد . واعتاض أصحابهم عما يذهب من أموالهم بمصادراتهم ، وبالخيف على معاملتهم . وأهملوا متطلبات الري ، وبه قوام الزراعة ، فأدى ذلك الى خراب الكثير من القرى . . . .<sup>(١)</sup> وتخلّى بعض الملاك عن أرضهم وهرب الكثير من الفلاحين الى المدن لينضموا الى طبقة القاع فيها ! ولم يكن الضامنون المستندون بدورهم الى طبقة الملاك العسكريين بأقل عسفا وتلاعبا فزادوا الجبايات وصادروا الزراع وأهملوا الري ولم تسلم أراضي الملك الخاص من العسف مما اضطر أصحابها الى وضعها في ظل الملاكين الكبار ( نظام الاجراء ) وبخاصة من الأتراك « فملكوا البلاد كما يقول مسكويه واستعبدوا الناس . على أن ذلك كله إنما جعل المدينة شبعا مرعبا من الظلم والجبروت في وجه الأرياف .

وقد أدى ذلك كله الى نتائج خطيرة كان منها ضعف المركز تماما ، واهمال نظام الري ، وكثرة الاضطرابات ، وغزو البدو للمدن ، وانقطاع طرق التجارة ، وتكرار الغلاء والمجاعات والأوبئة على الناس بشكل لم يعرفوه من قبل . وتغير الوضع الاقتصادي الاجتماعي في بلدان الخلافة الشرقية فتدهور الاقتصاد النقدي . وصار الفلاحون مع أراضيهم ملكا للاقطاعي العسكري . وتراجع النشاط المصرفي والتجاري . وتعرض التجار للمصادرات التعسفية وللضرائب المرهقة . وتلاعب البويهيون بالنقد بتخفيض نسبة المعدن الثمين فيه مما أربك معاملات البيع والشراء وقلص دور المؤسسات المصرفية . وزادت مقابل ذلك كلفة الشطار والعيارين في المدن ، وبخاصة ضد الشرطة وممثلي الحكومة . . . وتدهورت بغداد نفسها أكثر من غيرها . يقول المقدسي (أواخر القرن الرابع / ١٠م) . فأما المدينة

(١) مسكويه / تجارب الأمم ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ وهو معاصر لهذه الأوضاع .



فهي خراب وهي كل يوم إلى الورا، مع كثرة الفساد والفسق وجور السلطان<sup>(١)</sup>، ويقول عن العراق أنه «بيت الفتنة والغلاء وهو في كل يوم إلى وراء ومن الجور والضرائب في جهد وبلاء مع ثمار قليلة ومؤون ثقيلة<sup>(٢)</sup> وفي هذه الفترة ظهرت حركات الأحداث .

وإذا انقذ مصر دخول الذهب الفاطمي عليها إلا أن هذا سرعان ما تلاشى بعد نصف قرن . وبدأت البلاد تعاني حتى من الجوع الشديد . وكان هذا الجوع أظهر ما يكون في المدن المكتظة كمصر / القاهرة حيث مارس الناس في إحدى المجاعات (الشدة المستنصرية ٤٥٧ - ٤٦٣) أكل اللحم البشري وبادت بعض المدن الكبير كالرملة . وكما استبدلت بقوة المدينة على الريف قوة العسكر في لمشرق كذلك استبدلت في مصر . وتقطعت في الوقت نفسه أوصال الخلافة في الأندلس . فبعد العهد الطويل للخليفة عبد الرحمن الناصر (٥٠ سنة) جاء التدهور وتسلط الحجاب وغيرهم وتقطعت البلاد فصار كل صاحب بلد أميرا، وله بلاط وشعراء، ولديه أطماع باحتلال المدن الأخرى . ولكن إنتاج إمارته سواء الزراعي منه أو الحرفي لم يكن يكفي للدفاع عنها فسقط الكثير منها في حروب ومنازعات لا تنتهي . ذلك كان عهد ملوك الطوائف . لكن هذا كله لم يمنع مدن الأندلس من أن تظل على التنافس رغم قاعدتها الانتاجية الضحلة وعلى استغلال الريف لضمان استمرار البذخ للبلاط والخاصة في المدينة .

وكان طبيعيا بعد هذا أن تغري هذه الأوضاع الأطماع الخارجية بالزحف . وهكذا تبع التدهور الاقتصادي عصر الهجمات الأجنبية أو البدوية سواء في المشرق (مع السلاجقة ثم الصليبيين ثم المغول) أم في المغرب (مع

(١) المقدسي / أحسن التقاسيم ص ٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١٣ .

حركات المرابطين والموحدين وحركة الاسترداد الصليبية في الأندلس). بدأت كلها مع تقدم القرن الخامس / ١١ م. صحيح أن الأقسام الأولى من هذا الزحف كانت مسلمة بدوية سلاجقة ومرابطين (موحدين)، تحاول دعم الموقف الإسلامي، كل منها على طريقته، وأن أقسام الزحف الأخرى كانت صليبية أو همجية (مغولية) تحاول احتلال الأرض وتدمير الحضارة عليها، لكن جميع الأطراف كانت تدوس الريف وتحرقه حرثاً. وتتطلع إلى احتلال المدن. وكانت النتيجة من ذلك حدوث انقلاب كلي في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية إذ أنها:

– اضعفت سيطرة ملاكي المدن على الريف وأحلت محلها الطبقة العسكرية المهيمنة.

– أربكت الحركة التجارية والحرفية وأوقفت نموها – إلا فيما يتعلق بالتسليح والتحصين – مما أضعف المدن نفسها وأوقف ازدهارها.

– أعادت البلاد إلى الاقتصاد الزراعي ولكن بزعامة جديدة هي زعامة الاقطاع العسكري.

وقد رافق ذلك كله سلسلة من الفجائع الطبيعية (جفاف، مجاعات، أوبئة)، وانقطاع في موارد الذهب، وتوسع في الهجمات البدوية المحلية (بدو الشام حاولوا تقاسمها إلى ثلاث إمارات سنة ٤١٥، وبدو بني هلال غزوا أفريقيا ودمروا معظم مدنها)، في حين كانت البداوة السلجوقية تسيطر على المشرق، والبداوة البربرية تسيطر على المغرب والأندلس. فكان ذلك كله إنما جاء لخلط الأوراق وإعادة توزيع الأرض على مالكين جدد ولكنهم على الدوام من حكام المدينة وسادتها، وعلى أساس الاقطاع الكبير. وبينما تقلصت قوى المدينة حتى انحصرت في داخلها فقط (عبارة وشطار، وأحداث، فتيان حجرية، فتوة) وسقطت الأرض في يد الخاصة العسكرية

وأمرء الجند، سواء في المشرق أم لدى الفاطميين أو لدى المرابطين  
والموحدين. وصار التقابل واضحاً بين شعب محكوم له وميليشياته المتواضعة  
في المدن فقط، وقلعة عسكرية حاكمة (بويهية، سلجوقية، مرابطية،  
موحدية).

لم يكن الاقطاع العسكري حتى الآن وراثياً، ولكنه يقوم على اقطاع  
الأرض مقابل الخدمة العسكرية. فقد بدأه البويهيون من مفهوم اداري وقبلي  
السلاجقة من خلال نظرتهم القبلية إلى الملكية المشتركة للأرض. وطوروه  
ليلائم متطلبات سلطان مطلق يستند إلى قوات عسكرية غازية. ونظر إليه  
الفاطميون في عهودهم الأخيرة على أنه نوع من ايجار الأرض. لكن يبدو  
أنهم قلدوا البويهيين منذ سنة ٤٤٦/١٠٧٣ إذ أخذوا يقطعون الاقطاعات  
للأمرء والجند «بالتقبيل» أي الالتزام لمدة أربع سنوات قد تتجدد دون عائق  
مع بقائها تحت اشراف الديوان. كما يبدو أنها كانت أولاً تتناول الأراضي  
الحكومية ولعلها بدأت عن طريق الضمان. وكانت اقطاعات الأمرء ممتازة  
الموارد في حين أن اقطاعات الجند كانت متواضعة لكن سرعان ما تصرف  
الأمرء بالأرض كأنها أملاك لهم فغرسوا البساتين وأنشأوا الأبنية فيها  
والمعاصر للزيتون وقصب السكر، كما تجاوز بعضهم على أملاك الديوان  
فأضافها إلى أملاكه فلما أعيد مسح الأراضي سنة ٥٠١/١١٠٨ أعيد توزيع  
الاقطاعات بالمزايدة بين العسكريين وكانت مدة الاقطاع ثلاثين سنة وكان  
بعضهم يدفع أقل من الايجار اللازم مما يدفع الدولة إلى شطب مبالغ كبيرة  
من الديون سنة بعد سنة مما يسمى (بالبواقي).

وفي كل الأحوال كان «الاقطاع» يمثل المدينة وقوتها في عيون الريف.  
وكان المقطعون العسكريون يقيمون في المدن ويديرون الاقطاع بالواسطة عن  
طريق الوكلاء. وهذا يعني أن الريف ظل تابعا لسادة المدينة الجدد ووظيفته  
أن يبيء لهم المال والموارد لينصرفوا إلى الخدمة العسكرية واعداد الجند.

وسرعان ما تطور الاقطاع السلجوقي فأضحى وراثيا وبخاصة منذ الفترة الأيوبية (سنة ٥٦٧/١١٧١). يقول المقرئزي المتوفى سنة ٨٤٥ بعد مائتي سنة من حكم المماليك: «وأما منذ كانت أيام صلاح الدين بن أيوب إلى يومنا هذا فإن أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده»<sup>(١)</sup> وقد وزعت عليهم وعلى بعض شيوخ البدو. وحين وصل المماليك الحكم سنة ٦٥٠/١٢٥٢ لم تكن اقطاعات الجند تقوم على ملكية الأرض، وإن كانت قد تورث، ولكن على وارد الضرائب منها، لكن المماليك احتكروا السلطة وكان الاقطاع لهم بديلا للراتب، وعلى رأسهم السلطان نفسه، مما ألغى الإدارة المدنية وجعلها عسكرية كاملة، ولكنه لم يغير من الواقع شيئا فقد كان المماليك يملكون مع الرف المدن ويستقرون فيها.

في هذه الفترة العصبية زاد ارتباط الريف والمدينة معا بالتصوف، وبمفاهيم الفروسية، والمطالبة بالشهامة، والاشادة الشديدة بالعدل (عدل العمرين وعدل نور الدين مقابل مظالم الحكام الآخرين ومنهم عماد الدين زنكي والده) وكثرت كتب السياسة التي ترسم مبادئها على أساس من الشرع للتذكير بأوامر الله. كانت المدينة في هذه الأمور إنما تدافع عن نفسها.

ولم يتغير أمر الوراثة الاقطاعية زمن المغول في المشرق وصارت كما في زمن المماليك في المنطقة الاسلامية الوسطى وراثية كاملة (وكانت الأندلس قد ضاع معظمها). يقول ابن فضل الله العمري (القرن الثامن) «إن لكل طائفة من العسكر أراضي لنزولهم تواريخها الخلف عن السلف منذ ملك هولاء البلاد. فيها منازلهم ولهم بها مزرع لأقواتهم. لكنهم لا يعيشون بالحرث والزرع!.. والذي للأمراء والعسكرية لا يكتب به مرسوم لأن كل

(١) المقرئزي / خطط ج ١ ص ٩٧ (طبعة بولاق).

طائفة ورثت مالها عن ذلك عن آبائها . وأما الادارات من المبالغ والقرى فإنها تبقى كذلك لأصحابها كالمملك يتصرف فيه كيف يشاء من بيع ووصية ووقف لمن أراد»<sup>(١)</sup> .

على أن الاحتلال الصليبي والمغربي لبعض الأراضي الاسلامية في المشرق والمغرب قد غير من وظائف المدن الباقية التي وإن لم تتخل عن هيمنتها على الريف انصرفت إلى موارد تجارة المرور مما نجم عنه اهمال الريف . فازداد النزوح منه إلى المدن وتعددت انبيارات النظام النقدي وتكررت المجاعات والأوبئة وكثر هجوم البدو على الأرياف للنهب أو للاستقرار .

ونخلص من كل ما مضى إلى القول بأن علاقات الانتاج ما بين المدينة الاسلامية والقرية لم تكن علاقات متوازنة بكل كانت بصورة عامة علاقات أخذ دون عطاء . وكان كبار الموسرين فقط (سواء كانوا من الحكام أم من التجار) أي الذين يمثلون السلطة هم الوسطاء الدائمين ما بين المنتج الريفي والمستهلك . وكانت الأسعار بأيديهم يفرضونها حسب السوق وقواعد الاحتكار . ولهذا تساوى عامة أهل الريف مع الطبقة الدنيا من سكان المدن الذين كانت المدينة بالنسبة إليهم عبئا لا امتيازاً .

## ٢ - التجمع الحرفي وتنظيمات العمل ورقابته

إذا كانت القرى مجتمعا للريف والزراعة فإن المدن، في هياكلها المجردة إنما هي مجتمعات للحرف والصناعات ولمن يتوسطون بالبيع (أي التجار) . وسيطرة المدن الاسلامية جعلت الريف يقدم للمدينة ثلاثة أمور أساسية :

(١) الفلقشندي - صبح الأعشى ج ٤ الصفحات ٤٢٥ و ٤٢٦ و ٤٢٧

— الرساميل المتجمعة التي تحتاجها الأعمال الحرفية والصناعية .  
— المواد الأولية للحرف والصناعات من قطن وكتان وصدف وحرير  
وقصب سكر وسمسم وزيتون وشمع وحبوب وأعشاب ومعادن . . وما يجري  
مجرى ذلك .

— السوق اللازمة لتصريف الإنتاج الحرفي والصناعي بواسطة التجار  
والباعة .

وقد توافر ذلك في المدن الإسلامية منذ وقت مبكر، وكثير منه سابق  
للإسلام . فقد وجد المسلمون في المدن المفتوحة دور السكة والنسيج  
المختلف والمصابغ والمصاغة ودور إنتاج البردي والخزف والمطاحن  
والمخابز . . . وتركوها بأيدي أصحابها للإفادة منها . ثم اجتذبت المدن مع  
توسعها أعدادا كبيرة من السكان ما لبث قسم حسن منهم أن تعلم الحرف  
المختلفة والفنية، وفتحت للناهين منهم فرص العمل، وحذق الصناعات .  
وندر في المدن إن كانت مغلقة (كواسط) أيام الحجاج، والعكس هو  
الصحيح فقد كانت المدن مفتوحة لمن يريد الإقامة بها بل كانت طلب  
أصحاب الحرف . وقد دعا عبد الملك بن مروان وابنه الوليد البنائين وأهل  
الصناعات من مصر والشام وبلاد الروم لبناء قبة الصخرة والجامع الأموي  
وجامع النبوة . ودعا ابن الزبير البنائين من الفرس والروم لبناء الكعبة التي  
احترقت في عهده . وسمح لأهل مرو وبخارى وخوارزم بالسكن في مدينة  
بغداد<sup>(١)</sup>، بعد أن كان المنصور قد جمع العمال من كل مكان لبنائها ولم يبدأ  
البناء حتى تكامل عنده من الفعلة وأهل المهرة مائة ألف . وكذلك فعل  
المتوكل في سامراء .

وهكذا كانت المدن مركز جذب لكل حرفي أو عامل فني مع تكاثر

(١) اليعقوبي / البلدان ص ٨٥ .

السكان فيها، وتكاثر الأسواق، وتنوع الأعمال والمعروضات من خزفية ونسيجية وفنية وطبية وغذائية ومعدينية . . .

ويبدو بوضوح سواء من كتب الحسبة أو من الكتب الأخرى أن الاختصاص الضيق كان يقسم المهن والحرف إلى ما يزيد على ثلاثمائة مهنة على الأقل، دون فروعها. وقد صنف اخوان الصفا الصنائع في القرن الرابع :

أولا : حسب فائدتها كالصنائع الضرورية للمجتمع (زراعة، وحياسة، وبناء) وصنائع مكملة لها (جلج، . وغزل وخياطة).

ثانيا : حسب موضوعاتها: كالصنائع الجسائية والحرف اليدوية. وتقسم هذه بدورها صنفين :

أ - الصنائع التي يكون موضعها بسيطا: كالماء (السقاء والملاح والسباح)، التراب (حفار الآبار والترع والأنهار)، والنار (كالنفاطين والوقادين والمشعلين)، والهواء (كالزمارين والبواقين والنفاخين، والماء والتراب (كصناعة الفخار والغضارين).

ب - الصنائع التي يكون موضعها مركبا: كصناعة المعادن (الصفارين والحدادين والرصاصين والصاغة)، والنباتات (كالنجارين والحصرين والخواصين والكتانيين)، . . . والصناعات الحرفية (كالصيادين والديباغين والطباخين والوزانين).

وإضافوا ثالثا : هو الصنائع التي يكون موضعها: أجساد الناس (كصناعة الأطباء، والمزينين، ونفوس الناس كصناعة المعلمين).

وما ذكرنا هذا التقسيم النظري الساذج إلا لاعطاء فكرة عما في المدن

من الصنائع والحرف وهي في الواقع أكثر من ذلك بكثير<sup>(١)</sup>. وتذكر منها كتب الحسبة أيضا: الحبوبيين والدقاقين، والخبازين والفرائين وصناع الزلاية والجزارين والقصابين والشوائين والرواسين وقلائي السمك والهراثيين والنقائيين والحلوانيين والصيدلة والعطارين والشرابين وصانعي العطور والسمانين والزبازين والمنادين والدلالين والقطانين والكتانين والحريين والسماكين والصباعين والأساكفة والصيافة والصاغة والنحاسين والحدادين والبيطرة ونخاسي العبيد وباعة الدواب (والمواشي) وباعة الباقلاء والخضار والعاملين في الحمامات والقوام عليها والفصادين والحجامين والأطباء والكحاليين والمجبرين والجراثيين ومؤدبي الصبيان بالاضافة إلى صانعي الخفاف والغزاليين. . . الخ، دون أن نذكر أيضا الخمارين ومن إليهم من أصحاب عمل السوء، ودون أن نذكر الوزراء والحجاب والكتاب والجند واليوابين والخدم. وأصحاب الأخبار والمؤذنين والصيدادين والمنجمين وأصحاب الأعلام والبوقيين والطبالين والقصارين والرفائين والمطرزين والخراطين والطباعين والملاحين وصانعي الأسلحة من سيوف ورماح وسهام والسروجيين وعمال الاصطبلات. . . في اعداد لا تنتهي. وقد ذكر التنوخي في نشوار المحاضرة جماعة واسعة من أهل المهن أيضا فمنها: «الأدباء والشعراء والنسابين والشهود والقضاة والأمناء والولاء. وأصحاب القنص والجواسيس والمتخبرين والسعاة والغمازين والوارقين والحساب والمحجرين والعمال وكتبة الدواوين والثناء المزارعين والأكرة والفلاحين وأرباب الخراج

(١) قسم الغزالي الصنائع إلى قسمين ضرورية وكهالية. كما صنفها من ناحية النظرة الاجتماعية إلى صناعات مستحبة (كالنجارة والخياطة، وغير مستحبة (كالحياسة والتعليم والقطانين). . . وقسمها الدمشقي صاحب الإشارة إلى محاسن التجارة حسب احتياجها للحركة والفكر إلى (الهندسة والنحو،) وإلى الصنائع العملية (كالفلاحة والحياسة) وإلى الصنائع المركبة من الطرفين (كالطب والكتابة). ولكن ابن خلدون جعلها قسمين: ضرورية للمجتمع (تجارة. حدادة حياكة. .) وكهالية للترف (باعة وصباعة. غناء ترويض حيوان. .).



والواعظين والقصاص والنسك والأئمة والمؤذنين والقراء والملحنين والشطار وأصحاب العصبية والسكاكين وقطاع الطرق والمتلصصين والعيارين ولعاب النرد والشطرنجيين والطفيلية والمغنيات والمغنين والرقاصين والمجان والمشعبذين والمحتالين ومعالجي الجوائح والقسائحين...<sup>(١)</sup>، وإذا استعملنا التذكير للدلالة على المهنة فليس يعني ذلك أن العاملين بها كانوا من الذكور فقط فقد مارست النسوة أيضا حرفا مختلفة في التعليم والطبخ في البيوت وتربية الأطفال والطحانة والحجامة والغزل وتنظيف القطن والكتان عند القطانين والكتانين، واستؤجرت بعضهن لكنس المساجد بالإضافة إلى الغناء والعزف فهذه طنبورية (كعبدة الطنبورية) وتلك صناجة وثالثة عوادة... الخ.

وكان معظم أهل هذه الصناعات والحرف من طبقة العامة كما كانوا في مطلع العهد الإسلامي من الموالي بصورة خاصة.

تأملت أسواق العراق فلم أجد دكاكينها إلا عليها المواليا<sup>(٢)</sup> ونعني من الصناعات الروم والفرس ثم دخل في ذلك العرب وغيرهم. وكانوا في معظمهم من أهل الذمة في البدء ثم مالبنوا أن صاروا إلى الإسلام في جملتهم وإن ظل الذميون على الاختصاص في مختلف المدن الإسلامية بصناعات معينة كالطب في النصارى واليهود، والصباغة لليهود والصياغة لدى الطرفين والحدادة وصناعة الحرير والزجاج<sup>(٣)</sup>. كما كان بين الصناع والحرفيين عدد من العبيد -

(١) التنوخي / نشوار المحاضرة ج ١ ص ٢-٧.

(٢) الجاحظ: رسائل الجاحظ (تحقيق هارون/ القاهرة ١٩٦٥) ص ٨٢.

(٣) انظر الجاحظ: ثلاث رسائل (يوشع فنكل) القاهرة (١٣٨٢) ص ١٧ والجويري: المختار في كشف الأسرار ص ٤٣، والمقرئزي / المخطط ج ٢ ص ٢٤٨ - ٢٦٥، وابن الوردي / تاريخ (النجف ١٩٦٩) ج ١ ص ٣٤٦، وترتون / أهل الذمة ص ١٠٨، والمقدسي / أحسن التفاسيم ص ١٨٣.

وذلك طبيعي - وقد أطلقهم أسيادهم للعمل في مختلف المهن وأخذ أجورهم . وبعضهم كان يقتصد ما يعتق به رقبته وبعضهم كان يتقن أكثر من مهنة . ومن حرفهم الحجامة والخياطة والطبخ والجزارة والحدادة .

وإذا كانت أسواق المدن القديمة تتكون بصورة أساسية من هؤلاء الحرفيين : ذميين ثم مسلمين من بعد، فإن أسواق المدن الإسلامية كانت كذلك مع فارق قليل هو أن ارسنقراطية المدن الإسلامية الحديثة وموسريها كانوا من العرب، وكان أصحاب الحرف والمهن من المهاجرين إلى هذه المدن من المدن الأخرى أو من الريف .

ومع نمو المدن وتطور الحياة فيها واتخاذها صفاتها الرئيسية نمت المهن على هذه الطبقات الغربية عنها، وازداد نشاط الحرف والمهن واتسعت أسواقها ومحلاتها . فالبصرة والكوفة والقيروان والفسطاط وواسط وشيراز والرملة وبغداد كلها مدن تكونت ارسنقراطيتها من سكانها الملاكين العرب أولا ثم ممن هاجر إليها من أصحاب المهن والحرف ومن أهل الريف، فأشبهت بذلك المدن القديمة في مناطقها كما اشبهتها في تجمع أهل الحرف في الأسواق جماعات متجانسة بعضها مع بعض فلكل حرفة في معظم المدن الإسلامية سوق . ويسمى هذا السوق باسم المهنة فيه فهذا للغزل وذاك للحاكة وآخر للعطارين ورابع للصفارين وخامس للشمع أو البقل وقد أمر المنصور بإبعاد أسواق اللحامين والنحاسين إلى آخر أسواق الكرخ لأن بأيديهم الأدوات الجارحة . وقامت في ظاهر المدن غالبا صناعات الصابون والصباغ ومعاصر الزيت ومطاحن الحبوب وصناعات الفخار . أما سوق الغزل . فكان خاصا بالنساء<sup>(١)</sup> .

(١) ابن بسام : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٩٣ .

وذهب المستشرق ماسينيون إلى أن مركز السوق في المدينة الإسلامية هو المكان الذي تقوم فيه «مركز الصيرفة وتحويل العملات، ذلك أن الإسلام - على ما يرى - انبثق في لحظة قام فيها التعامل النقدي كعامل أساسي في التجارة»<sup>(١)</sup>. وهو رأي ينسى أن العرب قبل الإسلام كانت لهم أسواقهم الجاهلية وكانت لهم مدنهم القديمة أيضا وحضارتهم في اليمن وعمان والاحساء والحجاز. وتخصص الأسواق أمر معروف في مختلف المدن القديمة، كما هو معروف في أسواق الجاهلية، وفي مكة قبل الإسلام، وفي المدينة. ثم كان موجودا في البصرة فهناك رحبة للقصابين وسوق الطحانين وآخر للدباغين. وقد رتب خالد القسري أسواق الكوفة على التخصص في العمل كسوق القلائن والزياتين والنحاسين والجزارين، وتجمعت حوانيت الصرافة حول مسجد الكوفة (وهو ما أوحى لما سينيون برأيه) وابتعدت فيها أسواق السمك والإبل والتمر إلى الأطراف. واهتم الحجاج بتنظيم أسواق واسط وجعلها أسواقا متخصصة فقد «أنزل أصحاب الطعام والبزازين والعطارين عن يمين السوق إلى درب الخرازين، وأنزل البقالين وأصحاب السقط والفاكهة في قبلة السوق إلى درب الخرازين نفسه، وأنزل الخرازين والروزجاريين (عمال المياومة) والصناع في درب الخرازين عن يسار السوق إلى دجلة وقطع لأهل كل تجارة قطعة لا يخالطهم غيرهم». وكان ثمة سوق للجزارين وآخر للحدادين<sup>(٢)</sup>.

وفي المدينة المنورة أيام ثورة محمد النفس الزكية سنة ١٤٥ كان ثمة أسواق للتجار وأصحاب الأقفاس وللحطابين والزياتين والجزارين. ولعل كرخ بغداد كان نموذجا في تخصص الأسواق حين بني بعد سنة ١٤٨ فقد رتب فيها لكل صنف سوق وشارع معلوم وحوانيت في صفوف من الشوارع

(١) Massignon. Les Corps of metiers et la cite Islmaique P.372.

(٢) بمشل / تاريخ واسط ص ٤٤ وياقوت ج ٥ ص ٣٥٠.

لا يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة<sup>(١)</sup>. وكل أهل صنف منفردون بتجارتهم. وقد ظل هذا التخصص قائماً حتى حين تضخمت بغداد. وتحركت من موضعها غربي دجلة إلى شرقه. ثم زحفت نحو الجنوب فهناك سوق النحاسين وباعة الدجاج واللحم، والخبازين وأصحاب الساج والسماكين والبقلانيين وأصحاب الكاغد وأصحاب النعال والعطارين والصيدلة وأصحاب الدهون والخزازين والجوهرين وسوق للفاكهة تدعى بدار البطيخ. وعلى جانب بغداد الشرقي أسواق السلاح وللصفارين والنحاسيين والدقاقين والخبازين والحلاويين وباعة الرياحين والحلاويين والسيارة وللحدادين وللوراقين والرفائين<sup>(٢)</sup>. وقد رتبت أسواق سامراء على الأساس نفسه فأفرد أهل كل صنعة بسوق. وكان لكل جماعة في القدس سوق خاصة بهم، وفي مكة في القرن الخامس كان فيها عشرون دكاناً متقابلة للحجامين وسوق فيها كلها عطارون. وفي القيروان كان ثمة سوق الرهادرة (باعة الثياب القديمة) ملاصقاً لدكاكين الرفائين وحذوهما سوق الكتانيين وسوق اليهود وسوق البزازين وسوق دار الإمارة وسوق الأحد وسوق الصوافين وسوق الصرف وسوق القطنيين وسوق اسماعيل بن عبيد الأنصاري (ولعله من أقدم أسواق القيروان وكان به مسجد وأحباس على المسجد من الحوانيت<sup>(٣)</sup>). وكان أول من رتب كل ذلك هو يزيد بن حاتم الذي جعل لكل صناعة مكانها. وفي دمشق يذكر ابن عساكر (القرن السادس) أنه كان بها أسواق تزيد على الخمسين منها أسواق الرماحين والريمان والسراجين والدقاقين والطرايفيين والمناخليين والقطنيين والمطرزين وسوق اللؤلؤ والفاكهة ودار البطيخ وسوق الدقيق والطيور والغزل والقمح

(١) اليحقيوي / البلدان ص ٢٤٢.

(٢) انظر الطبري ج ٨ ص ٦٣ وج ٢٦ و ٢٧ و ٢٩.

(٣) وابن طيفور / تاريخ بغداد ص ٩٧ وص ٩٨.

والقلانسيين والقناديل والحذائيين والأساكفة والبزوريين والحبالين  
والخواصين .

وقد أضحت الأسواق المتخصصة تقليدا في المدن الإسلامية استمر  
حتى القرن (الرابع عشر / العشرين) .

أما مواضع الأسواق فهي بصورة أساسية حول المسجد الجامع القائم  
غالباً في وسط المدينة . فجوامع البصرة الثلاثة كانت في الأسواق وجامع  
الكوفة كذلك . واختطت أسواق سامراء حول المسجد الجامع . وقد تقوم  
الجوامع على طرف الأسواق كجامع واسط وجامع سامراء الثاني (أبي دلف)  
لكنها لا تقوم بعيدة عنها . وفي ذلك بعض من أوامر الله : ﴿فإذا قضيت  
الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ وكانت للأسواق أشكال  
متعددة بعضها اتخذ شكله نتيجة المناخ وبعض نتيجة الظروف الحياتية : فقد  
تجمع في جانب واحد من المدينة كما في الكوفة . وقد تمتد على طول شارع أو  
شارعين أو أكثر كما في مدن الشام ومصر . وعلى كل جانب أو في كل قطعة  
مهنة معينة . وقد تجمع خارج المدينة أحيانا كما جرى في بغداد (الكرخ) .  
وقد ورثت المدينة الإسلامية «القيصرية» . وهي بناء تتجمع فيه بعض المهن  
أو بعض التجارات عن الروم وانتشر هذه الاسم (نسبة إلى قيصر) في مختلف  
المدن حتى الإسلامية منها . ففي القيصرية حوانيت ومصانع ومخازن ومساكن  
لاقامة الصناع والتجار بأجر . وقد وجدت هذه القيساريات في قرطبة  
والقيروان كما وجدت في نيسابور وبغداد وكانت منذ القرن الرابع أشبه  
بالأسواق في أسفلها والفنادق في أعلاها . وشكلت معلماً من معالم المدن  
الإسلامية وقد وجد منها في القاهرة حسب ما ذكره المقرئزي واحد وعشرون  
قيسارية منها قيسارية ابن قريش ، وقيسارية جركس . وقيسارية الفاضل ،

وبيريس وغيرها، وكلها من إنشاء الأمراء والكرماء للإيجار والاستثمار<sup>(١)</sup> وكان في دمشق زمن ابن عساكر سبع قيساريات منها قيسارية السلطان، وقيسارية الوزير والقيسارية الفخرية<sup>(٢)</sup> عدا الفنادق وهي بدورها سبعة. كما وجدت في المدن الإسلامية أسواق صغيرة تدعى بالسويقات بسبب صغرها وكانت غالباً ما تقوم على أبواب المدينة وكان منها في دمشق زمن ابن عساكر ست سويقات منها سويقية باب قوما، وسويقة الباب الشرقي وسويقة الباب الصغير كما ذكر المقرئزي في القاهرة ١٦ سويقة بجانب الأسواق<sup>(٣)</sup> وقد وجدت في المدن إلى هذا، الخانات وهي للإقامة وإيداع البضائع. وكان في مصر منها خان يدعى خان الوزير لا يباع فيه سوى القصب وفي الطابق الأسفل يجلس الخياطون، وفي الأعلى الرفاؤون. ويأخذ القيم على الدار الأجرة من مستأجره. ومثل هذه الخانات كانت شائعة. وكانت بعض الأسواق أيضاً مغطاة بسقائف وبخاصة في المناطق المطيرة أو الكثيرة الشمس كأسواق الشام والمغرب وكان الغطاء أول الأمر بالحصر. وفي بداية القرن الثاني بنيت الأسواق وجعلت لها سقوف معقودة بالأجر والجص. وزياد بن أبيه كان أول من اتخذ السقائف على حوانيت السوق وضمن ما يسرق منها. ثم شاع ذلك في الموصل وحلب وبعض مدن الأندلس.

ومع تجمع كل حرفة في سوقها ظهرت التعبيرات الدالة على الرابطة بين أصحاب المهنة الواحدة وصار يشار إليهم بالأصناف وأصحاب المهن وأهل الصناعات مقابل أصحاب الدراريح (الكتبة) وأهل الطيلسان (القضاة)، لكن التعبيرات الدالة على المهنة كانت تشعر بوجود تنظيمات تضم أصحابها. ولعلمهم بهذا كانوا يقلدون ما في الريف يومذاك من تسمية

(١) المقرئزي خطط ج ٢ ص ٨٦-٩٢.

(٢) ابن عساكر تاريخ مدينة دمشق ج ٢ ص ٢٥٤.

(٣) المقرئزي خطط ج ٢ ص ١٠٤-١٠٧.

للزراعة بأعمالها كالحراثين والحصادين والقياسين (الحسابين) ومن تنظيم قروي كالرئيس أو الشيخ للقربة والعريف المسؤول عن أعمال الري مقابل حق «العرافة» وعلى أي حال فقد صار بين أصحاب المهن في المدينة نوع من الروابط أو التنظيمات ما لبثت أن عبرت عن نفسها بالانتماء إلى الصنعة بدل النسب والتعصب لها تجاه فئات المجتمع الأخرى وحتى تجاه الأصناف الأخرى. وفشت النسبة إلى الصنعة أو الحرفة جنب النسبة إلى المدينة أو القبيلة.

ولما كان أهل الحرف يدخلون في طبقة العامة وهم في مرتبة اجتماعية أدنى من الخاصة فقد حاولوا بتناسكهم أن يكونوا ما يشبه أن يكون ارسقراطية العامة. فكانت الحرفة أمانا من الفقر وأمانا من الغنى «في وقت واحد. ويعطينا الحريري في مقاماته فكرة عن وضعهم المعاشي» في قوله: وأما حرف أهل الصناعات فقير فاضلة عن الأوقات ولا نافقة في جميع الأوقات ومعظمها معصوب بشيبة الحياة<sup>(١)</sup>. على أن تكاثر أهل المهن في المدن أضحى يميز المدينة ويبرز أهمية العامة ودورهم في حركتها وحياتها منذ أوائل القرن الثالث/٩م فما بعد. وسرعان ما صار لكل حرفة عرفها وأصولها حتى كان هذا العرف مقبولا لدى القاضي والمحتسب في فض المشاكل المهنية. وقام فيها التدرج المهني من أجير مبتدىء إلى صانع إلى معلم حرفة (كما في القاهرة) أو أستاذ. وصار لكل حرفة زي يعرف أصحابها به. والصناع هم جماهير الصنف (أو المهنة) وهم فتح حوانيت خاصة وممارسة الصنعة بها مستقلين، على أن يراعوا تقاليدها وما يجب لها. وعلى أيديهم يتدرب المبتدئون.

والحرفة مفتوحة لمن يرغب بها من الديانات المختلفة لكن بعضها كان

(١) الحريري - مقامات (ط. دي ساسي) ج ٢ ص ٦٥٨.

«يحتكر كالصياغة». فيبقى بأيدي جماعة من الذمة أو الصابئة أو اليهود يتوارثونها في الأسر، أو كانت تحتقر فلا تقربها إلا الطبقات الدنيا ككسح الأقدار أو الصباغة أو الحدادة. فأصحاب هذه المهن يتوارثونها أيضا مع الفقر. لكن المهنة في كل الأحوال كانت الرابطة الأساسية بين أصحابها فهم على التساند والتعاون. ولكل حرفة شيخ أو رئيس يعترف به السلطان أو يختاره أحيانا (كما للتجار: شاهبندر) وينظر إليه على أنه يمثل الحرفة.

ولم تشذ الأندلس عن تنظيمات أهل المهن بشكل ما، فإن ازدهار الصناعة فيها قد فرض ذلك كما جعلها تقطع شوطا واسعا في التخصص المهني والتضامن من خلال هذا التخصص. فكان لأهل كل حرفة سوق خاصة بها. ولأهل الحرف، منذ القرن الثاني الهجري شبه منظمات خاصة تضمهم ثم ما لبثت أن نضجت فعلى رأس كل مهنة رئيس يعرف بالأمين ويتخب باقتراح يقدم للمحتسب من قبل أعضاء المهنة. كما وجد أمين ثان للجماعة ينوب عنه ثم أعضاء «النقابة» الذين عليهم طاعة الرئيس. وكان الأمين وسيطا بين أهل المهنة والمحتسب يبلغه مطالبتها فيما يتعلق بتقدير تكاليف السلعة وتحديد ثمن البيع ويرجع إليه عند الاختلاف في أمور الصفقة وعليه أن يراقب الغش ويقومه. وقد يعلم أهل صنعته طرقها وسننها.

وكان ثمة عرفاء في هذا التنظيم المهني وهم عادة من الأساتذة المهرة في الصناعة ووظيفتهم القياس مع المحتسب بتنظيم العمل بين أهل الأصناف<sup>(١)</sup>. وقد ظلت الحسبة في الأندلس تسمى فترة طويلة بأحكام السوق.

(١) ابن عبدون، رسالة في القضاء والحسبة ص ٣٥.



وقد شمل تعاون أصحاب الحرف ضمانهم لتسوية مقبولة في المهنة ،  
وتقرير مستوى الأسعار فيها وحماية أصحابها من التعدي . وقد يقومون جميعا  
في الأزمات للدفاع عن بعض أعضائهم كما جرى في هياج صانعي النسيج  
القطني والحريري في بغداد سنة ٣٧٤/٩٨٤ حين فرض البويهيون ضريبة  
العشر عليهم فلم يهدأوا حتى الغيت . وقد قاموا مرة أخرى سنة ٣٨٩ حين  
أعيد فرض هذه الضريبة وقيدوا المسجد الجامع في بغداد ومنعوا الخطبة  
والصلاة واستمر هياجهم أربعة أيام دون جدوى . وفي سنة ٤٢١ اقتتل  
جماعات من الصناع مع الجند التركي بالكرخ دفاعا عن أنفسهم . . وكان  
لأهل الصنائع أيضا مشاركتهم في بعض المناسبات العامة ولهم مواكبهم  
واحتفالاتهم التي يبرزون فيها روائع إنتاجهم ويؤكدون كيانهم في نطاق  
المدينة .

كان الوصول إلى هذه الدرجة من التساند الحرفي يجري تدريجيا مع نحو  
النزعة إلى التميز لدى أهل المهن . ودوافع هذا التميز عديدة منها ما يتصل  
بالمهنيين أنفسهم ، ومنها ما يتصل بالسلطان .

فروابط المهنة تدفع إلى ظهور روح الجماعة والتكتل المهني . ثم أنهم  
بتجمعهم في مكان واحد يسهل لقاءهم على المستهلكين ، ويضبطون الأسعار  
فيما بينهم ، ويمنعون اختلاط المهن الرضيعة بالشريفة ، ومن جهة أخرى فإن  
ذلك يسهل على السلطان الاتصال بهم كجماعة ، ورقابتهم في مكان محدد ،  
وعن طريق رئيس واحد . وكان مما يسهل هذا الاجتماع أن السلطة هي التي  
كانت تبني الدكاكين والأسواق وتؤجرها كما جرى في بغداد المنصور وفي  
القاهرة - كما ذكر نصري خسرو - التي كان فيها عشرون ألف دكان يؤجرها  
الخليفة ، وفي القيروان في السوق المدعو بالجديد . وقد تسمح الحكومة ببناء  
الخوانيت على أراضيها مقابل أجر . وكان هذا يعرف بالمستغلات . ويفرض  
أيضا على الدور والأسواق والطواحين التي بناها الناس على أرض حكومية .

ففي واسط زمن ولاية ابن هبيرة آخر العهد الأموي (١٢٩ - ١٣٢) كانت الحوانيت تؤجر لأرباب الصنائع وعامل السوق هو الذي يجبي إيجارها. وكانت المستغلات التي بناها الخليفة المكتفي في باب الطاق ببغداد تدر عليه ألف دينار في الشهر وقدرت غلات المقتدر بثلاثة عشر ألف دينار سنويا فألغاهما. وكانت أجرة الدكان في القاهرة في القرن الخامس الهجري حوالي الدينارين كما وجدت في الأندلس حوانيت للدولة تؤجرها في قرطبة وإشبيلية لأصحاب الحرف<sup>(١)</sup>.

وقد امتد هذا التجمع المهني إلى السكن لاسيما في المدن المحدثه. ففي بغداد والقاهرة والقيروان اتخذت الشوارع والدروب أولا أسماء ساكنيها، ثم صارت تنسب إلى أصحاب المهن كدرب القصارين ودرب الأساكفة ودرب السقائين ومحلة البزازين والجزارين في بغداد، كما سكن على نهر عيسى فيها الزياتون وبياعة الأشنان. وفي الجانب الغربي سكن أهل تستر صانعوا النسيج التسترية وكان في محلة دار القز صناعة الورق. وكان التعصب للحمي نوعا من الامتداد للتعصب المهني، والتساند في السكن مؤيدا للتساند في الحرفة. مما دعا إلى حدوث اضطرابات محلية هي في جذورها مهنية ففي سنة ٨١٦/٢٠١ تعاون عدد من أحياء بغداد ضد خطر الشطار والعيارين، وفي سنة ٩٥٣/٣٤٢ شغب أهل باب الطاق في مسجد الرصافة لغلاء الأسعار فأخذ السلطان جماعة منهم وضربهم بالسياط، وفي سنة ١٠٥٠/٤٤٢ تجمع أهل الكرخ والقلاوون وأهل باب الشعير وباب البصرة لمهاجمة الوزارة<sup>(٢)</sup> . . .

(١) ابن عبدون رسالة في القضاء والحسبه ص ٣١.

(٢) راجع ابن الاثير/ الكامل ج ٦ ص ٣٢٤، والصولي/ أخبار الراضي والمتقي ص ٧١، وابن الجوزي/ المنتظم ج ٨ ص ١٤٥.

ونتيجة لهذا الترابط فقد جعل أهل المهن في العصر العباسي أصنافاً. وذاع هذا الاسم حتى صار علماً عليهم. وإنما ظهرت الكلمة لأول مرة زمن المنصور إذ استعملت لكل حرفه كلمة صنف أثناء بناء بغداد ويذكر اليعقوبي أن المنصور جمع مائة ألف من «أصناف المهن والصناعات» وفي حديثه عن بناء الكرخ يقول: كل سوق منفردة وكان أهل صنف منفردون بتجارته<sup>(١)</sup>. ويذكر ذلك الطبري فيقول أن المنصور أخرج أسواق بغداد إلى الكرخ وجعلها «صنوفاً وبيوتاً لكل صنف» والجاحظ يذكر أصناف الجزارين والقصايين والشوائين والطهائين والفهارين والصفارين والكلابين أقرب إلى الفقر منهم إلى الغنى. . وكل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ويسهل ذلك عليهم كالحائك والحجام<sup>(٢)</sup>. واستمرت الكلمة مستعملة حتى أيام ياقوت (القرن السابع) الذي يطلق كلمة صنف على أهل المهن كصنف الصياغة والصاغة. والسقطي في آداب الحسبة يجعل بائعي اللحم والسمك والطبيخ أصنافاً ولكل صنف نوع يخصه. .<sup>(٣)</sup> وبهذا الشكل صارت الكلمة علماً على الحرفيين الذين كانوا يدعون أيضاً بأرباب المهن والحرف، وأصحاب الحرف وأصحاب المهن، كما استعملت كلمة حرفه للدلالة على صنعة معينة، وكلمة كار الفارسية في المنطقة الشرقية. وأما في المغرب فاستعملت كلمة حنطة للحرفة والمهنة ولم تكن تشمل أكثر مما يتعلق بالزرع والتمر أو النسيج والأصباغ.

ولم يستعمل العرب كلمة نقابة إلا للاستقرائية النبوية (الأشراف). وقد أوضحت نقابة الأشراف منذ أواخر القرن الثالث مؤسسه لها وزنها عند الخلفاء والناس. وهي مختلفة في المعنى والمبنى عن كلمة نقابة الحديثة. ولا

(١) انظر اليعقوبي / البلدان ص ٢٥٨ وص ٢٤٢.

(٢) الجاحظ / رسائل (القاهرة ١٩٣٣) ص ١٢٦.

(٣) ياقوت / البلدان ج ٥ ص ٤١٠، والسقطي آداب الحسبة (ط باريس ١٩٣١) ص ٣٢.

مقارنة بينها وبين الصنف في العهد الإسلامي إلا في أن الصنف كان اتحاداً مهنياً ذا طابع شعبي وظيفته المحافظة على مستوى الحرفة وتثقيف المتسبين إليها بأسرارها. غير أن عدة عوامل حولت بعض الأصناف إلى منظمات سرية أو علنية ذات وظيفة دفاعية في الغالب أو دينية ولها تحت تأثير هذه العوامل أسرارها وتقاليدها وقسمها. وربما كان وجود تنظيمات بيزنطية سابقة في مصر والشام والعراق قد أثر في وجود تجمعات الأصناف الإسلامية في البدء إلى أن الأصناف الإسلامية عكست منذ البدء خصائص إسلامية جديدة نضجت بحيث يصعب ردها إلى التأثير البيزنطي وشكلت إحدى القوى الأساسية في تكوين المدينة الإسلامية. وإذا كانت التقاليد المهنية من الصعب أن تنسى بسهولة فإنها، في ظل الإسلام كان عليها أن تلبس أيديولوجية الفكر الإسلامي وتصطنع حدوده.

وهكذا قامت أنواع من العلاقات بين هذه الأصناف المهنية وبين تيارات فكرية أو دينية تتجاوب مع فقرها ونزعاتها وآلامها من سوء المعيشة. فبعضها توغلت فيه الدعوة الإسماعيلية، وبعض فضل على ذلك الانصراف إلى التصوف. وإذا كان الواغليون في الإسماعيلية يمثلون الجناح الثوري فإن المتصوفة هم الجناح المسالم الذي يترك الأمور لله يصرفها كيف يشاء. وكان كل من الطرفين يجد العزاء في الطريق التي سلك. ومع أن النظرة الدونية إلى أصحاب المهن لم تختلف كثيراً وظلوا يحسبون في العامة إلا أن انصاهم بالحركات الثورية مع الشعور بالحاجة الدائمة إليهم وكثرتهم في المدن؛ كل ذلك غير من وضعهم الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع المدني الإسلامي فيما تغير. وجعلهم يوجدون في صميم الانتفاضات الاجتماعية المتتالية التي ملأت القرنين الثالث والرابع. فقد تغلغلت فيهم، في العراق خاصة والشام واليمن ثم فارس وأفريقية مبادئ الإسماعيلية التي كانت في شكلها الديني السياسي تحاول تنظيم السخط الاجتماعي والاقتصادي والديني وتوظيفه

لمصلحتها، في قلب الخلافة العباسية، مستندة إلى مبادئ تخرج بين مختلف الأديان والفلسفات، مع نزعة قوية لتحكيم العقل في مذهبها الديني، واستخدام التنظيم الدقيق ذي الدرجات والمراتب في فاعلياتها العملية.

وانضم إلى هذه الحركة في السواد، وفي اليمن، وفي المغرب والشام أعداد واسعة من الصناع، الصغار في المدن بجانب الفلاحين وبرز منهم الحسين الأهوازي العامل الذي يسف الخوص، والناطور في بعض البساتين، وحمدان قرمط المكاربي على الثيران، والداعي معلم الصبيان في بلدة الزابوقة. وأبو سعيد الجنابي الحرفي مع الذين استجابوا له من القصارين والحمالين. ونسمع بين أسماء الدعاة: الكيال والحداد والصائغ. وقد دعوا جميعا إلى ضرورة العمل وإلى نظام الألفة الذي يجمع أموالهم عند رجل يختارونه ثم يوزع على كل ذي حاجة حاجته على قاعدة من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته. . . . وأقاموا على هذا الأساس مجتمعا خاصا لهم في مدينة الدعوة. . . . وإذا انهار هذا النظام بسبب ضغط الخلافة العباسية عليه سواء في الكوفة أو السواد أم في الشام (في دمشق وحمص والسلمية والرملة) فإنه وقف على رجليه في البحرين قرنا ونصف القرن. وكان يقوده الحرفيون من الملاحين ونقله البضائع وصناع المدن ويتقاسمون الأرباح كل سنة. بعد أن ألغوا النقد وجعلوه سكة ثقيلة من الرصاص لثلا يتكدس. . .

على أن من المشكوك فيه أن تكون حركة الأصناف قد نشأت في المدن الإسلامية نتيجة الاتصال بهذه الحركة أو أن تكون هذه الحركة هي نتيجة وجود الأصناف في الحرف، في الواقع أنه كان لكل من الحركتين طريقها وهدفها وطبيعتها وان استعانت إحداهما بالأخرى. وإذا تطورت الحركة الاسماعيلية فصارت خلافة فاطمية في افريقية، ثم في مصر، وعنيت العناية الكبرى بالأصناف وتطويرها، واهتمت بتنظيم العمل وتعيين العرفاء لكل سوق، وبالتأكيد على اتقان الصناعة، وإبراز دور المحتسب في الأسواق ومنع

الغش والتدليس فيها، فليس يعني ذلك أنه ناجم عن وجود الحركة الاسماعيلية السرية في جذور حركة الأَصْناف بقدر ما هو تطبيق لمبادئ الاسماعيلية في الواقع . بسبب إدراك هذه الحركة لمكانة الحرفيين والصناع في العمل الديني والنشاط الاقتصادي في المدينة . فتكتل أصحاب الحرف كان موجودا منذ القرن الثاني . وقد تأثرت الأَصْناف بالدعاية الاسماعيلية الفاطمية دون شك أن تكون جزءا منها . وكان تنظيمها في القرنين الرابع والخامس منفصلا عن التنظيم الاسماعيلي وان اصطنع بعضا من مبادئه ومنها التضامن المهني ومهاجمة السلطة والسرية في التنظيم والانصياع لرؤساء الحرف وتلك الطقوس التي كانت تقام للمتسبين إلى المهنة وما كانوا يدفعونه لرئيس الصنف من ضريبة . . وقد عبرت الأَصْناف عن ذلك بحركاتها الخاصة التي لا تحمل - كالقرمطية والاسماعيلية - الطابع السياسي كحركة سنة ٩١٨/٣٠٦ في بغداد التي برزت عنيفة صارخة من بعض الأَصْناف والحركات المماثلة في البصرة والموصل . أنها تدل على تبلور التنظيم ولكن لا تدل على تبعيته .

وكمثل ذلك علاقة الأَصْناف بالحركة الصوفية . فقد تصاعدت حركة الزهد التي عرفها القرن الهجري الأول بشكل قوي في القرنين الثالث والرابع تحت ضغط الكثير من الظروف . وأهمها الضغط الاقتصادي التجاري الذي وضع في المدن الكبرى كبغداد ونيسابور ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وأدى بسبب تراكم الثروات الهائلة الى وجود البؤس المرعب فيها . ومن الصعب أن نقول أن ظهور الرتب الصوفية والطقوس قد جاء بسبب الأَصْناف أو أن الأَصْناف هي التي أخذته عن الصوفية لكن من الثابت أن الكثير جدا من طبقة الصناع وأصحاب الحرف وجد في التصوف مهربا مأمونا من الفقر والبؤس واطمئنانا دنيويا له جزاؤه في الآخرة وبهذا الشكل تسربت الكثير من الأفكار الصوفية الى الحرف والمهن . حتى جاء وقت في العصور العباسية

المتأخرة صار فيه لكل حرفة ولي من المتصوفة الأولين : كسلمان الفارسي ولي  
الخلافتين وذوي النون المصري ولي الأطباء والجراحين<sup>(١)</sup>.

وقد تصاعدت مع الأيام تصورات المهنيين - المتصوفة للمهن وتعددت ،  
فصاروا يعتقدون في القرن السادس وما بعده ، في نوع من التعويض عن  
بؤسهم الاقتصادي ومكانهم الاجتماعي أن لكل حرفة جذورها في الأنبياء من  
آدم الذي عمل بالزراعة إلى محمد بن عبدالله الرسول الأعظم التاجر . فالنبي  
سليمان عارف بالعقاقير والأدوية ، وأدريس خياط وشعيب غزال ، ونوح  
نجار . . . وهؤلاء هم النقباء الأول . وأما الأبيار ( جمع بير وهي كلمة تركية  
تعني المقتدى ) فهم أول من ابتدأ الحرفة أو الصنف ولا بد لابناء المهنة من  
معرفةهم وحفظ أخبارهم . وللابيار أصول وفروع فالأصول هم الذين  
أخذوها عن الامام علي ، وأما الفروع فهم الحماة الثانون لاصحاب المهنة .  
وعدد الأصول ١٧ وأولهم سلمان الفارسي الذي صار الرأس الأعلى لجميع  
المهن وحاميا لأصناف الحلاقين والمشاطين والحجامين والجراحين وشفيع  
الصناع . وأما الفروع فهم الحماة الثانويون للأصناف المختلفة وأولهم سلمان  
الكوفي بير السقائين وأخرهم محمد بن عبدالله بير الرسامين . وهناك  
عبدالرحمن بن حبيب النجار بيتر الطبالين . وعمرو بن العاص بير الحكم  
( وأنقطعت سلسلته زمن هارون الرشيد ) وهناك شيوخ للأسرجة وللطحانين  
وللمعاصر وثمة لكل مهنة نقيب أيضا يعاون البير فثمة نقيب للقطانين وآخر  
للسقائين أو للخبازين أو للعطارين . .

وهذا التجذير المهني - الديني كان نوعا من الاطمئنان التوازني يقيمه  
الحرفيون مع واقعهم البائس . وهكذا لم يكن التصوف المهني داعيا الى الزهد  
بالدنيا واعتزال العمل ولكنه كان بالعكس داعيا الى القناعة والتوكل .

(١) مؤلف مجهول : الذخائر والنحف في بير الصناعات والحرف ( مخطوط ) ورقة ٣ وجه وظهر .

والمصوفية يقولون : التوكل حال النبي عليه السلام ، والعمل سنته فمن بقي على حاله فلا يترك سنته « فالعمل نوع من العبادة » والأسواق موائد الله فمن أتاها أصاب منها كما يقول الغزالي<sup>(١)</sup> . ومعظم المتصوفة الكبار كانوا من أهل الحرف فابن أدهم ( ت سنة ١٦١ / ٧٧٧ ) كان حصادا ، وأحمد بن رشيد ( ت سنة ١٨٣ / ٨٩٩ ) كان يعمل في الطين ، والسري السقطي ( ت سنة ٢٥٦ / ٨٦٩ ) كان صاحب حانوت في السوق للتجارة . أما خير النساج فكان ينسج الخبز لبعض الحوانيت ، والجنيد ( ت ٢٩٧ / ٩٠٩ ) كان خزازا كما كان أبوه من قبل زجاجا . وفي الصوفية العطارون والدقاقون والحلاجون .

وقد قيض لعلاقة الأصناف بالتصوف أن تنمو وتتطور مع الأيام بعكس العلاقة مع الاسماعيلية والقرمطية التي لا نرى لها أثرا منذ أواسط القرن الخامس / ١١م بعد أن ابتلعتها حركة الخلافة الفاطمية . أما التصوف فقد عشن وفرخ في الأصناف المهنية وتحول منذ أواسط القرن السادس خاصة الى فرق وطرق صوفية نامية تقوم قاعدتها الشعبية في صميم الطبقات المهنية التي تقدم لها المال والأعضاء والالتزام المطلق . حتى تفنن شيوخ الصوفية في مختلف المدن وبخاصة في بغداد والقاهرة في تزويق طرائقهم للمريدين وفي الممارسات التي يعبرون بها عن تصوفهم وحتى وصل الأمر الى الجمع بين التصوف والغناء والدف والرقص . ووجدت هذه الطرق لها أنصارا يمارسونها في مختلف المدن من المشرق حتى أقصى المغرب وكانت سمة من سمات العصر المملوكي - المريني .

يبقى أن نشير الى علاقة أهل المهن بالعيارين والشطار وبالفتوة ، والأحداث . وهما بعد التجمع المهني الخالص وبعد التصوف المنفذان الآخران اللذان عبرت بهما هذه الطبقة عن طموحاتها ونفسها . وإذا كانت العيارة إنما

(١) الغزالي / احياء علوم الدين ج ٢ ص ٦٢ .



التحق بها صغار المهنيين وباعة الأسواق والغوغاء والمكدون وذوو المهن غير الثابتة ، فقد كانت الفتوة تستلزم نوعا من الشهامة والاستقرار وبعضا من المال مما يجعل المنتسب اليها في الغالب من ذوي المكاسب المحدودة . والعبارة لا تحتاج أكثر من الشارع القلق وأما الفتوة ( ومثلها الأحداث ) فتتنظم له مراتبه وقواعده وطقوسه وأخلاقه واشتراكه المالي مما يجعلها شبيهة بتنظيم الأصناف . على أن الأمرين من عبارة وفتوة وجدا في أهل المهن ضالتهما وكانت هذه الطبقة تغذيها بالرجال . وتقارب الفتوة من بعض الأفكار الصوفية أقام الجسور بينها وبين المتصوفة وجعل بينها نوعا من اللقاء استمر واضحا بخاصة في زمن الخليفة الناصر ( ١١٨٠ - ١٢٢٥ ) أواخر القرن السادس الهجري وأوائل السابع . لكن هذا اللقاء مات بعد ذلك فلم يبق منه إلا بعض مظاهر الشهامة والمروءة في رجال الأحياء .

وقد نتساءل عن دخل الفرد العادي من العامة وعن مستوى معيشته بعد أن وصفناها أكثر من مرة بالبؤس . والواقع أن حالة البؤس كانت أقسى ما تكون في المدن الكبرى وتنخفض حدتها كثيرا مع صغر المدينة حتى إذا وصلنا القرى الكبيرة والقرى لم نجد ذلك التفاوت المالي الهائل في الثروات ، ووجدنا الجميع يتقاسمون العيش البائس في نوع من التساوي تقريبا . فلا عبارة ولا محاولات للشطارة في تلك المجتمعات الصغيرة لكنه وضع الاكتفاء والكفاف والكفاية .

عند هذا الحد يجب أن نبحت أمرين لهما دورهما في حياة المدينة وفي قوتها :

— مستوى المعيشة للناس وهو المستوى الذي كانت تتحكم به بصورة خاصة طبقات التجار والباعة الكبار والذي كان يسمح للموسرين أن يزدادوا ثراء وقوة على حساب الطبقات الأفقر منها .

– رقابة المدينة وهي الرقابة التي كانت تمارسها الحكومة فيها تحت ظل  
( الاحتساب ) والتي كانت تعطي السلطان ما يزيده سيطرة عليها وتدخلها في  
ممارساتها الحياتية . وبخاصة في القرون الأخيرة التي ضعف فيها الوازع الديني  
وعم الجشع .

#### أ – مستوى المعيشة :

على الرغم مما مدحت به بغداد والقاهرة وقرطبة من الرخاء ومن الصور  
المذهبة التي رسمت لها من خلال الادباء والشعراء ، ومن خلال الحديث عن  
تكديس المجوهرات والذهب والقصور المترفة فان الصورة الأخرى المظلمة كان  
لا بد أن تظهر على شكل من الأشكال . وكانت هذه شرطا لوجود تلك .  
وأقصى ما كانت تعانيه طبقة العامة والمهنة في هذه المدن الكبرى – وهي الطبقة  
المحركة فيها – هو الغلاء الشديد مع قلة الدخل . فشاعر من مطالع القرن  
الرابع يقول عن بغداد :

تصلح للموسر لا لامرئ      يبببت في فقر وافلاس  
لو حلها قارون رب الغنى      أصبح في هم ووسواس  
ويقول آخر :

بغداد دار لأهل المال طيبة      وللمفالس دار الضنك والضيق  
ظللت حيران أمشي في أزقتها      كأنني مصحف في بيت زنديق !

أما أبو العتاهية قبل ذلك بقرن ونيف فقال ( وهو يعيش عصر الرشيد  
والمأمون والمعتصم ) :

من مبلغ عني الامام      نصائح متواليه  
أني أرى الأسعار الرعية غالية

وأرى المكاسب نزره . وأرى الضرورة فاشية .

وأرى اليتامى والأرامل في البيوت الخالية  
يشكون بمجهدة بأصوات ضعاف عالية .

من مصيبيات جوع تمسي وتصبح طاوية  
من للبطون الجائعات وللجسوم العارية ؟

وقد عمل الفاطميون ، في الثلث الأول من دولتهم بمصر على معالجة  
المضائقات الاقتصادية وحاولوا ادخال عدد من الاصلاحات لتحسين الوضع  
المعاشي . فقد أفسحوا المجال للحرف والأصناف كي تمارس نشاطها في جو  
مفتوح ، وسمحوا للفلاحين - كما يبدو - في التنقل وأكدوا اشراف الحكومة على  
الخراج وتحديدته من قبل المركز . واعادة النظر فيه دوريا واتجهوا الى التسعير  
الرسمي للحاجات وتدخلوا خاصة في أوقات الغلاء لمكافحة المحتكرين  
ولتحديد الأسعار بالاضافة الى تشجيع التجارة الخارجية . ولكن الأمور ما  
لبثت أن ساءت في عهد المستنصر الطويل ( ٤٢٧ - ٤٨٧ ) وكثرت المجاعات  
والفوضى . وهكذا لم تكن القاهرة أحسن حالا من بغداد بعد ذلك ، وفي  
المقريزي أشارات كثيرة الى فتكات الجوع بالناس والى تظاهرههم منادين :  
الجوع ! الجوع ! والى هجماتهم على القصور الخلافية في القاهرة التماسا  
للطعام . وثورة الربض في قرطبة هي بدورها صورة للظلم الاجتماعي  
تكررت أمثالها أكثر من مرة وكانت تقذف بأعداد من المهاجرين الى المغرب .  
ولو اقتربنا قليلا من الصورة لوضح السبب في هذا الضيق :

فمستوى الدخل كان محدودا . فاجرة النجار زمن المنصور درهين في  
اليوم ، وأجرة البناء بين ٣ و ٥ دراهم . وذكر الطبري أن الاستاذ من الصناعات  
والبنائين في بناء بغداد كان أجره اليومي ما بين قيراط الى خمس حبات ، والروز

كاري أي الفاعل بين الحبطين الى ثلاث حبات<sup>(١)</sup> . وأجرة عامل الطين أيام الرشيد أربعة دوانيق في اليوم وأجرة عامل البناء ( سنة ١٨٤ / ٨٠٠ ) كانت درهما ودانقا في اليوم ، وأجرة عامل الرحي زمن المتوكل ثلث الدرهم . أما الزجاج في أواسط القرن الثاني فيأخذ درهما ودانقين ، وحوالي منتصف القرن الهجري الرابع استخدم صاحب حانوت في البصرة كاتباً لحساباته بنصف درهم في اليوم بالإضافة الى الطعام والكسوة<sup>(٢)</sup> واشتغل عبدالصمد الزاهد (ت سنة ٣٩٧ - ١٠٠٦) حارساً في دكان يهودي بدانقين\*\* وثلاثة أرطال خبز في اليوم<sup>(٣)</sup> . وجشار الجاحظ الى أن الفقر ملازم للقصابين والجزارين والشوائين وأصناف الصيادين ولضارب اللبن والطيان والحراث<sup>(٤)</sup> . . . ورؤوس أموال هذه الطبقة متواضعة فعامل الكيزان لا يزيد رأسماله على مائة درهم وهو رقم يعادل ثمانية دنانير تقريباً في حين أن بعض التجار كان حانوته يضم بضائع بمائتي ألف درهم ( حوالي ١٦ ألف دينار)<sup>(٥)</sup> .

ومستوى الأسعار لم يكن ، في المدن الكبرى خاصة ، بالمستوى المقبول ولا بالمستوى الثابت ولكنه يخضع لذبذبات قاسية يعمل فيها الاحتكار والجفاف وقلة الوارد والأزمات . وخلال العهد البويهي فقط تكررت في بغداد أزمات المجاعة ١٨ مرة خلال ٨٢ سنة وذلك في سنوات : ٣٣٩ / ٣٣٤ / ٣٤٧ / ٣٤٩ / ٣٥٨ / ٣٥٩ / ٣٦٤ / ٣٧٣ / ٣٧٦ / ٣٧٧ / ٣٧٨ / ٣٨٢ / ٣٨٣ / ٣٩٢ / ٣٩٣ / ٣٩٧ / ٤١١ / ٤١٦ وفي الجدول التالي نموذج من

(١) الطبري ج ٧ ص ٦٥٥ (٣٢٧/٣) والخطيب البغدادي / تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠ ، ولنذكر أن الدينار كان يعادل بين ١٢ - ١٣ درهماً فظيماً وأن الدرهم كان ينقسم الى أربعة دوانق .  
(٢) راجع التنوخي / نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٣٠ .  
(٣) التنوخي / نشوار المحاضرة ج ٥ ص ٢٨١ .  
(٤) الجاحظ / الحيران ج ٤ ص ٤٣٢ و ٤٣٤ .  
(٥) التنوخي / نشوار المحاضرة ج ١ ص ٦٨ و ١١٧ و ج ٢ ص ١٠٤ .

الأسعار في بغداد وغيرها في بعض هذه السنوات<sup>(١)</sup>:

السنة	الكر من الخنطة أو الطحين	الخبز	السنة	الخنطة (بالكر) أو الطحين	الخبز
٣٣٤	١٠ آلاف درهم في الجانب العربي أو ٤٠٠ دينار أما في الجانب الشرقي فكان كل	١,٢ درهم	٣٧٣	٣٠٠٠ درهم تاجي وكانت جماعة مقرطة عظيمة ثم وصل ٤٨٠٠ درهم	فقد الخبز
		٥ أرطال بدرهم	٣٧٦	٩٠ درهما لطارة الدقيق	هجرة ووفيات في العراق
			٣٧٧	١٦٥ درهما لطارة الدقيق	وجلا الناس عن بغداد
٣٤٧	٣٠٠ دينار في الأهواز		٣٨٢	١٦٥ درهما لطارة الدقيق	
	١٠٠٠ دينار في شيراز		٣٨٣	٦٦٠٠ درهم كره الخنطة	٤٠ درهما رطل الخبز
				١٦٠ كره الدقيق	٤٠ درهما رطل الخبز
٣٥٨	٩٠ دينار / وفقد الخبز	فقد الخبز	٣٩٢	٥ - ٣ دنانير كره الدقيق	جماعة
٣٥٩	هرب الناس من بغداد الى خراسان والموصل والشام من الغلاء	فقد الخبز	٤١١	١٠٠٠ دينار قاسانية لكر الخنطة	
			٤١٦	٨٠ دينار الى ٢٠٠ دينار	

(١) جمع هذا الجدول من مصادر شتى منها : ابن الأثير ، ابن الجوزي ( المنتظم ) ، وابن العبري ( تاريخ مختصر الدول ) ومسكويه تجارب الأمم .

وأما في سنة دخول السلاجقة وعقب ذلك فبلغ كر الحنطة تسعين دينارا بعد أن كان يساوي نيفا وعشرين . وهذا الاضطراب الشديد في أسعار القوت الأساسية يرجع الى الأزمات . ففي سنة ٣٣٤ دخل البويهيون بغداد وأسكنوا جندهم بيوت العامة وعمت المجاعة والقحط ، حتى عدم الناس الخبز ، وكانت فترات الرخص ملازمة للاستقرار السياسي كما جرى في سنوات ٣٣٨ و ٣٩١ و ٣٩٢ و ٣٩٨ . ومشت أسعار المواد الغذائية الأخرى مع القمح والخبز فبيع سنة ٣٤٥ كل رأس خس بدرهم . وفي سنة ٣٦٤ بيع كل ثلاثة أرطال تمر بدرهم واحد ، وعشرة أمانان سكر بأربعين درهما ، وفي سنة ٤٤٨ بيع نصف قفيز من الرز بدينار ، ومائة رأس خس أو كراثة بدينار ، والسفرجلة أو الرمانة الواحدة أو الخيارة بدينار ، مما انتشر معه الوباء والموت . وبيع رطل اللحم بقيراط ، و ٤ دجاجات بدينار ، والمن من الشراب بدينار .

وطبيعي أن الأجور لم تكن بالكافية للعيش المتوازن فارزاق السقائين في دار الخلافة أيام المعتضد بلغت أربعة دنانير في اليوم ، وأرزاق الطبائخين ثلاثين دينارا ، وأرزاق الصناع من الصاغة والخياطين والقصارين والأساكفة والحدادين والرفائين والفرائين والمطرزين والوراقين والعطارين والنجارين والخراطين والاسفاطين وغيرهم من أرباب المهن والصناع كانت مائة دينار في اليوم<sup>(١)</sup> بمعدل خمسة دنانير لكل مهنة تقريبا . فلو كان منها لدى دار الخلافة عشرة من كل حرفة ( وهو رقم متواضع ) لكان مما يصيب الحرفي في اليوم نصف دينار أو ستة دراهم ولا شك أن أرزاق المهنيين العاديين أقل الى النصف أو الثلث من أجور دار الخلافة . فكان راتب الكاتب في الدولة كأبي القاسم الكلواذي خمسة آلاف درهم في الشهر عن ديوان السواد ، وراتب أبي الفتح الفضل بن جعفر عن ديوان المشرق مائة دينار في الشهر ، وتقاضى علي بن

(١) هلال الصايء/ الوزراء ص ٢١ - ٢٣ .

مقلة عن ديوان الخاصة مثل ذلك . أما القضاة فعمل بعضهم دون راتب شهري لا عن تقى ولكن طمعا بالكسب من المنصب . فقد رضي قاضي بغداد سنة ٣٥٠ أن يدفع للأمير البويهى ٢٠٠ ألف درهم في السنة عن توليه القضاء ودار الضرب . والقاضي التنوخي تقاضى سنة ٤٤٧ ستين ديناراً عن هذا العمل نفسه . وكان كاتب القاضي يتقاضى ٣٠٠ درهم في الشهر ، وحاجب المحكمة ١٥٠ درهماً ، ومساعد حاجب القاضي مائة درهم\* . وإذا تركنا جانباً رواتب الجند وهي ضخمة جداً وتستوفى من أقطاعات الأرض مباشرة وتبلغ للجندي حوالي ٣٠٠ درهم شهرياً و ٦٠٠ لكل نقيب و ٢٠ الى أربعين ديناراً لكل متطوع ، فإن أجرة الكسبة العاديين كانت متواضعة جداً فقد استخدم حانوتي في البصرة ( في القرن الرابع ) كاتب حسابات بنصف درهم في اليوم إضافة الى كسوته وطعامه ثم زادها الى درهم . وكان ابن أبرونا طبيب الوزير المهلبى سنة ٣٥٢ قبل أن يستخدم عنده يدور يعالج المرضى بدائق ونصف أو بربع درهم ، وفي سنة ٣٩٧ عمل شخص اسمه عبدالصمد حارساً بثلاثة أرطال خبز ودائقين في اليوم ، واشتغل أبو حيان التوحيدى مع صاحب البريد في بغداد سنة ٣٧٣ - ٣٧٥ براتب شهري قدره أربعون درهماً .

ولم تكن الأجور في القاهرة الفاطمية بأحسن حالاً فخدام في دار الخلافة ( زمن الحاكم ) كان يتقاضى ما بين دينار الى دينار وربع الدينار شهرياً ، ومثله الخدام في الأزهر ، وأما السقاء فيتناول ٧٢ ، في الشهر والبناء المتجول دينارين ونصف الدينار . ويتضاعف أجره ان كان من المهرة<sup>(١)</sup> .

(١) آشور التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ( الترجمة العربية ) ص ٢٥٣ .  
\* أنظر ابن الجوزي / المنتظم ج ٧ ص ١٨٩ و ٦٤ ، ومسكويه تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨٩ و ص ٩٩ .

أما النفقات فإنها بالمقابل عالية أو باهظة، وإذا كان الكبش أواخر عهد المنصور بدرهم، والزيت ١٦ رطلا بدرهم، والسمن بضعف ثمن الزيت، والتمر ستون رطلا بدرهم فقد تغير هذا كثيرا من بعد، وإذا تغاضينا عن بعض فروق الأسعار بين بغداد والقاهرة الفاطمية في القرن الرابع وجدنا أن عباءة الفقراء في مصر يبلغ ثمنها ما بين  $\frac{1}{2}$  إلى  $\frac{1}{3}$  دينار والعمامة بين ٢,٥ - ٣ دنانير. ومعطف الصوف بين نصف دينار إلى الدينار وأن الثوب البسيط للنساء كان يبلغ ما بين دينار إلى اثنين. وأما الأنيق فيصل إلى ضعف ذلك وأن العباءة النسوية البسيطة تبلغ دينارا في حين تبلغ الأنيقة أربعة دنانير<sup>(١)</sup>. وأما الطعام فكانت الكمية التي يستطيع شراءها المهني العادي في القرن العاشر أقل من الكميات التي كان أجداده يستطيعونها أيام الخلفاء السابقين. والأجور الاسمية التي يتقاضونها كانت بدورها متواضعة سواء كانت اسمية أم كانت في قدرتها الشرائية الفعلية حسب الجدول التالي:

الأجور الفعلية	الأجور الاسمية	
٨٨٨ رطل خبز ١٧,٣ كغ لحم ٣٠ كغم زيت	٠,٦ دينار	في بداية القرن الثاني/٨م
٤٥٤ رطل خبز	٠,٧٥ دينار	وفي بداية القرن الثالث/٩م
٣٢٤ رطل خبز ٢٦,٦ كغ لحم ٤٣ كغم زيت <sup>(٢)</sup>	١,٠٠ دينار	وفي بداية القرن الرابع/١٠م
	١,٢ دينار	وفي بداية القرن الخامس/١١م

(١) آشور التاريخ الاقتصادي والاجتماعي (الترجمة العربية) ص ٢٥١.

(٢) آشور/ المصدر السابق ص ٢٥٢.



وعلى الرغم من أن كميات اللحم وزيت الزيتون التي يتمكن الصناع من شرائها ازدادت بسبب الازدياد الطفيف في أسعارها فإن نظام تغذيتهم ازداد سوءاً عن السابق لأن كميات الخبز التي يضطرون لشرائها قد تضاعفت مما انقص من امكانياتهم في شراء اللحم والزيت. ومن المرجح أن ازدياد السكان قد صار أكثر وضوحاً في القرن الخامس مما أنقص فرص العمل من جهة وزاد في عدد المستهلكين من جهة أخرى فانخفضت بين هذا وذاك مستويات المعيشة بالرغم من حاجة الدولة إلى الجيش الكبير ومن حاجات البلاط إلى عمل الآلاف الكثيرة من العمال وفتح فرص العمل أمامهم ومن اجتذاب الغنى الفاطمي للآلاف المؤلفة من البدو من خارج مصر وطبقاتها العاملة بسبب الفقر الشديد وقد حسب اشتور كميات الخبز واللحم التي كان يناها صغار المأجورين في المدن بأجورهم الشهرية فتوصل إلى النتائج التالية<sup>(١)</sup>:

الزمن	الأجر الشهري	نسبة الخبز	نسبة اللحوم	التفقات الأخرى
القرن الخامس / ١١م	١,٢ دينار	٦٠ كغ بمعدل نصف دينار	٨ كغم بمعدل ٣٦٨	٣٣ من الدينار
القرن السادس / ١٢م	٢,٠ دينار	٩٠ كغم بمعدل ٨٥٥ للكيلو	١٥ كغم بمعدل ٦٦ للكيلو	٤٨٥ =

(١) اشتور ص ٢٨٣.

وإذا كان على هذا العامل أن يعيل امرأة وثلاثة أولاد فيمكنهم يوميا أن يحصلوا على ما يلي :

الزمن	حريرات	بروتينات	كاربوهيدرات	رسم
في القرن ٥/١١	١٠٨٧	٤١	١٩٦	١٤,٨٧
في القرن ٦/١٢	١٦٨٢	٦٥	٢٩٤	٢٦,٢

وهذه المقادير هي أقل من الحد العادي اللازم للحياة المتوازنة .

ومع أن مصر في نهاية القرن الخامس ، الحادي عشر كانت ما تزال تمتلك نقدا ذهبيا مستقرا فقد استمر ارتفاع متوسط سعر القمح في مطالع القرن السادس /١٢م إلى دينار لكل مائة كيلوغرام ، في حين كان يساوي في مطلع حكم الفاطميين ٠,٧ - ٠,٨ من الدينار . وتدل حركة أسعار الحبوب والأجور الدنيا المتناقضة بوضوح على التدهور المستمر في وضع العمال العاديين<sup>(١)</sup> ، وظهرت المجاعات أكثر من مرة في الشام ولعل هذا يفسر الحركات الثورية الكثيرة فيها ضد الفاطميين في القرن الخامس .

وقد دخلت البلاد دوامة الحروب الصليبية فامتصت الكثير من الطبقة العاملة التي لحقت بالجند الترك وتركت الأعمال العامة إلى صناعة السلاح وإلى الحرب ولهذا افتقرت البلاد وكان من ملامح ذلك أن الدينار الذهبي الفاطمي قد اختفى أيام صلاح الدين وأنه خسر معركة عكا بسبب نقص المال عنده مما يدل على العجز الاقتصادي . ولم يكن حال الصناع تحت الحكم المملوكي بأحسن منها قبل ذلك وترى في الجدول التالي صورة من الأسعار في

(١) المصدر السابق نفسه والصفحة ذاتها .

ذلك العهد ومن بعض المرتبات قد تكفي لاعطاء فكرة<sup>(١)</sup>.

### أ - في مصر القاهرة :

السنة	ثمن أردب القمح	ثمن الخبز (بالرطل)	ثمن اللحم (بالرطل)	ثمن الفول (بالأردب)	ثمن الجبن
مطلع سنة ١٢٦٤/٦٦٢	ارتفع السعر ١٠٥ إلى ٣٢٠ ثم تدخل السلطان فتزل إلى ٨٥ في القاهرة	نصف درهم	-	-	-
مطلع سنة ١٢٩٦	ارتفع السعر إلى ما بين ١٨٠ - ١٩٠ درهماً	درهم واحد	٣ دراهم	٩٠ - ١١٠ دراهم	-
في مطلع سنة ١٣٣٦	ارتفع السعر إلى ٥٠ - ٧٠ وبيع السلطان ب ٢٥ والأمراء ب ٣٠ درهماً	٦٦ من الدرهم	-	٥٠ درهماً	-
في سنة ١٣٩٦	اضطرب السعر كثيرا هذه السنة بسبب الاحتكار ما بين ١٧٥ - ٥٠ درهماً	ربع درهم إلى نصف درهم	-	٣٠ درهماً	درهمان
في سنة ١٤٠٤	اضطرب السعر بين ٤٥٠ - ٢٢٠ درهماً	٢/٥ درهماً	٢/٥ درهماً	٢٥٠ درهماً	-
في سنة ١٤٢٠	٤٠٠ درهم	٢ درهمان	٧/٥ درهماً	٢٥٠ درهماً	١٢ درهماً
في سنة ١٤٦٠	٤٠٠ درهم	٣ دراهم	٦ - ٨ دراهم	١١٠ دراهم	بين ٩ - ١٤ درهماً
في سنة ١٤٩٧	ألف درهم بسبب الاضطرابات ثم صار بثلاثة دنانير	٨/٣ درهم	-	-	-

(١) جمعت هذه المعلومات من مصادر عديدة متفرقة وثمة الكثير غيرها ولكننا إنما نقدمها نماذج عن المقرئ في إعانة الأمة / والسلوك وابن تغري بردي في النجوم الزاهرة وابن اباس وابن الفرات والعيني وكتاب الأنباء وغيرها.

ب - في الشام (دمشق)

السنة	ثمن أردب القمح	ثمن الخبز (بالرطل)	ثمن اللحم (بالرطل)	ثمن الفول (بالأردب)	ثمن الجبن
نهاية سنة ١٢٩٥	ارتفع السعر إلى ١٧٠ درهما ثم ٢٢٠ درهما	رطل وأوقيتين بدرهم	-	٤٠٠ درهم	-
سنة ١٣٠٠	٣٠٠ ثم ١٥٠ ثم ١٨٦ درهما	-	-	-	-
سنة ١٣٧٥	من ٥٠ إلى ٥٠٠ درهم	درهمان -	-	-	-

أما الرواتب المملوكية<sup>(١)</sup> فكانت في طبقة أئمة المساجد والمؤذنين ومن في حكمهم من طبقات الناس العامة على الشكل التالي:  
في سنة ١٢٨٤/٦٨٤ كان راتب الإمام في المسجد ٨٠ درهما في الشهر وأستاذ المدرسة ٢٠٠ درهم في الشهر أيضا.  
ورئيس المؤذنين والقراء ٤٠ درهما في الشهر والمؤذن بين ٢٥ - ٣٠ درهما في الشهر.

وراتب المعلم في مدرسة الأيتام ٣٠ درهما مع ثلاثة أرطال خبز يومية.  
وراتب الطالب في المدرسة رطل خبز يوميا وملابس الشتاء والصيف.  
وراتب البواب ٤٥ - ٦٠ درهما.  
وراتب حارس سبيل الماء ٤٣ درهما شهريا مع أربع أرطال خبز  
وحامل المبخرة ٤٠ درهما شهريا مع أربع أرطال خبز

(١) كان سعر الدرهم يهبط في العصر المملوكي كثيراً بسبب نقص الذهب. وقد وصل في عهد السلطان المؤيد شيخ إلى أن يكون (حوالي ١٤١٥/٨١٨) كل ٢٨٠ درهماً بدينار ثم صار ١٤٥٦/٨٦١ ثمن الدينار يساوي ٤٠٠ درهم.

وحوالي سنة ٩١٦/١٥١٠ كان الإمام يتقاضى ٦٠٠ درهم والمؤذن ٢٠٠ درهم والمنجم ٦٠٠ درهم والمقرئ ١٨٠ درهما والمحدث ١٥٠ درهما وشيخ الصوفية ٦٠٠ درهم وطبيب الصوفية ٥٠٠ درهم والمهندس ١٩٣ والنجار والبلاط للمرمر مثله . والسباك ١٩٣ درهما والخطاط ٣٠٠ درهم .

وفي دمشق كانت الأجور في البيمارستان القيمري مثلا كما يلي :

للطبيب	٧٠ درهما مع غرارة قمح (٣ أراذب)
للكحال	٦٠ درهما مع نصف غرارة
للمصيدلي	١٣ درهما و ١/٦ غرارة
للخازن	١٣ درهما و ١/٤ غرارة

وفي دار الحديث بدمشق أيضا كان للأستاذ ٣٠ درهما في الشهر مع رطل خبز يوميا، وللإمام وقارئ الحديث ٨ أوقيات خبز يومي و ٢٠ درهما . وللطالب ٧ دراهم مع نصف رطل خبز . وكان الإمام في طرابلس يتقاضى ٤٠ درهما في الشهر، والمؤذن ١٥ درهما والمقرئ ١٠ دراهم . ولنتنبه إلى أن هذه الرواتب كانت تختلف حسب الأوقاف الموقوفة عليها ولذلك كان التنافس قويا على المؤسسات ذات الأوقاف الغنية .

على أن ما نسميه بأجور الصناع والحرفيين لم يكن خالصاً لهم . ويجب أن نذكر أن ضرائب عديدة كانت تفرض على أهل المهن المختلفة . وقد فرض عمر ضريبة العشر على السوق، وكان عامل السوق يجنيه أيام عثمان . وفي العهد الأموي فرضت ضريبة المسكن على المبيعات داخل المدينة، والعشور على المستوردات . وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد ألغى ذلك في كتاب وجهه إلى أمير البصرة فقد عاد فرضها أيام العباسيين في زمن المنصور أو المهدي سنة ١٦٧ وسميت هذه الضريبة بالأجرة . ويقدرها يعقوبي في جانيبي بغداد والضواحي فقط باثني عشر مليون درهم، في حين يقدرها

الفقيه الهمداني (ت سنة ٢٨٩/٩٠٢) بمليون ونصف المليون . وفرضت سنة ٩٨٥/٣٧٥ في العراق ضريبة المكس على النسيج (وهي عشر الثمن) فرضه صمصام الدولة . وقد قدرت بمليون درهم . فقاوم ذلك النساجون وهاجوا حتى ألغيت ولكنها أعيدت سنة ٣٨٩ بأمر الوزير أبي نصر سابور . وثار أهل الأصناف عليها وكسروا منبر الجامع دون جدوى فظلوا يؤدونها حتى سنة ٤٠١/١٠١٠ م . وبالرغم من أن التجارة حرة إلا أن أسعار البضائع كانت أحيانا تخضع للتسعير من قبل الدولة في أزمات الاحتكار أو الجفاف . ومن أوائل من اهتم بالأسعار في المدن المختلفة المنصور الذي كان عمال البريد يكتبون إليه بتغير الأسعار في الأقاليم فيسأل عن السبب في ذلك حتى إذا لم يتضح أعادها كما كانت<sup>(١)</sup> .

وقد تكاثرت هذه الضرائب وتنوعت في الأسماء والأشكال حتى كانت تجبى للدخول إلى سوق المدينة وعلى بوابات السوق وعلى أنواع البضائع . وقد شكوا المقدسي منها في القدس فقال : على الرحبة والفنادق ضرائب ثقالة على ما يباع . فيها رجالة على الأبواب فلا يمكن أحدا أن يبيع شيئا مما يرتضي به الناس إلا بها مع قلة يسار ، وليس للمظلوم أنصار والمستور مهموم والغني محسود . . . « اشتهر بفرض هذه الأنواع من الضرائب البويهيون والحمدانيون . واستمر ذلك قائما حتى إذا نشر نور الدين محمود بن زنكي مرسوما بالغاء بعض الضرائب والمكوس والمظالم في حلب ودمشق وحمص وحران وسنجان والرحبة وغرايز وتل باشر وعداد العرب اعتبر الناس ذلك من أعظم سمات عدالته وقرنوه بالعميرين وكان مجموع ما ألغاه يصل إلى نصف مليون دينار في السنة .

وأما في مصر فيبدو أن المكوس والرسوم الاضافية المتنوعة كثرت في

(١) الطبري ج ٨ ص ٩٦ .

أواخر أيامهم بسبب حاجة الدولة للانفاق . وشملت هذه الضرائب الأظعمة والمنسوجات والدواب وجملة المبيعات وكانت مرهقة للناس حتى استخدم صلاح الدين ابطالها عنهم سبيلا لدعم موقفه السياسي في البلاد . ولكنها أعيدت فيها بعد أيام الأيوبيين واستمرت تزداد في زمن المماليك وتنوع . حتى كانت هجمات التتر على الشام وغزوة تيمور لنك التي أفقرت البلاد لا بالهدم والحريق فقط ولكن باكتساح كل مهاراتها الصناعية واجتثاثها ونقلها آلاف الشبان الحرفيين المهرة إلى سمرقند ، ورافق ذلك الانهيار النقدي من جهة وتكرر الغلاء والمجاعات والأوبئة من جهة أخرى وإذا استقرت حالة النقد بعد ذلك وبدأ الانتعاش النسبي في الصناعة والتجارة حتى أواخر الستينات من القرن الخامس عشر فإن الخطرين العثماني والبرتغالي معا قد انتهيا بدمارها .

ومن جهة أخرى فإن الدولة كانت بدورها تحتكر بعض إنتاج المهن كصناعة المنسوجات الرسمية (الطرانز) والنسج الخاصة ببعض الخلفاء الفاطميين .

وقد تحتكر الدولة بعض الغلات كالقز والثلج والحبوب ولم تكن جميع احتكارات السلطة لمصلحة الجماهير وكثيرا ما كانت عملية تجارية لمصلحة الحكام . فكانوا يحتكرون أحيانا الخل والصابون والزيت .

وكثيرا ما كانت الدولة تدفع دفعا إلى التدخل ضد الاحتكارات التي تقوم بها بعض الأصناف كما حدث في بغداد سنة ٢٥١/٨٧٥م وسنة ٢٧٢/٨٨٥ وسنة ٣٠٧/٩١٩ وسنة ٣٠٨/٩٢٠ وسنة ٣٠٩/٩٢١ وسنة ٣٩٨/١٠٠٧ وكما حدث في القاهرة سنة ٤٤٥/١٠٥٣ ، على أن هذه الاحتكارات والتدخلات التجارية لم تظهر بشكل فاضح إلا زمن المماليك في

مصر والشام . ذلك أن معظم من كانوا يثرون منهم كانوا يشاركون التجار برساميلهم ويحتكرون البضائع الصادرة ويزيدون في أسعارها ورسومها . واتبعوا سياسة احتكار المنتجات الرئيسية منذ زمن بارسبائي والماليك الشراكسة كالسكر والقطن والأقمشة والبخور والتوابل ، في حين فرضوا على الأهلين شراء بعض البضائع بأسعار يعينها السلطان أو ممثله . وكان تحكم نوابهم في الشام أشد مما هو في مصر ، وتلاعبوا بالنقد ، وانقصوا من عياره التماسا لزيادة الربح ، وفرضوا على التجار والصناع فروضا خاصة في أوقات الأزمات . مما أثر التأثير السلبي الشديد على الصناعة والتجارة . وكان كل ذلك يدفع إلى المزيد من التماسك المهني حتى صارت الأصناف مؤسسات ثابتة تقوم بدور مثلث يحدد عدد أفراد الصنف وعلاقاتهم بعضهم مع بعض من جهة والعلاقات بينهم وبين الجمهور المستهلك من جهة ثانية ، والعلاقات بينهم وبين الحكومة من جهة ثالثة . وكان «شيخ الكار» هو عقدة التلاقي بين هذه الجهات الثلاث . وصارت معظم الأعمال وراثية في الأسر التي تمارسها . وإذا حرص «أهل العمائم» على توريث أولادهم مناصبهم مع الأوقاف التابعة لها من الخطيب والإمام والمؤذن إلى مشيخة الصوفية والقضاء والفتوى فإن أهل الحرف كانت لهم أسرارهم في صناعتهم وصاروا لا يدخلون أحدا فيها وبخاصة الصناعات الدقيقة كالصياغة ، والطب والخزف والنسيج الفاخر ، والعطور والصيدلة فلا يطلعون أحدا عليها ولا يبرنونه إلا أن يكون من أبنائهم ، ولا يسمحون لقريب أن يشاركهم فيها إلا لكي يحمل محل أحدهم ولا يقبل إلا بشروط وقيود ومراسم .

وعلى أي حال فإن أهل الحرف كانوا عنصر عمل وحركة دائبة في المدن سواء في إنتاجهم أم في تعاونهم مع التيارات الثورية أو الصوفية أم في مشاركتهم الصوفية أم في أعمال الشعب العامة أم في الدفاع عن أنفسهم ومهنتهم ، كما كانوا روح كل مدينة يشاركون في أفراحها بالزينات أو في



أتراحها بإغلاق الأسواق .

## ب - الرقابة على الأسواق (الاحتساب)

سبق أن ذكرنا الحسبة في معرض الكلام عن مؤلفاتها وما تكشفه من أحوال المدينة ونرجع إليها هنا لنرى الحسبة في طبيعة عملها وممارستها للرقابة في المدينة على تنفيذ الشرع العادل بين الناس تحت اشراف السلطان . ولم تكن الحسبة بدعة عرفها العرب بعد الإسلام ولكنها وظيفة عرفت في مكة أيام الجاهلية وتحمل اسم الاحتساب وكان يمارسها كبار القوم من قريش على ما يبدو . وقد ذكر ابن حزم في جمهرة أنساب العرب أن حكم بن أمية من بني ثعلبة كان بمكة في الجاهلية محتسباً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . وكان الناس يخشون رقابته وفي ذلك يقول بعض سفهاء قريش :

أطوف في الأباطح كل يوم

مخافة أن يشردني حكيم

وهذا يعني أن سلطاته كانت تصل حتى درجة النفي من المدينة . وورثت المدن الإسلامية هذا فلم تكن الحرف ولا الأسواق حرة في أعمالها ، ولم يكن يضبطها رؤساء الحرفة فحسب ولكن السلطان كان من واجبه التدخل لضبطها ورقابة الأسعار والأسواق . وتجري الرقابة على الصناعات في المدينة بواسطة رقيب يعينه السلطان باسم المحتسب . والحسبة منصب تكليف شرعي . والمحتسب يمكن أن يعتبر من بعض وجهات النظر القاضي الصغيرة لولا أنه ينقص في الاختصاص عنه من جهة كما أنه يزيد عليه من جهة أخرى في أنه يبادر بالتدخل لمنع الغش والإساءة والسوء أيا كان مصدر ذلك في السوق وفي المدينة .

---

(١) ابن حزم جمهرة أنساب العرب ص ٢٦٣ وقد نبهني إلى هذا الجزء مشكوراً الدكتور إحسان صدقي العمدة .

وبعض الباحثين يرد وجود هذا المنصب إلى البيزنطيين وهي فرضية لا تقوم الأدلة عليها رغم وجود مثل هذا الموظف في المدن في العهد البيزنطي سواء في الشام أم في مصر . ووجودها في مكة الجاهلية . وقد يكون العرب قد عرفوها أثناء تجارتهم في الشام والعراق ولكنهم قبل عهد الرسالة في مكة والمدينة كانوا يمارسونها . وأولئك الذين يرجعون بهذا المنصب إلى آية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليسوا بمخطئين حين يحملون عمل الحسبة كله في هذه الآية . ولقد مارسها الرسول الأعظم بنفسه وروي عنه قوله : من غش فليس منا<sup>(١)</sup> . وقد استعمل سعد بن سعيد بن العاص على سوق مكة بعد الفتح . واستعمل عمر بن الخطاب على سوق المدينة<sup>(٢)</sup> واهتم الخلفاء الراشدون بالأسواق فكان عمر يتفقدتها ويده الدرة وكثيرا ما ضرب بها من لا يعرف أحكام السوق . وروي أنه وجد رجلا خلط اللبن بالماء فأراقه عليه كما أمر بائعها ببيع الزبيب بأقل من السعر أن يزيد في السعر أو يخرج من السوق<sup>(٣)</sup> وقد جعل السائب بن يزيد على سوق المدينة ثم عبدالله بن عتبة ، كما ولى الإشراف على الأسواق لصحابية من فضليات النساء هي الشفاء بنت عبدالله العدوية القرشية . ثم كان الحارث بن العاص عامل السوق زمن عثمان بن عفان يشرف على البيع والشراء ، ويرعى الموازين ويأخذ العشور . وكان الإمام علي يمشي في الأسواق يأمر الباعة بعدم الفساد أو التطفيف في الكيل أو الميزان وكثيرا ما مر بسوق الإبل والتمر والسمك<sup>(٤)</sup> . واستمرت

(١) السقطي : آداب الحسبة ص ٤ ، والكتاني التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، انظر الأصناف ص ١٤٣ .

(٢) الحلبي : إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية . القاهرة ١٩٦٢) ج ٣ ص ٣٦٥ .

(٣) ابن تيمية : الحسبة في الإسلام ص ٤٣ ، والسقطي المصدر السابق ص ٤٣ .

(٤) انظر ابن عبد البر : الاستيعاب في أسماء الصحابة (ط . القاهرة ١٩٣٩) ج ٢ ص ٦٢ ، وابن حجر : تهذيب التهذيب ج ١٢ ص ٤٢٨ ويحيى بن عمر أحكام السوق ص ٤٤ . والبلاذري : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٤٧ ، والديبار بكري : تاريخ الخميس ج ٢

الرقابة على الأسواق قائمة في العهد الأموي فهناك ذكر للعامل على سوق البصرة أيام زياد بن أبيه . وقد عين الوليد بن عبد الملك على سوق المدينة ابن حرملة مولى عثمان بن عفان وكان يمر بنفسه على سوق البقل . وفي أيام خالد بن عبدالله القسري في العراق (أواخر عهد هشام) كان من أعوان السوق كل من داود وعيسى بن علي بن عبدالله بن العباس (عمي المنصور) وتولى كل من عيسى بن عبد الرحمن ثم إياس بن معاوية العمل على السوق في واسط أيام ابن هبيرة (بين سنة ١٠٣ و سنة ١٠٦) . ومن المرجح أن هذا الموظف الذي سمي (بالعامل على السوق) كان عمله يتضمن مراقبة الموازين والمكاييل وجباية الضرائب من الحوانيت والصناع والتحكيم في الخلافات بين أهل المهن . وهذه الأعمال هي في الواقع أساس وظيفة المحتسب في الإسلام .

ظل هذا العمل يسمى بالعمالة على السوق أو (ولاية السوق) وظلت أحكامه تسمى بأحكام السوق حتى القرن الرابع ولكنه استرد منذ مطلع العصر العباسي - على ما يظهر - اسمه الآخر فطنى عليه وهو الحسبة والاحتساب . فقد ذكر أن أول إشارة صريحة إلى الحسبة «بهذا الاسم إنما كانت حين عين المنصور: عاصم بن سليمان الأحول» الحسبة في المكاييل والموازين» في الكوفة كما ولى أبا زكريا بن عبدالله «حسبة بغداد والأسواق» وتطورت الحسبة بعد ذلك وتوسعت صلاحياتها العملية تدريجيا حتى شملت كل أمر في المدينة يمس النظام العام .

ويمكن القول أن الاحتساب جعل همه في الإنسان وفي حاجات الإنسان الحياتية والمباشرة كلها في المدينة، وكانت مهمته تأمينها للناس على أحسن وجه وأفضله .

= ص ٢٦٧ ، وابن كثير البداية والنهاية ج ٨ ص ٥ ، وابن سعد الطبقات . ج ٣ ص ١٨ .

ولهذا كانت اختصاصات المحتسب تمس عددا واسعا من الأمور التي تعتبر أنها اليوم تتبع مؤسسات ودوائر شتى كالمبلديات خاصة ووزارات التموين والصحة والتربية والاقتصاد والأمن والصناعة بالإضافة إلى وزارة العدل . ولما لم يكن المحتسب وحده يستطيع القيام بكل هذه المهام في المدينة فقد صار الاحتساب في العصور المتأخرة مؤسسة كاملة لها رئيسها المحتسب، ولها أعوان ونظم ومركز رئيسي وسلطة وعقوبات بل صاروا في النهاية يشترونها شراء لما ينتظرون منها من المكاسب .

وعناية الاحتساب بالإنسان في المدينة ورقابته تناولت : العناية بطعامه (لدى الطحان بعدم خلط الدقيق بحبوب أخرى، ولدى الفران خوف سقوط عرقه أو شعره في العجين)، ولدى الخباز والشواء والنققي والكبودي والجزار والرواس والطباخ والشراحي والمهراشي وقلاة السمك والحلواني واللبان وبائع الزلاية ومعاصر الزيت والسيرج، والعناية بشرابه (لدى السقاء وحامل القرب والشرابي) وبطعام دوابه (لدى العلافين) كما عنت بملابسه (لدى الحاكة والبزازين والرفائين والحراثيين واللبوديين والفرائين والغسالين والقصارين والصباعين والقطانين والكتانين والأبارين والمسلاتين)، ويحذائه (لدى صانعي النعال والاسكافيين)، وبنظافته (في الحمامات)، ومداواته (لدى الطبيب والصيدلاني والعمار والفصاد والحجام والكحال والجراحي)، كما عنت بزنته (لدى المشاط والمراوحي وبائع الحناء وبائع العطور)، وبمسكنه (لدى البناء والخشاب والعشاش والنجار والنشار والدهان والمبيض والرزاز والزفات والجباس)، وبأثاث المسكن (لدى الخزافين والحصريين والدباغين وباعة الكيزان والغضارين) وعنت حتى طفولته (لدى مؤدب الصبيان)، وبإنارة منزله (لدى الشعاعين وباعة السراج)، بل وبدابته (للرفق بها وعدم تحميلها ما لا طاقة لها به، وبمراقبة أكلها لدى التبان ومداواتها لدى البيطار أو العبث بها بآثارها بعضها ضد

بعض كالديكة والكباش) ومراقبة المراكب فلا تحمل أكثر من طاقتها خوف الغرق . وكان المحتسب يبعد باعة الأسماك إلى الأسواق البعيدة لئلا يتأذى الناس بروائحها كما يوزع الأفران على أطراف البلد ليصيب كل ذي حاجة منها حاجته عن قرب .

يضاف إلى كل ذلك أنها اهتمت بتعامله مع الآخرين ( في العقود والعقود المحرمة والديون ) ، وبمسامرة العبيد والدواب والدور والدلالين ، وبما قد يشتريه المرء من المعادن الثمينة وغيرها ( من الصيرفي والصائغ والنحاس والحديد ) ، وينقله ( على الحمير أو مع أصحاب السفن والمراكب ) ، وبعدم تعديه على الآخرين ( بالشبايك المطلقة على الجيران أو بالمزايب الصابة على الشوارع والأزقة أو بأكل الديون أو أكل الربا ) . وعلى الاطمئنان الى ما يشتريه بالقياس أو الوزن ( بضبط المكاييل وعدم الطغيان في الميزان أو التطفيف فيه : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ ، وهذا ما كان يسمى بمنكرات الأسواق .

كما اهتم الاحتساب بنظافة الشارع وبعدم أذية المارة فيه ( من جانب السقاء أو بائع السمك ) . ويتعامل الناس مع المنجمين وكتاب الرسائل ومع السوق ، وبالرقابة على الجوامع والمؤذنين والوعاظ ولم يهمل ضرورة العدل للناس فرقابة المحتسب تمتد الى القضاة والشهود وإلى الامراء والولاة اذا ما خالفوا الشرع أو تجاوزوه .

وتصل هذه الرقابة حد التدخل الاقتصادي المباشر من قبل المحتسب الذي يمثل سلطة الدولة في السوق فاذا كان له منع العقود المحرمة كالربا والميسر وبيع الفرر وكلها حرام لدى المسلمين فقد كان له في الأزمات تجاوز الملكية الفردية لحفظ حياة الجماعة . ومع أن حرية التملك هي الأصل فان تحديد هذه

الحرية لمصلحة الجميع سواء في تسعير البضائع أو في الاجبار على البيع ومنع الاحتكار ومنع تواطؤ البائعين على المشترين طمعا في الربح الفاحش والغناء الوسطاء المستغلين وبخاصة في الامور الغذائية المتصلة بالبقاء الانساني .

واهتم الاحتساب أيضا بأداب الانسان العامة في المجتمع بالرقابة على المفسدين وبالحدود الشرعية وبالتشديد على الخمر والخمارين وعلى أهل الذمة وكان يصيهم أحيانا من عنت المتزمتين الكثير لا سيما في العصور المتأخرة . وكل ذلك إنما كان تحت مظلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومن ذلك أيضا الرقابة على بيع السلاح الى قطاع الطرق لأنه عون على المعصية والقتل والمجاهرة باظهار الملامى المحرمة وأدواتها كالزمر والطنبور والعود وآلات اللعب لأنها تنتهي هي أيضا الى المعصية . ولم يهمل الاحتساب الانسان عند الموت فثمة رقابة على الجنائز والجنائزين وعلى السدرين والمكفين فكان الاحتساب يتعهد بأمن الانسان وحمايته من المهد الى اللحد .

إن هذا كله إنما يكشف جانبا اخر من عناية الاسلام والمسلمين بالمجتمع المدني وحرصهم عليه وعلى اطمئنانه . وكما لم تنشأ كل هذه المهن والأعمال في المدينة الاسلامية دفعة واحدة فكذلك لم تتوسع أعمال المحتسب فيها مرة واحدة ولا نظمت أعماله بشكل نظري أولا ثم طبقت . إنما كانت الأعمال متوافقة مع الحاجات متصلة بتطور المدينة بوصفها المجتمع الاسلامي الحقيقي .

وقد نال المحتسب هذه الصلاحيات الواسعة كلها والتي تزيد على الخمسين ناحية من نواحي الحياة في المدينة في القرون الاسلامية الأخيرة . ولذلك نجد أن ثمة فروقا بين مراسيم تعيين المحتسبين في العهود المختلفة ، ففي مرسوم أصدره صلاح الدين لتعيين محتسب في حلب يطلب منه بالاضافة الى ما يجب أن يتسم به من دراية وصرامة وسيرة طيبة وعفة عن المطاعم

والمطامع ومحافظة الخلق ومراقبة الله وخشية منه ، أن يقوم بأربعة وعشرين عملاً .

- ١ - حفظ المعاملات على الشريعة .
- ٢ ، ٣ - زجر الفجرة وبر البررة .
- ٤ - مراقبة أهل الأسواق بقبول العارفين بالصناعات وتوجيه الجاهلين بها وتخويف عديمي الأمانة وتقويم غير السويين .
- ٥ - منع المسكر وأراقته والحد على شاربه ومنع المسلم منه والتعزير له دون المبالغة .
- ٦ - ردع مقترف الذنب .
- ٧ - عدم التجسس على المسافر في حالة الفاحشة . ومن أرتاب به فليتوقف بشانه .
- ٨ - منع الغش في البضائع والتقود .
- ٩ - منع الربا في القروض والعقود .
- ١٠ - منع التطفيف في الكيل والوزن والذرع والمعايير والمكاييل .
- ١١ - تتبع أهل الصناعات ومصنوعاتهم فمن عرف براعته تركه يتعاطى الصنعة . ومن قصر نهاه أو عزره أو عاقبه ومن كان جاهلاً بالصناعة منعه .
- ١٢ - منع الدجالين في الطب وفي كحالة العيون .
- ١٣ - منع بيع الأدوية المغشوشة والمجهولة .
- ١٤ - صون المساجد عن البيع والشراء فيها لذوي الصناعات . ومنع جعلها مخازن ومساكن لذوي الصنائع .
- ١٥ - منع المنجمين والمشعوذين واهانتهم .
- ١٦ - منع كشف العورات في الحمام .

١٧ - منع العقائد غير المقبولة ومنع الخوض في أعراض السلف الصالح .

١٨ - إزالة الفواحش وإيضاح المذاهب .

١٩ - تبطيل الملاهي وتعطيل المناهي .

٢٠ - حفظ الأسعار والقيم وصون الأموال .

٢١ - إبعاد أهل الريب والتهم .

٢٢ - إخماد الفتن .

٢٣ - عمارة الطرق وتنظيفها وتشديد جوانبها وترصيعها باعتباره متولي

أوقافها . الناظر في مصالحها ومصارفها .

٢٤ - وأن يقتنع أخيراً بما هو مقرر له عن الخدمة من وظائف الميرة

ورواتب النعمة .

وعلى الولاة والامراء والشحن والنواب معونته وموافقته على السجن والعقوبات وتلبية دعوته<sup>(١)</sup> . هذه الصورة من الصلاحيات تنقص في أشياء كثيرة عن عمل المحتسب المثالي . وفيها أمور دينية ( في ١٧ و ١٨ ) لم تكن من قبل ، وأمور تتعلق بالأمن ( ٢١ و ٢٢ ) لم يعهدها ، وتدخل مباشرة في الصناعات في حين انها تختلف كثيراً عن الصورة التي رسمها يحيى بن عمر للمحتسب في كتابه ( أحكام السوق ) قبل ذلك بثلاثة قرون فقد كان لا يمس إلا المكاييل والموازين والرقابة على الجزارين والخبازين وباعة الفاكهة وبيع الدوامات والصور للأطفال والغش وقدر الخمر وصاحب الحمام وبكاء أهل الميت والخروج إلى المقابر وفي من تخرج بنعل صرار ، ومن يرش أمام حانوته ، وفي الطين اذا كثر في السوق ، وفي من يحفر حفيراً عند داره . وفي اليهود

(١) أنظر نص المرسوم في البرق الشامي ج ٥ ص ١٣٦ - ١٣٨ ( تحقيق فالح صالح حسين ) ط .

عمان ١٩٨٦ .



والنصارى يتشبهون بالمسلمين ، وفي الاحتكار وفي المكس على الطحانين . . .  
وخلط اللبن بالماء والزيت القديم بالجديد والعسل الطيب بالردىء وفي  
الاجرام الغربية في الخبز . وفي الثياب تقصر ثم تباع جديدة . وفيما يكره من  
السماع وفي تسعير الطعام . .

والصورة تختلف ثالثاً حتى في العصر الواحد فان ما ورد في نهاية الرتبة في  
طلب الحسبة وهو من عصر صلاح الدين نفسه لصاحبه عبدالرحمن الشيرازي  
مختلف بدوره عن الصورتين السابقتين للمحتسب في عدد من النقاط ، كما  
تختلف عن الصورة عند الماوردي . وفي كتاب ابن الاخوة ، وكتاب المدخل  
لابن الحاج ، وعن المقرئ في اغائة الامة وأخيراً عن ابن بسام الذي جعل  
الحسبة في مائة وأربعة عشر باباً .

ويبدو من هذا أن صلاحيات المحتسب كانت تضيق وتتسع حسب  
حاجات الظروف والعصر لأن المبدأ الشرعي الذي تقوم عليه هذه الصلاحيات  
وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان يحتمل التوسعة والضيق طبقاً  
للحاجات والظروف . فإله يزغ بالسلطان مالا يزغ بالقرآن .

على أننا قد نتساءل أمام هذه الصلاحيات الواسعة لماذا لم توزع وأبقيت  
في يد واحدة لها الأعوان والغلمان والعيون ؟ ولماذا بالمقابل لم تشمل أموراً  
أخرى كان من المفروض أن تشملها كمرقبة الخانات والفنادق وعمل السكر  
واستخراج عسل النحل وأحوال القيان وشؤون أوقاف المدارس وأصحابها .  
وأدعياء العلم دون علم ولا فقه .

يضاف إلى هذا أن المفروض في المحتسب أن يكون من أهل الدين  
والسورع وأن يعلم في الوقت نفسه كل أنواع الغش والتدليس في الطعام  
والشراب والرداء والكساء والبناء والغذاء . فيكون في هذا كله موسوعة معرفة  
بالإضافة إلى معرفته بالتربية وبالبيطرة وبالطب والصيدلة وحفظ الصحة

والنخاسة والصياغة والصيرفة والصباغة والنسيج والخياطة وأنواع العطور واللحم والحلويات والطبيخ وطرق الغش فيها جميعا . ويكاد يكون من الصعب وجود شخص بهذه المواصفات جميعا بالإضافة الى المعرفة بالقضاء والحكم بين الناس . ومن هنا كان المحتسب أشبه بالرئيس على مجموعة من العرفاء الذين يفهم كل واحد منهم جانبا من جوانب العمل والصناعات ويعتمد المحتسب عليه وكان هؤلاء العرفاء في معظم الأحيان من شيوخ الصناعات والحرف<sup>(١)</sup> .

ولهذا كانت كثيرا ما تتعطل أعمال الاحتساب حتى في المدن الكبرى . وتمضي فترة من الوقت قبل أن يتولاها من يطيقها . وندر أن نجد المحتسبين في المدن الصغرى التي تحاسب نفسها بنفسها في رقابة ضيقة بسبب صغرها . ويزداد المحتسب قوة وأعوانا في المدن الكبيرة ويتدخل فيها حتى في مقادير الطحين التي يجب توريدها الى الأفران ويسجل في قائمة عنده أسماء ذوي الحرف وعددهم ومواضع حوانيتهم ليراقب صناعاتهم ومدى الجودة فيها أو الغش . على أن تدخله كان يراعي دوما مدى الوفور أو التقصير في الصناعة ومدى الجودة أو الرداءة في المصنوعات ومدى الأمانة والحيانة في البيع .

وكان للمحتسب جراية محددة من قبل السلطان ، ولأعوانه وغلمانه جراية أيضاً . أما العرفاء فهم الذين ينظمون علاقة المحتسب بأهل الصناعات المختلفة بما يعرفون من أسرار الصناعة وطرائق الغش أو الجودة فيها وتكاليفها ، وكان من مهامه الاشراف على البضائع الواردة الى الأسواق والصادرة منها وله توزيع العمل فيها<sup>(٢)</sup> ، وله التحكيم في خلافات الصنائع فيما بين أهلها بعضهم

(١) ابن عبدون : رسالة في القضاء والحسبة ص ٢٤ والشيزري : نهاية الرتبة ص ٢٢ ، والسقطي آداب الحسبة ص ٩ .

(٢) ابن بسام ص ٩٣ ، والشيزري ص ٦٥ ، وابن عبدون ص ٣٥ .

مع بعض وفيما بينها وبين الصناعات الأخرى . وغالبا ما يأخذ العريف أجرته من أهل صناعته<sup>(١)</sup> .

وقد توسع الأيوبيون ثم المماليك في دعم مؤسسة الحسبة في المدن التي يتولونها من مصر والشام كما توسع الموحدون والرينيون في المغرب . وجعلوها قوية الصلة بالسلطة القضائية ، وكثيرا ما كانت الحسبة والقضاء يجمعان لشخص واحد . وعمل المحتسب أسرع حسما لأن عليه سرعة البت في المخالفات الصحية أو الآداب العامة أو لنظام الأسواق أو العدوان على الطرق أو رفع الأذى عن الجيران أو مراعاة الأمانة في المعاملات التجارية ونحوها . لذلك كان على المحتسب أن يكون يقظا على الدوام ويبث أعوانه في المدينة . وكان له مكان محدد للحسبة يأتيه فيه الناس والأعوان لفض الخلافات . وضبط المكابيل وصنجات الموازين والتفتيش على نظافة الحوانيت وسلامة ما يقدمه الباعة لأكل الجمهور فضلا عن مراقبة الخانات والفنادق والحمامات فمن وجده المحتسب قد غش مسلما أو أكل بباطل درهما أو أخبر مشتريا بزائد أو خرج من معهود العوائد شهره بالبلد وأركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد<sup>(٢)</sup> وكان في مصر ثلاثة محتسبين زمن المماليك : محتسب القاهرة وله التصرف بالوجه البحري أيضا ، ومحتسب مصر ( الفسطاط ) وله التصرف معها بالوجه القبلي ، ومحتسب الاسكندرية ونفوذه قاصر على الثغر . وكان ثمة أيضا محتسبون في دمشق وحمص وحماة وحلب والقدس وطرابلس من الشام وكان من حق المحتسب أن يرمي المخالفين في السجن أو أن يعزهم وهي أن يطاف بهم في البلد على حمار يركبونه من خلاف بأجراس ومنادين أنهم ارتكبوا كذا وكذا . على أن هذا المنصب بسبب سعة صلاحياته واتصاله الوثيق بالحرف

(١) ابن عبدون ص ٢٤ ، ووكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٤٧ ، وابن بسام ص ١٦٧ .

(٢) العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٢٤ - ١٢٥ .

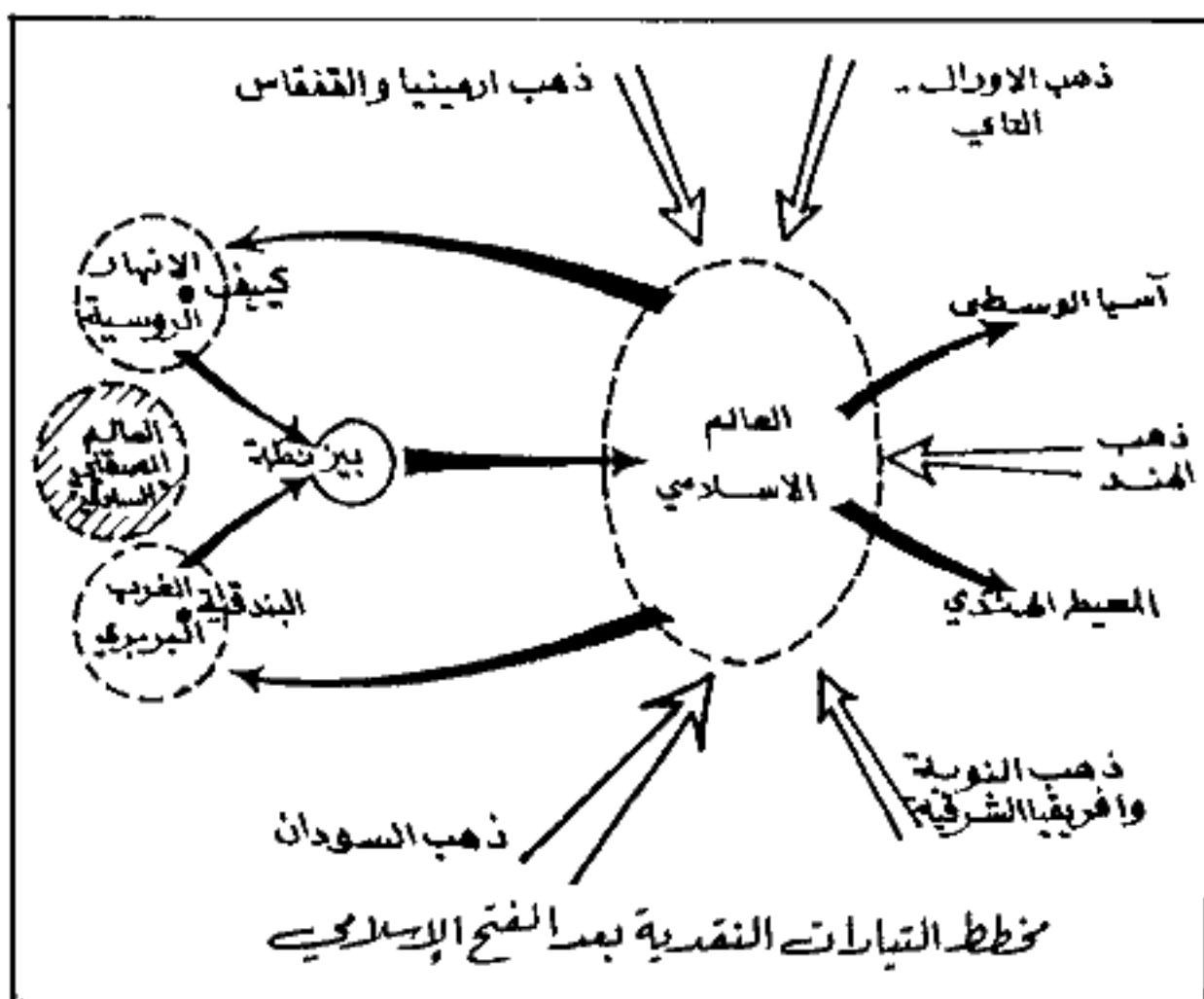
والناس صار في العهد المملوكي مطمعا للطامعين وصار يشتري شراء ويتنافس عليه المتنافسون كما يفعلون لمنصب القضاء أو الفتيا أو مشيخة التصوف . وإذا لم يكن له من أوقاف فان ما يجيبه من الأسواق كان يشكل موردا ضخما لصاحب هذا المنصب ولأعوانه .

### ٣ - حركة الذهب والنقد الاسلامي

خارطة الذهب ، قبل الفتح الاسلامي ، تكشف أنه كان يسير في خط أحادي الاتجاه من الغرب الاوروي الى بيزنطة ، ومنها الى الامبراطورية الساسانية والهند حيث يكس وتفتقر اليه سوق التداول بالتدريج حتى أضحت مدن الغرب المتخلفة فارغة تماما من الذهب ، فلا نقد فيها سوى نقد فضي تافه يضربه الميروفنجيون ، وسادت فيها أشكال ريفية وأقليمية من التجارة المتوسطة وانحطت المدن كل الانحطاط في اتجاهها مرغمة الى الاقتصاد المغلق ، وأما بيزنطة في وسط العالم فكانت رغم ضعف تموينها وعدم انتظام تزودها من مناجم الذهب في الشمال الخزري وفي أفريقيا النوبية ، ورغم اغلاق الساسانيين أمامها الطريق الى المحيط الهندي من اليمن حتى الهند لا تزال رغم الفقر تستطيع اصدار ( النوميسا ) أي الدينار الذهبي البيزنطي بسبب احتياطي الذهب الواسع الموجود بين أيدي الناس في هذا الشرق الأوسط الذي يسميه العالم لومبارد بالبلاد الاسفنجية لأنه كان يمتص الذهب امتصاصا ويخزنه ذخائر في الكنائس ، أو مالا مدخرا لدى تجار الشام ومصر . . . . ولأن بيزنطة تحكم منطقة البرازخ الوسطى بين الساسانيين والهند وبين أوروبا الجائعة الى الذهب فقد سادت ( النوميسا ) التجارة الدولية لكن دورتها الاقتصادية كانت محدودة في نطاق الحوض الشرقي من البحر المتوسط ومدنه الأساسية من القسطنطينية الى أنطاكية الى الاسكندرية ثم القسطنطينية من جديد . وهي دورة قصيرة المدى دعت الناس الى الاتجاه نحو الملكية

الكبيرة في الأرض وأضعفت المدن حتى أن مدن المغرب كانت قد انحطت انحطاط الموت في حين كانت مدن المشرق البيزنطي تعاني بدورها العناء الشديد ، وتفقد انطاكية والاسكندرية تألقهما القديم .

أما مدن المشرق الساساني فكانت تكثر الذهب بكميات هائلة لأن الفضة في الدولة كانت تكفيها لصك الدراهم ، فكانت المدن الساسانية تبتلع الذهب القادم من جهات بيزنطة على شكل مدخرات وجواهر تتراكم في قصور الحكام والسادة الفرس . وظهر المشرق الساساني كأنه « آكل » حقيقي للذهب وكأنه كان يسير من الغرب الى الشرق لتبتلعه الهوة الساسانية التي تمتلك الطرق الثلاثة للتجارة العالمية : طريق البحر الى الهند ، وطريق البر الى الصين ، وبلاد الخزر . وظهر فيها نشاط اقتصادي واسع في المدن التي يمر بها طريق



الحرير أدى الى اضمحلال الصنعة الريفية لمد الشمال الساساني وضعف نبالة الأرض لصالح النبالة التجارية والمدنية . وهذا ما جعل هذه المدن هي « الوسيطات » الاجباريات لتزويد البيزنطيين بالمواد الثمينة يومذاك من التوابل والبخور والحرير والعاج عن طريق الخليج العربي أو عن طريق شمالي بحر الخزر وجنوبه . هذه الصورة الاولى للدور الذي سوف تلبيه البصرة والكوفة بعد الفتح . وهكذا كان الغرب يحسر ذهبه لصالح بيزنطة ، وبيزنطة تحسره لصالح الساسانيين الذي يحسرون بدورهم بعضه لصالح الهند والصين . وعرف الغرب الاوروبي « الجوع » الى « الذهب » في حين عرف المشرق « التخمّة » من الذهب ! في حين استطاعت بيزنطة أن تقيم نوعاً من التوازن الضعيف بين الطرفين .

وجاء الفتح الاسلامي ليغير من خارطة التوزع الذهبي وخطوط سيره كل التغيير . فقط سيطر المسلمون على منابع المعدن الثمين : الذهب بمختلف أشكالها وعلى خطوط التجارة العالمية في الوقت نفسه .

— سيطروا على مناجم الذهب في فارس وجنوبي مصر ( بلاد البجة ) والقفقاس وأرمينيا وجبال الاورال والطاي بجانب ذهب جزيرة العرب . ثم أضيف الى ذلك فيما بعد ذهب الشواطئ الشرقية الافريقية والسودان الغربي .

— سيطروا على المدخرات الساسانية والكنيسة في المشرق كلها .

— وأخيراً سيطروا على ذهب القبور الفرعونية التي كان « أصحاب المطالب » ينقبون عليها ويدفعون عنها الخمس للحكومة ويعملون بتعاون وثيق مع ادارة سك النقود . ولصوص القبور كانوا يقعون على ثروات ضخمة نستطيع أن نأخذ فكرة عنها اذا علمنا أن الحجرتين اللتين دفن فيهما توت عنخ آمون دفنا متواضعا سريعا ووجدتا صدفة سنة ١٩٢٢ كانتا تحويان عدة آلاف

من كيلو غرامات الذهب .

وقد أعاد العرب كل هذه المنابع الذهبية الى التداول بشكل دينار عربي ضربه عبدالملك بن مروان فكانت المدن الاسلامية بذلك أقوى مدن العالم وقد أزاحت بهذه الوفرة الذهبية السيطرة الاحادية للنوميسما .

واكتشفت في هذه الفترة طرائق تقنية لاستخلاص الذهب من فلزاته فأضافت الى هذه المنابع بعداً رابعاً زاد في ثروات العالم الاسلامي أيضاً ومن قوة المدن الاسلامية وتآلقها وتضخم الأموال التي نسمع عنها فيها .

وكذلك سيطر المسلمون على مناجع الفضة ومناجمها في أسبانيا بأقصى الغرب ، وفي آسيا الوسطى بشمال ايران في أقصى المشرق فكانت هاتان المنطقتان تزودان العالم الاسلامي ومدنه بحاجته من الدراهم الفضية .

جاء الفتح الاسلامي أذن في ما بين ايران ومنطقة البرازخ وشمالى أفريقيا والأندلس في ظروف مناسبة جمعت الى توافر المعادن الثمينة تحت أيدي المسلمين مباشرة ، سيطرتهم في الوقت نفسه على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب . ولم يبق لبيزنطة المعتصمة بالقسطنطينية سوى ذلك الرافد الضئيل من التجارة عن طريق الخزر في الشمال إن لم تشأ التعامل مع المدن الاسلامية أو التي أضحت اسلامية في الجنوب والشرق .

هذا التغير الذي جاء بطيئاً وعلى مهل واستمر أكثر من قرنين حتى اكتمل . هو الذي يفسر قوة البصرة والكوفة وازدهارهما ثم ازدهار بغداد السريع بسبب مرور خط التجارة العالمية في الخليج الى العراق ثم أرمينية الى طرابزون التي فرض البيزنطيون التعامل معها كمرفاً وحيداً للتجارة العالمية . وهو الذي يفسر قوة عبدالملك بن مروان الذي أرسل سنة ٧٦ خمسين بعثة الى ساحل أفريقيا الشرق لتأتي - كما زعموا - بزجاجات العطور - وإنما كان يبحث

عن منابع جديدة للذهب . وهو الذي يفسر عداء بيزنطة الدموي والدائم والفاشل للبلاد الاسلامية كما أنه الذي يفسر قوة ابن طولون الذهبية المضاعفة من المطالب ومن مناجم العلاقي بأرض البجة قدرة ابنه على ارسال جهاز ضخم لم يسمع بمثله عند زفاف ابنته من الخليفة . كما يفسر القوة الذهبية التي فتح بها الفاطميون مصر صلحا . وكان « ذهب المعز » في مقدمة الأبواق الداعية له .

ويجب أن تضيف إلى هذا أن الأرض الإسلامية احتوت على معدن النحاس وتستورد القصدير وهما المعدنان اللذان يحتاجهما صك النقود الصغيرة (الفلوس) . وكان النحاس متوفرا سواء في أعالي ما بين النهرين أم في قبرس أم افريقيا الشمالية ومراكش والسوس الأقصى .

بهذه الوفرة الهائلة من الغنى استطاعت البلاد الإسلامية أن تبني لنفسها اقتصادا عالميا قويا متماسكا وتألقت مدنها ما بين قرطبة إلى القاهرة إلى بغداد ونيسابور ذلك التائق الذي كان في القديم لاسكندرية والمدائن وأنطاكية . وروما . وبقية القسطنطينية وريشة له لتحافظ على بقايا ذلك التائق .

أدت هذه الوفرة في المعادن الثمينة إلى سك الخلفاء منذ العهد الراشدي الدرهم الفضي فقد سكه على بن أبي طالب وبعض الولاة من بعده ، ثم أدت إلى قيام دار لسك الدينار الذهبي بدمشق منذ أيام عبدالملك . فلما انتقلت الخلافة إلى بغداد انتقل معها . ولكن دور السك وجدت في مصر منذ عهد عبد الملك ثم في مختلف المدن الإسلامية الكبرى في المشرق والمغرب منذ عهد المأمون . وتمت ممارسة هذه الصناعة فيها جميعا . وكانت نوعية السك تتناسب دوما مع كمية النقد المصنوع . كما كان الدينار بخاصة يضرب بعناية عظمى سواء في نقشه أم في نسبة المعدن الثمين فيه



شأن عملة كل دولة قوية . وقد أكد الجغرافي ابن خرداذبة (المتوفى حوالي سنة ٨٥٠ قبل أواخر القرن الثالث) واقع هذا التداول النقدي وقوته وتكاثف النقود الذهبية والفضية حتى في أصغر الدساكر . وقوائم الخراج التي نجدها لدى قدامة بن جعفر والجهمشيري ولدى ابن خلدون (والتي تعود إلى عصر المأمون خاصة) تكشف أن وارد الدولة وحده من الخراج كان ٤٠٥ ملايين درهم ، و١٢٥ مليون دينار في السنة الواحدة . دون حساب أثمان البضائع العينية التي كانت تدفع مع الخراج من عبيد وتمر ومصنوعات وزبيب وفيلة وشمع وعسل وبزاة وبغال وثياب يزيد ثمنها على ٢٠ مليون درهم . إن ذلك كله هو الذي سمح للمتوكل أن يبني تسعة عشر قصرا من أفخم القصور بعد أن بنى أبوه وجده مدينة كاملة هي سامراء وبني جده الأعلى بغداد بخمسة ملايين درهم . . . وكل ذلك إنما يشهد على التقدم العمراني المدني الذي استقطب الثروات كلها وتبادلها الاقتصادي القوي .

وقد نشط هذا التبادل في جميع مدن العالم الإسلامي وتعدى الحدود فلامس مناطق واسعة لم تخضع له إلا اقتصاديا كشمال أوروبا وروسيا وبلاد الترك وبلاد السودان الغربي وشرقي أفريقيا وشمال الهند . وقد رافق الدرهم الفضي الدينار في انتشاره وكان أمام المسلمين عند الفتح ثلاثة أنواع من الدراهم الفضية (في حين كان هناك نظام واحد للذهب هو النوميستا) ، وهذه الأنظمة الفضية الثلاثة هي : الدرهم البغلي في فارس ، والدرهم الرومي (للتبادل مع بيزنطة) والدرهم الطبري في آسيا الوسطى . وقد حاول عمر بن الخطاب توحيدها على أساس وزن معين متوسط قدره ١٤ قيراطا (= ٣,٩٦ غراماً) . وسك الدرهم فيما بعد من قطعة فضية واسعة وسميكة حسب الوزن المقرر وكتبت عليه كما كتبت على الدينار كتابات إسلامية بالخط العربي ثم أضيف بلد السك إلى الكتابة زمن المأمون . فتميزت دنانير مصر عن دنانير الشام وبغداد وهراة ونيسابور واصفهان ، كما تميزت عن دنانير

القيروان وقرطبة . وكان وزنها الموحد واتساع منطقتها يطرد النوميسما إلى بيزنطة وأوروبا، في حين صهر الموجود منها في البلاد الإسلامية وأعيد سكه دنانير إسلامية من جديد فبقيت المدن الإسلامية بذلك سيده التبادل التجاري العالمي بنقدها المهيمن ونشاطها الاقتصادي الواسع وعلاقتها الممتدة بين الهند والأندلس، وارثة بذلك قوة النوميسما البيزنطية والدرهم الساساني وموجدة التعادل بينهما على أساس ١٢ ثم ١٥ ثم عشرين درهما للدينار الواحد . ولكن المدن الإسلامية عامة ظلت أحادية المعدن ففي منطقة البرازخ (الشام ومصر) ظل التعامل والخراج قائمين على أساس الدينار الذهبي . وفي إيران ظل التعامل والخراج بالدرهم الفضي وتبع المغرب والأندلس منطقة البرازخ شرقي المتوسط فنقدها ذهبي .

وبدا في القرنين الثاني والثالث للهجرة أن العالم الإسلامي على سعته يطفو على قشرة سميكة من الذهب ويتحكم في توجيهها كيف شاء ولكن هذه المرحلة لتكتل الذهب الإسلامي لم تدم إلا فترة محدودة فقد كان ثمة عوامل تتجه بحركة الذهب وجهة أخرى . فلما كان الذهب شحيحا هناك في المغرب وكان ثمة جوع ذهبي فقد اندفع المسلمون جنوبا إلى بلاد السودان الغربي ليجدوا الكميات الهائلة منه ويقيموا الطرق والقوافل إليها ويبادلوا ببضائعهم الرخيصة كميات منه تنقلها القوافل عبر أطراف الصحراء الكبرى نحو السواحل الأفريقية المغربية .

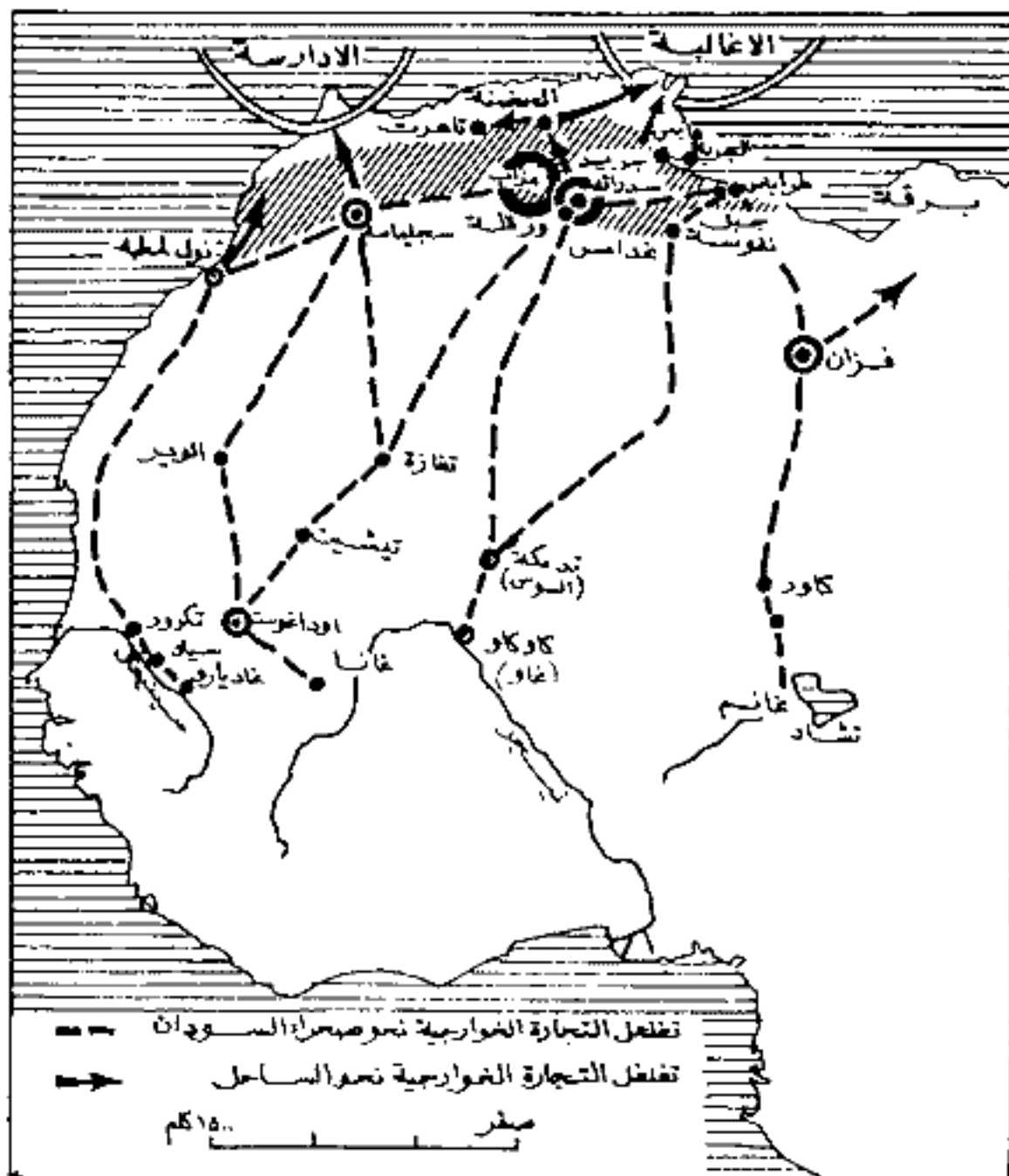
كان المصدر الأساسي لهذا الذهب الجديد تلك الأراضي بين نهر السنغال ورافده باليمه ومنطقة البور قرب التقاء نهر التنكيسو بنهر النيجر . وبلاد غانه التي سماها العرب بتكرور والتي لم يستطع الرومان من قبل الوصول إليها في حين أصبحت نهر الذهب بالنسبة للعالم الإسلامي الغربي . كان هذا هو السبب في التغلغل الإسلامي في السودان منذ القرن الثالث وكان هذا المنبع الذي زاد تدفقه على المغرب وأفريقية هو الذي سمح ببناء

وانعاش ما يزيد على مائة مدينة جديدة وقديمة في تلك البقاع (منها فاس والقيروان وتاهرت وسجلماسة ومراكش والبصرة وتنس التي كانت عقد محطات القوافل وبضاعتها من الذهب) وهو الذي سمح بقوة الدول الخارجية من أباضية ورستمية ومكن من استقلالها في المنطقة كما سمح بقوة الاغلبة بازدهار إمارة الأندلس التي تحولت منذ مطلع القرن الرابع إلى خلافة أموية باذخة كما أنه هو الذي سمح بظهور ذلك البذخ الرائع في الزهراء وقرطبة وغيرها من مدن الأندلس وأعطى الفاطميين المال اللازم للاتجاه المظفر نحو الشرق.

كانت الطرق إلى غانة والسنغال متعددة فالطريق في أقصى الغرب هو الذي يمر بسجلماسة وتلمسان وعبر الساحل الأفريقي إلى مصر. وقد ظل في غاية الأهمية. وابن حوقل (في القرن الرابع) يذكر أن ضرائب التجارة السنوية لحاكم سجلماسة كانت ٤٠٠ ألف دينار. أما الطريق فيقود من ولايته إلى تغزة ومنها إلى توارت على ساحل المتوسط. وثمة طريقان آخران دعت إليهما المنافسة بصلان غاو المركز التجاري على نهر النيجر بمصر: واحد يمر بواد مكة ثم ورغلة حتى ساحل المتوسط والثاني من تكدة إلى هضبة عبر ثم تيسيقي فواحات الكفرة ثم الواحات الداخلة والخارجة حتى مصر العليا.

على أن عمليات البناء والبذخ كانت تحتاج إلى الكثير من المواد الأولية كالحشب والعبيد والفراء والمرمر والحديد من أوروبا. وهكذا تفرع اتجاه هذا الذهب المتدفق في اتجاهين: فرع نحو مصر والشام لاستيراد القمح والبردي والقشاش والتوابل والبخور والعطور والسكر والأنسجة الحريرية الثمينة والخزف وأدوات الحضارة الأخرى. وفرع اتجه إلى الأندلس ومنها إلى أوروبا التي تؤمن لها الحديد والعبيد الصقالبة والفراء الثمين والحشب الكثير.

وإذا كان الفرع الأول هو الذي يمكن مصر والشام من تقديم ٦ ، ٤



## ٢٦- تجارة البقاليات الخوارجية

مليون دينار سنويا كخراج لبغداد (٣ من مصر و٦,٦ من الشام) فإن الفرع الثاني هو الذي أنعش أوروبا الجائعة للذهب وأدخلها ضمن نطاق الاقتصاد العالمي من جديد. فقد أصبح بإمكانها شراء ما تحتاجه من توابل الشرق وبضاعته الثمينة لا عن طريق الأندلس وبوساطتها ولكن عن طريق بيزنطة. وكلما ازدادت حركة التبادل بين مدن السواحل الأفريقية والمغربية ومدن

الأندلس مع مدن السواحل الأوروبية كلما كانت تجارة المدن الأوروبية الفقيرة تنتعش وتزداد قوة وتبادلا مع البلاد البيزنطية التي كانت تعود فتشترى بالذهب الذي يتجمع لديها بضائع الشرق البعيد والقريب من المدن الإسلامية . وهكذا تغيرت منذ القرن الثالث تقريبا حركة الذهب العالمي وبعد أن كان مكدسا في الشرق في وسطه يعطيه القوة والنفوذ دخل مرحلة ثالثة صار فيها يشكل دورة عالمية حول البحر الأبيض المتوسط . وتوجه من السودان الغربي إلى شواطئ أفريقيا والمغرب ومنها إلى مصر والشام وإلى الأندلس ثم إلى أوروبا ومنها إلى بيزنطة لتعود فتصب في أرض المشرق الإسلامي وتمتد منه إلى الهند . وفي حين سيطر النقد الإسلامي الذهبي حتى في الهند كانت أوروبا تتجه شيئا فشيئا إلى إمكان سك نقود ذهبية بدأت تظهر فيها منذ القرن الرابع الهجري / ١٠م ، في حين صارت المناطق الإسلامية الوحيدة المعدن كإيران ثنائية المعدن وجرى فيها تداول الذهب والفضة على السواء . وكان العراق حتى القرن التاسع في أواسطه يدفع ويحسب خراجه بالدراهم .

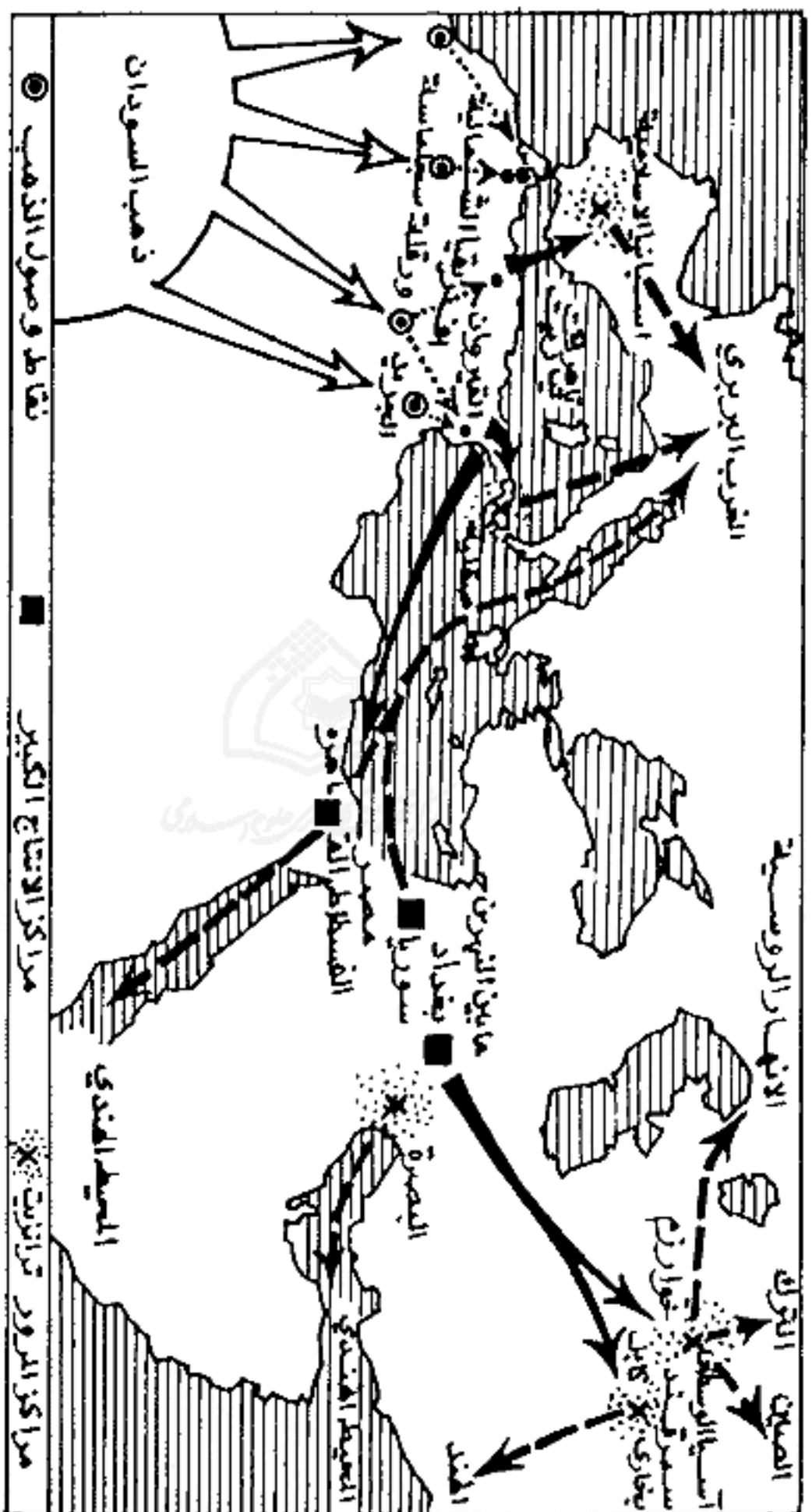
وتزودنا مجموعات النقود في المتاحف المختلفة بدلائل كثيرة على توسع وجود الذهب في المشرق الذي كان فضيا بحتا ، ففي سنة ٢٢٨/٨٤٢ بدأ ضرب الدينار الذهبي في مرو ، وفي سنة ٢٣٥/٨٤٩ في الري ، وفي سنة ٢٤٧/٨٦١ في سمرقند ، وفي سنة ٢٤٨/٨٦٢ في الشاش ، وفي سنة ٢٦٩/٨٨٢ في قزوين ، وفي سنة ٢٧١/٨٨٤ في الأهواز وهمدان وفي سنة ٢٧٢/٨٨٥ في أذربيجان . وهكذا ظهرت ثنائية المعدن النقدي في المشرق والمغرب على السواء في حين كانت فارس وكرمان وبخاري ما تزال في تلك الفترة مناطق العملات الفضية .

ومن جهة أخرى فإن نسبة الدينار الأموي الذهبي تبلغ ما بين ٨٩٪ إلى ١٠٠٪ وكان يساوي ١٠ دراهم . وحين نجده في العصر العباسي يساوي

١٥ إلى عشرين درهما فهذا دليل على تنازل قوة الذهب الشرائية وكثرته علما بأن مناجم الفضة في أفغانستان وارمينيا وما وراء النهر كانت تمد الدولة بكميات كبيرة منها دون انقطاع. لكن قيمة الدينار الإسلامي ظلت متماسكة وقوية بسبب ثبات عياره وتحوله ليصبح نقد التجارة الدولية الوحيد لأن العرب المسلمين توصلوا إلى تقنية جديدة في تنقية فلزاته وتصفيته. وهذا ما أوجد في القرنين الثالث والرابع الميل إلى تخزينه وامتصاصه من السوق. كما أدى التداول الكثيف للدينار إلى زيادة في استهلاك مختلف البضائع وزيادة موازية لها في ارتفاع الأسعار. حتى ليذكر بعض الكتاب أن قيمة الدينار في عهد الرشيد كانت أقل من قيمة الدرهم أيام المنصور<sup>(١)</sup>.

ومن الهام أن نلاحظ أن الذهب الأفريقي الآتي من شرقي أفريقيا ما بين زنجبار إلى سقالة، والآتي من مناجم العلاقي في أرض البجة كان قليلا نسبيا وكان يدخل التداول العام في المدن. في حين أن كميات الذهب السوداني الضخمة كانت لا تصل إلى الطبقات الدنيا والمدن الصغيرة ولكن إلى أيدي الطبقات العليا وبلاطات الملوك. لأن البضائع التي كان يؤمنها إنما كانت البضائع التي تعنى بتلك الطبقات في الشام ومصر كما في الاندلس وإنما كان يتسلل تدريجيا إلى التداول العام وإلى خزائن الادخار. وكانت حاجة هذه المناطق إلى البضاعة الأوروبية (من عبيد وخشب وحديد وفراء) هي التي تسمع لأوروبا بالانتعاش التدريجي والاتجاه إلى الشرق الإسلامي بتجارها وأطعمها لدرجة وصلت بعد ثلاثة قرون إلى مهاجمته (في الحروب الصليبية).

(١) آشور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ص ١٠١ - ١٠٣.



## ذهب السودان

وقبل هذه الحروب الغربية بكثير فتح الفاطميون مصر بهذا الذهب وكثفوا صناعة الدينار الفاطمي بكميات ضخمة في ممتلكاتهم الممتدة من صقلية إلى الشام إلى أطراف اليمن وأوجدوا ربع الدينار الذهبي بعمار صحيح . وقد تراكمت الثروات قبل ذلك في البلاط العباسي الشرقي بملايين الدنانير في بغداد فكان يدخل إلى خزانتها سنويا ما يزيد على ٥٥٠ مليون درهم أو ما يعادل ٣٦٧ مليون دينار ذهبي (أي ١٠٨ كتالات من الذهب) عدا الجزية التي كانت تدفعها بيزنطة إلى العباسيين أحيانا بملايين الدنانير لا لكي تؤمن حدودها فقط ولكن لتؤمن تجارتها العالمية أيضا .

كما تراكمت كتلة الدنانير في البلاط الأندلسي في قرطبة فقد وجد في خزينة عبد الرحمن الثالث عند موته سنة ٩٦١/٣٥٠ خمسة ملايين دينار (أي ما يعادل ٢٥٠ كتالا من الذهب) عدا العقار والثياب والمجوهرات والسلاح . وبلغت موارد بيت المال في ظل خلفه الحكم الثاني (٣٥٠ - ٩٦١/٣٦٥ - ٩٧٦) ٤٠ مليون دينار، ووجد في خزانة الوزير الفاطمي الأفضل الجمايي بعد موته ٦ ملايين دينار (أي ٣٠٠ كتال من الذهب) . وكانت غلة الوزير ابن الفرات السنوية مليوني دينار . وقد ترك عضد الدولة ٢,٨ مليون دينار عدا السلاح والجواهر والمتاع ، وإحدى بنات المعز الفاطمي تركت ثروة قدرها ١,٧ مليون دينار عدا خزائن الحلى وصناديق الجواهر وأكياس الزمرد . . .

وهذه الأرقام التي تكدرت في المدن الكبرى خاصة ولم تترك للمدن الوسطى والصغيرة إلا القليل ، ولم يصل منها شيء إلى الريف ، لم توحد فقط بين طبقتي كبار الملاكين والتجار ورجال الدولة في المدن الكبيرة ولكنها تكشف عن اتساع الحركة النقدية وتوسعها الكبير في مدن العالم الإسلامي . وعلى الرغم من أن معظم أرقامها لا يقوم على الاحصاء الدقيق إلا أنها على أي حال تدل على مدى الطاقة المالية الكبيرة التي كانت تتمتع بها المدن



الرئيسية والثانوية . مما سمح لها باستقطاب حركة المنتجات التي تحتاجها مهما كانت بعيدة كما أمنت حاجات كمالية جدا، ولكننا نفهم مدى إلحاحها وارتباطها بالغنى ويصعود بعض الطبقات الاجتماعية . إن تيارات النقد أي دورته التي تكونت في القرنين الرابع والخامس لن تترك مكانها إلا إلى حركة أخرى تبدأ في الظهور مع الحروب الصليبية .

تميزت هذه الحركة الأخيرة بالانقطاع التدريجي للأساطيل الإسلامية عن الموانئ الأوروبية على البحر المتوسط، وتوقف الهجمات الإسلامية على جميع الحدود وتحولها إلى الدفاع وصد الهجمات . كان ذلك في القرن الخامس وما بعده، وكان من نتائج هذا الموقف الدفاعي ان تحولت المبادرة في البحر المتوسط بخاصة، إلى أيدي الأساطيل الأوروبية وقواعدها الهامة في إيطاليا: جنوة، نابولي، فلورنسا، البندقية . وهمد المشرق كله . فكل القوى من بيزنطية وعباسية وفاطمية كانت في أواسط القرن الخامس / ١١م في حالة جمود وضعف لا تقدر على أي مبادرة . في هذا الحين بدأت الجيوش الصليبية . وبدأت جيوش حركة الاسترداد تستولي على أطراف الأندلس ثم على مدنه وتتصارع مع المرابطين والموحدين عليه لتستولي على مواردهم من الذهب وتسيطر على التجارة مع أوروبا . وأخذ النورمان يقومون بالعمل نفسه في صقلية، وجاء السلاجقة من الشرق يلتهمون الحضارة الإسلامية الغنية، وما لبث أن لحق بهم الصليبيون الفرنج إلى المشرق وفي خواتمهم انتهاب هذا الشرق الغني الباذخ على الشاطئ الشرقي المتوسط وحاولوا احتلال الشواطئ المصرية .

كان ذلك كله ما بين أواسط القرن الخامس وأوائل السادس وكان يعني أن مرحلة جديدة من مراحل النقد الذهبي . تتكون . فلم يعد الغرب الأوروبي جائعا إلى الذهب لأن الذهب تكس فيه بما يكفي لضرب العملات الذهبية بنقاء نسبي ولكنه كان يطمح إلى المزيد منه . وكانت

طلّاع هذه الهجمات هي أساطيل الجمهوريات الإيطالية في حين كانت منطقة الشرق الإسلامي خاصة تشكو في أعقاب الجوائح والمجاعات والأوبئة والحروب من التناقص السكاني بسبب سوء التغذية وتلوث مصادر المياه في المدن بسبب الإهمال. وقد نقصت كميات الخبز واللحم التي كان يستطيع شراءها صغار المأجورين في المدن، وتناقصت معها الحريرات والبروتينات والكاربوهيدرات وكميات الدسم اللازمة لهم، في حين أضيف إلى هذا جفاف موارد الذهب من مناجم العلاقي في البجة وقتلتها الشديدة من شرقي أفريقيا وتحول الذهب السوداني باتجاه أوروبا بصورة رئيسية، وانقطاع مناجم الفضة في أرمينيا وما وراء النهر وسجستان عن تموين الأرصدة الفضية، بعد احتلال السلاجقة للبلاد، وقد أضيف إلى كل ذلك أن الصليبيين الفرنجة سدوا مصبات التجارة العالمية في الشام واحتلوا مدنها الساحلية وحاولوا النفوذ إلى مصر والبحر الأحمر فجرى نتيجة لذلك كله انقطاع دورة الذهب القديمة وقيام نوع من التقاسم بين أوروبا والشرق الإسلامي. وعاد الذهب يجري على خطين متوازيين جيئة وذهابا أحدهما بري على طريق الحرير في الشمال ويمر عبر بيزنطة إلى أوروبا وهو الذي سلكه ماركو بولو. وجنوبي بحري يمر بالمتوسط ويعبر منطقة البرازخ (الشام ومصر) إلى المحيط الهندي ونصفه الشرقي إسلامي أما نصفه الآخر فأوروبي إيطالي. وقوي الفلورنس الذهبي فوازي الدينار الإسلامي في التجارة الدولية ووصلت مدن مصر والمشرق معها في العهد الأيوبي إلى درجة من الفقر الذهبي لم تعد معها قادرة على ضربه. واستبدلت به النقد الفضي، وحين جرى الانقطاع بين المشرق الإسلامي وأواسطه باحتلال المغول له، وسيطرة الجيوش الأيبيرية التي تدعمها البابوية على أمهات المدن الأندلسية، لم تعد منطقة البرازخ الوسطى بمدنها الكبيرة والصغيرة أكثر من ممر للتجارة الدولية. واضطرت للاكتفاء بدور الوسيط بما تدره تجارة الترانزيت من الذهب مدة قرنين ونصف.

بدأ المماليك عهدهم وليس بين أيدي الناس سوى الدراهم الفضية وكانت على نوعين: الدراهم من الفضة النقرة (وثلاثه من فضة فقط والباقي نحاس) ودراهم الفلوس النحاسية وقد كثر استعمالها بعد الأزمة الاقتصادية التي حلت بالشام ومصر سنة ١٢٣٣/٦٣٠ والتي صاحبها انحطاط سعر الدراهم الفضية. وكان سعر درهم الفضة مع ذلك يساوي ستة دراهم نحاسية.

واختل النقد مع صعود المماليك للعرش إلى أن استقرت الأمور للظاهر بيسرس فضرب الدراهم الظاهرية باسمه. وظلت البلاد في جوع إلى الذهب. وبالرغم من أن تجارة المرور قد وفرت لها بعضه وسمحت بسك نقد ذهبي إلا أنه كان ناقص العيار في الغالب فلم يستطع أن يثبت في الأسواق مقابل الدينار الإفريقية أو الدوكات التي أصدرتها البندقية بعيار صحيح ووزن ثابت (هو ١٩/٥ قيراط مصري) في القرن السابع / الثالث عشر فسيطرت على التجارة العالمية ودخلت البلاد الإسلامية بديلة للدينار الإسلامي. وقد حاول السلطان فرج بن برقوق إصدار دينار مماثل للدولة وأكثر منها لكنها كانت أقل في الوزن بحوالي عشرة دراهم عنها. وظل سك الذهب في الدولة المملوكية بين صعود وهبوط مما أفقد الثقة فيه. ولم يسمح له بمنافسة الدينار البندقي. وما لبثت الدراهم الفضية بدورها أن تعرضت للعبث بعيارها وبخاصة منذ صدر الدرهم الحموي (ضرب حماه) وكانت نسبة النحاس فيه تبلغ الثلثين! واضطر الناصر حسن حفيد قلاوون إلى إصدار الدراهم الجديدة التي لم تلبث أن اضطربت واضطربت معها الدراهم النحاسية فكانت بين صعود وهبوط فتارة يكون الرطل منها بستة دراهم وتارة بأثنى عشر درهما. . . وهكذا تزعزعت أسس الحياة الاقتصادية في البلاد حتى فضل الناس العودة إلى نظام المقايضة البدائي حتى في التجارة الخارجية فيباع حمل الفلفل بقنطار من اللوز والعسل والسكر والزيت والشمع وغيرها. . .

وكان ذلك يعني نهاية عصر المهاليك الذين أزاحهم العثمانيون في حين استطاعت المدن الأوروبية على المحيط الأطلسي أن تنتزع المبادرة فتفتح لنفسها أفقين جديدين من الذهب. أفق الأرض الجديدة في أمريكا وأفق الهند، عن طريق رأس الرجاء الصالح منبهة بذلك دور المناطق الإسلامية التجاري ووساطتها التي استمرت في القرون السابقة كلها.

## الفصل الثاني عشر

### الفعاليّة الاقتصادية - ٢ الإنتاج والتبادل العالمي والمحلي

يقوم مركز العالم الاسلامي في منطقة يمكن أن تعتبر البرزخ وأرض اللقاء والافتراق بين قارات العالم القديم الثلاث فالجزيرة العربية ومصر والشام والعراق هي عقدة المرور الكبرى فيها . وتشكل اللحمة بين أكبر مجالين اقتصاديين في ذلك العالم : المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط . ولقد اتصل المجالان من قبل في العهد الهليني ثم انفصلا الى عالمين : الفارسي - الساساني من جهة والروماني البيزنطي من جهة ثانية ولكنها انصهرا من جديد في العهد الاسلامي في منطقة اقتصادية واحدة واسعة قامت على مجموعة من طرق القوافل البرية والموانئ البحرية والمدن التجارية ، وعلى نقد مسيطر هو الدينار الاسلامي ، ولغة تجارية دولية هي العربية . مما جعلها مركزا واسعا قويا لحركة من التجارة الدولية تمثلت في العلاقات الوطيدة التي توطدت بين الأسواق الاستهلاكية في غربي البحر المتوسط والتي قامت على شكل مدن جديدة ( كالقبروان وتونس وفاس ومراكش ) أو على شكل مدن جديدة عادت اليها الحياة مرة أخرى بعد الفتح الاسلامي ( كقرطبة وأشبيلية وطليطلة وبالرمو الصقلية ) مع ما وراءها من بلاد الغرب ، وبين الأسواق التجارية والاستهلاكية الأخرى في منطقة البرزخ نفسها . ( كالفسطاط - القاهرة

والاسكندرية ودمشق وبغداد والبصرة ) أو في المنطقة الساسانية ( كالري ونيسابور وأصبهان وشيراز ) .

ان سر قوة العالم الاسلامي وهو في أوجه إنما تكمن في هذه الشبكة من العلاقات التي أقامها بين هذه المدن والتي أعطته هيكله الاقتصادي والاجتماعي والثقافي . وجعلت فيه المدن مرة أخرى نقاط الارتكاز الحيوية للحياة الاقتصادية . لقد كانت أشبه بالمضخات القوية تمتص الانتاج المحلي وتعاود توزيعه على البضائع العالمية التي تمر بها الى مراكز الاستهلاك في المدن الأخرى القصية .

ان أولية المدينة في العالم الاسلامي ما بين القرن الثاني هـ / الثامن م / حتى الخامس هـ / الحادي عشر م / ظاهرة ثابتة ورئيسة للحقبة التي ندرس . فمن سمرقند الى قرطبة كانت الحضارة الاسلامية حضارة مدينية تتميز بوحدها وبحركة تنقل ( حرة ) واسعة للناس والبضائع والأفكار فيها . . . وهكذا كان العالم الاسلامي يبدو كسلسلة من الجزر المدينية المرتبط بعضها مع بعض بخطوط تجارية . ولكن الأزمات والاضطرابات وغزوات النصف الثاني من القرن الخامس / الحادي عشر ( من الشرق والغرب ) وجهت ضربة قاصمة لهذا التنظيم المدني الجميل وأدت الى انقطاع تواصل التيارات التجارية الكبرى مما سبب انحطاط المدن . . . «<sup>(١)</sup> وتفكك علاقاتها وحضاراتها ولكن بعد أن ترك الاسلام بصماته الواضحة فيها .

١ - في مدن الجزيرة العربية : مجموعات المدن الحيوية في الجزيرة عند ظهور الاسلام كانت تتركز في مجموعة مدن الحجاز ( مكة والمدينة والطائف )

(١) موريس لومبارد : الاسلام في فجر عظمته ص ١٨ - ١٩ ( ترجمة حسين العمودات - دمشق ١٩٧٩ ) وسوف نرجع لافكاره في فترة بعد أخرى .

ومجموعة مدن اليمن ( نجران وصنعاء وعدن ) وتلك المرافئ القوية الممتدة من صحار الى عمان الى صور الى هجر والبحرين . هذه المجموعات الثلاث مع ما يكملها من التحالفات القبلية في داخل الجزيرة للقيام بتأمين حركة النقل ما بينها وبين موانئ ومدن ما بين النهرين والشام ومصر كانت تشكل وحدة اقتصادية متكاملة عملها الأساسي تأمين حركة مرور البضائع بين الشرق والغرب . ومع أن جانباً كبيراً من نشاط هذه المجموعات المدنية توجه للفتح أيام الفتوح إلا أنها سرعان ما استأنفت هذا النشاط في المراكز الجديدة التي نزلتها ( البصرة ، الكوفة ، دمشق ، الفسطاط ، القيروان ) لكن كان هذا على حساب مجموعاتها المدنية السابقة التي ما لبث بعضها لأسباب عديدة أن تحول الى نشاطات أخرى . وبعضها الآخر في الجنوب والشرق انخملت حركته . وهكذا لم تعد مكة والمدينة والطائف مراكز لتجارة القوافل الكبرى أو وسطاء نقل بعد أن صار البحر الأحمر والخليج مفتوحين وتحت سيطرة الخلفاء في دمشق وبغداد . وتحولت هذه المدن الى مراكز استقطاب روحي ديني ( بسبب الكعبة وقبر الرسول الأعظم ) تقوم على هامشها حركة تجارية موسمية . ولما كانت الغنائم الحربية قد أغنت الناس وكان القمح يأتيهم من مصر دون حساب فقد تحولت المدينة بخاصة الى مركز فني للأدب والغناء حتى صارت لها مدرسة خاصة فيها . كما أن تكاثر العبيد من أفريقيا جعلها مركزاً لتجارة الرقيق . أما أطراف الجزيرة كعدن وصحار وعمان فبقيت مرافئ للتجارة الدولية وأن أضعفها كثيراً انفتاح البحر الأحمر والخليج ، كما بقيت التحالفات القبلية الداخلية تقوم بدورها في النقل ما بين المحيط الهندي والمتوسط . ولكنها كانت تضعف تارة وتقوى أخرى تبعاً للأجواء السياسية في العراق والشام . ومن مراحل قوتها البارزة الفترة القرمطية .

والتجارات في هذا الاقليم مفيدة لأن به فرضتي الدنيا وسوق منى ، والبحر المتصل بالصين . وجدة والجارخزانتى مصر . ووادي القرى مطرح

الشام والعراق . واليمن معدن العصائب والعقيق والأدم والرقيق . فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم والساج والساسم والعاج واللؤلؤ والديباج والجزع واليواقيت والأبنوس والনারجيل والقند والاسكندروس والصبر والحديد والرصاص والخيزران والغضار والصندل والبلور والفلفل وغير ذلك ( من بضائع الهند ) وتزيد عدن بالعنبر والشروب والدرق والحيش والخدم وجلود النمر ومالو استقصيناه طال الكتاب وبتجارات الصين تضرب الأمثال . . . » .

« ومن خصائص نواحي هذا الإقليم أديم زبيد ونيلها الذي لا نظير له كأنه لازورد ، وشروب عدن تفضل على القصب . ومسد الهجرة يسمى ليفا . وبرود سحولا والجريب . وأقطاع صعدة وركاها . وسعيدي صنعاء وعقيقها . وقفاع عثروأقداح حلي ومسان ينبع وحناءها وبان يثرب وصيبحانيها وبردي المردة ومقلها . وكندر مهرة وحيثانها . وورس عدن ومغلق قرح وسنامكة وصبر سقوطره ومصين عمان . . . » .

ومن اغراءات التجارة بعدن أن يقولوا أن رجلا ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار . . . فتلك هي تجارة الرقيق بن الشاطبي الافريقي وعدن<sup>(١)</sup> .

## ٢ - في مدن ما بين النهرين والعراق :

الهجرة البشرية التي زحفت بالفتح الاسلامي وجدت مستقراتها المدنية في أطراف هذه المنطقة ( البصرة والكوفة ) أو في قلبها ( في واسط وعين جر والرملة وسامراء وفي الفسطاط ، والعسكر والقطائع ) وتشعبت منها الى فارس

(١) المقدسي ص ٩٧ - ٩٨ .



وخراسان وأرمينية شرقاً كما وصلت أفريقية حيث أقامت القيروان غرباً واجتازت المغرب إلى مدن الأندلس فأقامت ما بين قرطبة وأشبيلية إلى طليطلة ونطيلة ، ولقد كان التأثير الساساني واضحاً في ما بين النهرين سواء من الناحية اللغوية أو الاجتماعية . وكانت عاصمة الساسانيين ( المدائن - طيسفون ) هناك فارتبطت المنطقة بما وراءها إلى الشرق رغم وجود الجبال بينها وبينه ، وحين فتحها العرب أقاموا معسكراتهم التي تحولت مدناً على سيف المنطقة متقابلة مع التجمعات السكانية الفارسية . فالكوفة مقابل المدائن والبصرة مقابل الأبله . وكانت منطقة السواد السهلية التي توضع العرب على أطرافها ذات نشاط زراعي - تجاري واسع منذ العهد الساساني بسبب مشاريع الري الهامة التي تعهدها الساسانيون فيها وتابعتها المسلمون في عمليات استصلاح الأراضي ( مسلمة بن عبد الملك ، الحجاج ، خالد القسري وغيرهم من العهد الأموي ) وهذا ما سمح لمنطقة ما بين النهرين أن تدفع من الخراج السنوي للخلفاء العباسيين ٩٥ مليون درهم ، كما سمح لها أن تغذي جزئياً على الأقل تلك التجمعات المدنية الكثيفة التي قامت فيها ( وبخاصة بغداد وسامراء ) بالقمح والشعير والرز والتمور والسكر والشعير . وإن كان يردها القمح والطحين من الشام ومصر . فمنطقة الأحواز كانت مزارع قصب السكر من أكبر مراكز تصدير السكر للمشرق الإسلامي الذي كان يتحول بعد تكريره بالتطور التقني في مصر إلى سكر شفاف يدعى ( القند ) . ومزارع البطائح اضطرت أن تعتمد في اليد العاملة على المزارعين وناقلي السباخ من العبيد الزوج الذين ثاروا سواء في العهد الأموي أم في العهد العباسي حين شعروا بكثرتهم وبؤسهم .

وقامت البصرة في الجنوب بدور المرفأ العالمي على الخليج أكثر من ثلاثة قرون فكانت سفن الهند ترسو فيها وتصدر عنها بمختلف البضائع . وكان تجارها موزعون ما بين أقصى المشرق وأقصى المغرب كما كانت بغداد من

ورائها تقوم بدور الموزع التجاري وتتكدس فيها الثروات . وكان في البصرة وكالات تجارية ولها أسطول تجاري هام يصل ملقة كما يعبر الى كانتون في الصين من الجنكات ( سفن البضائع ) .

وكانت تزرع على وادي دجلة والفرات مجموعة من الزراعات منها النخيل والقمح والشعير والرز .

وفي أعالي وادي دجلة في الجزيرة كانت تقوم مزارع القطن على الخابور وكان يصنع منه القماش الموصل ( الموصلين ) والقماش البغدادي ( من القطن المخلوط بالحرير ) . والى الشمال من ذلك تقوم أعمال نسيج أخرى في أرمينية . وقد انتقل القطن الى شمالي الشام فصارت المون الرئيسي بالقطن لمجموع عالم البحر المتوسط خلال الفترة الاسلامية .

وإذا نحن تركنا جانبا ميناء البصرة وما يحمل منه واليه من بضائع التجارات العالمية وما يصل منها الى بغداد وغيرها ونظرنا في التجارة المحلية وجدنا أن « لا بأس في التجارات ( في ما بين النهرين ) . ألم تسمع بخز البصرة ، وبزها ، وطرائقها وبأرزها ؟ هي معدن اللآلئ والجوهر . وفرضة البحر ومطرح البر ، وبها يصنع الراسخت والزنجفر والزنجار ، ومنها تحمل التمور الى الأطراف ، والحناء . ولهم خز وبنفسج وما ورد . وبالابلبة تعمل ثياب الكتان الرفيعة على عمل القصب . وبالكوفة عمائم الخز والبنفسج في غاية الجودة . وبمدينة السلام ( بغداد ) الطرائف وألوان ثياب القز وغير ذلك وبه عباداني وسامان رفيع ومن خصائصهم بنفسج الكوفة وأزادها . ومحكم بغداد وطرائقها ومعقلي البصرة وتبين حلوان وشيم واسط وبنيتها . ويصنع بالنعمانية اكسية وثياب صوف عسلية حسنة ، وببغداد أزر وعمائم يكانكي رفيعة . ومناديل القصرية والبويبية وصوف تكريت والستور الواسطية » .

« يصدر من الموصل الحبوب والعسل والفحم والشحوم والجبن والمن

والسماق وحب الرمان والقير والحديد والاسطال والسكاكين والنشاب  
والطريخ الفائق والسلاسل . ومن سنجار فرك اللوز وحب رمان والقصب  
والسماق . ومن نصيين شاه بلوط وهي شيء أكبر من البندق وأطيب . . .  
والفواكه المقددة . والموازين والدوايات . . . ومن الرقة الصابون والزيت  
والأقلام ، ومن حران القبيط ، وعسل النحل في أدنن والقطن والموازين .  
ومن الجزيرة الجوز واللوز والسمن والخيل الجياد . ومن الحسنية الجبن والقج  
والفواكه الرطبة والشاهدانق والقنب ، ومن بلد اللبا القدور ( تباع ) في  
الزواريق القدر بخمسة دوانيق . ومن الرحبة السفرجل الفائق ، ومن أمد  
ثياب الصوف والكتان الرومية على عمل الصقلي . . . وخصائص هذا الاقليم  
( الموصل ) الخيل والصابون والسلاسل والسيور وقبيط حران وقطنها  
وموازينها . . . » (١)

### ٣ - في مدن الشام :

وبلاد الشام ، التي تمتد على طولها سلسلة جبال انشقت طولانيا  
بالانهدام الى سلسلتين ، تحصر فيما بينها وبين البحر من جهة والبادية من جهة  
أخرى ، وفي خط الانهدام نفسه مجموعة من السهول كانت ( وما تزال ) مزارع  
خصبة للحبوب والقطن والرز في العهد الاسلامي ولقصب السكر وللزيتون .  
وكانت تصدر الزيت من فلسطين بكميات كبيرة والخشب من مناطقها الشمالية  
ومن لبنان وبعض الحديد ( من جبالها الوسطى ) كما تصدر الفواكه الى العراق  
من جهة والى مصر من جهة أخرى . . . وكانت الشام قبل الاسلام تتوجه الى  
البحر المتوسط فقط بسبب قيام الجدار الساساني وراءها . ولذلك توجه تجارها  
الى البحر المتوسط والغرب البربري وكانوا يوجدون في فرنسا وأسبانيا كما في

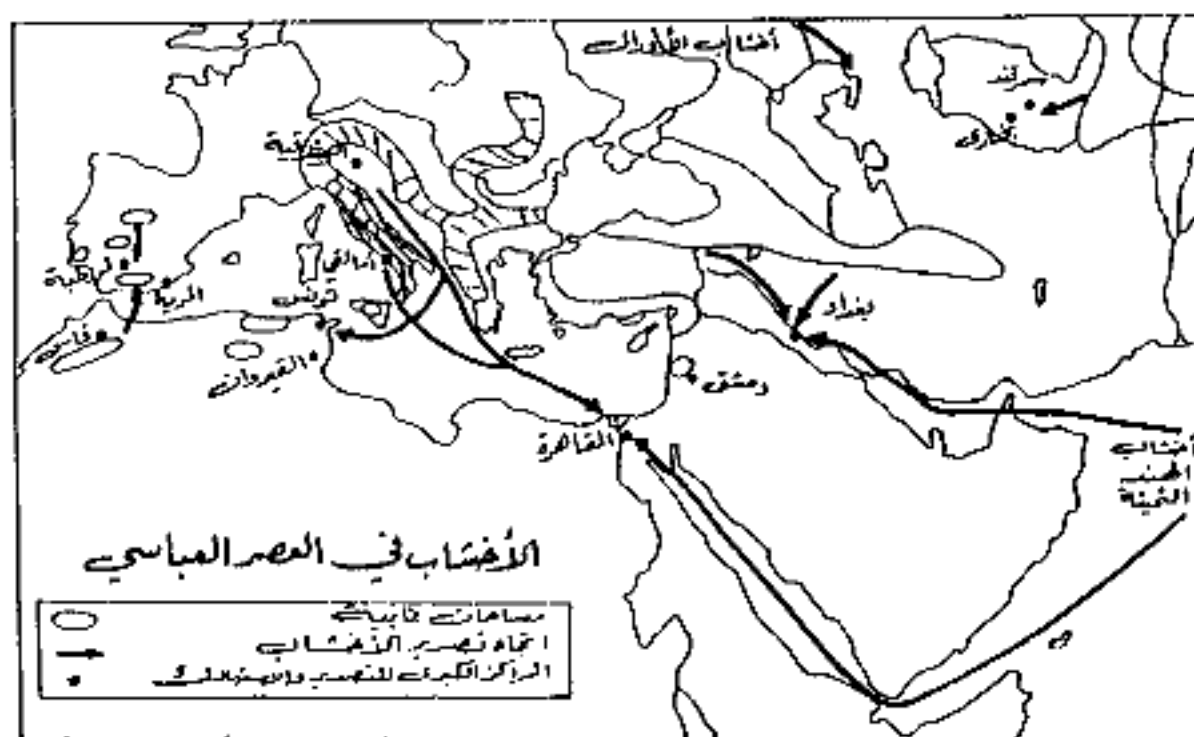
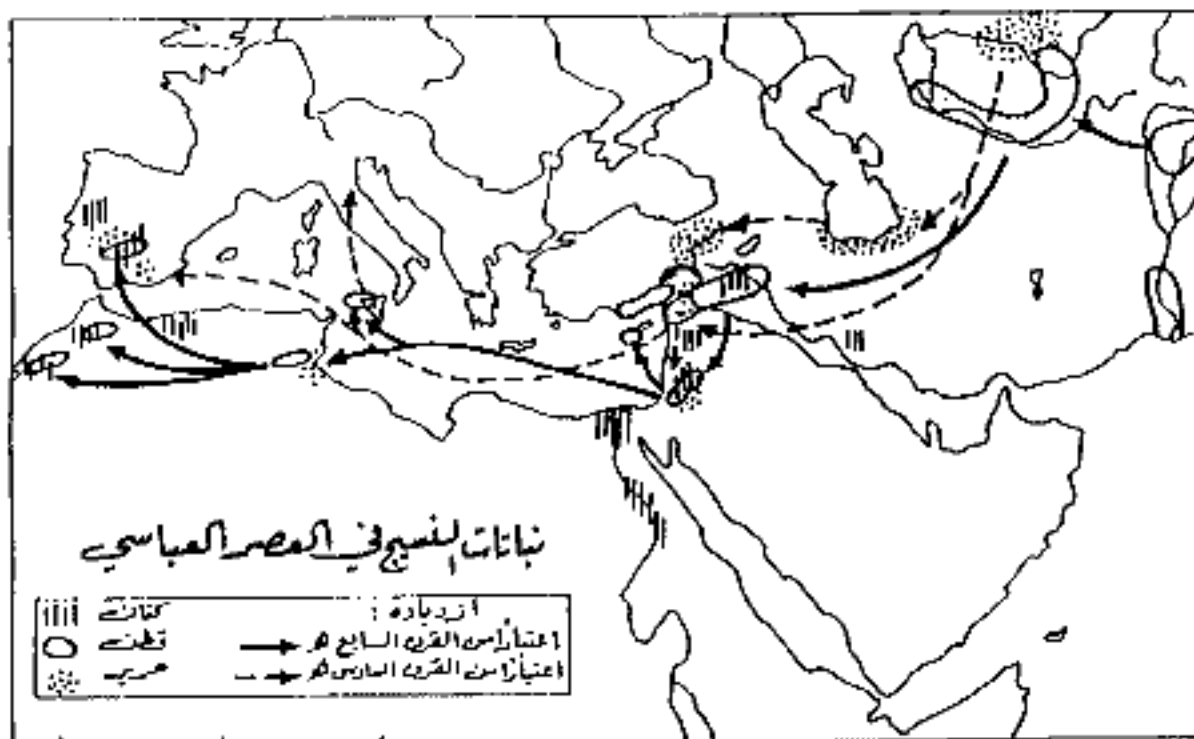
(١) المقدسي ص ١٢٨ ثم ص ١٤٥ - ١٤٦ .

آسيا الصغرى وأفريقية ولكنهم حين انهار هذا الجدار اتجهوا الى منطقة ما بين النهرين القريبة أيضا لا سيما حين صارت دمشق عاصمة الاسلام كله . لكن هذا التكامل لم يتم دون صدامات ما لبثت ، حين اختار العباسيون بغداد ، أن تحولت الى الشام .

وقد اشتهرت مدن الشام بصناعاتها من الزجاج والخزف وعطر الورد وبعض الأسلحة والورق والحريير والنسيج . وكان بعض هذه الصناعات يجد طريقه إلى أنحاء الأرض الإسلامية . أما رافىء الشام عسقلان . عكا - صور طرابلس (ثم اللاذقية والإسكندرية على الضعف) فكانت مصبات التجارة العالمية المارة من الشام والقادمة من الخليج أو عن طريق البر من الصين وإيران وكان أهمها في العهد الأموي مرفأ عكا ثم صار ينافس مرفأ طرابلس أيام العباسيين ثم برز مرفأ صور أيضا خلال العهد الفاطمي . وكانت هذه المرفأء محروسا بعضها بالسلاسل لأنها كانت أيضا مراكز الأساطيل الحربية . وحين جاء الصليبيون اهتموا باحتلال الساحل لرغبتهم في ابقاء الاتصال دائما مع أوروبا عبر البحر ولاصرارهم في الوقت نفسه لصالح تجارهم في إيطاليا واسبانيا وغيرها . بدليل محاولاتهم المستميتة للسيطرة على مصر . وقد نجحت محاولاتهم في النهاية على الأقل في تحويل مرفأء الشام ومصر في العهد المملوكي إلى العيش على تجارة المرور (الترانزيت) .

«والتجارات (المحلية) بهذا الإقليم مفيدة . يرتفع (يصدر) من فلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والقوط . ومن بيت المقدس الجبن والقطين والزبيب والتفاح وقضم قريش الذي لا نظير له . والمرايا وقدور القناديل والإبر . ومن اريحا نيل غاية (في الجودة) ومن صفر وبيسان النيل والتمور ، ومن عسماًن الخبوب والخرفان والعسل ، ومن طبرية شقاق المطارح والكاغد والبز . ومن قدس (وهي في شمال الغور) ثياب

المنيرة والبليسية والحبال، ومن صور السكر والخرز والزجاج المخروط  
 والمعمولات. ومن مؤاب قلوب اللوز، ومن بيسان الرز، ومن دمشق  
 المعصور والبليسي وديباج ودهن بتفسج دون. والصفريات والكاغد والجوز



نباتات النسيج، وتوزيع مراكز الأخشاب في العصر العباسي

والقطين والزبيب . ومن حلب القطن والثياب والأشنان والمغرة . ومن بعلبك  
الملاين ، ولا نظير لقطين وزيت الانفاق . وحواري وميازر الرملة . ولا لمعنة  
وقضم قريش . وعينوني ودوري وترياق ومسبح بيت القدس . . . »<sup>(١)</sup> .

في مدن المنطقة الإيرانية . توغل العرب بعد الفتح في ايران لا  
كمحتلين فاتحين ولكن كجماعات تريد الاستقرار والسكن وإقامت وحداتهم  
العسكرية في البدء ، في احياء سكنية بنوها بجانب المدن القديمة فما لبثت أن  
أصبحت مدنها لها جامعها وسوقها وقلعتها . وبهذا الشكل قامت تجمعات  
سكنية مزدوجة الأصل تشتمل على المدينة الإيرانية القديمة بأبوابها وبجانبها  
الضاحية الجديدة للعرب في الرض . وكانت توأمة هذه المدن واضحة في  
خراسان وما وراء النهر ما بين نيسابور ومرو إلى نجارى وسمرقند . ولم يكن  
الاندماج سهلا فقد بقيت بعض المدن كبلخ القديمة مثلا على مسافة بضعة  
كيلومترات من المدينة الجديدة برقان . ولم يبدأ الدمج الكامل إلا منذ القرن  
الخامس ودخول السلاجقة فقد سيطر الطابع الإيراني لغة وثقافة (بعد  
الفردوسي) وأنظمة (مع السلاجقة) وبدأ اندماج مركزي المدينة فأصبحت  
المدن القديمة مركز الحكومة والإدارة وفيها قصر الحاكم والدواوين والأسواق  
والمسجد الجامع<sup>(٢)</sup> . لكن ذلك كان بدء نهاية العلاقة بين مدن إيران ومدن  
الشام ومصر وخاصة بعد الفتح المغولي للعراق الذي أعاد هذه المنطقة إلى  
التوجه نحو الشرق دون الغرب .

وبلاد إيران وما وراء النهر واسعة متنوعة فيها الصحراء وفيها المناطق  
الغنية . ولقد كانت معظم المدن الحصبة فيها تحاط بالأسوار بعد الأسوار .  
وضواحيها (الرساتيق) قد جرى تعهدها منذ العهد الساساني بعدد من

(١) المقدسي ص ١٨٠ - ١٨١ .

(٢) لومبارد : المصدر السابق ص ٤٠ .

مشاريع الري استمرت الإدارة الإسلامية على رعايتها والتوسع فيها . وكانت ثلاث ممرات تفتح في جبال زاغروس . ما بين العراق وإيران عبر أرمينيا في الشمال عبر أعالي دجلة ويصل ما بين أذربيجان والموصل . والثاني عبر وادي دياره وهو الرئيسي بين بغداد وهمدان . والثالث يعبر الأحواز (خوزستان) إلى بلاد فارس على الخليج . وكانت ممرات للفاتحين من جهة وللثقافة والدين من جهة أخرى ، وأهم من ذلك للتجارة والقوافل من جهة ثالثة وحين تفتح إيران بعد هذه الممرات فتميز فيها عددا من المناطق :

أ - أذربيجان : ولقد لعبت مدنها دورا هاما وأساسيا في مرور البضائع القادمة من الصين إلى طرابزون البيزنطية على البحر الأسود . وكانت بردعة في شمال أذربيجان موقع دفاع ضد هجمات الخزر عبر باب الأبواب من الشمال ، ولهذا كان لأسوارها مداخل ذات مفاصل من الرصاص المصهور . وفي هذا الإقليم صناعات و«تجارات» . يحمل من بردعة الأبريسم الكبير ، ومن باب الأبواب ثياب الكتان والرقيق والزعفران والبغال الجياد ، ومن ديبل ثياب الصوف والبسيط والسوسائد والأنماط والتكك الرفيعة ، ومن بردعة الستور ويقع إليه البغال الجياد . ويقوم ببردعة يوم الأحد سوق يسمى الكركي يجتمع إليه أهل الكورة والنواحي حتى أن أحدهم يقول : يوم السبت ويوم الكركي (الأحد) ويوم الاثنين يباع فيه الأبريسم والثياب ولا نظير لتككهم وحفورياتهم وقرمزهم وأنماطهم وصبغهم ، وفاكهة تسمى الزوقال وقسبوية وسمك يقال له الطريخ ولهم تين وشاه ويلوط في غاية الجودة<sup>(١)</sup> .

ب - طبرستان : وهي التي تشمل جبال البورز جنوبي بحر قزوين وكانت جبالها العصبية سببا في ابقاء نظامها القديم وملوكها فيها حتى العصر

(١) المقدسي ص ٣٨٠ .

العباسي، ثم كانت سببا في هرب بعض العلويين إليها وإقامة دولة «علوية» لم تدم طويلا وإن تركت آثارها واضحة .

وفي هذه الجبال واحات تشكل مدنا متصلة بعضها ببعض من الغرب إلى الشرق : رانجان - قزوين - الري - دامغان - بسطام والري أعظمها شأنًا . وكانت محطة القوافل بين بغداد وخراسان وفارس ولم تفقد مكانتها إلا منذ ظهرت طهران بجانبها في القرن الثالث عشر أيام الغزو المغولي . وكان للري في العهد العباسي شأن هام أكده ابن خردازبه (في القرن التاسع) سواء من الناحية العسكرية أو الإدارية أم الإقتصادية . وكان التجار السلاف (الروس) والإسكاندنافيون يقدمون إليها ببضائعهم من العبيد والسيوف والفراء . وقادوا أحيانا بعض الحملات الغازية ضد أذربيجان وبردعة (كما في سنة ٩١٣ / ٩٤٤) . وتجارة طبرستان تمشي على طولها من الشرق إلى الغرب أما بين الشمال والجنوب فليس لها سوى مرفأ أمل على بحر قزوين بسبب شدة عمق سواحلها .

«ولأهل جرحان في شرقي طبرستان المقانع القزيات تحمل إلى اليمن - والعباب - وله ديباج دون - وتين وزيتون - ومن طبرستان الإكسية التي تفضل على الفارسية وطيبالسته وثياب الخيش المحمولة إلى الأفاق ويباع منها يمكة شيء كثير . صغار الدراهم وكبار تسمى بالمغرب المكية واللفائق . ومن (بيار) بز وسمن كثير . ولهم خاصية في عمل الطين حتى لا تری رئيسا ولا عالما إلا وله فيه حذق . . .» .

«وتجاراتهم مفيدة يحمل من الري البرود والمنيرات والقطن والقصاع والمسال والأمشاط . ومن قزوين الأكسية والجوارب والقسي . ومن قم الكراسي واللجم والركب وبز وزعفران كثير . ومن همذان ونواحيها البز والزعفران والثعالب والسمور والخفاف والأجبان ، ومن (سر) الطيبالسة



الرفيفة والأكسية الحسنة . ومن خصائصهم بطيخ الري وخوخها وحلل  
اصفهان وأقفاها وألبانها وقماقم قاشان وطلخونها وجب الدينور وترذرع  
قزوين وقسيها . . « وبه معادن برستاق قستان ، وبالتميرة الصغيرة والكبرى  
معادن فضة وذهب . وبه قان معدن موميا وبساعند زاج جيد يقارب المصري  
وجبل الكحل بكروة اصفهان . . »<sup>(١)</sup> .

ج - منطقة الجبال (الديلم) : وتقوم ما بين اذربيجان وطبرستان إلى  
الغرب . وهي كثيرة الغابات وكانت دوما «مخزنا» للرجال وللعبيد وللمرتزقة .  
وفيهما قامت أخطر الثورات على العباسيين ومنها جاءت أخيرا جيوش البويهيين  
الديلمة الذي احتلوا الحكم في بغداد أكثر من قرن ونيف . بعد أن فهموا  
الإسلام عن طريق التشيع ومزجوا به الكثير من ثقافتهم القديمة .

تزرع المنطقة منذ أواخر العهد الساساني الرز والقطن وقصب السكر  
والتوت (لترية دود القز) ثم أضافت إليها في العهد الإسلامي الحمضيات .  
وهكذا أعطى غناها دفعة جديدة لحركة التمدين فيها ولظهور مدن جديدة .  
وعن طريقها ، ف يالقرن السادس الميلادي عرفت الشام تربية دود القز  
ونشره بعد الإسلام في حوض البحر المتوسط .

واقليم الديلم هذا «إقليم القز والصوف . به صناع حذاق وفواكه  
تحمل إلى الآفاق وبزه معروف في مصر والعراق» . . . وأكثر ما يحمل من هذا  
الإقليم خصائص : إما قومس فلها المناديل البيض من القطن المعلمة صغار  
وكبار وسواذج ومحشاه ربما يبلغ المنديل منها ألفي درهم . ولهم أيضا أكسية  
وطيالة وثياب رقاق من الصوف<sup>(٢)</sup> .

(١) المقدسي ص ٣٦٧ ثم ص ٣٩٥ - ٣٩٧ .

(٢) المقدسي ص ٣٥٣ ، ٣٦٧ .

د - خراسان : منطقة جبال وهضاب بين ثناياها تقوم السهول والمدن . وكانت على الدوام رغم ذلك ممر الغزاة الترك والمغول إلى العالم الإسلامي . والمدن الواحات التي تمتد عند أقدام الجبال يزرع من حولها الحبوب خاصة القطن والرز . ومدنها الغربية : نيسابور وطوس (مشهد التي توفي فيها هارون الرشيد) اهراء ايران الشرقية . وكان فيها أيضا من المدن الهامة : بلخ ومرو وهراة . وتتميز بلخ بأنها الممر إلى الهند فإلى جنوبها الممرات التي كان يسلكها المبشرون بالبوذية والمسيحية . وتجمع بين عوالم ثلاثة : البوذية والنصرانية والزارادشقية . ومن هناك كان برمك جد الأسرة البرمكية التي أدخلت إلى بغداد الورق نقلا عن سمرقند سنة ١٧٧ / ٨٩٤ فانتشر إلى الشام ثم إلى مصر سنة ١٧٨ وخنق صناعة البردي فيها بعد طول شهرة وبقاء .

«وترتفع (تصدر) من نيسابور ثياب البيض الحفية والبيفاف والعائم الشهنجانية . . . والمقانع . والملاحم بالقز والعتاب . . . والحلل وثياب العر والغزل المرتفع والحديد وغير ذلك . ومن نسا وبيورد القز وثيابه والسَّمسم ودهنة والياب . ومن نسا ثياب البنبوذية وفراء الثعالب والبزاة . ومن طوس البرام الفائقة والحصر والحبوب ، ومن هراة البز الكثير وديباج دون ، والزبيب الطائفي والبولاد والفسقن وأكثر حلاوات خراسان ، ومن مرو الملاحم ومقانع القز والابريسم والقطن والبقر والجبن والشيرج والنحاس ، ومن سرخس الحبوب والجمال ، ومن سجستان التمور والزناييل والجبال من الليف والحصر . ويرتفع من قوهستان ثياب بيض تشبه النيسابورية وبسط ومصليات حسنة . ومن بلخ الصابون والسَّمسم والأرز والجوز واللوز والزبيب والعنجد والسمن وعسل الشمسي من الغناب والتين .

والزجاج والكبريت والرصاص والزرنيخ . . . والأدهان والجلود ومن غرج الشار الذهب واللبود والبسط الحسان والحقائب وما في معناها والخيل

الجيدة. ومن ترمذ الصابون والحلثيث ومن ولوالج السمس ودهنه والجوز واللوز والفسق والأرز والحمص... والسمن والقرون وجلود الثعالب<sup>(١)</sup>...

وكان خط التجارة العالمي البري القادم من الصين يأتي عن طريق الشمال عبر ما وراء النهر إلى سمرقند وبخاري. ومنها إلى مرو ثم طوس. وهو طريق الحرير. وقبل أن يصل إلى هذه المدينة يلتقي مع الطريق القادمة من الجنوب عبر ممر زنجاريا على أطراف هضبة التيب إلى كابل والباميان ثم بلخ، ثم مرو الروذالي طوس. وتسير القوافل بعد ذلك إلى نيسابور ثم الدامغان ثم الري ثم همدان حيث تتفرع فقسم إلى بغداد عبر ممر ديالي وواديه وفرع يمشي شمالا إلى زنجان ثم تبريز ثم إلى طرايزون على البحر الأسود. وكان المرفأ الاجباري الذي فرض فيه البيزنطيون تجارة المشرق. وكان دور مدينة مرو يشبه إلى حد ما دور تدمر في تجارة المرور والنقل. كما كانت نيسابور من جهة وتبريز من الجهة الأخرى بوابتي الشرق والغرب. وقد ازداد شأن تبريز التجاري على حساب بغداد منذ انحطت العاصمة اعتبارا من القرن الخامس / ١١ م ودخلها السلاجقة. وقد هدم المغول تبريز مع ما هدموا فحلت طوس (مشهد) محلها وفيها قبر الإمام علي الرضا (الإمام التاسع) كما أن فيها مناجم معدنية هامة من الفضة والرصاص خاصة، مونت العالم الإسلامي بهذين المعدنين.

وإلى الجنوب من هراة المدينة التجارية الكبيرة جدا والتي يلتقي قريبا طريق سجستان وعاصمتها زرنج، مع طريق قندهار وغرنة الموصل إلى السند عبر جبال هندكوش، تقوم مناجم معدنية نشطة أهمها هذه المرة الحديد

(١) المقدسي: ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

الذي يعالج في هراة، على الطريق الهندية في صهر الفولاذ، ويعطي شكل سبائك وأسلحة معدة للتصدير .

هـ - ما وراء النهر (عقدة طرق آسيا الوسطى) تشكل هذه المنطقة المحصورة بين نهري سيحون وجيحون مجمع طرقات نجمية الشكل تتفرع في جميع الاتجاهات نحو الصين والهند وإيران وتركستان . وقد كانت مدنها بخارى سمرقند وطشقند، وفرغانة، وكشغر، وطلس، والشاش، واخسكيث مركز لقاء هذه الطرق بالإضافة إلى أنها واحات شديدة الخصب والخيرات . ولهذا فقد حققت تقدما كبيرا منذ دخول الإسلام إليها بانفتاحها على الأسواق الاستهلاكية الإسلامية في الجنوب الغربي وعلى الأسواق البدوية التركية في الشمال والشرق بالإضافة إلى قصد التجار لها على طول طريق الحرير وإقامتهم في مدنها .

وبسبب غنى هذه المدن - الواحات فقد أقيمت حولها وحول أرباضها الأسواق الواسعة جدا - كما في الصين - خوفا من الغارات البدوية كما هو ظاهر في بخارى خاصة وسمرقند ودريند وذلك منذ العصر الساساني . ولكنها لم تكن مجدية فعمد العرب المسلمون إلى طريقة أخرى هي بناء الأربطة والحصون فهناك الآلاف منها في مناطق التخوم مع الترك وهي نقاط هجوم ودفاع ونشر للدعوة الإسلامية في وقت معا .

وكانت المنطقة متوسطة بين أربعة تيارات متفاوتة القوة: الصيني ووسيلته التقنيات (التي منها الورق والحرير والخزف) والتركي (وسبيله اللغة) والهندي (ووسيلته البوذية والفن) والعربي وواسطته الدين . وقد كسب المسلمون معركة طلس سنة ١٣٤/ ٨٥٢ فكسبوا بذلك المنطقة كلها .

وعن طريق ما وراء النهر بدأ تسرب الترك إلى العالم الإسلامي ، عبيدا أول الأمر منذ العهد الأموي ثم مرتزقة وأخيرا غزاة بعد أن أسلم منهم الغز

أيام السلاجقة ولكنهم حملوا الطابع الإيراني مع الإسلام . وكانت الدفعة التي دفعت السلاجقة إلى غزو خراسان ثم العالم الإسلامي هي نفسها التي دفعت قبائل القفجاق إلى جنوب روسيا ليطردوا منها قبائل البشناق إلى البلقان .

أما التجارات المحلية والصناعات «فيرتفع (يصدر) من بخارى الثياب الرخوة والمصليات والبسط وثياب الفرش الفندقية وصفرة المناير . (ونسيج) الطبري وحزم الخيل تنسج في المحابس وثياب أشموني والشحم وجلود الضأن ودهن الراس . ومن كرمينية ، المناديل . ومن دبوسية ووذار ثياب الوذارية وهي ثياب على لون المصمت ، وسمعت بعض السلاطين يميها ديباج خراسان . ومن رينجن أزر الشتاء من اللبود الحمر ومصليات وطاسات . . . والجلود وحرير القنب والكبريت .

ومن خوارزم السمور والسنجاب وماقون وفنك والثعالب (وكلها من أنواع الفراء) والشمع والنشاب والتوز والقلائس وغراء السمك وأسنان السمك وخرميان (الحلوى) والكيمخت والعسل والبندق . . . والسيوف والدروع والخلنج والرقيق من الصقالبة والأغنام والبقر . كل هذا من بلغار . ويرتفع منها عنب وزبيب كثير وملابن وسمسم وبرود وفروش وثياب اللحف وديباج بيشكش ومقانع ملحم وأقفال وثياب آرنج والقش التي لا يقوى على مغط القوس إلا أشد الرجال . والسمك والسفن . ومن ترمذ أيضا . ويحمل من سمرقند ثياب سيمكون والسمرقندية ، والقذور العظيمة من النحاس والقماقم والأخبية والركب . . . وسيور . ومن درك اللبود الجياد والأخبية ، ومن بناكث ثياب تركستان . ومن الشاش سروج الكيمخت الرفيعة والجعاب والأجبية وجلود تجلب من الترك وتدبغ . والأزر والمصليات والبنبيقات والبزر والقسي الجيدة وأبر دون . والقطن يحمل إلى الترك والمقاريض . ومن سمرقند أيضا ديباج يحمل إلى الترك وثياب حمر تسمى ممرجل ، وقز كثير وثياب

والبندق والجوز. ومن طوس التلك الحسنة والأبراد الجيدة، ومن فرغانة واسبيجاب الرقيق من الأتراك مع الثياب البيض والآلات السلاح والسيوف والنحاس والحديد. . . والفضة. ومن تركستان إلى هذه المواضع مخرج (أي يستورد) الخيل والبغال وكذلك من الختل. ولا نظير لريواج وطراز وطين وكماة وشهجانى وير وسكاكين نيسابور، ولا للملابن وبطيخ مرو الكبير. وعند كل من لم يدخل الرملة أنه ليس في الدنيا مثل خبزهم ولا نظير له في إقليم الأعاجم. ولا ترى مثل هريستهم، ولا نظير للحمان بخارى وجنس بطيخ لهم يسمى الساف. ولا لقسى خوارزم وغضائر الشاش وكاغد سمرقند وباذنجان نسا وأعتاب هراة».

«وبه معادن كثيرة بنيسابور. في رستاق ريوند معدن (منجم) الفيروزج وبرستاق. . . معدن السبج، وبرستاق يبهق معدن رخام. وبطوس البارم. وبزوزن طين الأكل وبرستاق. . . طين الختم والكتابة، ومعادن الفضة بروان، وبنجهير وشلجى وهو جبل يمد إلى فرغانة. والنوشادر وفضة وذهب من بارمان، وذو الغار من كورة ايلاق وهو ما يتصاعد من دخان الفضة. . . والزيق عين تفور قرب قبا وليست بمعدن. . . وبواشجرد زعفران جيد وبقواذيان فوة. وفي هذا الجانب نפט وفيروزج لا يمكن منه وبه قيروزفت. . .»<sup>(١)</sup>.

و— مدن سجستان ومكران وكرمان: سجستان قسمان: فشرقها سفوح جبال الهندكوش التي تمر بها الطرق من الهند إلى ما وراء النهر وغربها واحة صحراوية واسعة يموت فيها نهر هلموند، وتشكل منطقة خصبة جد الخصب للزرع وتربية الجاموس وكانت زرنج عاصمتها مزدهرة حتى غزاها تيمورلنك سنة ١٣٨٤/٧٨٦ وخرب شبكة الري فيها تفلح بعده أبدا

(١) المقدسي ص ٣٣٤ - ٣٣٦.

لحاجتها إلى عمل جماعي منتظم ومتصل في الري . ومكران في غربها صعبة المسالك فيها مصائد الصيد الصغيرة والواحات الشاطئية على المحيط الهندي التي تنبت النخيل والقطن وكانت محطات انتقال قصب السكر من الهند إلى ما بين النهرين . وفي غربها تمتد هضاب كرمان التي تنتثر على شواطئها الجزر ومقابلة لعمان في جزيرة العرب وتمتد على شواطئها واحات النخيل والرز والحناء والنيلة . وكان في واحدة طبس منها مائة ألف نخلة . وكان في جبال كرمان مناجم معدنية على السفوح لاستخراج الحديد وصنعه وللرصاص والنحاس . أما الفحم الضروري لمعالجة وإنتاج الفولاذ الهندي فكانت تقدمه أرومات شجر الطرفة كما هي الحال في هرات وتصنع منه الأسلحة . كما كان في كرمان مراكز نسيج من صوف الأغنام وشعر الماعز تطبع الرسوم عليها بالخشب المنقوش كما في الهند والصين وكما في المراكز الكبرى المجاورة في فارس<sup>(١)</sup> .

«والتجارات مفيدة (هناك) . من عندهم تحمل ثمر خراسان ونيل فارس ومزارعة من حدود فارس إلى مدينة ولا شجر إلى هرموز . ويحمل من (بم) العمائم والمناديل والطبالسة والثياب الرفيعة . . . ويعمل بالسيرجان من هذا البز شيء كثير ويعمل بها ما يعمل بقم من الكراسي وما يجري مجراها ولا تكون على حسنها وترفع من نواحي (جيرفات) النيل الكثير والكمون . . . والغالب على طعام أهل هذه الكورة الذرة والتمر . ومن خصائصهم التوتياء المرابي (لأنهم يصبونه في قوالب على شكل المرابيب في أصابع من الخزف) ويصفونه كما يصفى الحديد . . . ثم لا ترى أحلى من تمرهم . . . ولا نظير لثمانية أجناس من التمور (عندهم) . . . ولديهم معادن حديد وفضة . . .»<sup>(٢)</sup> .

(١) لومبارد، المصدر السابق ص ٥٠ .

(٢) المقدسي ص ٤٧٠ .

وأهم ما في إقليم كرمان دون شك مرافؤه التي تطل على المحيط الهندي والخليج العربي. فهناك في الجنوب جزيرة قيس (كيش) المرسى الكبير للخليج الذي حل، منذ القرن الخامس/ ١١ م محل ميناء سيراف في شماله بعد أن دمرته هزات أرضية مخيفة. وتنطلق من هرمز المقابلة لقيس طرقات شتى نحو داخل البلاد إلى شيراز وفارس وكرمان وما وراء طبرستان ونيسابور إلى زرنج وهراة وبلخ. وكان القرن الخامس هو عصرها الذهبي تتنافس فيه حتى في القرن السادس أشد المنافسة مع عدن حتى قادت عليها هجوما بحريا فاشلا سنة ١١٣٥/٥٣٠. وكانت من أعمر بلاد فارس وأكثرها ازدهاما بالسكان ويبلغون ١٥ ألف نسمة ومعظمهم من أصل عربي.

ز - مدن فارس والأحواز: تأتي فارس في نهايات جبال زاغروس في الجنوب. قمم وهضاب وأودية سحيقة تتوزع فيها المدن كشيراز وفيروز آباد وموانئ على الخليج العربي ترتبط ارتباطا سيئا بالداخل مثل سيراف وجنابة إلى الشمال منها.

والمنطقة ذات حضارة قديمة طبعت إيران كلها بطابعها الساساني الفارسي. وكان ميناء سيراف في القرن الرابع الهجري/ ١٠ م أهم موانئ العالم بعد أن حل محل البصرة في تلقي بضائع الهند والصين وفي بناء السفن التجارية الضخمة من خشب الساج (التيك) التي تمد أساطيل المدن العربية الأخرى حتى مصر، وفي علاقاته مع الداخل لمستودع البضائع ما بين النهرين والهند. فهي دهليز الصين بعد أن لعبت الإضطرابات السياسية والاقتصادية دورها في إضعاف مجموعة رأس الخليج: البصرة، الأبله، عبادان. فانتقلت التجارات أولا إلى: جنابة ثم سيراف التي ازدهرت حتى كان تاجرها يبني بيته بأكثر من مائة ألف درهم مع أنها لا زرع ولا ضرع وليس فيها ربح ولا حولها رستاق. وكلها من خشب الساج والأجر. ثم زلزلت سنة ٣٦٦ أو سنة ٣٦٧ زلزلة شديدة فتهجرها أهلها إلى هرمز. واتفق ذلك مع نهاية نفوذ



البويهيين وبروز قوة ركن الدولة خمارتكين أمير جزيرة كيش . وكانت بضاعتها الأساسية ما يحمل إليها من العدد والعنبر والجواهر والخيزران والعاج والأبنوس والفلقل والصندل وسائر الطيب والأدوية والتوابل التي يكثر تفصيلها إلى جميع فارس والدنيا كلها . . . وسيراف كانت فرصة لهذه المواضع «كلها»<sup>(١)</sup> . وبهذه التجارات تضخمت ثروات السيرافيين وقد جاء بعضهم من خانقو ببضاعة ثمنها نصف مليون دينار وبلغت ثروة بعض التجار أربعة ملايين دينار وأورد الأصبخري أن من أهل سيراف من يجوز له على ستين مليون درهم لم يكتسبها إلا من تجارة البحر<sup>(٢)</sup> .

وأما الواحات الداخلية الخصبة مثل شيراز وفيروز آباد (جور) وجي واصطخر وبوان وغيرها فكانت تمنح المرء مشاهدة فردوسية فتنت الشعراء (وأولهم سعدي الشيرازي صاحب كلستان في القرن السابع / ١٣م) . كروم وورود وخمور اشتهرت بخمر شيراز وفيها واحد من أهم ثلاثة مراكز للنسيج بالإبر الموشى بالحجارة واللؤلؤ . ويصنع فيها القماش الدابقي (المشبه للمصري) والسجاد الأرمني . وكان حول شيراز عدد من المراكز في دار أبيجرد وجور التي تنتج النسيج كما تنتج عطر الورد (الجوري) للتصدير العالمي .

والإنتاج مع التجارة الداخلية واسعان «ويرتفع (يصدر) من ارجان الدبس الفائق والصابون الجيد والتين والزيت . والفوط وثياب الكندكية والبريهار ومن مهربان الأسماك والتمور والقرب الجياد . ومن سينيز ثياب تشاكل القصب، وربما حمل اليهم الكتان من مصر وأكثر ما يعمل اليوم من

(١) الاصبخري ص ٩٢ .

(٢) الاصبخري ص ٨٣ و ص ٩٢ - ٩٣ وانظر : Hegd: His. alu Commerce, vol. 1, p. 165

الذي يزرع عندهم . ومن سيراف الفوط واللؤلؤ وازر الكتان والموازين والبريهار . ومن دار بجرذ كل شيء نفيس من الثياب المرتفعة والوسط والدون . وما يشاكل الطبرستانس وحصر تشبه العباداني ، والبسط الجيدة ، . وستور سوزنجرذ والپرز الكثير والتمر . . . والزنبق الطيب ومن فرج الثياب والبسط والستور والديبس الجيد والبزر والكتان . ومن تارم الدوشاب والتمور والقرب والسطائح والدلاء الحسان ؛ والمراوح الكبيرة ، ومن جهرم البسط والستور والاثماط المحكمة ومن شيراز الأكسية البركانات لا موضع لها غيره ، والمنيرات التي لا شبه لها في الكد مع رقة وحسن . والابراد الجياد ويعمل به خز وديباج وقصب وحلل . ومن رفسا ثياب القز تحمل الى الافاق واكسية حسان رفاق واثماط وبسط وفوط ومنيرات تشاكل الاصبهانية . والسوشي والستور المثمنة والفروش الرفيعة والستور الابريسمية والعصفر والموائد والحزكاهات ومناديل الشرايية وغير ذلك ، ويعمل بسابور عشرة ادهان (من العطور) وفواكه كثيرة وجوز وزيت واترنج وقصب سكر والصفصاف . وتحمل الادهان الى البعد والفواكه الى المصر . ومن كازرون ثياب القصب وكذلك من توز وديز وتلك النواحي وديقي ومناديل مخملة تحمل الى الافاق الثمانية . وبينها وبين الشطوية بون عظيم . ومن جور وكول الماورد الذي لا نظير له وثياب كثيرة . ومن اصطخر الأرز والمأكولات ، ومن الروذان ثياب تشاكل البمي واديم اجود من الاطرابلس والقرب والشمشكان . ولا نظير بشيراز للاجاص العمري . . . ومن دار ابجرذ ملح الطيرزد والنفطي وجميع الالوان وفي نهرهم سمك لا عظم له . . . ويجبال نيريز حجر المغنيسيا وينت بها زعفران وبه معادن الموميائي بدار ابجرذ وبارجان ايضا موضع آخر وبنيريز معادن حديد وطين ابيض يكتب به الصبيان الواحهم وطين اسود للختم . . . » (١) .

(١) المقدسي ص ٤٤٢ - ٤٤٣ .

«وتجارات (الاحواز الداخلية) مفيدة لأن كل سكر تراه ببلدان  
الاعاجم والعراق واليمن فمن ثم يحمل . ويرتفع من تستر الديقاح الحسن  
والأنماط وثياب مروية حسنة وفواكه كثيرة . ومن السوس السكر الكثير وبزوا  
الحزوز ومن العسكر (عسكر مكرم غلام الحجاج) مقانع القز تحمل الى  
بغداد، وبز جيد له بقاء وثياب القنب والمناديل وغير ذلك مما يرتفق به اهل  
الاهواز، وستور بصنا وأنماط قرقوب معروفة وتعمل بنواحي واسط ستور  
يكتب عليها مما عمل ببصنا وتخرج خروجها وليست مثلها . ويعمل بالاهواز  
فوط من القز حسنة تلبسها النساء ويعمل بنهر تيري أزر كبار . ولهم  
خصائص : ليس مثل جند يسابور وحلوا الاقليم . وخز السوس غير العمائم  
لأن سكب الكوفة لا نظير له . وسكر العنب . وببصنا الانماط والستور  
الجيدة . . . وقصب السوس ورطب نهر تيري في غاية الجودة . . .»<sup>(١)</sup>

٥ - في مدن مصر : كانت مصر على الدوام واديا زراعيها يحتاج الى الخدمات  
الجماعية والتنظيم الدقيق في الري والتعبئة المستمرة لحفظ هذا التنظيم . وكان  
الكتان والحبوب قبل الاسلام اهم منتجاتها قبل أن يدخل قصب السكر في  
العهد الاسلامي ثم القطن من الشام ليصبحا من المنتجات الاساسية بعد  
القرن الثالث الهجري / ٩م .

وكشافة هذا الوادي الممدود في السكان غير عادية . انه «شارع في  
مدينة» كما وصفه بعض الزائرين . وعلى ضفتي الوادي شريط طويل من  
المدن الكبيرة والصغيرة . وتكاثرت المدن في العهد الإسلامي دون انقطاع .  
حتى اكتظمت مدن قوص وقفت وأسوان (التي بلغت ١٠٠ ألف نسمة  
تقريبا)<sup>(٢)</sup> في الوقت الذي كانت فيه مدن رأس الدلتا (الفسطاط والعسكر

(١) المقدسي ص ٤١٦ - ٤١٧ .

(٢) لومبارد ص ٢٨ ، المصدر السابق .

والقطائع والقاهرة) تتضخم وتصبح مدينة كبرى . وكان الأسطول النهري النيلي وسيلة المواصلات الهامة في الوادي . فكانوا يستوردون الخشب بكميات هائلة لبنائه ولبناء الأسطول البحري في الإسكندرية والقلم . وقد قامت في الفترة الإسلامية ، وتحت طلب الخلفاء الأمويين والعباسيين على السواء ثم الفاطميين والأيوبيين ، ستة مراكز أخرى لبناء السفن ثلاثة في الفسطاط (المقس في الشمال والفسطاط وجزيرة الروضة) وواحد في دمياط وآخر في رشيد ومادس في الصالحية (على الفرع الدمياطي لليل).

لهذا كان الجوع إلى الخشب الذي يستورد من لبنان ومن بيزنطة (جنوب آسيا الصغرى) ومن البلاد الأوروبية مع الفرنجة بالإضافة إلى خشب الساج من الهند أكثر ما يرهق مصر لاسيما وأنه كان يستخدم للوقود في الصناعات : كالزجاج والخزف ومراجل عصير قصب السكر . وقد أحصت السلطات دون انقطاع جذور الأشجار وما يفيد السفن من الخشب وظلت تستورده ولو تهربيا حين حظر البابا على الفرنجة تصديره أيام العهد الصليبي .

ولم يكن في مصر حديد أيضا فكانت تلجأ في تسليحها إلى الاستيراد من سيوف الهند والشام وسيوف الفرنجة . ولما كان الحديد والخشب جوهرين لكل حضارة مدنية فإن مصر استعاضت بغناها الزراعي وبما يصب فيها من الذهب الأفريقي ، وما يظهر من كنوز الفراعنة فيها لتعويض النقص . وفيما بين العهد البيزنطي والحقبة الإسلامية لم يحدث أبدا أي انقطاع أو فجوة في استمرارية المدن الموجودة أو المشاغل والمصانع الحرفية الصغيرة أو الفنون في منطقتي البرازخ أو إيران<sup>(٢)</sup> . واستمر الانتاج الزراعي ذو الأهمية العالمية هو السند الأساسي لاقتصاد مصر . ومنه القمح والكتان

(١) لومبارد ص ٦٥ - المصدر السابق .

والبردى (الذي فقد أهميته منذ أوائل القرن الثالث وحل محله الورق) ثم قصب السكر والقطن بالإضافة إلى الذهب المجلوب و (ذهب المطالب) الفرعونية الذي استخرج وطرح في التداول النقدي ليساهم في سك الدينار المصرية التي كان واحدها يعادل في مطالع القرن الخامس أيام الفاطميين، ثلاثة دنانير ونصف الدينار من دنانير نيسابور.

وقد لعبت مصر دورا أساسيا في التجارة العالمية فكانت موانئها على البحر الأحمر والبحر المتوسط أشهره عقد بحرية على الطرق بين الشرق الأقصى والهند من جهة وبين الموانئ الأوروبية من جهة أخرى. وكانت أسماء دمياط والاسكندرية وعيذاب تلمح كأهم مدن العالم لعبور تلك التجارة. وقد قامت فيها روابط تجارية هامة من الرادانية وتجارة الكارم سوف نتحدث عنها بعد قليل.

وأما انتاج مدن مصر وتجارها الداخلية فقد ذكر المقدسي جانبا هاما منها فقال «هو بلد التجارات. يرتفع منه أديم جيد صبور على الماء ثخين لين (من الجواميس) والبطائن الحمر والمثلث. هذا من مصر. ومن الصعيد الأرز والصوف والتمور والنخل والزبيب. ومن تنيس لا دمياط الثياب الملونة، ومن دمياط القصب، ومن الفيوك الأرز وكتان دون. ومن بوصير فريديس الكتان الرفيع. ومن الفرما الخيطان (السلك)، ومن مدنها القفاف والحبال من الليف في غاية الجودة. ولهم القباطي والأرز والخيش والعباداني والحصر والحبوب والجلبان ودهن الفجل والزنبق وغير ذلك. الخصائص: ولانظير لأقلامهم وزواجهم ورخامهم وخلهم وصوفهم وخيشهم ويزهم. وكتانهم وجلودهم وحنوهم. . . . وليفهم ووزهم وموزهم وشمعهم وقندهم (سكرهم المصفى) ودقهم وصبغهم وريشهم وغزلهم واشنانهم وبقرهم

وحزمهم ومزارعهم ونهرهم وتعبدهم . . . (١).

## ٦- في مدن إفريقية والمغرب :

كانت ثمة تناقض مديني أيام الفتح الإسلامي ما بين المشرق والمغرب ففي حين انحطت المدن، الرومانية - البيزنطية على الحوض العربي للمتوسط وفي أوروبا وتهاوى الكثير منها كانت مدن منطقة البرازخ والمدن الساسانية تتابع نشاطها السابق للإسلام نفسه سواء في الصناعة أو التجارة. وكان على العرب المسلمين حين وصلوا إفريقيا أن يعيدوا إلى المغرب طابعه المدني ويعيدوا بناء مدنه وإن ينشطوا حتى التآلق مدن الأندلس الخابية تحت الحكم القوطي .

كان الإنحطاط المديني هناك نتيجة الإهمال وتهاوي وما أمام غزوات البرابرة، ونهب البربر والقوط لبقايا المراكز المدينية الموجودة مثل قرطاجة وفولوبوليس، وطنجة، وسبتة، وقادس، وملقة، واسباليس، وقرطبة وطليلة، وقصر أوغستا بالرمو، وبانوروموس وطليلة، وتطيلة، وجيان . . . وقد كانت جزرا محاصرة بزحف ريفي بدوي لم تنفع معه تدخلات جستنيان السطحية الهشة. وقد جذبت هذه البلاد العرب المسلمين بسرعة ومع أنهم اصطدموا أول الأمر بسكانها من البربر إلا أنهم انتهوا بالاتفاق في الدين وبالسير المتوازي لفتح الأندلس. ولكن إفريقية والمغرب كانا يشكوان من الاختناق التدريجي للحياة المدينية منذ أوائل عهد جستنيان سنة ٥٣٣ وتنتزع عنها بالتدريج الصبغة الرومانية الهشة مع هذا الاختناق ليعودوا من جديد إلى حياة البداوة والرعي وإلى قوانين العرف والتقاليد واللغة البربرية الحامية بدلا من القرطاجية والرومانية.

(١) المقدسي ص ٢٠٣ .

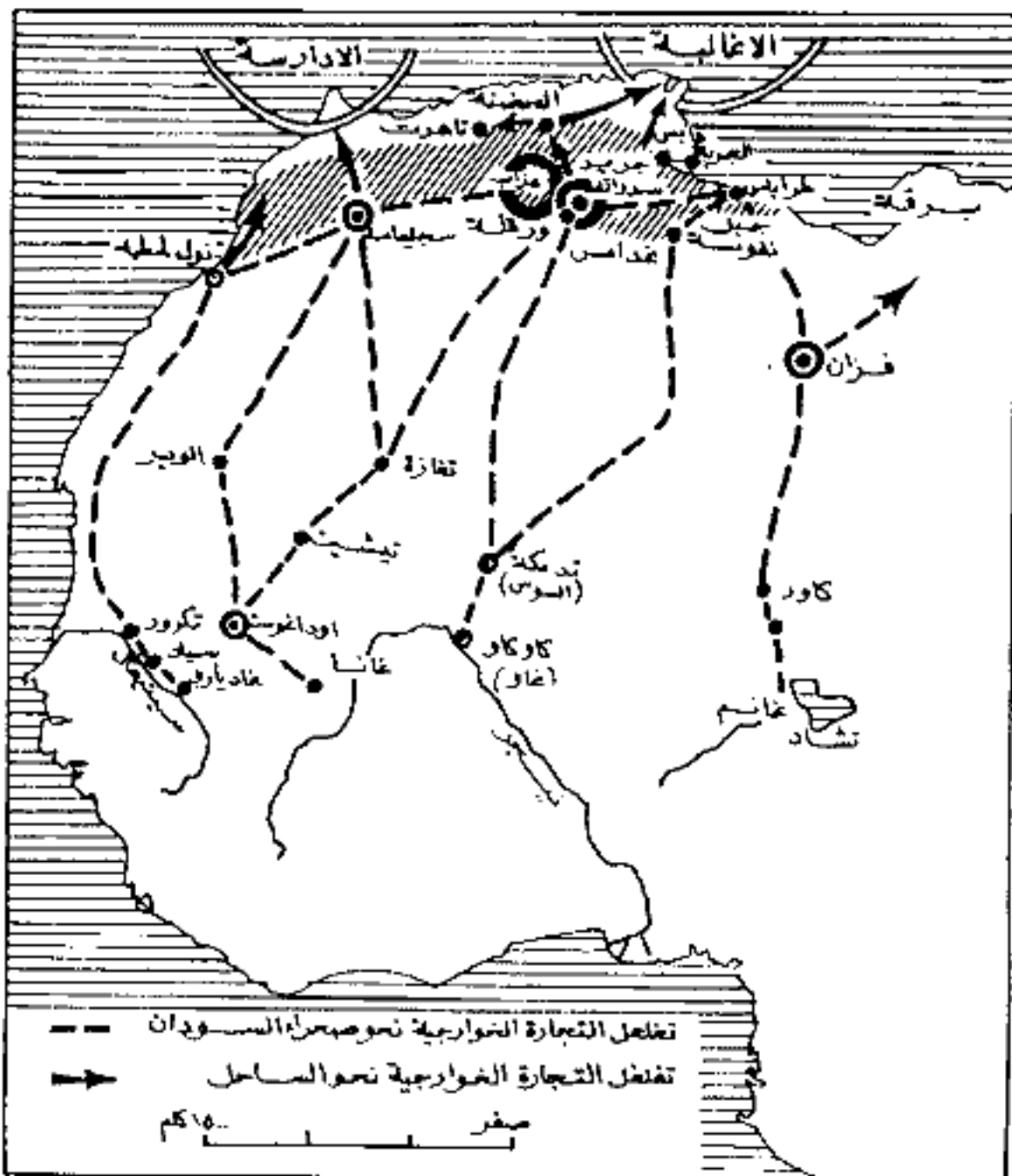
وقد مشى إنشاء المدن في افريقيا والمغرب جنبا إلى جنب مع إنتشار الإسلام ومع ارتباط المغرب الاقتصادي بمدن المشرق. ولكن الإسلام لم يكسب المناطق الجبلية إلا بعد أن توطد في السواحل والسهول. وكان المغرب يملك قوتين أساسيتين كسبهما الإسلام إلى جانبه وهما:

– الغنى بالرجال والعبيد الذين كانوا (من الزنج والصفالبة) وكان هؤلاء جميعا مادة الفتوح الإسلامية لصقلية وإسبانيا ولمصر وأخيرا عبر الصحراء إلى افريقيا السوداء. فكأن المغرب كان مستودع القوة العسكرية للإسلام ما بين القرنين الثاني والسادس / ٨ - ١٢م في تلك المنطقة التي اغتنت كثيرا بانفتاحها على ذهب الواجهة الجنوبية عبر الصحراء، وعلى العبيد السود هناك. وكان لذلك أثره الواضح في التكاثر السكاني الديمغرافي.

الغنى الزراعي التجاري : فكانت زراعة الزيتون والقمح والكرمة تملأ البلاد من أفريقية إلى أقصى المغرب كما كانت طرقات التجارة تخرقها طولاً وعرضاً يضاف إلى هذا إنها شكلت سوقاً استهلاكية لبضائع المشرق. وتدفع الأثمان بالذهب السوداني.

وعلى الطرق الأساسية الثلاث المتجهة من أفريقية إلى المغرب بنى العرب المسلمون المدن. حركة التمدين كانت تبدأ من نقطة الإنطلاقه التي بناها العرب. أول ما بنوا في افريقية : القيروان. فسلسلة تمشي على الساحل وقد بنى العرب المسلمون عليها مدن بجاية وتنس وجزائر بنى زغنه ووهران إلى فاس وأحيوا المدن التي كانت عليه ومنها ويلي عاصمة الأدارسة الأولى. والمدن المسيطرة على مضيق جبل طارق التجاري : طنجة وسبتة والعرايش (ليكوس) . . . والمقابلة على البر الأندلسي لمالفة وقادس وهسيباليس وطريف وانشأوا عددا من الموانئ على المحيط الأطلسي.

أما الطريق الثاني فهو طريق الهضاب العليا ويمر بالجريد ويلتف حول جبال الأوراس من الجنوب مارا بباب حفنة ثم وجدت في المغرب الأقصى وتقوم في منخفضاته سلسلة المدن (في حفنة : تاهرت . وارجلة . سدراتنا المذاب) وفي خوانق الأطلس المراكشي (تيزي نتلجمت) سجلماسة وفاس،



تجارة الجاليات الخوارجية



وفي خانقة الأخير (تيزي نيتلويت) تقوم امغات ومراكش) وفي المنخفض الأخير تقوم طريق فاس مراكش إلى السوس الأقصى .

أما الطريق الثالث ويدعونه بطريق القصور فهو الذي يمر على سيف الصحراء مكملا الطريق القادم من مصر إلى ليبيا إلى أطراف الأطلسي الجنوبية مارا بسلسلة من الواحات منها بسكرة (التي دفن قريها عقبة بن نافع) ومنتها عند جنوب غربي مراكش ببلدة نول لامطاطم مدن افيس ومازغان وأغادير دماسته . وهي المرافء التي قامت في جنوب المغرب نتيجة جذب الذهب إلى الجنوب وجاذبية التوسع والعبيد .

غير أن هذه الطرق الطولانية كانت موصولة بعضها مع بعض بثلاث مجموعات من الطرق العرضية المتنافسة على الذهب السوداني : مجموعة مدن الجريد : العباسية، الرقادة، صبرا، المنصورية بالإضافة إلى القيروان والمتجهة عبر الصحراء إلى كاور بيلمة وبلاد الكانم، ومجموعة مدن سدراتات ووارجلة والمزاب التي تسلك في القرن الرابع / ١٠م الطريق الأوسط إليه عبر قبائل الطوارق لتصل إلى تدمكة وغاد . ومجموعة سلجاسة ونول لامطاطم ومرافئ المغرب الجنوبية التي كانت تنتهي إلى اودغست منذ القرن الثالث / ٩م . ثم إلى غانة .

وشكل ذلك كله شبكة مترابطة من المدن كأنها أقيمت على نظام هندسي . ولقد توالى تأسيس هذه المدن - المحطات أو عقد التلاقي للطرق ما بين أواسط القرن الثاني وأواسط القرن الخامس / ١١م .

وكان الذهب والعبيد والعاج من عناصر الإندفاع المدني العمراني الذي عرفته بلاد البربر . كما كانت حزم الطرق الثلاث في الشرق والوسط والغرب مجال تنافس وصراع لا ينقطع في أفريقية الشمالية : صراع بين الإدارة والرستمين والأغالبة في القرن الثالث / ٩م ، وصراع الإدارة مع

الفاطميين في القرن الرابع / ١٠م، وصراع الفاطميين مع الأمويين وتضاد الصنهاجين والزناتيين في القرن الخامس / ١١م. وأخيرا نضال العرب الهلاليين في الشرق والمزابيين في الوسط والمرابطين ثم الموحيدين في القرنين الخامس والسادس / ١١ - ١٢م.

وكانت نتيجة هذه الصراعات ونتيجة الهجمة الصليبية في اسبانيا وفي صقلية أن انقطعت بلاد المغرب وأفريقية بعض الانقطاع عن المشرق الإسلامي واستسلمت لغزوات المؤسسات المسيحية. فكانت سفن جنوه تأتي بنفسها لتحمل الذهب من المرسى الكبير أو من ماسة، كما سيطر البنادقة على الطرقات الشرقية في القرنين السابع والثامن ١٣ - ١٤ وبدأت حملات الاحتلال للمدن الساحلية من قبل الأساطيل الإسبانية والفرنجية والإيطالية - الصقلية ودخل تجار جنوه إلى طرقات القوافل نفسها في القرنين الثامن والتاسع / ١٤ - ١٥ حتى أتى البرتغاليون عن طريق البحر فخنقوا تلك الأسواق وكانوا يتصورونها مدنا من الذهب.

ولقد توالى عمليات التمدين العمراني في المغرب منذ القرن الثاني وعهد الأسر الحاكمة الأولى. فالأغالب والأدارسة والرسطيون وضعوا الخطوط الأولى، ثم جاء الفاطميون فزادوا فيها، ثم زاد على ذلك الزيرون، ثم المرابطون والموحدون والحمادون وكانت كل دولة منها تشعر بالتزايد السكاني وبالسعة المادية فتتوفر على بناء المدن التي تطيق والحصون والموانئ التي تحتاج. حتى زادت المدن الجديدة على التسعين بين جديدة وأحياء لقديم.

ويلاحظ أن النموذج الذي قامت عليه هذه المدن لم يكن نموذج المدينة الرومانية ولا نموذج التجمع الريفي البربري القديم، ولكن نموذج المدينة الشرقية التجارية ذات الأسوار والأبواب والأحياء المفصول بعضها عن

بعض ، والأسواق حول الجامع والصناعات . وظهر معها نموذج جديد من السكان هو الطبقة الوسطى البربرية التي شغفها الإسلام وشعت بفضلها الفاعلية المدنية التي كانت تنتشر كبقعة الزيت دافعة الطابع البربري للبلاد نحو التشرذم ونحو الجبال . فلم يبق منه سوى لغة الحديث العادية بين القبائل .

ولقد حاول العرب المسلمون منذ بدأوا عملية التمددين في المغرب أن يجعلوا المدن حصينة كل الحصانة لبعدها الأمداد عنهم من الشرق ، ولما يتهددهم من قرصنة الأساطيل الفرنجية والإيطالية والبيزنطية فأنشأوا صلات قوية بين مدن المرافئ ومدن المشرق وجهازوها بالأحواض والأرصفة والأبراج والسلاسل والمخازن . كالمهدية وتونس وبنزرت وبيجاية حيث ترسو السفن الضخمة . وقد تعاظمت الحركة مع تعاظم هذه السفن وانشئت الرباطات الكثيرة مع المنائر (في صفاقس ، المنستير ، سوسة تونس ، الرباط (مقابل سالا) حتى وادي بورقرق . ذلك لحماية الإنتاج والطرق بين المشرق والمغرب . وكانت صفاقس والمهدية وسوسة موانئ تصدير الزيت من غابات الزيتون التونسي . وتنطلق من هناك إلى الشرق منتجات البلاد الأخرى من القمح والمرجان (المستخرج من مرسى الأهراس) ، والصوف والجلد والشمع والخيول (من المناطق الداخلية) والنسيج والعاج والذهب والجواهر والتفائس من السودان ، بالإضافة إلى ما تحمله سفن الغرب من العبيد السلاف (المصقالبه) والفرو والسيوف والخشب والحديد والزفت والشمع . وأقاموا العلاقات مع الأندلس فكانوا يصدرون إلى موانئها الأطلسية والمتوسطية (قادس ، وسالتس ، وقصر دوسال) وإلى اشبيلية وقرطبة بواسطة الملاحه النهرية في الوادي الكبير الحبوب والصوف والشمع والمواشي والجلود والزيت والعسل ، كما يصدرون فلزات المعادن من الحديد والفضة ونحاس جبال الأطلس المراكشي بالإضافة إلى الذهب .

وبإقليم المغرب «تجارات تحمل من برقة ثياب الصوف والأكسية . ومن صقلية الثياب المقصورة الجيدة، ومن أفريقية الزيت والفسق والزعفران واللوز والبرقوق والمزاود والإنطاع والقرب . ومن فاس التمور وجميع ما ذكرنا . ومن خصائص الإقليم المرجان يخرج من جزيرة في البحر اسم مدينتها مرسى الخرز يدخل إليها في طريق دقيق كالمهدية من بحرها يرتفع القرن وهو المرجان لا معدن له غيرها وهي جبال في البحر . ويرتفع من صقلية نوشادر كثير أبيض . . . .»

«فأما ما يجهز من الغرب إلى المشرق فالمولدات الحسان كاللواتي استولدهن بنو العباس وأكابر رجائهم (كسلامة البريرية أم المنصور، وقراطيس أم الواثق، وقتول أم القاهر) والغلمان الروقة الروم والعنبر والحرير والأكسية الصوف الرفيعة والذنية إلى جباب الصوف وما يعمل منه، والانطاع والحديد والرصاص والزيت، والخدم المجلوبون من بلاد السودان . . . ومن أرض الصقالبة . وهم الخيل النفيسة من البراذين والبغال الفره والإبل والغنم ومالديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص . . . فأما أسعارهم على تنائي مدنهم وديارهم فعلى غاية الرخص في الأطعمة والأغذية والأشربة واللحمان والأدهان . . . وعندهم من الجمال الكثيرة في براريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب . . .»<sup>(١)</sup>

٧ - في مدن الأندلس : ظلت المنطقة التي عاش فيها المسلمون من إسبانيا لا تزيد على الجنوب والشرق منها وأما المناطق الشمالية الغربية التي يسكنها الفارسكون والبشقند (الباسك) والكانتابريون والإستوريون فلم يقربها المسلمون . وهناك في جبالها وغاباتها الكثيفة اعتصمت الجماعات التي قامت بما يسمونه بحرب الاسترداد الصليبية . فجميع المدن الإسلامية كانت

(١) لومبارد ص ٩٣ .

في السهول الشرقية والجنوبية وفي الهضاب الوسطى ووديانها المائلة نحو الغرب وأهمها الوادي الكبير وما عليه من المدن كاشبيلية وقرطبة في الجنوب والطريق الكبير الأوسط المار من سرقسطة عبر طليطلة . وكانت هذه المناطق الشرقية أرض زراعات وخصب . . . وكانت مدنها في الأصل مراكز لنشر المسيحية والثقافة الرومانية فأضحت مراكز للإسلام ونشر الإسلام . وكان في اسبانيا عناصر من أهل الشام ومن اليهود قبل الفتح الإسلامي فانضموا إلى المشاركة الفاتحين حين وصلوا . كما مهد للفاتحين أن عددا من المدن الصغيرة في الجنوب كانت في الأصل مستعمرات فينيقية (مالقة وما حولها) وكانت لغتها حتى القرن الثاني بعد الميلاد هي اللغة الكنعانية ومن بعدها مستعمرات الداخل مثل لوسينا بين ملقة وقرطبة والغيره (غرناطة اليهودية)<sup>(١)</sup> . وقد تجمعت المدن بعد ذلك في الجنوب حول قرطبة واشبيلية فثمة جيان ونبلة ومريده وشاطبة وعلى السواحل فثمة برشلونه وطرقونه وطرطوشة وبلنسية ودانية وقرطاجنة والمرية حتى ملقة ثم بعد عدوة جبل طارق تأتي الجزيرة الخضراء وقادس . وثمة أخيرا مدن أواسط الهضبة القشتالية وهي قليلة وأبرزها طليطلة ومدريد . ووراء طرطوشة هناك : سرقسطة وتطيلة . وفي هذه المدن تركزت الجاليات العربية والبربرية لكنها استصلحت واستوطنت الأراضي في الشرق والغرب . وكان هذا انجازها الهام مع ما أقامته من وسائل الري في سهول الشرق الخصبة لإنتاج الزراعات الشرقية كالرز والقطن وقصب السكر والبرتقال والموز وإنتاج الحرير تلك الصناعة المترفة التي ظلت اسبانيا الوحيدة في ممارستها حتى العصور الحديثة . وأما استثمار الغرب فقام على تحويل الإحراج إلى بساتين وإقامة مزارع الزيتون غربي اشبيلية ، واستخدام الخشب في إقامة دور صناعة السفن في المرية على المتوسط ، وقصر ابى دانس على الأطلسي وفي التجارة

(١) ابن حوقل ص ٩١-٩٢ .

البحرية . هذا بالاضافة إلى تربية المواشي من غنم المورينوس ذى الصوف الناعم .

وكانت حركة التمدين في اسبانيا أقل منها في المغرب في العدد لكنها أكثر منها كثافة بسبب أن غناها كان ضخما وبلا حدود . فقد خدمها الذهب السوداني المتكاثر والعبيد السلاف والزنوج المجلوبون فقامت فيها حركة تبادل نشطة دعمت كل الدعم المراكز المدنية وطبقاتها العليا والوسطى . وتعلم المجتمع الأندلسي الكثير من مجتمعات الشرق في الثقافة والصناعة والاناقة والموسيقى وكان من الأمور العادية أن ترى البنزات الشرقية والبرود اليمينية المخططة في شوارع قرطبة . وأن تصنع في قرطبة معاطف من القماش الرقيق القادم من مصر أو من الأحواز .

أما العبيد فكان يبادلهم تجار الأندلس ببعض المصنوعات الرخيصة ويستوردون معهم الصمغ الأفريقي (للحرير) والسيوف الفرنجية (التي تقلد سيوف دمشق) ، والفراء وتقدم مقابل ذلك بعض النسيج ومسكوكات الفضة والذهب . وكان انتصارهم التجاري الواضح يوم ضربوا الدينار الأموي سنة ٩٧٤/٣٦٣ . وقد حض التكاثف السكاني في قرطبة ومنطقتها وزيادة الثروة على التوسع في الاستهلاك والركون إلى الدعة والفنون فخرست الأندلس شيئا فشيئا أرضها سواء لصالح القوى النصرانية في الشمال (حرب الاسترداد) ، أو للقوى البدوية القادمة من الجنوب (المرابطون والموحدون البربر) وانتهت إلى رقعة صغيرة في الجنوب حول غرناطة ما لبثت أن انطفت .

وثراء مدن الأندلس يمكن أن يعرف من أن دار الضرب في قرطبة كان ضمانها في السنة أيام ابن حوقل في القرن الرابع مائتي ألف دينار أي ما يعادل

(على سعر ١٥ درهماً بدينار) ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف درهم<sup>(١)</sup>.

«وجميع مدن الأندلس مشهورة بالغلات والتجارات والكروم والعمارات والأسواق والبيوع والحمامات والخانات والمساجد الحسنة . . . وليس بها مدينة غير معمورة ذات رستاق فسيح وماشية وسائمة وعدة وعتاد وكراع». وكان بالأندلس الزبيق والحديد والرصاص. ومن الصوف قطع كأحسن ما يكون من الأرمني المحفور الرفيع الثمن إلى حسن ما يعمل بها من الأتماط. ولهم من الصوف والأصباغ فيه وفيها يعانون صبغة بدائع بحشائش تختص بالأندلس. وتصنع بها اللبود المغربية المرتفعة الثمن والحريز وما يؤثرونه من ألوان الخبز والقز. ويجلب منها الديباج ولم يساهم في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الأرض. وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثينية يقوم اللبد منها بخمسين وستين ديناراً . . . فهي من محاسن الفرش ويعمل عندهم من الخبز السكب والمسفيق ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق. ويكون منه الشمع فيمنع المطر أن يصل إلى الألبسة . . . وفواكههم كالمباحة. ويعمل في أقطار بلدهم من الكتان اللدني للكسوة ويجلب إلى غير مكان. حتى ربما وصل إلى مصر منها الكثير. فأما ارديتهم المعمولة ببجانة فتحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها. ويستعمل عندهم للعامة وللسلطان من الكتان ثياب لا يقصر عن الدبقي (المصري) ما كان منه صفيقاً، ومن السلس الدقيق ما يستحسنه من لبس الشرب ويضاهي رفيع الشطوي (المصري) الجيد. وقل سوق يصير إليه أهله إلا على الفارة من المركوب . . . وتختص بالبغال الفره وبها يتفاخرون. ولهم منها نتاج ليس كمثله في معادن البغال المشهورة من أرمينية والران . . . ويجلب إليهم منها شيء حسن الشبه عظيم الخلق كثير الثمن من جزيرة ميورقة . . . ورأيت منها غير بغل يبيع بخمسمائة دينار فأما ما

(١) ابن حوقل ص ١٠٤.

يبلغ المائة والمائتين فأكثر من أن يحصى . . . .<sup>(١)</sup>.

٨ - في مدن صقلية : كانت صقلية قاعدة الهجوم البيزنطي على الجزء الإفريقي خاصة في العالم الإسلامي ولذلك كان من الضروري فتحها . بالإضافة إلى أن أرض الجزيرة جبلية مملوءة بالأحراج ومدنها الأساسية تقوم على أطرافها في الشواطئ والحصول على الأخشاب ضروري لبناء الأسطول العربي في افريقية وهكذا فتح الأغالبة الجزيرة على مراحل مديدة وبعد معاناة وطول حرب . فقد توضع العرب أولا عند بنتلاريا منذ سنة ٧٠٠/٨٣ - ٧٠٢ ثم كان الغزو الحقيقي في زمن زيادة الله الأغلبي سنة ٢١٢ - ٢١٦ / ٨٢٧ - ٨٣١ حين احتل بالرمو ثم احتلت سيراكوزة سنة ٨٧٨/٢٦٥ العاصمة . ولكن الأغالبة جعلوا بالرمو مركزهم وعززوها فبقيت إلى اليوم عاصمة الجزيرة لأنها مع الجزيرة كلها شهدت في العصرين الأغلبي والفاطمي ازدهارا في المباني والثقافة وانتقلت إليها أساليب الري فصارت تنتج القطن وقصب السكر والرز والبرتقال وتربي دود القز وتقوم بالصناعات النسيجية (مثلها مثل كل البلاد الشرقية الإسلامية من الحرير والقطن) وتصنع الخزف وغيره . وبلغت بالرمو في العهد الإسلامي مبلغا واسعا من التضخم في السكان وفي المساجد (٣٠٠ ألف نسمة ونيف وثلاثمائة مسجد) . وكانت من الجزيرة المطلة في الشمال على البحر التيراني مثل سالرنو ، أما لفي ، غايبي حتى نابولي إنما تدور في فلك بالرمو .

٥ - حركية النشاط التجاري العالمي والإقليمي .

كان للتاجر دوره الكبير في التاريخ المدني للإسلام لا من حيث هو فرد في العملية الاقتصادية فهو لا يعدو أن يكون وسيطا . ولكن من حيث

(١) ابن حوقل ص ١٠٩ - ١١٠ - ١١١



هيمنت على المدينة صناعة وصناعة، وعلى الريف أرضا وسكانا. فهو غالبا صاحب الثروة والجاه في المدينة الإسلامية، وهو غالبا صاحب العقار وملك الأرض في الريف. كما أنه إلى هذا وذاك صاحب العلاقات الخارجية الواسعة والمنتزع لنفوذه انتزاعا من السلطان.

كان هذا في تقاليد الإسلام منذ امتدحت التجارة في القرآن الكريم وكثيرا ما كان التاجر - المقاتل هو الذي ينشئ الصناعات لحسابه ويعطي العمل ويقدم المواد الأولية ويقترض الأموال ويتعهد بتصريف الانتاج. وتقوده روح المغامرة بالاندفاع نحو البلاد البعيدة في أعماق الترك أو أعماق السودان أو اقاصي الصين ليبادل بضاعته ببضاعة، وبأشياء صغيرة أحيانا كالملاح ويعود بجمال محملة ذهباً . .

ولدينا معلومات حسنة عن البضائع التجارية في القرنين الثالث والرابع / ٩ - ١٠ م. ومنها الذهب والرقيق من شرقي افريقيا ومن غربيها، والرقيق والفرو والسيوف والدروع من روسيا ومن الترك، وغراء السمك من الخزر، والرصاص القلعي من ملقا والثياب الحريرية والفضائر والكاغد من الصين، والبسط والسجاد من أرمينية والتوابل والأحجار الكريمة والعقاقير والرماح والكافور من الهند. والقطن والمنسوجات الحريرية والكاغد والفرو والرقيق من ما وراء النهر، والسجاد والقلانس من إيران والديباج الرومي والثياب الكتانية والرز والبسط من الروم. وكان نشاط الحيريين والبصريين مضرب المثل في كل ذلك.

وقد تبين النشاط التجاري للمدن الإسلامية المختلفة أن نحن نظرننا فيها من ناحيتي التجارة في العالم من جهة وفي الأقاليم الإسلامية من جهة أخرى.

## ١ - مدن التجارة العالمية :

وكانت علاقات التاجر العربي بأقاصي الشرق وطيدة قبل الإسلام واستمرت كذلك بعده إن لم تكن زادت بالفعل بعد كسر الحاجز الساساني - البيزنطي . وقد عرف أهل الصين منذ أيام عثمان بظهور الإسلام وباسم الخليفة وبخلاصة ما في الدين وينص القرآن الكريم الذي كان المسلمون يحملونه معهم . وكانت تجارة هذا الخليفة سبب ثروته التي دعمت الإسلام . ولدينا خبر يذكر ارسال معاوية بعض ماله من البصرة للمشاركة في التجارة العالمية منها . على أن الفتوح وما يقتضي لها كانت تغطي في القرن الأول على أخبار التجارة ، لأنها على الأقل أكثر جدوى . فلما هدأ الفتح في القرن الثاني بدأ وجه التاجر المسلم يظهر لنراه قد اجتاز مضيق ملقا إلى خانفو ولنرى في مطلع العصر العباسي حالة من عشرة آلاف مسلم فيها تمارس ، بجانب التجارة ، ديانتها . وكان الطريق من البصرة إلى تلك المدينة يقتضي سنتين من الملاحة : تسعة أشهر للوصول ، ومثلها للعودة . وستة أشهر لبيع البضاعة . وشراء غيرها . . . ولم تكن رحلة سنتين فوق الماء بالمأمونة . ومن هنا قامت في أخيلة الناس قصص السندباد البحري مستمدة من بعض الروايات المروية عن سليمان التاجر وأبي زيد السيرافي وبزرك بن شهريار وما عانوا في رحلات الرعب التي قاموا بها إلى المدن المجهولة وما لاقوه من الخطر ومن الشعوب والبضائع والناس وعجائب البر والبحر . هذه الصورة التي ملأت خيال الناس في القرن الثاني ما لبثت أن ازدادت وضوحا وصحة في القرن الثالث حين كثرت التجارة على السفن المبحرة إلى الشرق موطن التوابل والعاج والحرير والورق والخزف والمسك والبخور . وكثر إغراء الثروة للتجار الذين يتلقون السفن في البصرة أو سيراف وعليها ما قيمته نصف مليون دينار . . . وكثر أعوان التجار ووكلائهم المتعاملين على طول الطرق البحرية .

لكن التاجر المسلم لم يقتصر على استغلال التجارة الشرقية فقد أوغل في البر على الجبهة الشرقية وتلقى من أقاصي تركستان بضائع الصين أيضا، واستغل توغله في منطقة الأنهار الروسية في تجارة العبيد الترك. وكانت أرباح البضاعات في القرن الثالث وما بعده وفرصة للإثراء السريع. وإذا كانت بيزنطة قد وقفت في طريق التاجر المسلم في هذه الفترة وفرضت نفسها كوسيط تجاري مع أوروبا فإن دخول الإسلام إلى الأندلس وإلى صقلية فتح لهذا التاجر طرقا أخرى من خلفها إلى بلاد الفرنجة. كما أن البناء المتوالي للمدن وتوطيد العلاقات مع الزنج في غربي السودان، وفي السواحل الشرقية من إفريقية فتح على التاجر بابي الذهب والعبيد بالإضافة إلى العاج وغيره. وهكذا ما جاء القرن الرابع إلا والتاجر المسلم هو رمز الحضارة الإسلامية والمتعامل مع بضاعات العالم الأساسية وثرواته.

وصار للتجار وكلاء ومراكز تجارية في مختلف المدن سواء في الهند (في صيمور) أم في سرنديب (كولومبو، في سيلان) أم في شمال سومطرة أم في الملايو (ملقة) أم في الصين (خانفو أي كانتون وهان شو). أم في بلاد الخزر وعاصمتها (ايتل)، أم في السودان الغربي (تمبكتو وأورغسب) أم في أفريقيا الشرقية (لامو وباتا ومباسا وبرافا).

وتكونت طبقة من التجار في المراكز المدينة الرئيسية من العالم الإسلامي: في بغداد والقاهرة وقرطبة، تمتلك الأموال الطائلة وتمتلك معها تحريك شبكة العلاقات بين المدن، والعبور بتجارها بين الموانئ ومدن العبور. وقد ظهرت نتيجة لذلك فئة رأسمالية نشطة كونت أنواعا من الشركات مثل شركة الضمان (تشبه الشركة المساهمة) وشركة المفاوضات (حيث تبقى رؤوس الأموال مستقلة)، وشركة الوجوه وشركة المضاربة. وتكون الاختصاص بين التجار من المجهز (الذي يستعين بالوكلاء ويجمع

البضائع من جهات عدة دون أن يغادر مركزه) والركاض (وهو الكثير الأسفار مع البضاعة والمتعامل مع بلدان مختلفة بعد أن درس أوضاعها وعرضها). والخزان الذي يركز على نوع معين من البضاعة (كالاحتكار) إضافة إلى السماسرة . . . .

ومهد هذا الظهور بيوت تجارية قائمة على أساس الأسر، وعلى أساس القروض الممنوحة بالتكافل والتضامن بين جميع المشتركين فيها وعلى أساس الثقة بالتعامل مما وسع باستمرار من رساميل هذه البيوت وسمح بدخولها في عالم الأعمال المحموم الذي يزداد شراهة مع المزيد من الثروة والأرباح. في هذه الفترة ظهرت جماعة الرادانية التي يحدثنا عنها ابن خردادبه فيقول تحت عنوان «مسلك التجار اليهود الرادانيين التي يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلية فيذكر» أنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برا وبحرا يجلبون من الغرب الخدم والجواري الغلمان والديباج وجلود الخنز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجه في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينها خمسة وعشرون فرسخا، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجاروجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني (القرفة) وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي. فرمما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينة فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك. وإن شاؤا حملوا تجارتهم من فرنجه في البحر الغربي فيخرجون بانطاكية ويسرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية(?) ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الابله ومن الابله إلى عمان فالسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه

ببعض<sup>(١)</sup> . . . .

ويتحدث ابن خرداذبة عن جماعة تجارية أخرى من الروس فيقول :  
«فأما مسلك تجار الروس وهم جنس من الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخنزير وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم وإن ساروا في تنيس نهر الصقالبة مروا بخمليج مدينة الخنزير فيعشرهم صاحبها ثم يعبرون إلى بحر جرجان فيخرجون من سواحلها إن أحبوا ، وقعر هذا البحر خمسمائة فرسخ وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون جزية . فإما مسلكهم في البر فإن الخارج منهم يخرج من الأندلس أو من فرنجيه فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى أفريقية ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين» .

«وربما أخذوا خلف روية في بلاد الصقالبة ثم إلى خمليج مدينة الخنزير ثم في بحر جرجان ثم إلى بلخ وما وراء النهر ثم إلى يورت تغزغز ثم إلى الصين» .

فهذه إذن ثلاث من المجموعات التجارية تتحرك على الخطوط المدنية الممتدة من بلاد الفرنجة إلى الشرق الأقصى وتكشف المدن - العقد في طرق التجارة العالمية في القرنين الثالث والرابع .

على أن الكتلة الكبرى كانت دون شك من التجار المسلمين لا من هؤلاء الغرباء الوافدين . فمن المؤكد أن هذه المجموعات لم تكن الوحيدة

(١) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ص ١٥٣ - ١٥٤ .

التي تعمل على خطوط هذه المدن وإن لم يذكر ذلك ابن خردادبه أو غيره لأن التاجر المسلم الذي برز كرمز للحضارة الإسلامية في القرن الرابع لم يكن يحلم قابعا في منزله ببغداد، ولكنه كان يسيل على الأشربة ودبيب القوافل في كل اتجاه دليل وجود تلك الجاليات المسلمة الكبيرة في نهايات جميع الخطوط التجارية حول العالم الإسلامي سواء كان ذلك وراء مضيق ملقة والملايو أم في سهوب تركستان أم في منطقة الأنهار الروسية، أم في السودان الغربي أم في شرقي أفريقيا. لقد كان هو المغامر الأساسي في جميع شبكات المدن على الأطراف القصية للعالم الإسلامي وإن كان يمر دون أن يؤبه كثيرا لنشاطه الواسع ضمن هذا العالم وبين مدنه ودون أن يسجل هذا النشاط باعتباره عملا اعتياديا. وإنما كان المؤرخون والجغرافيون يسجلون الشاذ والغريب وهؤلاء التجار كانوا من الغرباء الوافدين على بلاد الإسلام للإفادة من تجارتها وتسامحها الواسع.

لهذا كان ثمة تناقض كبير بين الواقع التجاري الإسلامي وبين بعض «الوثائق» الواردة من جانب واحد، هو الجانب اليهودي والتي تحاول أن تلقي كل النشاط التجاري العالمي في الإسلام بأيدي اليهود كوثنائق الجينز<sup>(1)</sup> اليهودية. إنها يجب أن تفهم أيضا على أنها نماذج من نشاطات التاجر المسلم غير المسجلة وعلى أنها صورة لأعماله وعلاقاته وقد كتبها بعض المشتركين في التجارة ذاتها عن أنفسهم في صورة جزئية وهي تمثل الجميع من الناحية العملية. وعلى هذا الأساس نستشهد بها. ونكشف بواسطتها آلية العملية التجارية الإسلامية وحركتها.

---

(1) الكلمة تعني أصلاً ما هو مكتوب من عبارات دينيه تدفن في قبور اليهود، والمجموعة المذكورة هي بقايا من الورق في إحدى الكنس في مصر القديمة وقد وجدت في مطلع هذا القرن وتوزعتها المتاحف العالمية لكن أشهر مجموعة فيها أختصت بها جامعة كامبروج، وقام كثير من اليهود بدراستها. وبعضها مكتوب باللغة العربية وبعضها باللغة العبرية.

ومن جهة أخرى يجب أن يكون واضحاً أن البصرة وبغداد لم تكونا المستأثرتين بالتجارة الخارجية في القرن الرابع - كما قد تصور المصادر - فإن النشاط التجاري والصيرفي المشرقي منذ القرن الثالث / ٩م . كان قد أصيب بعدة ضربات هزته هزا في العراق . فبعد الثورة العلوية في مطلع القرن وثورة الزط التي امتدت عشرين سنة (٢٠٠ - ٢٢٠) جاءت ثورة الزنج التي امتدت بدورها خمس عشرة سنة (٢٥٥ - ٢٧٠)، ثم جاءت ثورة القرامطة التي كانت من زاوية من الزوايا لاثورة دينية سياسية ولا ثورة طبقية من الفقراء ضد الأغنياء فقط ولكنها كانت أيضاً ثورة التحالفات القبلية التي كانت تقوم بنقل البضاعة بين الخليج والبحر المتوسط عن طريق حلب ودمشق وطبرية ومع أنها هزمت في الشام والعراق، إلا أنها نجحت في البحرين واستطاعت السيطرة على النقل ما بين البحرين الهندي والمتوسط مدة تزيد على قرن ونصف القرن، وقاتلت خلال هذه الفترة من أجل ذلك الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية التي تنتمي إليها على السواء . وإذا انقطعت سبل التجار في القرن الثالث فقد كان القرامطة هم الذين يؤمنونها في القرن الرابع عن الطريق المباشر في البادية والصحراء لا سيما وإن البويهيين كانوا يبدأوتهم يشكلون الخطر الداهم على التجار في بغداد والبصرة، وقد سجلت التجارة في أيامهم تراجعاً واسعاً نتيجة اعتمادهم على الأرض وتقلص التعامل بالنقد في نطاق الدولة . بالإضافة إلى اضطراب الأوضاع العامة وتعرض التجار للمصادرات المستمرة والضرائب الكثيرة (نتيجة تجزئة الدولة) وعدم إدراك البويهيين لدور التجارة في الحياة الاقتصادية مما زاد في تقلصها وفي تلاعبهم بعيار النقد بحسبونه وسيلة للتوفير على بيت المال . فالفاطميون في مصر كانوا في تلك الفترة نفسها ينقلون النشاط التجاري من الخليج إلى البحر الأحمر والقاهرة ويستخدمون العلاقات التجارية لا في الكسب فقط ولكن في الدعوة الدينية - السياسية لمذهبهم

الفاطمي العالمي وينشئون في اليمن في عدن وزبيد، وشرقي أفريقيا من زنجبار إلى لامو وفي غربي الهند (في كلها) مراكز لهم ما تزال موجودة إلى اليوم.

وليس يهمننا مدى نشاط هذه المراكز وإنما تهمننا آلية العملية التجارية وحركيتها. وترفدنا بعض وثائق الخبيرة بتفصيلات كثيرة عن الشبكة التجارية العالمية وتضامنها وأعمالها. ففي وثيقة من مطلع القرن الخامس / ١١م رسالة لتاجر مغربي أرسلها من القاهرة إلى القدس تتحدث عن وصول سفينة إلى صقلية وتطلب معلومات عن مركب إسباني ويأمل صاحبها الحصول على جواب سريع من مراسليه في القيروان وصور. وثمة وثيقة أخرى من أواسط القرن الرابع / ١٠م تبين تنظيم بيت تجاري تملكه مجموعة أسرية فالبيت الأم كان في القسطنطينية يملكه زعيم العائلة وابنه البكر وكان هذا الابن مكلفا بالإشراف على فرع عدن وقام بسفرتين إلى الهند وإلى سيلان وكولومبو أما الخال فقد أرسل كوكيل أعمال في الهند وتوفي هناك.

وكان التاجر الكبير المسلم على جانب من الثقة العامة وجانب كبير من الثقافة العملية، وكان لديه محاسبون ودفاتر حسابات (كان ياقوت الحموي يقوم بمهمة المحاسب لأحد تجار بغداد كما كان يقوم بمهمة التاجر الركاض على السفن) وله مراسلات وسجلات قروض وتقاص. وثمة كتاب ألفه أبو الوفاء البوزجاني الرياضي المعروف في القرن الرابع (ت سنة ٣٨٨ / ٩٩٧) بعنوان (ما يحتاج إليه العمال والكتاب من علم الحساب) يمكن أن يعطينا صورة عن الثقافة العملية المطلوبة لهؤلاء الذين كانوا يعرفون أيضا فن الرموز والرسائل السرية وهم الذين - كما يبدو - نقلوا الأرقام الهندية (التي نكتبها العربية اليوم) منذ أواسط القرن الثالث / ٩م إلى العالم الإسلامي. فقد ظهر في الكتب العلمية ثم تسرب إلى الأوساط التجارية لأنه مفيد عملي.



على أن فترة القرن الخامس / ١١ م كانت فترة انقلاب القوى في البحر المتوسط وأخذت أساطيل الفرنجة المبادرة فيه والهجوم . ولم ينته القرن إلا وقد زحفت قوى الغرب على الأندلس وعلى صقلية وعلى الشام في الحروب الصليبية مما جعل التجارة العربية الإسلامية تعتمد بالمحيط الهندي محتكرة النصف الباقي من الطرق التجارية عند منابعها . وهكذا رأينا ظهور ما يسمى بالكارم وتجارة الكارم ! وهذا الاسم رغم اشتهاره ودوامه عدة قرون مجهول المعنى والتركيب ولعله في الأصل كار اليم أي صنعة البحر<sup>(١)</sup> . ويستعمل للدلالة على البضاعة التي تحملها هذه التجارة وعلى الأشخاص الذين يقومون بها فيقولون كما في الوثائق :

«نتظرك في كارم السنة» وأرسلت هدية «ما في الكارم مثلها» وجميع من خرج من أصحابنا في الكارم بأتم السلام» و«أرجو أن مولانا وجميع الكارم يكونوا أدركوا عيذاب إن شاء الله»<sup>(٢)</sup> ولم تكن جماعة الكرم جماعة محدودة تعمل لحسابها الخاص ولكنها مجموعة من كبار الملاحين (نواخذة) يسافر التجار في سفنهم أو يرسلون معهم بضائعهم ، وبعضهم كانوا مجرد وكلاء عن التجار وكثير من هؤلاء التجار والوكلاء يرتبطون بعضهم مع بعض بالروابط الأسرية أو بروابط الشراكة من أي الملل كانوا . وكان للكارم رئيس «يسمى «رئيس الكارمية» أو وكيل التجار ثم تطور اسمه إلى «شاهبندر التجار» والرئاسة وراثية ويتعلم الابن منذ سن مبكرة الأسفار والأسعار . ومن الأسر الكارمية في القاهرة ودمشق : أسر القويض والخروي والملحي والدمامي . وكان أعضاء هذه الأسر مع غيرهم يشكلون جاليات إسلامية في مدن التصدير على شرقي إفريقيا في لامو وباتا ومباسا . وفي مدن

(١) للكلمة تفسيرات أخرى أهملناها .

(٢) مأخوذة من وثائق الجنيزا التي نشرها غوتلين وهي من المجموعة المحفوظة بالمتحف البريطاني .

شرقي الهند ومن وراء ذلك حتى ملقا وبالمبانك وسومطرة وجاوا . وقد كان المسلمون عماد العمل في شرقي إفريقيا ولهم مدنهم ومساجدهم هناك .

وكانت سفنهم في العهد الفاطمي تحمل كميات أقل من التوابل التي أضحت تحملها في عهد المماليك ، وكانت تنطلق خاصة من ميناء عدن في الذهاب والعودة وكانت أحيانا تمر بها عبورا إلى عيذاب على البحر الأحمر إن لم يكن الجو أو الوضع السياسي مناسباً . وكانت حمولة بعض مراكب الكارم تصل إلى ٣ آلاف بالة في بعض الأحيان كما يقدر ثمن ما تحمل بمليون ونصف مليون دينار مشحونة لحساب الشريكين بلال بن جرير الأهوازي الأوحدي الذي كان سنة ١١٤٠/٥٣٥ حاكماً لجنوب اليمن ثم صار بعد ذلك وزيراً والثاني كبير تجار اليهود المغاربة في عدن واسمه مضمون . وهذا يكشف أن تجارة الكارم كانت حرة للجميع دون تمييز ديني . ويكشف اشتراك الحكام فيها مع غيرهم كما يعكس ارتفاع أسعار البضاعة وثروات التجار العاملين عليها . ولنذكر أن تجار الكارم لم يكونوا المحتكرين الوحيدين لتجارة الهند فقد بلغ عدد السفن المملوكة لغير تجار الكارم أكثر من مائتي سفينة أخرى . ولكن تجار الكرم كانوا تحت حماية الحكام - فيما يبدو - سواء في العهد الفاطمي أم في العهد الأيوبي أم في العهد المملوكي . وكان الفاطميون يحمونهم في البحر الأحمر خاصة وإليهم ترسل استغاثاتهم ويعهدون أحيانا إلى بعض التجار بهذه الحماية . وإنما كان الفاطميون يسيطرون عليهم لا للربح المادي فقط ولا لأن مراكز الكارمية الأساسية والمحركة كانت تقوم فيما بين القاهرة وقوص من جهة وعدن والإسكندرية من جهة أخرى ، ولكن أيضا لأن هؤلاء التجار في الكثير منهم كانوا أيضا من دعاة الفاطميين الذين حملوا الدعوة إلى اليمن والهند .

وقد برزت القاهرة وقوص مركزين لتجارة الكارم في العهد الأيوبي ثم المملوكي لأن طرق البحر الأخرى كانت مسدودة أمامهم سواء عن طريق

الخليج بسبب المغول، أم عن طريق المتوسط بسبب الفرنجة الصليبيين .  
فمركزهم المتقدم على الخط التجاري كان في القاهرة/ قوص لأن الايوبيين  
ثم المماليك وطردوا نفوذهم في البحر الأحمر . وفي هذه الفترة الصليبية وما  
بعدها انسحب اليهود، تحت ضغط الصليبيات، من الكارم تدريجيا وصار  
تجاره من المسلمين وتحول بعض اليهود منهم إلى الإسلام ليستمر في هذه  
التجارة .

وبلغ من اهتمام سلطنة المماليك بتجارة الكارم أن خصصت سفنا  
تحميهم وترافقهم في البحر الأحمر إلى عيذاب وقوافل تحميهم في الطريق إلى  
قوص وإلى القاهرة وأقاموا لهم الفنادق والخانات . وقد أمر صلاح الدين  
عقب انتصاره على أرناط (الذي حاول التوغل في البحر الأحمر عن طريق  
إيلة ووصل في بعض حملته إلى الجار) أن يبني فندقا لكارم في الفسطاط .  
وكلف ابن أخيه تقي الدين عمر بينائه على النيل . كما بنى الكارمة لأنفسهم  
فنادق أخرى سواء في القاهرة أم في الإسكندرية ودمياط وقوص وعيذاب  
ومكة وجدة وعدن . وقد حصل صلاح الدين من تجار الكارم ذات مرة سنة  
٥٧٧ زكاة أربع سنين دفعة واحدة لحاجته إلى المال . وتنظمت علاقة المماليك  
بالكارم حين عينوا لهم موظفا خاصا يسمى «مستوفى البهار والكارم» . وهي  
وظيفة جليلة تعدل الوزارة لما ينجم عنها من الموارد للدولة وعمل صاحبها  
مراقبة الوارد من بضائعهم من عدن وجدة وعيذاب إلى القاهرة والصادر منها  
إلى الإسكندرية ودمياط أو الذهاب عن طريق إيلة إلى دمشق وإلى عكا  
وطرابلس وما يباع منه للتجار الأوروبيين واستيفاء الضرائب اللازمة .

أما بضائع هذه الجماعات من الواجهة الجنوبية الشرقية كلها ومن  
الشواطئ الشرقية لأفريقية فكانت ألوانا متنوعة وإن تكن جميعها من تقاليد  
التجارة في المحيط الهندي منذ ما قبل الاسكندر المقدوني وكانت البضاعة  
تجتمع لهم في المدن التي بناها التجار في شرقي إفريقيا وبواسطة الوكلاء

المستقرين في (مباسا . زنجبار . لامو . باتا وغيرها) وفي ساحل المبار (من قلعات إلى كولومبو في سرنديب) حيث كان للمسلمين مساجدهم وقضاتهم وفي الملايو وسومطرة وجاوا، حتى موانئ الصين الجنوبية . فكانوا يحملون من مصر بعض البضائع الغثة إلى شرقي أفريقيا من المرجان وأمشاط العظام وقضبان الحديد والحبوب ويبادلون بها في المدن على أطراف المحيط الهندي بالبخور والعاج وأسنان الكركدن واصداف السلاحف والكافور والصبر (من سقوطرة) وينقلون هذه البضائع إلى الصين فيبادلون بها الحرير والخزف والتحف الغربية أو إلى مصر لبيعها على التجار الأوروبيين في أسواق المتوسط، أو يحملون من ماليزيا الخشب والأسلحة الفولاذية ومن جذر الارخبيل اللؤلؤ والأحجار الكريمة والعنبر، ومن الهند البهارات والعطور والتوابل والنباتات الطبية والمخدرات والعقاقير . وكانت الإسكندرية منذ القرن السابع / ١٣ م هي الموزع العالمي الأول للبهارات والعقاقير لجميع مدن المتوسط من القسطنطينية إلى البندقية ونابولي إلى برشلونة وقرطبة .

على أن جبهة المحيط الهندي لم تكن الجبهة التجارية الوحيدة فيجب أن نذكر أن أطراف العالم الإسلامي الأخرى كانت بدورها ذات حركة تجارية حسنة :

أ - فعلى الواجهة الشمالية الشرقية حيث تصل طريق الحرير كانت تظهر الأهمية التجارية لأربعة مدن تنطلق منها الطرق إلى الهند والصين : مرو وهراة وبلخ ونيسابور التي ضاهت بغداد في القرن الخامس / ١١ م . فهي عقدة المواصلات عند مفترق طريق بغداد الكبير إلى خوارزم والهند والصين . فالطرق منها إلى خوارزم تصلها بمدينة أوركينك المركز التجاري الهام مع سهوب الترك وتحمل منها الفرو والعبيد والمعادن الحديدية والأسلحة والنحاس والأدوات النحاسية واللباد مقابل تصدير الأقمشة الحريرية وأشياء أخرى غير ثمينة، ومقابل قطع النقود . والطريق الآخر يأخذ اتجاهه إلى

بخارى وسمرقند ثم إلى الصين . وقد انفرد السامانيون حتى القرن الرابع / ١٠ م بالسيطرة عليه ثم خلفهم السلاجقة حتى جاء المغول فجعلوه طريقهم الدائمة إلى المشرق . وقوافل الجمال والبغال والخيل كانت تحمل عليه حرير الصين (رغم معرفة الناس بدود القز) والخزف والورق المذهب وبعض الأحجار الكريمة . أما الطريق الثالثة التي تمتد نحو الجنوب والهند فكانت تستورد من أودية نهر السند العليا وجبال الهملايا والتبت العبيد الهندوس ، وأقمشة كشمير (من شعر الماعز) والعمود وبصورة خاصة مسك التبت (وهو افراز نوع من الغزلان عطر) ويأخذ الهند مقابل ذلك الذهب الذي كان يكتز والفضة . (والزوبية تعنى بالسنسكريتية الفضة) .

ب - وعلى الواجهة الشمالية : كانت أرمينية هي المركز ومنها مفترق الطرق إلى ما بين النهرين (الموصل وبغداد) والشام (حلب انطاكية - القاهرة) والأناضول (القسطنطينية) وإلى طبريزون كما إلى ما وراء القفقاس في ايتيل . وقد دخل الأرمن في نخاع الدولة الفاطمية وكان منهم أشهر وزرائها الأفضل الجمالي وابنه بدر، اللذين حكما الدولة ما يزيد على ستين سنة كما كان منهم فرقة أرمينية في الجيش . وقد كان مركزهم الاستراتيجي المتوسط يمنحهم المركز التجاري الممتاز . وكان لهم مكانتهم في دولة المهالك .

على أن هذه الواجهة كانت تضم أيضا منطقة الخزر ومدينة ارتيل على مصب الفولغا عبر القفقاس في الشرق وبيزنطة (القسطنطينية) من الغرب وكان جانب من طريق الصين يتفرع شمالا ليصل عبر السهوب إلى ايتيل التي كانت تنمو بتجارة المرور ثم إلى بيزنطة التي كانت بدورها تقوم بالتجارة نفسها . ولكن ضمن شروطها إلى أوروبا بوصفها الوسيط الإلزامي والموزع ، وتصدر إليها ما تستورد من العالم الإسلامي من المنتجات الرفيعة والمواد الأولية الثمينة ، إنه نوع من تجارة ما قبل الماركنتيلية تمارسه بيزنطة التي حوت جالية من تجار الشام خاصة لهم جامعهم وقاضيهم كما كانت في طرابزون

خاصة جاليات إسلامية عراقية وفارسية، وأرمينية وبلغارية وإيطالية استقرت بغرض التبادل التجاري. وبضائع المبادلة هي الحرير والأحجار الكريمة واللؤلؤ والبهارات والعاج والعطور وخشب الأبنوس والصدف والطيب. وتصدر بيزنطة مقابل ذلك المنسوجات الرفيعة (البروكار) المموجة والمخططة والكتان والمواشي والصوف وهذا ما كان يجعل الميزان التجاري والنزيف النقدي في صالح العالم الإسلامي ومدن الشام والعراق وأرمينية.

ج - وعلى الواجهة الجنوبية الغربية كان السودان الذي اتجهت إليه ثلاث حزم من الطرق من المغرب وقامت عليها المدن. وكان أبرزها سجلماسة في المغرب، وادغست في بلاد الزنج وبلغت الرسوم المفروضة على قوافل هذا الطريق زمن الفاطميين أربعمئة ألف دينار في السنة. وبضاعتها الأولى والأساسية هي الذهب والعبود مقابل الأقمشة والأدوات النحاسية والجلود والقطران والملح.

أما الواجهة الأولى والأخيرة فلم تكونا في العصر المملوكي تابعتين لهذه السلطنة التي قامت في منطقة البرازخ أواخر الحروب الصليبية واستمرت على احتكار تجارة المحيط الهندي رغم هجوم الصليبيين والمغول واحتلالهم سواحل الشام وأرض العراق. ولا شك أن هذا الاحتلال قد أثر على حركة الخط التجاري العالمي لكنه في الوقت نفسه سمح للمماليك باحتكار تجارة المحيط الهندي. وهكذا اقتسم هذا الخط التجاري الأوروبيون من ناحية البحر المتوسط والتجار العرب المسلمون من ناحية المحيط الهندي. وعنى المماليك أشد العناية بيمين الخطوط التجارية إلى حلب ودمشق وبسبوت وانطاكية وصور وعكا وعسقلان وطبرية وإبله عنايتهم بأمنها في عيذاب وقوص وأسبوت والاسكندرية ودمياط والفرما. وأقاموا أحسن العلاقات مع المدن الإيطالية (نابولي. البندقية جنوة) ومدن الفرنجة (مارسليا)، والمدن الأيبيرية الغربية برشلونه وبلنسية. ونشأت في مدن الشام ومرافئها كما في مدن مصر

ومرافئها جاليات تجارية أوروبية وفنادق وخانات وامتيازات أحيانا . وكانت الاسكندرية بعد القاهرة، ودمشق وحلب من أغنى المراكز التجارية .

غير أن فترة الرخاء التي امتدت حوالي القرن ونصف القرن اهتزت حين استولى المماليك الجراكسة على السلطة / سنة ١٣٨٢ / وكانوا جماعة مغامرة قضت ربع قرن في حرب أهلية بين بعضها وبعضا وأدى ضعف الحكم إلى تشجيع حركات البدو والتركمان باستمرار فقتلوا المناطق الزراعية في الشام ومصر . وزادت هجمات القراصنة الغربيين إضافة إلى التروحاء تيمور لNK فاكسح سنة ١٤٠٠ - ١٤٠١م حلب ودمشق وخربها ونقل صفوة الصناع المهرة منها إلى سمرقند في حين كان القرصان الغربيون يهاجمون السفن الإسلامية والموانئ الساحلية على المتوسط من المغرب وشمال أفريقيا إلى الاسكندرية إلى الشام، مما سبب الأضرار الكبير للتجارة العالمية ولحركة هذه التجارة .

ورافق هذه الأزمة انهيار النظام النقدي وتكاثر الأوبئة والمجاعات مما عطل التصريف التجاري كل التعطيل .

ومع أن فترة من الاستقرار والانتعاش النسبي بدأت في العشرينيات من القرن التاسع هـ / ١٥م واستمرت حتى الستينات منه وحركت التجارة والصناعة واستقرت خلالها حركة النقد إلا أن أخطارا كثيرة قد تجمعت لتهديم سلطنة المماليك وتجارتها مع المحيط الهندي . وإذا كان خطر القراصنة البحريين والبدو الداخليين لا يؤديان إلى زوال الدولة فإن هجوم العثمانيين من الشمال عليها والتفاف البرتغاليين من الجنوب على طرقها التجارية كانا كافيين لإزالتها لاسيما بعد أن طاش سهمها أمام الأخطار فاتبعت سياسية النهب وفرضت الضرائب على أنواع الإنتاج والبيوع وحاولت مشاركة التجار الكبار في كل المدن والتدخل في أعمالهم وزيادة رسوم المرور واحتكار

المنتجات الرئيسية (منذ زمن بارسباي / ١٤٢٢ - ١٤٣٨) كالسكر والقطن وتجارة التوابل وبيعها بأسعار عالية للأوروبيين مما ولد ردة فعل شديدة لديهم، وفرضوا شراء البضائع بأثمان يحددها السلطان أو ممثله، والتلاعب بعملة العملة وفرض اللاتاوات على التجار في الأزمات. وكان نوابهم في الشام أشد قسوة ونكرا وكان ذلك من أهم الأسباب في الإنهيار.

٢ - مدن التجارة الإقليمية : أبرز ما يميز الفترة الإسلامية هو نمو المدن ونمو الاستهلاك معها. فالتجمعات المدنية تجر معها المزيد من الاستهلاك لا بتزايد المتواليات العددية ولكن بتزايد المتواليات الهندسية. فكلما كبرت المدينة زادت حاجاتها أضعافا لارتفاع مستوى الحياة وبسبب الطبقات الثرية التي تتجمع فيها.

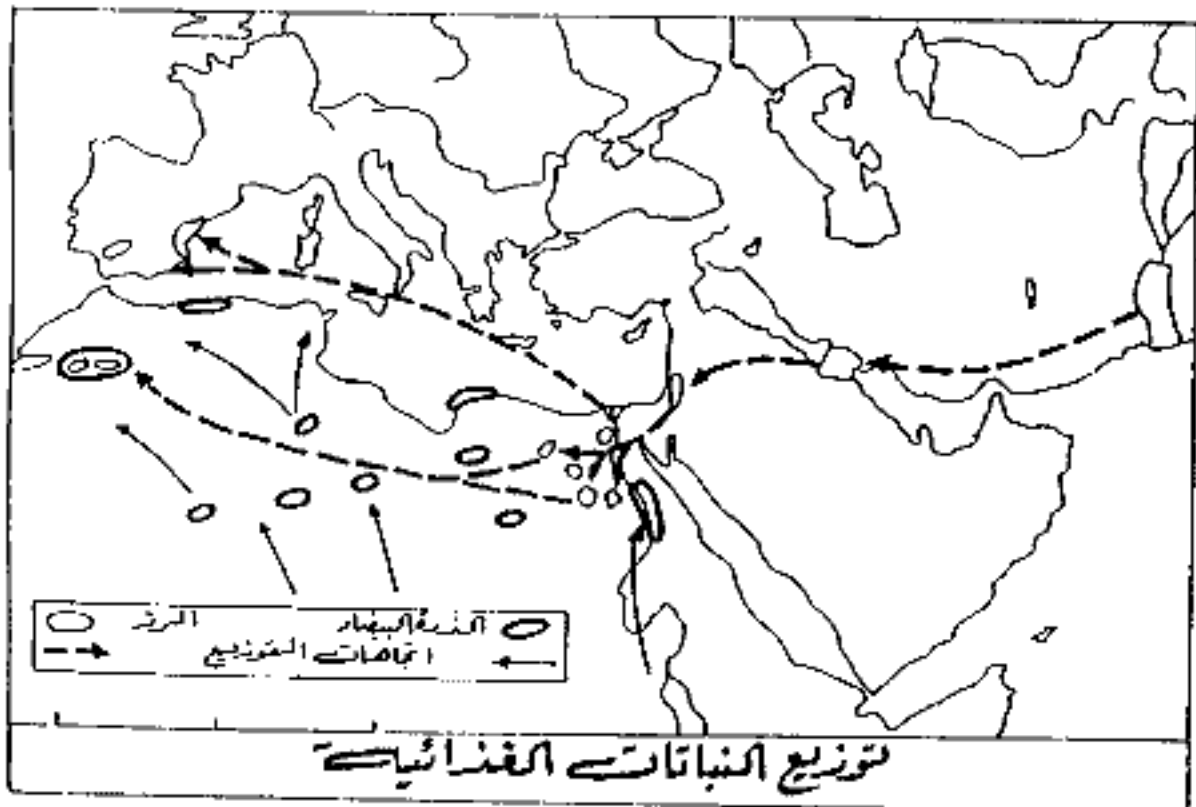
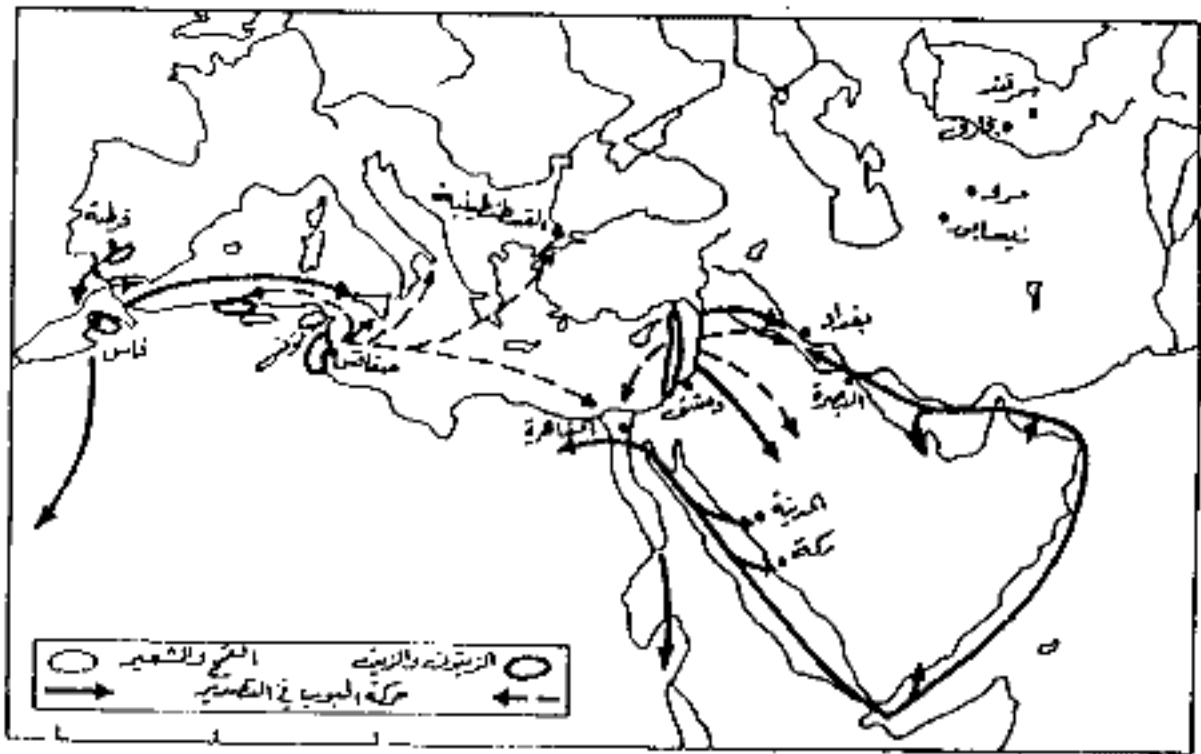
وتحرك التجارات الإقليمية يكشف مراكز التحريض على الاستهلاك كما يكشف أنواعه وتطورات الحاجة إليه حسب المواقع وحسب الظروف التاريخية المتقلبة. وقد نستطيع من خلال استعراض جغرافية التبادل أن نحدد المدن والمراكز الحركية في المكان (من خلال مشاكل التموين) وفي الزمان (من خلال تنوع طلبات الاستهلاك).

أ - في الغذاء : غذاء المناطق المستقرة على المتوسط أو في المشرق يقوم على الحبوب والزيتون والعنب، أما في المناطق الصحراوية فاللحوم والسمن. وقد نقل العرب المسلمون إلى مناطق الزراعة البعلية على المتوسط وفي إيران زراعات جديدة من الهند هي الرز وقصب السكر والحمضيات والنخيل وبعض الزراعات الصناعية كالقطن والنيلة وذلك نتيجة لانفتاح العالم الساساني والبيزنطي أحدهما على الآخر في الإسلام.

وقد وصلت زراعة قصب السكر والنخيل إلى اسبانيا (حول ملقة) كما وصل القطن إلى المغرب حول تاهرت وفاس، ونقلت الكرمة إلى مصر العليا



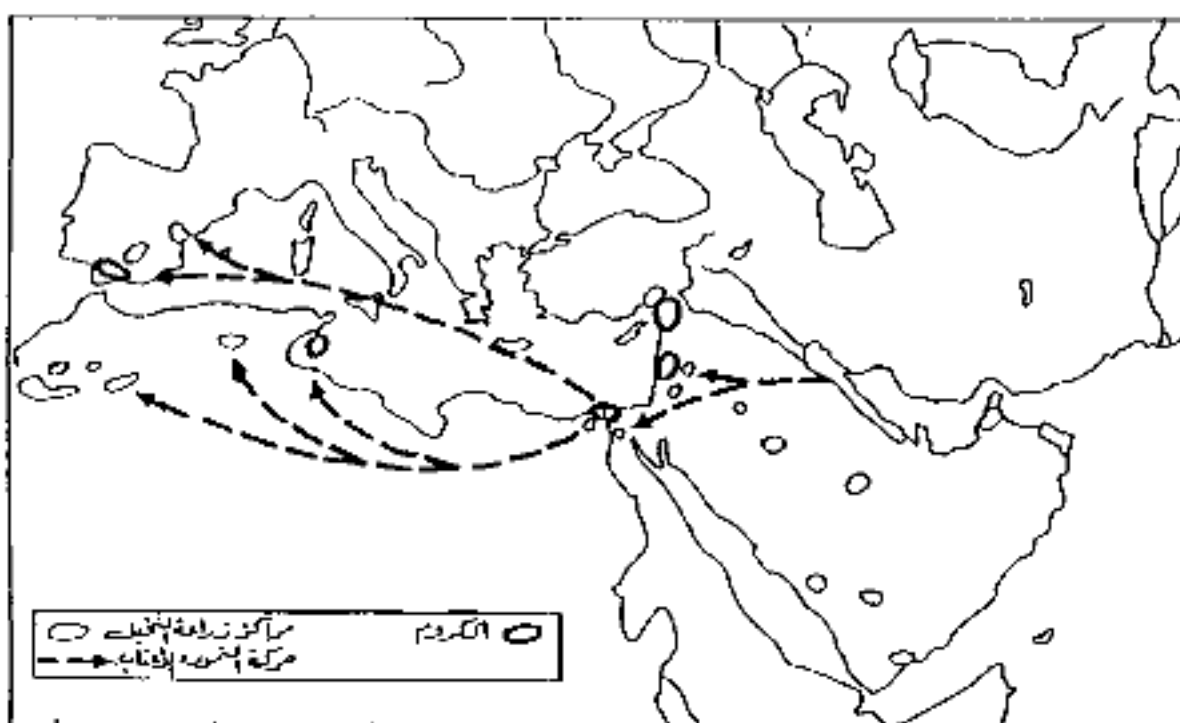
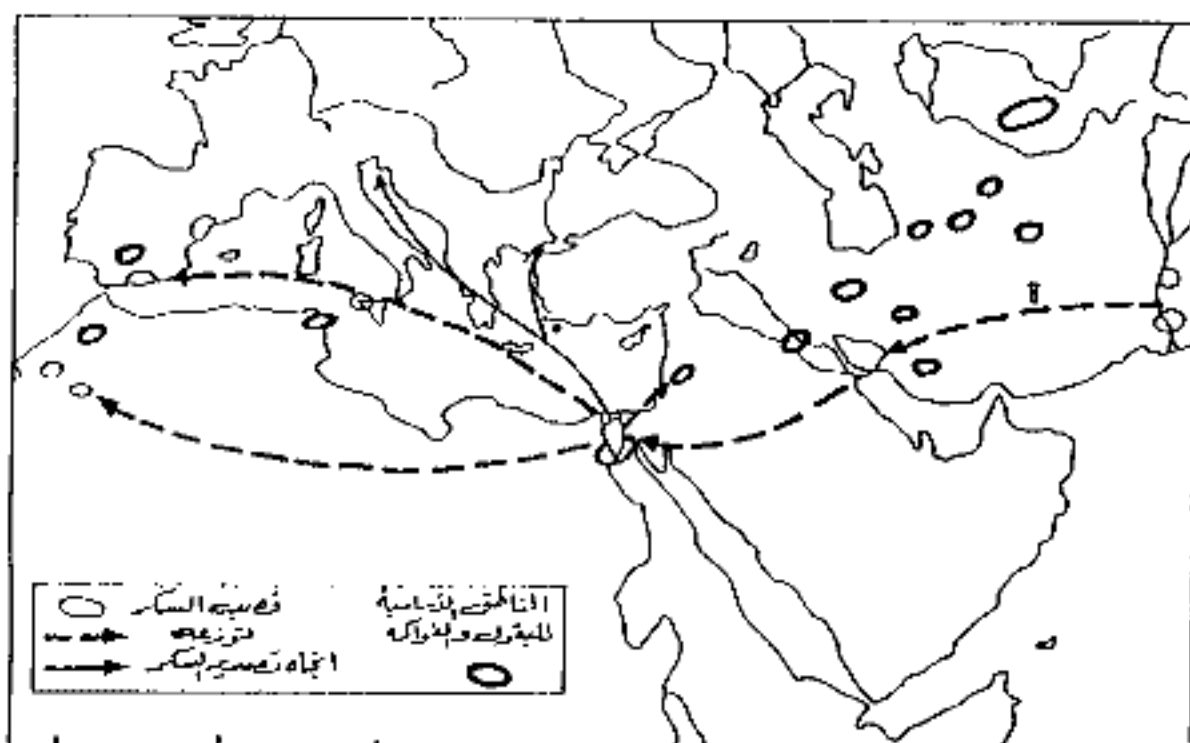
(أسيوط). أما الحبوب فقديمة في المناطق الكثيفة السكان ولها ثلاثة مراكز : مصر وكان يفيض منه ما يحمل إلى روما والقسطنطينية قديما ثم إلى مكة والمدينة وواحات ليبيا والنوبة في الإسلام ثم إلى البصرة وبغداد في العهد



العباسي . وكان للحبوب مركز ثان هو الشام وتصدره طحيننا إلى بغداد ومدن العراق ويلتقي هناك مع القمح المصري . أما الثالث ففي أفريقيا وكانت القيروان تصدر كل يوم ألف حمل جمل إلى تونس التي تعاود تصديره إلى صقلية (بالرمو) وإلى السودان (عبر سجلماسة) وإلى الأندلس (المرية وقرطبة) . وكان اتجاه الذرة البيضاء يجري بالعكس من السودان إلى النوبة والواحات وطبرق والجزائر . أما الرز فقد وصل في العهد الإسلامي إلى المناطق التي تلائمه في حوض المتوسط وصار يزرع في وادي الغور (طبرية) وفي الفيوم وجنوبي المغرب (السوس الأقصى) . وفي جنوب اسبانيا (جيان والفيهر وملقة) . وأما الزيتون فحول تونس وفي نابلس ودمشق وحلب وفي الأندلس ولا أثر له في مصر . وكانت مدن الأندلس (على الوادي الكبير) تصدره إلى المغرب ، وشفاقس تصدره إلى مصر وصقلية وإيطاليا وبيزنطة والمغرب الأوسط . وكانت الشام تحمل زيتها إلى مصر والجزيرة العربية وإلى ما بين النهرين . ثم نشأ الزيتون في منطقة فاس ومكناس التي صارت تسمى مكناس الزيتون . ويتلازم الزيتون مع الكرمة . وسورية تزرعها منذ القديم وتستخدم النبيذ في طقوس دينية وكان خمر فلسطين (وعسقلان خاصة) مشهورا كما اشتهر خمر دمياط ومربوط وتونس وملقا وبرينجو (في الأندلس) وخمر شيراز في إيران . وأما النخيل فكان الشجر المفضلة على الخليج العربي وفي ما بين النهرين . كما زرعت في جنوب سورية وفي مصر وجنوب تونس حتى وصلت ملقا وجيان في الأندلس .

وقد استقدم قصب السكر من الهند أيام كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩) فدخل منطقة الأحواز بشكل رئيس ومنطقة ومنطقة الخور في فلسطين كما دخل مصر في وقت مبكر لأن أوراق البردي تذكره وأن لم الجغرافيون في القرن الرابع . ولعله أصبح ذا شأن في العهد الفاطمي في القرن الخامس . وقد ذكر كثرتة ناصر بن خسرو في رحلته ولعل هذه الكثرة ناجمة عن انفصال

مصر عن المشرق بسبب نزول الفاطميين فيها. وقامت معاصره ومعامل السكر (في جندي سابور من الأحواز وفي طبرية واريحا من الغور وفي أسبوط والقيوم من مصر). ووصلت زراعة قصب السكر وادي السوس في المغرب والسواحل الأندلسية. إلا أن الأحواز ومصر بقيتا أهم منتجي السكر للعالم



توزيع النباتات الغذائية في العصر العباسي

الإسلامي . وكان جزء منه يذهب إلى بيزنطة والغرب وكثير منه كان يستهلك محليا . وقد ذكروا أن استهلاكه في شهر رمضان وحده سنة ٧٤٥ في مصر بلغ ثلاثة آلاف قنطار قيمتها ثلاثون ألف دينار منها ستون قنطارا كل يوم برسم الدور السلطانية<sup>(١)</sup> . وكان البلوري المصفى منه معروفا باسم القند . وقد جعل الأندلسيون من قصب السكر نباتا متوطنا في الأندلس ليستغنوا به عن سكر المشرق بسبب شدة الحاجة إليه .

وفي حين لا نجد اسما للسكر بين هدايا موسى بن نصير عقب الفتح إلى الخليفة بدمشق نجد كتابات المؤرخين والجغرافيين في القرن الرابع تتحدث عن محصول السكر الكبير في الأندلس (كالرازي وعريب بن سعد) وكانت مراكز إنتاجه وتصنيعه في البيرة (غرناطة) ومالقه والمنكب وجليانه وشمخاله ثم اشبيلية ولاسيا في جنوبها الشرقي عند جنة المصلي . وقد استمر إنتاجه إلى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ لدرجة أن الأسباب سمحوا لعدد من الموريسكيين (المعاهدين) العاملين في صناعة السكر بالبقاء في ديارهم فرفضوا . وكان من نتيجة ذلك تضاؤل إنتاجه<sup>(٢)</sup> . وأول إشارة إلى وصول السكر إلى البندقية فتعود إلى سنة ٣٨٧ / ٩٩٦<sup>(٣)</sup> .

ب - الخشب : الغابات محدودة جدا في العالم الإسلامي لقدم استشهارة والحضارة فيه . ولذلك كان الجوع إلى الخشب مشكلة دائمة في مدن هذا العالم للبناء ولبناء السفن وللوقود . وإذا استثنينا شمال سورية وخشب لبنان وغربي الأندلس فلا نكاد نجد من غاب حقيقي على أطراف البحر المتوسط الإسلامية . وكان وقود الصناعات المتوسطة (من التدين إلى الزجاج

(١) المقرئبي / الخطط ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢) الحميري ، الروض المعطار ص ٢١ ، ٢٤ ، وياقوت معجم ، ج ٣ ص ١٣٠ .

(٣) لومبارد ص ١٩٦ .

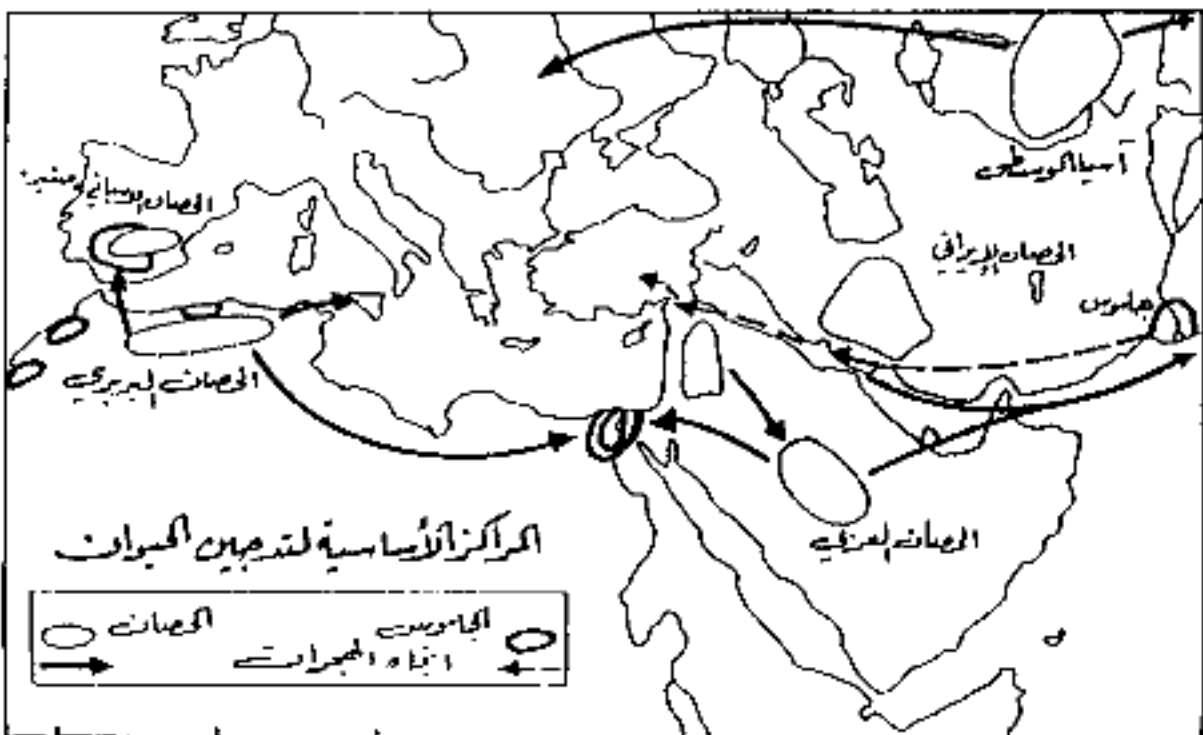
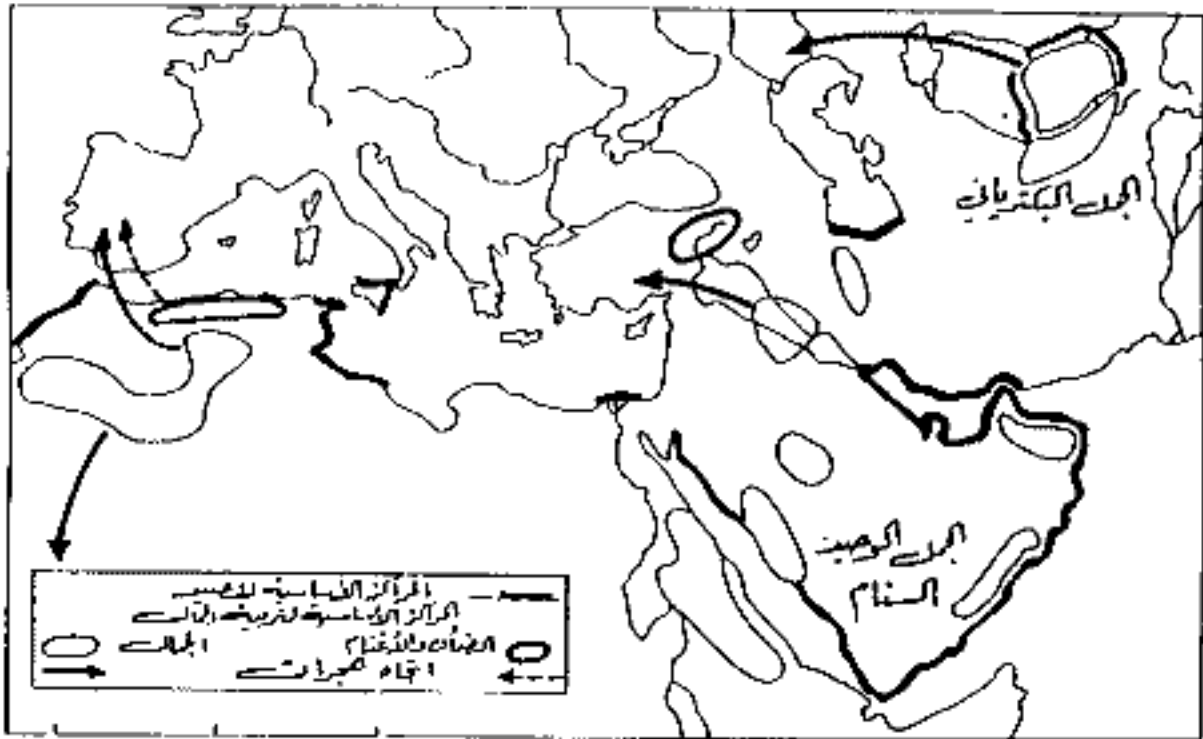
إلى تصفية قصب السكر) . . وأعمال البناء وإقامة الترسانات البحرية والنهرية وصناعة الأثاث ما تنفك تستهلك الكثير منه، لذلك كان إحدى المواد الأساسية في الاستيراد الإسلامي من الغرب ومن بيزنطة وبخاصة من الهند وشرق أفريقية إلى ما بين النهرين ومصر وتونس . وكان في الوقت نفسه مادة استراتيجية كالسلاح يمنع تصديرها في الأزمات ويعاقب عليها بأباطرة بيزنطة كما يعاقب الباباوات . وكانت البندقية تهربها أيام الحروب الصليبية إلى مصر . وقد أحرقت في القسطنطينة سنة ٩٧١ ثلاث سفن بندقية تحمل الخشب إلى المهديّة في أفريقيا وإلى طرابلس<sup>(١)</sup> . ولهذا كان المسلمون يدفعون ثمنه بالذهب ولم يبدأ الشعور في أوروبا بصعوبة تموين المدن الكبرى الإسلامية بالخشب إلا منذ القرن الثامن / ١٤ م . وقلّة الخشب دعت إلى تزيينه وزخرفة صناعته في الأثاث والأواني في مختلف المدن الإسلامية .

ج - عني أهل المدن الإسلامية بنوعين من أنواع من الحيوان :

— حيوان الركوب : وكان الحصان قليل العدد غالي الثمن ولا يركبه في المدن إلا ذوو الشأن العظيم كالخلفاء والوزراء في بغداد والقاهرة والقيروان ونيسابور وقرطبة ، وقد يستخدم في الحروب للفرسان رغم قلته . وكان له أنواع فمنه الحصان العربي المعروف بدقة الساق وسرعة العدو، والحصان التركي المغولي في تركستان وهو صغير القامة ضخم التقاطيع مكتنز، صبور . والحصان الإيراني الكبير القامة القوي ، والحصان البربري الصغير الشديد القوة وقد ظهر من تصالب العروق أيضا الحصان الأندلسي . وكانت لتربية الخيل أصولها وعلومها وكتبها الخاصة بها في العالم الإسلامي . وكثيرا ما تحمل

(١) لومبارد ص ٢٠٥ .

محله البغال الغرة . وكان كبار التجار في المدن يركبون الحمير وتربى وتستخدم البغال والحمير للجر كما يستخدم الجاموس في مصر للجر وتحريك النواعير . وأما الجمل ذو السنام الواحد فكان منتشرًا في البوادي والأرياف الإسلامية



### تنوع الأنواع الحيوانية في العصر العباسي

كلها وقلما يدخل المدن إلا لإيصال قافلة أو جماعة عسكرية . ويظهر الجمل ذو السنامين في ما وراء النهر .

– حيوان الغذاء وكانت جميع المدن تستهلكه بكميات واضحة والمقدسي يكاد لا يترك مدينة إلا ويتحدث عن لحومها أنها كثيرة أو عاسية أو طيبة . وكان العالم الإسلامي في مابين القرنين الأول والسادس / ٧ - ١٢ المنتج الوحيد للصوف إن شئنا الانتاج الضخم الجيد . ومنه صوف المريني الجيد الذي أدخله البربر المرينيون إلى اسبانيا .

د – المعادن : كانت صناعة المعادن تأكل الغابات ولذلك قلت في العالم الإسلامي . والفقر في المعادن يرجع إلى استئثارها القديم الطويل في المنطقة الحضارية الإسلامية . ولهذا كانت السفن تذهب بعيدا للبحث عن الحديد في شرق أفريقيا وفي الهند .

وكانت حاجة البلاد الإسلامية إلى الفولاذ تجعله مادة استيراد أساسية من الهند كالتوابل . وكان يحمل حديده من شرقي إفريقيا إليها ، حتى أصبحت السيوف مشهورة بالهندية ، وأصبحت كلمة آند الإسبانية تعني المرأة المصقولة من الفولاذ . وكان تصنيعه يجري في دمشق كما تقدمت تقنية عمل الحديد القادم من أوروبا في المغرب لصنع الأسلحة والدروع . وكانت مصانعه في طليطلة وغرناطة واشبيلية ومرسية والمرية حيث تصنع السيوف والخوذ والدروع - وتصنع في مدينة سبتة أسلحة الرمي . وتتوارث الأسر صناعتها . واشتهرت فاس بالسيوف المعتمدة على مناجم بني سعيد المجاورة وكان المسلمون يستوردون السيوف أيضا عن طريق منطقة الأنهار الروسية . أما النحاس فقد كانت مناجمه في الجزيرة ، بأعلى العراق وفي مراكش وفي اسبانيا ومنها يحمل إلى بغداد والقيروان وفاس وقرطبة للتصنيع : أباريق وأواني وأقداحا ومرايا ومصابيح وشمعدانات ومباخر ومكاحل وقد يكتفون

بالفضة . وكان الحرفيون تجار المواد النحاسية موجودون في جميع أسواق المدن الإسلامية الكبرى . وكان خراج النحاس السنوي باصفهان عشرة آلاف درهم .

وأما الذهب فكانت القوافل الإسلامية تذهب بعيدا للبحث عنه في أطراف العالم الإسلامي وبخاصة في السودان الغربي وفي جبال القفقاس والأورال والطاي وفي الهند وفي الغرب الهمجي وشرقي إفريقيا . ولم تكن بلاد المسلمين تحوي إلا القليل من مناجم الذهب في الجزيرة العربية (معدن بني سليم) وأرمينيا وكرمان وتركستان ، وفي وادي التاجة من اسبانيا وجبال النوبة (العلاقي) في جنوبي مصر . وكان يستخدم في صك الدينار وفي الصياغة ومثله الفضة التي كانت تمتد مناجمها من القفقاس إلى جبال تيان شان وشمال كابول . كما يوجد في الأندلس بكثافة ، ويوجد هناك الزئبق قرب قرطبة . ويعمل به أكثر من ألف رجل . أما الملح فكان بضاعة التجارة الأساسية مع السودان ويحمل إليها بقوافل من آلاف الجمال .

وعرف المسلمون أخيرا النفط واستخدموه كمادة حربية للإحراق في النفاطات ، وكدواء لبعض الأمور . وكان يستخرج في المشرق في إيران والعراق وصقلية . ويحدثنا الرحالة أبو دلف الخزرجي (من القرن الرابع) عن عيون النفط في باكويه من أعمال شروان في طبرستان ، وكيف أن قبالة (ضمان) كل عين منها يبلغ ألف درهم في اليوم<sup>(١)</sup> . ويصف لنا ابن الشباط التونسي (من القرن ٧) طريقة استخراج النفط من شرقي سرقوسة في شرق صقلية وكيف أن الرجل الذي ينزل البئر كان عليه أن يغطي رأسه ومسام أنفه وإلا هلك لساعته<sup>(٢)</sup> .

(١) أبو دلف - الرسالة الثانية ص ١٢ .

(٢) ابن الشباط : وصف الأندلس ص ١٨٥ نشر أحمد مختار العبادي .

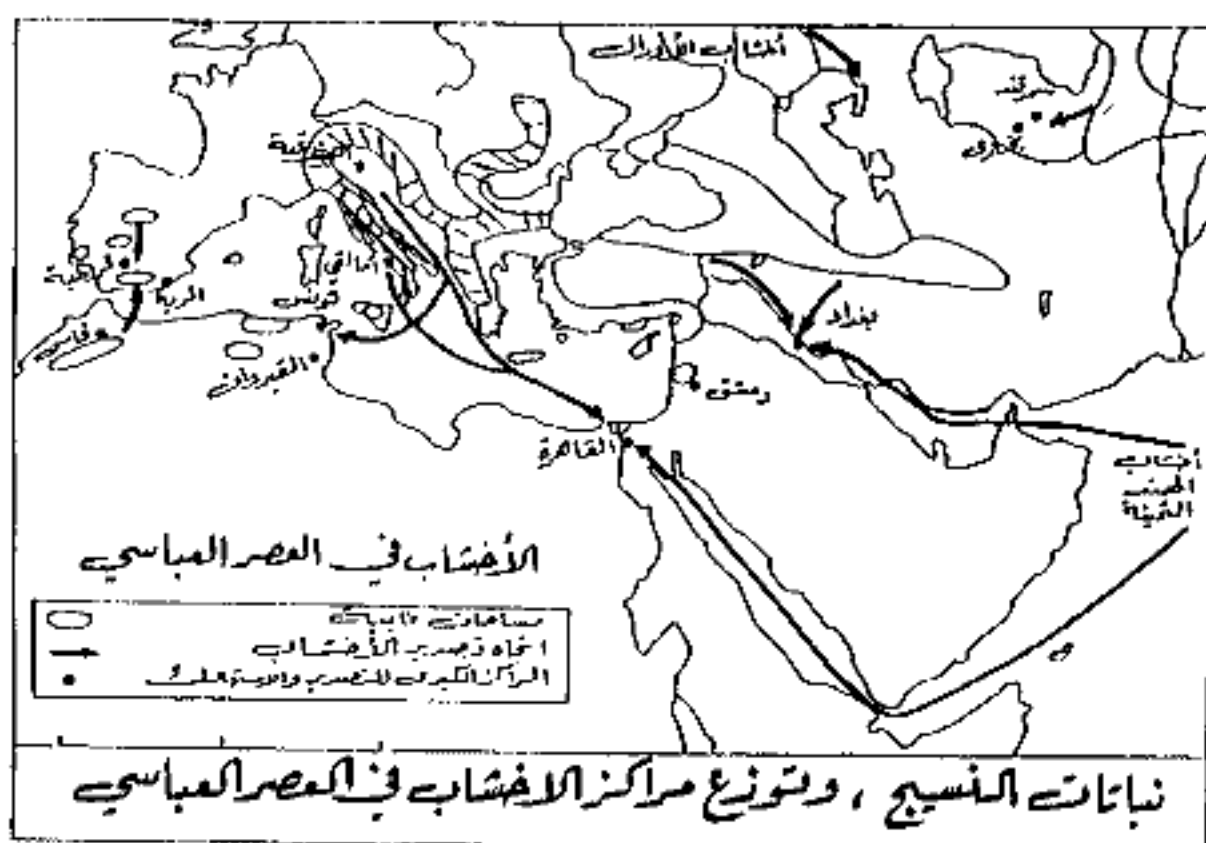
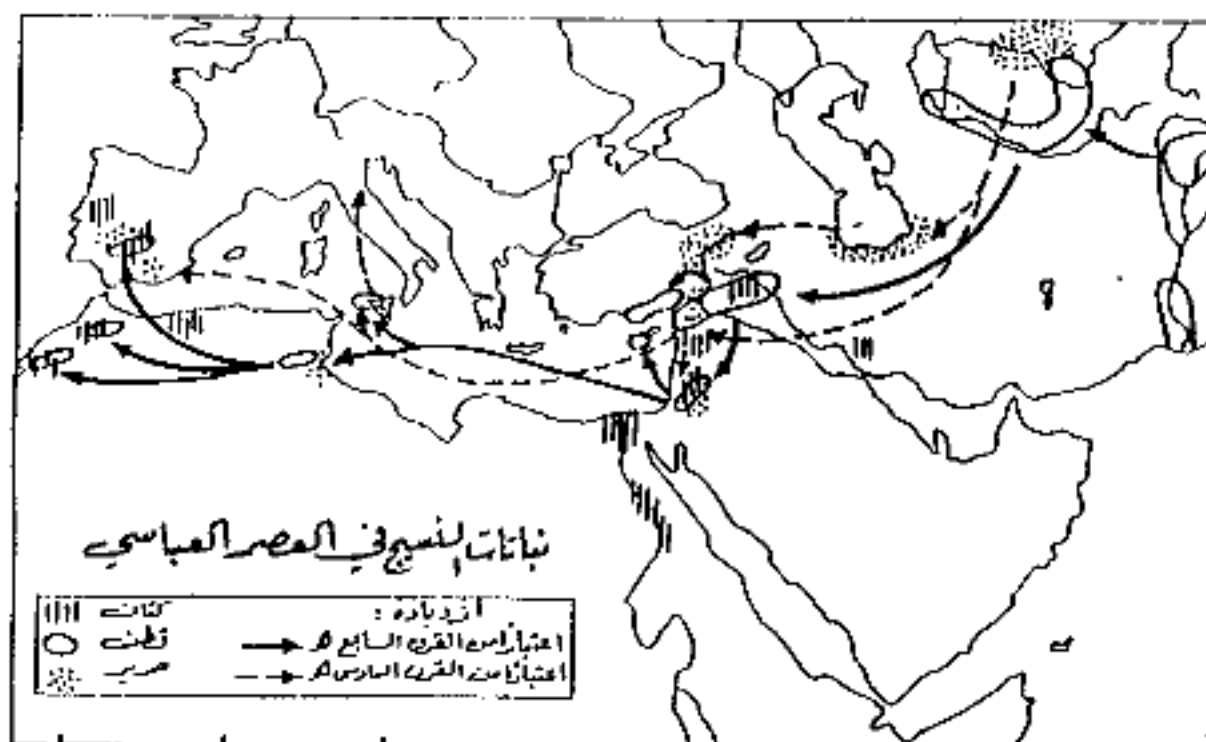


ح - النسيج : الحضارة الإسلامية حضارة نسيج في الدرجة الأولى سواء كان للألبسة أم للأثاث . وكانت مواد النسيج متوفرة من صوف وقطن وكتان وحرير . وكان نسيج الصوف في آسيا الوسطى وأرمينيا والمغرب .

وكانت مرو تصنع النسيج الصوفي الخفيف ، واختصت نيسابور وبلخ بالقطع الكبيرة التي كانت ترسل إلى بغداد ومصر ويصدر منها بعض حتى الصين . وصنعت الموصل أقمشة قطنية رقيقة عرفت بالموصلي (الموصلين) ، كما صنعت أقمشة قطنية سميكة عرفت بالدمشقي (الدامسكو) وكانت أصناف الأغطية Chinchilla والمطرزات والسجاد تبحر من بازا وكالسينا في الأندلس عن طريق اشبيلية وملقة ودانية إلى موانئ مصر ، كما تصنع المرية أقمشة رائعة ذائعة الصيت في العالم .

أما الأنسجة الكتانية الممتازة فكانت في وادي النيل (كالقصب والشرب والديقي) وله مصانعه في تيس ودمياط وشطا . وكان موجودا في الأحواز وفي كازرون والسواحل الفارسية من الخليج (جنابة وتوز وسينيز) ، وفي الشام والمغرب وإسبانيا . ثم تراجع الكتان أمام القطن في مابين النهرين وفي الشام . كما تراجع في الأحواز وفي مصر نفسها أمام قصب السكر . وقد دخل القطن حوض البحر المتوسط من الهند مع دخول الإسلام إليه . ووجد أولا في الشام مابين حلب والموصل وفي الغور . وكانت مصر تستورد القطنيات من الشام ثم وصل القطن شمال أفريقيا (جنوب تونس ووادي أم الربية وسهول تداق المغرب حتى السوس الأقصى) . ووصل الأندلس (في الحوض الأدنى للوادي الكبير) وصقلية (حول بالرمو) واشتهرت الصناعة القطنية في معظم مدن خراسان (مرو . هراة بلخ . نيسابور) وفي سينيز وكرمان وكان بعض القطن يطبع بالصور بمحفورات من الخشب في فارس وفي بخارى مما وراء النهر .

ورافق الحرير انتشار القطن في منطقة البحر المتوسط منذ القرن السابع الميلادي الذي انتشر من تركستان إلى الأندلس بما في ذلك الشام وتونس وصقلية. ومع ذلك ظل استيراد الحرير الصيني قائما على شكل نسيج لا مادة



أولية، وكانت مناطق العالم الإسلامي تصدر نسيجها الحريري إلى بيزنطة وإلى أوروبا وتتفنن في صباغته بتقنيات مختلفة، وفي نسجه بطرائق مختلفة.

واشتهرت أرمينيا وتركستان وفارس ومصر بالسجاد والبسط. وكانت طريقة (غوبلان) معروفة في مصر. وكانت كل من الأندلس وأسيوط والشام والمرية وانطاكية وأسبانيا ومصر تقلد السجاد الأرميني أو القماش الجرجاني أو الاصفهاني أو الدابقي المصري أو العنابي البغدادي، كما يقلدون القماش الصقلي في الأندلس وما بين النهرين. وبصورة عامة صار لكل منطقة نسيجها الخاص بها سواء في نوعه أم في طريقة الصناعة أم في الجودة. وبعضها كان يحمل اسم المدينة التي صنع بها. وتميزت العواصم بدور الطراز ففي بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة دور نسيج تعمل للسلطات ما يلزمها من النسيج «الرسمي» ضمن مواصفات معينة. وبعض هذه الدور كان بعيدا عن العاصمة (في فارس والأهواز وبخاصة مدينة قرقوب بالنسبة لبغداد)، وأطراف الدلتا البحرية بالنسبة للقاهرة) وعرفت مدينة فزا في فارس بحراثرها الموشاة بالذهب والفضة، وبالوشي (وهو قماش حريري سميك متموج الألوان شاع استعماله في بلاط المعتصم). وبالسجاد وأغطية القز. وبالسوسنجر (التطريز النافر). وكان في مصر سلسلة من المدن الصغيرة الصناعية تعد أكثر من عشرين ولكل منها طرازها المختلف. ومن أهمها دمياط ودابق وتنيس التي كان فيها خمسة آلاف نول تعمل كل عام لنسيج ثوب الكعبة. وكانت مشاغل الدلتا متخصصة فبعضها لنسيج الأقمشة البيضاء وبعض لتبييض الخيوط وبعض تعمل في كيهها ورابعة في صقلها وخامسة في تلميع الحرير والصباغة أو التوشية بخيوط الذهب. وكل هذه المنتجات كان تصدر بعيدا إلى بيزنطة والأندلس والمشرق. وكانت تقنية عملها تصدر وتقلد، كما قلد القصب والدابقي في ما بين النهرين وفارس والأندلس.

وكانت مناسج الشام ومصر على الأنوال اليدوية من الحرير هي المتعهدة لتصديره في عالم العصر الوسيط . وقد تهافت عليها الأوروبيون وكانت من أئمن ما ينهبه أو يكتسي به الصليبيون أو يكفنون به رفاة موتاهم .

وكانت صناعة الكتان في مصر بالغة الاناقة في دمياط . وقد احتكر الفاطميون والايوبيون ثم المهاليك صناعتها وتصديرها وكان عليها رقيب شديد من الدولة يحصى كل شيء عددا . وقد زرع الكتان في فارس وأذربيجان وأستقر آلاف كثيرة من نساجيه في هاتين المنطقتين . وقد وثق الناس بامانتهم لدرجة أن بضاعتهم كانت تنتقل من يد الى يد في التجارات دون حاجة الى التحقق من عددها أو طولها أو جودتها . وكان ثمن الثوب الدقيقي قد يصل الى مائة دينار وقد يبلغ المائتين اذا خالطه الذهب وأثواب تنيس الفخمة تسمى البدنة وتصنع للخلفاء وفيه أوقيتان من الغزل واوقية من الذهب وتبلغ قيمته ألف دينار . وتصنع بالفيوم الستور الثمينة طول الواحد منها ثلاثين ذراعا وقيمة الزوج منها ثلاثمائة دينار . وحتى أواسط القرن الرابع كانت تنيس تصدر للعراق وحدها ما تبلغ قيمته ما بين عشرين الى ثلاثين ألف دينار وأنقطع ذلك بدخول الفاطميين الى مصر . وفي القرن الخامس ظهر نسيج جديد مقلّم عرف بابي قلمون ، وغالبا ما تكون صناعة النسيج وخاصة في مصر منزلية يشتغل بها النساء بالغزل والرجال بالنسيج وتجار القماش يدفعون أجورهم . ( وكان أجر النسيج في القرن الثالث نصف درهم يوميا ) ولا يفى ذلك بثمان الخبز الذي يأكله . وإنما كان يرتفع ثمن النسيج بالمكوس والضرائب والاحتكار .

و - الزجاج والخزف : لجأ الامويون سواء في الاندلس أم في الشام الى تزيين مبانيهم بالفسيفساء وكانوا يستقدمون الخبراء فيها من بيزنطة لكن العالم الاسلامي أستغنى عن ذلك منذ العهد العباسي وأكتفى بكساء الجدران

في القصور والمساجد والابنية الرسمية بطبقة كلسية مزينة بالخطوط المتشابكة أو بالزهور المحورة وملونة أحيانا بالذهب .

وأما الزجاج فهو صناعة قديمة جدا في الشام وقد بقيت مع مصر المركزين الكبيرين لصناعة الزجاج وتلوينه في العالم الاسلامي .

وقد نشأ مركز جديد للزجاج في إيران أخذ يصدر بكميات كبيرة ما يسمى بالزجاج العراقي الى أسبانيا . وكان بعض الزجاج الاسلامي الملون أو المخروط أو المنقوش يصدر الى الصين التي كانت تبادله بالخزفيات . وقد نهب الصليبيون الزجاجيات الكثيرة من الشام (ومن القدس خاصة) وفي ظنهم أنها حجارة ثمينة كما كانت البندقية تستورد الزجاج المكسور لاعادة صهره وصنعه (زجاج مورانو) . ونشأ مركز للزجاج في الاندلس حاول صنع الكريستال . وأشتهر زجاج دمشق برقته وصفائه وتذهبه ، وزجاج حلب بدقة الصناعة والاواني والالات . وكان صفاء الزجاج في صور مضرب المثل كما وكانت القاهرة والفسطاط تصنعان أقداحا شفافة تشبه الزمرد ، ويصنع البلور المصفى في العراق وفارس (في سامراء خاصة) وتصدر جميع هذه الصناعات الى أنحاء العالم الاسلامي وألى أوروبا وبيزنطة . وتمتلىء المتاحف اليوم بالاقداح والانية ، والقناديل والاباريق الموشاة من الزجاج والتي يعطي بعضها طلاء بألوان الطيف أو البلاتين المعدني المتغير الالوان كقوس قزح .

وقد بدىء منذ القرن الخامس / ١١ م بصناعة صحائف الزجاج التي استخدمت في النوافذ ثم بدأت بعد قليل صناعة القناديل الملونة للمساجد وصنعت المصابيح المزينة بالنقوش والرسوم الزهرية . وقد زينت المساجد في مصر والمغرب بحواجز زجاجية ملونة دقيقة الصنع جدا وأدخلت هذه الصناعة الى صقلية في القرن الثاني عشر .

وفي حين كانت حلب ودمشق تصنعان عجائب من الزجاج بمساعدة

رسوم كالوان الطيف في هذا القرن دخلت الصناعة الى البندقية عن طريق الشام ومصر فاحتفظت بسرهما من القرن ١٣ حتى القرن ١٧ . وكان الشعراء يتغنون بجمال الزجاج المشرقى . ويقول أبو نواس :

وأما الخزف فكان لدى العالم الاسلامي ثروة منه تصنع في ما بين النهرين وأيران والشام والمغرب والاندلس . ولكن هذا لم يبلغ استيراد الخزف الصيني الممتاز لمختلف القصور رغم تفنن المسلمين في تزويق خزفهم وتلوينه وضمان لمعانه بتقنيات أبتكروها له بخاصة في الرقة وبغداد وقاشان . وصنعت من الخزف الصحون والاباريق والقراميد المزخرفة كما صار في جوامع المشرق كله بلاطات بلون أزرق أو مختلف لتغشية البوابات الضخمة والمحاريب وأصول الجدران في القصور والابنية الضخمة .

وفي القرن الثالث / ٩م وتمت تأثير الصناعة الصينية، صنعت في خراسان وأفغانستان، وفي سامراء والسوس بفارس وفي الرى والرقة تحف من خزف متنوع تمتاز بحسن الشكل والتناسب وغنى الالوان وتذكر بخزف الصين . وقد نجحت بعض مراكز الخزف في تقنيات تجعل مصنوعاتها لامعة، حسنة الزخرفة بالزهور والصور والمناظر والكتابة المذهبة عليها . وأختصت الموصل بالالوان التي تحمل النقش البارز . ولم يكن للخزف في المشرق، بذوقه الرفيع ومهارة صناعية، من منافس عالمي لمدة سبعمئة سنة .

وذكر ناصرى خسرو (القرن الخامس / ١٠م) أنهم «يصنعون في مصر خزفاً بالغ الشفافية والرقة حتى لو وضع المرء يده في أحد جوانب الخزف رآها من الجانب الاخر من شدة الشفافية ويتخذون من هذا الخزف الاقداح والاطباق والظروف ويلونون ذلك الخزف بالوان جميلة فيبدو كذيل الطاووس فيه كل الالوان الجذابة . ويصنعون من ذلك الخزف أباريق يعلو

صفاؤها على صفاء الزبرجد ويبيعون تلك الابريق وزنا كأنها الذهب . . « (١)

ز - الاحجار الكريمة : وكان العالم الاسلامي يحتكر هذه التجارة بسبب توفر الثروة فيه . وقد بقى الزمرد المستخرج من الجزيرة العربية وأعلى مصر الزمرد الوحيد المعروف حتى اكتشاف امريكا . وكان في جبال البامير ياقوت البلخش ، أما الماس فتقدمه الهند وسرنديب في حين تقدم المغرب والاندلس حجر الكريستال . وغلاء هذه الاحجار نسج من حولها أساطير ونسب اليها خواصا سحرية . وقد ألف عنها من قبل عدد من العلماء كتبا عديدة كالجواهر في معرفة الجواهر لليروني . وفي المتاحف منها اليوم كثير من الحجارة المنحوتة وعليها الصور المختلفة . ويمكن أن نضيف اليها العاج ولو أنه عظم حيواني لكن ندرته جعلت منه مادة للحفر والنقش وصنع الصناديق الصغيرة أو مقابض السيوف أو التكفيت وأشتهرت بذلك مصر الفاطمية .

ح - الورق : منذ عرف سر صناعته في أواسط القرن الثاني / الثامن م / في سمرقند زحف بسرعة حتى وصل الاندلس . وكانت الدولة والناس قبل ذلك يستعملون البردى الذي كان بضاعة استراتيجية حكومية في مصر تتصرف الدولة بتصديرها . وكانت الدواوين ومعاملات الناس تكتب على البردى ويستعملون الجلود الرقيقة (الرق) لكتابة القرآن والحديث كما يستعملون القماش . وكانت الجلود تغسل ويكتب عليها من جديد . وحدث سنة ١٣٤ / ٧٥٢ أن أسر اثنان من الصينيين في سمرقند يعرفان صناعة الورق ومنطقتهما حقول واسعة من الكتان والقنب فصنعاها . وانتقل من هناك بسرعة الى بغداد ودخلت به سمرقند في المنظومة الاقتصادية الاسلامية حين قرر جعفر البرمكي أستبداله بالبردى في الدواوين سنة ١٧٧ / ٧٩٤ أو ٧٩٥ رغم صعوبة غسله وإعادة الكتابة عليه وأنشأ مصانع

(١) ناصري خسرو، الرحله، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

الورق في بغداد. ثم انتشر الى الشام (في دمشق وطبرية) ولم يلق صعوبة كبيرة في مصر لكنه آذن صناعة البردى بالزوال فيها خلال القرن الثالث / ٩م فيها كانت صناعة الورق تصل صقلية والاندلس. وهكذا انتشر الورق منذ هذا القرن في جميع أنحاء العالم الاسلامي. وكانت مصانعه المشهورة في الشام حيث صادفت زراعة القنب ظروفًا مناسبة. ووجدت نسخة من القرآن كتبت على الورق في مصر من القرن الثالث الهجري. أما بعد ذلك فكانت الوثائق والكتب تكتب على الورق وأفتحت في جميع المدن دكاكين الوراقين فلم يبق من البردى سوى اسمه وتخلت عنه بيزنطة والبابوية في نهاية القرن الرابع / العاشر لكن تقنية صناعة الورق لم تنتقل الى أوروبا الا في القرن السابع / ١٣م. حين أسست مصانعه في جنوب إيطاليا وجنوب غرب فرنسا في حين ذكر الادريسي (القرن ٦ / ١٢م) أن بمدينة شاطبة بالاندلس من الكاغر مالا يوجد له نظير بمعمور الارض وانه يعم المشارق والمغرب (١) كما قامت هذه الصناعة في مدينة بلنسية وبيدو من المخطوطات المحفوظة أن ورقها من القطن والكتان وبعض الالياف. أما في المغرب فقد كانت مدينتا فاس وسبتة في طليعة مراكز انتاج الورق أيام الموحدين في القرن السادس / ١٢م.

ط - النخاسة : تجارة العبيد كانت منتشرة في جميع أنحاء العالم من الرجال والحواري وكانت ذات أهمية كبرى لانها تقدم الايدي العاملة اللازمة لكل عمل. . . . وللعبيد أربعة مخازن : الزنج من السودان، وشرق أفريقيا، والترك من سهوب تركستان، والصقالبة من روسيا. ويجرى خصاء بعضهم في أرمينية والصعيد وفي فردان بفرنسا وحركتهم عبر المدن الاسلامية كانت مستمرة. وفي كل مدينة دار للنخاسة. ولها قيم يشرف عليها من قبل

(١) الادريسي : نزهة المشتاق (ط. دوز ودي خوية) ص ١٩٢.



السلطان ورسوم ومراقبة من المحتسب . وكثيرا ما كان النحاسون يقومون بالتجميل لبضاعتهم الادمية بمختلف الدهون ويتميز الرقيق من كل جنس بميزة وتؤلف في ذلك الرسائل (كما فعل الجاحظ). وكانت أكبر مراكز بيع العبيد في جنوبي الجزيرة العربية وفي مصر وفي خراسان وفي فاس وقرطبة، كما كان الكثير من النحاسين في أوروبا من اليهود. ولا يسمى العبد عبدا بل فتي أو جارية ويعامل المعاملة الطيبة ومن ذلك قول سعيد بن هاشم الخالدي :

ما هو عبد لكننه ولد خولنيه المهيمن الصمد.  
قد شد أزري بحسن خدمته فهو يدي والذراع والعضد.

لاسيما بعد أن صاروا يدخلون الجيش ثم صاروا في العهد المملوكي الجيش كله . وكان منهم قسم محدود من الصناع ومنهم كل خدام القصور وجواربها . وكان الزنج منهم تتجه تجارتهم من المغرب إلى المشرق، ومن شرقي إفريقيا إلى الخليج والعراق وفارس، أما الصقالبة فكانوا يأتون عن طريق الخزر في الشمال أو عن طريق الأندلس والبنديقية في المغرب ويتوزعون بخاصة في مصر والشام والعراق . ويأتي الترك في الطريق المعاكس من أقصى المشرق ويتوزعون في العراق والشام ومصر وقلما يصلون المغرب . وكانت تجارتهم ضخمة الأرباح جدا . ومن الصعب تقدير أعدادهم ولكن احصائيات ثلاثا متوالية عن الصقالبة في قرطبة قد تعطي فكرة عنهم فقد زادوا خلال خمسين سنة من حكم عبدالرحمن الثالث (٣٠٠ - ٣٥٠/٩١٢ - ٩٦١) من ٣٧٥٠ إلى ٦٠٨٧ إلى ١٣٧٥٠ رجلا . وتقديرات الزنوج في ثورة الزنج في جنوبي العراق تجعلهم حوالي عشرين أو ثلاثين ألفا . وقد ذكروا أن المعتصم استقدم، حين استقدم من الترك سبعين ألفا جعلهم حرسه . وكلها حالات قصوى وليست بالأحوال العادية التي يبني

عليها التقدير الواسع ومثل ذلك ما رووا عن آلاف الغلمان والجواري في بعض قصور الخلفاء العباسيين وما يرويه نصري خسرو عن قصر الخلافة في القاهرة قائلا: «ويزعمون أن في القصر إثني عشر ألف خدام. أما نساء السلطان وجواريه فلا يعلم أحد عددهم إلا تخميناً. ويقولون أن تعداد كل من بالقصر يصل إلى ثلاثين ألف شخص». (١).

وليس ثمة تقديرات أخرى سوى ما يذكرون من وجود عدة آلاف من الرقيق في بعض القصور الخلافية أو غيرها، أو عدة آلاف من الجواري في تركة متمول كبير. لكن يجب ألا نتخذنا هذه الأرقام عن أمر هام هو أن الجمهرة الكبرى من الناس لم تكن تملك العبيد ولو هان ثمنهم في بعض الظروف إلى عشرة وعشرين دينارا فهم لا يشترونهم لأنهم لا يقومون بأودهم واسكانهم، في حين أن الثمن العادي كان بين الخمسين والألف دينار. وكان للأحداث السياسية أثرها في كثرتهم وقلتهم. وقد ارتفعت اثمان الصقالبة ارتفاعا خاصا حين ضربت الثغور الغربية وانقطع ورود العبيد الصقالبة من الأندلس وبقي مصدرهم الوحيد هو بيزنطة وأرمينية.

## ٦ - توفير الخدمات للنشاط الإقتصادي:

بالرغم من أن التجارة حرة في الإسلام فإنها لم تترك سدى ولم تتم نموا دون أن تتوفر لها خدمات محددة تقدمها الدولة خاصة والتجار معها لتسهيل حركتها والظفر بما تدور من ربح وكانت تقاليدها من قوافل وإيلاف وتنظيمات وأسواق معرفة منذ الجاهلية. لكن توفير جميع الخدمات لها على شكل مدني متكامل في امبراطورية واسعة متعددة المدن متباعدة الأطراف لم

(١) نصاري خسرو - الرحلة ص ٩٥.

يتم إلا تدريجياً وفي نوع من التكامل الذي بلغ أوجهه في القرن الرابع /  
١٠ م .

أ - فقد نظمت الأسواق والقيساريات في المدن بدءاً من عهد الرسول الأعظم ثم في العهد الأموي وبيروون أن معاوية نظم في المدينة المنورة سوقين للإيجار: دار القطران ودار النقصان<sup>(١)</sup> وفي أيام عبد الملك بن مروان بنى عامله في الفسطاط عدة قيساريات من بينها قيسارية العسل وقيسارية الحبال وقيسارية القبلة<sup>(٢)</sup> . ويظهر أن قلد بها قيساريات مدن الشام ومصر التجارية والقيسارية بناء من طابقين أشبه بالسوق المغلفة تفادياً للشمس والمطر . وتقوم الدكاكين في أسفلها وغرف نوم التجار في دورها العلوي وتسمى بالقيصرية والكلمة مشتقة من كلمة قيساريون الرومانية ومعناها السوق الإمبراطورية أو سوق قيصر بمعنى أنها للقيصر وللحكومة . ثم صارت الكلمة إسماً علماً على المنشآت المماثلة في العهد الإسلامي . لأنها إنما بدأ بناؤها في عهده لتكون تحت إشراف الحكومة . ويشير البكري إلى أنه كان بجوار مسجد القيروان سوق مسقوفة فألت إلى الهدم فجاء أمر الخليفة هشام بن عبد الملك بإعادة بنائها سنة ١٠٥<sup>(٣)</sup> وبني هشام مثل ذلك في سوق المدينة عند داره حتى سدت كل البيوت المجاورة ففتح أبواباً تفتح كل خطة منها كما بنى سوقاً ثالثة في بقيع ابن الزبير<sup>(٤)</sup> وبني قيسارية باسمه في الفسطاط . كما بنى عامله خالد القسري أسواقاً مسقوفة بازاج في الكوفة وحدد لكل تجارة معينة سوقاً . ولم يكن هذا التنظيم من ابتداء المسلمين فقد كان معروفاً من قبل في العهد الروماني البيزنطي . وقد قام به العرب بعد ذلك النمط نفسه وبوصفها خدمة

(١) السهودي : وفاة الوفاج ٢ ص ٧٥٠ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣٦ .

(٣) البكري - المغرب في ديار بلاد أفريقية والمغرب (ط . باريس ٩١١) ص ٥٢ .

(٤) السهودي : الوفاج ٢ ص ٧٥٠ - ٧٥٢ .

تقوم بها وتؤجرها الحكومة لأصحاب الأسواق وكذلك فعل الحجاج من قبل في واسط. وفعل المنصور من بعد في بغداد والمعتصم في سامراء. وقد استمر ذلك بعد هؤلاء في الزمن العباسي كله وقام به البويهيون كالدار التي بناها عضد الدولة في كازرون (وهي قيسارية) وكانت مركز نسيج الكتان وكان دخلها اليومي عشرة آلاف درهم. وقد بنى عضد الدولة نفسه أسواقا عند مدينة جامع رام هرمز كانت غاية في الحسن نظيفة قد بلطت وظللت وروقت وبربقت وجعل عليها دروب تغلق كل ليلة<sup>(١)</sup>.

وحين دخل الفاطميون مصر وبنو القاهرة قاموا ببناء الأسواق وكان للخليفة عشرون ألف دكان يؤجرها<sup>(٢)</sup>. ونجد الأمر نفسه في مدن المشرق كله لأن الأسواق كانت تعتبر مرفقا عاما ترعاها الدولة وإن لم تكن تمنع البناء المماثل له. فثمة من بينها ما هو حكومي رسمي منظم وثمة غير ذلك. وأسواق مدن الشام ومصر والعراق وفارس والمغرب فيها أقسام هامة مغطاة. وقد لا يرضى المحتسبون عن إيجارها للبزازين خوف الغش في الألوان. وكانت الدولة تهتم ببناء القيساريات وتعتبر ذلك من مهامتها وعملها قبل أن يشيع بناء الفنادق والخانات. وكانت القيسارية متخصصة وبنائها المربع الشكل كانت له أبواب تطل على الأسواق وبه دورات مياه وبئر للماء ومخزن للسقاء وحمام ومسجد. وللقيسارية حارس. وقد خصص ابن دقماق لقياسر الفسطاط عدة صفحات من كتابه وكانت تنسب لمن بناها أو لأصحابها أو لما يباع فيها. وقد تشغل وسطها مساطب للمهن الصغيرة كالخياطين والإسكافيين. وتكاد لا تخلو مدينة إسلامية من قيسارية أو أكثر؛ بقي منها اليوم بعض الأسماء.

(١) المقدسي ص ٤١٣ - ٤٢٥.

(٢) ناصر بن خسرو: الرحلة ص ٩٤.

ب - الفنادق والخانات : لم تشع القيساريات في مدن الأندلس ولكن شاع ما يسمى بـقيساريات الشوارع «حسب تسمية ليو الإفريقي»<sup>(١)</sup> وهي مجموعة من الأسواق الصغيرة تقوم فيها فنادق «ومخازن» يخزن فيها الموظفون الرومان ما يجبونه من الضرائب والبضائع العينية للدولة، وهي أساس بناء القيساريات المعروفة في المشرق المتوسطي . وشاعت في الأندلس أيضا وانتشرت الفنادق للتجار الغرباء وأخذها المشرق بعد ذلك عنها فشاعت خاصة منذ العصر الصليبي في القرن السادس وما بعده . وإذا كانت القيسارية في طابقتها الأرضي سوقا فالفندق في طابقه الأرضي مخزن لبضاعة التجار الذين ينزلون في طابقه العلوي . والكلمة آتية عن اللفظ اليوناني Pandokeon وكان يعرف في الدولة البيزنطية باسم ميتاتا ويعرف في الإيطالية بكلمة Fondacon (والتي أخذ عنها اللفظ العربي) . وكان التجار يغلقون غرفهم عليهم باقفال رومية . وشاع لفظ الخانات لهذه الفنادق من المشرق إلى الشام ومصر . وتعني الكلمة (الملك) بمعنى أنها تحت حمايته . وتسمى ما وراء النهر تيبا . وهي تقوم على الغالب على امتداد طرق القوافل . وقد تحمل معها الاسم إلى داخل المدينة ويسمى الدكان الواحد في أسفلها مخزنا، كما يسمى المخزن الكبير خانبار وجمعها «خانبارات»<sup>(٢)</sup> .

ولما كانت الرحلات من التجار كثيرة بين المدن فقد كان عدد أماكن نزولهم كثير في جميع المدن . ويذكر ناصري خسرو ذلك قائلا عن القاهرة حوالي سنة ٤٢٥ : «أما الحمامات العامة ومحطات إقامة المسافرين والقصور فهي كثيرة لا تدخل تحت حصر . . . وكلها خالصة لسلطان مصر ولا حق لأي إنسان فيها . إلا ما بينه الناس من خالص أموالهم . وسمعت أن

(١) انظر ليو الإفريقي : ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

(٢) المقدسي ص ٢٤٥ وانظر متر: الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٨٧ .

بالقاهرة ثمانية آلاف منزل كلها من أملاك السلطان تؤجر شهريا للناس . . . » « وقد قدرت عدد الدكاكين في القاهرة (دون مصر) فوجدتها لا تقل عن عشرين ألف دكان وكلها ملك خالص للسلطان وأجرة أغلب هذه الدكاكين عشرة دنانير مغربية في الشهر ولا تقل عن دينارين بحال من الأحوال»<sup>(١)</sup>.

وقد وجدت مع الفنادق والحانات، وهي أبنية للدولة تخصص لشركة أو لمجموعة من التجار أو لبضاعة معينة تقوم فيها أعمال بيع هذه البضاعة. غير أنها أكبر في المساحة وأكثر دقة في التخطيط. وقد عرفت مصر منذ القرن الخامس / ١١ م. وعلى أي حال فقد كانت الفنادق والحانات والوكالات تبنى لخدمة التاجر الركاض الذي ينتقل من بلد إلى آخر ويهمه أن يجد المسكن والأمن في المدينة التي ينزل بها. وقد عرفت هذا النظام جميع مدن المشرق والمغرب في الإسلام. وكانت كل مؤسسة من هذه المؤسسات مكتملة المرافق ففيها مخازن لإيداع البضائع والأموال وغرف النوم والراحة وحمامات للإستحمام كما أن فيها قاعة لعجن العجين وفرنا للخبز وأماكن للعزاب وأخرى للأسر ومواضع (اسطبلات) للدواب. وقد وصف المقرئزي وكالة قوصون فقال: يعلو هذه الوكالة رباح تشتمل على ثلاثمائة وستين بيتا ادركناها عامرة كلها ويجزر أنها تحوي نحو أربعة آلاف نفس ما بين رجل وامرأة وصغير وكبير». وهذا يعني أنها مركز اجتماعي اقتصادي نشط. وكان الفندق إذا اختص بجالية أجنبية معينة سمع بإقامة كنيسة فيه فضلا عن السماح لهم باستحضار ما يلزمهم من خمور تستهلك داخل الفندق ويقمون داخله فرنا للخبز وفوق ما اعتادوه بحيث يتيسر لهم في الفندق لونه الحياة الذي ألفوا في بلادهم<sup>(٢)</sup>. ولم يكن هذا ليمنع وجود غرف للايجار في كل

(١) ناصري خسرو: الرحلة ص ٩٤.

(٢) المقرئزي / السلوك ج ١ ص ٦٩٤.

المدن وقد ذكر ذلك ناصري خسرو. قال: «وسمعت من أحد التجار  
المعتبرين أن في مصر بعض القصور التي تشمل على غرف للايجار تتسع  
الواحدة من هذه العزب لسكن ثلاثمائة وخمسين شخصا ومساحة تلك  
الغرف ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا... (١)

جـ - النقل (الطرق والقوافل والمراكب): هي شرايين المدن ولا  
يتصل بعضها بالمدن مباشرة ولكن بالروابط التي تصل بعضها ببعض...  
وشبكات الطرق بين المدن الإسلامية لا تحصى، والطرق التي فتحتها  
المسلمون بدورها لا تحصى وبخاصة إلى الأماكن القصية في تركستان  
والسودان. واضطراب السبل كان يهز الأمن التجاري ويدفعه فترة بعد  
أخرى إلى تغيير الطرق وإلى أن يستبدل بها طرقا آمنة كما جرى للعراق في  
ثورات القرن الثالث ومصائب القرن الرابع، وكما جرى للطرق البرية في  
المشرق عند دخول السلاجقة ثم عند غزو المغول. وكما جرى أيضا للطرق  
البحرية التي سيطر عليها الصليبيون في الفترة الصليبية سواء في الحوض  
الشرقي أم الغربي للبحر المتوسط.

وكانت القوافل تسير بين المدن بآلاف الجمال والبغال والحمير وبأنواع  
المسافرين من تجار وحجاج وعلماء وطلبة علم ورحالة ومهاجرين وأنواع من  
الخدم والباعة، وكانت تنتقل دوما تحت حماية من أمير المنطقة أو المنتفذ فيها،  
وتدفع القافلة المكوس المفروضة. وكانت في الصحاري تسير في ظل تحالف  
قبلي معين يتقاضى أجرته ويقدم الأدلاء أو يدفع الأتاوات. وكان للقوافل كما  
للمراكب نقاط عبور محددة إلى كل بلد، ورجال مكوس قد يبلغون في  
تفتيش المسافرين درجة الإحراج. فللدخول ضرائب وللخروج ضرائب

(١) ناصري خسرو - الرحلة ١٠٥.

أخرى وعلى البيع والشراء ضرائب ثلاثة . وقد يشكو المسافرون من الشكوى من سوء المعاملة ، وقد يحمدهونها حسب الظروف والحكام . ونرى مثلا في رحلة ابن جبير نموذج من ذلك كما نرى فيما كتب بعض الرحالة الآخرين نماذج أخرى . . . هذا إلى النهب غير الشرعي على الطرق من المتلصصة وقطاع الطرق .

فمن أمثلة الضرائب الرسمية أنه في جدة في القرن الرابع « كان يؤخذ عن حمل الخنطة نصف دينار، وعلى الكيل من فرد الزاملة وعلى سفظ ثياب الشطوى المصري ثلاثة دنانير، وعلى سفظ الدبقي ديناران وعن حمل الصوف ديناران . ويؤخذ بالقلزم عن كل حمل درهم . وتعشر في الإسكندرية المراكب الآتية من الغرب ، وبالضرما مراكب الشام . وكان لصغار شیوخ العرب مراصد برية تدفع لهم فيها الأتاوات على تفاوت في القيمة من نصف دينار على الحمل إلى درهم واحد . . . أما العراق فكان كثير المراصد في البر والبحر والنهر . . . » وكان على حدوده ديوان للقرامطة وآخر للبوهميين - كما قال المقدسي<sup>(١)</sup> . ولقد يؤخذ على الشاة الواحدة أربعة دراهم أي ضعف ثمنها . وكان يؤخذ على كل حمل دخل اليهودية (وهي جانب من البلد في اصفهان) ثلاثون درهما<sup>(٢)</sup> .

ومن أمثلة النهب الضرائبي والتشدد فيه ما ذكره ابن جبير (من القرن السادس / ١٢م) عما عومل به في الإسكندرية . . فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء على المركب من قبل السلطان لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضره جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد منهم من سلع أو ناض ليؤدي زكاة

(١) المقدسي ص ١٠٥ .

(٢) متر - الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .



ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول . وكان أكثرهم ممن لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم فألزموا أداء زكاة ذلك . . . واستنزل أحمد بن حسان منا ليأل عن أبناء المغرب وسلع المركب فطيف به مرقبا على السلطان أولا ثم على القاضي ، ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من حاشية السلطان . وفي كل يستفهم ثم يقيد قوله . . . وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم . . . إلى الديوان فاستدعوا واحدا واحدا والديوان مخص بالزحام فوق التفتيش لجميع الأسباب وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثا عما عسى يكون فيها ثم استحلفوه بعد ذلك . . . وفي أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس في الزحام ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي عظيم<sup>(١)</sup> . . .

ومثل ذلك كان يجري في ميناء عدن . والاسكندرية وعدن كانتا منذ القرن الرابع المرفأين العالميين اللذين يقرران الأسعار في الدنيا وكان التفتيش في عدن يتناول الإعجاز والتعرية والعمامة والشعر والكمين وحزة السراويل وتحتم الأباط . كذلك وجدت عجوز تفتش النساء وتضرب بيدها في أعجازهن<sup>(٢)</sup> فإذا أتم التاجر إنزال بضاعة وبيعها ودفع ما عليها طاف مناد في الأسواق يعلن أن التاجر الفلاني سيغادر البلد فمن له عليه دين فليطالبه به . ولا يسمح له بالرحيل إلا بعد تبرئة ذمته<sup>(٣)</sup> .

ومن أمثلة النهب على الطرق : ما كان من النكبات لقوافل الحجاج وهي على الطريق ذاهبة أو آية منه برغم وجود حماها الرسميين : وكان السواد أيام البويهيين مخوفا على الدوام . وقد قتل اللصوص ذات مرة (بحكم) قائد الجيش سنة ٣٢٩ / ٩٤١ ، واشتهر منهم لصوص بأسمائهم

(١) ابن جبير - الرحلة ص

(٢) باخرجه : تاريخ نجر عدن ج ١ ص ٥٨ .

(٣) المرجع ذاته ص ٦٧ - ٦٨ .

مثل ابن مروان الذي كان ينهب السفن رغم سيرها قوافل في النهر، وابن حمدون الذي كان ينهب بين واسط وبغداد. وبالبطائح كان أمير اللصوص عمران بن شاهين الذي أرسل الخليفة عليه جيشا وثانيا وثالثا بقيادة وزيره الصميري فردها جميعا مهزومة ولم يهدأ حتى عينه الخليفة واليا على واسط سنة ٣٣٩ / ٩٥١.

ومن الأمثلة على متلصصة البحر تلك الجماعات من البلوج التي كانت لا تنفك تهاجم سفن التجار. وقد وصلت مرة إلى مهاجمة جدة أيام المنصور حتى اضطر أن يعود فينشئ اسطولا لمحاربتها من البصرة. لكن خطرها استمر يتفاقم وملاً الخليج العربي في القرن الثالث مما أعطى هذا الطريق أسوأ سمعة. وقد حاولت البصرة سنة ٣٠٠ / ٩١٢ الحملة على القرصان في بلاد البحرين ففشلت. ولم يكن الناس يجرؤون على ركوب البحر الأحمر «دون مقاتلة ونفاطين»<sup>(١)</sup> وكانت جزيرة سقطرة خاصة هي قاعدتهم وموئلهم ويسميه الأضطخري بمتلصصة البحر فالسفن ما تزال في جزع حتى تجاوز مناطقهم.

وإذا كان العرب المسلمون قد أصبحوا أسياد البحر المتوسط فإنهم فقدوا هذه الصفة في القرن التالي بسبب قوات القرصنة «الصليبية» التي كانت تقطع الطرقات، وانتهت بالتنظيم إلى غزو الشام في آخر القرن.

على أن هذا الذي نذكر إنما كان في أوقات الأزمات وكان داعياً لتغيير الطرق وليس إلى إلغائها. فالتجارة العالمية لم تنقطع. ومن المصادفات الواضحة أن العواصم الكبرى الثلاث للإسلام : بغداد والقاهرة وقرطبة كانت على أنهر قابلة للملاحة، متصلة بموقعها بالبر ومتصلة عن طريق النهر

(١) المقدسي، ص ١٢.

بالبحر . وقد بذل الحكام المسلمون جهودا كثيرة للإبقاء على شبكة الطرق الموصلة إلى مدنهم سالكة آمنة محمية ، ومن اشتهر بذلك خمارويه بن طولون الذي مهد طريقا وعرة قرب آيلة لتيسير التجارة والحج . وفي أواخر القرن الرابع أنشأ سبكتكين في جنوب سجستان الطريق التي سلكها السلطان محمود الغزنوي حين غزا الهند . وأنشأ جنكيز خان عشرات الطرق في مناطق آسيا الوسطى الجبلية . وثلاثة أرباع الرباطات التي أقيمت في تركستان وهي عشرة آلاف ورباطات أفريقية إنما كانت منازل للمسافرين يجدون فيها الأمن والراحة والطعام والماء ، وليست فقط للحرب أو للزهاد فمهمتها مثلثة . وكان عضد الدولة أبرز من أقر الأمن في ربوع فارس ودرج حكامها من بعد على أخذ رهائن من اللصوص واستبدال غيرها بها من حين إلى حين لتستطيع القوافل المسافرة في حماية الدولة اجتياز هذا الأقليم آمنة<sup>(١)</sup> . وحوالي أواسط القرن الرابع / ١٠م ابتنى عضد الدولة نخعرا ومعه خزان للماء العذب هو رباط شطران الذي يصفه المقدسي بأنه لم ير احسن منه في بلاد العجم وعليه أبواب حديد . وفيه قوم يحفظونه<sup>(٢)</sup> . وقد بناه ابن سيمجور قائد عضد الدولة . ولكن انشاءه لم يفد كثيرا لأن المقدسي احتاج إلى ثلاثة أيام لقطع مسافة في المنطقة لا تزيد على ٦٨ فرسخا لأن القافلة ضلت الطريق وهي مخوفة من قوم يقال لهم القفص : وجوه وحشة وقلوب قاسية يرضخون رؤوس الناس بالحجارة . . . ومن عن بطرق المغرب الأغالبة فكانت القيروان مركز اشعاع الطرق في كل اتجاه وكانت الطريق إلى السوس الأقصى معلمة الأميال (٢٥٠٠ ميل) وهي الطريق الرئيسية التي تربط المشرق بالأندلس .

(١) متر / الحضارة ج ٢ ص ٤١٧ .

(٢) المقدسي ص ٤٩٣ .

وطرق الأنهار كانت تقطع طولاً وعرضاً للوصول إلى المدن فالأنهار الصالحة للملاحة لم تكن كثيرة في المملكة الإسلامية. ويمكن أن نعد منها خمسة فقط (سيحون وجيحون والفرات ودجلة والنيل) وفيها عدا النيل فباقيها لا ملاحة فيه إلا في بعض أقسامه. وثمة أنهار أخرى ثانوية مثل الوادي الكبير في الأندلس، ونهر الشاش في المشرق وسيحان وجيحان في جنوب آسيا الصغرى، وبردان ومهران ونهر الرس في أرمينية، ونهر الملك ونهر فاس ونهر الأحواز جنوب العراق<sup>(١)</sup>. وثمة فروع نهريّة كما في الأحواز وفارس تجري فيها السفن. وذكر الاصطخري أن في فارس وحدها اثني عشر نهراً كباراً تحمل فيها السفن إذا أجريت فيها<sup>(٢)</sup>. وسمع ابن حوقل أن فيها مائة وعشرين ألف نهر تجري فيها الزوارق فأنكر ذلك حتى رأى تلك البقاع. فشاهد على مقدار رمية سهم عدة من الأنهار صغاراً تجري فيها السميريات فقبل جواز ذلك العدد<sup>(٣)</sup>. ولا ننس أن المنطقة متصلة بالبطائح وأراضيها السبخة التي كانت مخابء نهريّة حصينة للثائرين من الزنج وغيرهم. ومن أنهار الملاحة المنقطعة أيضاً نهر هيلمند في سجستان الذي تجري فيه السفن إن امتد الماء فيه ولا تجري في غير ذلك<sup>(٤)</sup>.

وكانت هذه الأنهار كلها شرايين التنقل بين المدن. أما قطع هذه الأنهر وغيرها عرضاً سواء في المدن أم على طرق السفر فكان غالباً ما يجري على جسر من السفن كما في بغداد (بينها وبين الرصافة) أو في القاهرة (للموصول إلى الجيزة والفيوم). ومثل ذلك جسر الأنبار على الفرات، وجسر منبج وقنطرة النهروان وجسر الشاش والجسر الذي عقده يمين الدولة على نهر

(١) ذكر بعضها المقدسي ص ١٩.

(٢) الاصطخري ص ٩٩.

(٣) ابن حوقل ص ١٥٨ - ١٦٠.

(٤) المصدر نفسه ص ٣٠١.

جيحون من السفن وضبطه بالسلاسل ٤٠٨ / ١٠١٦ . زكان التنقل داخلي ضمن انهار المدن يجري بالطيارات والربازب والحديديات (على دجلة بغداد) وبالمراكب الصغيرة الشراعية في القاهرة . «والناس في بغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن وترى لهم جلبة وضوضاء . . .»<sup>(١)</sup> . وقد أحصى في أوائل القرن الرابع عدد السفن التي تنقل الناس والتجارة في بغداد فكانت ثلاثين ألفا . وقدر كسب ملاحها كل يوم بتسعين ألف درهم . وكان لكبار التجار والموسرين سميريات في دجلة ، كما لهم مراكبهم من البغال والخيل في البر . وتنفق دار الخلافة لملاحي الطيارات والسميريات والحراقات كل شهر خمسمائة دينار . أما في القاهرة فيذكر ناصري خسرو أن تجار مصر يمتطون الحمير إلى دكاكينهم ، وهي حمير فارهة رهواء . ويرى المرء كثيرا من المكارين قد أعدوا حميرهم للإيجار . وهي كثيرة في كل زقاق ومنعطف ويقولون أن خمسين ألف حمار تؤجر كل يوم في مصر . ولا يسمح لغير الجنود والعساكر بامتطاء الخيل<sup>(٢)</sup> . وأما على شاطئ مصر من النيل فثمة مالا يحصى من المراكب . وقد ذكر المقدسي تعجبه من كثرتها وقال له أحد المصريين : «أن على هذا الساحل وما قد أقلع منه إلى البلاد والقرى من المراكب مالو ذهبت إلى بلدك (القدس) لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال : كان هاهنا مدينة»<sup>(٣)</sup> . وكان ثمة على طرق القوافل ، في بعض الأنهر جسور ضخمة مذكورة لعبورها . كقنطرة طرسوس وقنطرة نهر عيسى عند خروجه من الفرات وهي ذات خمسة أبواب ، وقنطرة الأحواز شرقي مدينة سوسة واسمها قنطرة ديزفول وطولها ٣٢٠ خطوة (مترا) وعرضها خمس عشرة . ومثلها قنطرة هندوان وقنطرة ابدج على نهر قارون التي ذكر ياقوت أنها من

(١) المقدسي ص ١٢٤ .

(٢) ناصري خسرو / الرحلة ص ١١٠ .

(٣) المقدسي ص ١٩٨ .

عجائب الدنيا. فهي «مبنية في الصخر على واد يابس بعيد القعر وكانت تقوم على دعائم ارتفاع كل منها مائة وخمسون ذراعاً. تشدها قضبان من الحديد، وقد أنفق على اصلاحها في آخر القرن الرابع / ١٠م مائة وخمسون ألف دينار»<sup>(١)</sup>. أما أعجب قنطرة في الإسلام فهي قنطرة سنجة وقد بناها الرومان على نهر سنجة أحد روافد الفرات قرب سميساط. وكانت «كبيرة شاهقة متصلة بالجبل على حجر مخوخ إذا زاد عليها اهتزت» وكانت عقدا واحدا كل حجر من أحجاره عشرة أذرع في خمسة<sup>(٢)</sup>. . هذا عدا بعض القناطر الأخرى في الأندلس كجسر قرطبة.

وأما المرافئ البحرية الإسلامية فكانت تقوم على بحرين منفصلين المحيط الهندي والبحر المتوسط. وأنواع المراكب وطرق الملاحة فيها مختلفة. فكانت مراكب المحيط مخرطة وأما في المتوسط فبالمسامير. ولم يدخل الشراع المثلث إلى البحر المتوسط إلا في القرن السادس / ١٢م ولكن مراكبه كانت أكبر فكانت، في القرن السابع / ١٣م. تحمل عدة آلاف من الرجال وعلى ظهرها حوانيت لبيع الخمر والطعام. ولم تكن السفن ذات الدفتين معروفة في البحر المتوسط كما لم تكن سفن المحيط تحوي أكثر من سارية واحدة وطابق واحد، وقد تضخمت بعد القرن الخامس / ١١م. ولم يكن للأساطيل الأوروبية من نابولي وأمالفي سلطان في البحر المتوسط قبل القرن الخامس ثم صاروا مع البنادقة والجنوبيين أسياده في القرن السادس وما بعده، لكنهم لم يجدوا سبيلا إلى المحيط الهندي فبقي في يد العرب المسلمين بموانئه البعيدة في الشرق الأقصى، وبموانئه الغربية في الهند وجنوب الجزيرة وشرقي أفريقيا حتى الغزو البرتغالي. وكانت أهم موانئ الشام في القرن الثالث أنطاكية ثم

(١) المقدسي ص ٤١١.

(٢) الاضطخري ص ٦٢، والمقدسي ص ١٤٧، والمسعودي : التنبيه والإشراف ص ٦٤ و ص ١٤٤.

حلت محلها طرابلس في القرن الرابع ولها «ميناء عجيب - كما يقول اليعقوبي  
يحتمل ألف مركب» وكانت دار الصناعة في ميناء صور تخرج منها المراكب  
للغزو، كما بني ميناء عكا أيام الطولونيين على شكل ميناء صور. وكانت  
دمياط ثغرا هاما لمصر لكن ثغرها الأساسي كان في الإسكندرية وأما مرفأ  
طرابلس فلم يكن عمق الماء فيه كافيا لحمل مراكب ذلك العصر التي كان  
بحاجة إلى السفن الصغيرة لنقل البضاعة منها إلى البر. وكانت تونس تلي  
طرابلس في الأهمية. وعند العدو كانت تقوم سبته وطنجة وعلى البر  
الأندلسي كانت المرية أشهر المرافئ وعلاقتها مع مصر في المشرق واشجة  
وقوية.

وأما في البحر الأحمر (فرع المحيط الهندي) فكان مرفأ عيذاب هو مرفأ  
مصر ويقابله في جزيرة العرب مرفأان : الجار وجدة. وفي شمال هذا البحر  
ميناءان آخران هما : القلزم من جهة، وايلة من جهة أخرى. وكان لعيذاب  
مكانها التجاري الهام لأن البضائع كانت تنقل منها في البر إلى قوص ثم  
تجري في النيل إلى القاهرة. فإذا خرج التجار من البحر الأحمر كانت عدن  
أمامهم، فمنهم من يتوجه حول القرن الأفريقي إلى زنجبار ولامو وقنبلو وباتا  
حتى سفالة على الشاطئ الشرقي للمحيط الهندي، ومنهم من يتوجه إلى  
الهند إلى عمان مقاربا السواحل في الغالب خوف اللصوص وخوف تيارات  
الرياح. ويلتقي هذا الطريق البحري بالطريق الأخرى الآتية من البصرة ثم  
من سيراف ثم من هرمز والمتجهة في الاتجاه نفسه إلى ساحل الملبار عن طريق  
الديبل على نهر السند. وقد بلغت عيذاب في القرن الخامس (أيام  
الفاطميين) درجة عظيمة من الازدهار فعن طريقها كانت تجارة مصر مع  
المحيط الهندي، وعن طريقها كانت حركة الحجاج إلى الأرض المقدسة.  
ويقول ابن جبير أنها أحفل مراسي الدنيا، ومراكب الهند واليمن ترسو فيها

وتقلع منها وأكثر ما يشاهد فيها أحمال الفلفل<sup>(١)</sup>. ولم تأخذ عدن مكان عيذاب إلا منذ سنة ٨٣٣ / ١٤٣٠<sup>(٢)</sup>. أما عدن فهي المرفأ الأساسي للعرب المسلمين في جميع المحيط الهندي وبصورة خاصة منذ القرن الخامس / ١١ واضطراباته في العراق ثم الغزو الصليبي للشام. فكانت نقطة ارتكاز التجارة بين الهند والصين ومصر ويسمىها المقدسي دهليز الصين<sup>(٣)</sup>. وكانت تنافسها قبل ذلك سيراف وهرمز حتى كانت بضائع اليمن تحمل إليهما لتصدر إلى الصين وهما اللتان ورثتا بالتالي ميناء البصرة العالمي الذي انحط منذ القرن الثالث. والشبكة التي تربط هذه المرافئ مع مرافئ المتوسط هي كل شبكة التجارة العالمية.

وكان دخول المدن مفتوحا لكل قافلة وعابر إلا في بعض المناطق كمصر فقد كان فيها منذ العصر الأموي، والخلاف بين عبد الملك بن مروان وبيزنطة، نظام دقيق لجوازات المرور. وقد أصدر عامل مصر سنة ١٠٠ / ٧٢٠ أمره بالقبض على كل من وجد مسافرا أو متنقلا من مكان إلى آخر دون سجل. وإلا. . قبض عليه وأحرق المركب بما فيه. وقد عثر على بعض هذه الأوراق التي تسمح بالمرور بين وثائق البردى في مصر. ولم يطبق هذا النظام طويلا بعد ذلك حتى أن المقدسي استنكر في القرن الرابع أمر عضد الدولة بمنع كل داخل إلى شيراز أو خارج منها يحمل جواز مرور<sup>(٤)</sup>. وكان هذا النظام هو المعمول به في مرفأ الصين للمسلمين : خانفو (كانتون) وقد قضى عليهم فيه حوالي سنة ٢٦٥ / ٨٨٠م. وانقطعت الطريق الإسلامية إلى الصين فلم تعد تجاوز مضيق ملقة. فتمر من الديبل إلى ميناء

(١) ابن جبير / الرحلة.

(٢) المفريزي / الخطط ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٨ و ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٣) المقدسي ص ٣٤.

(٤) المقدسي ص ٤٢٩.



كولام (كوسلون الحالية) في الملبار في نحو شهر، ثم يمرون ما بين سرنديب وشبه جزيرة الهند شمالا إلى جزر نيكوبار ومن ثم إلى مدينة كدا في شمال الملايو على مسيرة شهر آخر من كويلون؛ ومن هناك يقصدون جاوا وجزيرة ماهيت أو يذهبون شمالا إلى كمبوديا ثم كوشن شين (الهند الصينية) ثم الصين.

وجاءت ظروف الحملات الصليبية ثم غزوات المغول لتعطي الأفضلية في التجارة مع الصين والهند لهذا الطريق البحري الممدود مع عدن وعيذاب والبحر الأحمر واطمحت الطرق الأخرى مع انقطاع العراق عن غربيه وظهور دولة المماليك في منطقة البرازخ بوصفها الدولة الإسلامية المركزية والوحيدة بعد نقل الخلافة - ولو صوريا - إليها. وانعدام الأمن وظهور اللصوص وقطاع الطرق في وجه القوافل البرية وكثرت القراصنة في الخليج العربي. فانفردت عدن بالمركز الأول وتعسف ملوك اليمن ما شاؤوا مع التجار بالضرائب الباهظة واستخدام القسوة حتى كان بعض أمراء عدن يصعدون إلى السفن فينزعون قلاعها ودفعتها ومرساها حتى لا تهرب من دفع الضرائب المستحقة، وكانوا يفتشونها التفتيش الدقيق قبل أن يسمحوا لها بالنزول في الميناء. ولم يكن يسمح لسفينة بتخطي ميناء عدن إلى البحر الأحمر وإنما تنتهي رحلتها عندها ثم تقفل راجعة إلى الهند والملايو والصين. وكان هذا في العهد الأيوبي ثم تنبه المماليك بسرعة إلى أثره السلبي فبدأوا سياسة جديدة بتنشيط التجارة بكل الطرق في البحر الأحمر. فأخذ السلطان قلاوون يتودد إلى القوى في البحر الأحمر، وعقد مع يوسف بن عمر ملك اليمن معاهدة صداقة بعد أن كان يبهرس قد امتهنتهم وأهانهم. وأمر بسحق قطاع الطرق والأعراب على الطريق بين قوص وعيذاب، وأمر نوابه في الثغور بحسن معاملة التجار ومراعاة العدل معهم. وقد أورد القلقشندي بعض الرسائل السلطانية الأمرة بذلك لأنهم «هدايا البحور ودوابه الثغور ومن

أجنتهم يطلع ما تجنه الصدور»<sup>(١)</sup>. وكتب إلى التجار من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم يرحب بهم يصف محاسن مصر ويدعوهم للقدوم إلى مصر<sup>(٢)</sup> كما حرص على الترحيب بالتجار الأوروبيين القادمين في البحر المتوسط إلى الإسكندرية ودمياط...

واستمرت هذه السياسة المنفتحة سنة لمن بعده لأن المماليك فرقوا بسبب وعيهم لمصلحتهم المادية، بين الدين والتجارة. وقد ذكر البلوي في رحلته أنه رأى بمصر أناسا كثيرين من مختلف الاجناس وقد فضل بعضهم الإقامة في الثغور فكان لكل جالية قنصل يشرف على مصالحها وفندق ينزل أفراد جاليتها فيه كأنهم إدارة مستقلة في بلادهم بعد دفع الرسوم المفروضة وهي ٢٠٪ من ثمن البضاعة. ولهم كنيساتهم وخبزهم وحمائمهم ولهم أحضار الخمر التي يشاؤون إلى فنادقهم. وكانت ضرائبها وحدها تبلغ في أواسط القرن الرابع عشر أربعين الف دينار<sup>(٣)</sup>. عدا ضرائب الفراء والجوخ والاختشاب والحديد. وكانوا يعودون محملين بالتوابل والبخور والاقمشة والحزف والعمطور والقرنفل. وقد أعان المماليك كثيرا نشاط تجار الكارم الذي كان يمتد لآفي المحيط الهندي فقط ولكن إلى السودان الغربي وأفريقيا الوسطى بالاعتماد على مركزهم في قوص والقاهرة وعلى تجارة البهار والعبيد. وبلغ من اهتمام المماليك بالتجارة أن جعلوا يستقبلون السفراء ويعقدون المعاهدات من أجلها مع مختلف السلطات في الشرق والغرب ومدوا أيديهم من جهة إلى ملوك صقلية وقشتالة وأرغونة وجنوه والبندقية وأمالفي ونابولي لتنشيط ثغرى الاسكندرية ودمياط ومن جهة أخرى إلى الهندوسيلان وشرقي

(١) الفلقشندي صبح الاعشى ج ١١ ص ٤٢١.

(٢) المصدر نفسه ج ١٣ ص ٣٤٠ - ٣٤١.

(١) المقریزی : السلوك ٢ ص ٦٩٤

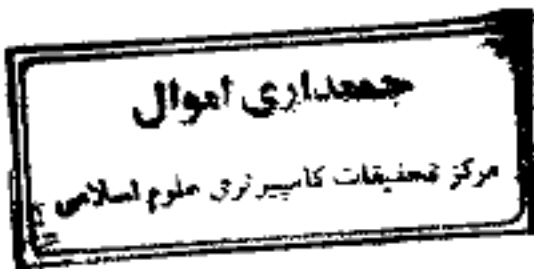
أفريقيا لتنشيط عيذاب وقوص . وقد ذكروا ان صاحب سيلان ارسل سنة ٦٨٢ / ١٢٨٣ الى السلطان قلاوون سفارة يدعوه فيها الى الاهتمام ببضائع بلاده من المحصولات والتوابل واللؤلؤ والاحجار الثمينة وأستطاعت دولة المماليك الأولى ان تجعل مملكتها في مصر والشام مركز التجارة العالمية وعبورها وأستفادوا من ذلك كل الفائدة لأن حمل القفل الذي كان يباع في القاهرة بخمسين دينارا كان يباع في الاسكندرية بمائة وخمسين .

ومع كل ذلك فقد فشلت البابوية بعد طرد الصليبيين النهائي من الشام سنة ١٢٩١ في حمل التجار الاوروبيين على مقاطعة مصر لأن الحاجة الى بضائعها الشرقية كانت أقوى في الغرب من الحرمان الديني . وأحتالت الاساطيل الاوروبية بمختلف الحيل وبالتهريب للخلاص من الامر البابوي الذي كسره عمدا بعض الملوك مثل خاتمه الثاني صاحب أرغونة الذي جدد اتفاقيته التجارية مع الاشرف خليل فاتح عكا نفسه . وأرسلت البندقية سنة ٧٠١ / ١٣٠٢ سفيرها لاستعادة امتيازاتها القديمة في مصر والشام .

وقد اختلفت الاوضاع في دولة المماليك الجراكسة الذين احتكروا بعض السلع الهامة كالتوابل والبخور مما جعل اثمائها فاحشة وأضر بالتجار الاوروبيين ، وبلغ الاحتكار أشده في عهد السلطان بارسباي الذي أبطل التعامل بالدوقاس البندقي وبالفلورنسي وسك الدينار الاشرفي ليكون أساس التعامل مع الاوروبيين . ودفع الضيق بالقوى الاوروبية الى التماس طريق آخر للهند لا يمر بالاسكندرية والقاهرة وعيذاب وعدن فوجدوا في أواخر القرن الخامس طريقين واحد حول رأس الرجاء الصالح والآخر عبر أمريكا . . . فكان ذلك أيدانا للتجارة العالمية بعهد جديد وسقوطا لمدن التجارة الاسلامية عامة .

ونستطيع القول أخيرا ان المدن الاسلامية «بلغت في التجارة مستوى لم

تبلغه مدينة اخرى من قبلها ولا في زمانها فكثافة العلاقات التجارية في قلب العالم الاسلامي كانت تؤلف سوقا عالمية ذات أبعاد لم تعرف قط من قبل . . . . . وخلقّت علاقات من التبعية الاقتصادية المتبادلة بين مراكز كثيرا ما كانت جد بعيدة بعضها عن بعض . ولقد كانت سوق عالمية من هذا الطراز قد نشأت في الامبراطورية الرومانية ولكن السوق المشتركة الاسلامية كانت أوسع كثيرا ويبدو أنها كانت أيضا أكثر رأسمالية . . . . . (١) .



---

(١) رود نسون (مكسيم) الاسلام والرأسمالية ترجمة نزيه الحكيم (دار الطليعة - بيروت ١٩٦٨) ص ١٠٦ .

## الفصل الثالث عشر

### الإدارة السياسيّة

كانت المدينة الإسلامية قاعدة كل سيطرة أو نفوذ في الإسلام كما كان العالم الإسلامي يتميز عن أوروبا وغيرها بأن فيه عددا واسعا من المدن ذات الحركة الدائمة في حين أن الريف وقصر الاقطاعي مع الكنيسة كانت هي المسيطرة في أوروبا التي كانت في معظمها مناطق غايبية ولا سيما في العصور الإسلامية المبكرة. ويرجع نشاط الحركة المدنية في الإسلام لا إلى نشاط الحركة الاقتصادية وإلى التكاثر السكاني فقط ولكن إلى تنافس الدول أيضا ورغبة كل دولة في انشاء مركز أو مراكز مدنية فيها تستقطب الاعداد المتزايدة من السكان وتشكل القاعدة السياسية لها وتنتج المزيد من الانتاج.

ويجب ان نسجل سلفا ان مفهوم المدينة السياسية أو المدينة الدولة وهو ما يدعى باليونانية POLIS غير موجود في الإسلام. انه لحد كبير مفهوم اغريقي قديم أو متأثر بالفكر الفينيقي السياسي الاقدم. ومن الصعب نقله على علاته إلى الحضارة الإسلامية للكلام عن الحياة السياسية في المدينة الإسلامية. ولعلنا نكون اكثر وضوحا ودقة إذا نحن حددنا المفهوم الإسلامي من خلال تعارضاته مع المفهوم الاغريقي. فالمدينة الإسلامية مركب افتراضي نظري يقوم على المساكنة بين مجموعة واسعة أو ضيقة من السكان.

ولسكانها ما لكل المسلمين في جميع مدن الارض من الحقوق والواجبات .  
أنها تقوم على أيديولوجية دينية مهيمنة مستقرة . والعلاقات السياسية فيها  
هي كالعلاقات الاجتماعية والاقتصادية ليست ذات طرفين أي ليست بين  
بشر وبشر ولكنها ثلاثية الاطراف لأن القدرة الالهية تدخل كطرف أصيل  
قبلهما وتضع الشريعة والحدود .

فاذا كانت « المدينة » السياسية الاغريقية او الرومانية (في بعض  
مراحل تاريخ روما) واضحة المفهوم والمعالم وبخاصة فيما يتعلق بامور  
ثلاثة :

– حقوق المواطنة التي تضمها قوانين المدينة (او المقاطعة عند الاتساع)  
والتي تشكل وحدة سياسية منفصلة .  
– المؤسسات السياسية التي تنبثق من مواطني المدينة وتتمارس في أبنية  
خاصة هي مركز المدينة الحى .  
– الحدود المكانية المحدودة التي تنتهي عندها الحقوق المدنية . وتبدأ  
بعدها حقوق أخرى في الارض .

اذا كانت هذه هي اهم ملامح المدينة الاغريقية - الرومانية سياسيا  
فان ثمة فرقا كبيرا بينها وبين المدينة الاسلامية في الميدان نفسه لأنها :

– لاحقوق وضعية خاصة فيها لجماعة دون أخرى لأن مبدأ التسوية  
الاسلامي جعل القاصي والداني من المسلمين والابيض والاسود اخوة في  
الايمان سواسية كأسنان المشط بمجرد النطق بالشهادة لا بسبب الارتباط  
بالارض وبالقانون الذي وضعه سكانها .

– لامؤسسات سياسية تنبثق من شعب المدينة وتتمارس في أماكنها  
العامّة لأن القانون المنظم هو الشريعة الالهية المنزلّة وهي فوق الافراد  
والجماعة .

— ولا حدود مكانية لها لأن ارض الاسلام واحدة متساوية . ومفهوم المدينة ينساح بهذا الشكل الى ما وراء اسوار المدن ليشمل كل ارض اسلامية بالتساوي المطلق . فكأن المدينة الاسلامية هي دار الاسلام . وكأن دار الاسلام مدينة واحدة .

ونعني من هذا ان « المدينة » في الاسلام لم تكن « وحدة » سياسية منفصلة . وحتى الاقاليم لم تكن كذلك الا في نظر الحكام المتباينين الذين كانوا ، مع ذلك ، ورغم انفصالهم ، يقرون بوحدة ارض الاسلام . كما كان بعضهم يرتبط ولو بالرباط الواهي مع « خليفة الاسلام » أو بالتبعية الاسمية له . سواء كان هذا الخليفة في بغداد أو القاهرة أو قرطبة أو حتى سلطانا في استامبول . العالم الاسلامي كله ، في عرف المسلم ، مدينة واحدة هي دار السلام مقابل المدينة الاخرى (او المدن الاخرى أيا كانت) والتي هي دار الحرب .

وما نسميه بالمدن في الاسلام لم يكن مدنا ذات كيان سياسي خاص مميز ولكنها تجمعات سكانية اجتماعية - اقتصادية جمعتها العقيدة في بقعة « مدنية » لممارسة الحياة التعاونية الافضل . وفيها يلتقى اصحاب السلطة (وهم دوما ذوو سلطة تنفيذية لا تشريعية ، واستنباطية لا ابتداعية) مع اصحاب المصالح المشتركة من تجار وأصناف وحرف . والرابطة الاساسية في المدينة الاسلامية لم تكن ابدا رابطة الحقوق الخاصة بالمدينة بوصفها تراكم أبنية ومواطنين وأستدارة سور وكيانا مميزا بين المدن الاخرى . ولكنها رابطة الجماعة الاسلامية المتشابهة والمتساوية في كل مكان من ارض الاسلام . فمفهوم « الامة » الاسلامي هو الذي يحل محل مفهوم المواطنة (المرتبط أساسا بالارض) . والارتباط المعنوي الروحي هو الذى يقوم مقام المواطنة وحدودها الارضية الجغرافية .

إن العامل الثقافي الديني في المدينة الإسلامية ألغى عوامل العزلة الجغرافية المكانية لا بين المدن فقط ولكن إلى حد كبير بين الأقاليم التي سيطر عليها الإسلام حول البحر المتوسط خاصة وحتى إيران وتركستان وما تبعها بعد ذلك من أرض الهند والسودان والجزر الأوقيانوسية . ومع أن الجغرافيا أثرت على السياسة الإسلامية فقسمت الإمبراطورية بعد العصر الأموي وصدر العصر العباسي إلى دويلات متفرقة (وأحيانا متناحرة بسبب المصالح الدنيا) إلا أن النسيج الثقافي الموحد (دينا ولغة وفكرا) كان يوجد تلك البلاد ويربط بينها من خلف الحكام وبالرغم من الحكام . وهنا، في الناحية الحضارية، مكن الوحدة الحقيقية التي يجب أن نفتش عنها ونبحث وجودها في التاريخ الإسلامي .

وبالرغم من الفروق المحلية بين المدن الإسلامية، في مختلف الأقاليم، في طراز البناء أو التزيين أو التنظيم أو اللهجة اللغوية أو السلوكية الاجتماعية فإن الوحدة من خلف ذلك كله كانت تظهر من ورائها وتؤكد أكثر فأكثر بفعل الروح الدينية الواحدة أولا، وبفعل الفكر اللغوي والاجتماعي . وظلت الفروق فروقا في المظهر لا في الجوهر، وفي الشكل لا في الروح المكونة .

ومن الضروري أن نضيف هنا أمرا آخر يتعلق بالطبيعة السياسية للمدينة الإسلامية فلما كان أساس العلاقة السياسية في هذه المدينة هو حدود الإسلام والشرع المنزل؛ تميزت الحياة السياسية في هذه المدينة بسهولة الانتقال فيها من الديني إلى الدنيوي وبالعكس . الحاجز الذي يفصل بين ما لله وما لقيصر لم يكن واضحا لأن الإسلام دين ودنيا في وقت معا . وهكذا كثيرا ما كان النزاع السياسي يأخذ شكل النزاع المذهبي ويأتي الدين فيه كالمبرر . وبالعكس كان الانشقاق المذهبي ينقلب أحيانا إلى انشقاق سياسي تراق فيه الدماء .



ولا نجد في النصوص الإسلامية تعريفا للمدينة ولعل المقدسي البشاري كان من النوادير الذي خطر ببالهم ذلك وحاول في كتابه أحسن التقاسيم<sup>(١)</sup>. وحتى كلمة دولة لم تكن تعني حدودا معينة ونظاما على أرض، ذات علم خاص وقوانين وسلطة وإنما كانت تعني حكم شخص محدد أو أسرة معينة<sup>(٢)</sup>. وانظر أن شئت في الكتب التي ألفت في التاريخ حول المدن الإسلامية. أنها جميعا تقريبا فيما عدا تواريخ الحرمين اللذين يلغيان الأفراد أمام شرفهما، وفيما عدا النادر من الكتب الأخرى ككتاب المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقرئزي، مجرد تراجم للرجال الذين وجدوا في تلك المدن سواء ولدوا فيها أم طرقتها وافدين واستقروا أم... عابرين. وكثيرا ما تكون هذه التراجم بالترتيب الهجائي الذي يلغي الزمن. وحتى التواريخ المعروفة بالخطط تقتصر على ذكر الأحياء والقصور والسكك والأبنية ووصفها، وليس المؤسسات أو المدنية ذات الكيان السياسي الخاص المميز. والمؤرخون عبروا بهذا الذي كتبوه عن المفهوم الإسلامي للمدينة وعن أنها تميز الإنسان لا الأرض في علم معين أو عمل مميز. أما الأنساب التي ربطوا تلك التراجم بها من: نيسابوري وبغداد ودمشق وجبالي وقيرواني فليست تدل على امتياز معين أو على جنسية بذاتها أو عرق أو عقيدة أو كيان ثابت ولكن على مكان عيش الرجل من أرض الإسلام. أي أنه انتساب من الزمن ومن العيش في مكان معين سواء ولد فيه المرء أو أقام فترة معينة. وقد يعيش في ثلاثة أمكنة أو أربع فيقال فيه الشيرازي الحلبي الموصلية المقدسي القاهر دون أن يغير ذلك من حقوقه أو نظرة الناس إليه. سور المدينة كان طوقا من حجر لحمايتها وليس حدودا للمؤسسات ينتهي مفعولها عندها، ولقوانين هي

(١) المقدسي البشاري / ص ٤٧ و ١١٥ و ١٥٦ و ٢٢٨ و ٢٧٠.

(٢) انظر في ذلك عناوين وفهارس كتب التاريخ وانظر بخاصة مقدمة ابن خلدون والمعنى الذي ترد فيه كلمة دولة عنده.

حق أمامها وخطأ وراءها . بل إن بعض تواريخ المدن كان تاريخها شاملا للاقليم كله وأحيانا للعالم الاسلامي كله وانظر تواريخ مصر أو بغداد أو نيسابور أو دمشق أو ميفارقين . بمعنى أن حدود أي مدينة منها تتسع لجميع الحدود والاحداث الاسلامية .

فمن هذا المفهوم الإسلامي ننظر إلى المدينة الإسلامية، ومن داخله نلاحظ أن هذه المدينة تتميز بوجود سلطات فيها وإطارات عمل . وكل من السلطات وإطارات العمل تنبثق من مركز المدينة فأما السلطات الخمس فمعنوية وتعطي المدينة شكلها الروحي المعنوي وطابعها المميز:

– السلطة الدينية ومركزها الجامع وهو محور المدينة . وقانون هذه السلطة الشرع الإسلامي وهو مُنزل . ويتفرع عنها تنفيذها لها السلطة القضائية .

– السلطة الدنيوية ومركزها قصر الإمارة وصاحبها الأمير وقانونها نظري تنفيذي وإن كان فيه هامش واسع جدا للاجتهاد الشخصي . ويتبعها السجن والأنظمة وأسوار الدفاع والجند ودار الضرب ودار الصناعة والبريد والاشراف على تنفيذ الأوقاف . وهذه السلطة هي السلطة المركزية المهيمنة، والسلطة الأقوى، ويتبعها من قبيل العمل الطيب أمن الطرق، وتوفير الحاجات الغذائية في الأزمات .

– السلطة التموينية ومركزها الأسواق وما يتبعها من خانات وفنادق . وأصحابها التجار والحرفيون . وقانونها حر قائم على العرض والطلب وإن كانت فيه أحيانا رقابة (محتسب) وحدود هشة .

– السلطة الصحية: ومركزها موزع بين مؤسسات المياه والحمامات والبيهارستانات وتنظيف المدينة، وقانونها الوقاية من المرض وتشترك فيها السلطة الدنيوية مع الأفراد .

– السلطة الفكرية : وهي غذاء الفكر ويقودها العلماء ومركزها المؤسسات الثقافية (المساجد والمدارس والمكتبات) وقانونها طلب العلم وأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت .

وتتداخل حدود هذه السلطات أحيانا كثيرة بعضها مع بعض لتكون مجموعة قوى تصب في اتجاه واحد هو اتجاه الأمير الحاكم الذي تجتمع في يده أكبر كمية من السلطات الدنيوية .

وأما الأطارات الخمسة : فهي اطارات امكانية وأطواق بعضها وراء بعض تعطي المدينة شكلها الفيزيقي المادي .

– الإطار الأول السلطوي : ويقوم غالبا في مركز المدينة ويحوي مجموعة السلطات الثلاث الأولى : الدينية والدنيوية والتموينية .

الإطار الثاني : السكاني : ويطوق الأول على نحو من الأنحاء وبشكل عام ويحوي المساكن والشوارع والأحياء المغلقة .

الإطار الثالث الأمني : وفيه السور بشكل أساسي وقد يضاف إليه في داخل المدينة وفي خارجها قلعة أو حصن .

الإطار الرابع : وهو اطار الخارجين عن المدينة : ويحوي المقابر كما يحوي الفقراء والخانات ومحطات القوافل .

الإطار الخامس : تمويني : وهو الربيض أو الضاحية أو الظاهر الذي يؤمن للمدينة حاجاتها اليومية من التموين .

وسوف نهتم بدراسة المدينة من خلال السلطة التي تحركها وتبين فيها أي من خلال السلطة الدنيوية وعلاقتها مع هذه الأطر المكانية .

ومن الهام أن نلاحظ أن السلطات في المدينة لا تأخذ شكل المؤسسات

القانونية إلا في مستواها الأول الديني القضائي وهو مستوى الشرع المنزل الواحد في جميع المدن وغيرها. وفيما عدا ذلك فهي فردية، لأن الإسلام جعل كل انسان مسؤولا عن عمله مسؤولية مباشرة. وقوة المدينة الإسلامية ليست في مؤسساتها ولكن في حركية مجتمعها وفي وحدة هذا المجتمع مع المجتمعات المدنية الأخرى المسلمة.

### ١ - السلطة الدنيوية في المدينة (الجهاز السياسي):

وتتمثل أولا في شخص الحاكم سواء كان خليفة أم ملكا أم وزيرا أم أميرا أم مجرد عامل يجمع الضرائب.

وإذا كان الخلفاء الأساسيون قد تحولوا من واحد في المدينة أو الكوفة أو دمشق أو بغداد ثم تحولوا إلى ثلاثة بين أواخر القرن الثالث ومطلع الرابع واحد في بغداد والثاني في إفريقية والثالث في الأندلس. ثم حمل لقب إمارة المؤمنين ملوك أصغر من ذلك فيما بعد (كالموحدين والمرينيين) فقد كان مقر الخلافت في الأمصار الكبرى الثلاث: بغداد والقاهرة وقرطبة. أما المدن الكبيرة التابعة لها، أو المدن الهامة بينها كالقيروان فقد كان حكمها بيد ولاية كانوا يعينون من قبل الخليفة. ثم صار بعضهم يفتصبون الحكم ويدعون الخليفة إلى القبول بهم ولاية باسمه، حين ضعف المركز.

وعلى أي حال فقد كانت سلطات الجميع من الخليفة إلى آخر عامل سلطات تنفيذية بمعنى أن عملها تنفيذ الشرع لا اختراعه، والالتزام بحدوده لا بالحدود التي يعينها الحاكم أو يريدتها الشعب. والشرع هو الذي يحدد العلاقة بين الحاكم والمحكوم. بين الأمر الأول أيا كان وبين آخر مسلم في المدينة بل يعين العلاقة مع الذميين أيضا فيها. على أن هذا الشكل المثالي لم يكن مطبقا في معظم الظروف. وضبابية بعض الحدود الشرعية أو سكوتها واختلاط الدين بالدنيوي بالإضافة إلى نزعات الأنفس والأطماع وسيطرة

المصالح . كل ذلك فتح الباب لكثير من التجاوزات وجعل الخليفة في العاصمة أو من يمثله في المدن الأخرى حاكما ذا سلطة مطلقة مستمدة من الله . وظهرت منذ عهد هشام بن عبد الملك تسمية الخليفة باسم «خليفة الله في الأرض» . ولم يتورع المنصور عن استعمال هذا الاصطلاح في خطبة رسمية له . ولا يكاد الفرق يكون واضحا في مثل هذه الحالات بين الخليفة أو الأمير وبين الدكتاتور المطلق إلا في الأحوال التي يثوب فيها الحاكم إلى رشده وربه . ويضع أوامر الشرع أمام عينيه لا من حوله أو من وراء ظهره . وأمثلة الحكام الذين طبقوا الشرع صارت في التاريخ الإسلامي أمثلة تضرب كعمر بن عبد العزيز أو نور الدين محمود بن زنكي . أما في الأحوال العامة فحاكم المدينة أيا كان لقبه هو حاكمها المطلق وإن كان يراعي حدود الشرع أحيانا .

ولم يكن الحاكم في المدينة يهتم بغير أمرين اثنين يعتبران هما مهمته الأساسية :

— القضاء لأنه يمثل العدالة التي يأمر بها الشرع .

— الأمن : لأن الناس في حاجة إليه للحفاظ على حياتهم وضمان معاشهم .

وبهذا الشكل تفرعت السلطة العليا في المدن الإسلامية إلى فرعين :

أ — فرع قضائي مهمته فض الخصومات بالعدل . ويقوم بهذا الفرع مؤسسة القضاء وجهاز القضاة . على أساس الشريعة ويتفرع عنه ديوان المظالم .

ب — وفرع أممي : مهمته حفظ أمن البلاد داخليا . فلا يتعدى أحد على أحد ، وخارجيا فلا يهتضمها أحد .

وتقوم بهذا العمل مؤسسة الشرطة يتبعها السجن في الداخل .

ومؤسسة الجيش في الخارج . وصاحب البريد الذي يحفظ الاتصال بين المدن  
والعاصمة .

ومن أجل نفقات هذا وذاك كله لابد للحاكم من :

– جمع هذه النفقات من الشعب ويقوم على ذلك الدواوين المالية  
والكتاب ، كما تقوم من أجله دار الضرب . وهذا بالضبط هو الهيكل الذي  
تقوم عليه الحكومة الإسلامية في المدينة . على أننا نلاحظ أن المهمة الأولى  
محددة بحدود الشرع أما المهمتان الثانية والثالثة فلهما إطار من الشرع نفسه  
هو العدالة ولكنه واسع لدرجة يمكن معها اختراقه دون عناء كبير والانتقال  
من العدالة إلى الظلم ، وإلى الظلم الشديد أحيانا وخاصة في موضوع  
الضرائب وجمعها . وكان هذا الميزان هو الميزان المرجعي للناس في وصف  
الحكم بالعدل أو الظلم ولهذا اشتهرت كلمة «العدل» في التاريخ الإسلامي  
كثيرا واشتهر العادلون . ذلك أن أكثرية الحكام كانوا على مسافة قريبة أو  
بعيدة من الظلم .

وهكذا كان ثلوث السلطة الذي يقوم «الأمير» على رأسه في المدينة  
يعتمد على القاضي والجندي وجابي الضرائب بالإضافة إلى الكاتب الذي  
يكتب بين هؤلاء ويسجل في ديوانه الواردات والنفقات .

بقي منصب الخليفة لواحد في بغداد حتى سنة ٢٩٧ حين شاركه الثاني  
الفاطمي في إفريقية معتبرا نفسه أحق من العباسي بوصفه من سلالة فاطمة .  
وبعد سنوات أعلن عبد الرحمن الثالث نفسه أمير الأندلس نفسه خليفة  
أيضا . وقد اتخذ العباسيون لأنفسهم شعار السواد والفاطميون البياض .  
وكان الخليفة العباسي يتخذ لنفسه كل «المظاهر الدينية» التي تجعله مهيبا بين  
الناس فإذا خرج موكبه في الأسواق خرج في أكمل لباس وعلى رأسه عمامة  
سوداء ويرتدي الديباج الفضي وعلى كتفه وصدرة البردة النبوية وفي يده

اليعنى قضيب الرسول وخاتمه وهو متقلد سيف الرسول أيضا وأمامه علم أسود عليه بالبياض : محمد رسول الله . أما الخليفة الفاطمي فكانت له المواكب المهيبه التي يخرج الناس لمشاهدتها في المواسم بآلاف الجند وأنواع اللباس<sup>(١)</sup> والمراسم ، وكانت الويتهم بيضاء وعليها أحيانا أهلة من الذهب في كل منها صورة سبع من الديباج الأحمر . ويحمل على رؤوس الخلفاء من عباسيين وفاطميين شمسة الخلافة (المظللة) ولم تكن دليلا على أهبة الخلافة إلا في القاهرة وكان لونها يشابه لون ثياب الخليفة . ومن علامات سيادة الخليفة في بغداد أن يضرب عند باب داره بالطبول والدبابت والأبواق عند كل صلاة . لا يوقف ذلك إلى أيام العزاء .

ولم يتخذ خلفاء الأمويون في دمشق أو في الأندلس الألقاب . كان أول من اتخذها أبو جعفر فتسمى بالمنصور وسمى ابنه المهدي وفي اللقبين ظل من المعنى الديني ظل مستمرا في جميع ألقاب الخلفاء من بعده . وكذلك فعل خلفاء الفاطميين . وظهرت كلمة الله مع اللقب أيام المعتصم . كما أعطى الخليفة القادر (٣٨١ - ٤٢٢ / ٩٩١ - ١٠٣١) لأول مرة من قبل كاتبه لقب الحضرة النبوية زيادة في إضفاء المظهر الديني على الخلافة بعد أن فقدت السلطة السياسية وأضحت كما قال البيروني أشبه بالبابوية لدى النصارى . ولقب الخليفة المستكفي نفسه بلقب «إمام الحق» سنة ٩٤٥ / ٣٣٤ جوابا على جميع أئمة الفاطميين وأئمة الشيعة ليستمد الهبة اللازمة .

أما الخلفاء الفاطميون فكانوا يستمدون شرعيتهم وهيبتهم بين الناس من ادعائهم أن نور النبوة في جباههم يرثونه ، كما يعتقدون ويوحون للناس أنهم يعلمون حتى الغيب وأن ملكهم يمتد على الأرض كلها ، فهم وارثوها

(١) ابن سعيد : المغرب في حل المغرب ص ١٧ - ١٨ .

وبلغ بعضهم حتى التاله . وقد قلد سلاطين الممالك مواكب الخلفاء فكان يخرج واحداهم بعمامة من الحرير لها عذبة مدلاة على الكتفين ، وجبة حرير سوداء واسعة الكمين لا نقش عليها وسيف عربي يحملونه على الكتف الأيمن بالحمائل (ويقال أنه سيف عمر بن الخطاب) ويتدلى على الجانب الأيسر .

وكان الخلفاء يتوجهون أنفسهم بأنفسهم بعد البيعة بتسلم خاتم الخلافة وعقد اللواء لأنفسهم وضرب السكة بعد ذلك باسمهم . ولم تلبث خلافة الأمويين بالأندلس إلا أقل من قرن ولكنهم لم يدعوا لذواتهم أي مظهر ديني وكانت شرعيتهم ، في عيون الناس ، آتية من أنهم ورثة الأمويين في الشام ومثلوا السنة والجماعة أيضا ، أما ولاية العهد فلم يكن لهم ذلك الموكب الكبير ولكن بعض مظاهره فالرشيد أيام أبيه المهدي كان يسير أمامه غلام بحربة الرسول ويفسح له الطريق . ثم كبر الموكب قليلا بعد ذلك وصار ولاية العهد في القرن الرابع ، مثلهم كمثل أمراء الأطراف يسير بين أيديهم الغلمان بلواءين أسود وأبيض في بغداد وراية سوداء<sup>(١)</sup> .

وأما الأمراء أو الولاة فكانوا يستمدون شرعيتهم من الخليفة الذي عينهم أو يستولون على الحكم ويلتمسون الشرعية من صاحبها الخليفة بعد ذلك سواء برضاه أم بالهدايا والأرغام . وعند هؤلاء ظهرت الألقاب المختلفة كالأمير (وهو أكثر الألقاب استخداما في القرون الأولى) والوالي (وهو اللقب الذي استخدم بعد ذلك) . وقد يحمل بعضهم ألقابا خاصة كالأستاذ (كافور) ، وكالإخشيد (محمد بن طنج) ، والأتابك (طغتكين وعماد الدين) ، أو صاحب المخزن (في المغرب) ، أو السلطان في الدولة الغزنوية ، أو السلطان ونائب السلطان في الدولة المملوكية . ويحمل كثير منهم لقب ملك

(١) انظر مواكب الخلفاء الفاطميين لدى نصري خسرو في الرحلة ، ولدى المقرئزي في الخطط وفي انقاط الحنفا .



منذ أواخر القرن الثالث وخاصة في المشرق . وهكذا توزعت الأمراء والولاة والملوك والأتابكة على المدن الإسلامية المختلفة بوصفهم رؤوسا للحكم .

هؤلاء الذين يأتون بعد الخليفة ويتولون إدارة المدن والأقاليم المختلفة كانوا في مقر اداراتهم هم الخلفاء الصغار في السلطة المطلقة وإذا كان الولاة في العهد الأموي والعباسي الأول يعينون للإمامة (أمامة الصلاة والشؤون الحربية) ، ويعين معهم رجل آخر يحمل لقب «العامل» مهمته الشؤون المالية ؛ فلم ينته القرن الثالث إلا وكان المنصبان يجمعان لواحد فهو للصلاة وللعمالة معا . ولعل أول من جمعت له الإمامة مع الخراج هو أحمد بن طولون في مصر (٢٥٥ - ٢٧٠) ، ثم الإخشيد . لكننا نجد أن يحكم القائد التركي يرفض سنة ٩٣٧/٣٢٥ أن يسير واليا على الأهواز إلا أن يجمع له الإمامة والخراج . وقد صار هذا نوعا من القاعدة السياسية مع ضعف الدولة المركزية من بعد . فكان السامانيون والغزنويون والحمدانيون يجمعون بين العمليين . ولم يكن للوالي أو الأمير من علامة تميزه وإنما يخطب له في اقليمه بعد الخليفة ، وتكون دار الضرب في المدينة أحيانا باسمه مع اسم الخليفة أيضا ولكن الولاة اختلفوا عن رأس الدولة فاتخذوا عددا من الأمور التي توطن هيبته بين الناس :

١ - لبسوا التيجان والأطواق لأن تنصيبهم كان يجري منذ أواخر القرن الثالث بوضع تاج مرصع بالجواهر على رؤوسهم . وكان يكتفى قبل ذلك ومنذ عهد المعتصم والواثق بلبس طوق وسوارين من الذهب المنظوم بالجواهر لكبار القواد ثم صار يلبسها الولاة . وأول من خلعت عليه الإخشيد صاحب مصر . فزينت لذلك الأسواق وركب الإخشيد إلى جامع عمرو بن العاص وعليه خلع الخليفة الراضي ومعه الوزير<sup>(١)</sup> ، في حين لم يرسل الخليفة

(١) ابن سعيد : المغرب في حل المغرب ص ١٧ - ١٨ .

إلى خمارويه بن طولون قبله سوى السيف والتاج والوشاح من غير طوق<sup>(١)</sup>. وقد ظل الطوق والسوار مما يتحلى به القواد في عصر الفاطميين ومما يجتمع عليهم. وقد لبس سيف الدولة يوم استقباله رسول الروم سنة ٣٥٢/٩٦٤ تاجا مرصعا بالجوهر.

٢ - تلقبوا بالألقاب فقد أخذ البويهيون الأولون «دولة» بني العباس وتسموا باسم معز الدولة وعضد الدولة وتاج الدولة ثم أخذوا لقب الملوك ولقب شاهنشاه الأعظم (أيام جلال الدولة). وظهرت لهم الألقاب أخرى تغاير روح الإسلام مثل كافي الكفاة وتاج الملة وأوحد الكفاة. فلما جاء السلاجقة صار لولايتهم بالإضافة إلى ذلك كله لقب «الدين» كصلاح الدين ونور الدين، ولقب الإسلام كسيف الإسلام ومجد الإسلام، كما حملوا ألقاب الناصر والعاقل والكامل. وفيها جميعا رموز الاستقلالية عن الجذع الأساسي للدولة في بغداد لكنها صارت من الكثرة بحيث لم يعد لها أي معنى، وأضحت كالأوسمة للتحلي بها في المراسم.

يقول أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي (ت سنة ٣٨٣/٩٩٣):  
مالي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوابا  
ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ما كان يرضى به للحش بوابا  
قل الدراهم في كفي خليفتنا هذا فانفق في الأقسام ألقابا  
لكن عدوى الألقاب مع ذلك أصابت الفاطميين فاستخدموها عن  
سعة لرجاهم منذ أيامهم الأولى (كالمعز والعزيز والمستنصر)، كما استعملها  
على اكتفاء وتحديد الأمراء والخلفاء وملوك الطوائف في الأندلس (كالناصر  
والمعتمد)، واستخدمها كذلك السامانيون مما هبط بقيمتها السياسية إلى  
الابتذال.

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٤٠.

٣ - اتخذوا الدبادب والطبول عند الصلوات الخمس على أبوابهم .  
وكان ذلك خاصا بالخليفة الذي أمر سنة ٣٨٦/٩٧٨ بضربها على باب عضد  
الدولة ثلاث مرات ، ثم أذن لجلال الدولة سنة ٤١٧/١٠٢٧ بالنوبات  
الخمس . وقد قلد الخلفاء الفاطميون ذلك فكانت الدبادب و«أصوات الطبل  
والمزامير السلطانية تسمع في كل أنحاء المدينة منذ غروب الشمس حتى طلوع  
الفجر»<sup>(١)</sup> كما شهد ذلك ناصر خسرو .

كل هذه كانت علامات الشرعية لدى الناس بالاضافة إلى المنشور  
الذي يأتي من الخليفة بالتولية . وندر أن يأتي سابقا للولاية وخاصة منذ القرن  
الرابع والخامس ولكنه يأتي لاحقا بعد أن يستولي أمير «الاعتصاب» على  
الحكم ويسترضي الخليفة بما يقدمه له من مال سنوي ومن هدايا أضحت  
جزءا من دخله .

وعلى الرغم من سوء العلاقات أحيانا مع الخلفاء فقد كان الولاة  
يكتبون إليهم «بمولانا أمير المؤمنين» ، ويظهرون لهم حين يلقونهم منتهى  
الاحترام . وحين لقي الإخشيد الخليفة المتقي في الرقة سنة ٣٣٠ ترجل عن  
بعد ومشى كالغلام بسيفه ومنطقته بين يدي الخليفة وقبل الأرض مرارا .  
وحين توج الخليفة عضد الدولة قبل الأرض يديه ثم مازال يكرر ذلك كلما  
تقدم إليه تسع مرات . وكان إجلال الخليفة الفاطمي أشد من ذلك فقد  
قرىء سجل أحد القضاة بين يدي الخليفة في الأزهر سنة ٣٦٦/٩٧٦ فكان  
كلما مر ذكر الخليفة أو ما القاضي بالسجود . وفي سنة ٣٩٨/١٠٠٨ كان  
القاضي أيضا يقبل الأرض . وإذا ذكر اسم الخليفة في الأسواق قام الناس  
وسجدوا . وكان يشرف الناس بتقبيل ركابه .

(١) ناصر خسرو ، الرحلة ص ٩٤ .

وخسر الخلفاء العباسيون والفاطميون على السواء هذا الاحترام القدسي. تدريجيا منذ القرن الخامس وبقيت لهم أشباح الهيبة الدينية في نطاق قصورهم وفي المكاتب. ذلك ان فكرة «الشرعية» التي صارت للخلفاء خاصة كانت ترهق الفكر السياسي كله في الإسلام. فقد حدد الشرع كل أمر إلا كيفية توالي الحكام. وقد حاول العلماء جاهدين استنباط شرعية الحكم من خلال المبادئ الإسلامية ووصفوا لها شروط الشورى والعدل والجهاد والكفاية وما إلى ذلك ولكنها ظلت دوما شروطا نظرية. وكان الحكام عامة يتجاوزونها بشكل أو بآخر. ولعله لهذا كان العالم الإسلامي وحدة في كل شيء إلا في الناحية السياسية.

وجهاز الحكم في المدن (عدا العواصم) كان لا يتناول عدا الوالي والعامل إلا الكتاب في الدواوين ومقرهم مع الوالي في المدينة التي يستقر بها، كما يستقر أيضا قواد الجيش التابع له. بمعنى أن السلطة المدنية تنقطع بالوالي والكتاب لتصبح بعدهما سلطة عسكرية موزعة في المدن الأخرى. أما السلطة التي تمشي بشكل هرمي متزايد ومنظم وتشمل كل مدينة وقرية في البلاد فهي سلطة العامل (صاحب الخراج) الذي يجمع الضرائب. ولديه جباة وجرائد بمبالغها على كل قرية ودسكوره. وحين صار الوالي والعامل شخصا واحدا صار يقطع من الضرائب ما يشاء ويرسل الخليفة بحصته وكثيرا ما يساوم عليها مقابل الألقاب أو المزيد من الأرض أو من الإستقلالية.

## (٢) المدن الملكية.

على أن أهم ما يميز المدن الكبار في الولايات المختلفة وجود ما نستطيع أن نسميه بالمدن الملكية فيها. وهي ليست شيئا آخر سوى دار «الإمارة». ولكن غالبا ما يبينها الأمير خاصة لنفسه في ظاهر البلد أو في وسطه ويجعل

فيها أهله وخاصته وجنده . وسلسلة هذه «المدن» تبدأ مع الخلفاء ومنذ العصر الأموي وإذا سكن معاوية قصر الخضراء بدمشق ، فإن معظم خلفاء بني أمية تركوا دمشق . فيزيد كان في (حوارين) ، وسليمان في الرملة ، وعمر بن عبدالعزيز في دير سمعان ، وهشام كان في الرقة . كذلك مدينة عين جر الخير الغربي وقصر المشتى والقصور الأخرى بما يحيط بها من مياه وشجر وما فيها من بنيان كانت كلها قصورا ملكية أشبه بالمدن الصغيرة . وواسط حين بنيت جعلها الحجاج له ولجماعته ، ومنع النبط من دخولها فكانت أول مدينة ملكية بنيت في الإسلام . لكننا نستطيع أن نعد بعدها ما يزيد على خمسين مدينة أخرى كانت كلها مدنا صغيرة خاصة بسكنى الأمراء تبنى اما بجانب المدن أو في داخلها وتحاط بسور أو تتخذ قلعة ذات أبراج وأسوار . انفصال الحاكم عن الرعية كان يتمثل بوضوح في هذا الشكل البنائي الذي كان يدعو إليه :-

- أما فرط الغنى والترف كبناء الزهراء في جانب قرطبة .
- وأما الوسيلة للأعتزال عن الشعب بغية المزيد من الهيبة كقصر المنصور في بغداد المدورة .
- وأما هي حل لتزايد العمران ضمن المدن فيخرج الأمير منها إلى مكان أروح وأفسح .
- وأما تكون طريقة لحماية الأمير بإحاطته بأعوانه وأبعاد إمكان العدوان عنه كما في دمشق .
- وأما أخيرا لتأكيد الدولة . فكل حاكم جديد يحاول بناء مقر ملكي لنفسه وعلى مقدار ذوقه وما له وحاجته هاجرا أحيانا مقر الأمير السابق .

وكثيرا ما كانت المدن الملكية تتحول مع الأيام مدنا حقيقية واسعة تكون كالتوأم للمدينة القديمة المجاورة . أو تموت بالإهمال . ونستطيع أن نعد منها نيفا وأربعين : منها في المشرق الإيراني حوالي عشر مدن ولكل منها

بجوارها أو يداخلها هذه المدينة الخاصة بالسلطان، فهناك :

- الميان : وهي مواضع كانت بنيسابور فيها قصور آل طاهر بن الحسين (ومعنى الميان بالفارسية الوسط)<sup>(١)</sup>.

- نسف : ودار الإمارة فيها على شط هذا النهر (بمكان يعرف برأس القنطرة)<sup>(٢)</sup>.

- نصر آباد : ومعناها بالفارسية عمارة نصر . . . محلة بالري في أعلى البلد تنسب إلى نصر بن عبدالعزيز الخزاعي وكان قد ولي الري في أيام السفاح، ولم يزل واليا عليها إلى أن قتل أبو مسلم الخراساني . . .<sup>(٣)</sup>.

- عزنين : قصبة رحبة . . . وهي جانبان : القلعة وسط المدينة وينزلها السلطان، والجامع نحو القبلة مع بعض الأسواق في المدينة<sup>(٤)</sup>.

- بست : قصبة رحبة . . . وعلى نصف فرسخ من بست شبه مدينة تشمل العسكر ينزلها السلطان<sup>(٥)</sup> تسمى لشكري.

- الري : لما كمل بناؤها على يد المهدي جعل لها فصيلا يطيف به فارقين آجر، وسماه المحمدية أو المدينة الخارجية (كما يسميه أهل الري). وكان فيها الحصن المعروف بالزبيدي في داخلها فأمر المهدي بمدمته ونزله أيام مقامه بالري . . . ثم جعل بعد ذلك سجنا ثم خرب فعمره رافع بن هرثمة سنة ٢٧٨، ثم خربه أهل الري بعد خروج رافع منها<sup>(٦)</sup>.

(١) ياقوت ج ٥ / ٢٣٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٨٥، والخميري ص ٥٧٩ .

(٣) ياقوت ج ٥ ص ٢٨٧ .

(٤) المقدسي ص ٣٠٤ .

(٥) المصدر نفسه ص ٣٠٤ .

(٦) ياقوت ج ٣ ص ١١٨ .

- كش : وهي قسمان قسم فيه قهندوز وحصن وربض وهو المدينة الداخلة ، والخارجة عامرة ودار الإمارة خارجة عن المدينة<sup>(١)</sup> .
- مرور الروذ : لها قصبة في نشز مرتفع<sup>(٢)</sup> .
- قلعة سميران : هي قلعة ملك الديلم . رأيت فيها مالم أشاهده في غيرها من مواطن الملوك وذلك أن فيها ألفين وثلاثمائة ونيفا وخمسين دار كبارا وصغارا . وكان محمد بن مسافر صاحبها لا يرى عملا حسنا إلا أتى بصاحبه إلى القلعة ومنعه الخروج منها . . . حتى صاروا خمسة آلاف إنسان إلى أن كان يتصيد مرة فأغلقوا الباب دونه وأطلقوا الناس . . .<sup>(٣)</sup> .
- هراة : ودار الإمارة فيها خارج الحصن بمكان يدعى خرسان آباد منقطع عن المدينة بينه وبينها ثلاثة فراسخ<sup>(٤)</sup> .
- قزوين : مدينة عليها حصن وداخلها مدينة صغيرة عليها حصن ومسجد الجامع في المدينة الداخلة<sup>(٥)</sup> .
- ونعد في منطقة البرازخ الوسطى خمس عشرة مدينة ملكية ، فهناك :
- واسط : التي بناها الحجاج مدينة له ولجنده الشامي فلها ماتت صارت مدينة للناس .
- الأنبار وهاشمية الكوفة وقصر ابن هبيرة : وهي المدن الملكية الثلاث التي سكنها العباسيون قبل بغداد .
- بغداد : وكان بناء المنصور للمدينة المدورة على أنها مدينة ملكية له ولأنصاره فحسب ، حتى لقد أخرج الأسواق منها .

(١) الحميري : الروض المعطار ص ٥٠١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣٣ .

(٣) ياقوت ٣ / ٢٥٦ .

(٤) الحميري : الروض المعطار ص ٥٧٩ .

(٥) الاضطخري ، ص ٢١١ .

وبنى مدينة ملكية أخرى هي الرصافة لإبنة المهدي وجيشه . وتكاثرت فيها الناس بعد ذلك . واتسعت المدينة اتساعا كبيرا جدا وبسرعة كبيرة مما دفع الخلفاء منذ أيام المأمون إلى الانتقال إلى الضفة الشرقية لدجلة . وبعد أن عاد الخلفاء إلى بغداد جاء المعتضد سنة ٢٨٠ / ٨٩٣ فأعاد بناء القصر الحسيني<sup>(١)</sup> الذي كان قد آل إلى بوران زوجة المأمون ووسع أراضيه وأضاف إليه أبنية جديدة وبني مطامير (سجوناً) فيه وميادين واسعة وأحاط الجميع بسور خاص . وهذه هي (دار الخلافة) التي بقيت مع بعض الزيادات المقر الرسمي للخلفاء . وابتنى قصر التاج على مقربة منه ثم قصر الثريا وفتح نفقا تحت الأرض بينه وبين دار الخلافة لإنتقاله وانتقال سراريه . . . وقد هدم المكتفي السجون وبني بدلا منها جامع القصر . . . فهذه على الأقل ثلاث مدن ملكية أخرى في موقع واحد . وقد تأتي مثل ذلك لموقعي الفسطاط والقيروان . والأخيرة أكثر عددا في مثل هذه المدن .

— الموصل : . . . البلد على الشط (شط دجلة الشرقي) وقصر الخليفة على نصف فرسخ من الجانب الآخر عند نونوى القديمة<sup>(٢)</sup> وفي أعلى البلد قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصا عليها سور وثيق البنية مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان ويفصل بينها وبين البلد شارع متصل من أعلى البلد إلى أسفله . . .<sup>(٣)</sup>

— حلب : وكان لها مدينتان ملكيتان واحدة في داخلها هي القلعة على جبل عال مدور والقلعة في رأسه ولها خندق عظيم وفيها مصانع تصل إلى الماء المعين وفيها جامع وميدان ودور كثيره وكان الملك غازي بن صلاح

(١) المقدسي ص ١٣٨ .

(٢) انظر ذلك كله لدى ياقوت ٢ / ٣ - ٥ .

(٣) المقدسي ص ١٣٨ .

(٤) الحميري ص ٥٦٣ .



الدين الأموي قد اعتنى بها فعمرها بالحجارة . . . والثانية على باب إنطاكية وتسمى ربض الدارين وكان محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي بنى الربض وبني دارا فيه ولم يستتمه ، وأتمه سيما الطويل ورم ما كان استهدم منه وصير عليه بابا جديدا وبني فيه سيما دارا مقابلة لدار بن عبد الملك<sup>(١)</sup>.

— دمشق : وكان دار إمارتها أيام الأمويين في وسطها وهو قصر الخضراء الملاصق للجامع الأموي . وقد سكنه الولاة بعد ذلك . فلما جاء الاحتلال الفاطمي بنى الولاة الفاطميون لأنفسهم قصراً ضخماً خارج المدينة ذكر سبط ابن الجوزي أنه كان يتسع لعشرة آلاف إنسان . وقد أحرق هذا القصر الذي كان في غربي المدينة سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧ بعد قرن من بنائه في ثورة أهل دمشق على الفاطميين .

— العسكر : بنيت القسطنطينية في مصر للجند الفاتح وحين نزلها العباسيون بنوا بجوارها مدينة العسكر لنزول جند صالح بن عبد الله العباسي سنة ١٣٢ ثم نزول أبي عون عبد الملك بن يزيد مولى هناءة سنة ١٣٣<sup>(٢)</sup>.

— القطنان : بناها أحمد بن طولون ثم ابنه خمارويه لتكون مقرا للطولونيين وفيها كانت قصورهم المعروفة .

— القاهرة : بنيت بدورها مدينة ملكية للفاطميين شمالي القطنان والقسطنطينية . ولم تصبح للناس جميعا إلا بعد العهد الأيوبي .

وأما في المغرب والأندلس فنعد أحد عشرة مدينة منها أربع حول القيروان .

— المهديّة : بناها عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين على البحر

(١) ياقوت ج ٢ ص ٢٥ وج ٣ ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

(٢) ياقوت ج ٤ ص ١٢٣ .

قرب القيروان ويحيط بها البحر من ثلاث جهات<sup>(١)</sup> لكي يؤمن كما قال الفاطميات ويسكنها السلطان وجنده وقد أحاطها بسور حجري وبابين من حديد.

— العباسية : وقد بناها الأغلبة قرب القيروان قصورا لهم ومقر حكم.

— رقادة : بناها ابراهيم بن أحمد الأغلب لتكون دار ملكه ومسكنه ومنع بيع النبيذ في القيروان وإباحه بها<sup>(٢)</sup>.

— القصر القديم : أسسه عند القيروان ابراهيم بن الأغلب سنة ٢٨٤ في قبليها على ثلاثة أميال منها . وبه حمامات وأسواق . ولما بنى مدينة القصر وانتقل إليها خربت دار الإمارة في القيروان<sup>(٣)</sup>.

— الخالصة (في صقلية) : مدينة ذات سور من حجارة . . . يسكنها السلطان واتباعه و . . . بها جيش السلطان ودار صناعة البحر والديوان . . .<sup>(٤)</sup>.

— اللؤلؤة : موضع في بجاية وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر متصل بالمدينة فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة . مشرف نزيه فيه طاقات على البحر<sup>(٥)</sup>.

— تلمسان : مدينتان متجاورتان مسورتان والحديثة منها اختطها المثلثون ملوك المغرب وأسمها تافرزت فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس<sup>(٦)</sup>.

(١) الحميري ص ٥٦١ .

(٢) الحميري ص ٢٧١ .

(٣) الحميري ص ٤٧٦ .

(٤) ابن حوقل ص ١١٤ .

(٥) الحميري ص ٥١٣ .

(٦) ياقوت ج ٢ ص ٤٤ .

- مليلة : مدينة مسورة بسور حجارة وداخلها قصبة مانعة وفيها مسجد جامع وحمام وأسواق<sup>(١)</sup>.
- فاس : . . وبقصبة السلطان فيها جامع شريف أحدثه خلفاء بني عبد المؤمن لأن القصبة منحازة عن البلد بسور<sup>(٢)</sup>.
- تاهرت : . . ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة<sup>(٣)</sup>.
- مراكش : فيها دار الحجر وهي الحظيرة التي فيها القصر منفردا متحيزا بذاته والمدينة خارج هذا القصر<sup>(٤)</sup>.

وفي الأندلس ثمانى مدن :

- الزهراء : التي بناها الناصر عبدالرحمن قرب قرطبة<sup>(٥)</sup> على خمسة أميال منها وكانت روعة المدن ثم اندثرت .
- الزاهرة : المدينة المتصلة بقرطبة والتي بناها المنصور بن أبي عامر لينزل بأهله وذويه وفتيانه وغلماه فيها<sup>(٦)</sup>.
- اشبيلية : هدم سورها عبدالرحمن الناصر وبنى القصر القديم المعروف بدار الإمارة وحصنه بسور حجر رضيع وأبواب منيعة<sup>(٧)</sup>.
- قصر ماردة : وقد بناه عبدالملك بن كليب وطول كل شقة من سوره ثلاثمائة ذراع، وعرض البناء اثنا عشر ذراعا ومن أغرب الغرائب

(١) الحميري ص ٥٤٥ .

(٢) الحميري ص ٤٣٥ .

(٣) ياقوت ج ٢ ص ٨ .

(٤) الحميري ص ٥٤٠ .

(٥) الحميري ص ٢٩٥ .

(٦) الحميري ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٧) الحميري ص ٩٥ .

جلب الماء إلى القصر على عمد مبنية تسمى الإرجالات وهي أعداد كثيرة باقية إلى الآن (سنة ٧٢٠) (١).

— مالقة : . . . وقصبتها في شرقي مدينتها عليها سور صخر وهي في غاية الحصانة المنعة وفيها مسجد (٢).

— لقت : لها قسبة منيعة جدا في أعلى جبل يصعد إليه بمشقة وتعب (٣).

— قصر الحمراء في غرناطة : وهو مشهور معروف على تل يشرف على المدينة.

— قرطبة : وقصرها في غربها متصل بسورها الغربي والقبلي وجامعها بإزاء القصر من جهة الشرق (٤).

ولم تدخل في حساب هذه المدن الملكية دور الإمارة الموجودة في معظم المدن ذات العمل الإداري . ولا ما أهمل الجغرافيون ذكره منها . ويلاحظ على هذه المدن أنها لم تكن تتعلق بعظمة الولاية أو صغرها ولكن بأهواء الحكام ، ومدى طموحهم وثرواتهم ، أو بالتكاثر السكاني وضيق رقعة المدينة الأصلية .

### ٣ — موظفو الإدارة :

كان في كل مدينة من المدن الإسلامية لإدارتها مجموعة من الموظفين :

١ — القاضي ولا سلطة للأمير عليه إلا أنه منذ العهد الطولوني صار

---

(١) الحميري ص ٥١٨ - ٨١٩ .

(٢) الحميري ص ٥١٨ .

(٣) الحميري ص ٥١١ .

(٤) الحميري ص ٤٥٨ .

من أتباع الأمير غالبا ولو أنه يعين من بغداد أو القاهرة أو قرطبة، عواصم الخلافت الثلاث. ثم صار يعين من قبل ملوك المناطق.

٢ - كاتب سلطة ويعرف بالبندار يطالب الناس بالخراج ووجوه الأموال وهو يتبع صاحب الخراج في الولاية.

٣ - صاحب جند من العسكريين وأمره لقائد الجند الذي يتبع الأمير صاحب الصلاة.

٤ - صاحب بريد لا يتبع أحدا في الولاية ولكنه يتصل مباشرة بالخليفة وينقل إليه الأخبار.

٥ - متولي الصوافي (وهي الضياع السلطانية).

٦ - صاحب شرطة أو شحنة يحكم المدينة وبجانبه صاحب معونة مهمته العمل في الجرائم والمجرمين في المدينة.

ويلاحظ أن الموظفين الثلاثة الأوائل يمثلون الأعمال الثلاثة للسلطان : القضاء والأمن والمال.

وأما الآخرون فواحد للرقابة وثان شخصي للسلطان وممتلكاته وأخيران يضبطان الأحكام والأمن وقد شكوا ديونيسوس التلمحري في آخر كتابه في التاريخ من كثرة عدد العمال في المدن لأنهم بهذه الكثرة يغتصبون عيش الفقير بكل الوسائل<sup>(١)</sup> وكان هؤلاء الموظفون يتغيرون بتغير الولاة ليأتي بدلمهم جماعة أخرى. ولعل أكثرهم ثباتا هو صاحب الضرائب فإن أعوانه في الغالب كانوا ثابتين بسبب عملهم «الفني» ومعرفتهم بالناس والضرائب وجرائدها، حتى صارت بعضها متوارثة في أسر محددة كأسرة ابن مماتي في القاهرة التي تواصلت على الجباية من عهد العباسيين إلى عهد صلاح الدين.

(١) منز / الحضارة الإسلامية ج ١ ص ١٥٧.

ويلاحظ بصورة عامة أن الأمراء المغتصبين كانوا يظهرون من المناطق والمدن التي ينتسبون إليها. وإن الولاة الذين أخذ يعينهم الخليفة (سواء العباسي أو الفاطمي) كانوا من قواد العسكر الكبار. فالصفاريون والسامانيون والغزنويون والحمدانيون جميعاً من أبناء مناطقهم الذين وثبوا إلى الحكم وثباً. أما الآخرون مثل بغا وابن طولون والأخشيد فكانوا من «الموالي» الترك خاصة، ومن المهاليك السابقين. وكذلك الأمر في الخلافة الفاطمية فقد كان قوادها البربر هم الذين توليهم ولايات دمشق وحلب (مثل جعفر بن فلاح في دمشق) والأفضل الجمالي الأزمني في الرملة وانشكين في حلب. في حين أن آل مرداس الكلابيين هم الذين تسلموا حلب فترة تزيد على ستين سنة، وكذلك آل فليته في مكة، والصنهاجيون في أفريقية.

وكان للخليفة في دار الملك، دواوين يشرف عليها الوزير ويقوم بها كتاب ومنها : ديوان الرسائل (وهو ديوان الإنشاء عند الفاطميين والمهاليك) ويشبه أن يكون وزارة الداخلية. وديوان الأئمة وهو للمال (ويشبه وزارة المالية)، وديوان الجند (وهو قسمان مجلس التقرير للإستحقاقات ومجلس المقابلة للنظر في السجلات ولكل مجلس أقسام). وديوان البريد وديوان المال وهو مجموعة دواوين إقليمية لكل ولاية يتألف من قسمين : الأول - الذي يضع الضرائب ويحددها ويتسلمها باسم بيت المال والآخر الذي يتولى الإنفاق. وهذه الدواوين الإقليمية ديوان واحد يجمعها هو ديوان الزمام. ثم جاء المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ / ٨٩٢ - ٩٨٢) فجمع دواوين الدولة كلها في واحد سماه : ديوان الدار له ثلاثة فروع : ديوان المشرق وديوان المغرب، وديوان السواد وجعل أمرها جميعاً في يد رئيس واحد ثم جعلت الأصول كلها في يد رئيس واحد سنة ٣٠٠ / ٩١٢ وهذه الدواوين جميعاً في العاصمة، وتحت سلطة الوزير. صارت الدواوين الأخرى دواوين تابعة أي فروعاً للدواوين الأصلية أو «مجالس» منها وتسمى أحياناً مجالس ديوان النفقات

لقصر الخلافة، (ينقسم إلى مجلس الجاري الاستحقاقات الحاشية) ومجلس الإنزال لمحاسبة التجار وتسمى أحيانا مجالس ديوان نفقات لقصر الخلافة وديوان الكراع وديوان البناء والمرمة، وهناك ديوان بيت المال ديوان المصادرين وديوان الخاتم وديوان التوقيع وديوان البريد وديوان الجزية أو الجوالي وغيرها كالديوان المستأنف وهو ديوان الأمور التي لم يسبق إليها، وديوان الجهبذة، (الذي يختص ببواقي الضرائب) وديوان والصدقات (ويضم الرواتب للموظفين) وديوان الفض (لفض الرسائل)

كذلك كان في عواصم الولايات الهيكل نفسه من العمل الإداري على شكل مصغر ففي المدينة مركز الولاية دواوين : الجند والمال والرسائل بصورة أساسية ولها كتابها المدربون الذين يلبسون الدراريح كلباس رسمي، (كما يلبس القضاة الطيلسان) ولذلك كانوا يسمون بأصحاب الدراريح. وكان الوالي مع عامل الخراج يقطع في القديم من أموال الضرائب ما يفي بنفقات الولاية. ويرسل الباقي إلى العاصمة ولكن هذا الأمر تغير تدريجيا فصار يقطع ما يشاء من المال ويرسل الباقي متعللا بحاجاته ونفقاته. ثم صار الولاة يلتزمون الولايات بمبالغ محددة يؤدونها ويجمعون لأنفسهم ما يشاؤون وكان هذا منبع الثروات الخيالية للولاة. وقد قال ابن المعتز في أواخر القرن الثالث :

أفما ترى بلداً أقمت به أعلى مساكن أهله خص!  
وولاته نبط زنادقة ملأى البطون وأهله خمص؟

وكان في كل مدينة من مدن الولاية، وللموظائف الست التي تقوم فيها، كتاب ودواوين صغيرة تقوم بحاجاتها. وذكر الاصطخري أن «بعض المؤلفين ذكر أن الكتاب خمسة : كاتب رسائل وكاتب خراج وكاتب قضاء

وكاتب جند وكاتب شرطة . ولكل منهم أشياء يجب أن يعرفها . . . (١) وأسرار الصنعة هذه كان يتدرب عليها الكتاب ويحاولون استغلالها . وكان في ذلك مجال كبير لمختلف الإعتداءات والمظالم لأنهم يقومون بأعمالهم عن طريق الإلتزام في الغالب . وقد حاول الأخشيدي في مصر ترتيب الرواتب المحددة ، فلما جاءها الفاطميون أقرروا هذا النظام في جملته . وكانوا ينوون تقسيم البلاد بين خاصتهم وأوليائهم . فجعل جوهر الصقلي مع كل موظف (وكان أكثر الموظفين في الأعمال المالية من النصاري) موظفا مغربيا لكن ذلك خلق المشاكل للدولة فألغى المشروع وعاد الفاطميون فحددوا لكل ديوان وإدارة مرتبا محددًا . وبعض هذه المرتبات كان أقل مما يمثّلها في بغداد . فقد كان صاحب ديوان الإنشاء في القاهرة يأخذ مائة وعشرين ديناراً ، وصاحب بيت المال مائة دينار في الشهر وأصحاب الدواوين الأخرى ما بين سبعين إلى ثلاثين ديناراً (٢) .

ومع العصر البويهي ظهر مبدأ استثمار الأرض مقابل الرواتب وقد توسع ذلك في العصر السلجوقي وصار قاعدة الإدارة . وهو الإقطاع العسكري . ومعظم مستحقي الرواتب كانوا يقيمون في المدن كما كانوا في جملتهم من العسكريين . وبلغ الإقطاع غايته في العهدين الأيوبي والمملوكي فصار نظاما عاما مشتم عليه الإدارة الأيوبية والمملوكية أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن مع ما يتصل به من المآسي وشراء المناصب وإهمال الأرض .

ومنذ العصر العباسي الثاني حتى نهاية العهد المملوكي ، بما في ذلك العهد الفاطمي في مصر أو الزيري في أفريقيا أو الأموي وملوك الطوائف في الأندلس كانت مصادرة تجار المدن أحد الموارد الرئيسية للدولة . وكثيرا ما

(١) الاصلطخري ص ١٤٦ وانظر البهقي : المحاسن والمساويء ص ٤٤٨ .

(٢) متر : الحضارة ج ١ ص ١٥٩ .



كانت الدولة تمد يدها إلى كبار الممولين من التجار وأحياناً بدون سبب سوى الطمع . وكانت نكبات التجار في المدن أمراً عادياً يسجله المؤرخون ، ولكن العامة كانوا يعتبرونه مجالاً للنهب والسلب فيأتون على ما تبقى من قصور التجار وبيوتهم من أبواب وشبابيك وفرش . . . . وخمور إن كان هؤلاء من أهل الذمة . ولذلك كان الكثيرون من أهل التقى يتورعون عن أن يلوا عملاً للسلطان .

ومن الهام أن نذكر أن صناعة الكتابة قد تعقدت مع الأيام وصارت لها تقاريرها وسجلاتها ومشكلاتها وقد ذكر الخوارزمي في مفاتيح العلوم أسماء السجلات والدفاتر التي كانت تستعملها الدواوين في القرن الرابع فمنها : قانون الخراج وتسمى في العراق والشام جريدة الخراج وهي الأصل الذي تبنى الجباية عليه . وسجل الأوراج وينقل فيه ما دفعه كل إنسان دفعة بعد أخرى . والرورنامج وهو الكتاب اليومي للواردات والنفقات والختمة وهو كتاب (تقرير) يرفعه الجهبد كل شهر بالاستخراج والنفقات والحاصل . والختمة الجامعة وتعمل بكل ذلك كل سنة . وكان ثمة التأريخ ويعمل لعدة أبواب من الميزانية تقوم الحاجة إلى معرفة جملتها والعريضة كالتأريخ ولكنها لما يحتاج معرفة الفضل بين أبواب الميزانية ومقدار نقص الجباية عما في الجرائد والبراءة وهو الوصل الذي يتسلمه دافع الضريبة بما يؤديه (وقد وجدت وصول كثيرة من ورق البردى في مصر من القرنين الأول والثاني) وأخيراً الموافقة والجماعة وهي التقرير العام النهائي<sup>(١)</sup> ومن جهة أخرى فقد صارت الكتابة في الدواوين ، مع الأيام ، صناعة يحتاج صاحبها إلى الكثير من الثقافة «الدواوينية» الجغرافية ، ومن الثقافة العامة من أدب وشعر وتاريخ ونظم . وهكذا بدأت تظهر منذ القرن السادس «التذاكر» كتذكرة ابن حمدون في

(١) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٥٤ - ٥٦ .

القرن السادس، ثم الموسوعات الديوانية أيام المهاليك وبخاصة في القرن الثامن لتعليم الكتاب صنعة الكتابة من كيفية بري القلم إلى معرفة البلدان والمسافات وإلى معرفة الإنشاء والألقاب والمراسم وظهرت مثلا موسوعة القلقشندي (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء) وموسوعة العمري : مسالك الأبصار، ونهاية الأرب للنويري وكلها في خدمة العمل الكتابي في المدن في مجلدات ضخمة تزيد أحيانا على الثلاثين مجلدا .

ونتساءل بعد هذا عن الوحدات الإدارية التي تشكلها المدن فهل كانت الولايات وحدات إدارية واحدة أم مجموعة وحدات؟ وما دور المدن فيها؟ يطرح هذا السؤال لأن الدول التي تكونت سواء يوم وحدة الدولة الإسلامية، أم يوم تقسمت إلى دول لم تكن إدارتها تمثي على شكل واحد . وليس لدينا أي نص يتحدث عن إعادة تقسيم الولايات في المملكة الإسلامية المترامية مما يدل على أن التقسيمات الإدارية الموروثة عن الدول السابقة ظلت قائمة في العهد الإسلامي . والإستنتاج المباشر من هذا إن المسلمين لم يضعوا النظم التي طبقوها ولكن وجدوا تقسيمات إدارية قائمة على أساس المدن فأخذوها . وقد ترك العرب المسلمون لكل منطقة ظروفها المالية الإدارية السابقة والتي أدخلت عليها مع الأيام تعديلات أهمها في إيران إذ أن الخراج اندمج بالجزية أحيانا كثيرة . فالوحدات الإدارية الساسانية بقيت حتى بدهاقينها وهرا بذاتها، وموبذاتها وفرضت على معظمها منذ أيام نصر بن سيار ضريبة مشتركة هي الضريبة التي اتفق عليها أو فرضت على الأرض عند فتح عاصمتها أو مدنها الكبرى .

وفي منطقة المتوسط من الشام إلى الأندلس بقيت التنظيمات الإدارية المالية السابقة على حالها وضرائبها لم يزد عليها سوى الجزية بصورة أساسية التي فرضت على الرؤوس . وكانت هذه التنظيمات قائمة بصورة أساسية على المدن في الشام وفي مصر والأندلس، وأن اضطرب الأمر في المغرب لغلبة

القبلية البربرية عليه . ففي الشام وزعت الولايات - كما كانت قبل الإسلام - إلى «أجناد» لأن العرب كالروم من قبلهم تعلقوا بالمدن واجتمعوا فيها بعد أن جعلوها مراكز عسكرية . وألحقوا بكل مدينة جانبا من الريف اعتبروه حوزا للمدينة أو قسما من الجند . وقد وجدوا مثل ذلك في مصر الكثيفة السكان بأبقوه . أما في الأندلس فكان شأن المدن أهم لأن مفهوم المدينة الروماني كان مفهوما سياسيا واجتماعيا خاصا أخذوه عن الإغريق ، وأضافوا إليه تعديلاتهم المناسبة مع طبيعتهم العسكرية فأصبح مفهوم المدينة حين وصلها الفتح الإسلامي مرادفا لنظام سياسي يتضمن حريات وواجبات تؤهل للحصول على حق المواطنة الرومانية . وهكذا كانوا يرفعون بعض المدن إلى هذه المرتبة بين آونة وأخرى . ولم تكن المدينة عندهم ما تحيط به أسوارها فقط ولكنها أيضا الزمام أو المنطقة التي تحيط بها ، والتي تكتسب معها الحقوق الممنوحة للمدينة الأساسية . وكانت الولايات تتكون من مجموعة من المدن مع زماماتها . وكان في الأندلس مدن توارثت حق انشاء مجلس بلدي له حق التصويت في المسائل الهامة . واستمر الأمر على ذلك في الأندلس زمن القوط . ولكن المدن عامة في أفريقية وإسبانيا والغرب الأوروبي كانت في حالة اضمحلال شديد وانحطت فيها التجارة والصناعة وعاد معظمها مجتمعات زراعية .

وحين جاء المسلمون الفاتحون وجدوا هناك ألوانا من بقايا المدن والمستوطنات والمنازل والحصون سموا معظمها مدناً دون تمييز أول الأمر (ثم ميزوا بعضها عن بعض بمرور الزمن) . وعقدوا مع هذه المدن محالفات محلية كتلك التي عقدت في المشرق مع أهل المدن فلم يتغير عليها شيء في الإدارة المالية سوى أن ما يسمى بحقوق المواطنة الرومانية قد ألغاه بشكل طبيعي دخول الإسلام مع الفاتحين وتحويل هذا الحق إلى تقسيم آخر هو الإسلام والذمة . وهكذا استقر معظم نواحي الدولة الإسلامية الواسعة على الحقوق

والإلتزامات الأساسية التي تم التعاقد عليها. وقد احترم العرب المسلمون هذه العهود حتى في أيام الفتن والثورات في المشرق أو الشام أو في مصر أو الأندلس وحرصوا على ألا يمسوا المدن وأهلها. ولم يميل المسلمون إلى تصغير الوحدات الإدارية التي ورثوها ولكن إلى اختصار الوظائف فيها. فالوالي على مجموعة من المدن في إيران أو الشام أو مصر كان يكتفي بالإشراف على زميله «العامل» المسؤول عن الأمور المالية وبمن يمثل هذا العامل في المدن المختلفة والقرى. بمعنى أنه لم يكن ثمة نظام هرمي يقسم الولاية أجزاء ولكل جزء ممثل للوالي... أما في الأندلس بسبب تعقد أرضها وبعدها فقد كانت السلطة المركزية (وهي بيد الأمير ثم الخليفة) تعين عمال الكور وهؤلاء يتبعهم عمال المدن المسؤولون على كل مدينة مع زمامها. وجرت العادة على أن يعين عامل المدينة عاملا خاصا في المدينة نفسها يسمى صاحب المدينة. ويبدو أن نظام الأجناد الذي نقل من الشام إلى الأندلس على يد أبي الخطاب بن الحسام سنة ١٢٥ / ٧٤٣ والذي كان يضم في الشام كورا كثيرة تقدم الجند للجيش صار في الأندلس يضم كورة واحدة ويفرض عليها عددا من الفرسان بدلا من المال والخراج. كما يبدو أن منصب صاحب المدينة قد ظهر شبيه له منذ القرن الثالث / ٩م في الشام، وبشكل شعبي - وأن يكن محترما من قبل السلطة - هو منصب رئيس المدينة الذي يعاون الولاية في الحكم. وكان في الغالب هو الذي يرأس منظمات «الأحداث» فيها سواء في القدس أم في دمشق أم حلب.

وقد توارثت المنصب أسر محددة في هذه المدن كما كان المنصب ينقسم في حلب مثلا إلى رئيس للمدينة سني وآخر شيعي.

ويأتي إلى الخاطر هاهنا اصطلاح «المنبر» الذي استخدمه الجغرافيون كثيرا وأهتم الاصطخري وابن خرداذبه والمقدسي ببيان وجوده أو عدم وجوده

في هذه المدينة أو تلك . ويبدو أن هاهنا مكانه فهو الوحدة الإدارية / المالية الصغرى التي تستقر فيها الجباة والتي يجرى اختيارها لتكون منبرا للصلاة ومركزا يجمع العمال الصغار فيه الضرائب المفروضة . ويتعاون فيه جند الوالي مع موظفي العامل في الجباية وتلقي الشكاوي وتنظيم الإدارة . غير أن وجود المنابر أو انعدامها يقتصر على المشرق والشام ومصر حتى طبرق ولا يظهر بعد ذلك لا في المغرب ولا في الأندلس لأن لها تقسيمات إدارية مختلفة رغم أن أساسها هو المدن . « فهناك أقسام إدارية تسمى مدنا أو تنسب إلى مدن لها أحواز فسيحة تحوي مدنا كبيرة أو صغيرة وقرى وحصونا وقصورا . وهذا شيء لا شبه له في المشرق العباسي . فإن المدينة هناك مدينة ولا زيادة، لها خطتها وإرباضها وهي بدورها تتبع الكورة التي تقع فيها وقد لا تتبعها الكورة . وهذا يعني أن نظام المدن كأقسام إدارية لم يعرف إلا في الأندلس ، وإذا نظرنا إلى هذا النوع من المدن وجدناه كله في الثغور الشمالية والغربية أي أنها كانت النواحي الثغرية والسياج الذي يحمي الأندلس الإسلامي ويبدأ من طرطوشة في المشرق ثم طركونة فلاردة - بريطانيا ، وشقة ، تطيلة ، سرقسطة ، مدينة سالم ، شتبريه ، طليطلة وقلعة رباح ، شترين ، اشبونة ، اكشونية»<sup>(١)</sup> .

وهناك ثلاث من المدن في الأندلس تستوقف النظر هي قرطبة وطليطلة وسرقسطة وكل منها مدينة تتبعها مدن أخرى . أي أنها ولايات واسعة تشبه ولايات المشرق .

وعلى أي حال فقد استمرت هذه التقسيمات الإدارية قائمة في المشرق والعراق والشام ومصر حتى القرن السادس الهجري / ١٢م . ولم يكن يهزها

(١) حسين مؤنس - فجر الأندلس ص ٥٦٧ .

في المشرق أو في الشام إلا تشكل الدول المنقطعة في المنطقتين لأن هذه الدول كانت تجمع المناطق إليها أو تخسرها تبعاً لتحركات القوى. وقد دخل العراق في هذه اللعبة قبيل العصر السلجوقي، ثم جاء العصر الصليبي فاقتطع أقساماً من ولايات الشام (بعد أن كان الفاطميون قد حولوها من أجناد إلى ولايات) فصار لهم بعض من ولاية إنطاكية الثغرية وحلب وحمص ودمشق وطبرية وعسقلان وهي مناطق المدن الساحلية وفلسطين. لكن ذلك كله لم يغير في الإدارة ولكن في رجالها الذين كانوا أيام السلاجقة من الجند وصاروا في السواحل الشامية من الأجانب الصليبيين. على أن العهد الأيوبي ثم العهد المملوكي هو الذي أتى بالإنقلاب الجذري في الإدارة في مصر خاصة.

فقد قسم المماليك مصر إلى أربعة وعشرين قيراطاً اختص السلطان منها بأربعة قراريط للكلف والرواتب واختص الأمراء الكبار بعشرة. والعشرة الباقية كانت من نصيب الأمراء الصغار وكانوا يعيدون التقسيم في مناسبات معروفة ويسمونه بالروك. وكانت الإدارة لديهم مركزية مقرها القاهرة وعمادها مجموعة من الدواوين وكبار الموظفين في المركز. وفي الأقاليم الأخرى التي تقوم فيها المدن ثمة إدارة محلية على رأسها مجموعة من النواب والولاة. والسلطان هو الذي يدير هذا الجهاز ويتلقى الأخبار ويرسل التعليمات إلى النواب وخاصة في الشام لأن سلاطين المماليك كانوا يحشون ثوراتهم الدائمة وأطعمهم في السلطنة. ونائب السلطنة في دمشق أو حلب أو صفد أو غيرها هو بمثابة وكيل السلطان في تصريف شؤون الدولة بل كان على حد قول القلقشندي «السلطان الثاني» يصدر القرارات ويمنح ألقاب الإمارة ويوزع الإقطاعات ويعين الموظفين ويتلقب بكافل الممالك الشريفة الإسلامية الأميري الأمرى. وكان للسلطان في مصر نائبان: نائب الغيبة ينوب عن السلطان عند غيبته خارج مصر، والنائب الكافل أو نائب الحضرة

وينوب عنه في مصر . أما نواب السلطان في الشام أي في دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك هم سلاطين في ممالكهم لا يرجعون إلى السلطان إلا في الهام من الأعمال كالدفاع ضد الأخطار أو الثورات . وثمة أتابك العسكر ومقره في مصر بجانب السلطان ، والوزير الذي يلي نائب السلطنة في المرتبة بمصر . وقد يعين السلطان وزيرين أحدهما للقلم (وزير الصحبة) والثاني من أمراء الجيش . ثم تأتي فئة الولاة (وهي أشبه بالمحافظين) في مدن مصر المختلفة . وأكبرهم شأنًا والي القاهرة الذي يحفظها من اللصوص والحريق والفساد ويغلق أبوابها في الليل ويأتي من بعده ولاة آخرون مثل والي الفسطاط ووالي الفيوم ووالي أسبوط . واختصت الاسكندرية وحدها بين مدن مصر بمنصب نائب السلطان . (وقد حولت إلى ولاية سنة ١٣٦٥) بسبب نشاطها التجاري . وكان الوجه البحري مقسمًا إلى عشرة أعمال والوجه القبلي إلى ثمانية ولكل عمل وال ثم جمعت ولايات الدلتا أيام المماليك الشراكسة إلى رجل واحد هو كاشف الوجه البحري ، وجمع الصعيد إلى وآل آخر يحمل اللقب نفسه أو (والي الولاة) وكان الموظفون قسمين : أرباب السيوف وأرباب الأقلام (أو المعتمدين) . ويعتمد هؤلاء وأولئك على دواوين عديدة منها ديوان الجيش وديوان الإنشاء وديوان الأجناس وديوان النظر وديوان الخصاص . وصار لديوان الإنشاء مكانته وتقاليده وأسماؤه رجاله وثقافتهم ، وثمة لذلك مراسمه وتقاليده .

#### ٤ - الضرائب

هذا التوسع كان السبب فيه أن عمل الكتاب الأساسي يتصل بجباية المال في الدولة هو عصب أعمالها ، إدارة وقضاء وجيشا ، ووجوه أثراء ونفقات بناء وخير . ومن المشهور أن مالية الدولة في الإسلام تقوم على الخراج والجزية والركاز والعشر والزكاة . ويبدو ذلك واضحا بسيطا في كتب الفقه ولكن

الواقع التاريخي مختلف عن ذلك. لأن النظم المالية الإسلامية متشعبة ومعقدة لا بسبب تباينها حسب الولايات فقط فحسب ولكن بسبب اختلافها عددا وتنوعا من مدينة إلى أخرى ومن قطر إلى آخر وأهم ما يميزها :

- ١ - إنها ليست ثابتة فهي تفرض حسب ظروف الحكام وتلغى كذلك ويزاد فيها وينقص كما يرون ويحتاجون .
- ٢ - إنها جميعا غير شرعية . ولكن خزانة السلطان هي التي تحتاجها وتفرضها وتجيئها .
- ٣ - إنها كانت ثقيلة في مجموعها وتستهلك معظم واردات المنتجين .
- ٤ - إن بعضها كان شهريا (كالهلائي) ، وبعضها كان يتكرر ولو يوميا لأنه يتناول البضاعة التي تمر إلى المدينة أو تخرج منها .
- ٥ - إنها كثيرة في العدد تصل إلى أكثر من خمسة وأربعين ضريبة متباينة ، عدا الضرائب المعروفة وعدا الكلف والمغارم والسخر .

وتختلف صعوبة العمل في الشؤون المالية من مدينة إلى أخرى «وليس في سائر دواوين الإسلام ديوان هو أصعب عملا وأكثر أنواعا من ديوان فارس لإختلاف ربوعها وتقارب الأخرجة على أصناف زروعها واختلاف أبواب أموالها وتشعب الأعمال على المتقلدين لها حتى لا يكاد يبلغ الرجل الواحد الاستقلال بتلك الأعمال كلها . . .»<sup>(١)</sup> . ولا يعني هذا أن الدواوين الأخرى غير ثقيلة الضرائب أو غير معقدة ولكنها قد تكون أقل تشعبا فقط .

وكانت العراق ثقيلة الضرائب بدورها معقدة الأعمال وبخاصة بعد تقلد البويهيين الحكم فقد فرض صمصام الدولة بن عضد الدولة ببغداد سنة ٣٧٥ / ٩٨٥ ضريبة العشر على ثياب الأبريسم والقطن . وإذا فشل في ذلك

(١) الاصحري ص ١٤٦ .



فقد أعيد فرضها بعد ذلك سنة ٣٨٩ / ٩٩٨ . وفرضت ضريبة على الملح وعلى أمور أخرى حتى قال الشاعر :

أفي كل أسواق العراق أتاوة وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم؟

ويشكو ابن حوقل مر الشكوى من ضرائب بني حمدان وظلمهم للسكان واكتساح للشجر حول حلب وفي العراق مستبدلين به الحبوب والقطن والرز والسمسم . ويذكر كيف جلا بنو حبيب إلى بيزنطة وكانوا خمسين ألف فارس مفضلين النصرانية على مقاسمتهم لنصف إنتاج أراضيهم . . . .<sup>(١)</sup>

ويسجل المقدسي أن ضرائب الشام «هينة» إلا في القدس إذ «على الرحبة والفنادق ضرائب ثقال على ما يباع فيها رجاله على الأبواب فلا يمكن أحدا أن يبيع شيئا مما يرتفق به الناس إلا بها . . . .»<sup>(٢)</sup>

وقد كانت مصر بدورها أرض المكوس . ويدل بيان وجوه المال أيام الفاطميين على أن كل شيء كانت تفرض عليه المكوس فيها ولم يسلم من ذلك إلا الهواء . . . .»<sup>(٣)</sup>

«ويقول المقدسي : «وأما الضرائب فتقيلة بخاصة في تنيس ودمياط على ساحل النيل» وثمة رقابة شديدة في تسجيلها وتحصيلها وهو يقول :

وأما ثياب الشطوية (نسبة إلى الشط) فلا يمكن لقبطى أن ينسح شيئا منها إلا بعد ما يختم عليه بختم السلطان ولا أن تباع إلا على يد سمسرة قد عقدت عليهم . وصاحب السلطان يثبت ما يباع في جريدته ثم تحمل إلى من

(١) انظر في ذلك ابن حوقل ص ١٤٣ وما بعدها .

(٢) المقدسي ص ١٨٩ و١٦٧ .

(٣) المقرئزي / خطط ج ١ ص ١٠٣ وما بعدها .

يطويها ثم إلى من يشدها بالقش ثم إلى من يشدها في السفظ وإلى من يجزمها . وكل واحد منهم له رسم يأخذه . ثم على باب الفرضة يؤخذ أيضا شيء . وكل واحد يكتب على السفظ علامته ثم تفتش المراكب عند إقلاعها ويؤخذ بتنسيس على زق الزيت دينار، ومثل هذا وأشباهه ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال . . رأيت بساحل تنيس ضرائبها جالسا . قيل قبالة (ضمان) هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ومثله عدة على ساحل البحر والصعيد وساحل الاسكندرية . وبالاسكندرية أيضا على مراكب الغرب وبالفرما على مراكب الشام ويأخذ بالقلزم من كل حمل درهم . . .<sup>(١)</sup> . وقد فشلت جهود أمثال الوزير التقي علي بن عيسى، والحاكم بأمر الله، ونور الدين محمود بن زنكي وغيرهم من الأتقياء بإلغاء الرسوم والمغارم والمكوس التي لا يقرها الشرع لأنها عادت ففرضت وفرض الكثير غيرها . وليس يهمننا بحث الوضع المالي هنا بقدر ما يهمننا ذكر بعض الضرائب التي كان يدفعها الأهلون في المدن المختلفة وهي تحتاج في الواقع إلى معجم خاص يوضح معانيها ويبين خاصة مقدار نسبتها من ثمن الإنتاج وتطور معانيها حسب العصور .

وإذا بدأت الضرائب الإسلامية بسيطة موحدة ولا تجاوز شرعا بشكل أساسي عشر الأرض والزكاة وجزية أهل الذمة فإنه لم يكن يعجز الحكام ابتكار ضرائب جديدة، مع مرور الزمن، وتنوع المناطق، وطرحها بأسماء مختلفة، وكانت كلها تقريباً تجبى في المدن وعلى ما يدخل إليها أو يخرج منها من البضاعات والأغذية والصناعات . واستعراض أسماء بعضها يكفي لمعرفة حجمها وثقلها على الناس علما بأن الكثير منها كان إحياء الضرائب بيزنطية وساسانية سابقة . ومنها :

(١) المقدسي ص ٢١٣ .

أ - المكوس وهي في معناها الضيق، الضريبة على بضائع التجاره تدفع عند دخولها مناطق نفوذ الأمراء وفي الموانئ. وتتكرر دوما وقد يبائع في تقصيتها بالوسائل الشنيعة والتفتيش الدقيق (وكان من ثقل المكوس بمصر إن كان يؤخذ من كل مائة دينار خمسة وأربعين دينارا، وكان ما يستخرج من ديوان صناعة مصر بالسنة مائة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال البحرية والقبلية مثلها) لكن المقصود هنا هو المعنى العام للمكوس الذي أخذته في القرن الرابع وفي العهد الفاطمي : ويشمل مع البضائع التجارية : المراعي والمياه والمصائد وبضائع المرور والذبائح والرقيق وصناعة الفخار والنبذ والفقاع (نوع من المشروب السيء) كما يشمل البغاء والسجن والحجاج ونقل الخضار والحبوب وإقطاع الشحنة (مدير أمن البلد).

وكان الناس يسمون هذه الأمور علنا بالمغارم والمظالم وبعضها يؤخذ مرة كل شهر وهو الهلالي، لكن بعضها عند كل دخول من أبواب المدينة أو خروج منها ولو تكرر ذلك مرات في اليوم أي على كل تحرك تجاري.

ب - ما يأتي الناس عفوا دون كد أو تستطيع الدولة أخذه ومن ذلك : المرافق أو الركاز (وهو خمس المعادن)، والمطالب (وهي ما يوجد من الدفائن في الأرض. وقد اشتهرت زمن ابن طولون في قبور الفراعنة واشترك مع الناس في تخميسها)، والأموال المدفونة التي يعثر عليها، وسيب البحر (وعليه الخمس سواء كان لؤلؤا أو عنبرا) تضاف إليها :

- اثمان الأبق من العيد.

- ما يؤخذ من اللصوص من الأموال والامتعة إذا لم يظهر صاحبها.

غير أن أهم ما في هذا الباب هو دون شك :

أ - التركات : وكانت أموال الأغنياء المتوفين مطمعا الكثير من الحكام سواد من العباسيين أو الفاطميين أو ملوك الأندلس ولعلها أخذت

أقصى أشكالها في العهد البويهي - العباسي . فقد أصدر أبو الحسين علي بن عبد الملك الرقي قاضي سيف الدولة نوعا من القانون في هذا : كل من هلك فلسيف الدولة مما ملك . وكان ديوان المواريث الذي أنشئ في بغداد زمن المعتمد ( ٢٥٦ - ٢٧٩ ) يرث من لا وريث له . ولكنهم تمادوا في ذلك حتى قال ابن المعتز في أواخر القرن :

وويل من مات أبوه موسرا      أليس هذا محكما مشهرا؟  
يطول في دار البلاء سجنه      وقيل : من يدري بأنك ابنه؟  
وأسرفوا في لومه وصفعه      وانطلقت أكفهم في صفعه  
ولم يزل في أضيق الحبوس      حتى رمى إليهم بالكيس<sup>(١)</sup>

وكان كثير من الحكام يحاولون اعتبار التركة دون وارث ليستولوا عليها كما فعل ابن رائق أيام الراضي بل كانوا أحيانا يحاولون غصب المال وصاحبه ما يزال على سرير الموت . وقد فعل ذلك الاخشيد فقد توفي التاجر عفان بن سليمان البزاز من التجار المياسير سنة ٣٢٣ / ٩٣٤ فأخذ من ماله مائة الف دينار<sup>(٢)</sup> . وقد استولى معز الدولة البويهي على تركة وزيره أبي محمد المهلب سنة ٣٥٢ / ٩٦٣ وصادر حتى ملاحيه والمكاريين الذين كانوا يخدمونه بعد ان خدمه في الوزارة ثلاث عشرة سنة<sup>(٣)</sup> . ولما مات الصاحب بن عباد وزير فخر الدولة والمهيمن الفرد على دولته أحاط بداره وخزائنه ونقلها جميعا الى داره كما طالب المستدينون منه بما عليهم له وكان ١٥٠ الف دينار<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٣١ .

(٢) ابن سعيد - المغرب ص ١٦ - ١٧ .

(٣) مسكويه - تجارب الامم ج ٦ ص ٢٥٨ .

(٤) باقوت معجم الادباء ج ١ ص ٧٠ .

ب - المصادرات : وقد أضحت نوعاً من العرف السائد لا يكاد  
التجار خاصة أو كبار الدولة يخشون خشيتهم من الوقوع في المصادرة التي  
أضحت لكثرتها مورداً أساسياً للدولة .

وقد أنتشر ذلك في الفاطميين وفي الأندلس وبلغ أشده في العصر  
المملوكي . ولم تكن المصادرة تتم عفواً ولكنها كانت تعتبر نوعاً من العقوبة  
وكثيراً ما كانت تفتعل لها الأسباب . وأبرز من أشتهر بالمصادرات سيف  
الدولة والاختشيد الذي كان يصادر بدم بارد لا يفلت من مصادرته<sup>(١)</sup> قائد  
من قواده أو عماله . وابن المعتز في أرجوزته السابقة يصف ذلك :

وتاجر ذي جواهر ومال كان من الله بخير حال  
فدخنوه بدخان التبين وأوثقوه بثقال اللبن  
حتى إذا مل الحياة وضجر وقال ليت المال جمعاً في سفر  
أعظاهم ما طلبوا فاطلقا يستعمل المشي ويمشي العنقا

ج - بعض الضرائب الأخرى مثل هدايا النوروز وهدايا المهرجان  
من دهاقين العراق وفارس والتي أعادها الخلفاء الأمويون فصارت مورداً من  
موارد الدولة في الولايات الشرقية وتبلغ في النوروز عشرة ملايين درهم وفي  
المهرجان مائة مليون<sup>(٢)</sup> ومثل ضرائب الشجر ( عن كل جريب من الكرم  
١٤٢٥ درهماً وعلى كل نخلة ربع درهم ) ومقرر الطواحين ( التي كانت  
احتكاراً للسلطان ) وأجرة الدور التي يعمل فيها ماء الورد . . . وغيرها .

وأذا مضينا إلى القرن السادس زمن نور الدين بن زنكي وجدناه يبطل

(١) ابن سعيد - المغرب ص ١٦ - ١٧

(٢) ابن الزبير الذخائر والتحف ( ط . الكويت ١٩٥٩ ) ص ٥ ( ونسبة الكتاب إلى ابن الزبير خطأ )  
كما أن في جزء مبالغه .

سنة وفاته من الضرائب ما يبلغه ٥٨٦ الف دينار<sup>(١)</sup>. ويسمون هذا الذي أبطله وكتب على باب دمشق نقش به بالمظالم والمكوس والرسوم والمؤن والفيئة ( ما يؤخذ في الكور من الباعة ) . والاقساط ويذكرون أنه أطلق المكوس والضمانات عن العرصة (ميدان البيع ) ودار البطيخ وسوق الغنم وسوق الخيل . . .<sup>(٢)</sup> .

وكريم الدولة بن شرارة مستوفي حلب يذكر ارتفاع ( مجموع ضرائب ) حلب أيام الظاهر ابن صلاح الدين فيقول : انه عمله دون البلاد الخارجة عنها والضياح والاعمال ( يقصد المدينة فقط ) فكان مبلغه ستة الف وتسعمائة وأربعة وثمانين الفا وخمسمائة درهم . وكان مبلغها أيام صلاح الدين موزعا كما يلي :

دار الزكاة	مليون ومائتي الف وستمائة درهم
العشر	ستمائة الف درهم
الوكالة	مائتا الف درهم
سوق الخيل والجمال والبقر	ثلاثمائة وثمانون الف درهم
داركورة الجوانية	ثلاثمائة وخمسون الف درهم .
سوق البطيخ	مائة الف درهم
داركورة البرانية ( العنب )	ثمانون الف درهم
الخضر	خمسون الف درهم
المدبغة	مائة وخمسون الف درهم
الرفيق	مائة الف درهم
صبغ الحرير	ثمانون الف درهم
سوق الغنم	أربعمائة وخمسون الف درهم

(١) ابن واصل، مفرج الكروب ج ١ ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، وابن الفلانسني ص ٢٣٥ - ٣٠٧

(٢) ابن ابن الهيجاء تاريخ (مخطوط) ورقه ١٥١ وجه

سوق التركمان للغنم	ثلاثمائة الف درهم
محرصة الخشب	خمسون الف درهم
ضمان الاوتار	أربعون الف درهم
ضمان المسابك	خمسة آلاف درهم
ضمان البيلونة والصابون	عشرون الف درهم
ضمان سمرة الخضرة	عشرون الف درهم
الملح المجلوب . . .	وذكر أربعاً وأربعين ضريبة <sup>(١)</sup>

ونجد لدى ابي شامة والقلقشندى ذكر ضريبة باسم عداد العرب<sup>(٢)</sup> كما نجد لدى غيرهما ضريبة باسم : ضمان الخمر والقيان بدمشق أو اللاذقية أو في مصر<sup>(٣)</sup>. والحوالات ( وهي الضرائب الموقته بالاحالة على الناس )<sup>(٤)</sup>. كما نجد الذكر الدائم للكلف والمغارم والسخر<sup>(٥)</sup>. ونسمع عن ضريبة الجوالي ( جزية أهل الذمة )<sup>(٦)</sup>. كما نسمع لدى ابن القلانسي عن ضمان الانهار بدمشق وضمان الهريسة ورسوم الجبن ورسوم اللبن وعرصه البقل ودار البطيخ أيضا ومعها أعنات شر الضمان، وحوالة الاجناد ( وكان يتعيش بها بعض سفهاء القوم بدمشق ) وقد ضمننت سنة ٥٥٣ بعشرة الاف دينار بيضاء<sup>(٧)</sup>. ونسمع عن ضمان النهر والكيالة والقيان والخمر<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ج ١ ص ١٥١ - ١٥٣

(٢) ابو شامة : الروضتين ج ١ ص ٣٨ والقلقشندى ج ١٤ ص ٣١

(٣) أنظر الوهراني / منامات الوهراني ص ٤٥

(٤) ابن القلانسي - تاريخ دمشق ص ٣٥٢ - ٣٥٣

(٥) ابن العديم : بغية الطلب (مخطوط أستانبول) ج ٢ ص ٢٨٤

(٦) ابن تغري بردى / النجوم ج ٥ ص ٢٥٩

(٧) ابن القلانسي ص ٣٥٣ و ص ٣٢٩

(٨) الهروي / كتاب الزيارات ص ٤٠

ونجد قائمة اخرى في المنشور السلطاني الذي منح حكم دمشق  
لطفتكين سنة ٥٠٩ وفيه ذكر :

الايخرجة والاعشار وسائر وجوه الجبايات والعروض . . . ويذكر ابن  
القلاسي ايضا المؤن والاقساط ودار الضرب وما يجدهه المحتسب من الرسوم  
وما يجدهه اتابك من الرسوم<sup>(١)</sup> . ويذكر كذلك مؤونة الغريب والبلدي وهو  
ما يحصل ويدخل من البساتين والكروم حول المدينة من جميع الفواكه  
والخضر والبقول . وكان على ذلك جمعية مؤونة وكذلك الفحم والحطب<sup>(٢)</sup> .

ويذكر ابن جبير بدوره قائمته فيتحدث عن ضرائب الاسكندرية :

ضرائب المرور	وهي دينار وقيراط على كل رأس
ضرائب التجارة	وهي قيراط على كل دينار
ضريبة الاقامة	وهي دينار وخمسة قراريط
ضريبة الارض	وهي المناصفة بالغلة
ضريبة الثمر	وهي ضريبة خفيفة .

ويذكر أن عماني، وهو موظف قديم لصالح الدين في الجباية وسليل  
موظفين قدماء في العمل نفسه قائمة في كتابة : قوانين الدواوين . نجد فيها  
ضرائب : الزكاة والجوالي والمواريث والثغور والمتجر والاعنم والفروس  
والابقار والبساتين والاحكار والرباع وما يستأدى من الذمة في ديوان الابواب  
والخراج والطراز ودار الضرب ودار العيار والعشر والخمس ( ما يؤخذ على  
بضاعة الروم والفرنج ) . . . و . . . وذكر أربعين ضريبة<sup>(٣)</sup> . كما ذكر  
المقريزي ضرائب اخرى مثل جباية التسقيع والتقويم ومكس القصب

(١) ابن القلاسي ص ١٧٥ (حاشية)

(٢) ابن القلاسي ص ٢٢٤ - ٢٢٥

(٣) ابن عماني / قوانين الدواوين ص ٣٠٧ - ٣٠٨



والرمان . . . (١) . ويقول في مكان آخر ان السلطان الناصر محمد أبطل عدة مكوس منها مكس الغلة وكان جل متحصل الديوان وعليه أقطاعات الامراء والاجناد ويتحصل منه في السنة أربعة آلاف الف ( أربعة ملايين ) وستمائة الف درهم . وكانت جهة عظيمة لها متحصل كبير جدا وينال القبط منها ( وهم الجبابة ) منافع لا تحصى ويحل بالناس من ذلك بلاء شديد وتعب عظيم من المغارم والظلم فان مظالمها كانت تتعدد ما بين نواتية تسرق وكيالين يبخسون وشادين وكتاب يريد كل منهم شيئا . وكان لهذه الجهة مكان يعرف بخص الكيالة في ساحل بولاق يجلس فيه شاد وستون معمما ما بين كتاب ومستوفين وناظر وثلاثون جنديا . . . . ولا يمكن احدا من الناس ان يبيع قدحا من غلة في سائر النواحي . . . . . (٢) .

وذكر المقرئ بعد ذلك الرسوم الاخرى التي أبطلت : نصف السمرة وما كان يجبيه الامراء والمقدمون من عرفاء الاسواق وبيوت الفواحش . ومقرر الحوائص والبغال من المدينة وسائر اعمال مصر كلها ( وكانت ٣٠٠ درهم في السنة عن ثمن الحياصة و ٥٠٠ عن ثمن البغل ) وكان يصيب الناس من هذه الجهة مالا يوصف وما يهون معه الموت . كما الغى الناصر مقرر السجون ( وكان من دخل باب السجن للحظة واحدة يدفع ستة دراهم ) كما الغى طرح الفراريج ومقرر الفرسان ومقرر الاقصاب والمعاصر ، ومقرر رسوم الافراح ، ومقرر حماية المراكب ( على كل من ركب البحر ) وحقوق القينات ، وشد الزعماء ، وحقوق السودان ، وكشف المراكب ومقرر ما على كل جارية وعبد ينزلون لعمل الفاحشة في احد الخانات ومقرر الجراريف ومقرر المشاعلية ( عن كسح الاقنية ) . وأبطل كذلك المباشرين في

(١) المقرئ ، خطط ج ٢ ص ١٨٨

(٢) المقرئ / خطط ج ٨٨ و ج ١ ص ٨٩

النواحي . . . . فهذه قائمة اخرى بانواع من الرسوم والضرائب المتكررة  
لمصلحة الدولة والحكام وزبانيتهم من الجباة .

ومع أن بعض هذه الضرائب كان يرفع عن الناس في بعض الأحيان أو  
ينقص فيدعو الناس للحاكم إلا أنها لم تكن ثابتة المقدار لا عبر السنين ولا عبر  
المناطق .

وقد استحدثت الممالك من بعدها ضرائب أخرى أضيفت إليها ومن  
أمثلتها :

مكس ساحل الغلة : وهي الضريبة المفروضة على الغلات والاتجار بها .

رسوم الولاية : وهي ما يجمعه الولاية من عرفاء الأسواق .

مقرر الخوائص والبغال : على وسائل الركوب .

مقرر السجون : وهو مبلغ يؤخذ على من يسجن ولو لفترة قصيرة .

مقرر طرح القراريج : فلا يمكن لأحد من الناس في جميع الأقاليم أن يبيع

أو يشتري فروجا إلا من الضامن<sup>(١)</sup> .

مقرر الاقصاب والمعاصر : وهو ما يجبي من مزارعي قصب السكر ومن رجال

المعاصر في المدينة .

مقرر المراكب : ما يؤخذ من كل مركب على النيل .

زكاة الدولة : ما يؤخذ من زكاة الرجل ولو كان معدما ، فاذا

مات أخذ ذلك من ورثته .

مقرر البشارة : بفتح الحصون وهي تجمع من الناس على قدر

طبقاتهم ابتهاجا بالنصر « ويجمع من ذلك مال

كثير »<sup>(٢)</sup> .

(١) المقرئبي ، خطط . ج ١ ص ٨٨ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٠٦ .

مقرر وفاء النيل : اذ يجمع من الناس في هذه المناسبة أموال تعمل بها  
الموائد لرجال الدولة عند المقياس هذا عدا المكوس  
المفروضة على الخمر وعلى البغاء ، وعدا  
السخر ، وعدا ما يدفع « ضيعة » على الضرائب  
وهو جزء من اثني عشر منها وعشر للصرف وجزء  
من مائة للبراءة ( الوصل )<sup>(١)</sup> .

نقصد من كل هذا الى القول بأن أفراد الرعية كانوا في المدن مرهقين بما  
يخطر وما لا يخطر بالبال من ألوان الضرائب التي يقع ثقلها على الطبقة الوسطى  
فما دونها ، وتجعل أثمان السلع ترتفع إلى أضعافها .

## ٥ - القضاء

لا أمن لمدينة دون عدالة أي دون قضاء . وعلى الرغم من أن الرسول  
الأعظم ( ﷺ ) كان القاضي الأول في الاسلام بحكم الأمر الإلهي في قوله  
تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا  
في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . فان خطة القضاء انفصلت  
عن خلفائه فور لحاقه بالرفيق الأعلى . فكان عمر بن الخطاب يحملها عن أبي  
بكر ، ثم احتاج أن يوكل في الأمصار من يحمل القضاء عنه فجعل قضاء المدينة  
لأبي الدرداء ، وقضاء الكوفة لشريح الكندي ، ومصر لعثمان ( أوقيس ) بن  
أبي العاص سنة ٢٣ هـ ، والبصرة لأبي موسى الأشعري<sup>(٢)</sup> . ولا يهمنها هنا ما  
يجوم من الشك حول رسالة عمر الى الأشعري بشأن القضاء والقاضي ، ولكن  
يهمننا أن نذكر أن القضاء منذ ذلك الوقت المبكر انفصل كوظيفة عن رئاسة

(١) متر : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٣٤ .

(٢) الطبري ، ج ٤ ص ٢٦٣ .

الدولة وأن ظل تعيينه متصلا بها . وهذا يعني أن السلطة التنفيذية انقسمت قسمين : قسم للإدارة والدولة تولاه رئيس الدولة ، وقسم يفض الخصومات تولاه القاضي في المدن الأربعة الأساسية . وكانت الصلة بين الطرفين تنتهي بعد التعيين أو بالعزل ، ولم يكن للخليفة التدخل في شؤون القاضي لأنه ينفذ الشرع . وظل القضاء بعد ذلك في الأمور الخاصة بمنصب الخلافة كما ظل يعين أصحابه في المدن الكبرى . وقد عين معاوية لقضاء مصر مسلم بن عترة فشغل المنصب ثلاثين سنة ( ٣٠ - ٦٠ هـ ) . تعاقب خلالها أربعة ولاة هم عمرو بن العاص ، وعتبة بن أبي سفيان ، وعقبة بن عامر الجهني ، ومسلمة بن مجدل . ولم يتغير القاضي لأنه لا علاقة في اعتبار الخليفة بين منصب الولاية ومنصب القضاء وهو الذي نظم سجلات للقضاء في مصر . وشغل المنصب بعده عبدالرحمن بن حجيرة أربعة عشر عاما حتى توفي سنة ٨٣ هـ والقاضي عياض بن عبيدالله الأسدي في عهدي سليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز .

ولم يتوسع الأمويون في تعيين القضاة - على ما يظهر - فلم يعينوهم إلا في الأمصار الأساسية في دمشق والبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ثم في قرطبة حين فتحت وغيرها وكان منهم : يحيى بن معمر في خراسان ، والحسن بن واقد في مرو ، ومحمد بن البشر ومن بعده ثلاثون قاضيا حتى مطلع القرن الرابع ، وواحد وثلاثون في الأهواز منهم وكيع صاحب أخبار القضاة . وأولهم في العهد الأموي أشعث بن سوار وعمرو بن الوليد ، وعمران بن سليم والنضير بن شفي في الشام ، وأبو الدرداء ، وفضالة بن عبيد الأنصاري ، والنعمان بن بشير الأنصاري ، وبلال بن أبي الدرداء ، وأبو أدريس الخولاني في دمشق . وكان عدد قضاتها ، وهي عاصمة الخلافة ، ستة عشر قاضيا<sup>(١)</sup> . وثمة أيضا أياس بن معاوية ( الذي يضرب المثل بذكائه ) ، والحسن البصري

(١) وكيع : أخبار القضاة ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٧ .

في البصرة . وشريح بن الحارث الكندي ، وابن أبي ليلى ، وعامر بن شراحيل الشعبي ، في الكوفة . وعبدالله بن موهب ، وجواس بن صلاح في فلسطين . وابن أنعم الافريقي في أفريقيا ، والوليد بن سلمة قاضي الأردن . وابن أبي عمرة في حران . وعمرو بن شرحبيل ، ومحمد بن خازم المعافري في الأندلس . وعبدالرحمن الخولاني في الموصل . وأبو حياة قاضي النواحي الجزرية ، وعمرو بن صدقة قاضي أنطاكية . وأما قضاة مصر فلدينا ثبت باسمائهم كاملة لدى وكيع نفسه ، وثبت آخر قدمه الكندي صاحب الكتاب والقضاة . ويذكر ثلاثة وعشرين قاضيا سبقوا ابن هبة الى هذا المنصب في العهد الأموي ، كما يذكر الذين توالوا عليه حتى القرن الرابع<sup>(١)</sup> .

ويذكرون أن المنصور كان أول خليفة ولي قضاة على الأمصار من قبله<sup>(٢)</sup> حين عين ابن هبة لقضاء مصر وهو خطأ بين . ولعلمهم يقصدون أنه أول من نظم الجهاز القضائي وعين القضاة لجميع الأمصار في الولايات ضمن أعماله في تنظيم الدولة . فالمنصب كان موجودا وله سلسلة رجاله<sup>(٣)</sup> منذ العهد الراشد فكان منهم سبعة وعشرون قاضيا في البصرة ، وحوالي العشرين في الكوفة ، كما كان منهم ثلاثة وعشرون قاضيا معروف في الأسماء في المدينة . وكان لقاضي بغداد الأفضلية على قضاة المدن الأخرى بوصفه قاضي مقر الخلافة وصار المسؤول عنهم حتى جاء الرشيد فسمى قاضيه أبا يوسف بقاضي القضاة . على أن بغداد احتاجت الى أكثر من قاض فكان لها قاض في الجانب الشرقي وآخر في الجانب الغربي . وكانت الأفضلية لصاحب هذا الجانب الذي استمر يخرج منه قاضي القضاة . وقد جاء بعد أبي يوسف في هذا المنصب

(١) المصدر نفسه ص ٢٩٤ - ٣٢٤ .

(٢) يعقوبي ج ٢ ص ٤٦٨ .

(٣) راجع في ذلك كتاب أخيا القضاة لو كيع ففيه قضاة المدينة في العهد الأموي وقضاة مكة والطائف والبصرة والكوفة .

علي بن ظبيان ، وعلي بن حرملة ، ويحيى بن أكثم ، وأحمد بن أبي دؤاد ( صاحب قضية خلق القرآن ) ، وأبو الوليد ابنه ، وتوالى من بعدهم حتى مطلع القرن الرابع ثلاثة عشر من قضاة القضاة ، وكما كان قاضي بغداد مميزاً وله الاشراف على الجهاز القضائي ويطلب اليه أن يقترح أسماء يرشحهم لتولي القضاء في المدن المختلفة ، كذلك كان الأمر في القاهرة أيام الفاطميين الذين أوجدوا بدورهم منصب قاضي القضاة وهو بالطبع على مذهبهم الفاطمي ، وقد يكون داعياً للدعاة ضمن تنظيمات المذهب . ولم يكن الأمر مع قاضي قرطبة لا في اللقب كذلك ولا في التعيين فلم يأخذ لقب قاضي القضاة . وكان يلقب في بدء ظهور المنصب بعد الفتح « بقاضي الجند » وذلك لطبيعة عمله بين المسلمين الذين كانوا في جملتهم جنوداً . وكان والي الأندلس عقبه بن الحجاج السلوي ( ١١٦ - ١٢١ / ٧٣٢ - ٧٣٧ ) هو الذي استقضى مهدي بن مسلم على الجند وطلب اليه أن يكتب عهده بنفسه<sup>(١)</sup> . فلما دخل عبدالرحمن الداخل الأندلس سنة ١٣٨ / ٧٥٥ والقاضي فيها يومئذ يحيى بن يزيد التجيبي أثبتته ثم تلقب بقاضي الجماعة<sup>(٢)</sup> . واستمر هذا اللقب لقضاة قرطبة من بعده وكانت لهم أفضليتهم بدورهم على قضاة المدن الأخرى مثل جيان وماردة وأشبيلية وشذونة ، وقد يرسلون للتحقيق حول قاضيها<sup>(٣)</sup> . وكان نقل القاضي منها الى قرطبة يعتبر تكريماً له . وكثير من قضاة قرطبة كانوا من أبناء هذه المدن . كما أن كثيراً منهم كانوا من عرب الشام ومصر . ولم يكن لقاضي قرطبة سلطة تعيين قضاة المدن الأخرى المستقلين عنه والمتصلين بالأمير لأن هذه الخطة كانت له ، ولكن قضاة قرطبة كانوا يستشارون في ذلك . أما منصبهم نفسه فكان امراء الأمويين في الأندلس يترددون كثيراً في العهدة به لأحد وقد

(١) الخشي : قضاة قرطبة ص ٩ - ١١ ط . الدار المصرية ١٩٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤ .

يبقى المنصب شاغرا عدة أشهر حتى يستقر الرأي على قاض له من الكفاية والخلق والعلم ما يؤهله ، ويستشير في ذلك الفقهاء ويعقد المجالس أو قد يستشير ابنه<sup>(١)</sup> ووزراءه . ورووا في حالة واحدة أن الأمير قرر دورة قضائية بين قاضيين لكل منها سنة .

وكان بعض الفقهاء والعلماء حتى أواخر القرن الثالث بصورة عامة ( وبعضهم استمر بعد ذلك طويلا ) يرفضون المنصب سواء في المشرق أم في المغرب ويهربون منه تخرجاً وتقى . ولم يكن الامام أبو حنيفة في ذلك بالأول ولا الأخير لأنهم كانوا يعتبرون « الحكم » بين الناس أثقالا لدمهم أمام الله . ويذكرون في هذا المجال قصصا كثيرة منه : أن أبا حنيفة فضل أن يعد اللبن في بناء بغداد على القضاء ومنها : أن أبا جحيرة لما بلغه تولي ابنه عبدالرحمن قضاء مصر سنة ٦٨٩/٧٠ قال انا لله وإنا اليه راجعون . هلك ابني واهلك<sup>(٢)</sup> . ومنها أن أبا قلابة دعى للقضاء في العراق فهرب الى الشام أواخر القرن الأول فوافق ذلك عزل قاضيها فهرب واختبأ في اليمامة<sup>(٣)</sup> . ويذكرون أن القاضي شريكاً بن عبدالله في عهد المهدي ولي القضاء بعد إباء وتردد ، وذهب الى الصيرفي ليأخذ رزقه فضايقه قائلاً انك لم تبع به بزاً فأجاب بل والله بعث أكثر من البز . بعث ديني<sup>(٤)</sup>

وفي العهد نفسه ألزم قاضي المدينة أن يقبل القضاء تحت تهديد السياط<sup>(٥)</sup> ، وادعى بعضهم الجنون لثلا يجبر عليه . بل اعتبر الكثيرون أن قبول قاضي الرشيد أبي يوسف للقضاء هي إحدى خصال ثلاث تنزل من

(١) المصدر نفسه ص ٣٨ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٨٣ ، ٨٩ .

(٢) الكندي ص ٣١٥ .

(٣) السمرقندي - بستان العارفين ص ٣٩ .

(٤) ابن خلكان - وفيات الأعيان ج ٤ ص ٤٦٤ - ٤٦٨ (الترجمة ٢٩٠) (طبعة عباس) .

(٥) البغدادي - تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

قدره . وكان الأحناف مثله يتساهلون في قبول المنصب . ورفض ابن سريج المنصب من الوزير علي بن عيسى سنة ٣٠٦ / ٩١٨ فسمر عليه بابه كما سمر أيضا باب ابن خيران الذي رفض القضاء أيضا . فكان الناس يأتون بأولادهم الصغار ليشاهدوا باب ابن خيران مسمرًا ويقولون : انظروا حتى تحدثوا بهذا<sup>(١)</sup> .

ويذكرون في الأندلس هروبا من البلد قام به بعض الفقهاء خوفا من تولي القضاء بل كانوا يرفضون اختيار غيرهم لئلا يشاركوهم سوء العاقبة وارتكاب الاثم<sup>(٢)</sup> . ويذكرون أن أمير الأندلس محمد بن عبدالرحمن أمر الوزراء أن يرسلوا في طلب ابان بن عيسى بن دينار وأن يولوه القضاء في جيان وعرضوا عليه فاستعفى فأمر الأمير أن يوكل به الحرس حتى يبلغ جيان ويجلس فيها مجلس القضاء . . . . . وفعلوا وقضى بين الناس يوما واحدا فلما أتى الليل هرب فأصبح الناس يقولون : هرب القاضي<sup>(٣)</sup> .

على أن الفقهاء منذ القرن الثالث أصبحوا يطلبون المنصب ولا يتخرجون منه . وان كانت العادة أن يتأبوه في أول الأمر ويعرفون له مقامه الديني وكان بعضهم يجعله مساويا لمنصب أمير المؤمنين وأحيانا أعلى منه . فيذكرون عن القاضي الأندلسي عبدالرحمن بن طريف اليحصبي أنه قضى في قضية أيام عبدالرحمن الداخل فأتاه رسول الأمير مرتين أن يتخلى عن النظر فيها فقال : انه يرى أن الحكم له لا للأمير ! وكانت القضية لأحد كبراء الدولة فلما سئل عنها قال : ما أشقاه من لطمه قلم القاضي<sup>(٤)</sup> . وأراد صاحب البريد أن يجلس مع القاضي هارون بن عبدالله في مجلسه حين عين بمصر في مطلع القرن

(١) السبكي - طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) الخشني ص ٥ - ٧ .

(٣) البغدادي ، تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٤) الخشني ص ٢٦ .



الثاني من قبل المأمون فمنعه وقال : هذا مجلس أمير المؤمنين ليس يجلس أحد فيه إلا بأمره<sup>(١)</sup> . وكانوا يعتبرون القاضي « أعظم الولاة خطرا بعد الامام لما يتقلده من تنفيذ القضايا وتخليد الأحكام في الدماء والفروج والأموال والأعراض وما يتصل بذلك من ضرور المنافع ووجوه المضار . .<sup>(٢)</sup> . ويعتبر الفقهاء - نظرياً على الأقل - أن الخلفاء لا يستطيعون عزل القاضي العادل . وقد اتفق أن قاضي بغداد أبا حامد أحمد بن محمد الاسفراييني ( ت سنة ٤٠٦ / ١٠١٥ ) أتاه كتاب من الخليفة في أمر فكتب اليه : اعلم أنك لست بقادر على عزلي عن ولايتي التي ولايتها الله تعالى وأنا أقدر أن أكتب الى خراسان بكلمتين أو ثلاث أعزلك من خلافتك<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ٣٢٤ / ٩٣٥ عهد الأخشيدي بقضاء مصر الى أبي بكر بن الحداد فألف بعضهم فيه الأشعار متهمين لأنه تولى القضاء من الأخشيدي لا من قبل الخليفة<sup>(٤)</sup> وفي سنة ٣٩٤ قلد بهاء الدولة البويهبي أبا أحمد الموسوي والد الشريف الرضي نقابة العلويين بالعراق وقضاء القضاء والحج والمظالم فلم ينظر في قضاء القضاء لامتناع الخليفة القادر بالله عن الأذن له بذلك .

وكان القاضي في بعض الأحيان من القوة بحيث لا يهاب أميراً ولا وزيراً ولا قائد جيش ويمضي احكامه بالرغم من تدخل مثل هذه القوى : وكانت العادة أن يحضر الولاة القضاة الى مجالسهم فلما رفض قاضي مصر محمد بن مسروق الكندي سنة ١٧٧ / ٧٩٣ رسول الوالي وأهانته صار الولاة هم الذين يحضرون مجلس القاضي . ويذكرون القصص الكثيرة عن اباء بعض القضاة

(١) الكندي الولاة والقضاة ص ٤٤٤ .

(٢) الخشتي ص ٢ .

(٣) السبكي طبقات الشافعية ج ٣ ص ٢٦ .

(٤) المصدر السابق ج ٢ ص ١١٤ .

واجبارهم الامراء وغيرهم على الامتثال لاوامرهم نتيجة للطابع الديني الذي يلبسه حامل الطيلسان : ومن ذلك أن مؤنسا الخادم أكبر أمراء المقتدر وكان يخطب له على جميع المنابر مع الخليفة عرض له مرض وهو بمصر مع سبعين من أصحابه فأراد أن يوصي فأبى القاضي ابن حربويه إلا أن يثبت مؤنس أولا لأنه حر وذلك بكتاب من الخليفة نفسه . ويروون عن القاضي الأندلسي سليمان بن أسود الغافقي وقف لأعز أصدقاء الأمير محمد بن عبدالرحمن (الداخل) حين أراد الاستيلاء ظلما وتزويرا على أموال تاجر موسر يكرهه اسمه قومس بن انتيان وكان مالا عظيما وحفظه القاضي لورثته<sup>(١)</sup> في قصة طويلة . كما يروي عن هذا الوزير نفسه أنه بعث الى محمد بن موسى الوزير وهو يومئذ أعظم وزراء الأمير محمد وأقربهم محلا منه فلم يسعه إلا الامتثال طائعا ، كما أتى بصاحب الشرطة نفسه في قضية أخرى مرغما بقدره رسول القاضي وقد أمر القاضي محمد بن زياد اللخمي ، قاضي قرطبة ، بجلب والي الشرطة أيام عبدالرحمن الداخل فقمعه أسواطاً في مجلسه أمام الناس لأنه قال : لو كان الشاهد مثل الليث بن سعد ما قبلته<sup>(٢)</sup> ! ووقع ابن أبي جعفر المنصور وبين أم المهدي خصومة ، فلم تقبل إلا بقاضي مصر غوث بن سليمان للحكم فيها فحمل الى بغداد فوكلت أم جعفر عنها وكيلا فلم يقبل غوث من الخليفة إلا أن يساوي الوكيل في مجلسه أمامه ففعل . . . وحكم لام جعفر<sup>(٣)</sup> .

وقد ظل الحكام يتخرجون دوما من الضغط على القاضي في أحكامه حتى في زمن الضغط البويهي في بغداد أو زمن امتهان منصب القضاء أيام الفاطميين في أواسط القرن الخامس حين عين الخليفة المستنصر لقضاء القضاة في القاهرة ثم خلع . ثم عين ثلاثة عشر قاضيا للقضاة في تسع سنوات . ولا

(١) الحشني ص ٧٥ - ٧٧ .

(٢) الحشني ، ص ٥٨ .

(٣) الكندي ص ٣٧٤ - ٣٧٦ .

جرى شيء من ذلك في الأندلس وأقصى ما كان يجري عند اصطدام ارادة السلطان مع تصلب القاضي أن يعزل القاضي . وعلى الرغم من أن هذا التدبير كان يثير التساؤل لدى الناس عن السبب ويدفع الكثير الى أخذ جانب القاضي المعزول إلا أن الذي كان يجري عمليا هو العزل والتعيين متى شاء الخليفة ذلك حتى في العصور السيئة التي انهارت فيها الخلافة .

وقد انتقل هذا الحق ، مع ضعف المركز ببغداد ، الى امراء الأقاليم وكان من أولهم الأغالبة في افريقيا ، وابن طولون الذي جمع في دمشق القضاة والفقهاء للافتاء بخلع الموفق ، أخي الخليفة من ولاية العهد ولعنه . فلم يعترضه إلا ثلاثة وعين بعض القضاة بنفسه . وصار أكثر القضاة أيام الساماليين والغزيوين والحمدانيين يعينون من قبل الامراء .

وعلى أي حال فقد وجدت في المدن الاسلامية على الدوام سلطة قضائية تمثلت في القاضي تستطيع ولو نظريا أن تقف حتى للسلطات العليا وأن تقر العدل والأمن بين الناس ، مستقلة إلا عما يأمر به الشرع .

وكان القاضي يتلقى في مرسوم تعيينه توصيات الخليفة له بالعمل وبطهارة اليد وحفظ السمعة وعدم الرشوة ولدينا أمثلة على ذلك . منها العهد الذي كتبه الصابي سنة ٣٦٦ / ٩٧٦ لقاضي القضاة أبي محمد بن معروف بأمر الخليفة الطائع<sup>(١)</sup> . أما في الأندلس فكان أمير المؤمنين أو الخليفة من بعد يستقبل القاضي في قرطبة عند تعيينه ويعهد اليه بوصاياه وتوجيهاته<sup>(٢)</sup> . وكان بعض قضاة الأندلس اذا أشكل عليه أمر بعث فطلب رأي القاضي في مصر<sup>(٣)</sup> . كما كان بعضهم هناك كالقاضي الحبيب أحمد بن محمد اللخمي

(١) رسائل الصابي ص ١١٥ و ١١٦ .

(٢) الحشني ص ١١٧ وص ١١٨ .

(٣) الحشني ص ٤٥ .

يشهد الفقهاء معه بخطوطهم على أحكامه ويسجل موافقتهم عليها<sup>(١)</sup>.

ولم يكن ثمة محكمة في الاسلام . أي مقر محدد للحكم وكانت المحكمة حيث يكون القاضي سواء في المسجد أم في منزله أم حتى في الطريق . وقد ظل المسجد المقر الأساسي للقضاء زمنا طويلا لارتباط القضاء بالشرع . ولم يمنع ذلك من أن يعرض القاضي للأحكام في بيته ويستقبل فيه المتخاصمين . كان ذلك يجري سواء في بغداد أم في القاهرة أيام الفاطميين أم في قرطبة وشذونة أيام الأمويين هناك . على أن ذلك لا يوازي « دار الامارة » والمدن الملكية التي ينيها الامراء لأنفسهم مقرا للحكم . فثمة تباين واضح بين الطابع الدنيوي للامارة التي تأخذ كل هيبتها من المظاهر التي تحيط بها نفسها وبين القضاء الذي يستمد قوته من أنه ذو صبغة دينية ويحظى من ذلك باحترام الناس . . على الرغم من أنه ثمة فارقا بين عصا الأمير العاجلة وعصا الدين الأجلة .

وكانت جلسات القاضي علنية في المساجد وللقاضي فيها مكانه المحدد عند اسطوانة من اسطواناته ، وقد خصم رجل المأمون ذات مرة وأذن الخليفة للقاضي يحيى بن أكثم في القضاء بينهما في دار الخلافة . فقال القاضي : فاني أبدأ بالعمامة أولا ليصبح المجلس للقضاء ثم أمر بفتح الباب وقعد في ناحية من دار الخلافة وأذن للعمامة في الدخول ونادى المنادي وأخذ بالرقاع ودعا بالناس ثم قضي ابن أكثم بين الخليفة وخصمه<sup>(٢)</sup> . ويحكى عن خير بن نعيم قاضي مصر سنة ٧٣٨/١٢٠ أنه كان له مجلس يشرف على الطريق على باب داره فكان يجلس فيه فيسمع ما يجري بين الخصوم من الكلام<sup>(٣)</sup> ، وولي قضاء مصر سنة ٩١٩ / ٢٠٥ ابراهيم بن الجراح فسخط المصريون عليه وكان مصلاه

(١) الخشني ص ١٠٢ .

(٢) متر، الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤١٣ (نقلا عن المحاسن والساوي للبيهقي).

(٣) متر، ج ١ ص ٤١٣ .

موضوعاً في المسجد الجامع فجاؤوا فألقوه في الطريق فجلس للحكم في منزله ولم يعد للجامع حتى صرف<sup>(١)</sup>. وقد رأى المعتضد بعد منتصف القرن الثالث / ٩م ، أن جلوس القاضي في المسجد ينافي ما يجب لبيوت الله من الحرمة فأمر سنة ٢٧٩ ألا يعقد القضاة في المسجد . ولكن هذا المنع الذي طبق في بغداد لم يسر في كل مكان وظل القضاة يقيمون بين دورهم والمسجد في مصر ، وفي الأندلس بالطبع . وكان قاضي القضاة في مصر زمن الفاطميين يجلس يومي السبت والثلاثاء للقضاء في جامع عمرو بن العاص ( الجامع القديم ) على طراحة ومسند حرير والشهود حوالية يمينا ويسرة حسب تاريخ عدالتهم ، وبين يديه خمسة من الحجاب منهم اثنان عنده واثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم اليه وأمامه كرسي الدواة . وهي دواة محلاة بالفضة تحمل اليه من خزائن القصور<sup>(٢)</sup> ، ويجلس الخصوم أمامه متساوين . وكان قضاة الفاطميين يتمنقون بسيف زيادة في الابهة ، ورمزا للفصل في الأمور والحسم فيها . ويلبس القاضي الطيلسان على رأسه وكتفيه حتى أصبح اسم صاحب الطيلسان علماً على الوظيفة . وملابسهم لدى العباسيين السواد ولدى الفاطميين البياض .

وجهاز المحكمة في المدن الاسلامية كان يتكون عدا القاضي من الشهود العدول والكتاب والديوان . فأما الشهود أو العدول كما صاروا يسمون في خراسان والمغرب بعد أواسط القرن الرابع ، فهم جماعة دائمة تشهد لدى القاضي في الأمور المختلفة وهم أشبه بالموظفين نشأت وظيفتهم من حاجة القضاة الى رجال موثوقين عدول يثق القاضي بشهاداتهم . نشأ هذا النظام منذ عهد المنصور وكان القضاة اذا شهد عندهم رجل وعرف بالثقة قبلوه وان كان

(١) الكندي ص ٤٢٨ .

(٢) المقرئزي - خطط ج ١ ص ٤٠٣ .

مجهولا سألوا عنه فان وثق قبل والا ترك . وجاء غوث بن سليمان قاضيا لمصر  
 زمن المنصور فسأل عن الشهود سرا بسبب كثرة شهادة الزور فمن عدل عنده  
 قبله وصرف الباقي<sup>(١)</sup> . ثم جاء القاضي العمري على قضاء مصر أيام الرشيد  
 سنة ١٨٥ / ٨٠١ فجعل أسماء الشهود والعدول في كتاب عنده فكان أول من  
 فعل ذلك وأسقط سائر الناس . ثم فعلت القضاة ذلك من بعده<sup>(٢)</sup> وهكذا  
 نشأت بطانة القاضي . وكان بعض القضاة ( كابن هبة ) يجدد البحث من  
 عدالتها كل ستة أشهر لئلا تكون قد جرحت في هذه الفترة . وكانوا نحو من  
 ثلاثين رجلا . وبعضهم<sup>(٣)</sup> كقاضي مصر سنة ٣٢١ / ٩٣٣ كان يلزمهم أن  
 يركبوا معه<sup>(٤)</sup> . وبعض كان القاضي ينيبه عنه في القضايا الصغرى<sup>(٥)</sup> . وبعض  
 بالغ في التعديل حتى صار شهوده ستة وثلاثين ألف شاهد<sup>(٦)</sup> منهم عشرون ألفا  
 لم يشهدوا بعد تعيينهم شهادة واحدة . وبعضهم كان يقبل الرشوة ليعدل بعض  
 الشهود . وكان ببغداد حوالي مطالع القرن الرابع نحو من ألف وثمانمائة شاهد  
 عدل . وفي سنة ٣٨٢ / ٩٩٢ كان عددهم ثلاثمائة وثلاثة<sup>(٧)</sup> . وقد أمر الحاكم  
 بأمر الله سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ بتأهيل بعض الناس ممن طلبوا تأهيلهم بالعدالة  
 فأذن لهم في ذلك . وتشبه غيرهم في ذلك حتى بلغ العدول في القاهرة ألفا  
 ومائتين ونيفا فاتاه القاضي يشكو أن معظمهم لا يصلح للعدالة فأمره  
 بتصفحهم وأقرار من يراه منهم<sup>(٨)</sup> .

(١) الكندي ص ٣٩٤ .

(٢) الكندي ص ٣٦٤ .

(٣) الكندي ص ٣٩٥ - ٣٩٦ .

(٤) الكندي (في ملحقه) ص ٥٤٥ .

(٥) الخشنى / قضاة قرطبة ص والمفريزي خطط ج ٢ ص ٣٣٣ ومترج ١ ص ٤٢٣ .

(٦) متر / الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤٢٢ (نقلا عن نشوار الحاضرة) .

(٧) متر / الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤٢٣ .

(٨) الكندي (الملحق) ص ٦١٢ .

وكانوا في الأندلس كما في المشرق يحتفظون بإمانات الناس عندهم .  
وقد ذكرت قصة عن أحد عدول قرطبة الذي أوقف القاضي سليمان بن أسود  
بعض المال عنده فلما طلب منه المال ذكر أنه سلمه للقاضي السابق ، وأتى  
بالبينة على ذلك وفيها ستة عشر شاهداً وأنكر القاضي القبض وكذب  
الشهود ، وزعم أنها مكيدة<sup>(١)</sup> . وتأمّر بعض العدول مرة مع الديوان في  
قرطبة على اقتسام مال عنده . وكان الديوان يومئذ لا شهود عليه وإنما ذكره في  
دفتر مطلق . واقتسموا المال . . . وصارت القضية إلى اتهام بعض القضاة عند  
الأمير وهمّ بتحليفهم اليمين لولا أن القاضي بقي بن مخلد قال : إن اتصل  
بيني العباس إننا نحلف قضاتنا كان ذلك من أعظم ما نعاب به عندهم .  
فاستقر الأمر على أن يكتبوا اليمين كتابة<sup>(٢)</sup> . وأصيب القاضي المتهاون بنوع  
من الجنون . وفي مصر أيام الحاكم بأمر الله توفي القاضي محمد بن النعمان  
فوجد عليه من أموال اليتامى ستة وثلاثون ألف دينار فأمر الحاكم بمصادرة  
أمواله . وأرسل كاتب الوزير فاحتاط عليها . وشرع في البيع وفي تغريم  
الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم ، وكلهم من وجوه القاهرة إلى أن  
تحصل نصف الدين . وأمر الحاكم ألا يودع بعد ذلك عنه أحد من الشهود  
مال يتيم ولا غائب . وأفرد موضع فيه المال ويحتم عليه أربعة من الشهود لا  
يفتح إلا بحضورهم<sup>(٣)</sup> . وكانوا يتقاضون رسوما على الشهادة فكانت مورد  
رزق لهم ، ولولا ذلك ما تهافتوا عليها . وكان العدول على أي حال يعزلون  
جميعا بعزل القاضي أو موته ليحدد القاضي التالي شهادتهم أو يلغونها .

أما الكتاب فلا شأن لهم في القضاء ولكن في التسجيل وهو موضع  
خطير لضرورة الأمانة والمعرفة الفقهية فيه . لذلك كان فقهاء الأندلس حين

(١) الخشني ص ٨٣ .

(٢) الخشني ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣) الكندي ، الملحق ص ٣٩٥ .

يشيرون بتعيين قاض قد يشيرون أيضا بتعيين كاتبه معه<sup>(١)</sup> كما فعل القاضي ابراهيم بن العباس القرشي . وكان باقي الذين يكونون بين يدي القاضي خمسة نفر واحد هو الحاجب، وثان هو عارض الأحكام، وثالث هو خازن ديوان القاضي، ورابع وخامس هم أعوان التنفيذ أو الشرط، وهؤلاء هم ديوان القاضي .

وكان أمراء الأندلس عند عزل القاضي أو موته يرسلون أربعة من العدول يقبضون الديوان ثم يجعلونه في بيت أحد الوزراء حتى يعين القاضي الجديد أو تقوم الشرطة بهذا العمل<sup>(٢)</sup> .

وكانت صلاحيات القاضي تشمل الخصومات جميعا دون تفريق بين مدنية أو جنائية كما كان من سلطاتهم حفظ أموال اليتامى<sup>(٣)</sup> والموارث منذ القرن الرابع . ويقوم القاضي مقام الكاتب بالعدل في التوثيق<sup>(٤)</sup> ويشرف على السجون<sup>(٥)</sup> . وقد صارت إليه في القرن الرابع الهجري أيضا وذلك في المدن التي يلي قضاءها . كما اقتص بما يسمى بحبوس القاضي (أي الحبس في الشؤون المدنية والمدنيين) مقابل حبوس المعونة التي يحبس فيها أصحاب الجنايات والجرائم .

وكان القاضي توبة بن عمر الحضرمي (ت . سنة ١٢٠ / ٧٣٨) أول قاض بمصر وضع يده على الأحباس (الأوقاف) وكانت من قبل في أيدي أهلها وأوصيائهم فوضع يده عليها حفظا لها « فلم يمت حتى صارت

(١) الخشني ص ٥١ .

(٢) الخشني ص ٨٢ وص ١٠١ .

(٣) متر / الحضارة ج ١ ص ٤١١ .

(٤) الخشني ص ١١٥ .

(٥) متر ج ١ ، ص ٤١٢ .



الأحباس ديوانا عظيما»<sup>(١)</sup>.

وكانت للقضاة في الأندلس الصلاة فهو خطيب الجمعة في قرطبة لكنها قد تجمع له مع القضاء وهو الأغلب، وقد يعفى منها وتعطى لغيره. ففي مطلع القرن الرابع كان القضاء أيام عبدالرحمن الناصر لأسلم بن عبدالعزيز، والصلاة لمحمد بن عمر بن لبابه ثم أعيد أحمد محمد بن زياد إلى «قضاء الجماعة وإلى الصلاة» معا فظل فيهما حتى توفي سنة ٣١٢. وحين ولي أحمد بن بقي بن مخلد سنة ٣١٤ أعطى قضاء الجماعة وأقره الخليفة الناصر على الصلاة التي كان عليها. وبعد أن توفي سنة ٣٢٤ صار أحمد بن عبدالله قاضي الجماعة ومحمد بن عبدالملك بن أيمن صاحباً للصلاة. وجاء محمد بن عبدالله بن أبي عيسى بعد ذلك للقضاء فبقي ابن أيمن للصلاة حتى ضعف فجمع أمير المؤمنين الخططين معا القضاء والصلاة لابن أبي عيسى<sup>(٢)</sup>. وكانوا في الأندلس يعتبرون الصلاة مرتبة سامية لمكانها من الدين ويعتبرون ولايتها فخر للقضاة.

ولقد عين الأمير محمد بن عبدالرحمن ثاني أمراء الأندلس مولاه عمرو بن عبدالله سنة ٢٥٠ القضاء والصلاة فشق ذلك على العرب خاصة وتكلموا فيه فقال الأمير: وجدت فيه ما لم أجد فيكم فقالوا: أما القضاء فلا نعترض لأنه من سلطانه. وأما الصلاة فإننا لا نصلي وراءه. فقبل الأمير منهم ذلك وعين للصلاة عبدالله بن الفرغ النميري<sup>(٣)</sup>.

وبرغم السمات والوقار اللذين كانا من دأب القضاة ومن لوازم عملهم فإن بعضهم لم يكن يابسه لذلك فكان يهمل ملبسه عن فقر أو عن

(١) الكندي ص ٢٤٢.

(٢) انظر الحشني الصفحات: ١٠٩ / ١١٠ / ١١١ / ١١٨ / ١٢٠ و ٨٧.

(٣) الحشني ص ٦٧.

تساهل . وقد يرفق بالأخصام . ومن النادر جدا أن نرى في القضاة مثل قاضي قرطبة محمد بن بشير المعافري الذي كان يأتي الجامع يوم الجمعة برداء معصفر، وفي رجله حذاء يصر، وعليه حمة مفرقة . فيقوم فيخطب ويقضي بهذا الزي . وإذا رام أحد من دينه شيئا وجده فوق الثريا! ولقد جاء إليه رجل لا يعرفه فلما نظر إلى زي الحدائث عليه من الحمة المفرقة والرداء الأصفر وظهور الكحل والسوك وأثر الحناء في يديه لم يتوسم القضاء . فقال لبعض من يجلس إليه : دلوني على القاضي فقالوا : هاهو ذا . فقال لهم إني رجل غريب وأراكم تستهزئون بي أنا أسألکم عن القاضي وأنتم تدلونني على زامر؟ فلما زجروه من كل ناحية وعرف أنه القاضي تدمم واعتذر<sup>(١)</sup> .

وكان من سلطة القاضي استخدام السوط في مجلسه . ولقد استخدم حتى مع والي الشرطة - كما رأينا - في قرطبة الذي قمع أسواطاً في مجلس القاضي محمد بن زياد ولقد قمعت بالسوط أيضا امرأة رفضت حكم القاضي أحمد بن بقي بن مخلد . كما قمع في مجلسه بالسوط رجل من الأشرار يسمى منخل<sup>(٢)</sup> .

وكان النظام في القضاء أن يكتب المدعي ظلامته في رقعة تتضمن إسم المدعي وإسم خصمه وأبيه ووجه الخصومة، ويجمع القاضي عند باب المسجد قبل مجيء القاضي فينظر فيها فإن كانت كثيرة فرقها في كل يوم خمسين رقعة أو أكثر أو أقل حسب طاقته في الجلوس والصبر<sup>(٣)</sup> . وكان استدعاء الخصوم من شأن صاحب الدعوى، وكان قضاة قرطبة والأندلس يصنعون طوابع يسلمونها للمدعي كي يذهب بها إلى خصمه فلا يسعه إلا

(١) الخشني ص ٣٢ .

(٢) الخشني ص ١١٣ - ١١٤ .

(٣) مترج ١ ص ٤١٢ - ٤١٣ .

الحضور إلى القاضي . وحين ولي محمد بن بشير المعافى القضاء « طبع طابع عشرة فلم تزل في خريطته (محفظته) إلى أن مات . وكان الرجل إذا أتاه يطلب الطابع كشفه لدى من يجبه فإن كان قريبا في قرطبه أعطاه الطابع وأمر الكاتب بزم إسمه ومسكنه وفي من أخذ الطابع ويقول : إياك إن كنت ظالما أن تقدم على أحد بطابعي ويعهد إليه بصرف الطابع بعينه . أما إن كان الخصم بعيدا فيؤجل له بقدر ذلك<sup>(١)</sup> . وجاء رجل إلى القاضي عمر بن عبدالله فقال يا قاضي المسلمين إن فلانا غصبي دارا . فقال القاضي خذ فيه طابعا فقال الرجل الضعيف : مثلي يسير إلى مثله بطابع ؟ لست آمنه . وكان الخصم من كبار القوم فأمره القاضي أن يأخذ الطابع فلما عاد الرجل قال : إني عرضت عليه الطابع عن بعد ثم هربت إليك فقال عمرو بن عبدالله : اجلس سيقبل صاحبك<sup>(٢)</sup> وأقبل بالفعل إما رزق القضاة فكان يختلف من مدينة إلى أخرى فقد يرفضون الأجر تماما رغبة بأنفسهم عن مال السلطان أو اكتفاء بما يأتيهم من ثرواتهم وأعمالهم الأخرى . فقد ظل الحسن بن عبدالله (ت سنة ٣٦٩ / ٩٧٨) على قضاء سيراف خمسين سنة دون أجر ، وكان يعيش على نسخ الكتب بخطه المعروف بجودته . وكان بعضهم يشترط لقبول المنصب ألا يأخذ عليه رزقا كقاضي المدينة أيام المهدي ، وكالقاضي محمد بن صالح الهاشمي سنة ٣٦٣ / ٩٧٢ ، إلى حين صار قاضي القضاة ببغداد . والقاضي أبو بشر عمر بن يكتم قاضي بغداد سنة ٣٥٢ / ٩٦٣ . وكان بعضهم من الفقر لا يملك ثوبا وإنما يتبادل ثوبه والعمامة مع أخيه كالقاضي أبي الطيب الطبري فإذا احتاج أحدهما للخروج من البيت بقي الثاني فيه<sup>(٣)</sup> .

(١) الخشني ص ٣٠ .

(٢) الخشني ص ١٧ - ١٨ .

(٣) انظر البغدادي / تاريخ بغداد ج ١١ ص ٢٧٧ ، والكندي (الملحق) ص ٥٧٢ ومسكويه ج ٦

ص ٢٥٧ ، وابن خلكان - وفيات ج ٢ ص ٥١٢ - ٥١٥ (ترجمة ٣٠٦) (طبعة عباس) .

وكان دخل بعض القضاة في بغداد يسيرا بالنسبة لقضاة الفاطميين فإن علي بن المحسن التنوخي (ت. سنة ٤٤٧ / ١٠٥٥) كان دخله من القضاة ومن دار الضرب معا ستين دينارا في الشهر. في حين كان قاضي القضاة في مصر يتقاضى في الفترة نفسها - على ما روي ناصري خسرو - ألفي دينار في الشهر<sup>(١)</sup>. وكان دخل القاضي عبدالحكم بن سعيد الفارقي يزيد على عشرين ألف دينار في السنة<sup>(٢)</sup>. على أن في هذين الرقمين مبالغة دون شك. فالمقريزي يذكر أن رزق قاضي القضاة أيام الفاطميين كان مائة دينار فقط في الشهر وهو على أي حال أعلى من رزق القاضي العباسي. على أن «القضاء» كان يسمح بالرزق غير الحلال ولولا ذلك لما ضمنه عبدالله بن الحسن بن أبي الشوارب في منتصف القرن الخامس في بغداد بمائتي ألف درهم في السنة، وسمى قاضيا للقضاة من قبل معز الدولة البويهى فكان عمله اول اعتراف رسمي بما يدره القضاء من الربح. أما أرزاق ديوان القاضي فكان للكاتب في القرن الرابع سنة ٣٣٦ / ٩ ثلاثمائة درهم وللحاجب مائة وخمسون ولمن يعرض الأحكام مائة درهم وللخازن ديوان الحكم ومن معه من الأعوان ستمائة درهم<sup>(٣)</sup>.

وكثيرا ما كان القضاة يجمعون مع القضاء بعض الأعمال الأخرى من رسمية أو غير رسمية. فكان معاوية بن صالح في قرطبة أيام عبدالرحمن الداخل قاضيا ومحاربا يغزو مع الغزاة. وقد غزا سرقسطة وهو قاضي الجماعة وإمام الصلاة في كتبية من أهل مصر<sup>(٤)</sup>. وقد يجمع إلى القاضي دار الضرب مع القضاء والأجناس. وقد تجمع إليه الولاية والقضاء معا كما جمع ولاية

(١) ناصري خسرو - الرحلة ص ١١٦ .

(٢) الكندي ص ٦١٣ .

(٣) متز، الحضارة ج ١ ص ٤١٩، والكندي (الملحق) ص ٥٧٤ .

(٤) الخشني ص ١٧ - ١٨ .

المدينة وقضاءها عبدالجبار بن سعيد المساحقي سنة ٢٠٢ . وكانت ولاية المدينة تشمل مكة واليمن معا فلم يزل فيها واليا وقاضيا<sup>(١)</sup> . كما جمعت الولاية والقضاء للقاضي الأندلسي أسد (ت . سنة ٣١٣) وللقاضي المشرقي شريك بن عبدالله في أيام المهدي في مصر .

ولقد يجمع للقاضي قضاء أكثر من مدينة وهو في هذا الحالة يتولى مدينته وينيب عنه في المدن الأخرى تحت إشرافه ومسئوليته . فقد كان القاضي عبدالجبار قاضي قضاة بني بويه يجمع بين قضاء الري وهمدان والجبال . وكان قاضي مكة سنة ٣٣٦ / ٩٤٧ له قضاء مصر أيضا وغيرها ، وكان قاضي مصر زمن الطولونيين والأخشيديين له قضاء مصر بمدينتها ومقره في الفسطاط . وله قضائه النواب عنه في الرملة وطبرية ودمشق . وفي العهد الفاطمي كان قاضي القاهرة ربما جمعت له أفضية مصر كلها مع الشام وبلاد المغرب . وقد أعطى قاضي القضاة محمد بن صالح الهاشمي سنة ٣٦٣ / ٩٧٤ زمن البويهيين قضاء البلاد من غربي جبال فارس إلى مصر . فكانه كان رئيس الأعمال القضائية في المملكة .

ولم يكن للقاضي مذهب معين في العصر العباسي وإن غلب الأحناف ثم الشافعية على المنصب . وغلب الشافعية على المنصب في مصر . وكانت المالكية مذهب قضاة الأندلس في الغالب . وحين استولى الفاطميون على مصر صار مذهبهم الشيعي الفاطمي هو الذي يجري عليه القضاء في مصر والشام والحجاز وأفريقية وإن لم يكونوا يمنعون الحكم بالمذاهب الأخرى . وكان بعض قضاتهم من أهل السنة . لكن الملاحظ أن أهل الشام ومصر كانوا لا يسلمون للفاطميين بالمذهب وبلغ ببعضهم الكره له إن قال أحدهم

(١) وكيع : أخبار القضاة ج ١ ص ٢٥٧ .

(وهو أحمد بن محمد النابلسي) لو كان لي عشرة أسهم لرميت واحدا في الروم وتسعة فيهم . فأخذ بعد أن أستتر في دمشق - وأرسل إلى مصر فعذب وطيف به في قفص ثم قتل وحشي جلده ثبنا<sup>(١)</sup> . وقد عين للقضاء سنة ٤٠٥ / ١٠١٤ قاض سني بقي فيه اثنتي عشرة سنة ونيف وهو من الشافعية، كما تولى القضاء في الفترة نفسها أبو العباس بن العوام وهو حنبلي . وكانت له الأحكام عدا مدن مصر في صقلية وبرقة ومدن الشام والحرمين ما عدا فلسطين (الرملة) ، فقد كان الحاكم ولاها لأبي طالب ابن بنت الزيدي الحسيني . وجعل لأبي العباس أيضا النظر في العيار ودار الضرب والصلاة والموازيث والمساجد . . . لكن سجله كان يشترط عليه أن يحكم بالمذهب الفاطمي ! وأن يكون معه في مجلس القضاء أربعة قضاة يعينهم الخليفة . وكانوا دون شك من الشيعة . وفي سنة ٥٢٥ / ١١٣١ عين الأكمل حفيد بدر الجهمالي أربعة قضاة : اثنين من الشيعة وواحد مالكي وواحد شافعي . فأثار ذلك الشيعة ودبروا اغتياله .

ولقد يصطدم رأي الأمير برأي القاضي فليس للقاضي سوى الإستقالة أو العزل . وقد جرى في أحوال نادرة أن حبس القاضي أو قتل : فقد حبس القاضي أبو أمية سنة ٣٠٠ / في بغداد وكان تاجرا للبز في الأصل ، وتمنى على ابن الفرات إن ولي الوزارة أن يعطيه القضاء فكان ذلك . فلما نكب ابن الفرات قبض عليه مدة ثم مات . كما حكى عن القاضي محمد بن زياد اللخمي قاضي الجماعة بالأندلس أنه فرطت منه كلمات في يوم ممطر . فأمر الأمير بمحمد بن السليم وهو والي المدينة بإحضار القاضي . وجمع له مجلسا أفق بصبك رسمي بقتله وخرج بعضهم يقول : سب ربا عبدناه إن لم نتصر

(١) المقرئزي / أتعاظ الحنفاج ١ ص ؟ وابن القلائس ص ٤ وابن الجوزي في المنتظم وثابت بن سنان : أخبار القرامطة ص ٦٢ .

له . إنا لعبيد سوء . ثم أخرج القاضي فصلب<sup>(١)</sup> .

ولقد أصاب منصب القضاء حين صار ذا ربح وأموال في القرن الخامس ما أصاب غيره فصار وراثيا يحرص الأب على توريثه لابنه ولقد ظهر من أسرة ابن أبي الشوارب أربعة وعشرون قاضيا خلال أقل من قرنين (٢٤٤ - ٤١٧ / ٨٥٨ - ١٠٢٦) وكان منهم ثمانية من قضاة القضاة<sup>(٢)</sup> . وفي الأندلس بقي قضاء مدينة شذونة يتردد في ولد القاضي الفرج بن كنانة في أيام أمراء بني أمية وخلفائها<sup>(٣)</sup> وكذلك كانت أسرة أبي بردة في فارس فقد استمرت منذ حوالي سنة ٣٢٥ - ٩٣٧ اجبالا كثيرة ولهم القضاء كما تولى فرع منهم قضاة غزنه منذ سنة ٤٠٠ والي عدة قرون<sup>(٤)</sup> ومثل هذا كان لدى الفاطميين الذين احتفظت أسرة محمد بن النعمان بالقضاء لديهم ما يزيد على القرن .

أما المظالم فكانت للخلفاء ثم صارت للولاة . فكانها نوع من التمييز للحكم . وكان يخصص لها يوم معين في الإِسبوع أو يومان . وأول من جلس لها فيما يذكرون هو الخليفة المهدي (١٥٨ - ١٦٩ / ٧٧٢ - ٧٨١) وآخر من جلس هو الخليفة المهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦ / ٨٦٨ - ٨٦٩) الذي بني لها قبة المظالم . وكان إذا جلس للمظالم أمر فوضعت كوانين الفحم في الأروقة والمنازل عند تحرك البرد فإذا جلس المتظلم أمر بأن يدفأ ليسكن ويشوب إلى نفسه لئلا تجتمع عليه رهبة الخلافة وألم البرد<sup>(٥)</sup> . ثم صار الخلفاء ينيبون عنهم الوزراء (كوزير المعتضد عبدالله بن سلمان) الذي كان ينيب بدوره

(١) الخشني ص ٥٤ - ٦٠ .

(٢) شاکر مصطفى / دليل التاريخ الإسلامي ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) الخشني ص ٤٠ - ٤١ .

(٤) متر، الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

(٥) البيهقي / المحاسن والمساوي ص ٥٧٧ - ٥٧٨ .

القاضي بدر. وفي سنة ٤٠٠ هـ أضيفت المظالم للقضاة. أما في الولايات المنقطعة كالطولونية والأخشيديّة في مصر فكان الولاة يجلسون لها بأنفسهم تشبها برأس الدولة واتفق سنة ٣٠٦ هـ أن تجلس للمظالم ببغداد قهرمانة لأم المعتذر أسماها ثمل مما يدل على تدهور هذه الخطة كما تدهورت لدى الفاطميين.

وحيث تسلم صلاح الدين الدولة في مصر سعى قاضي قضائه صدر الدين عبدالملك بن درباس في صرف جميع قضاة الشيعة سنة ٥٦٦ هـ وعين بدلا منهم قضاة من السنة الشافعية. كما التزم الأيوبيون بتعيين قضاة مدن الشام التي تولوها وقضاة اليمن. وحيث جاء المهاليك تغيرت الحال تماما فقد عاودوا تنظيم مملكتهم بدقة وأولوا القضاء اهتمامهم الذي يتوافق مع رغبات الناس. فلم يترك الظاهر بيبرس أمر القضاء للشافعية وحدهم فقط ولكنه عين سنة ٦٦٣ / ١٢٦٥ أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة واحتفظ الشافعي بقضاء القضاة وبالإشراف على أحوال اليتامى والأوقاف والقضايا الخاصة ببيت المال ويعزل القضاة في المدن المختلفة وتعيينهم فإنه رئيس للقضاة كله ويأتي بعدها الحنفي فالملكي فالحنبلي<sup>(١)</sup>.

وعاد مع سيطرة المهاليك العسكرية منصب قضاة العسكر وهم مختصون بالجنود كما يفصلون فيما يشجر بين الجنود والناس. وكانوا ثلاثة يمثلون مذاهب الشافعية والحنفية والمالكية. وكان يوجد أحيانا قاض حنبلي. وقضاة العسكر كانوا يحضرون مع القضاة الأربعة إلى دار العدل التي كانت قد انفردت وتنظمت منذ القرن الخامس، وكان مجلسهم يأتي في المرتبة الثانية بعد القضاة الأول وجرت العادة على أن يصحبوا السلطان في أسفاره مع الجنود<sup>(٢)</sup>. أما القضاة الأربعة فكانت لهم الإمامة (أي الصلاة) والنظر في

(١) المقرئبي : السلوك ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٢) المقرئبي : خطط ج ٢ ص ١٨٨ .



الوصايا والأحباس (الأوقاف) وشؤون اليتامى والمحجور عليهم، كما أن لهم التدريس في المدارس بالإضافة إلى عملهم الأصلي في النظر في كل الخصومات مدنية كانت أم جنائية .

وكانت جلسات القضاء تعقد في دور القضاء كما تعقد أحيانا في المساجد . وفي جلسة الحكم يتقدم المتقاضون ضمن ترتيب خاص إلى القاضي الذي يساعده في العمل «جلوازه» يحفظ النظام في الجلسة ويقدم الأخصام حسب الدور وربما حمل عصا أو سوطا لذلك . وحاجب يقف على باب القاضي يستأذن للخصوم، وكان ثمة العدول الذين يقدمون شهاداتهم للقاضي ويراجعون السجلات والعقود ويزكون الشهود، وثمة الكاتب الذي يحرر الدعاوى والأحكام، وثمة الترجمان الذي يقوم بالترجمة بين الخصوم الذين لا يفقهون العربية .

أما المظالم فقد أنشأها في مطلع عصر المماليك الوزير هبة الله بن صاعد الفاتزي أيام المعز ابيك التركماني فكانت أشبه بمحكمة الاستئناف، ترفع إليها القضايا التي تختص بالسلطان مباشرة، أو تلك التي تنشب مع السلطات . وكانت جلساتها تعقد في يومي الاثنين والخميس، وكان سلاطين المماليك يحرصون على حضورها لما فيها من الظل الديني؛ فيجلس السلطان في ديوان دار العدل على كرسي مغشى بالحرير وعن يمينه وشماله القضاة الأربعة، يليهم من الجانب الايمن قضاة المعسكر، ثم المفتون، ثم وكيل بيت المال ثم ناظر الحسبة . ويقف وراء السلاطين السلحدارية والجمدارية في حين يكون أكابر ذوي المثين على بعد خمسة عشر ذراعا تقريبا، ويسمون بأمرء المشورة . أما أرباب الوظائف وسائر الأمراء فيظلون وقوفا<sup>(١)</sup> . كل

(١) انظر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٣ وج ٤ ص ٤٤ وابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الإسلام ج ١ ص ١٢ .

هذه المراسم كانت تجعل من «محكمة» المظالم تقليدا دينيا مؤثرا كان المهاليك يحتاجونه في مطالع الدولة . لكن الأمر تغير بعد ذلك فصار حضور السلطان للمظالم شكليا . ونودي في الناس ألا يرفع أحد أمرا للمظالم إلا بعد أن ينظر فيه القضاة فإن لم ينصفوه ذهب إلى السلطان فإن خالف ذلك عوقب<sup>(١)</sup>.

## ٦ - الشرط والعسس :

لم تكن موجودة إلا في المدن فقد كان الجند يتكفلون بالقرى والريف . وهي في الأصل نظام العسس في الليل وقد عهد به أبو بكر الصديق في المدينة (يثرب) إلى عبدالله بن مسعود وجعله صاحب العسس . كما أن عمر بن الخطاب باشره بنفسه وكان يصطحب معه مولاه وربما اصطحب عبدالرحمن بن عوف . يراقب شاربي الخمر أو لاعبي الميسر أو ذوي الشكوى . ومن احدى هذه الشكاوي من امرأة في الليل كان أمره ألا يبقى جندي في جبهة القتال أكثر من ستة أشهر ثم يعود إلى عائلته . ويبدو أن كثرة الغنائم في البصرة وتكاثر الناس الجأت أبا موسى الأشعري وإليها إلى حراسة بيت المال والسجن بأربعمائة من العسس ، كما أن علي بن أبي طالب عين للشرطة في الكوفة قيس بن سعد الأنصاري مما يدل على أن هذا النظام قديم . وقد وجد في الأمصار الإسلامية مع ظهورها ، كما أنه كان موجودا في الأمصار المفتوحة فاستمر بعد فتحها .

ويبدو أن ثمة رافدا آخر أدى إلى ظهور مؤسسة الشرط غير العسس . وحراسة المدينة في الليل هو معونة صاحب الولاية على حفظ النظام والأمن وحراسته وتنفيذ أوامره والبقاء بين يديه في مجلسه للحكم أو في تنقله . وهذا يعلل ما ذكر من أن زياد بن أبيه في ولايته على البصرة جعل الشرط أربعة

(١) ابن لباس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٩ وابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ١٧ .

آلاف. ولي عليهم ابن حصن حتى مات، وتولى الجعد بن قيس التميمي أمر الفساق في المدينة. وعلى أي حال فإننا نسمع في مختلف الأخبار الأدبية والتاريخية عن دور يقوم به الشرط في مختلف المدن منذ أوائل العصر الأموي. وكان رئيسهم يدعى بصاحب الشرط. أو صاحب «الأحداث» (ج. حادث) وهشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥) كان هو الذي أنشأ في المدن نظاما وسطا بين شرطة الأمن وشرطة الجيش سماه نظام الأحداث<sup>(١)</sup>.

على أن المؤرخين أهملوا ذكر الكثير عن الشرط لأنهم اعتبروا أعمالهم تاديبية وتنفيذا لأوامر السلطة الحاكمة فإذا مرت في الأخبار كلمة «قبضوا» علي، وكثيرا جدا ما ثمر، أو سجنوا فلانا أو «جلدوا» أو «أعدموا» . . . فثمة دون شك مجموعات من الرجال تقوم بهذه الأعمال فليس معقول أن يقوم بها الوالي بنفسه أو القاضي بذاته. وإنما يقوم بها الجهاز التنفيذي الذي يقوم «صاحب الشرطة» أو «والي الشرطة»<sup>(٢)</sup> على رأسه. وقد صار لهذه المؤسسة مع الأيام تنظيماتها في المدن وسلطاتها ومراتبها ورزقها وسلاحها. وهي تظهر في أخبار العصر العباسي في بغداد كما تظهر في مصر وفي الأندلس.

ومن أخبارها في العصر العباسي أن القائد مؤنس وكان أمين بيت المال تولى في أوائل عهد المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ / ٩٠٨ - ٩٣٢) أمر العسس على رأس فرقة من ٩٠٠ رجل للمحافظة على الأمن الذي اضطرب يومذاك في بغداد، ونسمع عن صدامات العيارين والشطار والزعر وغيرهم برجال الشرطة حفاظا على الأمن. وكان ثمة فرق تشبه ذلك في المدن التي يرتفع شأنها بحيث تكون في حاجة إلى ذلك كالتالي تكون مقرا للولاية أو ممثليهم أو المدن المماثلة لها والتي تحتاج إلى سلطة تقرر الأمن على الأموال والأرواح فيها.

(١) مسجى الصالح : النظم الإسلامية ص ٣٣٣.

(٢) الحشني : قضاة قرطبة ص ٧٥ وص ٥٨ وص ٥٩.

ويظهر بجانب إسم «صاحب الشرطة» إسم صاحب المعونة، كما في المشرق وبغداد، وهو المسؤول عن الجرائم وتتبع أصحابها. كما كان في الأندلس يدعى بصاحب المدينة أو والي المدينة أو والي الشرطة، كما كان يسمى في تونس بالحاكم وفي مصر المملوكية بالوالي. والنتيجة واحدة هي إنه يتولى جميع الأمور المنافية للنظام العام من الجرائم حتى شرب الخمر أو القمار، ومن السرقات حتى خصومات الضرب في السوق. ويبدو من سلطاته أنه كان أكبر شأنا من الناحية العملية من القاضي، وكان له على الدوام سلطات أوسع. ذلك أنه كان حاكم المدينة ويدخل في سلطاته أن يتخذ الإجراءات لمجرد الشبهة، وأن يهدد أي إنسان بالعقاب حتى قبل أن تثبت عليه الجريمة بالدليل. وكان له أيضا تحقيق الجرائم التي تقع، وعقاب مقترفها، وملاحقة أصحاب الفساد، والعيارة والزعر وشاربي الخمر في الطرقات، والمعتدين على الناس. وفي هذه النواحي كانت سلطاته أوسع من سلطات القاضي والمحتسب معا لأنه كان يصدر أحكامه وفقا للمعرف «ولما يرى» في حين أنها كانا موكلين بالشرع وبالحدود التي يرسمها الدين. وكان مستطيعا أن يتصرف وفقا لما يرفع إليه من تقارير أعوانه الميثوثين في البلد تحت إمرته دون انتظار شكوى يقدمها إليه المعتدي عليه. وذلك على النقيض من القاضي الذي لا يتحرك إلا بدعوى من أحد الخصمين. وكان في استطاعته أن يجبس شخصا للشبهة في أمره وأن يعذبه حتى يكرهه على الإعراف (مع أن الإعراف المنتزع كرها باطل شرعا). وكان في استطاعته سماع الشهادات من أي من الناس (لا العدول فحسب كالقاضي) ويسمعها من أهل الذمة ومن غيرهم ممن لا تصح شهاداتهم عند القاضي. ثم كان يستطيع أخيرا أن يسمع الشكاوي من العدوان الذي يعاقب عليه بالحد أو ببعض الجزاءات المعنية<sup>(١)</sup>. وباعتبار أن الشرطة، في ناحية من النواحي،

(١) الموسوعة الإسلامية (الطبعة القديمة / الترجمة العربية) ج ١٣ ص ١٩٤.

من تواع القضااء والمرحلة الأولى الموصلة إليه كما أنها المرحلة الأخيرة من بعده في السجون؛ فقد كان صاحب الشرطة ينفذ العقوبات الزاجرة ويقوم بعمليات الضرب والتعذيب والتأديب والتجريس كما يتولى إقامة الحدود على الزنا وشرب الخمر وحفظ الآداب العامة والصحة العامة أيضا وغيرها من الأمور الشرعية التي يجلبون القاضي عن أن تطرح أمامه . كما يسهمون في معونة المحتسب على ما ينهي عنه من المنكر ويأمر به من المعروف فيراقبونه وينفذون أوامره وما يقترح من التأديب بالإضافة إلى معونة عمال الخراج والضرائب المختلفة العديدة على تحصيل الأموال . . . وعليهم قمع الفتن في المدن وإزالة أسبابها والقبض على معرضيها . والكشف عن أهدافهم منها ورفع التقارير بذلك إلى الوزير ولهم بالإضافة إلى ذلك كله إدارة السجون! هذه السلطات الواسعة وما يترتب عليها هي التي جعلت سمعة صاحب الشرطة ورجاله سيئة وجعلتهم «مشهورين بالقسوة وانعدام الضمير» والظلم . وجعلتهم وجه الحكومة البشع أمام العامة الذين يتوجهون بنقمهم عليهم عند كل فتنة أو فوضى في المدينة . لذلك كان أكثر ما يخضع لسلطات صاحب الشرطة هم أفراد الطبقة الدنيا والمشتبه أمرهم وأصحاب السمعة السيئة . وقد يكلفه الوالي البحث عن داعية سياسي أو رجل خطر أو صاحب زندقة . غير أنه رغم كل هذه السلطات لا يستطيع عصيان أمر القاضي إذا استدعاه وقد يقمعه القاضي أسواطاً - كما جرى في الأندلس - فلا يجروا على الشكوى منه .

ويبدو أنه كانت للشرطة والعسس علائم مميزة في المدن كما كانت لهم ، كالجيش ، رتبهم المعروفة ، فبعد صاحب الشرطة الذي كان منصبه سياسيا في الغالب يأتي :

— النقيب وهو يلي صاحب الشرطة ويبدو أن لقبه مأخوذ من التنقيب

عن الناس . وكان تحت يده أيام العباسيين مائة رجل من الشرطة<sup>(١)</sup> .

— العريف وهو يلي النقيب في المرتبة وله - على ما يبدو - عشرة من الرجال .

وكان رجال الشرطة يحملون آلة من السلاح تسمى الطبرزين وهي عبارة عن سكين طويل يحملونها معلقة في أوساطهم<sup>(٢)</sup> وقد يهرب أمامهم مجرم أو فار فكان يؤونه الناس ويهربونه<sup>(٣)</sup> وكانت لهم دوريات تطوف الطرقات طول الليل حتى الفجر<sup>(٤)</sup> وكان عليهم اغلاق أبواب المدينة في المساء وفتحها في الصباح وتقديم كشف بأسماء الداخلين والخارجين والطارقين إلى صاحب الشرطة .

وإذا كانت الشرطة واحدة في بغداد والمشرق فقد كانت مقسومة في الأندلس قسمين : الشرطة الصغرى والشرطة الكبرى . وفي حين لا يجاوز ممثل الشرطة الصغرى في تصرفاته الطبقات السفلى كان ممثل الشرطة الكبرى يستطيع اتخاذ الاجراء الذي يراه حتى ضد كبار عمال الدولة إن اقتروا إثماً .

وكانت شرطة مصر تقسم بدورها قسمين لكن لا على أساس طبقات الناس كما في الأندلس ولكن على الأساس الجغرافي . فحين فتح العرب مصر أنشئت الشرطة في الفسطاط ، وحين تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢ / ٧٥٠ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها اسم دار الشرطة العليا ، ولعلها أخذت هذا الاسم لأن موقع العسكر كان على جبل يشكر

(١) جرجي زيدان / التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) الهمداني - مقامات الهمداني (ط . بيروت ١٨٨٩) ص ١٧٠ .

(٣) التنوخي / الفرج بعد الشدة ج ١ ص ١٩ .

(٤) مقامات الهمداني ص ١٦٠ .

شمالى الفسطاط<sup>(١)</sup>. ولما فتح جوهر الصقلي مصر نقل الشرطة العليا من العسكر إلى القاهرة. وذكر ابن دقماق أن صاحب الشرطة توفي يوم دخول جوهر مصر فأسند عمله إلى خير بن القاسم وبقيت دار الشرطة السفلى في الفسطاط وتقلدها عروبة بن ابراهيم وشبل المعرضى ومنذ القرن الرابع / ١٠ م صار صاحب الشرطة في المدينة يعرف بالشحنة في الشام والعراق والمشرق. وكان زنكي مثلاً شحنة بغداد قبل ولايته على الموصل وحلب. كما كان لكل مدينة شحنة وقد استمر هذا الاسم لصاحب الشرطة في العهد المملوكي. وكانت الوظيفة تسمى بالشحنكية. وكان تحت يد نازوك شحنة بغداد أيام المقتدر في أوائل القرن الرابع أربعة عشر ألف فارس وراجل<sup>(٢)</sup>.

#### ٧ - السجون والعقوبات :

هي من متمات أعمال القاضي والشرطة ولذلك توجد بوجودهما وقد كان السجن زمن الرسول ﷺ يتم في بيت أو مسجد يمنع المتهم فيه من التصرف بنفسه على أن يقوم الخصم أو وكيله بملازمته وهو الذي يسمى الترسيم. ثم كان السجن زمن عمر بن الخطاب في المدينة أول الأمر حفرة مظلمة سجن فيها الخطيئة الشاعر وقال فيها : ألقى بي في جوف مظلمة . . . الخ

واحتاج المسلمون حتى في جيوش الفتح إلى سجون كالذي كان من سجن أبي محجن الثقفي وأغلالة قبل معركة القادسية ثم ابتاع عمر دارا كانت لصفوان بن أبي سفيان في مكة بأربعة آلاف درهم فجعلها سجناً.

(١) ابن ميسر / تاريخ مصر ص ٤٥ .

(٢) هلال الصابئ - رسوم دار الخلافة ص ٩ (من النص).

وجرت السنة على أن لا يجبس على الديون ولكن يتلازم الخصمان . وأول من حبس على الدين شريح القاضي .

على أن دخول العرب الأمصار جعلهم وجها لوجه أمام ضرورات مدنية الطابع ، كان منها ضرورة السجن في كل مصر لاسيما بعد أن تطورت الأمور واتسعت الدولة وكثر خصومها وصارت ثمة حاجة لتنظيم العقوبات . وكان الأمر هينا في المدن المفتوحة فقد استخدمت سجونها ، وأما الأمصار العربية التي بنيت فرعان ما ظهرت فيها سجونها في البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان . ويبدو أن أول من نظم ذلك كان معاوية بن أبي سفيان حتى قيل أنه أول من وضع السجن بمعناها المعروف ، وخصص الحرس لحراسة المسجونين وليس الأمر كذلك إلا إذا فهمنا من هذا الكلام أنه أول من نظمها في الإسلام . وكانت ضرورات تنظيم الدولة تقضي بذلك . وحين بنى المنصور بغداد كان من بين ما بناه فيها أول ما بنى «الحبس الأعظم الذي يسمى المطبق (وكان) وثيق البناء محكم السور . . .»<sup>(١)</sup> .

ويبدو أن السجن كان يسجن وهو مقيد فإن عمر بن عبدالعزيز كتب إلى عماله سنة ١٠٠ هـ / ٧٢٠ م . بأن لا يغل مسجون . كما يبدو أن الإنفاق على المساجين كان شحيحا ، ومن حساب الولاية . فكانوا يصنعون بعض الحاجات ويشترون بها ما يلزمهم . كما كانوا أحيانا يطلقون في الناس بالأغلال لطلب الصدقة . فإن أبا يوسف قاضي الرشيد يوصي في كتابه الخراج أنه إذا أخذ أهل الدعارة والفساد والتلصص في شيء من الجنايات وحبسوا فلا بد أن يجري عليهم من الصدقات أو من بيت المال ما يقوم بهم ويقوتهم . وأن يجري على كل منهم عشرة دراهم في الشهر تعطى للسجين في

(١) اليقوي - البلدان ص ٢٤٠ .



يده دفعا لظلم السجناء لهم أو حرمانه إياهم من طعامهم أو شراهم . ولا بد من كسوتهم في الشتاء قميصا وكساء ، وفي الصيف قميصا وأزارا ومقنعة وذلك إغناء لهم عن الخروج في السلاسل لطلب الصدقة<sup>(١)</sup> . وفي كلمة أبي يوسف دلائل على واقع السجناء في عهده .

وجاء في كتاب الوزراء أن الخليفة المعتضد العباسي ( ٢٧٩ - ٢٨٩ / ٨٩٢ - ٩٠٢ ) جعل في ميزانيته ألفا وخمسمائة دينار في الشهر لنفقات السجناء وأقوات المحبوسين<sup>(٢)</sup> . وهذا يعني أنه كان في السجناء ببغداد في أيامه حوالي ١٧ ألف سجين . وذكر القفطي في أخبار الحكماء أن الوزير علي بن عيسى خصص بعض الأطباء لزيارة السجناء كل يوم وعلاج المرضى من نزلاتها وإعطائهم ما يلزم من الأدوية والأشربة . ويبدو أن السجناء كانوا يعملون بعض الأعمال أو يتعلمون بعض الحرف والمصنوعات خلال سجنهم فإن ابن المعتز يقول :

تعلمت في السجن نسج التكك وكنت امرءا قبل حبسي ملك  
وقيدت بعد ركوب الجياد وما ذاك إلا بدور الفلك

وإذا سكت المؤرخون عن وصف السجن فإن فيما ذكره الأدباء والشعراء في عرض كتاباتهم وأشعارهم ما يدل على أنه كان في أنفاق تحت الأرض (مطامير) لا ترى النور . وأبو نواس يقول :

إذا ما أتى السجناء يوما لحاجة فرحنا وقلنا جاء هذا من الدنيا!

وقد بنى المعتضد سنة ٢٨٠ ضمن دار الخلافة سجونا عرفت بالمطامير ما لبث المكتفي (٢٨٩ - ٢٩٦) أن هدمها وأخرجها .

(١) أبو يوسف / كتاب الخراج ص ٨٨ .

(٢) هلال الصابي : كتاب الوزراء ص ٢١ .

ويبدو أنه لم يكن في بغداد سجن واحد ولكن أكثر من سجن إذا كان يراعى في توزيع السجناء مكانتهم الاجتماعية ونوع الجرم الذي يؤخذون به . فالعلويون «مثلاً» وكبار الثوار ومن يخشى خطرهم السياسي كان العباسيون يحتجزونهم في سجون «أبدية» كسجن المطبق ، وهو غير السجن التي يسجن بها المدنيون أو مرتكبو الجرائم أو السارقون وقطاع الطرق وقد تسمى سجون المعونة ، وكان مثل هذه السجون موجوداً في القاهرة وقرطبة . أما في المدن الأخرى فقد كان لكل منها سجن معونة أو سجنان كما في دمشق التي كان فيها سجن قديم كان داراً ليزيد بن أبي سفيان ، وحبس جديد وذلك في القرن السادس أيام ابن عساكر<sup>(١)</sup> . وألوف المرات التي تمر بها كلمة «وسجنه» في الأخبار تدل على وجود سجن على الأقل في المدينة سواء في المشرق أم في الأندلس . وقد نص الجغرافيون الرحالة على وجوده في بعض المدن مع دار الإمارة أو بعيداً عنها . وقد يكون في حصن المدينة (كما في حصن سعيد أباز بفارس) وقد يتخذ السجن في بعض الأبراج والقلع . أما في المدن الكبرى فكان السجن في بعض الأبنية أو الأقبية العميقة ولدينا نموذج لهذه السجون في ما ذكره المقرئزي<sup>(٢)</sup> عن سجون مصر والقاهرة حتى عهده . وكانت متعددة ومتنوعة مع الأيام والمكانة والدين :

— فهناك أولاً : حبس المعونة بمصر (الفسطاط) ، ويقال أيضاً دار المعونة وهو أقدمها وكان للجرائم ، وكانت الدار تعرف أولاً بالشرطة ومكانها قبلي جامع عمرو بن العاص . وأصلها خطة قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري بناها ثم وهبها للمسلمين . فصار ينزلها الولاة ثم عرفت بدار الفلفل أيام الوليد بن عبد الملك لأن أسامة بن زيد التنوخي ابتاع فلفلاً

(١) ابن عساكر / تاريخ مدينة دمشق (ط . المنجد) ج ٢ ص ١٣٠ وص ١٣٨ .

(٢) أنظر المقرئزي : خطط ج ٢ ص ١٨٧ - ١٨٩ .

لإهدائه إلى ملك الروم فحزن فيها، ثم صارت شرطة أيام المأمون سنة ٢١٣ إلى أن صارت سنة ٣٨١ حبسا يعرف بحبس المعونة على يد الخادم يانس العزيزي . وظلت كذلك حتى حولها صلاح الدين الأيوبي مدرسة عرفت بالشريفية .

– وثمة حبس المعونة في القاهرة وقد اتخذها الفاطميون فيها وكان يسجن فيه أرباب الجرائم والسراق وقطاع الطريق ونحوهم . وكان حبسا حرجا ضيقا شنيعا يشم من قربه رائحة كريهة . وقد هدمه الناصر محمد بن قلاوون وجعل مكانه قيسارية .

– وكان ثمة حبس الصيار وكان يحبس فيه الولاة أيام الأيوبيين وقد تخرب أيام المهاليك، وثمة خزانة البنود وكانت أيام الفاطميين الأوائل من خزائن القصر بالقاهرة يعمل فيها السلاح . ويقال أن الخليفة الظاهر أمر بها ثم أنها احترقت أيام الفوضى والمجاعة والشدة المستنصرية سنة ٤٦١ فعملت بعد حريقها سجنا واستمرت كذلك إلى أن حولها الناصر محمد بن قلاوون منزلا لأمرأء الفرنج . .

وقد استجدت في أيام المهاليك سجون أخرى ثلاثة :

– خزانة شمائل : وكانت بجوار باب زويلة وقد عرفت باسم والي القاهرة (أي صاحب شرطتها أيام الملك الكامل الأيوبي) : علم الدين شمائل . وكانت من أشنع السجون وأقبحها منظرا يحبس فيها من وجب عليه القتل أو القطع من السراق وقطاع الطريق، ومن يريد السلطان إهلاكه من المهاليك وأصحاب الجرائم العظيمة . فكان السجنان بها يوظف عليه والي القاهرة شيئا يحمله من المال له في كل يوم . وبلغ ذلك في أيام الناصر فرج مبلغا كبيرا وبقيت هذه الخزانة على ذلك حتى هدمها السلطان المؤيد شيخ محمودي سنة ٨١٨ وأدخلها في جملة ما هدمه من الدور لبناء مدرسة . . . .

— سجن المقشرة : وهو بجوار باب الفتوح كان يقشر فيه القمح ومن جعلته برج من أبراج السور. فلما هدمت خزانة شمائل عين هذا البرج والمقشرة لسجن أرباب الجرائم وهدمت الدور التي كانت هناك ونقل إليه أرباب الجرائم وهو من اشنع السجون وأضيقتها يقاسي فيه المسجونون من الغم والكرب مالا يوصف. فإننا لله من جميع بلائه . . .

— سجن الجب بقلعة الجبل : وكان يسجن فيه الأمراء (المهاليك). وابتدىء عمله سنة ٦٨١ والسلطان حينئذ الملك المنصور قلاوون ولم يزل إلى أن هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٩ وذلك أن شاد العمائر نزل إليه ليصلح عمارته فشاهد أمرا مهولا من الظلام وكثرة الوطاويط والرائحة الكريهة. واتفق مع ذلك أن الأمير بكتمر الساقى كان عنده شخص يسخر به ويمارحه فبعث به إلى الجب دلى فيه ثم أطلعه من بعد ما بات به ليلة. فلما حضر إلى بكتمر أخبره بما عاينه من شفاعة الجب وذكر ما فيه من القبائح المهولة وكان شاد العمائر في المجلس فوصف ما فيه الأمراء الذين بالجب من الشدائد فتحدث بكتمر مع السلطان في ذلك فأمر بإخراج الأمراء منه وردد وعمر فوقه - أطباق المهاليك . . . ويشبه سجن الجب هذا سجن الجب الآخر الذي كان في قلعة دمشق والذي سجن فيه ابن تيميه ومات فيه وكان تلاميذه يختلون إليه وهو فيه لسباع الدروس.

وقد ذكر المقرئ ذكرنا فقط سجنين آخرين لكنه لم يتحدث عنهما وهما حبس الديلم وحبس الرحبة.

كما ذكر سجن القضاة في مكان آخر<sup>(١)</sup> زلعه السجن الذي يقع تحت سلطتهم ويمكن أن نضيف إليهما سجوننا ملحقة. منها.

— سجن الاسكندرية : الذي كان يرسل إليه السلاحين المعزولون

(١) المقرئ : خطط ج ١ ص ٨٩.

والذي خير ابن تيمية أن يرسل إليه أو إلى دمشق .  
- سجون الكرك وصفد : التي كان يرسل إليها المغضوب عليهم من السلطان .

- منفى القدس : وهو نوع من الإقامة الجبرية للسلطين المعزولين .  
وعلى الرغم مما وصف من هذه السجون فإن المصير إليها كان شديد الصعوبة والقسوة، وقد ذكر المقرئزي ذلك قائلاً : وأما الحبس الذي هو الآن فإنه لا يجوز عند أحد من المسلمين . وذلك أنه يجمع الجمع الكثير في موضع ضيق يضيق عنهم، غير متمكنين من الضوء والصلاة، وقد يرى بعضهم عورة بعض ويؤذيهم الحر في الصيف والبرد في الشتاء، وربما يحبس أحدهم السنة وأكثر ولا جدة له . وأن أصل حبسه على ضمان .

وأما سجون الولاية فلا يوصف ما يحل بأهلها من البلاء . واشتهر أمرهم أنهم يخرجون مع الأعوان في الحديد حتى يشحذوا وهم يصرخون في الطرقات : الجوع ! فما تصدق عليهم به لا ينالهم منه إلا ما يدخل بطونهم وجميع ما يجتمع لهم من صدقات الناس يأخذه السجنان وأعوان الوالي . ومن لم يرضهم بالغوا في عقوبته . وهم مع ذلك يستعملون في الحفر وفي العمائر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة . والأعوان تستحثهم فإذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن في حديدتهم من غير أن يطعموا شيئاً . . . إلى غير ذلك مما لا يسمع حكايته هنا<sup>(١)</sup> . يضاف إلى هذا الحيف كله ما فرض من ضريبة أو مكس على السجناء منذ العهد الفاطمي فصار كل من يسجن ولو لحظة - واحدة - يدفع رسماً معيناً قدره ابن تغري بردي بمائة درهم وقدره المقرئزي بستة دراهم سوى كلف أخرى . . . لهذا كانت السجون تقبل (أي تضمن) . «وعلى هذه الجهة عدة مقطعين ويرغب فيها الضمان ويتزايدون في مبلغ ضمانها لكثرة ما يتحصل منها فإنه كان لو تخاصم رجل مع امرأته أو ابنه

(١) المقرئزي / خطط ج ١ ص ٨٩ .

رفعه الوالي إلى السجن فبمجرد ما يدخل السجن ولو لم يتم به لحظة واحدة أخذ منه المقرر وكذلك كان على سجن القضاة أيضا . . . (١). ويذكر المقريري أيضا أن السجنون في أيامه تبعت سلطات معينة بسبب تمييز القوانين الشرعية بين الحبس وهو تعويق الشخص عن التصرف بنفسه، وبين السجن وهو الاعتقال في مكان حرج ضيق. يضاف إلى ذلك تفاوت الجرائم والعقوبات واختصاص كل سلطة بنوع من الجرائم.

وعلى أي حال فإن السجن - فيما يبدو - كان أهون العقوبات فقد كانت ثمة سلسلة من المبتكرات التي لا تنتهي في الإهانة الإنسانية وقد عرفت لدى العباسيين والفاطميين كما عرفت العهد المملوكي وقد شهدتها جميع المدن :

- أخفها الضرب بالمقرعة أو بالسياط والمقرعة أخف وهو عقوبة معتادة بكل مكان. وقد ضرب معز الدولة البويهبي وزيره المهلب بالمقارع مائة وخمسين مقرعة براوح بينها فيوقف عنه الضرب ويوبخه ثم يعاوده. وقبل الرجل بعد ذلك أن يرجع إلى الوزارة.

- وأقسى من ضرب المقرعة والسوط التشهير أو التعزيز (أو التجريس) . . . وهي أن يطاف بالمدن على حمار أو ثور وقد يركب ووجهه نحو ذيل الحمار، وقد دهن بالأصباغ ويضرب الحرس على رأسه ويذفه المنادون في الطرقات ليجمعوا الناس حوله ويعرفوا ما فعل. وينتهي بالضرب بالسياط في بعض الميادين العامة. وهذا هو التعزيز الذي يسبق الضرب والسجن.

وقد يجري التشهير في موكب كبير للجماعة الكبيرة كما جرى في القاهرة

---

(١) المقريري / خطط ج ٢ ص ١٨٧.

سنة ٣٦٣ حين انتصر المعز على القرامطة «وظيف بأسارى القرامطة على الإبل بالبرانس وعدتهم ألف وثلاثمائة . مقدمهم مفلح المنجمي ببرنس كبير على جبل بثوب مشهر مكتوب على ظهره اسم وما عمل وخلفه جماعة من وجوه القرامطة وبين أيديهم الرؤوس على الحراب وعدتها آلاف . . . فلما فرغوا من الطواف اعتقلوا بالقاهرة»<sup>(١)</sup> .

وقد شهر الحسين بن حمدان ببغداد سنة ٣٠٣ / ٨١٥ وهو مصلوب على نقق وتحت كرسى فوق جبل ويدير النقق رجل فيدور الحسين يمينه ويسره وعليه دراعة ديباج سابعة قد غطت فلا يراه الناس<sup>(٢)</sup> .

— وثمة التشهير الذي يسبق الموت وكان يدخر في الشرق العباسي ولدى الفاطميين لكبار الشوار الذين يعتقلون ليأمرهم الناس أو للمجاهرين بعداء الدولة أو للزنادقة ردعا للناس . وكان أهل هذه العقوبة قد يوضعون في أقفاص على الدواب أو يشهرون ، فقد شهر الأفيشيين الناصر سنة ٢٢٣ على فيل مخضب ليأمره الناس قبل أن يدخل على المعتصم فيقطع يديه ثم رجله ثم يذبح ثم يصلب بعد أن يقطع رأسه فيرسل إلى خراسان لنصبه فيها ويصلب باقي جسده في سامراء . وقد يشهر هؤلاء على بغال أو حمل أو جمل ذى سنامين وهو الأحب<sup>(٣)</sup> . ويلبسون ثيابا خشنة (كما حدث للحسين بن حمدان وابنه حين عاد بهما مؤنس إلى بغداد) . أو برانس طوالا من اللبود وقمصانا من الشعر الأحمر أو يلبسون أحيانا أخرى دراعة ديباج وبرنس خنز طويل أو برنسا طويلا شج بشفا وجلجل أو برنسا بأذنان الثعالب أو برنسا ملونا من ملابس النساء . . . ويطاف بهم في المدينة قبل توقيع الموت .

(١) المغربي اتعاط ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) عريب : صلة تاريخ الطبري ص ٥٧ .

(٣) ابن الأثير : ج ٨ ص ٤٩ ، والمسعودي مروج ج ٨ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٩٨ ، عريب صلة تاريخ الطبري ص ٥٧ ، ٧٧ .

ومثل ذلك أوقعه الحاكم الفاطمي بابن أبي نجدة وكان بقالا فترقت  
أحواله حتى ولي الحسبة ودخل فيما لا يليق به واساء معاملة الناس فاعتقل ثم  
قطعت يده ولسانه . وشهر على جمل . ثم ضربت عنقه (١).

— التعذيب : وأقله الضرب بالسياط مائة أو مائتي جلده وتقوم بذلك  
الشرطة بأمر القاضي أو الحاكم أو دون أمره وهو الأغلب . فصاحب العسس  
أو الحرس له أن يسأل من يشتبه به وأن يضربه بالسوط والقلوس والمقارع  
والعصا على ظهره وقفاه وأسفل

— وثمة التشهير الذي يسبق الموت وكان يدخر في الشرق العباسي  
ولدى الفاطميين لكبار الشوار الذين يعتقلون ليراهم الناس أو للمجاهدين  
بعداء الدولة أو للزنادقة ردعا للناس . وكان أهل هذه العقوبة قد يوضعون  
في أقفاص على الدواب أو يشهرون ، فقد شهر الافشين الثالث سنة ٢٢٣ على  
فيل مخضب ليراه الناس قبل أن يدخل على المعتصم فيقطع يديه ثم رجله ثم  
يذبح ثم يصلب بعد ان يقطع رأسه فيرسل الى خراسان لنصبه فيها ويصلب  
بأقي جسده في سامراء . وقد يشهر هؤلاء على بغال أو جمل أو جمل ذي  
سنامين وهو الاحب (٢) . ويلبسون ثيابا خشنة (كما حدث للحسين بن حمدان  
وابنه حين عاد بهما مؤنس الى بغداد) . أو برانس طوالا من اللبود وقمصانا  
من الشعر الاحمر أو يلبسون احيانا أخرى دراعة ديباج ويرنس خز طويل أو  
برنسا طويلا بشفاشج وجلاجل أو برنسا باذئاب الثعالب أو برنسا ملونا من  
ملابس النساء . . . ويطاف بهم في المدينة قبل توقيع الموت .

(١) المقرئزي : اتعاظ الخنفاج ٢ ص ٤٣ .

(٢) عربي : صلة تاريخ الطبري ص ٥٧ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩ ، والمسعودي مروج ج ٨ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٩٨ ، عربي صلة  
تاريخ الطبري ص ٥٧ ، ٧٧ .



ومثل ذلك أوقعه الحاكم الفاطمي بابن أبي نجدة وكان بقالا فترقت أحواله حتى ولى الحسبة ودخل فيها لا يليق به وأساء معاملة الناس فاعتقل ثم قطعت يده ولسانه وشهر على جمل . ثم ضربت عنقه<sup>(١)</sup> .

— التعذيب : وأقله الضرب بالسياط مائة أو مائتي جلدة وتقوم بذلك الشرطة بأمر القاضي أو الحاكم أو دون أمره وهو الأغلب . فصاحب العس أو الحرس له أن يسأل من يشته به وإن يضربه بالسوط والقلوس والمقارع والعصا على ظهره وقفاه واسفل رجله وكعابه وعضله<sup>(٢)</sup> والمقرعة أقل إيذاء من السوط . ومن التعذيب : التعليق وكثيرا ما كان يقوم به أعوان جباة الضرائب فيعلق من يراد عقوبته من يده أو من رجله حتى يرضخ .

ومن صنوف التعذيب : ما أصاب الوزير حامد بن العباس الذي خلع من الوزارة فما زال خلفه في الوزارة ابن الفرات يلح على الخليفة حتى سلمه إياه . فكان يصفع ويضرب . وكان المحسن ابن الوزير الحديد يخرج إذا شرب فيلبسه جلد قرد له ذنب ويقيم من يرقصه ويصفعه ويشرب على ذلك . ويجري عليه أفاعيل قبيحة . . . لا يستجيزها ذو دين ولا عقل<sup>(٣)</sup> .

— انزال العقوبات الشرعية : وهي رجم الزاني وقلها يقع لصعوبة اثبات الزنا . وقطع يد السارق وقد جاءت عهود لم تنفذ فيها هذه العقوبة . وعلى أي حال فهما من أقسى العقوبات التي يتحرج القاضي لكل الحرج في الثبوت منها .

— تشويه أو تعطيل بعض الأعضاء كجدع الأنف وصلم الأذن ولعل

(١) المقرئبي : اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٤٣ .

(٢) المسعودي / مروج ج ٨ ص ١٥٤ .

(٣) عريب / صلة تاريخ الطبري ص ١١٢ .

اقصاها سمل الاعين، وقد قلد المسلمون في ذلك البيزنطيين ولكن على قلة وندرة. فقد جدع الخليفة سنة ٩٦٧/٣٥٧ أنف نائر خطر واكتفى بذلك. وكذلك فعل عضد الدولة البويهى سنة ٩٧٦/٣٦٦ بأبي الفتح بن العميد وزير أبيه، وأما السمل فكان يجري في حالات نادرة وكان أول من ذاقه الخليفة القادر الذي أخذ على أن يقر على نفسه بالخلع فرفض وأبى أن يحل الناس من بيعته فاستدعى احمد بن أبي الحسن الصايء وكحله سنة ٩٣٤/٣٢٢ بمسار محمى دفعتين<sup>(١)</sup>. وسالت عيناه على خده. ثم بلغ من فقره أن نزل المسجد الجامع يستجدي فادركه بعض الهاشميين وخصص له خمسمائة دينار. وكان الثاني هو المتقي سنة ٩٤٤/٣٣٣ بأمر القائد التركي توزون. فلما صاح المتقي من الألم صاح معه النساء والخدم فأمر توزون بضرب الدبابدب لاختفاء الصراخ<sup>(٢)</sup>. ثم سمل الخليفة الذي تلاه وهو المستكفي سنة ٣٣٤ وخلع ثم صار السمل أمرا معمولاً به في التاريخ البويهى حتى ما بعد سنة ٤٠٠.

وأما عقوبة الموت فكانت ألوانا ملونة منها التجويع: فقد بنى المعتصم للانشين سنة ٨٥١/٢٢٦ سجنا خاصا به في قصر الجوسق بسامراء مرتفعا شبيها بالمنارة جعل له في وسطها قدر مجلسه والحراس عليه وأمر بمنع الطعام عنه إلا رغيف خبز في اليوم حتى مات بعد قليل<sup>(٣)</sup>. ومن عقوبة الموت التعطيش فقد قبض على جماعة من الأعراب كانوا يسبقون الحجاج إلى الماء فيلقون فيه الحنظل حتى بلغ العطش منهم مبلغ الهلكة وهلك خمسة عشر ألفا فقبض عليهم بعد أن شهرروا وسجنوا، واجيع منهم جماعة واطعموا الملح ثم تركوا مقيدين على دجلة حتى ماتوا عطاشا وهم ينظرون الماء<sup>(٤)</sup>.

(١) مسكويه ج ٥ ص ٤٥٥ - ٤٥٦، وابن الأثير ج ٨ ص ٢١١.

(٢) المسعودي - مروج ج ٨ ص ٣٥١.

(٣) الطبري ج ٩ ص ١١٤.

(٤) متز - الحضارة ج ٢ ص ١٨٧ - ١٨٨.

ومن ذلك تقطيع الأوصال فقد وقع القرمطي الثائر بالشام صاحب الشامة في يدي الخليفة المكتفي سنة ٢٩١/٩٠٣ وكان يذبح الناس كالأغنام ، فشهره في بغداد ليراه الناس جميعا وأراد صلبه حيا على تعل ولكنه وضعه على كرسي فوق ظهر فيل وسيره مع الأسرى القرامطة على الجمال ثم نصبت دكة عالية وضربت أعناق الجميع واحدا بعد الآخر . وكانت ترمى اشلاؤهم من أعالي الدكة إلى الأرض . ثم قدم صاحب الشامة فقطعت يده ورجلاه واضرمت نار عظيمة فكان يؤخذ منها الخشب الموقد ويوضع في خواصره وبطنه . ثم ضربت عنقه ورفع رأسه فوق خشبة وكبر من كان على الدكة فكبر سائر الناس ثم حملت السرووس إلى الجسر وصلب جسد القرمطي . .

وفعل مثل ذلك الحاكم بأمر الله في القاهرة فقد قدموا عليه بأبي ركوة الثائر الذي استولى حتى على برقة ثم هزم وأسر سنة ٣٩٧/١٠٠٧ فأركبه جملا بسنامين والبس طرطورا وجعل خلفه قرد يصفعه والعساكر حوله ثم حمل إلى ظاهر القاهرة لتضرب عنقه فإذا هو ميت ويقولون أنه أحرق بالنار<sup>(١)</sup>.

وكان الموت قد يجري بصلب المرء حيا كما وقع للحسين الحلاج الصوفي المشهور . وقد يجري بتسخين طاسة من المعدن والباسها للمحكوم في رأسه ، أو بوضع الجعارين على الرأس وتغطيته بقمماش أحمر كما فعل الناصر محمد فلا تمضي ساعة إلا وقد خرقت الجعارين الرأس إلى الدماغ . أو يكون الموت بالإغراق في الماء كما فعل الحاكم بأمر الله ببعض خطاياهم وأمهات أولاده حين سمر عليهن الصناديق وهن أحياء والقاهن في النيل . أو بادخال

(١) المقرئزي / اتعاظ الحنفاج ٢ .

المعاقب في تنور محمى كما جرى لابن الزيات الوزير، أو بوضعه في الشمس الصيفية حتى يموت. وقد جرى ذلك لبعض الخلفاء. أو بسد منافذ جسده بالقطن ونفخه، أو بحقنه بالماء، أو دفنه وهو حي، كما فعل القاهر باسحق بن إسماعيل وأبي السرايا نصر بن أحمد، أو بالإلقاء بين أرجل الفيلة كما فعل عضد الدولة مع أحد وزرائه وصاحبه، أو بعصر الخصيتين حتى الموت أو بخلع بعض أضراس المذنب وأسنانه ودقها في رأسه، أو اجلسه على مقعد محمى بالنار. والغريب أنه قلما استعمل السم إلا في القتل السري. وكان العباسيون في المشرق يحتفظون برؤوس بعض من ينتصرون عليهم كما كانت الرؤوس تخزن في القاهرة في خزانة البنود. وكان المعتضد بن عباد في الأندلس يعرضها معلقة على جدران قصره في اشبيلية وعلى الشجر وهي مجففة ويسمى ذلك القصر بالمنتزه!

العقوبة بعد الموت: وكانت نوعا من شفاء الغليل على أنه - كما قال المتنبي - «ما لجرح يميت ايلام». وقد كان هذا نادرا. ولكنه وقع في العهد العباسي كما في العهد الفاطمي والأندلس - فإذا كان إحراق الجثث أو صلبها شهورا على أسوار المدينة أو جسورها المشهورة نوعا من العقوبة بعد الموت التي نجد عليها الأمثلة الكثيرة: جثة جعفر البرمكي، وبابل الخرمي فإن البشاعة وصلت حدها في جثة أبي بكر محمد بن أحمد النابلي وكان متعصبا لسنيته. ولما دخل الفاطميون فلسطين سنة ٣٥٨ هرب إلى دمشق واختفى لكنهم عثروا عليه فيها وسبق إلى المعز مع ابنه في قفصين من خشب. فقال له المعز: أنت القائل لو كان معي عشرة أسهم لرميت واحدا في الروم وتسعة في المغاربة؟ فقال كلا! ما هكذا قلت. ولكني قلت لو كان عندي عشرة أسهم لرميت تسعة في المغاربة والعاشر فيهم أيضا. وطيف بالرجل في القاهرة مع ابنه على الإبل بالبرانس والقيود وابن النابلسي بفرنس على جمل وهو مقيد والناس يسبونهم ويشتمونه ويجرون رجله من فوق الجمل. . . ثم سبق ابن

النابلسي إلى المنظر ليسلخ جلده . فلما علم بذلك رمى بنفسه على حجارة ليموت مرتين وأعيد واسرع به الى المنظر فسلخ . (ويقولون أن يهوديا قام بذلك وأشفق عليه فطعنه في قلبه ليموت) وحشى جلده تبنا ونصبت جثته وجلده على الخشب عند المنظر<sup>(١)</sup>.

## ٨ - دار الضرب والسياسة النقدية :

يكاد يعتبر وجود دار الضرب رابع الميزات التي تتميز بها المدن الإسلامية الرئيسية بعد الجامع ودار الإمارة والسوق . بل إنها تميز المدن - القصبات التي يستقر بها الحكام البارزون ، لأنها رمز قوة الدولة وهيبتها المادية مسكوكة في المدن . ولا تكون دور الضرب إلا تحت نظر السلطان المباشر ، ثم صارت تقبل أن تكون تحت نظر من يمثله . وكانت قيمة هذه المؤسسة في منتهى الأهمية في العهود الإسلامية بسبب الطابع المتطور جدا لاقتصادها . وفي الفترات التي كانت تجري فيها تبدلات في النقود كانت هذه الدور تستهلك وتخزن وتصدر كميات هائلة من المعدنين الثمينين الذهب والفضة ثم من النحاس .

ورث العرب المسلمون مع ما ورثوا عند الفتح دور الضرب في المدن البيزنطية والساسانية ولكنهم اكتفوا باستثمارها دون التدخل بشأنها واستمر ذلك حتى عهد عبد الملك بن مروان . انهم بالطبع يذكرون دراهم عمرية منسوبة لعمر بن الخطاب ودراهم لعثمان أخرى لعلي بن أبي طالب ولكن الشك يحوم حولها . ولئن ضربت فعلا فقد ضربت على الرسم الساساني نفسه . كما يذكرون دراهم ضربها زياد بن أبيه في البصرة والكوفة وهو أمر مشكوك فيه أيضا لأن العرب المسلمين لم يكونوا يملكون بعد الخبرة بالختلاط

(١) انظر المقرئزي - انعاظ الحنفا (ط . الشبال) القاهرة ١٩٦٧ ج ١ ص ٢١٠ - ٢١١ .

المعدنية والضرب . ولئن ضربت فإن شأنها شأن الدراهم السابقة الساسانية فلا شأن لها من وجهة النظر الاسلامية . ويبدو أنهم جميعا كانوا يقلدون النقود المتداولة بما في ذلك الدينار الذي ضربه معاوية بدمشق (وكان فيها بالطبع دار ضرب) وعليه رسمه متقلدا سيفا وجاء إليه شيخ من الجند فرماه به وقال : انا وجدنا ضربك شر ضرب . . . (١) لأنه بيزنطي ولكنه غير متقن التقليد .

وفي عهد عبدالله بن الزبير احتوت مكة دار ضرب للدراهم المدورة وقد نقش عليها الكلام بالحرف العربي، كما ضرب أخوه مصعب مثله دراهم بالعراق على النمط نفسه مما يدل على وجود دار للضرب في الأهواز . ويجب أن نتنظر حتى سنة ٧٤ وسنة ٧٥ من عهد عبدالملك بن مروان لدى الانقلاب الاقتصادي النقدي الجذري والهام في الدولة الاسلامية ولنرى الدينار العربي بعد عام الجماعة سنة ٧٩ (٢) . وأن نتنظر الحجاج لنرى الدرهم العربي، وهكذا نشأت داران للضرب واحدة في دمشق وعملتها ذهبية ووحدها الدينار، والأخرى في واسط من العراق وعملتها فضية ووحدها الدرهم . وكان هذا هو الفتح الاقتصادي الضخم الذي تحقق بعد نصف قرن تقريبا من الفتح العسكري لأنه وطد استقلالية الدولة الإسلامية بنزول نقدها الخاص إلى الأسواق . كانت مناجم الفضة في المشرق وأرمينية تمد الحجاج بحاجته من الفضة وأما عبدالملك فكان يجمع الذهب من المكنوز الذي نزل إلى التداول ومن النقد البيزنطي الملغى، كما أرسل بعثات إلى شرقي أفريقيا أقامت مستعمرات تقارب الخمسين جلب الذهب من زنج البانتو . . .

(١) المقرئبي / شذوذ العقود / ط . محمد بحر العلوم - النجف ١٩٦٧ / ص ٨ - ٩ .

(٢) ضرب عبدالملك بن مروان قبل ذلك دنانير على الطراز البيزنطي وفي المتاحف نسختان منها .

ويبدو أن دور الضرب الفضي تعددت في العراق ولعلها ظهرت في الكوفة والبصرة وغيرهما، وغيرت في عيار الدرهم كما ظهرت في مصر الفسطاط والاسكندرية تبعاً لادلال ولائهما من البيت الأموي وظهرت في القيروان وأخيراً في الأندلس بعد فتحها بسبب البعد الجغرافي وضروراته . فرأى هشام بن عبد الملك في سياسته المركزية أن يقلصها جميعاً ولعله تأثر في ذلك بالتقاليد البيزنطية فكان من ذلك أن طلب سنة ١٠٦ إلى خالد بن عبدالله القسري عامله على العراق أن يعيد العيار إلى وزن سبعة وأن يبطل السكك في كل بلدة الأواسط . ف ضرب الدراهم الخالدية الكبيرة . واستمر الأمر على ذلك حتى جاء مروان فعطل على ما يظهر داري الضرب في دمشق وواسط وأنشأ داراً في حران سك فيها الدرهم . وعلى الرغم من أن كلمتي دينار ودرهم أعجميتا الأصل فقد استمروا في العهد الأموي يستعملونها كما في العهد الجاهلي كوحدين للنقد واحدة فضية في المشرق (ترث النقد الساساني) وثانية ذهبية حول البحر المتوسط ترث النقد البيزنطي . ولم ينقش العهد الأموي على دنانيه أو دراهمه اسم الخليفة ولا مكان الضرب واكتفى بكلمة دينار أو درهم . ولما كان قد سك ربع دينار وثلثاً ونصفاً في دمشق والفسطاط والقيروان وقرطبة فقد اكتفى بكتابة هذا ربع ، هذا ثلث ، هذا نصف ولم يضرب الأمويون أضعافاً للدنانير ، ولا للدراهم . وكان عيار الدينار مرتفعاً دوماً لوفرة الذهب الذي تدفق مع الغنائم والفتوح وعودة المخزون للتداول . ويلاحظ أن ما سك من النقود في إفريقية (تونس) وفي الأندلس كان يحمل أولاً الكتابة اللاتينية ، ثم دخله الخط العربي بالتدريج . تدل على ذلك النماذج في المتاحف ، كما يلاحظ وجود دار ضرب للدينار قبل عهد هشام في مدين بالحجاز وقد كتب على الدينار : معدن أمير المؤمنين بالحجاز (ولعله معدن أي منجم بني سليم) وتاريخه سنة ١٠٥ ولعله استمر فإن لدينا ديناراً سك في مدين سنة ٢١٥ هـ .

وبالرغم من أن دار الضرب انتقلت مع أبي العباس السفاح الى الانبار، ومع أبي جعفر إلى الكوفة ثم إلى بغداد فقد استمر الضرب على حاله، إلا أن توسع الدولة الاقتصادي لم يكن يتوافق مع المركزية النقدية التي كان يشرف عليها الخليفة بنفسه وظل يشرف عليها بسبب شأنها الكبير في ثقة الناس بالدولة. ويبدو من اللقى التي وجدت أن العباسيين تساهلوا في أمر ضرب الدراهم فثمة مراكز عديدة في المشرق كالري (المحمدية) والأهواز ومرو كانت تسك فيها الدراهم، ولكن الدينار ظل «عملة» الخليفة وتحت رقابته. وهكذا ظلت بغداد مركزه في المشرق كله إلى أن ولي الهادي، فعند ذلك تظهر دنانير جرى سكها في مصر. كما يبدو أنه كان أول من عين متوليا لدار الضرب وعهد بها إلى وزيره علي بن ماهان، وأول من كتب أسماء بعض الأمراء على الدنانير. لكن عهده القصير انقطع بسرعة وجاء أخوه الرشيد فتخلى بين ما تخلى عنه من السلطات أول عهده عن دار الضرب وعهد بها إلى جعفر البرمكي «وكان الرشيد أول خليفة يترفع عن مباشرة العيار بنفسه (أو يتخلى عنه طائعا أو مهملا قيمته) وكان الخلفاء من قبله يتولون النظر في عيار الدراهم والدنانير بأنفسهم. وكان هذا مما نوه باسم جعفر البرمكي (فوضع اسمه على الدنانير) إذ هو شيء لم يتشرف به أحد قبله»<sup>(١)</sup> وابتكر جعفر دنانير سماها دنانير الصلة الكبيرة الحجم للصلة والأهداء في المناسبات وللتصديق، وقد وجدوا في داره يوم قتل بركة فيها أربعة آلاف من دنانير الذهب يزن الواحد منها مائة مثقال<sup>(٢)</sup>. وقد قلده في هذا الأمر بعد ذلك الأمين كما قلده الامير بجكم في خلافة الراضي ف ضرب دنانير يزن الواحد منها عدة مثاقيل، بل قلده ابن أبي ذهل الضبي الهروي في القرن الرابع الذي ضرب دنانير يزن الواحد منها مثقالا ونصف المثقال للصدقة أي ما يعادل ديناراً ونصف الدينار.

(١) المقريزي / شذور ص ١٩ .

(٢) الصايغ - الوزراء ص ١٩٢ .



وكانت دور الضرب في مدينة السلام والأحواز ومرو مختصة مع الدراهم بالدينار الذهبي ، وأما دور الضرب الأخرى في المشرق فكانت مستمرة في ضرب الدرهم في حين كانت مصر ودمشق ومدين والقيروان تطبع النقد الذهبي فقط والنحاسي .

وكانت حاجة الناس في الشام ومصر والمغرب والأندلس إلى النقد الصغير تؤمن عن طريق الفلوس النحاسية التي تسك في الإسكندرية منذ القديم وفي غيرها . كما كانوا أحيانا يعمدون إلى قرض قطعة من الدينار (وهذه هي القراضة) ، كما كانوا يفرغون أحيانا وسطه ويملؤونه نحاسا ويغشونه بالذهب (وهذه هي الفراغة) ، أو يقلدونه بالسك (وهذه هي الزيوف لأنها تهبط بعمار الذهب في الدينار وإلا لما زيّفوه) . وكانت دور الضرب تكتب اسم الدينار عليه وعلى أجزائه إلا فيما ندر كما تكتب دار الضرب بمدينة السلام مع بعض العبارات الإسلامية . وقد بدأت تظهر بعض الأسماء على الدينار (وهي أسماء ولاية مصر في الغالب) منذ عهد الهادي وجاء الرشيد فظهر على دينار (الذي لم يختلف في شيء عن الدينار الأموي) أسماء جعفر الوزير متولي دار الضرب مابين سنتي ١٧٦ - ١٨٦ وأسماء ولاية مصر ، ثم ظهر اسم الأمير محمد بن أمير المؤمنين (الأمين) بين سنتي ١٧٩ - ١٩٣ الذي قد يكون أبوه قد عهد إليه بالنظر في دار الضرب كما ظهر اسم الرشيد منذ سنة ١٩٠ حتى سنة ١٩٣ سنة وفاته .

وقد صير الرشيد مولاه السندي بن شاهك على دار الضرب لكنه لم يجرؤ على وضع اسمه على السكة لكنه ضبط العيار تماما في الذهب والفضة وأن نقصت الدنانير الهاشمية نصف حبة ثم ردت إلى وزنها . فلما كانت أيام الأمين صير دور الضرب إلى العباس بن الفضل بن الربيع فنقش اسمه عليها . ولما عهد الأمين إلى ابنه موسى بالخلافة ضرب الدنانير والدراهم باسمه وضرب دنانير كبيرة الحجم والوزن - على طريقة جعفر البرمكي -

ولكن وزن الدينار عشرة مثاقيل وذلك للصلة . .

وفي هذه الأثناء كانت الدولة الأغلبية قد بدأت في التكون الاستقلالي المحلي في افريقية وصارت دار الضرب فيها للأغلبية الذين سوف يسكون دينارهم تحت الشعار العباسي باسم الافريقي ، أما الاندلس فكانت قد انقطعت تماما وصار لها دينارها الخاص باسماء أمرائها ويسك في قرطبة وقد جعل يتغذى من الذهب السوداني الذي أخذ ينهال عليها وعلى الأغلبية على السواء .

وفي أثناء الخصومة بين الأمين والمأمون انشأ المأمون دارا للضرب في مرو وسك العملة لكنه اسقط اسم الأمين فلم تجز مسلوكاته مدة وسميت الرباعيات . وكان أول من ذكر مدينة الضرب على ديناره فبقي ذلك سنة متبعة من بعده . ونقش على الدينار نعته الذي اتخذه لنفسه وهو الإمام أو الإمام الخليفة ، ولدينا دنانير سكت هناك سنة ١٩٦ وبعضها يحمل كلمة الامام المأمون . كما استمرت مصر تصدر النقد باسم المأمون منذ سنة ١٩٨ وهذا يعني أنها والتت منذ قتل أخيه . ويبدو أن المأمون عهد بتولي دار الضرب إلى الفضل بن سهل ذي الرياستين كما عهد بها إلى الإمام علي الرضا الذي جعله ولي عهده فترة قصيرة لا تجاوز الستين فإن اسما الاثنین تظهر على دنانير المأمون كما يظهر اسم طاهر بن الحسين قائده بعد سنة ٢٠٠ وإلى سنة ٢٠٥ وهو الملقب بذي اليمينين . وكانت دنانير مصر تحمل أسماء ولائها محمد بن السري وأخيه عبيد الله بن السري والمنصور (وهو لقب منحه المأمون لعبدالله بن طاهر حين وجهه لمصر) واسم أبي اسحق (المعتصم) حين ولاء أخوه مصر .

واستمرت دور الضرب على تقاليدھا حتى أيام المعتصم وثبت منذ عهده كتابة اسم الخليفة ومدينة الضرب وستته على الدينار بصفة عامة سقوط

الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨/٦٥٦ . غير أن دارا جديدة للضرب ظهرت في صنعاء اليمن بعد قيام الدولة الزيادية هناك . ولكن الدينار الموجود يحمل اسم جعفر وهو ابن دينار بن عبدالله الخياط أمير اليمن سنة ٢٣١ . وبدأت بعد ذلك سنة أخرى هي ذكر اسم الخليفة وولي العهد على الدنانير . وبهذا النقش كانت دنانير المتوكل وابنه المعتز والمستعين وابنه العباس والمعتز وابنه عبدالله (الشاعر ابن المعتز) والمعتمد الذي ضرب في بغداد دنانير باسمه واسم ابنه المفوض الذي ولاه مصر والمغرب ثم خلع من ولاية العهد سنة ٢٧٩ واسقط اسمه من السكة كما ضرب الدنانير باسمه واسم أخيه الموفق طلحة الذي كان قد ابتلع سلطة الخليفة وظهرت هذه الدنانير مابين سنتي ٢٦٢ - ٢٧٣ . وضربها أيضا باسمه وباسم وزيره وقائده صاعد بن مخلد الذي يبدو أنه تقلد أيضا دار الضرب وتظهر دنانيره مابين سنتي ٢٦٧ - ٢٧٧ .

وكثر خلال هذه الفترة وتعددت مواضع دور الضرب مع ظهور الأمراء المحليين وقوتهم وتزايد الضعف في المركز كما كثرت أسماء الأمراء والقواد الذين يظهر أسماؤهم مع اسم الخليفة على الدينار وهكذا نجد دور الضرب في المدن التالية : مدينة السلام (بغداد) ، الفسطاط ، صنعاء ، العراق (وقد تعني واسط) والمحمدية (الري) مرو ، مصر (الفسطاط) المغرب (القيروان) البصرة وماه البصرة ، سمرقند ، الشاش ، سامراء ، المتوكلية ، اذربيجان ، الاحواز ، ثغر قزوين ، حران ، حلب ، الرافقة ، قرقيسيا ، قم ، الكوفة ، ماه الكوفة ، نجران ، واسط ، همدان ، اردبيل ، اصفهان ، تستر ، سوق الأهواز ، طبرية ، طرسوس ، فلسطين (الرملة) . عثر ، عين ، الكرخ ، دقوفا ، افريقيا (تونس) ، ردة ، سلطان آباد ، فره ، مدين ، المصيصة ، المعدن (بالحجاز) ، الموصل . هذا بالإضافة إلى المغرب (فاس) . ومراكش والأندلس (قرطبة) . واشبيلية وبعض عواصم ملوك الطوائف . وفي المتاحف

العالمية دنانير مسكوكة في هذه المواقع تستمر منذ سنة ٣٠٠ حتى نهاية العصر العباسي وسقوط الدولة .

على أن هذا لا يعني أن هذه المدن كانت المنفردة بوجود دور الضرب فيها ولكنه يعني فقط أن المتاحف وجدت نقودا مما ضرب فيها ولا شك أنه كان في المراكز المدنية - الادارية الأخرى دور ضرب تنتظر أن يعثر على بعض من نقدها كنيسابور وبخارى وزرنج والديبل واصفهان وشيراز وتبريز وهاوند وغيرها . وهكذا فلدينا نقود من الدولة الرسية في اليمن والحمدانية والبويهية في بغداد وفارس والجبال، ومن الدولة السامانية والعزنوية ومن سلاجقة فارس والعراق والروم ومن أمراء سجستان وأتابكة الموصل ثم الدولة الأيلخانية والجلالرية . ولدينا كذلك نقود سكها الطولونيون والأغالبة والأخشيديون (من أتباع العباسيين) والفاطميون ثم الأيوبيون والمماليك . وثمة نقود أيضا من عهد ملوك الطوائف كدولة ذي النون في طليطلة، ودولة بني عباد في اشبيلية وغيرها، كما أن ثمة نقودا من عهد المرابطين والموحدين والمرينيين في المغرب، ومن الزيريين والحماديين وبني عبد الواد في افريقيا . ونعني من ذلك كله أن دور الضرب في عواصم هذه الدول على الأقل وفي مدنها الكبرى كانت موجودة وأن ضرب الدنانير والدرهم والفلوس كان قائما وأن هذه الدور كانت عمد «الشرعية» والسلطة للحكام وأحد العوامل الأساسية في الاستقرار الاقتصادي لدولهم وواحدًا من أبرز الكواشف عن اختلالها وفقرها . ويرى بعض الباحثين<sup>(١)</sup> أن أماكن الضرب الإسلامية قاربت المائة والخمسين أو زادت عليها كما يظهر من اللقى ومن النقود الموجودة في المتاحف . يضاف إلى هذا أن ظهور اسم الخليفة أو الحاكم على النقد المسكوك كان يعطي الثقة بعياره لمن يتعاملون به من جهة كما يؤكد

(١) عباس العزاوي / تاريخ النقود العراقية (بغداد ١٩٥٧) ص ١٩ .

التبعية من جهة أخرى للخلافة وللحاكم باسمها في المدينة . فهي كالمخطبة أحد رموز التبعية السياسية . ولذلك سارع جوهر الصقلي حين احتل مصر للفاطميين سنة ٣٥٨ إلى ضرب الدينار المعزي ليحل محل دينار الراضي العباسي الذي كان شائعاً في مصر وملاً هذا الدينار بالمعاني الإسلامية إذ كتب عليه : دعا الإمام معه (المعز) لتوحيد الأحد الصمد . وتحت المعز لدين الله أمير المؤمنين ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . وكتب على الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين . وامتنع الوزير يعقوب بن كلس الوزير وعسلوج بن الحسن صاحب الخراج عن قبض الخراج إلا بالدينار المغربي المعزي فانحط صرف الراضي أكثر من ربع دينار . وكان صرف المعزي خمسة عشر درهما ونصف الدرهم .

ولو تابعنا دار الضرب بمصر كمثال على دور الضرب الإسلامية الأخرى لوجدنا أن الدينار كان يضرب أولاً في الفسطاط (مصر) فقط ، وأما الدراهم والفلوس فكانت تضرب في الاسكندرية واطريب والفيوم والفرما ونبروه . ولم يكن يكتب مكان السك على الدنانير حتى سنة ١٩٩ وإنما نعرفها من أسماء الولاية عليها مع اسم الخليفة . ثم إذا جاء العهد الطولوني في مصر والشام صار تحت أيدي الطولونيين مواضع أخرى للضرب في دمشق وطبرية والرملة وعكا ، وازداد الانتعاش الاقتصادي الذي عرفته دولة ابن طولون بسبب تدفق الذهب عليها من السودان ومن التجارة ومن المطالب وهذا ما جعل البلاد غنية بالذهب ، ولذلك أصدرت دور الضرب في مصر والاسكندرية والرملة وطبرية ودمشق الدنانير التي عرفت بالأحمدية (على اسم أحمد بن طولون) وقد تشدد في عيارها فصارت النقود المتين الذي لا يطلب أجود منه ولا يطلى بأجود منه . وانهارت البلاد بالمجاعات وتحرك الطريق التجاري بدلا من البحر الأحمر إلى البحرين والاحساء والبحر المتوسط مع

ظهور القرامطة فتوقفت دور الضرب في مصر وبقيت الرملة تصدر النقد حتى وصل الفاطميون مصر بذهب المعز المشهور فأبطلوا النقد العباسي وصارت دور الضرب تصدر الدينار المعزي زمنا. بعد أن أقاموا في مصر عددا من دور النقد.

ويجب أن نلاحظ أنه لم تكن دور الضرب تتأثر في عملها بالتطورات الاقتصادية بقدر تأثرها أكثر من ذلك بالتطورات الإدارية والسياسية. بمعنى أن التغير الإداري أو السياسي يجر إلى نقل ممثل الدولة منها أو إليها وتلحق به دار الضرب حيث استقر. ولو دققنا في قائمة دور الضرب التالية متى فتحت ومتى أغلقت في العهد الفاطمي لوجدنا ذلك واضحا كما وجدناه يعكس الأوضاع السياسية العامة:

المدينة	سنة الابتداء	سنة الانتهاء	المدينة	سنة الابتداء	سنة الانتهاء
الاسكندرية	١٠٧٦/٤٦٩	١١٦٠/٥٥٥	طبرية	٣٩٥	١١٦٧/٤٦٠
بعد أن أغلقت أواخر العهد الأخشيدي			طرابلس	٣٦٧	١٠٨٢/٤٧٥
ابنة	١١٢١/٥١٤	—	عقلاق	٥٠٧	—
تيه	١١٢١/٥١٤	—	عكا	٤٦٢	١١٠٢/٤٩٥
حلب	١٠٧٧/٤٢٩	١٠٥٢/٤٤٤	فلسطين (الرملة)	٣٥٩	٣٦٤
دمشق	هـ/٣٦٨	١٠٥٤/٤٤٦	القيروان	٣٠٣	٣٣٥
زويلة	١٠٢٢/٤١٤	—	مصر (الفسطاط)	٣٦١	١١٦٩/٥٦٤
صفلية	هـ/٣٤٣	١٠٦٣/٤٥٦	النصورية	٣٤١	١٠٦١/٤٥٤
صور	١٠٣٨/٤٣٠	١٠٩١/٤٨٤	المهدية	٣١٥	١٠٢٨/٤٢٠ <sup>(١)</sup>

(١) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٩١ نقلاً عن:

H. Lavoix, Cat. des Monnaies Musulmanes, P. 517-531.

فقد انقطعت القيروان عن أن تكون العاصمة سنة ٣٣٥ ليحل محلها المهديّة والمنصورية. وانقطعت عكا وطرابلس وصور عن الفاطميين بسبب احتلالها من الصليبيين في مطلع القرن السادس/١٢م. وانقطع الزيريون في إفريقية تونس في عهد الفاطميين منذ أواسط القرن الخامس فانقطعت دور ضربهم منها لتضرب للفاطميين وانقطعت بلاد الشام عن الفاطميين منذ أواسط القرن الخامس لتتابع بعد ذلك الضرب، في دور ضربها للسلاجقة. وكانت الأزمات الاقتصادية تؤثر على حركة هذه الدور أكثر من تأثيرها على وجودها. . . . فكانت تعطلها أو تزيد من أعمالها حسب التطورات السياسية النقدية فحين انتهى عهد الرخاء الذهبي المعزي عانت البلاد من ضائقة اقتصادية حادة ازدوجت مع انخفاض النيل والأوبئة فجاء الانهيار الاقتصادي في أواسط عهد الحاكم بأمر الله مع المجاعات والطواعين وأثر ذلك كله على قيمة الدينار فعلا ثمنه لقلته حتى صار سنة ٣٩٩ كل أربعة وثلاثين درهماً بدينار. فاضطربت أمور الناس. فأنزل الحاكم من دار الضرب بالقصر عشرين صندوقاً فيها دراهم جدد فرقت في الصيارفة. وقرىء سجل بمنع المعاملة بالدرهم الأولى. وترك من في يده شيء منها ثلاثة أيام وأن يورد جميع ما يتحصل منها إلى دار الضرب. فاضطربت الناس وصارت كل أربعة دراهم بدرهم جديد، وتقرر أمر الدرهم الجدد على ثمانية عشر درهماً بدينار<sup>(١)</sup>. وقد عادت السكة الفاطمية فانهارت أكثر من مرة وخاصة أيام الشدة المستنصرية وتوقفت فيها دور الضرب فترة حتى فتحها الأفضل الجهمالي الوزير قبيل أواخر القرن الخامس/١١م ثم انتعشت التجارة عبر البحر الأحمر أثر احتلال الفرنجة لسواحل الشام فاضيفت دار الضرب الأمرية في القاهرة سنة ٥١٦ أيام الخليفة الأمر ودار الضرب في قوص إلى دور الضرب الأخرى.

(١) المقرئبي / شذورج ص ٢٧ - ٢٨.

وحيث أزال صلاح الدين الدولة الفاطمية سنة ١١٧٣/٥٦٩ عادت دور الضرب في القاهرة إلى سك العملة باسم المستضيء العباسي وباسم نور الدين محمود بن زنكي فنقش اسم كل منهما في وجه من الدينار ولكن اضطراب الأحوال في أواخر الدولة الفاطمية وتناحر الوزراء والجيش على الحكم ثم تسابق الصليبيين ونور الدين على امتلاك مصر والمؤامرات التي استهل بها عهد صلاح الدين وتكاليف الحروب مع الفرنجة كل ذلك جعل الاختزان يكثر والمعادن الثمينة تقل بين أيدي الناس فالغى صلاح الدين كل دور الضرب في مصر واقتصر فيها على دارين رئيسيتين هما: دار الضرب في القاهرة والدار الأخرى بالاسكندرية.

وما لبثت أن «عمت بلوى المصارفة بأهل مصر . الذهب والفضة خرجا وما رجعا وعندما فلم يوجد، ولهج الناس بما غمهم من ذلك وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الغيور له وإن حصل في يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له . ومقدار ما يتحدث أنه خرج من القصر (الفاطمي في القاهرة) ما بين دينار ودرهم ومصاغ جواهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح مالا يفي به ملك الأكاسرة ولا يتصوره الخواطر ولا تشتمل على نياله الممالك ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حساب الخلق في الآخرة . نقلت هذا بنصه من خط القاضي الفاضل عبد الرحيم رحمه الله . . .»<sup>(١)</sup>.

وعند ذلك أمر صلاح الدين سنة ١١٨٧/٥٨٣ بأن تبطل نقود مصر (والشام) وضرب الدينار ذهباً مصرياً قليل العيار وأبطل الدرهم الأسود وضرب الدراهم الناصرية وجعلها من فضة خالصة ومن نحاس نصفين بالسواء . . . فاستمر الأمر على ذلك حتى أبطل الملك الكامل محمد الدرهم الناصري سنة ١٢٢٢/٦٢٢ وأمر بضرب دراهم مستديرة وأمر ألا يتعامل

(١) المقرئبي / شذورج ص ٢٧ - ٢٨ .



الناس بالدرهم العتق وهي التي كانت تعرف في مصر والاسكندرية والشام بالورق. وجعل الدرهم الكامل ثلاثة أثلاث ثلثاه من فضة خالصة وثلث من نحاس. . . . فاستمر هذا الدرهم أساس الضرب والتعامل حتى مطالع العهد المملوكي إذ أصدر الملك الظاهر بيبرس دراهم ظاهرية وجعل كل مائة درهم من سبعين فضة خالصة وثلاثين نحاسا، وجعل رنكة (رمزه الخاص) على الدرهم وهو صورة سبع. فلم تزل الدراهم الكاملة والظاهرية (وهي متقاربة العيار) بديار مصر والشام إلى أن فسدت سنة ١٣٧٩/٧٨١ بدخول الدراهم الحموية فكثرت عنيت الناس فيها أيام برقوق قبل سلطنته. فلما تسلطن أقام الأمير محمد بن علي استادا را (أي مسؤولا عن دار الضرب) فأكثر من ضرب الفلوس النحاسية. وأبطل الدراهم فتناقصت حتى صارت عرضا ينادي عليه في الأسواق بحراج حراج<sup>(١)</sup>.

ويتابع المقرئ قائلًا: وغلبت الفلوس إلى أن أقدم الملك المؤيد (شيخ عز نصره) من دمشق في رمضان سنة ٨١٧ بعد قتل الأمير نوروز الحافظي نائب دمشق فوصل مع العسكر وأتباعهم شيء كثير من الدراهم البندقية والدراهم النوروزية فتعامل الناس بها وحسن موقعها لبعده العهد بالدراهم «وضرب المؤيد الدراهم المؤيدية ونودي في القاهرة بالتعامل بها تلك السنة. أما الفلوس فكانت تضرب دون انقطاع في جميع دور الضرب ولكن لا يشتري بها شيء من الأمور الجليلة وإنما هي لنفقات الدور، واستكثر محمود بن علي استادار الملك الظاهر برقوق من الفلوس وصارت الفرنج تحمل النحاس الأحمر رغبة في فائدته التجارية واستمر الضرب في الفلوس عدة أعوام والفرنج تأخذ ما بمصر من الدراهم إلى بلادهم وأهل البلد تسبكه لطلب الفائدة حتى عزت وكادت تنفذ. وراجت الفلوس

(١) المقرئ / المصدر السابق ص ٣٠ - ٣١.

رواجا عظيما حتى نسبت إليها سائر المبيعات وصار يقال: كل دينار بكذا من الفلوس... (١).

وهكذا جرى تدهور النقد في مصر والشام ما بين العهد الفاطمي وأواخر العهد المملوكي من الذهب إلى الفضة ثم الفضة المخلوطة بالنحاس إلى أن انتهى إلى النحاس فكان عملية الناس والعامّة. ونسأل عن الدنانير الذهبية والدراهم لنجد أن العملة الذهبية قد تعرضت للتلاعب في العيار والتغيير في الوزن والتبديل في الحجم مما جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين بها واكتسحتها الدوكات التي سكتها البندقية منذ أوائل القرن الثالث عشر فصار التعامل التجاري بها في مصر والشام والبلاد الإسلامية الأخرى. وقد حاول السلطان فرج بن برقوق أن يقف لهذه الدوكات فسك دنانير على زنتها ثابتة الوزن والعيار وقد عرفت بالدنانير الناصرية وكثر وجودها وعم استعمالها في مصر والشام لكن دور الضرب أصدرتها أقل من الدوكة بعشرة دراهم فظل صرف الذهب لا يثبت على حال بل يعلو تارة ويهبط أخرى ما تقتضيه الحال. وانحطت قيمة الدينار الناصري بسبب نقص ذهبه عن الدينار البندقي. الذي ظل مسيطرا.

أما الدراهم التي بدأت في العهد المملوكي وثلاثها من الفضة فإنها بدورها تعرضت للفساد قبل أواخر القرن الثامن/ ١٤م، وعلى التحديد منذ سنة ١٣٧٩/٧٨١ حين انتشرت الدراهم الحموية التي ضربها المماليك في حجة لكن هذه الدراهم ما لبثت أن فقدت ثقة الناس بزيادة نسبة النحاس فيها إلى الثلثين مما قلل الاقبال عليها.

حتى الفلوس النحاسية لم تنج من الفساد، ويروي القلقشندي أن السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون أمر بضرب فلوس جديدة زنة كل

(١) المقرئزي، المصدر نفسه ص ٣٩.

فلس مثقال فصار التعامل بها . ولكنها تعرضت للتبديل ولنقص الوزن . فصار سعرها يختلف ما بين الرطل بستة دراهم إلى اثني عشر درهما إلى درهمين ونصف الدرهم . وكان السلطان هو الذي يحدد السعر حتى عاد الناس يتعاملون بنظام المقايضة البدائي حتى في التجارة الخارجية فكان الحمل الاسكندراني من الفلفل يشتري بسلع متعددة كالفضة وقوالب النحاس وسبائك القصدير والرصاص والصابون والشمع والمصطكى وقد يقايض عليه بقنطار من المأكولات كالزيت والعسل والسكر واللوز والبندق والفواكه!

بقي أن نعرف أن دور الضرب الإسلامية بعد أن كانت تحت اشراف الخلفاء صارت تحت اشراف الوزراء ثم تحت اشراف القضاة فكانت بعض مهامهم في المدن التي توجد فيها بوصفها عملا شرعيا دينيا ولكن لا عمل لهؤلاء القضاة يجاوز هذا الاشراف على صحة العيار والوزن وأما ادارة دار الضرب فكان يتولاها: «متولي» هذه الدار ونعرف من هؤلاء في العهد الاخشيدي بمصر صدقة بن الحسن<sup>(١)</sup> كما نعرف أن الحسن بن زرعة الدمشقي كانت إليه دار الضرب حين تولى القضاء بمصر سنة ٣٢٤ أيام الاخشيد . وقد استمر اشراف أكبر الرؤوس في القضاة على دور الضرب في كثير من البلدان الإسلامية بوصف العمل ضمانة شرعية . أما متولي دار الضرب فكان الرئيس الإداري للدار وله سلطته المباشرة على عمالها الذين يتكفون كما قال ابن بصرة في كتابه (كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية) الذي كتبه في العهد الأيوبي من :

المشارف : وهو الذي يحفظ جميع الجواهر من فضة وذهب وسكك (قوالب) وعدد وغيرها وآلات وصنح العيار وختم الأقداح وختم الاتون

(١) ابن سعيد . المغرب (تحقيق زكي حسن) ص ١٨١ .

وتحرير وزن عياري الذهب والفضة والمقابلة بالحساب وخطه بذلك .

الشاهد: وهو الذي يشهد على جميع من حوت الدار بما عاينه من أعمالهم ومباشرته إياهم ومقابلته على الحساب وخطه بذلك عليه .

أما من الناحية الفنية فهناك :

المقدم: وهو الموظف الرئيسي في الدار لأن من أعماله حفظ العيار والوزن في كل ما يصدر إلى الدار أو يرد إليها . وقيد ذلك . ومعرفة ما في الأتون وحفظ العملة المضروبة من التزييف .

النقاش: ومهمته نقش الأقداس أي القوالب الأم .

السباك: واختصاصه وزن المعادن وضبط عيارها قبل القائها في البوتقة .

الضراب: وهو الذي يضرب السكة: ويصبها في القالب والختم ثم جلاء السكة .

وتتقاضى دار الضرب نسبة قدرها واحد بالمائة من قيمة السبائك التي يأتي بها الناس للضرب بوصف ذلك أجرة لعمال الدار وثمنا للحطب .

## ٩ - البريد:

وهو نظام قديم للاتصال بين المدن ولكن لمصلحة الحكام وضمان معرفتهم باخبار المدن الأخرى أولا بأول .

«والكلمة آتية من الكلمة اللاتينية Veredus وتعني دابة البريد ثم ناقل البريد ثم اطلقت آخر الأمر على المسافة بين محطة ومحطة منه وهي تقدر بفرسخين في فارس وأربعة فراسخ في المغرب والأندلس والفرسخ في الحاليين

ثلاثة أميال»<sup>(١)</sup>. ونظام البريد يقوم على وجود دواب في محطات معينة وسعاة يسعون بينها لسرعة وصول الأخبار وقد استخدمه البيزنطيون والساسانيون وورثه النظام الإسلامي «وعني به أول من عني معاوية ثم عمه عبد الملك ابن مروان وانتفع به الوليد فيما يتصل بمنشأته وبني عمر بن عبدالعزيز خانات للبريد على طريق خراسان»<sup>(٢)</sup> كما استخدمه خلفاء الأمويين جميعا والعباسيين من بعدهم منذ أيام المنصور. ولما جاء الرشيد نظمه له يحيى البرمكي محطات ودوابا وسعاة وطرقا.

على أن هذا البريد كان مخصصا أساسا لحمل الأخبار من مختلف المدن إلى العاصمة فهو بريد حكومي فقط. وصاحب البريد في مركز كل ولاية شخصية ذات شأن كبير وينزل المنزلة الثالثة بعد الوالي والعامل والقاضي وكان يحمل العمال أحيانا والفرق الصغيرة من الجند إلى الأقاليم كما قد يحمل بعض الأمتعة والهدايا إلى رأس الدولة. لأنه عين الخليفة فيها وصاحب الاتصال المباشر به. وكان المنصور يطلب من صاحب البريد أن يكتب إليه بكل صغيرة وكبيرة حتى أخبار القضاة وأسعار الأغذية في ارتفاعها وهبوطها. فهو عمليا ضابط المركزية في الدولة ويضعف شأنه كلما ضعف المركز. وقد ذكروا من اهمال الرشيد لأمر الدولة أنه مات ولديه بريد كثير لم يفض. . . . .  
وحيث انقطعت الاندلس صار لها بريدها الخاص كما ظل البريد محدودا بين الأغالبة وبغداد ولكنه كان بين مدن المشرق والشام ومصر هو الرابطة بينها وبين بغداد وكان للبريد دوره الخاص أيام الفتن والثورات كما جرى في ثورة بابك الخرمي في الجبال إذ كان البريد لا ينقطع عن المعتصم. وحين استطال الفاطميون أول القرن الرابع على مصر انقضت الخليفة المقتدر مؤنسا الخادم

(١) الموسوعة الإسلامية (الطبعة العربية) مادة بريد ج ٣ ص ٦٠٩.

(٢) المصدر نفسه.

مع العساكر إلى مصر وتقدم الوزير علي بن عيسى بترتيب الجيومات (النوق البلخية السريعة) من مصر إلى بغداد. ومن المرجح أن الجيومات حلت محل الخيل في القرن الرابع لكنها على أي حال لم تلغ البريد وظهر في هذا العصر السعاة الراكضون وكان بعضهم يقطع المسافات الطويلة. فحين احتاج معز الدولة أن يكون على اتصال دائم مع أخيه ركن الدولة أحدث السعاة واعطاهم الجرايات الكثيرة حتى تهافت شباب بغداد والفقراء على هذه الحرفة وبرز بعضهم فيها حتى كان يقطع الأربعين فرسخا (١٨٠ كم) في النهار الواحد. واشتهر منهم فتيان صارا من الأبطال الشعبيين هما: فضل ومرعوش وكانت المسافات تقدر في المشرق والعراق بالفرسخ وفي غرب الفرات حتى الأندلس بالميل.

وقد كتبت الكتب الجغرافية اولى (كاليقوبي وابن رسته والاصطخري) وهي تستمد معلوماتها الثمينة عن الطرق والمسافات من تقارير البريد. وعلى الرغم من أن عصر الفوضى العسكرية بعد المتوكل قد عاقت سيره بانتظام إلا أنه لم تلغه. وكان قطع البريد عن الخليفة يعني استقلال الأمير في ولايته والخصام معه (كما فعل البويهيون أيام ثورتهم مع بغداد). وقد استفاد ابن طولون كثيرا من عامل بريده في العاصمة بغداد في معرفة ما يجري بها من المؤامرات ضده أولا بأول. فكان يخلط لقيام دولته المنقطعة على أساس التقارير الواردة. ولما وقع الخلاف بينه وبين الموفق (أخي الخليفة) كان عامل البريد هو الذي أخبر ابن طولون بعزمهم على صرفه فأسفد التدبير. وعمال البريد هم الذين أعانوا على نقل قطر الندى بجهازها الضخم الثمين من دمشق إلى بغداد، بعد أن بني لها قصر على رأس كل رحلة. ولم ينقطع البريد ولعله بالعكس كان ينظم بين فترة وأخرى حسب الظروف السياسية بين المدن الإسلامية وحكامها. ولكن انضاف إليه مع الأيام وسائل أخرى للاتصال لعبت دورها في الأزمات الحربية خاصة:

١ - الإشارة بالنيران في الليل ، والدخان في النهار لا يصل الأخبار من مدينة إلى أخرى ضمن رموز معينة . وهي وسيلة كانت تستعمل في العهد البيزنطي في منطقة البحر المتوسط ولها المنارات الخاصة على الساحل وظلت تستعمل هناك فلم يصطنعها المشرق . ويبدو أنها استخدمت بشكل واسع من القرنين الثالث والرابع على الشاطيء الأفريقي . ويقولون أن الأخبار كانت تصل من سبته إلى الاسكندرية في ليلة واحدة ومن طرابلس إلى الاسكندرية في ثلاث ساعات أو أربع ولم ينقطع هذا الخط الذي استخدمه الفاطميون إلا حين انقطعت افريقية عنهم سنة ٤٤٠/١٠٤٨ بانفصال الزيريين . ثم بعدم تمكنهم من تنظيم هذه الخطوط بعد أن اطلقوا بني هلال على المغرب .

٢ - الحمام الزاجل : وقد تأخر استخدامه لدى المسلمين حتى القرن الرابع حيث تكثر أخباره استخدامه في العراق فلما استخدم حامد بن العباس للوزارة وهو في البصرة سنة ٣٠٤/٩١٦ كتب إليه على عدة أطيار بالخروج في يومه إلى بغداد<sup>(١)</sup> للقدوم على الخليفة . وقد وصل الخبر إلى القرامطة بذلك قبل وصوله إلى البصرة بأربعة أيام ، أتاهم على جناح طائر وحين اقترب القرامطة من بغداد تحرق الخليفة على معرفة أخبارهم فاطلق الوزير ابن مقلة أطيارا إلى الأنبار تحمل أخبارهم واحدا بعد الآخر . وحين اشتد خطرهم في هذه السنة نفسها سنة ٣١١/٩٢٣ بقيادة الفتي أبي طاهر القرمطي رتب الوزير علي بن عيسى بين بغداد ومواضعهم وسلم مائة طائر إلى مائة رجل يكتبون على أجنحتها الأخبار كل ساعة . . . وذكر الثعالبي أن رسائل الحمام الزاجل كانت تصل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الأطيار في يوم وليلة وكان لدى الوجيه الكوفي محمد

(١) الصابي : كتاب الوزراء ص ٣٣ .

بن أبي الحسن الشريف طيور تأتيه باخبار بغداد أو تذهب بها في ساعة واحدة<sup>(٢)</sup>.

على أن الذين عنوا بالحمام الزاجل هم الفاطميون فقد اهتموا به كوسيلة من وسائل الاتصال السريع الأساسية وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون وبالغوا حتى افردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام<sup>(٣)</sup> وذلك نتيجة رغبتهم في تدعيم النظام المركزي بأيديهم. وقد استخدم الفاطميون الحمام لحمل الرسائل المقتضبة وقد يحملونه بعض اللطائف والهدايا الخفيفة كالذي ذكر من أن الخليفة العزيز الفاطمي ذكر لوزيره يعقوب بن كلث أن ما رأى القراصية البعلبكية في حياته ويجب أن يراها. فكتب الوزير بالحمام الطائر إلى دمشق أن يرسل إليه مع كل طائر حبتان من القراصية إلى مصر فاجتمع له منه طبق قدمه إلى الخليفة العزيز وكان ذلك من أغرب الغرائب<sup>(٤)</sup>.

وقد لعب البريد، بالحمام الزاجل والإشارات وبالجمال على السواء دوره في فترة الحروب الصليبية، واستخدمه الأتابكة الزنكيون كما استخدمه من بعد ذلك الأيوبيون. كما استخدمته شجرة الدر في استدعاء ملك مصر الأيوبي (طورانشاه) من الجزيرة في الشام إلى دمياط حين توفي أبوه لينقذ الموقف ضد الفرنجة الغزاة. وكانت إعادة تنظيم البريد من أهم الوسائل التي توسل بها الظاهر بيبرس في ربط أجزاء الدولة بحاضرتها حين بدأ توحيد القوى الإسلامية لطرد الفرنجة. وقد أعاد سنة ٦٥٩/١٢٦١ (بعد ثلاث سنوات من سقوط بغداد بأيدي المغول) ترتيب البريد وأقام غلمانا وخبولا

(١) متر: الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٤٢٣ - ٤٢٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣٩٠.

(٣) القلقشندي، المصدر السابق ج ١٤، ص ٣٩١.



للبريد على مراحل معينة في سائر الطرقات الهامة في السلطنة وتكونت نتيجة لذلك شبكة هامة من الطرق تتفرع من قلعة الجبل بالقاهرة إلى قوص وعيذاب ودمياط وغزة والكرك وطبرية ودمشق ثم حمص وحلب ودمشق وطرابلس وانطاكية (بعد فتحهما) وصفد والقدس . وعلى امتداد الطرق بين هذه المدن اقيمت محطات متقاربة تزود سعاة البريد بالخيل المستعدة وبما يحتاجون من طعام وعلف وماء وماوى . . . لكن البريد ظل كما كان رسمياً حكومياً لكنه نظم حيث يرسل بانتظام من المركز (القاهرة) إلى المدن الأخرى وبالعكس مرتين كل أسبوع . وكان ناقل البريد يراعى بحيث يكون أمين الأداء جدا (إن كانت الرسالة شفوية) وكان يسير من القاهرة إلى دمشق في أربعة أيام وأحيانا في ثلاثة ويصل حلب في أيام قليلة لا تزيد على الخمسة . وكان البريد يستخدم أحيانا كثيرة بين دمشق والقاهرة لحمل الثلج إلى السلاطين من جبل الشيخ .

وعنى المماليك بالحمام الزاجل ، ضمن اهتماماتهم بمركزية الدولة ، واستراتيجتهم بكل فتنة في الشام أو حركة في القاهرة . وقد نظم مسيره أيضا الظاهر بيبرس فجعل على قلعة الجبل المركز الرئيسي لأبراجه ولم تكن ترسل عليه إلا الرسائل الهامة وهي مقتضبة كالبرقيات وتوضع في جناح الحمامة أو ذيلها بطرق خاصة فإذا كان الخبر هاما أرسل في نسختين مع حمامتين . وشيدت للحمام أبراج على الطرقات عليها موظفون مدربون لنقل الرسالة من حمامة إلى أخرى .

هذه الشبكة من وسائل الاتصال كانت النسيج الذي يجمع اجزاء الممالك الإسلامية ويربط بين مدنها دون انقطاع من الوجهة الرسمية الحكومية على الأقل . وكان الأفراد يستفيدون من محطات البريد وخاناته على الطرق في انتقالهم من مدينة إلى أخرى .

(١) المصدر السابق نفسه ج ١٤ ص ٣٩١ .

## الفصل الرابع عشر

### المرافق والخدمات العامة

ليست المدينة بيوتا متراصة وسكانا يتكاتفون وسلطة تنظم العلاقات ولكنها تستمد استمراريتها الحياتية أيضا من مجموعة المرافق والخدمات العامة التي تتوفر فيها والتي قد تكون، من وجهة النظر السكانية، أهم ما فيها. وتتنوع هذه المرافق والخدمات بتنوع الحاجات البشرية وهي رغم كثرتها يمكن أن تصنف في أربع مجموعات أساسية: الخدمات الصحية والدينية والثقافية، والخدمات العامة، على أن يظل في اعتبارنا أن فيها جميعا ظلا كبيرا أو صغيرا من التدين ومما يأمر به الدين الحنيف.

#### ١ - الخدمات الصحية

وأهم هذه الخدمات التي تميز المدينة الإسلامية هي: الماء والحمام والمستشفى والنظافة العامة.

#### ١ - مشكلة المياه في المدينة:

كان العالم الإسلامي حتى القرنين السادس والسابع يمتد بشكل أساسي في المنطقة المعتدلة من حدود سجستان وما وراء النهر إلى المغرب

والأندلس . والمشكلة الأساسية في هذه المنطقة من الناحية الجغرافية هي مشكلة المياه . فليس بها تلك الوفرة المائية التي نجدها في المنطقة الاستوائية في جنوبها أو في المنطقة الباردة في شمالها وليس فيها من أنهار ضخمة سوى ثلاثة هي النيل والفرات ودجلة بالإضافة إلى نهرى سيحون وجيحون في المشرق وكلها لا تنبع منها ولكن تنبع من خارجها سواء من أواسط افريقيا الشرقية أو من جبال أرمينية أو من أطراف هضبة التبت وجبال تيان شان . فظاهرة الشح المائي هي المسيطرة وبالتالي فإن ظهور المدن الكبرى والصغرى ونموها وموتها مرتبط بهذا الأمر الذي قال فيه تعالى : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾!

وأنت ترى أن العرب والمسلمين في هذه المنطقة يغتبطون أكثر ما يغتبطون بكثرة المياه من حولهم ويعتبرون ذلك طيفا من أطياف الجنة . ولهذا تحدثوا بأعجاب شديد عن المناطق الموفرة المياه فقالوا : جنان الدنيا أربعة مواضع : غوطة دمشق وصغد سمرقند وشعب بوان ونهر الابله<sup>(١)</sup> ، كما أشاد الجغرافيون العرب بوضوح بالمدن التي يتوفر فيها الماء مثل فاس وسمرقند ، والحواف في معرفة مدى كثرة المياه أو قلتها في كل مدينة وذكروا طريقة تدبرها لها . وذكروا مدى عذوبة الماء في المدينة . كما في البصرة ، ومدى ملوحته حتى ليمزج بماء المطر ليصلح للشرب كما في قم . حتى الذين بحثوا المدينة من الناحية النظرية كالقزويني وابن ابي الربيع لم يستطيعوا إلا أن يجعلوا توفر الماء العذب الصالح للشرب من شروط وجودها .

ولهذا السبب بذل الحكام والسلاطين دون انقطاع الكثير من الجهود والأموال لتوفير المياه للمدن التي يبنون . فقد كانت مشاريعها تبنى على

---

(١) ياقوت : البلدان ج ١ ص ٥٠٣ ، والمقدسي ص ١٥٩ (وهو ينقص منها شعب بوان فيجعلها ثلاثة) .

حسابهم وتنوعت طرائقهم في توفيرها تنوعا كبيرا يتناسب مع الشح والحاجة فما من مصدر من مصادر الماء يمكن أن يستغل إلا مدوا إليه أيديهم وما من تقنية يمكن أن تتبع إلا اصطنعوها للوصول إلى المياه. وكان لديهم إما المياه الجوفية وإما المياه السطحية وإما ماء السماء والمطر. وثمة السقاية في المدينة.

أ - المياه الجوفية والآبار: لا تكاد توجد مدينة إسلامية ليست الآبار بعضها من تكوينها ومرافقها ولكلا يكون حفرها فاشلا فقط اصطنعت لمعرفة وجود الماء في جوف الأرض أساليب عديدة: فذكروا أن الأرض التي يكون فيها الماء قريبا من سطح الأرض يظهر فيه ما يشبه العرق والندى على التراب الجاف إن وضع في ذلك الموقع أو يظهر بعض النبات الصغير. وإن كان الماء عميقا حفرت في الأرض حفرة وكفىء فيها قدر أو ما يشبهه بعد أن يوضع فيه صوف أبيض ناشف فإن وجدت وقد تندى في اليوم التالي فثمة ماء كثير أو قليل حسب درجة تندى الصوف. كما أن من الطرق تذوق التراب وشمه ومعرفة لونه وتماسكه<sup>(١)</sup>. ولهم في ذلك خبرات وطرائق تجريبية عديدة.

وقد حفروا الآبار وكانت لهم قواعدهم في كيفية الاتفاق بها وتنظيم ذلك لكلا تستنزف بئر جديدة بئر الجيران أو تكون قريبة من أمكنة الصرف فتلوث أو تضر بغيرها حسب الطبقات الكتيمة. وكان الماء يرفع من البئر إما بالدواليب والحبال وإما بالجر الحيواني أو النواعير الحيوانية الدائرة. وقد يكون رفع الماء على مراحل من مستوى الماء إلى مستوى أعلى ثم أعلى حتى يصل سطح الأرض. وقد أشار القزويني إلى مثل هذه الطريقة في مدينة زكندر في المغرب. وكانت تجري تحت إشراف السلطان. وقد يحفرون عدة آبار بأعماق مختلفة ويربطونها في شبكة بعضها مع بعض ويجعلون لها مجمعا يجتمع فيه الماء وينزحون منه كما هو الأمر في الفسطاط وكما جرى في مدينة مجريط العربية

(١) انظر في ذلك النابلسي: كتاب الملاحة في علم الفلاحة (بيروت ١٩٧٩) ص ٢٢ - ٢٣.

(مدريد الحالية) وقد ثبت أنها بنيت فوق مستودعات من المياه الجوفية ومنها أخذت اسمها<sup>(١)</sup>. وهذا النظام من الأقنية الجوفية منتشر في العالم الإسلامي كله من المدن الإيرانية إلى الحجاز واليمن إلى المغرب. وهو يسمى في الجزيرة العربية وقدما بالكظامة (من كظم الماء أي حبسه) والفقير (من فقر الماء أي فجره وبثقه) وكانت هذه القنوات تصنع من الخزف أو الفخار المصمت المتناسك. كما تصنع أحيانا من الحجر وتوضع في جوفها أنابيب الرصاص لتحفظ الماء من كل دنس.

وقد ذكر ابن عذاري أن الخليفة الأموي الحكم المستنصر أجرى الماء العذب إلى سقايات المسجد الجامع بقرطبة سنة ٣٥٠. وأنه أجرى الماء من عين بجبل قرطبة خرق له الأرض. وأجراه في قناة من حجر متقنة البناء محكمة الهندسة أودع في جوفها أنابيب الرصاص لتحفظه من كل دنس. وفي ذلك يقول الشاعر الأندلسي ابن شخيص:

وقد خرقت بطون الأرض من نطف من أعذب الماء نحو البيت تجريها

ويسمون في المغرب هذه الأقنية الجوفية بالخطارة (ومشتقة من الخطر بالسكون) وتعني اهتزاز الماء وحركته<sup>(٢)</sup>. وقد طبق هذا النظام في مدينة مراكش بعد تأسيسها بقليل في عهد علي بن يوسف بن تاشفين أوائل القرن السادس/١٢م. ويروي الإدريسي أن المهندس عبدالله بن يونس توجه بعد البحث والتنقيب إلى طرف من أطراف المدينة يعلو فيه مستوى الأرض ثم حفر فيها بئرا كبيرة ثم أرسل من قاعها قنوات تسير تحت الأرض في انحدار حتى توصل الماء إلى مختلف أحيائها قريبا من سطح الأرض<sup>(٣)</sup> وهذه الشبكة

(١) محمود علي مكبي: مدريد العربية ص ٥٢.

(٢) أحمد غنار العبادي: الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية (مجلة عالم الفكر عدد ١٠٠ من المجلد ١١) ص ١٤٩.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق ص ٦٨، ومحمود مكبي: مدريد العربية ص ٥٢.

التي نال مهندسها العطايا من الأمير المرابطي ما تزال إلى اليوم تمنح مراكش  
الخضرة والحدائق .

وطبقت الطريقة ذاتها في قصبة المهديّة التي بناها الخليفة الموحد  
عبد المؤمن بن علي سنة ٥٤٥ على ساحل المحيط الأطلسي (ومكانها في الرباط  
اليوم) فقد أجرى لها الماء النقي في سرب تحت الأرض من عين قبولة على  
بعد نحو من عشرين كم جنوبي الرباط . وما تزال آثار السقاية المتفرعة منها  
قائمة إلى الآن . كما أجريت أيضا مياه عين (ناكسا علي) ، على الطريقة ذاتها  
إلى مدينة مكناس<sup>(١)</sup> .

وكانت في مناطق الشام شيء مماثل لما في المغرب ومصر من الحرص  
على الإفادة من المياه الجوفية وتسييرها إلى مخازن تجمعها لبعض المدن . فحين  
بنى سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة بدأ في مد قناة تدعى بردة إلى المدينة  
الجديدة واحتفر آبارا عذبة وأخذ الخلفاء الأمويون والعباسيون من بعدهم  
على عواتقهم التكاليف الباهظة اللازمة لصيانة هذه القناة . وكان الأمر بتلك  
النفقة يخرج كل سنة من الخليفة فلما استخلف المعتصم أسجل بذلك سجلا  
وصارت النفقة يحتسب بها للعمال «على أن قلة المياه والتشدد في حفظها كانا  
عيب المدينة الأول فقد كانت عميقة الآبار مالحة . وماء المطر في جباب مقفلة  
فالفقير عطشان والغريب حيران»<sup>(٢)</sup> والصهريج الكبير الذي يسمى عنيزة  
في شمال غربي الرملة (ويدعى أيضا صهريج القديسة هيلانه) ما يزال قائما  
عليه كتابة كوفية تاريخها سنة ١٧٢ / ٨٧٩ أي من عهد هارون الرشيد<sup>(٣)</sup> .

(١) مكرر ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين (نشر التازي والعبادي) ص ٢١٨  
و٤٤٨ .

(٢) الموسوعة الإسلامية (الطبعة العربية) ج ١٠ ص ١٩٥ .

وقد ذكر ابن جبير وهو في طريقه من مكة إلى العراق وادي العروس فقال: «تزود الناس منها بالماء يحفرون عليه في الأرض بشرا فينبع منه ماء عذب معين يروي الأمة التي لا تحصى لها عدد من هذه المحلة مع جمالها التي تنيف على عددها والله القدرة سبحانه . . .»<sup>(١)</sup> وقال أيضا عن بلدة فيد (نصف الطريق إلى الكوفة) إن الماء بهذا الوضع كثير في آبار تمدها عيون تحت الأرض . . .»<sup>(٢)</sup>.

ولو انتقلنا إلى المشرق لوجدنا طريقة المجاري المائية تحت الأرض قائمة وخاصة في مدن إيران الشمالية مثل قم ومرو ونيسابور كما في يزد وكرمان . وكانت نيسابور في ذلك العصر أكبر مدن المشرق ويذكر ناصري خسرو عن أصفهان أنه إذا حفر المرء عشرة أذرع في أي مكان من هذه المدينة فاض الماء العذب البارد<sup>(٣)</sup> . كما يحكي ناصر خسرو أنه كان بنيسابور كثير من مجاري الماء المغطاة بعضها يظهر في خارج المدينة ويروي البساتين وبعضها الآخر يمد الدور بالمياه، وكانت هذه المجاري على أعماق متفاوتة تفاوتها كبيرا حتى يضطهر الانسان إليها مائة درجة ولذلك قال أصحاب النوادر: ما كان أبهى مدينة بنيسابور لو أن مجاري المياه فيها أصبحت ظاهرة ودخل أهلها تحت الأرض<sup>(٤)</sup> .

وكان لهذه الأقبية فتحات كالأبار على مسافات محددة للقيام بتنظيفها وعليها قوام وحفظة<sup>(٥)</sup> وبعض هذه الفتحات شديد العمق جدا ويروي ناصر خسرو أن فتي هرب من اللصوص فرمى نفسه في بعض هذه الآبار

(١) ابن جبير الرحلة ص ١٨١ .

(٢) ابن جبير الرحلة ص ١٨٣ .

(٣) ناصري خسرو / الرحلة ص ١٩٢ .

(٤) متر: الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٧٧ ولم أجد هذا النص في ناصري خسرو .

(٥) الاصطخري ص ٢٥٥ وابن حوقل ص ٣١٢ وياقوت: البلدان ج ٤ ص ٨٥٧ .

فاحتاجوا إلى أن يخرجوا كل ما في القافلة من الحبال وهو سبعمائة ذراع ليدلوا غواصا ينتشله<sup>(١)</sup>. وذكر الاصطخري أن أكثر مياه نيسابور «قنى تخرج تحت مساكنهم وتظهر خارج البلد في ضياعهم ولها قنى تظهر في البلد وتجري في دورهم وبساتينهم داخل البلد وخارجا عنه . . . (٢)

ب - المياه السطحية : كانت المدن في كثرتها الكاثرة تبنى على ضفاف الأنهار وما لا يبني منها على هذه الضفاف أو كان مستواه أعلى من مياه الأنهر فقد كان على حكام المدن تأمين إيصال الماء إلى المدينة بكل الطرق : فبغداد وواسط والبصرة وسامراء شقت لها الفروع النهرية شقا من الأنهار والينابيع المجاورة وبعض هذه الأقنية كانت مغطاة كما في أقنية كرخايا ببغداد، وقد وصفنا ذلك كله من قبل . ومثل ذلك دمشق التي شق فيها يزيد بن معاوية نهرا من بردى اجراه في معجزة هندسة في سفوح الجبل حتى بلغ الأراضي المرتفعة في القابون بغوطة دمشق بعد أن اشترى حقوق الماء من أصحابها وسمى النهر باسمه . ومثل هذا تلك القناة التي أجراها في أواسط القرن الخامس إلى جامع ميفارقين تاجر من مياسير التجار اسمه أبو بكر محمد بن جرى . حفرها من عين حنباص وضمها من أعين جماعة وجاء بها في طرف البلد فعبر بها السورين وغرم عليها مقدار خمسين ألف دينار حتى أوصلها إلى وسط المدينة ولم يأخذ منها إلى داره قطرة واحدة، ولكنه عمل تسعة أنابيب منها إلى الجامع والحمامات وغيرها وحصل للبلد منها أهم مصلحة ولم يكن لاهل ميفارقين على قديم الوقت غير مياه الآبار وإنما سيف الدولة دخل بالقناة الأولى إلى قصر بني حمدان وعمل في أيام نصر الدولة الثلاث قنوات الأخر . . . (٣)

(١) ناصري خسرو ص ١٩٩ .

(٢) الاصطخري ص ٢٥٥ .

(٣) الفارقي / تاريخ ميفارقين (تحقيق عوض - القاهرة ١٩٥٩) ص ١٦٥ - ١٦٦ .



وبلغت العناية بتوزيع الماء في المدينة غايتها في المدن كثيرة المياه ففي فاس احصى بها ستمائة نبع . وهي عيون طبيعية احيطت بسياج من حجر مع أبواب تحفظها مغلقة ويتوزع ماء هذه الينابيع في مختلف الحاجات ويساق إلى البيوت والجوامع والفنادق . وهذا الماء مرغوب فيه أكثر من ماء النهر لأن ماء النهر ينقطع أحياناً ولا سيما في الصيف أضف إلى ذلك إنه عندما يقتضي الأمر تنظيف القنوات يجب تحويل مجرى النهرى إلى خارج المدينة . وعلى الرغم من توافر ماء النهر في بيوت الوجهاء إلا أنهم يجلبون إلى منازلهم ماء العيون لأنها أكثر برودة وعدوية . ولكنهم يفعلون العكس في الشتاء . وتقع أكثرية هذه الينابيع في غرب المدينة وجنوبها . . (١)

وفي سمرقند بأقصى المشرق - على ما يحكى ابن حوقل - كان لهذه المدينة مياه جارية تدخل في نهر كان في أصله خندقاً عميقاً . . . . . ووجه هذا النهر رصاص كله . . . . . وبه غلات موقوفة لمرمته ومصالحه وعليه حفظة من المجوس شتاء وصيفاً في شرط عليهم بذلك ولا تؤخذ منهم الجزية لبيت المال لهذا السبب» (٢) .

ويذكر الاصطخري عن مياه البصرة قوله : « . . . . . ولها نهر يعرف بالابلة طوله أربعة فراسخ . . . . . وتتشعب فوق البصرة ومن تحتها أنهار كثيرة فمنها ما يقارب هذا النهر في الكبر . . . . . وهذه الأنهار كلها مخترقة بعضها إلى بعض وكذلك عامة أنهار البصرة . حتى إذا جاءهم مد البحر تراجع الماء في كل نهر حتى يدخل نخيلهم وحيطانهم . وجميع أنهارهم من غير تكلف . . . . . فإذا جزر الماء انحط حتى تخلو من البساتين والنخيل ويبقى في الأنهار إلا أن الغالب على أنهارهم الملوحة وإنما يستقون إذا جزر الماء إلى حد نهر معقل ثم يعذب فلا

(١) ليو الافريقي : وصف افريقية ص ٢٥١ .

(٢) منز : الحضارة الإسلامية : ج ٢ ص ٢٧٧ استنادا إلى جغرافية اليعقوبي .

يضره ماء البحر . . . »<sup>(١)</sup> .

وقال الاصطخري «ان أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة (١١٠ - ١٢٠/٧٢٨ - ٧٣٨) فزادت على مائة ألف نهر وعشرين ألف نهر تجري فيها الزواريق . وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار . . . حتى رأيت كثيراً من تلك البقاع . فرجماً رأيت في رمية سهم عددا من الأنهار صغارا تجري في كلها زواريق صغار ولكل نهر اسم ينسب به إلى صاحبه الذي احتفراه أو إلى الناحية التي يصب فيها، وأشبه ذلك من الأسماء فجوزت أن يكون ذلك في طول هذه المسألة وعرضها . . . »<sup>(٢)</sup> .

وأما في المدن التي تتوازن فيها كميات الماء مع حاجات السكان فكانت تنشأ على هذه المياه حقوق وتقوم لها تنظيمات دقيقة . فشبكة توزيع المياه في دمشق والتي اعتبرها شيخ الربوة مدينة ثانية ، كان الماء يتوزع فيها على الألفية بالقراريط وحسب الحاجات ويجري أحيانا بالساعات المحددة حتى لا يضيع من مياه بردى شيء . وقد ذكر ابن حوقل مثل ذلك عن مدينة زنرود في منطقة الجبال (شمال غربي إيران) أن ماءها يجري على باب شهرستان عند السور نفسه ويقع فيه أودية وعيون كثيرة فيقع عليها القسمة والحساب بحق المشارب حتى لا يضيع من ماء زنرود شيء بوجه . ويخرج من جملة هذا الماء تسعة أيام في الشهر لرستاق رويدست وبرآن . . . . . ويصرف ماء زنرود باجمعه أيام الزراعة . . . أربعين يوماً إليها إلى حين يفرغ الزرع . وآخر المياه يصل إلى الضيعة المدعوة برزند ويفيض في الأرض . . . »<sup>(٣)</sup> .

(١) الاصطخري ص ٨٠ - ٨١ ، وابن حوقل ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٢) الاصطخري ص ٨٠ - ٨١ .

(٣) ابن حوقل ص ٣١١ - ٣١٢ .

وفي مدينة مرو كانت مياه نهر المرغاب تجمع (مع مياه الأمطار والسدود) في بحيرة كبيرة مستديرة وعليها أربعة أقنية كبيرة تتوزع منها في المدينة وضواحيها حيث تخزن في الصهاريج . أما في مرو الروذ فكان مجرى النهر يعمق اصطناعيا برفع حوافيه عند انصباب السيول بالتراب والخشب تحت رقابة الأمير مع مجموعة من الرجال تزيد على عشرة الاف ومعهم الخيول والحراس لمراقبة العمل والصيانة . وقد ذكر ياقوت شيئا مماثلا عن خزان كبير أقيم بالقرب من درب الخرازين بواسطة لتزويد المدينة بالماء .

ولعل أشهر محاولة لجر مياه الينابيع إلى المدن الشحيحة المياه جدا هي تلك المحاولات العديدة التي جرت لتزويد مكة بالمياه . فالحج الموسمي وندرة الماء «بواد غير ذي زرع» عند البيت المحرم جعل هذا الأمر بابا «من أبواب التقي والبر» . وقد ذكروا أن معاوية كان قد أجرى في الحرم عيونا واتخذ لها أحياما وكانت حوائط وفيها الزرع والنخل . «ثم انقطعت ووهبت» فأمر أمير المؤمنين الرشيد بتجديدها فعملت وأحييت وصرفت من عين واحدة . وكان أهل مكة والحجاج يلقون في ذلك المشقة حتى أن الراوية لتبلغ في الموسم عشرة دراهم وأقل وأكثر فبلغ ذلك أم جعفر بنت أبي الفضل جعفر بن . . . المنصور فأمرت في سنة أربع وسبعين ومائة بعمل بركتها التي في مكة . فأجرت لها عينا من الحرم فجرت بماء قليل فلم يكن فيه ري لأهل مكة وقد غرمت في ذلك غرما عظيما . فأمرت المهندسين أن يجروا لها عينا من «الخل» ثم أمرت من يزن عينا الأولى فوجدوا فيها فسادا فأنشأت عينا أخرى إلى جنبها وأبطلت تلك العيون فعملت عينا هذه باحكم ما يكون من العمل وعظمت في ذلك رغبتها وحسنت نيتها فلم تزل تفعل حتى بلغت ثنية خل فإذا الماء لا يظهر في ذلك الجبل فأمرت بالجبل فضرب فيه . فأنفقت في ذلك من الأموال ما لم تكن تطيب به نفس كثير من الناس حتى اجرها على يديها وأجرت فيها عيونا من الخل منها عين المشاش . واتخذت لها بركا تكون فيها السيول اذا جاءت تجتمع فيها ثم

أجرت لها عيوننا من حنين واشترت حائط حنين فصرفت عينه إلى البركة وجعلت حائطه سدا يجتمع فيه السيل فصارت لها مكرمة لم تكن لاحد قبلها . وطابت نفسها بالنفقة فيها بما لم تطب به نفس احد غيرها<sup>(١)</sup> وحفرت زبيدة وهي زوج الرشيد، في اطار هذا المشروع عين المشاش، حين ادركت يوم حجت سنة ١٨٦ ما يعانيه أهل مكة من المشاق في الحصول على ماء الشرب فأمرت خازن أموالها أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له : أعمل ولو كلفتك ضربة الفأس دينارا فمهدوا الطريق لماء المشاش في السهل والوعر ووصلوا بين منابع الماء في الجبل وشقوا طريقا تحت الصخور من عين حنين إلى الحرم وكان جملة ما انفق في ذلك - فيما قدروا - ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ! على أن هذه القناة الأرضية صارت مع الأيام كثيراً ما تتعطل . وفي سنة ٢٤٥ غار الماء بمكة وعن حولها حتى بلغت ثمن القربة ثمانين درهما وذلك بسبب الجفاف المتوالي وفقر الينابيع « فبعثت أم المتوكل تأمر باصلاح القناة والانفاق عليها . وحوالي سنة ٣٠٠ كان أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقل الماء من جدة إلى مكة وكان الوزير على بن عيسى في ذلك الوقت بمكة مغضوبا عليه من الخليفة ببغداد ورأى ضيق الماء على أهل مكة ورأى تلك السخرة فابتاع كثيراً من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوقة الراتبة ومنع السخرة وخطرها وحفر بئرا عظيمة في الحناطين فخرجت عذبة شروبا وسماها الجراحية (على اسم أسرته) وابتاع عينا غزيرة بألف دينار ووسعها حتى كثرت واتسع الماء بمكة . . . (٢) .

وقد ابتكر المسلمون التقنيات العديدة لرفع الماء من المناطق المنخفضة أكثرها شيوعا النرح بواسطة الدلاء ولعل أبرزها استخدام النواعير التي يسيرها

(١) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار / تحقيق الصالح - ط بيروت ١٩٨٣ ج ٢ ص ٢٣٠ - ٢٣٢ .

(٢) الصاويء : كتاب الوزراء ص ٢٨٦ .

ماء الأنهار نفسه فتدور رافعة المياه في أوعية إلى أعلى حيث تصب في سواق مهيئة لها . كان هذا الأسلوب متبعاً في قرطبة على نهر الوادي الكبير كما هو متبع في الموصل . ولكن أعظم أشكاله كان في حماة على نهر العاصي وبعض هذه النواعير الضخمة في حماة يعود بناؤها إلى عهد صلاح الدين الذي أصلحها سنة ١١٧٨/٥٧٤ بعد أن هدمتها الزلازل مع المدينة سنة ١١٥٧/٥٥٢ . ويبدو من بعض النصوص التراثية أن المغرب عرف هذا النوع من النواعير الضخمة . وما تزال بقية هذه النواعير الضخمة قائمة هناك إلى اليوم . على أنها لم تكن الوسيلة الوحيدة فثمة أيضاً الدواليب التي كانت وما تزال تستعمل في مصر مع السواقي وهي رافعات الماء التي تسيرها الحيوانات وما تزال نماذجها في الريف المصري منتشرة . وثمة أيضاً بناء القناطر وتسير الماء عليها ان كانت مصادر الماء بعيدة وقد أطرى ياقوت عقود مجاري الماء في قرطاجنة بالأندلس وأعمدها التي تشبه المنائر<sup>(١)</sup> . ومثلها كانت قناطر ابن طولون التي أنشأها لنقل مياه النيل إلى قصره ومدينته القطائع وما تزال بقاياها موجودة . وقناطر فم الخليج التي أنشئت لتوفير المياه لقلعة الجبل في عهد الناصر محمد وأكملت في الغالب من بعد موته سنة ١٢٤٠/٧٤١ وقوامها عدة أبراج (سبع سواق) يدير دواليبها الثيران وترفع المياه إلى المنسوب اللازم لجريه إلى القلعة . على طول السور الذي بناه صلاح الدين . وقد أنشئ مثل ذلك لتزويد مجموعة أبنية السلطان قلاوون بالماء ولكنها كانت تعتمد على رفع الماء من بئر إلى مصنع كبير يغذي مدرسة وبمارستانة ووحداتها المختلفة .

وثمة قناطر قد زالت كقناطر المعز الفاطمي (الحنايا) التي أنشأها في القيروان لإمدادها بالماء<sup>(٢)</sup> والقناطر التي أقامها المنصور على عقود وثيقة من

(١) ياقوت ج ٤ ص ٥٨ .

(٢) لسان الدين ابن الخطيب : رقم الحلل في نظم الدول (تونس ١٣١٩) ص ٣١ .

أسفلها محكمة بالصاروج والأجر من أعلاها فكانت تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب كما تصل إلى قصره .

والقناطر التي أجرى عليها المنصور الموحدى الماء إلى الرباط . فقد كانت تفتقر إلى المياه العذبة بسبب دخول البحر مسافات في ماء نهرها تصل عند المد إلى اثني عشر ميلا فجلب « المنصور الماء من عين تبعد عن المدينة بنحو اثني عشر ميلا بواسطة قناة محكمة البناء على أقواس وتنقسم هذه القناة إلى فروع عديدة يحمل بعضها الماء إلى المساجد وبعضها الآخر إلى المدارس والقصور الملكية والسقايات العمومية المقامة في جميع الانحاء . . . . (١) وقد كان نقل المياه على القناطر قليلا في المدن الاسلامية واذا كان الرومان قد برعوا في اقامتها بشكل ضخم كالتى ماتزال قائمة في مدينة شقوبية بالاندلس فإن براعة العرب المسلمين وتقنياتهم الفنية تجلت في القنوات الجوفية المحفورة تحت الأرض .

وقد ذكرنا ناصري خسرو طريقة سمعها من بعض الثقات في القاهرة أن احدى الأشخاص في مصر قد ربي عجلا صغيرا في سطح منزله المكون من سبعة أدوار وزرع الحدائق والجنان في ذلك السطح بالأشجار المثمرة كالكنارنج والاترنج والموز وغيره وكانت مهمة هذا الثور هو إدارة الطواحين (الدواليب) المائية المنصوبة في سطح المنزل لرفع الماء إلى السطح وري الحدائق . . . (٢) .

وفي كل الأحوال كانت مناسب الماء تحسب ارتفاعا وانخفاضا بشكل دقيق وتبها مختلف الوسائل لرفع المياه إليها .

---

(١) ليو الافريقي : وصف افريقية (ترجمة حجي والأخضر - بيروت ١٩٨٣) ص ٢٠٢ ، ونود أن نسجل هنا أننا أوردنا من قبل وصف ابن صاحب الصلاة من أن هذه الأقية ذاتها تحت الأرض وهنا يورد ليو الافريقية أنها على أقواس . ويبدو أنها كانت في مطلعها تحت الأرض ثم حملت بسبب سوية الأرض على أقواس .

(٢) ناصري خسرو : ص ١٠٥ .

ولم نسمع عن فشل مشروع مائي ضخم سوى اثنين : النهر - المسألة الذي أراد المتوكل شقه من دجلة في شمال سامراء ثم يفرعه فرعين على جانبي الشارع الأعظم فيها إلا أن النهر لم يتم امره ولم يجر الماء فيه الا جرباً ضعيفاً لم يكن له اتصال ولا استقامة على أنه قد انفق عليه شبيهاً بألف ألف دينار ولكن كان حفره صعباً جداً . انما كانوا يحفرون حصي وأنهاراً لا تعمل فيها المعاول . . . .<sup>(١)</sup> وأما المشروع الثاني فكان في افريقية حين اعترم المعز لدين الله اجراء نهر عين أيوب إلى المنصورة وكان الخليفة القائم قد ابتداء العمل فيه قبله على أن يجريه إلى مدينة القيروان ثم جاءت الفتنة أيام أبي يزيد الخارجي فقطعت ذلك . . .

ج - مياه الأمطار : استغلت في المدن الإسلامية بكل مكان وبخاصة في الأماكن التي اعدمت فيها الأنهر وشحت فيها المياه الجوفية والينابيع . فالقدس مثلاً - كما قال المقدسي - «قل دار ليس بها صهريج وأكثر . وبها ثلاث برك عظيمة بركة بني اسرائيل وبركة سليمان وبركة عياض عليها حماماتهم . لها دواع من الأزقة . وفي المسجد عشرون جبا متبحرة . وقل حارة إلا وفيها جب مسبل . غير أن مياهها من الأزقة وقد عمد إلى واد فجعل بركتين يجتمع اليهما السيول في الشتاء وشق منها قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملاً صهاريج الجامع وغيرها . . .<sup>(٢)</sup> وقد كشفت الدراسات الأثرية في بلدة الرينة إحدى محطات درب زبيدة للحج العراقي في الجزيرة العربية وفي مواقع القصور الأموية الصحراوية كقصر الحير الغربي وقصر عمرة والأزرق والمشتى وخربة الفجر وغيرها عن كثير من السدود والبرك والصهاريج التي كانت تجمع مياه الأمطار وتوزعها على البيوت وضمن القصور .

(١) البقوي ص ٢٦٧ .

(٢) المقدسي ص ١٦٧ - ١٦٨ .

ويلاحظ اهتمام المسلمين بالمدن التي يمر عليها طريق الحج الشامي أو الحج العراقي فقد كانت في حاجة إلى المزيد من مياهها الشحيحة في المواسم وهكذا قامت بها أعداد من المشاريع المائية لتأمين هذه الحاجة وبخاصة على درب زبيدة .

وقد ذكر ابن جبير بعض هذه التجمعات المطرية وهو في الطريق من مكة الى العراق قال : ونزلنا . . . . سادس يوم رحيلنا على ماء يعرف بالقارورة وهي مصانع مملوءة بمياه المطر . . . ونزلنا بالحاجز والماء فيه في مصانع وربما حفروا عليه حفرا قريبة العمق يسمونها احفارا . . . وانزل الله من سحب رحمته . . . . غدرانا وسيولا . . . وأما البرك والقرارات فلا تحصى . . . (ثم نزلنا حصن فيد وفيه عدا الآبار) وجد الحاج مصنعا قد اجتمع فيه الماء من المصر . فانتزف للحين . . .»<sup>(١)</sup> وذكر ابن جبير الشيء نفسه عن صحراء عيذاب التي رام احصاء القوافل التي تمر عليها من واردة وصادرة فما تمكن لاسيما القوافل العيذاوية التي تحمل الفلفل أكثر ما تحمل ، وروى كيف وقعت بين جهالي العرب اليمنيين أصحاب طريق عيذاب وضمائها . . . وبين بعض الأغزاز بسبب التزاحم على الماء مهاوشة كادت تفضي إلى الفتنة . . . .<sup>(٢)</sup> وإذا كان الذي يذكره ابن جبير طرقا صحراوية بين المدن فقد كان العديد من المدن نفسها تعيش على ماء المطر فالاسكندرية مياهها جمع مطر<sup>(٣)</sup> وبصرى في الشام بنى فيها خزان للمطر بالحجر البازلتي الأسود في القرن السادس / ١٢ أو السابع أيام الأيوبيين . ومياه القدس مجتمع أمطار . ورأى ابن جبير قرب الكوفة مصنعين كبيرين للماء لا يكاد يقطعها السابح<sup>(٤)</sup> ويذكر المقدسي عن

(١) ابن جبير ص ١٨٣ .

(٢) ابن جبير ص ٢٧ - ٢٨ .

(٣) ناصر خسرو ص ٩٠ .

(٤) ابن جبير ص ١٨٤ - ١٨٥ .



القدس أنه «قل دار ليس بها صريح وأكثر . وبها ثلاث برك عظيمة . . . لها دواع من الأزقة وفي المسجد عشرون جباً متبحرة وقل حارة الا وفيها جب مسبل غير أن مياهها من الأزقة ، وقد عمد إلى واد فجعل (عليه) بركتان يجتمع اليهما السيول في الشتاء وشق منها قناة إلى البلد تدخل وقت الربيع فتملاً صهاريج الجامع وغيرها . . . (١) .

غير أن أعظم مشاريع المياه المطرية كانت في افريقية فقد اشتهرت القيروان بما يسمى هناك «بماجلها» الكبير الذي ما يزال قائماً بسعته الضخمة وسلامه والذي أقامه الأغالب سنة ٨٦٠ - ٨٦٣ واقاموا في وسطه منظره ومجلسا لهم بأربعة أبواب و١٢ عمودا وكان في البيوت مواجل صغيرة لها . كما يذكر القزويني أن بالمهدية كان «شرب أهلها من الصهاريج ولهم ثلاثمائة وستون صهريجا (ماجلا) على عدة أيام السنة يكفيهم كل يوم صهريج إلى تمام السنة ومجيء المطر في العام المقبل . . . (٢) .

وقد يجري أن تملأ البرك الكبيرة لا من ماء المطر ولكن من ماء الأنهار الواطئة فقد كان في مصر الفسطاط منها اثنتان بركة الفيل وبركة الحبش تمتلئان بالمياه أيام الفيضان . ثم تحبس مياهها لاستخدامها عند هبوط النيل أشهراً عديدة .

ومعظم السدود الضخمة التي اقيمت على الوديان في المشرق الايراني مجمع السيول ومياه الأمطار كانت تستهدف الزراعة ولكنها تعين المدن كل المعونة (وكثير منها من العهد البويهي) وبعضها كسد بندي - أمير في جبال شيراز كان يستخدم سدا وجسرا معا . وكان في خراسان سدود من الأجر والحجارة عليها أقنية من الأسفل تدل على أنها تحجب في الصيف . لكنهم لم يحاولوا هنا كما

(١) المقدسي ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) القزويني ص ٢٧٦ .

لم يحاول الظاهر بيبرس في سد اللاهون الذي بناه لايصال الماء إلى واحة الفيوم سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ استغلال قوة انحدار الماء . وقد حاول الناصر محمد في النصف الأول من القرن الثامن / ١٤ م في الخليج الناصري إقامة سد يزيد من تجمع مياه النيل وانصبابه فلم يقد ذلك كثيراً وظلت الساقية هي التقنية المتبعة في مصر أما الاسكندرية فلا توجد مياه للشرب إلا تلك التي تتجمع خلال الأمطار . . . (١) .

بقى أن نذكر أنه كان ثمة مقياس مبني في القاهرة لقياس ارتفاع النيل في الفيضان وعنده كانت تبدأ احتفالات مصر والقاهرة بوفاء النيل ، وكان موقعه جنوبي جزيرة الروضة . وقد هدم هذا المقياس وبني عدة مرات وكان المتوكل العباسي في القرن الثالث / ٩ م قد أقامه بواسطة أحمد بن محمد الحاسب الخراساني أو الفرعاني العالم الرياضي الفلكي المشهور (سنة ٢٤٧ / ٨٦١) .

د . السقاية في المدينة : على الرغم من كل تلك العناية بالماء وموارده وتوزيعه فقد كانت المدن الإسلامية تفتقر أحيانا سواء في البيوت أم للمارة في الشوارع إلى مياه الشرب ولذلك وجدت في الكثير من المدن ، المحدودة المياه ، أجهزة بشرية وحيوانية للنقل المائي . فبغداد كان شربها من ماء دجلة . كان السقاؤون يأخذونه مباشرة من النهر ويحملونه إلى دور أهل اليسار أو يأخذونه من خزانات صغيرة تغذيها النهيرات الموزعة من القنوات الرئيسيتين اللتين شقنا إلى البلد .

ويذكر ناصري خسرو أن «وماء الشرب في القاهرة (والفسطاط) من النيل يجلبه السقاؤون إلى البيوت» ويصعدون به إليها وكان بعضها خمسة أدوار كل طبقة بنصف دانق ، ويضيف خسرو «أن في مدينتي القاهرة ومصر خمسين ألف جمل جلب المياه إلى جانب السقائين الذين يحملون الماء على ظهورهم ،

(١) ناصري خسرو ص ٩٠ .

ويستخدم السقاؤون القرب لحمل الماء ويتجولون في الحواري الضيقة التي لا تستطيع الجمال ولوجها . . . «<sup>(١)</sup> وفي سنة ٣٨٢ أيام العزيز الفاطمي نودي في السقائين بمصر أن يغطوا الروايا التي تحملها الجمال والبغال مملوءة بالماء لئلا يصيب الماء المتساقط ثياب الناس وفي السنة التالية سنة ٣٨٣ أمر العزيز بنصب أزيار الماء مملوءة ماء على الحوانيت»<sup>(٢)</sup> . خوف الحرائق المفاجئة وليشرب الناس «وحكى لي احدهم أن بمصر امرأة تملك خمسة آلاف قربة تكريها على السقائين كل قربة بدرهم في الشهر على أن تكون القربة في حالة جيدة عند اعادتها»<sup>(٣)</sup> غير أن ابن جبير ، حين يشتكي من كثرة المكوس بمصر يذكر أنها موجودة على كل ما يشرى ويباع حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل مكس فضلا عن سواه»<sup>(٤)</sup> .

وكانت أسبلة سمرقند كثيرة جدا في الطرقات ويحكي ابن حوقل قائلا : «قل ما رأيت خانا أو طرف سكة أو مجمع ناس إلى حائط بسمرقند يخلو من ماء جمد مسبل . وذكر لي من يرجع إلى خبره أن بسمرقند في المدينة وحيطانها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة عن ألفي مكان يسقى فيه الماء جمداً مسبلاً عليه الوقوف . من بين سقاية مبنية وجبات نحاسية منصوبة وقلال خزف في الحيطان مبنية . . . .»<sup>(٥)</sup> .

وقد حظيت معظم المدن الإسلامية بهذا السبيل من البر كالفدس التي أقيمت فيها السقايات المسبلة في ساحة الحرم على آبار تتجمع فيها مياه الأمطار . ومن أشهر هذه الأسبلة ذلك الذي أقامه السلطان المملوكي اينال

(١) ناصري خسرو ص ٩٦ .

(٢) المقرئزي ، خطط ج ٢ ص ١٠٨ .

(٣) ناصري خسرو ص ١٠٩ .

(٤) ابن جبير ، الرحلة ص ٣١ .

(٥) ابن حوقل ص ٣٢٩ .

(٨٥٧ - ٨٦٥/١٤٥٣ - ١٤٦١) ثم قام السلطان قايتباي من بعده بإصلاحه وتجديد عمارته .

وقد عدد ابن عساكر مؤرخ مدينة دمشق السقايات الموجودة على أيامه في القرن السادس/١٢م فذكر سبع سقايات واثنين وعشرين قناة داخل المدينة<sup>(١)</sup> وقد انتشرت هذه السقايات انتشارا واسعا في العهدين الأيوبي والمملوكي بعد القرن السادس وأكثر ما كانت تقام في المدن الكبيرة كالقاهرة ودمشق والقدس وحلب ونابلس والاسكندرية وحماه . وقد أقبل السلاطين والأمراء ونساؤهم على اقامتها على الطرق العامة المطروقة ليتضاعف ثوابها ويتيسر الماء للمارة والواردين . وما يزال كثير منها قائما بالقاهرة خاصة يحمل في واجهة الرخامية الآيات القرآنية التي تتحدث عن الماء : ﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ ﴿يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك . .﴾ ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا﴾ . وبعض هذه الأسبلة كانت تغذى من النيل أو من فروع الأنهر أو من آبار تجمع فيها المياه المطرية . وفي القاهرة كان يتولى توزيع الماء على طالبيه شخص يدعى بالمزملاتي يشترط فيه معاملة الناس بالحسنى والرفق عليه أن ينظف السقاية ويزودها بما تحتاج من الدلاء والكيزان والأباريق والقلل الفخار والطشوت وأسطال النحاس ويصرف على كل ذلك من أوقاف يوقفها صاحب السبيل عليه . وثمة وثيقة وقف السلطان الفوري سنة ٩١١ تتحدث عن كل ذلك<sup>(٢)</sup> .

ومن الهام أن نضيف أخيرا أن المحتسب في المدينة كان يحاسب

(١) ابن عساكر ج ٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) نشرها الدكتور عبد اللطيف ابراهيم في القاهرة من أرشيف وزارة الأوقاف (وثيقة رقم ٨٨٣) .

السائقين ويأمرهم بنظافة أوانيهم ونظافة ملابسهم وبتغطية الماء وعدم ادخال الأيدي فيه وغسيل أدوات الشرب .

## ٢ - البيمارستانات

الكلمة فارسية (آنية من بيمار ومعناها مريض واستان - مكان) وغالبا ما تختصر إلى مارستان في المدن العربية) .

وجود هذه المؤسسة الصحية - الدينية سابق للإسلام ويقول المقرئزي وأول من بنى المارستان في الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك وهو أيضا أول من عمل دار الضيافة وذلك سنة ثمان وثمانين (٧٠٧م) وجعل في المارستان الأطباء وأجرى لهم الأرزاق» ورأى كثرة المجذمين بفلسطين (فأمر بحبس المجذمين لئلا يخرجوا وأجرى عليهم وعلى العميان الأرزاق . . .)<sup>(١)</sup> وجعل لكل عاجز خادما ولكل أعمى قائدا من الرقيق . ويبدو أن ظلا من الشك يكتنف خبر المارستان والأطباء وإن كان الذهبي والطبري وابن الفقيه يذكرون الأقسام الأخيرة من هذا الخبر<sup>(٢)</sup> المتعلق بالمجذمين والعجزة . ويجب أن نتظر ظهور العباسيين في العراق وتأثر المنصور المستمر بمدرسة جنديسابور الطبية ومشفاها لتتلور فكرة إنشاء أول بيمارستان حقيقي في بغداد أيام هارون الرشيد حين كلف جبرائيل بن بختيشوع بإنشاء مارستان في بغداد وعهد إلى صيدلي بينيه هو يوحنا بن ماسوية بإدارته<sup>(٣)</sup> ويبدو أن يحيى بن خالد والبرامكة أيدوا المدرسة الهندية الطبية وأنشأوا بيمارستانا استندوا رئاسته

(١) المقرئزي / خطط ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٢) انظر الطبري (الطبعة الأوروبية) ٢ ص ١١٩٦ و ٢ ص ١٢٧١ . الذهبي تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٦٧ .

(٣) الموسوعة الإسلامية (الطبعة الفرنسية الجديدة) ج ١ ص ١٢٥٩ .

لطبيب هندي<sup>(١)</sup> اسمه منكه ولم تبق هذه البدعة فريدة في بغداد وحدها في إن تقدم القرن الثالث/ ٩ حتى رأينا انتشارها الواسع . وحوالي سنة ٨٥٠ كان في العالم الإسلامي ٣٤ بيهارستانا موزعة على الأغلب في مدن المشرق والشام ومصر . ونجد طاهر بن الحسين في مطالع هذا القرن يوصي ابنه عبدالله قائد المأمون في النصف الغربي من مملكته قائلا «ولينصب للمسلمين دورا توقيهم وقواما يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم . . » وهذا يدل على أن هذه الظاهرة الحضارية صارت مبكرة ضمن الهموم الأولى لكبار القوم . وصارت من مميزات الحضارة العربية الإسلامية «وقد أجمع جميع الرحالة في العصر الوسيط، وهم كثيرون على الإعجاب بالبيهارستانات التي كانت في المشرق وأثبت نوربرجير وهو مؤرخ لعلم الطب أن تنظيم البيهارستانات هو أحد المستحدثات الجميلة للثقافة العربية»<sup>(٢)</sup> ولم يقدر عليها إلا الملوك والأمراء وكبار الموسرين منهم بسبب تكاليفها الباهظة وكثرة النفقات الدائمة عليها وحاجتها إلى أوقاف تدر هذه النفقات وأجهزة تظل تشرف على الأوقاف . وهكذا نسمع ما بين أواخر القرن الثالث ومطلع القرن الرابع/ ٩ - ١٠م عن قيام الخلفاء والملوك ببناء عدد من البيهارستانات في بغداد نتيجة توسعها وتكاثر السكان فيها وهكذا يظهر المارستان الذي أنشأه بدر المعتضدي غلام المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ - ٢٨٩/٩٠٢) .

ويذكرون أن الرازي الطبيب هو الذي اختار موضعه بوضع عدة قطع من اللحم في أنحاء متفرقة من بغداد والنظر فيما لم يفسد منها .

ونسلمع عن بيهارستان آخر في بغداد أقامه الوزير علي بن عيسى الجراح سنة ٣٠٢ وأعطى رئاسته ورئاسة مارستان مكة والمدينة إلى أب عثمان سعيد

(١) القفطي / أخبار الحكماء (ط . أوروية) ص ٣٨٣ - ٣٨٤ ومتر - الحضارة ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) مكرر ريسلر / الحضارة العربية (ترجمة عبدون . ط . القاهرة) ص ١٩٦ .

بن يعقوب الدمشقي<sup>(١)</sup> وكان عدد البيمارساتانات سنة ٣٠٤ خمسة كان يتقلدها سنان بن ثابت الطبيب ويفضله وبإشارته أنشئ مارستانان آخران أحدهما بيهارستان السيدة الذي أقيم على ضفاف دجلة سنة ٣٠٦/٩١٨ وأشرف عليه سنان بن ثابت الذي يبدو أنه خلف أبا سعيد على إدارة مستشفى بغداد مع مكة والمدينة<sup>(٢)</sup> والبيهارستان المقتدري الذي أنشئ حوالي هذا الوقت عند باب الشام ببغداد ثم أقيم بيهارستان ابن الفرات الوزير وقد كانت إدارته لسنان بن ثابت أيضا وأوقفه هبات من الأثرياء والكبار. ويمكن أن نشكل فكرة عن اتساع هذه المستشفيات من نفقاتها فإن راتب الطبيب في المارستان المقتدري كان ٢٠٠ دينار في الشهر وفي بيهارستان السيدة ٦٠٠ دينار وكانت تكاليف المرضى تضم الأغذية لهم وثمان الفحم في الشتاء وبعد ذلك بنى يحكم القائد بمشورة الطبيب سنان بن ثابت مارستان آخر سنة ٣٢٩-٣٤١ فوق ربوة كان عليها قصر الرشيد ببغداد فظل هذا المارستان قرابة أربعين سنة حتى جده عضد الدولة البويهبي سنة ٣٦٨/٩٧٨ وافتتحه سنة ٣٧١ وزوده بالأطباء والمعالجين والخزان والبوابين والوكلاء والناطورين<sup>(٣)</sup> وقبل ذلك كان معز الدولة البويهبي قد أقام سنة ٣٥٥/٩٦٦ بيهارستانا آخر على نهر دجلة ووقف عليه أوقافا وضياعا يرتفع منها في السنة خمسة آلاف دينار<sup>(٤)</sup>.

وفي أيام سنان بن ثابت الذي توفي سنة ٣٣١/٩٤٢<sup>(١)</sup> كان الأطباء يزورون المرضى في السجون يوميا ويعطونهم الدواء وكانت النساء يقبلن في

(١) ابن أبي أصيبعة / طبقات الأطباء ج ١ ص ٢٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٣) مكرر القفطي : اخبار الحكماء ١٩٢ - ١٩٣ وابن الاثير ج ٩ ص ١٢ .

(٤) متر: الحضارة ج ٢ ص ٢٠٧ .

السجون كمرضات كما كان ثمة بعثة صحية جواله تحمل خزانة الأدوية والأشربة إلى قرى السواد<sup>(٢)</sup> وكان المسلمون وأهل الذمة على السواء يعالجون في المارستان .

وكانت بعض المارستانات التي ذكرناها في بغداد ما تزال موجودة يوم انشاء المارستان العضدي دون شك وكان هذا المارستان على الضفة الغربية . وحين أنشئ كان فيه - على قول القفطي - أربعة وعشرون طبيباً ما بين طبيب وجراح وكحال ومجبر يطوفون على المرضى يومين وليلتين في الأسبوع . وكانت تعطى في المارستان العضدي دروس في الطب . وتعرف بعض الكتب الطبية التي كانت تقرأ فيه . وقد صار الطبيب ابن التلميذ «ساعور» أي مدير المارستان (والكلمة سريانية) وكان هذا البيمارستان ما يزال على نشاطه حين زاره بعد مائة سنة من إنشائه ، ابن جبير وتحدث عنه سنة ١١٨٤/٥٨٠ وأنه في سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة ويتفقد الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويظالعون أحوال المرضى به . ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه وبين أيديهم قومته يتناولون طبخ الأدوية والأغذية وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية والماء يدخل إليه من دجلة»<sup>(٣)</sup> .

ومعلوماتنا عن بيمارستانات الولايات أقل منها في بغداد ولكن كثيراً منها وجد دون شك قبل القرن الرابع / ١٠م كالبيمارستانات في شيراز واصفهان وواسط والري وقد بنى يحكم وقت المجاعة دار ضيافة للضعفاء والمساكين في واسط ثم صار فيها بيمارستان سنة ٤١٣ وأما بيمارستان الري

(١) ابن النديم الفهرست ص ٣٠٢ .

(٢) الموسوعة ١ ص ١٢٦٠ .

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ٢٠١ .



فقد كان يديره الطبيب الرازي قبل أن يذهب إلى بغداد ويتسلم بناء واعداد البيمارستان المعتضدي . وموت هناك سنة ٣٢٠/٩٣٢<sup>(١)</sup> كان مؤسسة كبيرة وموجودة منذ بعض الوقت قبله . وثمة مارستان كبير خاص للمجانين في دير حزقييل بين واسط وبغداد زاره المرذ في أيام الخليفة المتوكل (أي ما بين سن ٢٣٢ - ٢٤٧/٨٤٧ - ٨٦١)<sup>(٢)</sup> . وكان أهم ما يلزم لهذا المارستان السلاسل والسياط كما كان فهم العالم للجنون حتى عهد غير بعيد<sup>(٣)</sup> .

وفي مصر بنى الفتح بن خاقان منذ أيام المتوكل بيمارستان عرف باسم مارستان المغافر<sup>(٤)</sup> ولكن أحمد بن طولون هو الذي بنى سنة ٢٥٩/٨٧٣ أول بيمارستان كبير في مصر في مدينة القطائع وكان به حمامان أحدهما للرجال والثاني للنساء . وشرط ألا يعالج فيه جندي ولا مملوك . وإذا جاء العليل أن تنزع ثيابه ونفقته وتوضع عند أمين المارستان ثم يلبس ويفرش له ويعالج حتى يبرأ فإذا أكل فزوجا ورغيفا أمر بالانصراف وأعطى ماله وثيابه . وقد أنفق ابن طولون على هذا المارستان ستين ألف دينار وكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ليتفقد المارستان والمرضى<sup>(٥)</sup> وجعل في المسجد خزانة شرب فيها جميع الأدوية والأشربة . وطبياً يجلس يوم الجمعة للعلاج<sup>(٦)</sup> . وكان في المارستان قسم للمجانين . ثم تلاه بيمارستان ثالث بناه كافور الأخشيد سنة ٢٤٦ أيام كان الوصي على أنوجور بن محمد الاخشيد<sup>(٧)</sup> .

(١) ابن القفطي : أخبار الحكماء ص ٢٧٢ وابن أبي اصيبعة ج ١ ص ٣١٠ .

(٢) الموسوعة الإسلامية (الطبعة الفرنسية) الجديدة ج ١ ص ١٢٦٠ .

(٣) الاصبهاني : الأغاني ج ١٨ ص ٣٠ .

(٤) المقرئزي / خطط ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٥) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٦) المصدر نفسه ص ٤٠٥ .

(٧) المصدر نفسه ٤٠٦ .

وفي أواسط القرن الرابع سنة ٩٧٨/٣٦٨ أنشيء في دمشق ببيمارستان لصيق بالجامع الأموي كان أشهر ببيمارستان في العالم الإسلامي وكان يعمل به أربعة وعشرون طبيبا . وكان العلاج والأدوية يمنحان بالمجان فيه طيلة أكثر من ثلاثة قرون<sup>(١)</sup> وقد سمي منذ أواخر القرن الخامس بالمارستان الدقاعي على اسم ملك دمشق دقاق بن تتش السلجوقي . وكان يلحق بكل بيمارستان أطباء وجراحون وكحالون ومجبرون عدا الطلبة المتدربين . وتزود البيمارستانات باغذية وتقدم لهم الطعام ولهم المرضون والأدوية على حساب الوقف الموقوف على البيمارستان . وكان ببيمارستان مصر ، في ما يظهر يأخذ مبلغا معينا من النقود ممن هم في دور النقاهة عند مغادرتهم البيمارستان<sup>(٢)</sup> .

وقد ازدادت الحاجة إلى المشافي والأطباء في فترة الحروب الصليبية فتكاثرت في مصر والشام وقد نقل المقريري عن القاضي الفاضل في متجددات سنة ١١٨١/٥٧٧ أن السلطان صلاح الدين أمر بفتح مارستان للمرضى والضعفاء في القاهرة فاختر له مكان في القصر وأفرد برسمه من أجرة الرباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار وغللت جهاتها الفيوم واستخدم له أطباء وجراحين ومشارف وعاملا خداما . ووجد به الناس رفقا وإليه مستروحا وبه نفعا وكذلك بمصر أمر بفتح مارستانها القديم وأفرد برسمه من ديوان الأعباس ما تقدير ارتفاعه عشرون دينارا واستخدم له طبيب وعامل ومشارف . وارتفق به الضعفاء وكثر بسبب ذلك الدعاء . . . وكان (في الأصل) قاعة بناها العزيز بالله (الفاطمي) سنة ٣٨٤ فقال صلاح الدين هذا يصلح أن يكون مارستانا وسألوا مباشره عن ذلك فقالوا أنه صحيح وكان قديما المارستان<sup>(٣)</sup> .

(١) ريلر - الحضارة العربية ص ١٩٧ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٧ .

(٣) المقريري / خطط ج ١ ص ٤٠٧ .

وافتح صلاح الدين في الاسكندرية مارستانا وصفه ابن جبير قائلا :  
« . . . ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة إلى سلطانه : المدارس  
والمحارس الموضوعة لأهل الطب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل  
واحد منهم مسكنا يأوي إليه ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه . . . واتسع  
اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون  
فيها متى احتاجوا إلى ذلك ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ووكل  
بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرؤنهم بالنظر في  
مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء وقد رتب أيضا فيه أقوام برسم  
الزيادة للمرضى الذين يتنزهون عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء  
خاصة . وينهون إلى الأطباء أحوالهم ليتكفلوا بمعالجتهم . . . »<sup>(١)</sup> ولا شك أننا  
يجب أن نربط هذه العناية بالغرباء في الاسكندرية بذلك الفيض من المغاربة  
والاندلسيين الذين كانوا يهاجرون إليها، وهي أول ثغور المشرق، هربا من  
الشغط القشتالي وحروب ما يسميه الفرنج بحرب الاسترداد.

وقد بنى نور الدين محمود بن زنكي عددا من المارستانات في دمشق  
وحلب والموصل أشهرها وأهمها مارستان دمشق وما زال بناؤه قائما وقد ذكره  
ابن جبير فقال : « . . . وبها (بدمشق) مارستان قديم وحديث والحديث اجملها  
وأكبرها . وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا . وله قومه بأيديهم الأزمة  
المحتوية على اسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون إليها في الأدوية  
والأغذية وغير ذلك . والأطباء يبكرون اليهم في كل يوم ويتفقدون المرضى  
ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان  
منهم . والمارستان الآخر على هذا الرسم . لكن الاحتفال في الجديد أكثر

(١) مكرر ابن جبير/ الرحلة ص ١٥ - ١٦ .

وهذا القديم هو غربي الجامع المكرم» ويضيف ابن جبير: «وللمجانين المعتقلين أيضا ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثوقون. . . وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفخر الاسلام»<sup>(١)</sup> وكان المارستان الثوري قد بني من فدية أحد ملوك (أمراء) الفرنج»<sup>(٢)</sup>.

ولم ينشأ مارستان هام بعد المارستان الثوري إلا المارستان الكبير المنصوري بمصر الذي أقامه في مجمع بنائي السلطان المنصور قلاوون سنة ١٢٨١/٦٨٢ مع مدرسة بجانبه وقبة فأنجز الأمير علم الدين سنجر الشجاعى بنائه في أحد عشر شهرا وكان السبب في بنائه أن السلطان اعتل بدمشق ورأى مارستان نور الدين واعجب به ورأى تقليده. . . وجعله ذا إيوانات أربعة بكل ايوان شاذروان وبدور قاعتها فسقية. . . ولما نجزت وقف عليها الملك المنصور من الاملاك بديار مصر وبغيرها ما يقارب الف الف درهم في كل سنة ورتب فيها مصارف المارستان والقبة والمدرسة ومكتب الأيتام وقال: قد وقفت هذا على مثلي فمن دوغى وجعله وقفا على الملك والمملوك والجندي والأمير والكبير والصغير والحر والعبد الذكور والإناث. ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض. وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى وقرر لهم المعاليم ونصب الأسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليه في المرض وافرد لكل طائفة من المرضى موقعا فجعل أوابين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها وافرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنساء ومكانا للمبرودين ينقسم بقسمين للرجال وقسم للنساء وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن وافرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية

(١) ابن جبير/ الرحلة (ط. بيروت ١٩٦٤) ص ٢٥٥.

(٢) المقرئزي/ خطط ج ١ ص ٤٠٨.

والأشربة ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال والشياقات ونحوها . ومواضع  
يخزن فيها الحواصل وجعل مكانا يفرق فيه الأشربة والأدوية ومكانا يجلس  
فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ولم يخص عدة المرضى بل جعله سبيلا  
لكل من يرد عليه من غني وفقير ولا حدد مدة الإقامة للمريض به بل يرتب  
منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه . ووكّل الأمير عز الدين أيبك  
الأفهم الصالحى امير جندار في وقف ما عينه من المواضع وترتيب الوظائف  
وجعل النظر لنفسه أيام حياته ثم من بعده لأولاده ثم من بعدهم لحاكم  
(قاضي) المسلمين الشافعي . وقف ذلك في وثيقة وقف سنة ٦٨٠ . . . (١) .

وقد بنى السلطان المؤيد شيخ بين سنة ٨٢١ وسنة ٨٢٣ مارستانا  
وأُنزل فيه المرضى وعملت مصارفه من جملة أوقاف الجامع المؤيدي المجاور  
لباب زويلة فلما مات تعطل قليلا ثم سكنه طائفة من العجم المستجدين .  
وصار منزلا للرسل الواردين من البلاد إلى السلطان ثم صار جامعا (٢) بسبب  
ضيق أوقافه .

وأما في الأندلس والمغرب فلا نسمع عن ظهور مؤسسة للمرضى باسم  
المارستان أو غيره حتى عهد متأخر ونسمع عن ربض يدعى بربض المرض  
حول قرطبة . ويجب أن نتنظر حتى القرن السادس ليظهر أول بيهارستان في  
المغرب على يد السلطان الموحدى يعقوب المنصور . ٥٨٠ - ١١٨٤/٥٩٥ -  
١١٩٩ وقد كان ولوعا بالبناء والمآثر فبنى في مراكش أول بيهارستان كبير . فقد  
كان من حوله في بلاطه عدد من الأطباء المشهورين النازحين من الأندلس  
كأبن الطفيل وابن رشد وابن زهر (الحفيد) وابنه ويبدو أنهم أشاروا عليه

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(٢) مكرر المقرئى / خطط ج ٢ ص ٤٠٨ .

بينائه . وخصصه للغرباء من اغنياء وفقراء . وقد وصف عبدالواحد المراكشي في المعجب<sup>(١)</sup> هذا البيهارستان كما بنى السلطان نفسه عددا من البيهارستانات في مدن مملكته الواسعة منها للمجائين وللمجذمين والعميان وحظيت فاس في هذه الناحية . فبنيت فيها بيهارستانات عديدة على ما يقول ليو الإفريقي - وكان الغرباء يعطون السكن بها لمدة ثلاثة أيام . وكان خارج أبواب المدينة عدد من البيهارستانات تقل جمالا عن التي بداخلها وكانت هذه المارستانات غنية جدا الا إنه في أيام حرب سعيد عندما كان السلطان في أشد الحاجة إلى المال أشاروا عليه ببيع ايراداتها وأملاكها ولما رفض السكان بيعها تقدم أحد وكلاء الملك وافتاه بأن هذه المارستانات أنما أسست بفضل الصدقات التي قدمها اسلافه ومادام يوشك أن يفقد مملكته وقد تدهورت البيهارستانات هذه بعد ذلك حتى غدت لنزول بعض الفقهاء واشراف المدينة حفاظا على بنائها «وليس في أيامنا هذه (مطالع القرن العاشر / ١٦ م) غير مارستان واحد لا طيب فيه ولا علاج» وقد تحول فيما بعد إلى سجن للمجانين الخطيرين بعد أن ضاعت أوقافها<sup>(٢)</sup> .

وقد عني السلاطين المرينيون الكبار كآبي يوسف يعقوب وأبو الحسن وأبو عنان بتلك المؤسسات الصحية التي أنشأها المنصور الموحدي وأنشأوا الكثير من مثلها . ولكنها على ما يبدو كانت باجر معلوم وقد كانوا يستولون على عائداتها حتى اندثرت وآخر المشافي في مراكش قبل العصور الحديثة هو الذي أقامه السلطان السعدي عبدالله الغالب بالله (٩٦٥ - ١٥٥٧/٩٨١ - ١٥٧٤) .

(١) المراكش: المعجب في أخبار المغرب (ط . الفاس ١٩٣٨) ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) مكرر ليو الإفريقي / وصف افريقية ص ٢٢٨ .

وفي غرناطة أقام السلطان النصري محمد الخامس مستشفى رائعا للمسلمين الفقراء والمرضى انتهى من بنائه سنة ١٣٦٧/٧٦٨ وفي النقش الذي كتب عليه أنه لم يقم منذ دخول الاسلام إلى الأندلس مثل هذا البناء . وقد يكون في ذلك بعض المبالغة لكن مشافي أخرى كانت موجودة في غرناطة قبل ذلك<sup>(١)</sup> أما باقي البلاد الأندلسية التي احتلها القشتاليون وغيرهم فكان أول مارستان ظهر فيها للمجانين وكان في مدينة بلنسية وهو أول مستشفى في تاريخ الغرب وقد أقيم على مثال مارستان القاهرة . وكان ينظر إلى المجانين في أوروبا على أنهم مس من الشيطان وتطاردهم الكنيسة بالصلوات .

أما المجذمون فكانوا يخرجون خارج المدينة إلى منازل خاصة بهم تسمى (حارة) المجذمين وكانوا في فاس يقيمون في ظاهر باب الخوخة على طريق تلمسان . نقلوا إلى ظاهر باب الشريعة في المغارات أوائل القرن الثالث عشر . وفي سنة ١٢٦٠/٦٥٨ نقلوا إلى ظاهر باب الجيزة في مغارات أخرى . وفي مطلع القرن الرابع عشر كانوا يسكنون في ضاحية حول سوق الخميس . وفي مراكش كانت لهم حارة في ظاهر باب اغمات وفي أواخر القرن السادس عشر نقلهم السلطان السعدي المنصور إلى ظاهر باب دقالة<sup>(٢)</sup> .

وأما في أفريقية (تونس) فكان أول بيهارستان أقيم فيها هو الذي أقامه السلطان الحفصي سنة ١٤٢٠/٣٢٨ «للمسلمين والفقراء والغرباء والمرضى»<sup>(٣)</sup> .

(١) الموسوعة الإسلامية (ط . فرنسية جديدة) ج ١ ص ١٢٦١ .

(٢) الموسوعة الإسلامية (الطبعة الفرنسية الجديدة) ج ١ ص ١٢٦١ .

(٣) الزركشي / تاريخ الدولتين (ط . تونس ١٢٨٩) ص ١٠٢

### ٣ - الحمامات :

الحاجة الى الحمامات في المدينة الاسلامية غيرها في المدن الرومانية بمعنى ان لها وظيفة مختلفة وبالتالي شكلا بنائيا مختلفا . فحمامات الرومان كانت للنزهة والطعام وتمضية الايام فيها بالمتعة والخمر فوظيفتها اجتماعية اما الحمام في الاسلام فهو حاجة دينية صحية للتطهر الدائم وللنظافة المطلوبة وكلاهما امر شرعي . والشكل التكويني البنائي للحمام الروماني الذي كان يجوي برك السباحة والصلوات لا يراعي ما يراعيه الحمام الاسلامي من الستر ومن فصل النساء عن الرجال ومن اقتصار العمل فيه على الغسل والاعتسال . واذا ذكروا ان هذا الحمام هو ميراث عن التقاليد الرومانية فنحن لا نعتقد ان حضارة اليمن العريقة قد جهلته ولا عرب الشام والحيرة قبل الاسلام ولما كان القرآن الكريم قد نادى بانه تعالى يحب الطهر والمتطهرين فقد ادى ذلك الى ظهور المؤسسة التي تحقق ذلك التطهر في المدن المسلمة .

وهكذا ظهر الحمام مبكرا بين خطط المدينة الاسلامية كمؤسسة اساسية تلي في الشأن ثلوث الجامع ودار الامارة والسوق . وهو يذكر دوما مع مؤسساتها لدى الجغرافيين العرب ويذكر البلاذري ان اول حمام اتخذ في البصرة حمام عبدالله بن عثمان بن ابي العاصي الثقفي . ثم الثاني حمام فيل مولى زياد (وابن ابيه) وحاجبه ثم الثالث حمام مسلم بن ابي بكره ، فمكثت البصرة دهرا وليس بها الا هذه الحمامات وكانت لا تبني في البصرة الا باذن من السلطان . وكان مسلم يستغل من حمامه الف درهم في اليوم . فاتفق ان مرض وعهد الى اخيه عبدالرحمن بحمامه فلما عرف مقدار ما يغل استأذن الوالي في بناء حمام له فأذن . ثم استأذن عبيد الله اخوه في حمام آخر فأذن له واستأذن سياه الأسواري والحصين بن ابي الحر العنبري وربطة بنت زياد ولبابة بنت اوفي الجرشي في حمامين والمنجاب بن راشد الضبي فكلهم اذن



له<sup>(١)</sup> فصار في البصرة اواسط القرن الهجري الأول احد عشر حماما واشتهر منها حمام فيل وكان يضرب به المثل ويذكر ان ابا الاسود الدؤلي كان مع فيل فأنشد .

لعمري ابيك ما حمام كسرى على الثلثين من حمام فيل!

ومن حمامات البصرة المذكورة بعد ذلك حمام بلج المنسوب الى بلج بن كشة التميمي<sup>(٢)</sup> ويبدو ان مؤسسة الحمام ظهرت مبكرة أيضا في الكوفة . ومن اشهر حماماتها حمام اعين المنسوب الى أعين مولى سعد بن أبي وقاص . وكان الساسانيون تحت تأثير البيزنطيين قد بنوا في كل مدينة حماما على زمن الملك قباد الذي اعجبه حمام آن فأمر بتقليده بكل مدن فارس<sup>(٣)</sup> ويذكر الطبري ان الفرس لم يكن لهم قبل الاسلام حمامات<sup>(٤)</sup> ومن الصعب التعرف الى شكل هذه الحمامات الاسلامية الاولى ولكن اطلال العصور الأموية في الشام قد تحمل على الاعتقاد بتشابه اوائل الحمامات في الشام مع الحمام الروماني كما في قصر عمره وقصر المعجز وقصر المشتي وقصر الحر الغربي ولكنها سرعان ما تحولت الى الشكل الاسلامي الخاص بها . وقد ذكر ان عمرو بن العاص بنى في القسطنطينية حماما<sup>(٥)</sup> . وانتشرت الحمامات في المدن الاسلامية المختلفة وحملها المسلمون معهم الى المغرب والاندلس بشكل بنائها الاسلامي حتى لنستطيع القول بأنه كما لم تخل اي مدينة اسلامية من جامع واسواق فإنها لم تخل من حمام . ولقد يخلو بعضها من دار امانة في المدن

(١) ياقوت: البلدان ج ١ ص ٤٣٥ والبلاذري - فتوح (ط . المنجد) ص ٤٣٤

(٢) نفسه ج ٢ ص ٢٩٩

(٣) متر: الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٢٢٣

(٤) ابن دقماق ج ١ ص ١٠٥

(٥) ابن دقماق ج ١ ص ١٠٥

الصغرى ولكن الحمام يكون موجودا . بسبب حاجته الوظيفية . ويبدو ان قيد الاذن الذي كان موجودا اول الامر عليها قد زال مبكرا فإنا لا نسمع عن أخذ اذن ببناء حمام تماما كما لم يسمع باذن لبناء مسجد . ولكن سلطات المدينة كانت تشرف بواسطة المحتسب على انشائها واجراء مائها وعلى قنوات الصرف . وكثرتها الواضحة في المدن تدل على انها عمل مربح جدا من الناحية الاقتصادية لاصحابها الا انها بالنسبة لزبائنها كانت مؤسسة دينية صحية اولا واجتماعية بعد ذلك وروي عن سفيان الثوري قوله : مادرم ينفقه المؤمن هو فيه اعظم اجرا من درهم صاحب حمام ليخليه له . . . (١) .

والأرقام الاحصائية التي ذكرت لحمامات المدن الكبرى ، رغم ما قد يشوب بعضها من مبالغة ، يمكن ان تعطينا فكرة عن ان الحمامات العامة كانت جدا فيها فعن بغداد (العاصمة) يقول اليعقوبي :

«وأحصيت الحمامات (ببغداد) فكانت عشرة آلاف حمام سوى ما زاد بعد ذلك . . . (٢) (مقابل ٣٠ الف مسجد) . ويأتي الخطيب البغدادي ليجعلها ستين الف حمام و ٣٠٠ الف مسجد ايام الموفق (في الربع الثالث من القرن الثالث) (٣) .

وهلال الصابىء قبل اواسط القرن الخامس كتب يقول : (على لسان احد من كتبوا عن بغداد) : «لا نقول كالذي قالوه في عدد الحمامات . . . وانها مائتا الف حمام دون ما فوقها من الزيادات ثم قال آخرون : بل هي مائة وثلاثون الف حمام ، كما قالوا مائة وعشرون الفا . . . وبه قال الشاه بن ميكال

(١) مكرر المقرئ / خطط ج ٢ ص ٧٩ .

(٢) اليعقوبي : البلدان ص ٢٥٠ .

(٣) انظر الخطيب البغدادي ج ١ ص ٧٤ - ٧٦ والموسوعة الاسلامية (الطبعة الفرنسية) مادة بغداد ص ٩٢٥ .

وطاهر بن محمد الطاهري . ثم قالوا من قبل ومن بعد ثم قالوا من قبل ومن بعد بما زاد على مائة الف وربما انتقص منها قررنا اختلافهم على حد نرجوه عدلا متوسطا . . . واقتصرنا على ستين الف حمام استطهارة وجعلنا العلة في ذلك أن نأخذ وسط ما ذكروه من اعدادها . . . « ويضيف هلال الصابئي بعد ذلك نقلا عن جده ان الحمامات احصيت في ايام معز الدولة فكانت سبعة عشر الف حمام وانهم عجبوا من انتهائها الى هذه العدة مع كونها في ايام المقتدر . . . سبعة وعشرين الف حمام . ولقد عدت ايام عضد الدولة فكانت خمسة آلاف . . . وكسرا وفي ايام بهاء الدولة سنة ٣٨٢ فكانت الفا وخمس مائة حمام ونيفا وهي الان (اواسط القرن الخامس) مائة ونيف وخمسون حماما . وقد كنت اعجب من الحكايات المختلفة في ذلك حتى قام عندي برهان فيه وهو انه باب المراتب المعمور في ثلاثين دارا مسكونة منه . . . خمسة عشر حماما فإذا كان ذلك في هذه الدور القليلة والعدة من الخواص القريبة فما كانت عدة خواص الناس في ايام المعتضد من الوزراء والكتاب والخواشي والاصحاب والامراء والقواد والاشراف والقضاة والشهود والتناء والتجار وأولى المروات والاحوال السوافرات تنقص عن خمسين الف انسان اذا استظهرنا بالاقصصار على ذلك ولا تخلو دار كل واحد منهم من حمام على القليل والاف في دور كل منهم الحمامات . واذا ثبت هذا القول اطردت به تلك الدعوى ووجب ان يكون قول المكثراغلب من المقتصر . . .<sup>(١)</sup> وقد افضت حمامات بغداد ايام المستنصر والناصر (القرن ٦ - ٧) الى نحو الالف حمام وابن كثير يجعلها ٦٠ الف بازاء كل منها خمسة مساجد . ولقد بالغوا في بغداد كثيرا لانها كانت عاصمة الدنيا فكانوا يكتبون تقديراتهم

(١) هلال الصابئي : رسوم دار الخلافة ص ٢٠ - ٢٢ من النص (ت . ميخائيل عواد/ بغداد ١٩٦٤).

المتضخمة بالوهم عنها ايام غيرها لا واقعها نفسه حتى أن الصابئ ليذكر ان عدة حمامات دار الخلافة بلغت ٤٠٠ حمام . . . (١).

ولم يبلغ بهم الامر هذا المبلغ من المبالغة في المدن الاخرى بل صغرت هناك الى ما يقرب من الواقع او الى نسبة محدودة من المبالغة فقد ذكروا ان في قرطبة ٣٧١١ حماما (مقابل ١٣٨٧٥ مسجدا) تخدم ١١٣ الف دار للرعية و ٦٣٠٠ لأهل الدولة والخدم والاجناد ثم نقصت الى ٧١١ حماما وافضت مساجدها الى ٣٨٧٧ مسجدا . . . (٢) ذكر المقرئ انها ٦٠٠ زمن المنصور ابن ابي عامر . وفي فاس ذكر الجزائري انه كان بها في عهد المرابطين والموحدين (القرن ٥ - ٦ / ١١ - ١٢ م) ٧٨٥ مسجدا و ٤٢ درا للوضوء والسقايات ثمانين والحمامات ثلاثة وتسعين . . . ».

وتتواضع عشرات الالوف لتصبح مئات او عشرات في المدن الاخرى . فدمشق احصى ابن عساكر حماماتها فردا باسمائها في تاريخه مدينة دمشق فكان منها داخل السور ٥٧ حماما (٣) وبعد قرن منه جاء ابن شداد فذكر فيها ابن شداد اثنين وسبعين حماما عدا حمامات المزة والنيرب والصالحة والبساتين وبيت لهما) كما ذكر في مدينة حلب ٧٠ حماما داخل السور و ٩٤ حماما خارجه مع ٧٠ حماما خاصا فالمجموع ١٩٥ حماما ثم كتب ابن زفر الأربلي انها ٧٤ (ت ٧٢٦٠) والمقرئ يذكر نقلا عن القاضي القضاعي (المتوفى سنة ٤٥٤) «انه كان في مصر الفسوطا الف ومائة وسبعون حماما . وقال ابن المتوج ان عدة حمامات مصر في زمنه (ت . سنة ٧٣٠ / ١٣٢٩)

(١) مكرر الصابئي : المصدر نفسه ص ٨ من النص

(٢) ابن عذارى / البيان المغرب / وانظر بلباس / مجلة العهد المصري للدراسات الاسبانية ج ١  
١٤ ص ١٠٢ .

(٣) ابن عساكر / تاريخ مدينة دمشق ج ١ / ٢ (ط . المخبر / دمشق ١٩٥٤) ص ١٦٢ - ١٦٤ .

بضع وثمانون حماما وذكر ابن عبد الظاهر ان عدة حمامات القاهرة الى آخر سنة ٦٨٥ تقرب من ثمانين حماما او اقل ، وذكر المسيحي في تاريخه ان العزيز الفاطمي اول من بنى الحمامات في القاهرة . ثم يذكر المقرئ بعد ذلك تعدادا بالاسماء ٣٦ حماما في القاهرة المملوكية . . . (١) ويذكرون ان في تونس اربعين حماما (٢) وذكر البكري ان في القيروان ٤٨ حماما ٨ منها حمام الجزارين .

نخلص من كل هذا الى القول بان كثرة الحمامات وقلتها في المدن كانت تتبع اعداد السكان فيها وان المدن الكبرى هي التي حظيت باهم اعداد هذه المؤسسة علما بان بعضها قد جرى تعديده وقد يكون مندثرا .

ولم يكن المخطط البياتي لحمامات العالم الاسلامي واحدا فقد ظهرت في أوائلها ، في العهد الاموي في الشام المسابح وصالة الالعاب والرياضة المغطاة في داخلها على الطراز الروماني والمسماة ثم اندثرت وبقيت في الحمام منذ القرن الثاني المرافق الخاصة بالاعتسال وهي ، بصرف النظر عن المخططات المختلفة حسب البلاد بل بين حمام واخر في البلد الواحد تتكون من مدخل مفتوح (توضع عليه ستارة حين يكون مخصصا للنساء) ومن دهليز ملتوي يقوم وراءه ايوان او قاعة واسعة تستخدم مشلحا للثياب (محرس) كما في المغرب وعليها حراس ثم يأتي البراني وهي الغرف المدفأة والوسطاني وهي اشد حرارة ثم الجواني وهي الغرف الحارة وفيها مغطس او اكثر . ويقوم فيه بعد ذلك بيت النار وهو اشد اقسام الحمام حرارة وموقعه فوق الموقد والحمام مغلق كله . ويستمد نوره من اعداد كبيرة من الزجاج الملون الكثيف في سقفه . وثمة من الخارج موقد النار الذي لا صلة له بالحمام سوى انه يجعل

(١) المقرئ / خطط ج ٢ ص ٧٩ .

(٢) الموسوعة الاسلامية (النسخة الفرنسية) ج ٣ ص

الماء حارا في بعض انابيه في حين تكون المياه الباردة في بعض الانابيب الاخري . وهذه قد تقام الحمامات ضمن المجموعات البنائية التي كان يقيمها المماليك في مصر والشام وهي تخدم الجماعة السكنية فيها كما تخدم الناس . وقد تكبر الحمامات وتصغر لا حسب السكان المتفعين فقط ولكن حسب قدرة بانيتها المادية وحسب الرقعة المتاحة وكان ثمة في مصر الفسطاط حمام شديد الصغر يسمى بحمام الفأر وثمة في وثائق الوقف وغيرها أوصاف تفصيلية للحمامات وأوقافها تكشف مخططاتها وقدرتها المالية .

وتشكل الحمامات السابقة للعصر السلجوقي في ايران وفي تركيا فصلا كبير الشأن في تاريخ الحمامات وخاصة فيما يتعلق بشكل البناء الذي نجم عنه تلك الحمامات التركية المعروفة وهي أحكم وأمتن من الحمامات الصفوية . كما في كاشان وغيرها .

وقد تحدثنا حتى الآن عن الحمامات العامة لكننا يجب ألا ننسى أن في القصور ودور الكبراء والأثرياء كما أشار هلال الصابىء نفسه أكثر من حمام خاص . والحمامات الخاصة كانت منتشرة في جميع البيوت التي يتمكنها أهلها من تأمين نفقات الوقود لها ويتوافر في دورهم الماء الجاري وليست متعة الحمام وحدها هي التي جعلته يظهر في القصور والدور الخاصة ولكنه أيضا الرغبة في الانفصال الاجتماعي عن الأمكنة التي يرودها العامة .

على أن الحمامات الخاصة مهما كثرت فإنها تظل محدودة العدد وتظل وظيفة الحمامات العامة قائمة . وقد ذكر الفقيه ابن الحاج : «أن الواحد يشتري الدار أو يبنيتها بنحو الألف (دينار) ولا يعمل بها موضعا للوضوء أو للغسل» لذلك طالب بعض المعاصرين المحتسب بأن يأمر بفتح الحمامات العامة وقت السحر «لحاجة الناس إليها للتطهر فيها قبل وقت الصلاة»<sup>(١)</sup> .

(١) ابن دقمان : الانتصار ص ١٠٥ .

وحمامات المغرب عامة وبخاصة حمامات غرناطة وتلمسان في القرنين الخامس والسادس هي أبسط مخططا من حمامات المشرق وتشابه فيما بينها، وقد زادت وتعمدت في المغرب في العهد المريني تقليدا للحمامات الأيوبية وكانت حمامات المشرق تزين من الداخل بصور هي بقايا من مناظر الصيد والقنص التي نشهدها في الحمامات الأموية وفي الحمامات البيزنطية قبلها وفي حمامات سامراء كانت الدرجات تزين بالصور بدلا من البلاط. . المختلف الألوان وهي عادة كانت معروفة في الشام وترجع إلى العصر الأخير من الحضارة اليونانية في المشرق. وقد ذكر المسعودي أن الناس كانوا يصورون العنقاء في الحمامات وهي طائر خيالي بوجه انسان ومنقار نسر وأربعة أجنحة ويدين ذواتي مخالب. ولعل هذا ما جعلهم يدعونها في القرن الثالث قبل أيام القاهر بالحمامات الرومية بينونها للحرم<sup>(٢)</sup>. وكانت الحمامات تطل بالقار في المشرق خوف تسرب دفتها. يقول ابن جبير «وأما حماماتها (بغداد) فلا تحصى عدة. ذكر لنا أحد أشياخ البلد أنها بين الشرقية والغربية نحو الألفي حمام وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل للناظر أنها رخام أسود صقيل. وحمامات هذه الجهات أكثرها على هذه الصفة لكثرة القار عندهم لأن شأنه عجيب يجلب من عين بين البصرة والكوفة وقد أنبط الله ماء هذه العين ليتولد منه القار فهو يصير في جوانبها كالصلصال فيجرف ويجلب وقد انعقد. . .» ثم يجري تخفيفه على النار وتقطيعه قوالب للبيع ويحمل إلى عكا. . .»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن الحاج: المدخل ١٦١ وابن الأخوة/ معالم القرية ص ١٥٦ والشيزري: نهاية الرتبة ص

(٢) المسعودي / مروج ج ٣ ص ٢٩ ومسكويه / تجارب الأمم ج ٥ ص ٤٤٩.

(٣) ابن جبير/ الرحلة ص ٢٠٤ - ٢٠٥ وص ٢٠٩ (حول الفيارة).

وتبنى الحمامات في الغالب عند أبواب الجوامع في المغرب خاصة وقد تبنى فتقوم من حولها الأحياء السكنية . وبعضها يخص للرجال وبعض للنساء . وقد يخصص الحمام الواحد نفسه للرجال أياما معدودة في الأسبوع وللنساء مثل ذلك ويسدلون ستارة على الباب إشعارا بذلك . وقد يكون قبل الظهر أو بعده للرجال ونصف النهار الآخر للنساء حسب نظام يجري التعارف عليه لكل حمام . وثمة من هذه الحمامات العامة ما هو ملحق بالوكالات أو بالخانات أو بالأربطة بسبب الحاجة إليها في هذه الأماكن . ولم تكن القرى تخلو أحيانا كثيرة من حمام فأكثر قرى هذه البلدة (دمشق) كان بها حمامات «كما ذكر ابن جبير»<sup>(١)</sup> وكذلك في مصر كما في منية الخصيب وغيرها .

حسب ما ذكر هلال الصابئ (في القرن الخامس) عمال مختصون يقول : ثم نظرنا في قدر ما يحتاج إليه كل حمام من القوام الذين لا قوام له إلا بهم فوجدنا الحمام محتاجا إلى ستة نفر هم : صاحب الصندوق (ويدعى في فاس باسم الجلاس ، وفي دمشق في العصر المملوكي بالمعلم) والقيم ، والوقاء (ويسمى في فاس بالسخان) والزبال (ويسمى بالكبار) وفي دمشق بالقميمي - من القمامة) والمزين (أي الحلاق الذي قد يخلق شعر الابطين والعانة كما ذكر أسامة بن منقذ في الاعتبار) والحجام (وهو نوع من الطبيب للحجامة باعتبار أن الحمام قد يستقطب به من بعض الأمراض<sup>(٢)</sup>) كالمفاصل - الروماتيزم وغيرها) لأنه الطبيب الصامت كما يسمونه وربما أطاف بالحمام ضعف هذا العدد . ولكننا ركبنا سفن الاستظهار في معناها هذا . . . .<sup>(٣)</sup>

(١) ابن جبير / الرحلة ص ٢٤٩ .

(٢) انظر فوائد الحمام الطبية مثلا لدى الشيرزي في نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٨٦ - ٨٧ .

(٣) هلال الصابئ : رسوم دار الخلافة ص ١٩ .



ويبدو أن وظيفة المدلك أو الدلاك والمكيس أو الكياس أو الحكاك قد أضيفت إلى أعمال الحماميين بعد ذلك فثمة مختصون بالتدليك بين عمال الحمام وثم من يفرك بالأكياس الخشنة الجلد ليسقط الميت منه .

وثمة إشارات في المصادر حول حمامات دمشق في القرن السادس وما بعده تذكر أن كثرة الحمامات فيها دعت إلى التنافس وإلى حرص كل صاحب حمام على تقديم أفضل خدمة لزيائنه المستحمين .

ومن المؤكد أن حمامات الشام بوجه خاص أثارت دهشة الفرنج ، أيام الحروب الصليبية ، وأثارت اعجابهم وكان بعضهم يتردد عليها للاستحمام والحلاقة . أشار إلى ذلك أسامة بن منقذ في الاعتبار<sup>(١)</sup> وعن طريق الشام انتقلت مؤسسة الحمام إلى أوروبا ولم تكن موجودة فيها من قبل . وكانت حمامات مصر بدورها متقنة وعبد اللطيف البغدادي الطبيب يقرر (أواخر القرن ٦) في كتابه أخبار مصر أنه لم يشاهد في البلاد كافة « أتقن منها صنعا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا »<sup>(٢)</sup> على أن حمامات القاهرة التي بنيت في العصر المملوكي كانت مع ذلك أشد اتقاناً وزخرفة . ولم يكن اعجاب الرحالة الاوروبيين بحمامات المشرق بعد ذلك أقل من الفرنجة الصليبيين . وكل منهم كتب عنها وأشاد بها . وكان من الطريف أن يأخذ الغرب مؤسسة الحمام عن المشرق لا عن الأندلس لأنهم هناك كانوا يعتبرون الاستحمام دليلاً على الإسلام ويعاقبون صاحبه بالموت . وكانوا يراقبون مخارج المياه من البيوت من أجل ذلك . ومحاكم التفتيش لم تكن تحتاج أكثر من هذا الدليل للحكم بالقتل .

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٢٦ (واعتبره من قلة النخوة) .

(٢) عبد اللطيف البغدادي : أخبار مصر ص ١٦٦ .

وكان الحمام الاسلامي مراقبا لا من حيث البناء فقط ولكن من حيث القومة عليه والعاملون فيه خاصة والمحتسب هو الذي يقوم «بأمرهم بغسل الحمام وكنسها وتنظيفها بالماء الحار غير ماء الغسالة . يفعلون ذلك مرارا في اليوم ويدلكون البلاط بالأشياء الخشنة لثلا يتعلق بها الصدر والخطمي والصابون فتزلق أرجل الناس عليها . ويغسلون الخزانة من الأوساخ المجتمعة في مجاريها . . في كل شهر مرة . لأنها إن تركت أكثر من ذلك تغير الماء فيها في الطعم والرائحة . وإذا أراد القيم الصعود إلى الخزانة لفتح الماء إلى الأحواض فينبغي أن يغسل رجليه بالماء ثم يصعد لثلا يكون قد خاض في الغسالات ولا يسد الأنابيب بشعر المشاطة بل يسدها بالليف والخرق الطاهرة . . . ويشعل البخور في كل يوم مرتين . . ومتى برد الحمام فينبغي أن ييخرها القيم بالخزامي . . . يسمح بدفع الجلود في مياه الحمام بسبب رائحتها . ولا يجوز أن يدخل المجذوم والأبرص إلى الحمام . وينبغي أن يكون للحمامي ميازر يؤجرها للناس أو يعيرها لهم فإن الغرباء والضعفاء قد يحتاجون إلى ذلك ويأمرهم المحتسب بفتح الحمام في السحر لحاجة الناس للتطهر قبل الصلاة ويلزم الناظر حفظ ثياب الناس فإن ضاع منها شيء لزمه ضمانه . . . » ثم يذكر الشيزري شروط الحلاقة وألا يحلق شعر صبي إلا بإذن وليه وأن يأمر المدلك أن يدلك يده بقشور الرمان لتصير خشنة . ويلزم المحتسب أن يتفقد الحمام كل يوم مرارا فإن رأى أحدا قد كشف عورته عزره على كشفها . وهذه القضية هي التي دعت عددا من الفقهاء الورعين إلى النظر نظرة الارتباب إلى الحمام . فقد رووا أن الزمخشري كان يكره أن يعطي زوجه أجرة الحمام لثلا يعينها على المكروه ويذكر أن عليا بن أبي طالب قال : بشس البيت الحمام . تكشف فيه العورات وترتفع فيه الأصوات ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله<sup>(١)</sup> والسيوطي أباحه للرجال بشروط وجعله مكروها

(١) الغزولي: مطالع البدورج ٢ ص ١٧ .

للنساء . وعاب ابن الحاج على معاصر كشف عاناتهم فيه ونصح بعدم السماح للنساء بدخوله مما اشتمل عليه من المفاسد والفوائد الرديئة<sup>(١)</sup> وحكى الخشني في طبقاته أن معتب بن رباح وكان من صلحاء القرن الثاني يعصب عينيه إذا دخل الحمام بالقيروان وكان معه من يقوده لثلاث تقع عينه على ما لا يحل<sup>(٢)</sup>

على أن الحمام ما كان لدى الجماعة الإسلامية للتطهر فقط ولكن أضيفت إليه مع الأيام وظيفة اجتماعية . فقد صار القسم الخارجي منه (المشاح) مجالا للراحة والاستجمام وصار نساء الطبقة الراقية يأتون معهم إليه بالخدم وصار يوم الحمام (الذي قد يكون شهريا) يوما من أيام الاحتفال تستعد له الأسرة بالطعام والثياب وما يحتاج قبل أيام . وصار له دوره في الأعراس عند الاحتفال باغتسال العروس ، وبعد الولادة عند اغتسال النساء .

وفي المغرب قد تجتمع فيه نساء الحي كمكان لقاء وتبرز فيه المفاخرة بالحلي والملابس . وقد اعتبر الاستحمام ضرورة دينية وسلوكا اجتماعيا فكان يصرف للطلاب في العهد المملوكي بدل حمام تماما كما يصرف لهم بدل الطعام والنفقة وقد دخل في الحكاية الشعبية بسبب عمق أثره الاجتماعي فصار أيضا مقرا للجان ولغامرات الشطار .

٤ - النظافة والصرف : على الرغم من المعلومات الشحيحة جدا حول هذه الناحية الهامة في المدن الإسلامية فمما لاشك فيه أن كل مدينة كان لها نظامها الخاص بالنظافة وطريقتها في الصرف وإلا لما كان من الممكن

(١) ابن الحاج : المدخل ج ٢ ص ١٧٣ .

(٢) الخشني : الطبقات ص ١٢٢ .

استمرارها الحياتي وقد ظهر ذلك مبكرا والأحياء كانت تؤمن النظافة عن طريق جماعات عرفوا بذلك . فقد كان المحتسب « يأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ والطين المجتمع » وكل ما فيه أذية واضرار على السالكين كالميازيب الظاهرة من الحيطان زمن الشتاء ومجاري الأوساخ الخارجة من الدور في زمن الصيف إلى وسط الطريق . . . بل يأمر المحتسب أصحاب الميازيب أن يجعلوا عوضها مسيلا محفورا في الحائط مكلسا، يجري فيه ماء السطح وكل من كان في داره مخرج للوسخ إلى الطريق فإنه يكلفه سده في الصيف ويحفر له في الدار حفرة يجتمع إليها . . . »<sup>(١)</sup> وقد ذكر واقعته لعربي اختصم في البصرة مع مولى، في العهد الأموي فقال المولى: لأكثر الله فينا مثلك فقال العربي بل كثر الله فينا مثلك فقالوا للعربي ايدعو عليك وتدعو له قال: بلى! يخلصون نعالنا ويكسحون طرقتنا. فعملية كسح الطرق كانت اذن قائمة في المدينة. وكان للمؤسسات العامة قومه مسؤولون عن نظافتها كالجوامع والقياسر والأفران. وكان الحجاج . . .

وأما أنظمة الصرف وهي من المسائل العسيرة فكانت مختلفة من مدينة إلى أخرى تحلها حسب وضعها الجغرافي:

— فما كان منها على مجر فإن مجاري المياه القذرة والحمامات والمصانع والمدابغ تصرف إليه .

— وما كان منها على نهر غزير الماء كدجلة والنيل كان الصرف إليه أيضا ويمنع المحتسب السقائين وأصحاب الروايا والقرب من الإقتراب من هذه المصارف « ويأمرهم بالدخول في النهر حتى يبعدوا عن الشط ومواضع الأوساخ . . . ولا يستقون من موضع في النهر بقرب من سقاية للدواب أو

(١) الشيزري: نهاية الرتبة ص ١٤ .

مستخدم أو مجرى حمام بل يصعدون عنه أو يبعدون من تحته . . .»<sup>(١)</sup>.

— وما كان منها غزير المياه جعل أصحابه من تحت المدينة شبكة من المجاري المتصلة تفض إلى نهر يخرج من المدينة . كنهر قليط في دمشق .

— وأكثر المدن على احتفار حفر في البيوت تجري إليها الأوساخ والأقذار حتى يتسرب ماؤها شيئاً فشيئاً . ثم يجري نزح الفضلات بين فترة وأخرى . وقد سئل الفقيه ابن الصائغ عن طين الأسواق والحارات هل يلزم أهلها برفعه وعن الماء النجس ينزع من الآبار في الطريق فيضر بالمارة فأجاب إذا كان في زوال ذلك مصلحة أجبر على زواله . ويزيل كل قوم ما يقابلهم ويمنع اجراء النجاسات في الطرق<sup>(٢)</sup> . وقد تباع هذه الفضلات كما في البصرة لتسميد الأرض وكان في هذه المدينة تجار لهذه المهمة . وكان ذلك موضوع تندر لأصحاب النوادر الذين يحكون أن بعض أهل المدينة دخل البصرة فسئل عنها فقال : خير بلاد الله للجائع والمفلس . أما الجائع فيأكل خبز الأرز والصحناء وأما المحتاج فلا عليه ما بقيت عليه استه . أو يبيع<sup>(٣)</sup> . وكان الناس يتحامون حفر آبارهم قريبة من هذه الحفر .

— وكان الروث الحيواني المجفف وبعض البقايا والأوساخ الانسانية تباع وقوداً للحمامات وأما الباقي فيرمى في الأرياض اكواما خارج المدينة .

ويبدو أنه كان ثمة ضامنون أي ملتزمون لأعمال النزح كانوا يسمون بالمشاعلية (أو السرابانية) وكان الضامن تحت اشراف المحتسب يضمن ذلك بمبلغ من المال يؤديه للسلطان ويجمعه من أجور «كسح الأقنية وحمل ما يخرج

(١) الشيرزي : المصدر نفسه ص ١١٧ .

(٢) يحيى بن عمر : أحكام السوق ص ٩٥ (هامش ٥١) .

(٣) ياقوت : البلدان ج ١ ص ٦٤٨ الدينوري عبون الأخبار (ط . بروكلمات ص ٢٦٥) .

منها من الوسخ إلى الكيمان . فكان إذا امتلأ سراب جامع أو مدرسة أو تربة أو منزل من منازل سائر الناس لا يمكنه .

وكان الحجاج حريصا على نظافة مدينته واسط يمنع الأعراب من دخولها وتوسيع أزقتها ويجازي على ذلك وقد قال أحدهم :

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط ضربنا وبلنا لا نخاف عقابا .

وكان في بغداد عند بنائها زمن المنصور من يقوم على كنس ساحتها وشوارعها من الأتربة ونقل ذلك إلى خارج المدينة . ويذكر المقرئزي أنه « كان يقام في القصبة قوم يكتسب الأتربة والأتربة ونحوها ويرشون كل يوم ويجعل في القصبة طول الليل عدة من الخفراء يطوقون بها لحراسة الخوانيت وغيرها ويتعاهد كل قليل بما عساه تربي من الأوساخ في الطرقات حتى لا تعلق الشوارع . . . »<sup>(١)</sup> .

ويبدو من بعض كتب الحسبة في عهد صلاح الدين أن الإشراف على نظافة المدينة كان من عمل المحتسب وأنه كانت ثمة أوقاف « لعمارة الطرق ، وتنظيفها وتشبيد جوانبها وترصيعها باعتبارها (أي المحتسب) متولي أوقافها ، الناظر في مصالحها ومصارفها . »<sup>(٢)</sup> وكان القصابون يمنعون من الذبح على أبواب دكاكينهم لأنهم بذلك يلوثون الطرق ويضيقون على الناس<sup>(٣)</sup> .

(في العصر المملوكي) ولو بلغ عن العظمة ما عسى أن يبلغ التعرض لذلك حتى يأتيه ضامن الجهة ويقاوله على كسح ذلك بما يريد . وكان من عادة الضامن الاشتطاط في السوق وطلب أضعاف القيمة . فإن لم يرض رب

(١) المقرئزي خطط ج ٢ ص ١٠٧ .

(٢) العماد الاصفهاني / البرق الشامي (تحقيق فالح صالح حسين . عمان ١٩٨٦) ص ١٣٨ .

(٣) ابن الأخوة : معالم القرية في طلب الحسبة ص ٩٩ .

المنزل بما طلب الضامن وإلا تركه وانصرف فلا يقدر على مقاساة ترك الوسخ ويضطر الى سؤاله ثانيا فيعظم تحكمه ويشتد بأسه إلى أن يرضيه بما يختار حتى يتمكن من كسح فئائه ورفع ما هنالك من الأقدار. . . «<sup>(١)</sup> ويبدو أن هذا العمل كان يجري في الليل لئلا يؤذي الناس وعلى ضوء المشاعل ومن هنا كان اسم عماله بالمشاعلية . كما يبدو أن الحمامات بخاصة كانت تعتمد في وقودها على هذه «المزابل» التي تقوم في ظاهر البلد وتتكدس فيها اوساخ المدينة حتى تهتريء وتتخمر مع الأيام وتصبح صالحة للإحراق . ويستهلكها «قميم» الحمام أي موقده .

## ٢ - المرافق الدينية :-

سبق أن ذكرنا العديد من هذه المرافق : كالمساجد والزوايا والربط وغيرها كما كنا ذكرنا الإحتساب هذه المؤسسة الدينية المدنية وبقي أن نضيف إليها ذلك المرفق الذي يتكفل بنفقات كل ذلك بجانبه ما ينفقه السلطان عليها . وهذا المرفق هو الأوقاف بالإضافة إلى بعض الأعمال الخيرية الأخرى .

أ - الأوقاف (الأجناس) : هي نظام إسلامي يستمد فكرته الأساسية من مبدأ «الصدقة الجارية» . ولهذا فإنه يستهدف إقامة التكافل الاجتماعي لا بشكل عرضاني بين أهل الجيل الواحد ولكن بشكل عمودي عبر الأجيال المتعاقبة بعضها وراء بعض لإقامة الخير وضمان استمراره . ولما لم يكن في الإسلام من طبقة كهنوتية تقوم على رعاية المؤسسات الدينية وترميمها والانفاق على خدمتها فقد كان الوقف هو الحل الأمثل لذلك كما كان الحل الأمثل لاستمرار البر والصدقات متصلة من جيل إلى جيل . وبالرغم من أن

(١) المقرئزي / خطط ج ١ ص ٨٩ .

كلمة «الوقف» (أو «الحبوس» كما تسمى في المغرب) لم ترد في القرآن الكريم ولا في أحاديث الرسول الأعظم فإن للوقف سنده من السنة فقد روي عن عثمان بن عفان أنه قال أن النبي ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر روقة فقال: من يشتري بئر روقة فيجعل دلوه منها مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة؟ فاشتريتها من صلب مالي وجعلها للمسلمين.

وكانت هذه الخدمات وأمثالها كتنظيف الجامع أو الأذان فيه أو إمامة الصلاة إنما تتم في أيام الإسلام الأولى تطوعا وتكفل الدول بنفقات البناء والترميم لمختلف وجوه الخير ومؤسسات العبادة في المدينة ولم يكن ثمة رزق لمن يتطوع لكن الحاجة ما انفكت تزداد الحاحا بوجوب تحويل التطوع إلى تنظيم محدد ويبدو أن ذلك كان في مطلع القرن الثاني الهجري فكان الناس يوقفون بعض الموارد على جهات البر العامة وتتولى السلطة أو بعض ذريته الواقف إيصال النفقات الخيرية إلى وجوهها. لكن ذلك كان على قلة. «ولم تكن الأحباس تعرف إلا في الرباع وما يجري مجراها من المباني». . . وأما الأراضي فلم يكن سلف الأمة من الصحابة والتابعين يتعرضون لها وإنما حدث ذلك بعد عصرهم»<sup>(١)</sup>.

وكان أمير البلد هو الذي يتولى إمامة الصلاة في المسجد الجامع في الجمعة والصلوات الخمس ويشرف عليه. وقد يستخلف عنه في الصلاة صاحب الشرطة إذا شغله أمر ولكن كثرة المساجد والجوامع في المدن المختلفة الجأت إلى تعيين رجل يرزق من بيت المال ليصلي بالناس وكذلك المؤذنون. وقد تنامي هذا النظام حتى وصل إلى الأمير نفسه فقد ترك الإمامة لمن يرزق بها. وفي مصر مثلا كان آخر من صلى بالناس من الولاة عنيسة بن اسحق

(١) المقرئزي: خطط ج ٢ ص ٢٩٤ - ٢٩٥.



(٢٣٨ - ٢٤٢) واكتفى الأمراء في مختلف الأقطار بإدارة الدولة وتركوا وجوه البر وصيانة المساجد في المدن المختلفة للإحباس التي تحبس عليها بصورة خاصة وقد ينفقون على بعضها من أموال الدولة. ويذكر المقرئزي أن أحمد بن طولون لما بنى الجامع (في القطائع) والمارستان والسقاية حبس على ذلك الاحباس الكثيرة ولم يكن فيها سوى الرباع ونحوها بمصر ولم يتعرض إلى شيء من أراضي مصر البتة. . . . وحبس أبو بكر محمد بن علي المارداني (في مطالع القرن الثاني) بركة الحش وسيوط وغيرها على الحرميين (الشريفين) وعلى جهات بر وحبس غيره أيضا. . . .<sup>(١)</sup> بمعنى أن الاحباس اقتصرت على المدن ومرافقها، سواء في العقار المحبوس أم في الجهة المحبوس عليها.

وقد أنيطت الاحباس في المشرق كما أنيطت في المغرب بالقضاة منذ ما قبل القرن الرابع باعتبارها خطة دينية. وحين قدمت الدولة الفاطمية على مصر بطل (رسميا) تحبوس البلاد وصار قاضي القضاة يتولى أمر الاحباس من الرباع وإليه أمر الجوامع والمشاهد. وصار للإحباس ديوان مفرد. . . .

ويبدو أن الاحباس صارت في هذا لقرن كثيرة وذات موارد تتضخم باستمرار. في حين كانت الفوضى تدب في إدارتها وتعرضها لكثير من الخلل في المدن المختلفة. ويذكرون أن المعز الفاطمي أمر أول ما قدم سنة ٣٦٣ إلى مصر بحمل مال الاحباس من المودع إلى بيت المال الذي لوجوه البر. وطولب أصحاب الاحباس بالشرائط ليحملوا عليها وما يجب لهم فيها وقد «ضمن الاحباس محمد بن القاضي ابي الطاهر محمد بن أحمد بألف ألف وخمسةائة ألف درهم في كل سنة (بمصر). يدفع إلى المستحقين حقوقهم

(١) المقرئزي / الخطط ج ٢ ص ٢٩٥.

ويحمل ما بقي إلى بيت المال<sup>(١)</sup> وكانت الأحباس قد بدأت تأخذ اتجاهين :

– أوقاف الخير التي تحبس على عمارة المساجد والزوايا والمدارس وإصلاح القناطر والطرق العامة وعلى الغرباء والفقراء .

– أوقاف الذرية وهي التي يوقفها بعض الناس على ذريتهم وهو نوع من ضمان الموارد للأهل . ولكنها تنتهي على أي حال إلى عمل من أعمال البر .

كما أن الأحباس كانت قد بدأت من ناحية أخرى تؤثر في عمران المدن . بعد أن تحولت من ظواهر خاصة محدودة إلى ظاهرة عامة تزداد اتساعاً وشأناً وصار الكثير من دكاكين الأسواق ومن المطاحن والأفران ومن القيساريات والمنازل تابعة للأحباس . ولما كان الفقه الإسلامي لا يمنع من تسمير مال الوقف ومن زيادته كما كانت وجوه البر لا تنتهي في المدينة ويمكن أن تشمل الكثير من مرافقها لهذا كله دخل «الوقف» بوصفه عنصراً من عناصر تكوين المدينة ، وعاملاً من عوامل التأثير في عمرانها .

ويروي المقرئزي نقلاً عن المؤرخ ابن الطوير من القرن السادس آلية إدارة الأحباس فيقول : «إن ديوان الأحباس وهو أوفر الدواوين مباشرة لا يخدم فيه إلا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين بحكم أنها معاملة دينية وفيها عدة مدبرين ينوبون عن أرباب هذه الخدم في إيجاب أرزاقهم من ديوان الرواتب وينجزون لهم الخروج باطلاق أرزاقهم ولا يوجب لأحد من هؤلاء خرج إلا بعد حضور ورقة التعريف من جهة مشارف الجامع والمساجد باستمرار خدمته ذلك الشهر جميعه . ومن تأخر تعريفه تأخر الإيجاب له وإن تمادى ذلك استبدل به أو توفر ما باسمه لمصلحة أخرى خلا جوارى (جمع

(١) المقرئزي : المصدر نفسه .

جاري) المشاهد فإنها لا توفر ولكنها تنقل من مقصر إلى ملازم . وكان يطلق لكل مشهد خمسون درهما في الشهر برسم الماء لزوارها ويجري من معاملة سواقي السبيل بالقرافة . والنفقة عليها من ارتفاعه . فلا تخلو المصانع ولا الأحواض من الماء أبدا ولا يعترض أحد من الانتفاع به . وكان فيه كاتبان ومعينان . . . .»<sup>(١)</sup> .

على أن الأحباس الموقوفة خرجت في القرن الرابع من المدينة لتمتد إلى الأراضي وريعتها . بمعنى أن مرافق المدينة الخيرية احتاجت إلى المزيد من الموارد فامتدت إلى الريف . يذكر المسيحي (المؤرخ المتوفى سنة ٤٢٠) أن الحاكم بأمر الله وقد عاصره أمر سنة ٤٠٣ بإثبات المساجد التي لا غلة لها ولا أحد يقوم بها ، وماله من غلة لا تقوم بما يحتاج إليه . . . فأثبت في عمل ورفع إلى الحاكم فكانت عدة المساجد على الشرح المذكور ثمانمائة وثلاثين مسجدا ومبلغ ما تحتاجه من النفقة في كل شهر تسعة آلاف ومائتان وعشرين درهما . على أن لكل مسجد في كل شهر اثني عشر درهما . . . وأضاف «وفي سنة ٤٠٥ قرىء سجل بتحسيس عدة ضياع وهي أطفيح وصول وطوخ دست ضياع آخر وعدة قياسر وغيرها على القراء والفقهاء والمؤذنين في الجوامع وعلى المصانع والقوام بها ونفقة المارستانات وأرزاق . . . المستخدمين فيها وثمان الأكفان . . .»<sup>(٢)</sup> فكان القضاة بمصر إذا بقي لشهر رمضان ثلاثة أيام طافوا على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة للنظر في حصر ذلك وقناديله وعمارته وما تشعث منه . وما زال الأمر على ذلك إلى أن زالت الدولة الفاطمية .

وقد نالت الأحباس زيادة كبيرة في القرن السادس / ١٢م وما بعده . ويبدو أن الأخطار الخارجية على العالم الإسلامي من السلاجقة والفرنجة

(١) المصدر نفسه .

(٢) المقرئبي : الخطط ج ٢ ص ٢٩٥ .

والمغول ومن بداوة المرابطين والموحدين لعبت دورها في تضخيم هذه الأخطار وإيجاد الجوف من المستقبل سواء على المؤسسات الدينية أم على الذرية كما أبرزت وجوها من البر لم تكن مطروقة أو لم تكن تخطر في البال من قبل كتحصين المدن أو العناية بالغرباء أو الرفق بالحيوان أو صيانة الطرق. وهكذا صارت الأحباس جهازا ضخما اقتطع جانبا من موارد الدولة ليسد بها أغراضا خيرية شتى لم تكن تقوم بها الدولة نفسها لأنها لم تكن من أغراضها ولا من مهماتها. وقد أسهم في هذا السبيل ظهور مؤسسة إسلامية جديدة في المدن هدفها الأساسي الدفاع عن المذهب السني ضد الدعاية الشيعية المنظمة التي قامت بها الدولة الفاطمية لمذهبها والشيعية الأمامية لمذهبهم بصورة خاصة. وكانت هذه الدعوة قد وصلت حتى بغداد نفسها أيام البويهيين وحاولت أخذها للفاطميين أيام البساسيري سنة ٤٥٠/١١٥٨ هـ هذه المؤسسة هي المدارس. وإذا كانت المساجد تحظى من الأوقاف بالعناية المستمرة فقد ظهرت من قبلها مؤسسة دينية أخرى ليست أقل حاجة إلى الأوقاف لكي تستمر في أداء رسالتها. بالاضافة إلى ما أقيم من مؤسسات مساندة للفكر الديني كالأربطة والخانقاوات والزوايا الصوفية.

إن هذا كله لم يؤثر على الأحباس في اتساع الموارد فقط ولكنه أثر على تكوين المدن وعلى عمرانها أيضا بإنشاء جانب عمراي فيها لم يكن معروفا من قبل. وقد تعهد القيام به، بجانب الدولة الكبراء والأمراء والموسرون حسبة لوجه الله وبدأت المدن الإسلامية تأخذ طابعا جديدا في العمران بعد أن صارت المؤسسة الجديدة المدارس تبرز في كل منها لا المدرسة أو المدرستين ولكن ما يصل إلى ما بين العشرين والمائة مدرسة كما في القاهرة ودمشق. وهكذا أخذت الأحباس تتسع الاتساع الكبير لتؤمن النفقة الأخرى للمؤسسة الدينية الاضافية. وقد أضيفت هذه الأحباس زمن الأيوبيين إلى القاضي فصارت له مملكته الأخرى في ظل الدولة ولم يكن لها التدخل في

شؤونه لأن «شرط الواقف» هو أساس العمل ولأن لكل وقف مصرفه المعين سلفا سواء زاد أم نقص .

وحين جاءت الدولة المملوكية انتشرت الأحباس انتشارا كبيرا أسهم فيها أن السلاطين أنفسهم والأمراء والفئة الحاكمة معهم كانت من الجند المماليك الذين لا أصل لهم ولا جذور في المدن التي يسكنونها ويحكمونها فكانوا دوما على خيفة من أن يفقدوا ثرواتهم التي جمعوها فكانوا يجسونها على الوجوه التي يحبون سواء كان هذا الوجه ذريتهم أم كان وجهها من وجوه الخير دفع إليه التقى والورع .

وإذا تذكرنا أن الاقطاع والثروات العقارية التي كانت تجتمع إليهم كانت نتيجة الخدمة وليست على سبيل التملك وأن ربع الأرضين وغيرها إنما يعود للدولة عند موت صاحبه فإن المماليك كانوا يهربون ثرواتهم إلى أبنائهم عن طريق الأحباس . ووقف العقارات عليها بما يزيد كثيرا على حاجة المدارس والمساجد والربط والزوايا والخانكات التي يبنونها . وكانوا يجسون الربع الباقي من الأحباس على ذريتهم وكانوا في الوقت نفسه يزينون المدينة ويزيدون في عمرانها بالأبنية الضخمة التي يجسون عليها الأوقاف .

وعلى أي حال فإن المؤسسات الدينية والاجتماعية التي كانت تحفل بها المدينة الإسلامية استطاعت البقاء والاستمرار الطويل بعد وفاة مؤسسها وتأدية رسالتها سواء كانت مسجدا أم سبيل ماء أم . . . بيهارستانا وذلك بفضل الموارد التي تؤمنها لها الأحباس .

وقد دخلت هذه الموارد عن هذا الطريق في أقنية التكافل الاجتماعي الإسلامي ، وفي توفير الرعاية الاجتماعية للطبقات الفقيرة والمحرومة وفي ضمان الاستمرار للمؤسسات التي تستجد دون انقطاع . وذلك بالاعتماد الذاتي على مواردها الخاصة . ولهذا نجد أن الأبنية الأثرية الباقية من معظم

المدن الإسلامية هي الأبنية التي تكفلت الأحباس بتعهدها وتوسعتها ولولاها لزلت على الأقل - معالمها وميزاتها مع الأيام .

ومع التوسع صارت الأحباس أيام المماليك ثلاث جهات . كما يقول المقرئزي :

**الأولى :** تعرف بالأحباس ويلى (يتولاها) هذه الجهة داوآدار السلطان (حامل دواة السلطان) وهو أحد الأمراء ومعه ناظر . الأحباس ولا يكون إلا من أعيان الرؤساء وبهذه الجهة ديوان فيه عدة كتاب ومدير وأكثر ما في ديوان الأحباس الرزق الأحباسية وهي أراض من أعمال مصر على المساجد والزوايا للقيام بمصالحها، وعلى غير ذلك من جهات البر . وبلغت الأرزاق الأحباسية سنة ٧٤٠ عندما حررها (النشؤ) ناظر الخصاص في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون مائة ألف وثلثين ألف فدان . عمل النشوبها أوراقا وحدث السلطان في إخراجها عمن هي باسمه . وقال جميع هذه الرزق أخرجها الدواوين بالبراطيل والتقرب إلى الأمراء والحكام وأكثرها بأيدي أناس من فقهاء الأوقاف لا يدرون الفقه يسمون أنفسهم الخطباء ولا يعرفون كيف يخطبون ولا يقرؤون القرآن . وكثير منها بأسماء مساجد وزوايا معطلة وخراب . وحسن له أن يقيم شادا وديوانا يسير في النواحي وينظر في المساجد التي هي عامرة ويصرف لها من رزقها النصف وما عدا ذلك يجري في ديوان السلطان . فعاجله الله وقبض عليه قبل عمل شيء من ذلك .

**الجهة الثانية :** تعرف بالأوقاف الحكمية بمصر والقاهرة ويلى هذه الجهة قاض القضاة الشافعي . وفيها ما حبس من الرباع على الحرميين وعلى الصدقات والأسرى وأنواع القرب . ويقال لمن يتولى هذه الجهة ناظر الأوقاف فتارة ينفرد بنظر أوقاف مصر والقاهرة رجل واحد من الأعيان ويلى نظر أوقاف مصر آخر . ولكل من أوقاف البلدين ديوان فيه كتاب وجباة

وكانت جهة عامرة يتحصل منها أموال حجة فيصرف منها لأهل الحرمين أموال عظيمة في كل سنة تحمل من مصر إليهم مع من يثق به قاضي القضاة . وتفرق هناك صررا ويصرف منها أيضا بمصر والقاهرة لطلبة العالم ولأهل الستر وللفقراء شيء كثير . إلا أنها اختلت وتلاشت في زمننا هذا . . . (بسبب تأمر قاضي القضاة عمر بن العديم مع والي أمور المملكة جمال الدين يوسف وقيامها بالاستبدال للأوقاف بالبيع والتغيير) فامتدت الأيدي لبيع الأوقاف حتى تلف بذلك جميع ما كان في قراحتي مصر من الترب وجميع ما كان من الدور الجليلة والمساكن الأنيقة من الترب وجميع ما كان من الدور الجليلة والمساكن الأنيقة بمصر الفسطاط ومنشأة المهراي ومنشأة الكتاب وزربية قوصون وحكر ابن الأثير وسويقة الموفق وما كان من الحكورة من ذلك وما كان بالجوانية والعطوفية وغيرها من حارات القاهرة وغيرها . فكان ما ذكر أحد أسباب الخراب . . . » .

الجهة الثالثة : الأوقاف الأهلية وهي التي لها ناظر خاص اما من أولاد الواقف أو من ولاية السلطان أو القاضي . وفي هذه الجهة الخدامك والمدارس والجوامع والترب وكان متحصلها قد خرج عن الحد في الكثرة لما حدث في الدولة التركية (المملوكية) من بناء المدارس والجوامع والترب وغيرها وصاروا يفردون أراضي من المال مصر والشامات وفيها بلاد مقررة ويقيمون صورة يتملكونها بها ويجعلونها وقفا على مصارف كما يريدون . فلما استبد السلطان برقوق بأمر بلاد مصر قبل أن يتلقب بالسلطة هم بارتجاع هذه البلاد وعقد مجلسا فيه شيخ الإسلام وقاضي القضاة وغيره فلم يتهيا له ذلك . فلما حبس على تحت الملك صار أمراؤه يستأجرون هذه النواحي من جهات الأوقاف ويؤجرونها للفلاحين بازيد مما استأجروا . فلما مات الظاهر فحش الأمر في ذلك واستولى أهل الدولة على جميع الأراضي الموقوفة بمصر والشامات . وصار أجودهم من يدفع فيها لمن يستحق ريعها عشر ما يحصل له . وإلا

فكثير منهم لا يدفع شسثا البتة لاسيما ما كان منه ذلك في بلاد الشام فإنه استهلك وأخذ . ولذلك كان أسوأ الناس حالا في هذه المحن التي حدثت منذ سنة ٨٠٦ الفقهاء لخراب الموقوف عليهم وبيعه واستيلاء أهل الدولة على الأراضي . . . (١) .

هذه الصورة التي قدم بها المقريري قضية الأوقاف في أواخر العهد المملوكي كانت هي نفسها تنطبق على الأوقاف بالشام سواء في ادارتها أم في العدوان عليها بحكم أن الدولة واحدة والمتنفذين لا يفسدون في مكان ويصلحون في مكان آخر . كما أنها هي نفسها تتكرر في أوقاف المغرب ، في ما يتعلق بقيام الجبوس ثم باندثارها في عملية مستمرة التجدد والتكرار ، ظهر ذلك زمن المرينيين في المغرب والحفصيين في افريقية وإن تنوعت جهات الجبوس بتنوع الحاجات الاجتماعية المحلية .

على أن من الملاحظ في القرون السابع حتى العاشر / ١٣ - ١٦ م وما بعدها أن الأوقاف توسعت أيضا مرة ثالثة بعد الانتقال من حوانيت المدينة إلى أراضي الريف ، فصارت تشمل أيضا المصانع « في المدن كمعاصر الزيت والقصب والحمامات والطواحين والأفران والمصابن ومصانع النسيج ومخازن الغلال ومعامل ترقيد الفروج وغيرها كما تشمل أيضا مواقع بعض الخدمات كالفنادق والحانات والموكالات ، ووثائق الوقف الباقية تدخل مختلف هذه الأعمال ضمن الأمور الموقوفة حتى أضحت معظم مرافق المدن الأساسية أحيانا كثيرة تحت يد الأوقاف . وقد قدروا أن أوقاف دمشق تشمل في ذلك العهد ثم في العهد العثماني ثلاثة أرباع أراضيها في الغوطة ومصانعها في المدينة وقامت في كل مدينة من المدن الإسلامية جهة أو ديوان أو وظيفة جعل

(١) المقريري : خطط ج ٢ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .



لها النظر في أمور الأوقاف والحبوس من أقصى فاس» مراکش إلى دمشق وحلب والموصل وبغداد والكوفة ومدن إيران .

وتنوعت بالمقابل الجهات التي تحبس عليها الأحباس جدا . وإذا كان من الظواهر الواضحة أن معظم الأوقاف إنما حبست على الحرمين الشريفين وقد يكون معها حرم بيت المقدس أحيانا ثم تأتي المساجد والمدارس ثم تأتي وجوه الخير الأخرى . فقد عرفت الكثير من المدن الإسلامية أوقافا عديدة أيضا لأصلاح الطرقات أو الجسور أو الأسوار للإنفاق على الغرباء المنقطعين وعلى الرباطات للمجاهدين وعلى البندار المجاني للمزارعين والفلاحين ولما يعطى معونة للعميان والمقعدين ولإيواء اليتامى واللقطاء ولتسييل الماء، ولقراءة القرآن الكريم وحفظه، ولحفظ صحيح البخاري (في المغرب خاصة) ولفقراء المذاهب (كالشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية) وللأسر المستورة والعجزة من المرضى ولتنظيف الطرق وللأذان في مساجد محددة، أمر للإمامة فيها أو للإنفاق على طلاب العلم، أو على طالبي علم معين . أو لصيانة المصابيح في المسجد وتنظيفها أو لتغذية أهل رباط معين أو زاوية بعينها، أو لتزويج العزاب أو لكسوة المحتاجين، أو لمعونة المارستانات بالدواء والخدمة وما خصص لفك الأسارى وما خصص لمساعدة العاجزين عن أداء فريضة الحج ولتجهيز البنات اللاتي يعجز أهلهن عن تجهيزهن عند الزواج وتسييل بعض الأشجار المثمرة للهاة أو بعض الكروم . . .

ويقدم لنا ابن جبير صورة عن آلية العمل بوقف في الاسكندرية فيقول بعد أن يذكر المدارس والمحارس والحمامات والمارستانات للغربا . . . ومن أشرف هذه المقاصد أيضا أن السلطان عين خبزتين لكل انسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا ونصب لتفريق كل ذلك إنساناً أميناً من قبله . فقد ينتهي إلى ألفي خبزة . بحسب القلة والكثرة . . . ولهذا كله أوقاف من قبله حاشا ما عينه من زكاة العين من قبله . . . ولا فائد للسلطان بهذا البلد سوى

الأوقاف المحبشة المعينة من قبله لهذه الوجوه . . .»<sup>(١)</sup>.

وقد تميزت دمشق بأن فيها أنواعاً من الأوقاف من المضمون أنها لم توجد في غيرها كتطبيب الحيوان فالمرج الأخضر، غربي المدينة كان وقفاً على الحيوانات المريضة العاجزة تظل ترعى فيه حتى تموت، وكان وقف القطط في سوق ساروجا (أحد أحياء دمشق) خاصاً بإيواء الحيوانات الأليفة في أحد البيوت وتقديم الطعام لها<sup>(٢)</sup> ويروي ابن جبير من وجوه الوقف في دمشق قراءة ختمة القرآن بالخانقاه السميائية على قبر صاحبها كل جمعة ويدفع للقارئ رطل من الخبز. وقراءة الكوثرية في الجامع الأموي ويعطي من هذا الوقف الذي يغل مائة وخمسين ديناراً في السنة لمن لا يحفظ القرآن الكريم إلا سورة الكوثر وما بعدها حتى الخاتمة ويقسم له أربعون ديناراً في كل ثلاثة أشهر من السنة. ويذكر أن أحد الملوك السالفين توفى وأوصى أن يجعل قبره في قبلة الجامع بحيث لا يظهر وعين أوقافاً عظيمة تصل نحو الألف دينار وأربعمائة دينار في السنة وزائد لقراء سبع القرآن الكريم كل يوم<sup>(٣)</sup>.

ويضيف ابن جبير: «بعد أن يذكر المشاهد بدمشق قائلاً: ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع حتى إن البلد تكاد تستغرق جميع ما فيه وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يبين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها. ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء جامع أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها مالها من الأوقاف. ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك بهم في هذه والطريقة المباركة مسارعة مشكورة. ومن مشاهد أهل

(١) مكرر ابن جبير ص ١٦.

(٢) حجي الصالح، النظم الإسلامية ص ٣٧٠.

(٣) ابن جبير: الرحلة ص ٢٦٣.

البيت رضي الله عنهم مشهد أم كلثوم ابنة علي بن أبي طالب يقال لها زينب الصغرى وعليه مسجد كبير وله أوقاف . . . ومشاهد الأنبياء شيئا ونوح وابنته . . . ولها أوقاف كثيرة ولها قيم يلتزمها . . . ومن مناقب نور الدين أن كان عين للمغاربة الملتزمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافاً كثيرة منها طاحونتان وسبعة بساتين وأرض بيضاء وحمام ودكانان بالعطارين وأخبرني أحد المغاربة أن هذا الوقف المغربي يغفل إذا كان النظر فيه جيداً خمس مائة دينار في العام . . .»<sup>(١)</sup> .

ويقول ابن بطوطة: «ذكر لي أن فوائد مستغلات الجامع (بدمشق) وجباية نحو خمسة وعشرين ألف دينار ذهباً في كل سنة»<sup>(٢)</sup> وقراء الكوشرية فيه نحو من ستمائة إنسان»<sup>(٣)</sup> وحكى ابن بطوطة حكاية وقف الأواني بدمشق قال: «مررت يوماً ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم: اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني. فجمعها وذهب الرجل معه إليها فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الأعمال فإن سيد الغلام لا بد أن يضربه أو ينهره وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك. فكان هذا الوقف جبراً للقلوب . . .»<sup>(٤)</sup> ولعل أطرف الأوقاف في دمشق ذلك الوقف الذي وقفه في قلعة دمشق السلطان صلاح الدين الأيوبي لإمداد الأمهات بالحليب والسكر لتغذية أطفالهن . . . وذلك أن صلاح الدين جعل في أحد أبواب القلعة ميزاباً

(١) ابن بطوطة: الرحلة ص ٨٩.

(٢) مكور ابن جبير: الرحلة الصفحات بالترتيب ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٧.

(٣) ابن بطوطة الرحلة ص ٨٩.

(٤) ابن بطوطة ص ٩١.

(٥) ابن بطوطة ص ١٠٤.

يسيل منه الحليب وميزاباً آخر بجواره يسيل منه ماء مذاب بالسكر. وعين  
للأمهات يومين في الأسبوع ليأخذن خلالهما من الوقف حاجتهن من الحليب  
والسكر...<sup>(١)</sup>. والواقع كما يقول ابن بطوطة أن الأوقاف بدمشق لا  
تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها.

ويبقى أن نضيف أن أوقاف الجهات الشيعية كانت تتجه، كما اتجه  
الفاطميون من قبل، إلى مشاهد آل البيت حيثما توزعت من أنحاء العالم  
الإسلامي فلهم في القاهرة مشهد الحسين والسيدة زينب ولهم في دمشق مثل  
ذلك وفي حلب. وتتميز الكوفة والنجف بخاصة لأن بهما ضريح الإمام علي  
بن أبي طالب والإمام الحسين فالناس على الهبات السخية لهما وعلى الأوقاف  
الجزيلة. وإنما بنيت مدينتا الكوفة وكربلاء حول المشهدين.

وهكذا كانت الأوقاف عاملاً ثنائياً التأثير على المدينة الإسلامية فقد  
أعطتها المزيد من العمران مع ما يلزم لصيانتها واستمراره عبر العصور كما  
أعطتها التضامن الاجتماعي بين سكانها من جهة وبينهم وبين أعقابهم من  
جهة أخرى.

ونفرد من أعمال الأوقاف ثلاثة أمور نتخذها أمثلة على التضامن مع  
الأجيال الصاعدة ومع الأجيال المعاصرة ومع الرعاية للأجيال الذاهبة:

أولاً: رعاية الأيتام: كانت من أبرز المؤسسات الخيرية التي وجدت  
في العديد من المدن الإسلامية. ذلك أن الدين الإسلامي عني عناية خاصة  
باليتم وأوصى به ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ وحث على الاحسان إليه والحفاظ  
على ماله ولا ننس أن النبي الكريم ﷺ كان يتيماً. فكان للمسلمين عطف  
خاص على اليتامى لم يجمعوا في بيوت أعدت لهم لما في ذلك من إشعارهم

(١) حجي الصالح: النظم الإسلامية ص ٣٧٠.

المستمر في اليتيم . وفي أصبهان كان أحد الصالحين يذهب بالأيتام يوم الجمعة إلى منزله ويدهن رؤوسهم<sup>(١)</sup> فلما انتشر نظام الوقف حرص الكثير من أهل الخيز على وقف الأوقاف على الأيتام وعلى كسوتهم وتعليمهم<sup>(٢)</sup> ويبدو أن هذه الرعاية للأيتام كانت فردية أول الأمر ثم صارت في بعض البلاد جماعية كما أنها كانت شائعة في المشرق أكثر منها في المغرب . ومن ذلك ما ذكره ابن جبير من أن «للأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بدمشق لها وقف كبير . يأخذ من المعلم لهم ما يقوم به وينفق على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم . وهذا أيضاً من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد»<sup>(٣)</sup> . ومن ذلك ما نصت عليه إحدى وثائق الوقف المملوكية في القاهرة من أن «يكسى كل من الأيتام المذكورين في فصل الصيف قميصاً ولباساً وقبعاً ونعللاً في رجليه وفي الشتاء مثل ذلك . ويزداد في الشتاء جبة محشوة بالقطن . . .»<sup>(٤)</sup> وازدادت العناية بالأيتام في العصر المملوكي فأوقفت عليهم مكاتب لتعليمهم ورعايتهم مادام أولاد المسورين من غيرهم يستطيعون الذهاب إلى المؤدبين والمعلمين الأجورين وقد أنشأ الظاهر بيبرس في القاهرة بجوار مدرسته مكتب السبيل «وقرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخيز في كل يوم والكسوة في فصلي الشتاء والصيف» كما أنشأ السلطان قلاوون مكتباً لتعليم الأيتام ورتب لكل طفل بالمكتب جراية كل يوم وجامكية في كل شهر وكسوة في الشتاء وأخرى في الصيف . . . وقد تعدى الأمر التعليم إلى توفير أدوات الكتابة للأيتام من أقلام ومداد وكاغد (ورق) .

(١) متر - الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٠٥ نقلاً عن مخطوط ذكر أخبار أصفهان مخطوط ليدن ورقة ١٦١هـ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٦٠٠ وج ٧ ص ١٢١ .

(٣) ابن جبير الرحلة ص ٢٠٥ .

ثانيا : رعاية المعدمين : إذا لم تخل مدينة من هذه الطبقة الفقيرة ولا خلا عصر من العصور منها فإن الصدقات في المدن الإسلامية كلها لم تنقطع كما لم يخل عصر من العصور منها . وليس ذلك فقط من حيث التعاطف الإنساني الخالص ولكنه اتباع لأوامر الله المتكررة في ذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ . . ﴾ ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ ﴿ إِن تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنَمَّا هِيَ . . ﴾ ﴿ أَشْفَقْتُمْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتِ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى . . ﴾ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ . وقد ظهرت بصورة خاصة آثار الصدقات في العصر العباسي وفي المدن الكثيفة السكان بسبب وفرة الثروات . وكان الكثيرون يجاوزون صدقة الزكاة المفروضة بأعطياتهم وإذا كانت صدقات الخلفاء العباسيين والفاطميين والأمويين وصدقات أهلهم مشهورة معروفة في الكتب فإن كبار الموسرين كانت لهم صدقاتهم ويحكى عن أبي عبدالله بن أبي ذهل الهروي (ت سنة ٣٧٨/٩٨٨) أن كانت تضرب له دنانير وزن الدينار منها مثقال ونصف أو أكثر فيتصدق بها ويقول : إني لأفرح إذا ناولت فقيراً كاغداً فيتوهم أنه فضة فيفرح فإذا فتحه ورأى صفرته فرح ثم إذا وزنه فزاد على المثقال فرح أيضاً فهذه ثلاث فرحات . وكانت لهذا الرجل غلة كثيرة لا يدخل داره إلا دون عشرها والباقي يفرقه على المستورين وسائر المستحقين<sup>(١)</sup> ويحكى عن ابن دعلج ابن محمد السنجري وكان تاجراً غنياً عالماً (ت سنة ٣٥١/٩٦٢) أنه بعث بكتاب المسند لابن حنبل إلى الفقيه ابن عقدة لينظر فيه وجعل في الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً . وكان في كرمان نخيل كثير ولكن أهله لا يرقعون من تمورهم ما أسقطته الريح وربما كثرت الرياح فيصير إلى الضعفاء والمساكين من التمور

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٦٥ وانظر متر: الحضارة ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٢) السبكي نفسه ج ٢ ص ٢٢٢ .

أكثر مما يصير إلى أربابه<sup>(٢)</sup> ورويت أخبار كثيرة عن صدقات ابن طولون وكافور الاخشيدي ووزراء الفاطميين .

وكانت الحاجة لدى الطبقات الفقيرة تزداد أيام الأزمات والمجاعات والأوبئة فكان بعضهم - كما جرى في مصر في العهد الفاطمي - يفتح مخازن كلها للصدقة قد ازدادت فترات الجوع المهلك في العهد المملوكي فكان بعض السلاطين يلزمون كبار الأمراء والأغنياء من التجار وأصحاب العقار أن يتكفلوا بإطعام عدد من الفقراء الجياع يتناسب مع قدرته المادية والزام المحتكرين ببيع ما لديهم من المؤن والأسعار التي تحددها الدولة . وفي المصادر قصص كثيرة عن صدقات المماليك في مختلف المناسبات وبخاصة حين يبلون بالمصائب يروي المقرئزي ضمن حوادث سنة ١٣١٧/٧١٧ أنه مرضت امرأة الأمير سيف الدين طغاي وماتت فأكثر زوجها من الصدقة وفرق بداره مالاً على الفقراء وهلك في الزمام إثنا عشر شخصاً وبهيمة كانت تحت أحدهم»<sup>(٢)</sup>.

وحين أبل الأمير كريم الدين الكبير سنة ١٣٢٣/٧٢٣ من مرضه زينت القاهرة زينة عظيمة وصفت المغاني وأشعلت الشموع وأفرج عن المسجونين وتصدق بأموال جزيلة» . وقلق السلطان لمرض الأمير أرغون الكامل سنة ١٣٤٧/٧٤٧ فبعث إليه حرساً وعشرة آلاف درهم تصدق بها عنه وأخرج الأمير أرغون أيضاً عشرة آلاف درهم تصدق بها . . وأفرج عن أهل السجون . وكانت صدقات المماليك تصل إلى بيت الحرام لا حين يحجون فقط ولكن حين لا يكونون في الحج أيضاً . وكذلك كان يفعل نوابهم وأمراؤهم في الشام . وكان بعض سلاطينهم يدأب على إرسال بعض مماليكه

(١) ابن حوقل ص ٢٢٤ .

(٢) المقرئزي، كتاب السلوك، ج ٢ ص ١٧١ .

للسؤال عن المحتاجين لسد حاجاتهم كالمؤيد شيخ أو يوقف الأحياس لشراء الخبز للمعدمين كالظاهر بيبرس ويتصدق بعشرة آلاف اردب من القمح كل سنة .

وليس يقل دور الأوقاف والأحياس عن دور الصدقات الحرة الطوعية . إنها كانت تعيل في عهد صاحبها جيوشاً متصلة من «أصحاب العمائم» والشعائر الدينية من أقصى القضاة إلى مؤذني القرى . وكناسي الزوايا والربط . كما تعيل بعده، معهم ، ذرية الواقف . ولعل أهم ميزاتها أنها كانت متجددة دوماً . فما تغتاله السنون والأطماع منها في جهة من الجهات كانت تتبع بدلاً منها أحياس من جهة أخرى بحكم أن الحس الديني لا ينقطع في الناس وهو دوماً من أنبل الدوافع للخير . ولهذا نجد أنه رغم عدوان المعتدين بعد جيل أو أكثر على بعض الأحياس فإنها كانت تتكاثر وتتجدد بأحياس جديدة أكثر حتى إذا كان العصر العثماني وجدنا أنها تمول أهم الطبقات فيه وهي الطبقة الدينية وتمتد على أهم الأراضي الخصبة وعلى أعظم العقارات .

ثالثاً: تكفين ودفن الموتى وقد كان ظاهرة تبرع فردية وعرضية في المدن الإسلامية إلى أن كان العصر المملوكي حين تحولت إلى نوع من المؤسسة . وكان الناس في النكبات من قبل يقومون بذلك حسبة لوجه الله كما جرى في مجاعة مصر يوم الشدة المستنصرية وفي مجاعة دمشق بعدها سنة ٤٦٧ وفي أيام الأوبئة التي كانت تنزل بالمدن فتجرف منها ما تجرف . غير أنهم في عصر المهاليك أوقفوا على ذلك الأوقاف الكافية العديدة في كثير من مدن الشام . ومن أشهر هذه الأوقاف وقف الطرحاء الذي جعله الظاهر بيبرس برسم تغسيل فقراء موتى المسلمين وتكفينهم ودفنهم<sup>(١)</sup> في القرن السابع / ١٣ م .

(١) المقرئزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٣٨ .



وهذه المؤسسات الجنائزية صارت تعرف بمغاسل الموق أو مصليات الأموات . وتتكون في الغالب حسب ما تكشفه الحجج الوقفية وعشرات الوثائق الشرعية عنها، من عمارة كبيرة تضم مغسلاً للموق ينقسم قسمين أحدهما للرجال والآخر خاص بالنساء فضلاً عن حواصل أو مخازن لحفظ محتويات المغسل والأدوات والمستحضرات اللازمة لتجهيز الموق، يصرف على ذلك كله من الوقف على ثمن الأكفان وأجور العاملين على ذلك . وتتم الصلاة على الموق بالمكان يحوي ميضأة بها فسقية للحياة فضلاً عن حوض لسقي دواب المشيعين .

وكان في القاهرة في القرن التاسع / ١٥ م من هذه المغاسل الجنائزية ما يزيد على خمسة عشر مغسلاً على ما ذكره عبدالباسط بن خليل الظاهري في الروض الباسم . وجرت العادة أن تقوم هذه المغاسل والمصليات في أطراف المدينة أو خارج أبوابها كباب المصلى المؤدي إلى مقبرة الباب الصغيرة في دمشق لتكون على مقربة من المقابر، ومثله المغسلة التي قامت عند باب النصر ومغسلة باب زويلة في القاهرة . قد اشتهرت في القرن التاسع مغسلة الأمير يشبن بن مهدي عن الطرف الشمالي من القاهرة سنة ٨٧٣/١٤٦٩ وأشار إليه السخاوي وابن تغري بردى وابن إياس<sup>(١)</sup> .

### ٣ - المؤسسات الثقافية

تتجلى الحياة الثقافية في المدينة الإسلامية في عدة مؤسسات منها : أعمال تعلم القراءة والكتابة والدين ، ومنها مجالس العلماء ودكاكين الوراقين ومنها المدارس والمكتبات .

---

(١) سعيد عاشور: الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية مجلة عالم الفكر (المجلد ١١ العدد الأول) ص ١١٢ .

١ - المسجد وتعلم القراءة والكتابة والدين والعلم : جاء التنزيل الحكيم وفيه الحث المتكرر على العلم والعلم بالقلم وجاءت سنة الرسول الأعظم بعد بدر فأيدت طريق التعلم والعلم حتى صارت كثرة المتعلمين ونبوغ العلماء والأدباء من الملامح المميزة للحضارة العربية الإسلامية التي كانت سيدة العلم والأدب في عصرها وكانت مدنها مراكز الإشعاع الفكري للعالم كله .

والمدرسة الأولى في الإسلام إنما كانت في المدينة المنورة . انشئت في عهد الرسول الأعظم ﷺ ولعلها كانت للمتعلمين من أسرى بدر . وكان موقعها في دار الأرقم بن أبي الأرقم وقد اتخذها مركزاً يلتقي فيه بأصحابه ومن تبعه ليعلمهم الدين الجديد ويقرئهم ما أنزل من آي الذكر الحكيم كما يستقبل بها من ينضم إلى الجماعة الإسلامية . ولعل هذه الدار هي التي كانت تدعى بدار القراء فقد ذكر الواقدي أن عبدالله بن أم مكتوم قدم مهاجراً إلى المدينة مع مصعب بن عمير وقيل قدم بعد بدر ببسيفنزل «دار القراء»<sup>(٢)</sup> فهذه اذن أول مدرسة في الإسلام . وقد قامت في المدن الإسلامية المختلفة ، بعد الفتح ، كتائب «ومدارس لتعليم القراءة والكتابة والقرآن الكريم والدين للمستجدين في الإسلام وبعضها كان لتعليم الصغار وبعض للكبار . وكانت المساجد هي مقر هذه الحلقات لفراغها فيما بين الصلوات ولأن الهدف من التعلم هو معرفة الشرع الإسلامي . ونحن نعرف أن الحجاج بدأ حياته معلماً للصبية في الطائف وأن الكثيرين من العلماء الأوائل إنما تخرجوا من حلقات العلم والتعليم في المساجد . وكان تلازم المدرسة مع المسجد مما ساعد العلم على الإنتشار لما يجد في المسجد في المكان الملائم ومن المعلمين للدين . هكذا نشأ الجو الثقافي في المدينة الإسلامية دينياً في أساسه وتكوينه .

(١) المفريزي - خطط ج ٢ ص ٣٦٢ .

وبهمنا أن نلاحظ أن الكتابة كانت منفصلة في التعليم عن القراءة منذ البدء. وكان الطفل يتعلم الخط والحساب في بيت المعلم أولاً ثم يذهب إلى قارئ القرآن الكريم ليلقنه آياته في المسجد أو خارجه فلا يدخل الجامع إلا بعد حفظ القرآن. وقد ظهر هذا الفصل واستمر في المشرق. وإن كانوا في المغرب والأندلس قد جمعوا الإثنين فيما يبدو من استحسان ابن العربي أبي بكر. (ت. سنة ٥٤٢/١١٤٧) وابن جبير للطريقة. المشرقية ومن تسامح أحد القضاة في مسجد قرطبة في إصابته بحذاء تلميذ يضرب صاحبه<sup>(١)</sup> وذلك تنزيها لكتاب الله عن هو الصبية بكتابته. وقد ورد ذلك في كتب الحسبة. وكانت الكتاتيب فسيحة أحياناً كما في بلخ حيث كان يتعلم في كتاب أبي القاسم البلخي ثلاثة آلاف تلميذ وكان يحتاج إلى حمار ليصرف عليهم<sup>(٢)</sup> كما كانت كثيرة العدد وبكل مدينة فيها مسلمون. وقد ذكر ابن حوقل أنه عد حوالي ٣٠٠ معلم كتاب في مدينة واحدة هي مدينة بلمرة في صقلية<sup>(٣)</sup>.

على أن المساجد لم تكن لتعليم الصغار أصلاً وإن استخدمت مساحاتها في ذلك وكانت هي مدارسهم الأولى أحياناً. ولكنها كانت المدارس الأولى لتعليم الكبار. وقد استمرت تؤدي بجانب وظيفة العبادة وظيفته المركز الثقافي (والسياسي والاجتماعي أيضاً) مدة تزيد على أربعة قرون. وكانت مجالس العلماء والأدباء تعقد فيها. وإذا اشتهر مريد البصرة القائم على سيف الصحراء بوصفه مركزاً ثقافياً للشعر خاصة فإن ساحات المساجد كانت لمختلف العلوم: كان يفسر فيها القرآن الكريم ويملي فيها الحديث النبوي

(١) انظر ابن العربي أحكام القرآن ج ٢ ص ٩١ - وابن جبير الرحلة ص ٢٤٥ والخشي قضاة قرطبة ص ٧٠.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٧٢.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١١٢٦.

والفقه كما كان تدرس به دروس العربية والنحو والعروض وأخبار العرب في حلقات أبي عمر الزاهد وأبي العتاهية في بغداد، ولفطوية في مسجد الأنبارين وابن سيده في مسجد قرطبة والكميت بن زيد وحماد الراوية في مسجد الكوفة. بل كان يدرس الشعر أيضاً كما كان يفعل مسلم بن الوليد (صريع الغواني) وهو على شعره في مسجد البصرة. وروى السيوطي أن دروساً مختلفة رتبت في الجامع الطولوني وقد شملت الطب والميقات<sup>(١)</sup> ويروى عبداللطيف البغدادي أن دروساً في الطب كانت تلقى في الأزهر في منتصف النهار من كل يوم<sup>(٢)</sup>.

وفي مسجدي دمشق والبصرة ظهر الجدل المعتزلي حول صفات الله مع غيلان الدمشقي والجعد بن درهم في الشام والحسن البصري وواصل بن عطاء في العراق وظهرت معه مبادئ الفكر الفلسفي الإسلامي منذ أواخر العصر الأموي. وقد أعانت المساجد على القيام بهذه الوظيفة الثقافية في المدن الإسلامية خلال القرون الأولى عدة أمور منها:-

أ - انتشار الورق: ظل الورق فترة بعد الفتح الإسلامي سراً من أسرار صناعة الصين ويستورد منها وحين عرف بعد فتح سمرقند سنة ٧١٢/٩٣ في آخر أيام الوليد بن عبدالملك<sup>(٣)</sup> عن طريق أسيرين صينيين ظل حتى ما بعد قيام الثورة العباسية غير معروف الصناعة. ولكن تعطين الكتان وتشكيل عجينة منه تنتهي إلى أوراق ما لبثت أن شاعت. وكان الحصول على هذا السر ثورة في الفكر الإنساني الذي عجز حتى هذا التاريخ عن أن يوجد

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٨.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢٠٧.

(٣) ريسلر: الحضارة العربية (ط). الدار المصرية للتأليف والترجمة (القاهرة دون تاريخ) ص

وسيلة أحسن من البردى والجلود والنسيج للكتابة وحين شاع الورق في المدن الإسلامية، أوائل العصر العباسي، كان الفكر العربي الإسلامي يفتح بها على العلوم والآداب فجاءته الوسيلة التي جعلت هذا التفتح انقلاباً أساسياً في حفظ الأفكار وتداولها بطريقة سهلة ورخيصة وانتقل الورق بسرعة إلى بغداد أولاً فصارت تصنعه إلى دمشق. ونراه فجأة مع الهاربين من الشام يظهر في قرطبة والأندلس. وقد صمدت صناعة البردى في تيبس والفسطاط وأسيوط فترة طويلة حتى استسلمت لصناعة الورق. وحين أدخل الفضل البرمكي الورق إلى بغداد سنة ١٧٨/٧٩٤ وإلى الدواوين فيها بدل وسائل الكتابة الأخرى كان ذلك يعني أن عصرًا جديدًا قد تفتح للفكر الإنساني. وجعل ذلك حركة الترجمة وحركة التأليف تأخذ حركية كبيرة كان منها عصر الترجمة المأموني وظهر كبار المؤلفين والمؤلفات ذات الأجزاء الضخمة.

وعلى الرغم من أن سمرقند ظلت مصدرًا للورق الجيد ومن أن ورق الجريد وجلود الكرايس تستجلب من الصين إلا أن الورق الإسلامي هو التي تحمل ضغط الثقافة العربية الناشئة في المدن.

ب - حوانيت الوراقين: تبع ظهور الورق وانتشاره ظهور حوانيت الوراق والوراقين. ولم تكن تجارة هذه الحوانيت بالورق (الكاغد) ولكنها كانت تباع الكتب المنسوخة وصارت بمثابة نواد لالتقاء رجال العلم والفكر والأدب واتسع عددها بسرعة مع اتساع صناعة الورق والنسخ. وذكر اليعقوبي في كلامه عن أرباض بغداد بعد واسط القرن الثالث أن في ربض وضاح «أكثر من مائة حانوت الوراقين»<sup>(١)</sup> وكان في مصر أيام الطولونيين والأخشيديين سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب وتدور في دكاكينها

(١) اليعقوبي: البلدان ص ١٧.

المناظرات وقد تعرض المقرئ في كتابه الخطط للحديث عن هذه المحال في مواضع كثيرة. ولم يكن الوراقون مجرد نساخ للكتب الكثير منهم كان من العلماء والمؤلفين. وظهرت من الوراقين شخصيات لامعة كابن النديم صاحب الفهرست وعلي بن عيسى المعروف بابن كوجك وكان وراقاً أديباً ألف عدة كتب، وياقوت الحموي صاحب المعجمين الفريدين في العربية - ويذكرون أن الجاحظ كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر<sup>(١)</sup> فالكتاب كان ما يزال غالباً عزيز المقال وقد يصل نسخه إلى دينار. ويحكى بعض المؤرخين المتأخرين أنه مات بوقوع مجلد عليه وكان من عاداته أن يضعها كالحائط محيط به وهو جالس عليها وكان عليلاً فسقط المجلد عليه وقتله<sup>(٢)</sup>. وكان أبو الفرج الأصفهاني وأبو نصر الزجاج يلتقيان في دكان بسوق الوراقين في بغداد. ووصف ابن الجوزي (ت. سنة ٥٩٧/١٢٠١) سوق الوراقين في زمنه ببغداد بقوله: إنه سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء<sup>(٣)</sup> وكان ياقوت الحموي ناسخاً وراقاً يتاجر بالكتب ويزور أسواق الوراقين لعرض تجارته بدمشق<sup>(٤)</sup> وغيرها ويروى المقرئ أن سوق الكتبيين الذي أحدث في القاهرة بعد سنة ٧٨٠/١٣٧٨ «ما برح مجمعاً لأهل العلم يترددون إليه»<sup>(٥)</sup>. وقد يتعدى العلم من الوراق إلى أهله وعائلته ومن أمثلة ذلك زينب وحمدة ابنتا زيد الوراق الذي كان يعيش في وادي الحمى قرب غرناطة فقد برعتا في الأدب والعلوم وكانتا لا تقلان عن أي من علماء العصر<sup>(٦)</sup>.

(١) ياقوت: معجم الأدباء ج ٦ ص ٥٦.

(٢) أبو الفداء: المختصر في تاريخ البشره، حوادث سنة ٢٥٥.

(٣) ابن الجوزي: مناقب بغداد ص ٢٦.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٢٧ - ١٣٩.

(٥) المقرئ: خطط ٢ ص ١٠٢.

(٦) سيد أمير علي: تاريخ العرب ص ٥٦٩ بالهامش.

وحيث كثرت الكتب كان ينادي عليها الدالون في السوق: يقول ابن سينا: «في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين (بيخارى) وبيد دلال مجلد ينادي عليه فعرضه على فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة في هذا العلم (ما وراء الطبيعة) فقال لي: اشترمني هذا فإنه رخيص أبيعك بثلاث دراهم وصاحبه محتاج فاشتريته فإذا به كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة...»<sup>(١)</sup>.

وبدلاً من المطابع ظهر النساخون. وكان الكثير من العلماء يعيش على نسخ الكتب. ويحكى عن أبي زكريا يحيى بن عدي (ت سنة ٣٦٤/٩٧٤) وكان من كبار أطباء وفلاسفة العصر يعمل بالنسخ وقد نسخ نسختين من تفسير الطبري وكان يكتب في اليوم والليلة مائة ورقة<sup>(٢)</sup>، وكان بنيسابور وراق يسمى أبا حاتم ظل يورق بها خمسين سنة. وكان أبو بكر الدقاق المعروف بابن الخاضبة (ت. سنة ٤٣٩/١٠٤٦) يعول والدة وزوجة وبنات من الوراقنة. وكتب في سنة واحدة صحيح مسلم سبع مرات وقد قال مرة «رأيت في المنام كأن القيامة قامت ومناد ينادي ابن الخاضبة فأحضرت فقيل لي: ادخل الجنة فلما دخلت وصرت من داخل استلقيت على قفائي ووضعتم إحدى رجلي على الأخرى وقلت: آه استرحت والله من النسخ»<sup>(٣)</sup> وكان حرص بعض العلماء على السلامة يدفعه إلى أن ينسخ كتبه بنفسه خوفاً «خيانة الوراقين»!

وعلى أي حال فقد كان الوراقون هم حجر الأساس في ثقافة المدن الإسلامية وفي نسخ الكتب ونشرها والسفر بالنسخ من مدينة إلى أخرى لتسويقها ونشر الثقافة الإسلامية وتوحيدها من خلالها.

(١) مكرر: القفطي: تاريخ الحكماء ص ٤١٥.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص ٢٦٤ والقفطي: أخبار الحكماء ص ٣٦١.

(٣) بانوت: معجم الأدباء ج ٦ ص ٣٣٧.

ج - مجانية التعلم والأوقاف المخصصة له : فالتعلم لم يكن مكلفاً لمن يريد به إلا أن يشاء الوالد الاستفادة من جهد ابنه في معونته على العيش فمن استغنى ولحق طريق العلم فالباب مفتوح أمامه للدراسة وللرحلة إلى أي مكان في العالم الإسلامي من أجلها . وكانت له حيث نزل الأوقاف الموقوفة على مثله تساعده على العيش وهي كثيرة جداً لا تحلو منها مدينة اسلامية قط . وكان الطلاب والعلماء يجدون فيها السند المادي المتوفر لمعونة الحركة الثقافية ولازدهارها . وإنما كان ينسج وحدة الثقافة الإسلامية هذا العدد الهائل من الطلاب والعلماء الذين يزرعون العالم الإسلامي وهم مطمئنون إلى أن «خبزهم» متوفر بكل مكان وعليهم ألا يفكروا به بسبب الأوقاف وعليهم أن يوفروا جهدهم كله للعلم .

٢ - منازل العلماء ومجالسهم : ذكر العبدري أن أفضل مواضع التدريس هو المسجد لأن الجلوس للتدريس إنما فائدته أن تظهر به سنة أو تحمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الله والمسجد يحصل به هذا الفرض متوفراً لأنه موضع لاجتماع الناس رفيعهم ووضيعهم وعالمهم وجاهلهم ، بخلاف البيت فإنه محجوز على الناس إلا من ابيح له والمنازل مكان للدرس عند الضرورة<sup>(١)</sup> . على أن هذه الضرورة ظهرت بشكل متزايد في العصر العباسي يوم كان الجو الثقافي يمور بالطلاب والعلماء والنسخ والجدل والترجمة فكان لا بد من اللجوء إلى منازل العلماء لطلب العلم . وهكذا مثلاً كان يجتمع كل ليلة في دار ابن سينا في همدان طلبة العلم كما يقول الجوزجاني صاحبه - وكنت أقرأ معه الشفاء وكان يقريء غيري من القانون نوبة . وكان التدريس بالليل لعدم الفراغ بالنهار خدمة للأمير

(١) العبدري : المدخل ج ١ ص ٨٥ ، و ص ٩٢ .



(شمس الدولة) وقضينا على ذلك زمناً. «(١٢). وكان أبو سليمان السجستاني في أواخر القرن الرابع أعور به وضحٌ فانقطع عن الناس فكان منزله مقصداً للعلماء والأجلاء(١٣). ويذكر القفطي أن أبا الحسن المنجم كان صديقاً لأبي سليمان وكان كثيراً ما يجتمع في منزله ببغداد بكبار العلماء يتذكرون ويتناظرون في مواضيع شتى ومنهم أبو الفتح النوشجاني وأبو زكريا الصيري، وأبو بكر القوسي وأبو حيان التوحيدي. وقد ألف أبو حيان كتابه الامتاع والمؤانسة على أساس هذه المجالس وكانت دار الإمام الغزالي مرتاداً للعلماء والطلاب ببغداد بعد أن اعتزل وعكف على كتابة: إحياء علوم الدين. وقد فصل علي بن محمد الفصيحى (ت. سنة ٥١٦/١١٢٢) عن المدرسة النظامية لكن أفواج المتعلمين كانت تقصده في داره لمتابعة القراءة عليه(١). وكان منزل يعقوب بن كلس في القاهرة أيام العزيز بالله الفاطمي يمتليء بالطلاب كل يوم جمعة ليقرأوا عليه كتابه في فقه الإسماعيلية وغيره(٢). وكان السلفي أبو طاهر أحمد بن محمد (ت. سنة ٥٧٦/١١٨٠) من العلماء الفقهاء فتزوج بالاكسندرية من امرأة موسرة واتخذ من بيته مكاناً للتدريس.

أما المجالس العلمية الأخرى عند اسطوانات المساجد فهي التي كانت تقود الحركة الأساسية في ثقافة المدينة لم يكن يخلو منها جامع في مدينة، بل في قرية أيضاً. ولها آدابها كما أن لها مكانتها الفكرية. ومواعيدها المقررة ومكانها المحدد. يحدثنا ابن خلكان مثلاً عن ربيعة الرأي فقيه المدينة وأستاذ مالك

(١) القفطي: تاريخ الحكماء ص ٤٢٠.

(٢) القفطي: تاريخ الحكماء ص ٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) ياقوت: الأدباء ج ٥ ص ٤١٥.

(٤) المقرئزي: خطط ج ٢ ص ٣٤١.

أنه كان إذا جلس إلى حلقتة بالمسجد النبوي أتاه الإمام مالك والحسن وأشرف أهل المدينة وأحدق الناس به . وقد تبلغ حلقة بعض العلماء عدة مئات من المستمعين كحلقة أبي علي القالي صاحب الأمالي في مسجد قرطبة وحلقة رضي الدين النيسابوري الذي فاق على علماء عصره وعرف بأستاذ البشر وكانت حلقتة في بخاري تضم أربعمائة من الطلاب والفضلاء بسبب اهتمامه مع الأملاء بعقد المناظرات والحوار والمناقشة والاجتهاد بالرأي حتى أثر عنه أنه جعل المناظرة علماً له أصول وقواعد وضوابط<sup>(١)</sup> . وقد حضر درس أبي الطيب الصعلوكي مفتي نيسابور في العشرة الأخيرة من شهر المحرم سنة ٣٨٧ / ٩٩٧ أكثر من خمسمائة طالب في حين كان مجلس أبي حامد الاسفراييني أمام الشافعية ببغداد يحضره ما بين الثلاثمائة إلى السبعمائة فقيه<sup>(٢)</sup> وكان يقعد بين يدي أحد أصحاب الجويني «الإمام الفرد» (ت . سنة ٤٧٨ / ١٠٨٥) ثلاثمائة من الأئمة والطلبة بنيسابور، وكان يحضر في كشغر وهي ليست بالمركز الديني الكبير أكثر من خمسمائة طالب في درس أكبر العلماء فيها<sup>(٣)</sup> .

وكان مكان الدرس في المسجد ثابتاً لكل شيخ ويذكرون أن إبراهيم بن نبطويه (ت . سنة ٣٤٣ / ٩٣٥) لزم اسطوانته بجامع المنصور خمسين سنة لم يغير محله منها<sup>(٤)</sup> وكذلك كانت مواقع العلماء تستمر سنوات لا تتغير وكانت هذه المجالس خصبة الإنتاج وبها أملى الطبري في بغداد تفسيره في ثلاثين جزءاً ثم أملى تاريخه في مثلها وشكا مع ذلك ضعف الهمم! والمعتزلي

(١) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٧٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ١٨٣ وهو يذكر فيها ٤٠٠ طالب فقط والسبكي : طبقات الشافعية ج ٢ ص ٢٥ .

(٣) منز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٣٣ .

(٤) مكرر ياقوت : معجم الأدباء ج ١ ص ٣٠٨ .

أملى مائة ألف وخمسين ألف ورقة وما رؤي ينظر في كتاب إلا يوما في زيغ الخوارزمي<sup>(١)</sup>. وأملى أبو علي القالي خمس مجلدات في مجالس متصلة.

وكما خصبت المجالس في المادة تنوعت في العلوم وكان أهم مجالس العلماء ما يختص بالتفسير والحديث والفقہ والقراء ولكنها كانت أيضا مجالس للشعر والأدب والمنطق والطب أحيانا وثمة مجالس اللغويين والنحويين والإخباريين.

وإذا لم يكن من مسجد جامع في امي مدينة يخلو من حلقات العلماء والمدرسين ومجالسهم فقد اشتهرت جوامع بغداد والقاهرة ودمشق والقيروان وقرطبة وفاس ونيسابور بكثرة الحلقات فيها. يقول المقدسي عن جامع عمرو بن العاص بالفسطاط إنه «ليس في الإسلام أكبر مجالس من جامع» ثم أشار إلى أنه «بين العشاءين جامعهم مختص بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة. دخلتها مع جماعة من المقادسة فرجما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين : دوروا وجوهكم إلى هذا المجلس. فننظر فإذا نحن بين مجلسين. على هذا جميع المساجد. وعددت فيه مائة وعشرة مجالس. . . . ولا ترى أجل من مجالس القراء به. . . .»<sup>(٢)</sup>.

وثمة نوع آخر من مجالس العلم هو الصالونات أو المجالس لدى الخلفاء والوزراء في القصور وكان الكثير منهم، منذ عهد معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك، يخصص جانبا من ليلة في الأسبوع لاستقبال العلماء والأدباء والشعراء وأهل الفكر يبرزون فيه ما لديهم ويتناظرون. واشتهرت بذلك مجالس الرشيد الأدبية - اللغوية واشتهر بيت الحكمة الذي أنشئ

(١) ابن المرتضى : المعتزلة ص ٤٧ ، متر ١ ص ٣٣٤ .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٧ ، ٢٠٥ .

للترجمة وحفظ الكتب وقد رعاها بعد ذلك المأمون وزاد فيه واستقطبت  
الاهتمام مجالس المأمون الفلسفية وفي بعضها نشأت فكرة خلق القرآن لديه  
فظلت مشكلة فكرية في العالم الإسلامي سبعة عشرة سنة واضطهد فيها  
الكثيرون . وقد بقيت من هذه المجالس أخبار تملأ كتب ابن عبد ربه والمقري  
والمقريزي وأبي الفرج الاصبهاني وغيرهم . ولكنها كانت مجالس مغلقة على  
عدد محدد من يستقبلهم السلطان أو الأمير ولكنهم من قادة الفكر والرأي  
والأدب ، وتأخذ شكل السحر وهي مفعمة بالمناظرة والجدل والعلم ولها  
آدابها ورسومها ولو أنها كانت مرتبطة برضى الحاكم وغضبه . ومن هذه  
المجالس ما كان يعقده الوزراء أمثال الوزير ابن الفرات (أبي الفضل جعفر)  
وقد انعقد آخر مرة سنة ٣٣٦ / ٩٤٧ وفيه أبو سعيد السيرافي وابن أبي بشر  
وابن فراس وقدامة بن جعفر وأبي بشرمقي ، وابن يحيى العلوي ، وعلي بن  
عيسى الجراح (الوزير) وابن عبد العزيز الهاشمي وغيرهم هذا إلى رسول ابن  
طفج الأحشيد من مصر والمرزباني عالم آل سامان في خراسان وما وراء  
النهر . . فقال الوزير : ألا يتتدب منكم إنسان لمناظرتي في المنطق . . . وبدأ  
الجدل . وفي مجلس أبي عبدالله الحسين بن سعدان (ت سنة ٣٧٥ هـ) وزير  
صمصام الدولة كان يجتمع أبو حيان التوحيدي بابن مسكوية المؤرخ وأبي  
زرعة الفيلسوف النصراني وأبي الوفاء المهندس . وحين تقسمت الدولة  
العباسية إلى دول تنافست البلاطات فيها كما تنافست بلاطات دول الطوائف  
في الأندلس في اجتذاب العلماء والشعراء وأهل الأدب . فكان مجلس للوزير  
المهلبى أو ابن العميد ومجلس لآل سامان في ما وراء النهر وثالث لسيف  
الدولة في حلب يحضره المتنبي الشاعر وابن جني النحوي والفارابي الفيلسوف  
وابن نباتة الخطيب . ورابع لآل غزنة يضم العتبي المؤرخ والبيروني المؤلف  
والعالم والفردوسي الشاعر . ولدى السلاجقة من بعد مجلس نظام الملك  
الوزير الذي فتح فتحاً في نشر الثقافة هو تبنى المدارس وكان من حاشيته أبو  
اسحق الشيرازي وأبو المعالي الجويني أمام الحرمين .

وثمة لون آخر من الثقافة انتشر وكان أحد روافدها هو التشيع . وإذا كان سوريا لسبب سياسي فقد نجم عنه بين ما نجم ظاهرة القرامطة في الكوفة ودمشق والبحرين وصنعاء وشيراز والري كما برز الفكر الثقافي الشيعي السبعي في أفريقية بعد ذلك . وعلى أساسه قامت الدولة الفاطمية التي امتدت إلى مصر وأنشأت فيها مركزا لنشر الدعوة الشيعية (السبعية) في الأزهر ونظمت لثقافتها المنظرين (كالنعمان بن محمد) وأعدت الدعاة إعدادا وجعلت لهم مراتب ورواتب . واعتبرت العالم كله مجالا لدعوتها الشاملة . وحاولت أن تجعل من مصر قلعتها ومنطلق فكرها قرنين كاملين . وكان لها مجالس بكل مدينة بعضها علني كما في عكا التي قامت فيها المناظرة الخطرة بين أبي بكر ابن العربي وبين الداعية الإسماعيلي ، وبعضها سري كما في همدان والري . وكانت الثقافة الدينية الأمامية تشد العلماء في حلب منذ أيام الحمدانيين كما تشد مدينة قم في إيران . على أن المجالس العلمية لهذه الثقافة كانت كلها موجهة لنشر الفكر الشيعي والجدل فيه . وإن كان لها بدورها شعراؤها الأفاذا وكتابها .

وإذا حاولت الدعوة الفاطمية أن توجه الثقافة الفكرية في العالم الإسلامي وجهة أخرى غير الوجهة السنية فإن نجاحها كان سطحيا ومحصورا في منطقتها الجغرافية التي امتلكتها وفي صنعاء التي تبعتها وامتدت بها إلى شمال الهند وما كادت الدولة الفاطمية تنتهي حتى انتهت معها دعوتها ذلك أن الموجة السلجوقية التي غزت العالم الإسلامي في القرن الخامس جاءت معها بتغيرات ثقافية واضحة :

— ثبتت المذهب السني من خلال تبنيها للخلافة العباسية وعملت حتى نجحت في النهاية على إلغاء المذهب الفاطمي .

— أدخلت على إيران العنصر التركي بكثافة وتبنت هناك اللغة

الفارسية ممهدة بذلك لفصل ايران عن العالم العربي الذي كان مسيطرا لغة وديناً في ايران .

— دعمت ونشرت «المدارس» الرسمية موجودة بذلك «أداة» الدعوة السنية ورجالها.

على أن مجالس العلماء والصالونات الأدبية لم تنقطع ولا انقطعت «الصلات» الفكرية بين طبقة المثقفين والحكام وبقي لامثال نور الدين زنكي وصلاح الدين وللووزير القاضي الفاضل والكاتب عماد الدين الاصفهاني، وللعلماء أمثال تاج الدين الكندي فرخشاه بن شاهنشاه ثم للملك المعظم عيسى الأيوبي صاحب دمشق وفلسطين مجالسهم الأدبية والنحوية والشعرية والفقهية في حلب ودمشق والقاهرة كما كانت مجالس بارزة في القدس والموصل . ثم التفت الظاهرة المماليك الذين رغم أنهم كانوا يتحدثون التركية إلا إنهم من باب التشبه وشد الشرعية إليهم كانوا يعقدون مجالس العلم هم وأمرؤهم وقد ظهر من أولادهم عدد كبير من العلماء أمثال ابن تغرى بردى وابن دقماق وابن أيك . كما شجعوا ظهور العلماء للدرجة التي يمكن أن نعتبر العصر المملوكي هو عصر النهضة العلمية الثاني في العالم الإسلامي بعد العصر الأول العباسي وإن كان له طابعة الخاص وميزاته وطريق عمله .

### ٣ — دور القرآن ودور الحديث والمدارس : يبدو أن انفصال المدرسة

عن المسجد الجامع واتخاذها مبناهما الخاص في المدن الإسلامية إنما كان على يد الخليفة المعتضد، أواخر القرن الثالث فإنه «لما أراد بناء قصره في الشامية ببغداد استزاد في الذرع بعد أن فرغ من تقدير ما أراد فلما سئل عن ذلك ذكر أنه يريد له ليبنى فيه دوراً ومساكن ومقاصيد يرتب في كل موضع رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجري عليه الأرزاق السنية ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ

عنه . . . «<sup>(١)</sup> وهذا يعني أن الرجل كان يفكر بمشروع جامعة كاملة في ذلك العهد ولسنا ندري إن كان المشروع قد تم أم لا ولكننا نعلم أن «جامعة المسجد» التي حملت العلم والتعليم ثلاثة قرون لم تعد تتسع للأعداد المتزايدة من المسلمين الراغبين في العلم في المدن الإسلامية وكان لابد من خروج المدرسة عنها . بدأ ذلك بانفصال دور القرآن الكريم عن المسجد قراءة وتلقينا وتحفيظا ويبدو أن أول هذه الدور أو من أوائلها دار القرآن الرشائية التي أنشأها في حدود السنة الأربعمئة للهجرة مقرىء دمشق رشابن نظيف وكانت له دار فيها موقوفة على القراءة<sup>(٢)</sup> ثم تعددت دور القرآن بعد ذلك في المدن المختلفة في المشرق بخاصة لكنها لم تكثر لأن المسجد ظل المكان المفضل لقراءة القرآن الكريم .

وقد انفصلت المدرسة عن المسجد في الوقت نفسه تقريبا . بدأ ذلك في أقصى مشرق العالم الإسلامي في بخاري وقد جاء في تاريخها إن اسماعيل بن أحمد الساماني (ت . سنة ٢٩٥ / ٩٠٧) كانت له مدرسة يقصدها طلاب العلم ليستكملوا دراستهم فيها وليبحثوا بدار كتبه التي وقف عليها الأوقاف . وذكر البرسخي مدرسة أخرى كانت تقع بمحلة بكار من بخارى أسسها فارجدك احترقت سنة ٣٢٥ كما ذكر مدرسة أخرى يقال لها مدرسة كورلا تكين كانت موجودة في بخاري قبل سنة ٣٤٨ وهي سنة وفاة أبي بكر البرسخي أسسها الأمير قدرخان جبرائيل بن عمر . . . ويبدو أنه في الفترة نفسها بدأ في نوع من التقليد والحل معا ، بناء مدرستين في نيسابور : إحداهما بناها محمد بن حبان البستي التميمي أبوحاتم (ت . سنة

(١) المقرئبي : خطط ج ١ ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(٢) مكرر التميمي : الدارس في تاريخ المدارس (ط . المجمع العلمي بدمشق ١٩٤٨) ج ١

٣٥٤ / ٩٦٥م) والثانية من بناء حسان بن محمد القرشي الأموي المعروف  
بأبي الوليد النيسابوري (ت. سنة ٣٤٩ / ٩٦٠).

والفرات كذلك دور الحيث عن المسجد وهي بدورها من ابتكار  
نيسابور أيضا فكانت فيها داران للحديث أنشئتا في الثلث الأول من القرن  
الرابع هما دار الحديث البسطامية ودار السنة الصبغية لكن هذه الدور لم  
تنتشر كثيرا وبسرعة فلم يلحق بها من بعد سوى دار الحديث النورية التي  
أنشأها نور الدين بن زنكي في دمشق بعد أواسط القرن السادس / ١٢م.  
ثم لحق بها بعد ذلك دار الحديث الكاملة التي أنشأها الكامل الأيوبي بعد  
ذلك في مصر ولحقت بها دور أخرى كما ظهرت مثل هذه الدور في حلب  
والموصل. في أيام نور الدين.

أما المدارس فهي التي انتشرت الانتشار الكبير منذ القرن الرابع.  
ويتبين من استقرائها أن هذا الانتشار كان من الشرق إلى الغرب ولكن ببطء  
قد يفسره الهدف من إنشائها فقد أنشئت :

أولا : في خراسان وما وراء النهر. . . . قبل سنة ٢٩٥ / ٩٠٧م وهي  
المدرسة السامانية.

ثانيا : في العراق (بغداد). . . . سنة ٤٥٧ / ١٠٦٤ وهي المدرسة  
النظامية (بناها نظام الملك الوزير).

ثالثا : في الشام (دمشق). . . . سنة ٤٩١ / ١٠٩٧ وهي المدرسة  
الصادرية (على اسم بانيها الأمر صادر ابن عبدالله من حاشية الملك تاج  
الدولة تتش وابنه دقاق).

(١) فامبيري (أرمينيوس) : تاريخ بخاري ص ١٠٦، ١٠٩ - ١١٠.

(٢) الترشيحي : تاريخ بخاري ص ١٢٨ وص ٣٠ وصحة اسم المؤلف هي البرسخي نسبة إلى  
برسخان من قرى بخاري (باقوت : بلدان ج ١ ص ٣٨٣) ولكننا اتبعنا الاسم الموجود في  
الكتاب المطبوع.



رابعاً : في الشام (القدس) . . . . أواخر القرن الخامس : وهما مدرستان  
للحنفية وللشافعية .

خامساً : في مصر (الاسكندرية) . . . . سنة ٥٣٢ / ١١٣٧ وهي المدرسة  
العوفية المنسوبة لابن عوف الزهري وكان المدرسة الثانية بعدها في المدينة  
نفسها المدرسة السلفية سنة ٥٤٤ .

سادساً : في الحجاز (مكة) . . . . سنة ٥٧٩ / ١١٨٣ وهي مدرسة  
الزنجبيلي للحنفية وهو تاجر موسر كان في عدن ثم تركها وله مبرات عديدة  
في مكة ودمشق .

سابعاً : في أفريقية (تونس) . . . . سنة ٦٤٧ / ١٢٤٩ وهي المدرسة  
الشماعية أنشأتها الأميرة عطف زوجة أبي زكريا الأول الحفصي .

ثامناً : في المغرب (فاس) . . . . سنة ٤٦٢ / ١٠٦٩ .

تاسعاً : في المغرب (تلمسان) . . . . في الوقت نفسه تقريباً . وكانت من  
بدائع الدنيا .

عاشراً : في المغرب (فاس) . . . . سنة ٦٧٠ / ١٢٧١ (أول مدرسة أنشأها  
بنومرين) .

حادي عشر : في المغرب (مراكش) . . . . سنة ٦٨٥ / ١٢٨٦ وهي التي  
بناها السلطان يعقوب المريني .

ثاني عشر : في الأندلس (غرناطة) . . . . سنة ٧٥٠ / ١٣٤٩<sup>(٤)</sup> وهي التي  
أحدثها يوسف الأول ملك بني نصر .

---

(١) انظر ناجي معروف : مدارس قبل النظامية (مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٧٣)  
ص ١٣ - ١٤ مع الهامش ١ ص ١٤ والصفحات ١٠ - ٢٢ وقد أكملنا القائمة بمدرسي  
القدس نقلاً عن ابن العربي الذي زارها في أواخر القرن الخامس (انظر : آراء ابن العربي  
الكلامية - طبع الجزائر) ص ٦١ والأنس الجليل ج ٢ ص ٣٤ وقد أشار إلى المدارس في  
القدس : المقدس في أحسن التقاسيم (قبل سنة ٣٩٠) .

ظلت المدارس أكثر من قرن ونصف القرن مجرد مؤسسة تابعة للمسجد تقوم بمعاونته على التدريس الديني دون أن تلغي دوره ودون أن يكون لها من معنى سياسي وكانت تعد في المشرق ثلاثا وثلاثين مدرسة قبل أن تظهر سلسلة المدارس النظامية المعروفة . وكان منها في نيسابور وحدها ٢٧ مدرسة وفي بخاري اثنتان وفي كل من غزنة وبنج ديه وطوس مدرسة . ومن أشهر هذه المدارس بنيسابور البيهقية التي أنشئت سنة ٤٠٨ / ١٠١٦ ومدرسة الاسفراييني التي أنشئت قبل سنة ٤٠٥ / ١٠١٣ ومدرسة الصابوني مثلها (وكان يلقب بشيخ الإسلام) والمدرسة الناصحية (قبل سنة ٤٠٨) . وكان الموسرون أو بعض الحكام هم الذين يقدمون لها الأبنية وفيها سكن للطلاب والمدرسين وقيمون لها الأوقاف والجرايات التي تكفيهم الحاجة المادية ويجعلون فيها خزائن الكتب العديدة كما كان يدفن فيا مؤسسوها . على أنها في معظمها كانت أحادية المذهب أي أنها لواحد من المذاهب وكثرتها العظمى للشافعية أو الحنفية . وهكذا مثلا سكن أبو علي الجاجرمي ثم المطوعي مدرسة أبي سعد الزاهد سنين عديدة وكانت مدرسة أبي حيان للمدرسين وللطلاب . وكان ابن حيان التميمي ينفق على مدرسة الجرايات الدارة وأبو المظفر الاسفراييني يعمر مدرسة بلخ من أوقافها . وقد سبل أبو حاتم السبتي كتبه ووقفها جميعا على من يحتاج مراجعتها في دار خصصت لها . وكانت لدى أبي صالح المؤذن أوقاف الكتب في مدرسة البيهقي كما كان يتولى أوقاف الخبر والكاغد فيها . ودفن محمد بن يحيى المزكي في مدرسته كما دفن علي بن الحسن الصيدلي وعبدالواحد القشيري وأبو الفتح عبد الملك بن صاعد وغيرهم ، كل في مدرسته . وهذا يعني أنها كانت مدارس خالصة لوجه الله والعلم والخير حتى جاء نظام الملك وزير السلاجقة فرأى أن يستغل المدارس لجعلها مركزا لتعليم وتخريج الدعاة للمذهب السني كي تقف في وجه الدعاية الفاطمية الشيعية المنظمة القائمة في الأزهر . كان غرض نظام

الملك سياسيا دينيا ولم يحظر في باله أن بالتقاط فكرة بناء المدارس من قبل الدولة والتدخل في تعيين مدرسيها ثم في اصطناع خريجيها إنما كان يحدث انقلابا في الثقافة العربية الإسلامية لأن الحكام من أهل السنة سرعان ما أقبلوا على بناء المدارس في مختلف المدن تقربا إلى الله ومرضاة لدينه الذي ارتضى . وكان الجو الثقافي - السياسي كأنه متلهف لمثل هذه الوسيلة فيها أن بدأ نظام الملك في بناء مدارس الموجهة للدعوة إلى السنة في أواسط القرن الخامس حتى قلده الحكام الآخرون من بعده فترة تزيد على القرن قبل أن يستلم المبادرة الموسرون والأمراء و«الخواتين» من النساء وبينوا المدارس التي تفتحت بكل مكان حتى في المدن الصغيرة كجزيرة ابن عمر . وإذا كانت الدوافع الأولى لهذه المدارس مذهبية سياسية وقد نجحت مع الغزو الصليبي وإلغاء الخلافة الفاطمية في مصر فإنها كانت في اعتبار الناس ، مؤسسة دينية لا تقل شأنًا بكثير عن منزلة المسجد وتباروا فيها تباري التقي وتباري المباحة - وأدخلوا بها عنصرا جديدا هاما على عمارة المدن الإسلامية وعلى مخططاتها البنائية ومؤسساتها الأساسية فصارت المدارس - وإن تكن في العدد أقل كثيرا من المساجد - إلا إنها أصبحت أساسية في الوظيفة الدينية لها وفي حمل الثقافة واحتضان رجالها في المدينة وتأمين كفايتهم من الحاجات المادية عن طريق الأحباس .

وقد أخذت المدارس طابعاً مشتركاً فكانت متشابهة التخطيط والبناء في العالم الإسلامي كله فلها باب أو بوابة كبيرة مزخرفة كأبواب بعض الجوامع كما في المدرسة النورية بدمشق والمستنصرية والمرجانية والشرابية في بغداد . ثم ساحة تعرف بالصحن تحيط بها الحجرات في طابقين على الأغلب لا يواء الطلبة والمدرسين وغالباً ما تحوي أروقة أمام الحجرات وهي بدورها مزخرفة أو مقرنصة (ومن أبرز أمثلتها المدرسة العنانية في فاس) وفي أغلب المدارس إيوان واحد أو اثنان وقد تكون أربعة أو اويين متقابلة . ولا علاقة للأويين وعددها

بالمذاهب الدينية التي تدرسها المدرسة . فالأيوان طراز معماري لم يستخدم أبداً في تحديد المذهب .

قتل الاسماعيلية الفاطميون نظام الملك سنة ٤٨٥/ ١٠٩٢ بعد أن بنى تسعة مدارس في مدن المشرق الكبرى لمواجهة الدعوة الشيعية واحدة في بغداد وبنى معها رباطاً . ومدرسة ببلخ وأخرى في نيسابور وفي هراة وأصبهان ومرو والبصرة والموصل وفي أمل بطبرستان ويقال «إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة»<sup>(١)</sup> وإذا كان الزعم بأنه أول من أنشأها غير صحيح فيبدو أنه أشهر المنشئين وأنه هو الذي جعلها رسمية وأغدق عليها من مال الدولة لا الأوقاف وقرر بها للفقهاء والطلبة معالم معنية ، ولم يمض قرن على مدارس نظام الملك حتى كانت أعداد كثيرة من المدارس قد ظهرت في المشرق الإسلامي لا بغرض مكافحة التشيع فقط فقد انضاف سبب جديد إلى ذلك هو الأخطار الفرنجية والمغولية على العالم الإسلامي وضرورة إعداد المسلمين للوقوف في وجهها والجهاد ضدها وتثبيت القلوب على الدين الحنيف وهكذا نجد أن المدارس تتكاثر بسرعة كبيرة في المنطقة الإسلامية المشرقية في العهد الأيوبي ثم تزداد كثرة في العهد المملوكي لسبب ثالث هو رغبة المماليك في إبراز إسلاميتهم وهم المسلمون الجدد، وفي التآسي بالسلطين السابقين في العمل للدين وهكذا اكتسحت العالم الإسلامي الشرقي موجة واضحة من المدارس في مختلف المدن ووصلت أطراف هذه الموجة متأخرة بعض التأخر إلى المغرب والأندلس .

ويكفي أن نستعرض بعد أعدادها . ففي بغداد - على ما يذكر ابن جبير حوالي سنة ٥٨٠ - كانت «المدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية وما منها

(١) السبكي : طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٣٧ .

مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها النظامية . . .  
وهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها  
ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذا البلاد في أمر هذه المدارس  
والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلص<sup>(١)</sup> والواقع أن مدارس بغداد تجاوزت  
الثلاثين وكانت عند سقوط المدينة بيد المغول ثمانية وثلاثين مدرسة ، بين  
مدرسة أنشئت للذهب واحداً ولمذهبين أو مشتركة بين المذاهب الأربعة . وكان  
ببغداد علاوة على ذلك عدد لا يحصى من دور القرآن ودور الحديث وحلقات  
المساجد أو أماكن الدراسة كالمكاتب (الكتاتيب أو المساييد كما في المغرب)  
والربط والزوايا والبيمارستانات ومجالس المناظرة ومجالس الوعظ ومجالس  
الاملاء والندوات الأدبية عدا التحديث في الدكاكين وفي دكاكين الوراقين  
والأسواق ودور العلم عدا خزائن الكتب وغيرها . . . وقد أضيفت إلى  
المدارس بعد سقوط بغداد ١١ مدرسة أنشئء آخرها سنة ٨٠٠<sup>(٢)</sup> .

وكان في الوقت نفسه تقريباً أكثر من ٤٤ مدرسة بنيسابور وأكثر من خمسة  
مدارس في مرو منها المدرسة العميدية ومدرسة المجير البغدادي بشيراز؛  
ومدرسة بوشنج ، ومدرسة غزنة ، ومدرسة بنج ومدرسة المنيعي بمرور الرود  
قبل سنة ٥١٠ ، ومدرسة أبي طاهر الشباك بجرجان (بنييت قبل سنة ٥١٣)  
ومدرسة الفرج الخوي في خوي بأذربيجان ومدرسة السرة مرد في سرخس  
ومدرسة فخر الإسلام الردياني بآمل بطبرستان هذا عدا النظاميات العشر وعدا  
مدرسة وعدا ما انضاف إلى هذه المدارس منذ أواسط القرن السادس أما  
بخاري فكانت منذ العهد الساماني تزيد على نظائرها من مدن المشرق في عدد  
المدارس ولم تستطع بلخ وهي التي تعرف بقبة الاسلام منافستها الا بعد

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٢٠٥ .

(٢) ناجي معروف : المدارس الشراعية الصفحات ١٢٩ - ١٣٢ .

ذلك<sup>(١)</sup> ويذكر المقرزي أنه كان في دهلي وحدها بالهند من المدارس الاسلامية ما عدته ألف مدرسة كلها للحنفية الا واحدة للشافعية<sup>(٢)</sup>. والمبالغة في هذا الخبر واضحة لكنها على الأقل تدل على الكثرة في المدارس هناك حوالي القرن الثامن الهجري .

وإذا انتقلنا إلى الموصل وجدنا فيها في العهد الأتابكي حتى أواسط القرن السابع سبع عشرة مدرسة كانت النظامية أولها . وقد لحقها في القرن السادس ثمان مئتين مدارس كان أبرزها وأهمها المدرسة النورية وكان بها داران للحديث هما المهاجرية التي أقامها بها عبداللطيف البغدادي سنة كاملة سنة ٥٨٥ ودار الحديث المظفرية التي شيدها مظفر الدين كوكبوري صاحب إربل والداران انشئت في النصف الأول من القرن السادس هذا عدا سبعة أربطة<sup>(٣)</sup> .

وأما حلب فقد عدد ابن شداد (ت . سنة ٦٨٤/١٢٨٣) في القسم الأول من كتابه الأعلاق الخطيرة مساجدها التي تبلغ ٢٠٨ مساجد عدا التي بالقلعة وهي عشر وعدا التي بين أبواب المدينة وهي ١٤ وعدا التي في الأرياض وهي ١٥ مسجداً . وذكر ما في حلب من المدارس بالتفصيل فإذا فيها ١٢ مدرسة للشافعية وعشراً للحنفية وثلاثاً للمالكية والحنبلية ، هذا إلى ١٨ خانقاه للرجال وسبع خوانق للنساء<sup>(٤)</sup> .

(١) فامبيري : تاريخ بخاري ص ١٠٦ - ١١٠ والنرشخي (البرسخي) تاريخ بخاري ص ٣٠ و ١٢٨ .

(٢) ناجي معروف : المدارس الشراعية ص ١١٥ (نقلاً عن المقرزي - خطط ج ٤ ص ١٧٤) .  
(٣) ذكر صاحب منية الأدباء : العمري الخطيب (ص ٦٦) أن في الموصل أيضاً ٢٠٠ حمام عدا ١٠ حمامات للبنات و٣ مارستان واحد منها للمجانين .

(٤) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة : الجزء الأول - القسم الأول (ت . سورديل - دمشق ١٩٥٨) من ص ٥٩ إلى صفحة ١٢٢ وقد ذكر ابن شداد حمامات حلب ووجد أنها ٧٠ حماماً عاماً و٣٤ في الدور و٢٥ في الحلبة والبساتين و٦ خارج باب الجنان (ص ١٣٠ - ١٣٧) .

وأما دمشق التي ذكر ابن شداد فيها ٩٠ مدرسة في آخر القرن السابع فقد خصص عبدالقادر بن محمد النعيمي الدمشقي (المتوفي سنة ٩٢٧) كتاباً ضخماً في مجلدين لمدارسها هو كتاب الدارس في تاريخ المدارس<sup>(١)</sup> ذكر فيه بالتفصيل الواسع مدارس دمشق البالغة ١٣١ مدرسة وذكر بناءها وشيخوخها المتتالين وأوضح أنه كان للشافعية منها ٦٣ مدرسة وللحنفية ٥٣ مدرسة و١١ للحنابلة و٤ للمالكية هذا عدا ٢٦ زاوية و ٢١ رباطاً و ٣١ خانكاه . بالإضافة إلى سبع دور للقرآن و ١٥ داراً للحديث أبرزها النورية وثلاثة دور مشتركة للقرآن والحديث معا . ومن مدارس دمشق الشهيرة المدرسة النورية والمدرسة المصلاحية والظاهرية والعاذليتان الكبرى والصغرى والعصرونية وكلها من مدارس الشافعية والبدرية والماردانية والحاجبية والركنية والصادرية وغيرها من مدارس الحنفية وصارت دمشق المركز الديني الأول في العصر المملوكي لكل دارس ومتعبد .

وأما القدس فقد حظيت بسبب تراثها الديني العريق بالهزات العنيفة في توجهها الثقافي فقد كانت لها حرمتها وعلمائها في العصر العباسي ثم فوجئت بالهزات .

كانت الهزة الأولى في سنة ٣٥٨ / ٩٦٩ بالاحتلال الفاطمي لها مع جنوبي الشام فتوجه الفكر الديني فيها وجهة التشيع الفاطمي وبذل الفاطميون الكثير من الجهود في الحفاظ على حرمتها وفي إهداء قبة الصخرة والمسجد الأقصى الهدايا الثمينة وحاولوا حتى إلغاء الرابطة المسيحية بها في قضية هدم كنيسة القيامة . وصارت الرسوم بها كما يقول المقدسي على المذهب الفاطمي فاتجهت المدينة إلى القاهرة تستمد منها التوجيه وترسل إليها برجالها بدلا من بغداد .

(١) حول الاسم والكتاب خلاف لا ندخل فيه .

وكانت الثانية حين احتلها السلاجقة أتباع الخليفة السني في بغداد بعد قرون (سنة ٤٦٧) فكانت فرحة بغداد برجوعها واضحة في هروع أعداد كبيرة من علماء المشرق والمغرب إليها لازالة الرسوم الفاطمية منها وتوثيق الارتباط بينها وبين السنة وبغداد. وقامت فيها نهضة علمية واسعة جذبت إليها من المغرب أمثال أبي بكر ابن العربي الأشبيلي وأبي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي ومن المشرق أمثال: الحنبلي وقامت فيها المدارس والخوانق وظهر منها عدة علماء منهم نصر بن ابراهيم المقدسي (المتوفي سنة ٤٩٠) وكتب ابن العربي يوم زارها أواخر القرن الخامس: «وردت بيت المقدس فألفيت في ثماني وعشرين حلقة ومدرستين احدهما للشافعية بباب الأسباط والأخرى للحنفية بازاء قمامة (القيامة) تعرف بمدرسة أبي عقبة وكان فيها من رؤوس العلماء . . . كثير ومن أخبار اليهود والنصارى والسمررة جمل لا تحصى . . .»<sup>(١)</sup>.

وكانت الثالثة حين جرفت الموجة الصليبية الغازية كل أثر للإسلام فيها حتى البشر سنة ٤٩٣ / ١٠٩٩ ونحوت المدينة نصرانية كاثوليكية. حتى الأقصى حولوا جانباً منه كنيسة وجانباً هيكلًا للداوية والحقواء في غربه بناء للأسلحة واتخذوا السراييب اصطبلات للخيل. وانقطعت القدس عن العالم الإسلامي ٩٠ سنة هجرية (٢٩٣ - ٥٨٣ / ١٠٩٩ - ١١٨٧).

وكانت الرابعة حين حررها صلاح الدين وعاد المد الإسلامي إليها بشكل كثيف. ومنحها خلال العصر الأيوبي كل المظاهر والمؤسسات الثقافية الإسلامية. ثم ازدادت المدينة حرمة وتقديساً في أيام المماليك الذين أعطوها الكثير من الأبنية الدينية: من مدارس وخوانق وزوايا فكان فيها في أواخر عصرهم قبيل العهد العثماني نيفاً وأربعين مدرسة من أهمها: المعظمية التي

(١) ابن العربي (آراء ابن العربي الكلامية) ت: عمار الطالبي وبالجزائر دون تاريخ) ص ٦١.



أنشأها الملك المعظم عيسى الأيوبي سنة ٦١٤/١٢١٧ والصلاحية التي أسسها صلاح الدين سنة ٥٨٣ إثر الفتح والاغونية التي أنشأها الأمرارغون الكاملي صاحب الشام سنة ٧٥٨/١٣٥٦ . وصار في القدس من خواتق الصوفية ٢٩ داراً وستة أربطة و ٢١ زاوية وبعض الخواتق كان للنساء وأهمها الخانقاة الصلاحية التي أسست سنة ٥٨٣ والفخرية بهذا كله صارت القدس أحد مراكز العالم الإسلامي للزيارة والتصوف .

وأما مصر فلها قصة أخرى في اتجاهها الثقافي الديني فقد كانت حتى القرن الرابع تابعة لبغداد ولها علماءؤها ومجالسها وحلقاتها في المسجد العتيق (جامع عمرو) وفي غيره ثم جاءها الفاطميون فغيروا من اتجاهها الثقافي والفكري وجعلوها المركز الأساسي لمذهبهم الشيعي الفاطمي وفلسفوا هذا المذهب وجعلوا له الدعوة المنظمين في مراتب كما بنوا الجامع الأزهر ليكون مركزاً لكل ذلك . كانت ميزة هذه الدعوة أنها تعليمية بمعنى أنها لا تكتفي بالدعوة ولكنها تربي أنصارها تربية وتلقينهم ما يقولون تجاه كل سؤال . وكان يشارك في التعليم الخليفة والوزير كما يشارك فيها الدعوة المنظمون الذين صار لكل منهم راتب معين على عمله . يقول المقرزي : « وأول ما عرض إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم حار لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله ووزارة يعقوب بن كلس فعمل ذلك بالجامع الأزهر ، ثم عمل في دار الوزير مجلس يحضره الفقهاء فكان يقرأ من كتاب فقه على مذهبهم وعمل أيضاً مجلس بجامع عمرو بن العاص في مدينة فسطاط مصر لقراءة كتاب الوزير . ثم بنى الحاكم بأمر الله دار العلم بالقاهرة . . . (١) » وكان لمن يسمون بالمتدعة في نظر أهل السنة مجالسهم ودروسهم في كل البلاد التي تخضع لهم وبخاصة في اليمن وفي ساحل فلسطين يقول ابن العربي : « وكان الساحل

(١) المقرزي : خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

المذكور مملوؤاً من هذه النحل الملحدية والمذاهب الباطنية والإمامية فطوفت في مدن الساحل لأجل تلك الأغراض الدينية نحواً من خمسة أشهر ونزلت بمكانها . وكان رأس الأمامية بها حينئذ أبو الفتح العكبي . . . فاجتمعت بأبي الفتح في مجلسه وأنا ابن العشرين . . . فلما رأني كثير العلم ولع بي . . . وفيهم لعمر الله وإن كانوا على مذهب باطل إنصاف . . .»<sup>(١)</sup> وروى بعد ذلك ما تقلب عليه من الخوف حتى كاد يقتل فما هرب من عكا إلا وخذاؤه يلحقه .

وكانت الثقافة الشيعية الفاطمية تكسب الأرض من حول الخلافة العباسية في المشرق بالتدريج حتى أنشأ نظام الملك الآلة السياسية الدينية التي توقف هذا الزحف بإنشاء المدارس وتخريج الدفعات بعد الدفعات منها في جميع المشرق وتسليمهم المناصب الدينية . فلم يكن المغرب ، لا سيما بعد أن قطع آل زيري إفريقية عن التبعية لمصر وظهرت فيه دول المرابطين والموحدين وتفتت الأندلس ، من هموم الفاطميين الذين توجهوا مع التجارة للمشرق والهند . ونجحت المقاومة العباسية بواسطة الجماعات التي تخرجت من المدارس السنية والتي ظهر أثرها واضحاً في العهد الأيوبي حين استعيدت القدس من الفرنجة وألغيت قبل ذلك الخلافة الفاطمية وانقطع دعائها تقريباً . فانساح العلماء من المغرب خاصة على مصر تماماً كما فعل علماء المشاركة مع القدس . وأبطل صلاح الدين مذهب الفاطمية من مملكته ولحقه ، تحت تأثير التجارة أيضاً حتى اليمن . وأقام في مصر المذهب الشافعي ومذهب الإمام مالك (بسبب كثرة الاتصال مع المغرب المالكي) واقتدى بنور الدين وبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمدينة مصر . فأول مدرسة أحدثت بديار مصر هي المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضاً ثم اليوسفية في القاهرة . . . واقتدى بصلاح الدين في بناء المدارس بالقاهرة ومصر بالبلاد

(١) ابن العربي : آراء ابن العربي ص ٦١ - ٦٢ .

الشامية والجزيرة أولاده وامراؤه ثم أحفاد أسرته ثم حذا حذوهم المماليك<sup>(٣)</sup> ثم عدد المقرزي (أواسط القرن التاسع) مدارس مصر والقاهرة فإذا هي خمس وسبعون مدرسة أهمها الفاضلية التي أنشأها سنة ٥٨٠ القاضي الفاضل والصاحبة البهائية التي انشئت سنة ٦٥٤ على يد الوزير الصاحب بهاء الدين، والشريفية (سنة ٦١٢)، والكاملية التي أنشأها الكامل بن العادل الأيوبي سنة ٦٢٢، والمنصورية التي أنشأها قلاوون على يد الأمير علم الدين سنجر الشجاعى وجعلها للمذاهب الأربعة، والمحمودية من إنشاء جمال الدين محمود الاستادار وتشتهر بمكتبتها .

٤ - المكتبات : عجة الكتب واضحة في القرآن الكريم قال تعالى ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ حتى لقد سُمي القرآن الكريم نفسه بالكتاب كما سمي الذميون بأهل الكتاب . وحتى قبل أن يظهر الورق كانت للعلماء مكتباتهم وقد ذكروا أن عبدالله بن عباس حين توفي «أخرجت من بيته أحمال من الكتب» . وكانت لدى الخلفاء الأمويين مكتباتهم الخاصة . أما مكتبة خالد بن يزيد في حمص فقد بدأت عصر الترجمة في الاسلام . وليس صحيحاً أن رواه العلم الأوائل لم يكونوا يكتبون ولهم كتبهم ولكنهم كانوا يسجلون للتذكر وإنما لا يتناقلون العلم إلا مشافهة خوف التبديل فيه .

على أن المكتبات لم تظهر بشكل واسع - ولم تتسع الكتب نفسها - إلا منذ القرن الثالث بعد انتشار الورق وكان امتلاك مكتبة في أي منزل علامة ارسقراطية وغني . والرواة للحديث النبوي ولأخبار العرب والشعر هم الذين اهتموا بأن تكون لهم مكتباتهم الخاصة لأنها من صناعتهم . وهي تكبر وتصغر حسب مبلغهم من الغنى . ولقد يبيع بعضهم كتابه من الفقر . ولقد يغسله ليكتب عليه أمراً آخر . فثمن الكتاب مرتفع وأجرة نسخه مرتفعة بدورها .

(١) المقرزي خطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

ومع ذلك فقد سمح الغنى للخلفاء والوزراء وكبار العلماء الموسرين بأن تكون لديهم مكتبات ضخمة كان من بقاياها هذا التراث المخطوط من الكتب والموزع بين مكتبات العالم والذي يعد بعدة مئات من الألوف .

وقبل أن تنفصل المدرسة عن الجامع كان في كل مسجد مكتبة تحوي مختلف الكتب التي وقفها أصحابها عليه وعلى رأسها نسخ عديدة من القرآن الكريم يقرأ فيها الناس فلما انفصلت المدرسة لم تختف مكتبات المساجد في المدن ولكنها تضاءلت عددا واقتصر معظمها على نسخ القرآن الكريم وعلى الكتب الدينية المحض . كان ذلك في القرن الرابع خاصة ولكن بين القرنين الثالث والرابع كانت الكتب قد انتشرت وكانت المكتبات قد تكونت في جميع المدن العربية وكان النساخ والوراقون قد أصبحوا صناعة هامة في المجتمع الاسلامي فعلى أساس المكتبة بنى بقاء العلم الاسلامي وتناقله . ولهذا وجدت في مختلف المدن الإسلامية أنواع من المكتبات هي التي احتفظت بالتراث الاسلامي أو بيعه فالفنائع منها يزيد على الثلثين بكثير . ويمكن أن نصنفها في أربعة أصناف : المكتبات العامة والمكتبات شبه العامة والمكتبات الخاصة ومكتبات المدارس .

أ - المكتبات العامة : ونقصد بها المفتوحة للرواد والواقع أن معظمها كان نصف مدرسة تؤوي الطلاب وترزقهم الأجور ولم يكن يرتادها إلا فئة محدودة هي العلماء والطلاب الباحثون فهي مؤسسات لخدمتهم كما أنها على أي حال قليلة العدد في المدن وتقوم على الوقف : وقف الكتب ووقف العقارات التي تنفق على المكتبة ومنها :

- بيت الحكمة : وقد نشأت مبكرة زمن الرشيد ولم يكن السورق قد انتشر كثيراً بعد فكانت للتراجم والنساخين ولمن يود الاطلاع على علوم الأوائل ونسخ الترجمات . وقد زادها المأمون مجموعات أخرى من الكتب ثم زاد

الخلفاء العباسيون من بعد فكانت طوال العصر العباسي مجمعاً للعلماء  
والباحثين والطلاب . وذكر القلقشندي أنها ظلت قائمة حتى دهم التتر بغداد  
فاندثرت مع ما اندثر<sup>(١)</sup> .

— مكتب رام هرمز ومكتبة البصرة وقد انشأ المكتبتين علي بن سوار (وهو  
من رجال عضد الدولة) وقد زارهما المقدسي وكتب عن رام هرمز قال :  
« . . . وبها دار كتب كالتي بالبصرة والداران جميعا اتخذهما ابن سوار وفيهما  
اجراء على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ الا أن خزانة البصرة أكبر وأعمر  
وأكثر كتاباً وفي هذه أبداً شيخ يدرس عليه الكلام على مذهب  
المعتزلة . . . »<sup>(٢)</sup> .

— خزانة الحكمة لعلي بن المنجم : قال ياقوت : « وكان بكركر (قرب  
بغداد) ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى المنجم وقصر جليل فيه خزانة كتب عظيمة  
يسمونها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها  
صنوف العلم والكتب مبدولة في ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم والنفقة في  
ذلك من مال علي بن يحيى . . . »<sup>(٣)</sup> .

— دار العلم بالموصل وقد أنشأها الفقيه الشافعي أبو القاسم جعفر بن  
محمد الحمداني، القرن الرابع وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على  
كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها . وإذا جاءها غريب يطلب الأدب وكان  
معسراً أعطاه ورقاً وورقاً . وكانت تفتح في كل يوم ويجلس فيها إذا عاد من  
ركبوه، ويجتمع اليه الناس ويملي عليهم من شعره وشعر غيره . . . »<sup>(٤)</sup> .

(١) القلقشندي - صبح الأعشى ج ١ ص ٤٦٦ .

(٢) المقدسي ص ٤١٣ .

(٣) ياقوت : معجم الأدباء ج ٥ ص ٤٦٧ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ج ٢ ص ٤٢٠ .

دار العلم التي بناها سابوربن ازدشير وزير البويهيين (ت . ٤١٦ / ١٠٢٤) في بغداد وكانت ملتقى القراء والباحثين وفيها عرف أبو العلاء المعري بعض علماء بغداد واجبها أقام فيها . أنشئت سنة ٣٨٣ ويذكرون أن بها كتباً كثيرة اشتراها أو جمعها وكان بهاماته نسخة من القرآن الكريم بأيدي أحسن النساخ هذا إلى عشرة آلاف وأربعمائة مجلد أخرى معظمها بخط أصحابها أو من الكتب التي كان يملكها رجال مشهورون ورد النظر في أمرها ومراجعتها إلى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القضاة ذلك أنها كانت داراً للشيعة ولكنها مفتوحة لكل من يقصدها . وقد ذكروا أنها أحرقت سنة ٤٥١ / ١٠٥٩ حين دخل طغرل بك السلجوقي مع الخليفة إلى بغداد وأحرق الناس محلة الكرخ حيث تقوم الدار .

— دار العلم في نيسابور وقد أقامها القاضي ابن حبان (ت سنة ٩٦٥ / ٣٥٤) وجعلها داراً للعلم وخزانة للكتب ومساكن للمغرباء الذين يطلبون العلم وأجرى لهم الأرزاق ولم تكن الكتاب تعار خارج الخزانة . . .

— وفي أواخر القرن الرابع اتخذ الشريف الرضي (المتوفي سنة ٤٠٦ / ١٠١٥) نقيب العلويين والشاعر المعروف داراً سماها دار العلم وفتحها لطلبة العلم وعين لهم جميع ما يحتاجون إليه .

— خزانة المسجد الزيدي : وقد أنشأها أبو الحسن علي بن أحمد الزيدي (المتوفي ببغداد سنة ١٠٧٩ / ٥٧٥) وكان وزير المستضيء قد نذر إن رجع للوزارة أن يرسل إلى الزيدي ألف دينار وعاد فزادها الخليفة ألفاً أخرى فاشترى الزيدي داراً وبناها مسجداً ووقف فيها كتبه وكانت كثيرة وتلقت هذه الخزانة منحة مجموعتين من الكتب واحدة جاءتها من دمشق وقفها على المسجد أبو الخطاب العلمي الدمشقي والثانية كتب ياقوت الحموي .

(١) متر : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٢٩ (نقلا عن وستفلد) .

— الخزانة الحيدرية في الكوفة وهي مكتبة شيعية عريقة ماتزال باقية  
ويذكرون أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أهداها الكثير من الكتب .  
ويلاحظ أن دور الكتب القديمة كانت تحمل اسم الخزانة أما التي لحقتها وكانت  
للطلاب ولارتياح العلماء فقد حملت اسم دور العلم .

وقد أنشئت في مصر أيام الفاطميين مثل هذه الدور .

فقد اشترى العزيز بالله الفاطمي سنة ٩٨٨/٣٧٨ داراً إلى جانب  
الجامع الأزهر وجعلها خمسة وثلاثين من العلماء يقصدون مجالسهم العلمية  
بالمسجد كل يوم جمعة بين صلاتي الظهر والعصر<sup>(١)</sup> وكان الوزير ابن كلس  
يجري بأمر العزيز ألف دينار في الشهر على جماعة من أهل العلم والوراقين  
والمجلدين لتزويد المكتبة .

— ثم جاء الحاكم ففتح سنة ٣٩٥ الدار المسماة بدار العلم بالقاهرة  
ويسمىها المسيحي بدار الحكمة<sup>(٢)</sup> وينقل المقرئ عن قوله : «وجلس فيها  
الفقهاء وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة ودخل الناس إليها  
ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه وكذلك من رأى قراءة شيء  
مما فيها . وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء بعد  
أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور وأقيم  
قدام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها . وحصل في هذه الدار من  
خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر  
العلوم والآداب والخطوط المنسوبة مالم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك وأباح  
ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها فكان

(١) متن الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣٣٠ .

(٢) المقرئ : خطط ج ١ ص ٤٥٨ (والمسيحي مؤرخ فاطمي توفي سنة ٤٢٠) .

ذلك من المحاسن الماثورة أيضا التي لم يسمع بمثلها من إجراء الرزق السني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره وحضرها الناس على طبقاتهم . . . وجهل فيها ما يحتاج الناس إليه من الجمر والأقلام والورق والمحابير . . . وفي سنة ٤٠٣ أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء وجماعة من الأطباء . . . للمناظرة بين يديه . . . ووصف الحاكم أماكن في فسطاط مصر على عدة مواضع وضمنها كتاباً ثبت عند قاضي القضاة وقال عند ذكر الجامع الأزهر وقال فيه وقد ذكر دار العلم : ويكون العشر وثمان العشر لدار الحكمة لما يحتاج إليه في كل سنة من العين المغربي ٢٥٧ ديناراً .

من ذلك لثمان لحصر العبداني وغيرها لهذه الدار ١٠ دنانير	
ومن ذلك لورق الكاتب يعني الناسخ	٩٠ ديناراً
ومن ذلك للخازن بها	٤٨ ديناراً
ومن ذلك لثمان الماء	١٢ اثني عشر ديناراً
ومن ذلك للفراش	١٥ خمسة عشر ديناراً
ومن ذلك للورق والحبر والأقلام لمن ينظر فيها من الفقهاء ١٢ اثني عشر ديناراً	
ومن ذلك لمرمة الستارة	١ دينار واحد
ومن ذلك لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب	١٢ اثني عشر ديناراً
وما عساه يسقط من أوراقها	
ومن ذلك لبود للفراش في الشتاء	٥ خمسة دنانير
ومن ذلك لثمان طنافس في الشتاء	٤ أربعة دنانير

فهذه إذن بعض الميزانية السنوية لاحدى دور الكتب في ذلك العصر، إلا أن عمر هذه الدار لم يظل أكثر من مائة سنة بكثير فقد أبطلها الأفضل الجمالي لأنه اجتمع بها بعض العلماء الذين استفسدوا عقول جماعة ثم أعيد فتحها في أيام الخليفة الأمر على أن يتولاها رجل دين ويقام فيها متصدرون



لقراءة القرآن وكان ذلك<sup>(١)</sup> .

— دار العلم في طرابلس بالشام : وقد أقيمت في النصف الثاني من القرن الخامس سنة ٤٧٣ / ١٠٨٠ ، أقامها جلال الملك الحسن بن عمار قاضي طرابلس وحاكمها . وكانت مكتبة ضخمة يزعم بعض المؤرخين أنها كانت تجري ثلاثة ملايين كتاب منها خمسين ألف نسخة من القرآن الكريم . ولكن الرقم يدل على أي حال على كثرة ما فيها من الكتب وكان يعمل فيها مائة وثمانون نساخا ، ثلاثون منهم يعملون ليل نهار . وكان في المدينة معمل للورق . ولها رجال يجوبون البلاد في شراء الكتب وكان يقصدها العلماء من كل مكان<sup>(٢)</sup> وكان فيها طلاب ومدرسون يسكنون . ولكن عمر هذه الدار لم يزد على ثلاثين سنة لأن الصليبيين اختلوا المدينة سنة ٥٠٣ - ١١٠٩ فأحرقوا الدار . ولم تكن مذبحة الكتب فيها بأقل من مذبحة الأهلين في المدينة .

وكان نصيب دور العلم الأخرى السنية في المشرق مثل هذا النصيب ومنها :

— مكتبات مرو والشاهجان : يقول ياقوت إنه كان فيها على عهده (يوم تركها سنة ٦١٦هـ) اثنتا عشرة خزانة باحداها نحو من اثني عشر ألف مجلد . وكانت الخزائن سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثر بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار فكنت أرتع فيها واقتبس من فوائدها وأنساني حبها كل بلد وألهاني عن الأهل والولد . . . .<sup>(٣)</sup> وذكر من هذه الخزائن : خزانتي في المسجد الجامع وخزانة شرف الملك المستوفي بمدرسته وخزانة نظام الملك في

(١) المقرئ خبط ج ١ ص ٤٥٨ - ٤٥٩ و ٤٦٠ .

(٢) الزعم المذكور رواه ابن أبي طي المؤرخ الشعبي ولكن النويري يجعل عدد الكتب أكثر من مائة ألف (مخطوط باريس رقم ١٥٣٨ ورقة ١١٦ ظهر) .

(٣) ياقوت : البلدان ج ٥ ص ١١٤ .

مدرسته أيضاً وخزانة المدرسة العميدية، والخانكاه الضميرية وغيرها . . . وقد ذهبت جميعاً دفعة واحدة تحت سنابك الغزو المغولي سنة ٦٢٠ هـ هذه المكتبات العامة، وكلها تطوعية، تكشف عن موقف أهل اليسار المثقفين من الثقافة ونشرها في المدينة الإسلامية وعن جوع مجتمعتها بدوره للثقافة وعن نزعة الخير التي كانت تربط عن طريق الأجناس والكتب بين أفرادها .

ب - أما المكتبات الخاصة فتكشف مدى الولع بالكتب عامة في المدينة الإسلامية . وفيها من كان يحرم نفسه الطعام ليشتري كتاباً أو يبيعه لحاجة وهو يبكي وهؤلاء الفقراء المولعون بالكتب أكثر من أن يحصوا لأنهم يشكلون جمهور الثقافة، أما أرستقراطية المثقفين فهي التي بقيت لنا أخبارها وأخبار مكتباتها الخاصة وهي بدورها كثيرة جداً وبعضها بين الخاص والعام .

- أولها مكتبات الخلفاء سواء منهم العباسيون أم الفاطميون أم الأمويون في الشام أو في الأندلس . فبيت الحكمة ببغداد إنما نشأت أول الأمر مكتبة للخليفة . ولكننا نعلم الكثير غيرها : فالملوك كانوا يفاخرون بالكتب فخرهم بوجود العلماء في بلاطاتهم ومن حولهم . ومن الأمثلة مكتبة الخلفاء الأمويين في قصر الخضراء بدمشق . وقد أخرج عمر بن عبدالعزيز منها كتاباً في الطب استخار الله أربعين يوماً قبل أن يدفعه للناس . ومثل مكتبة الحكم بن عبدالرحمن صاحب الأندلس الذي كان يرسل التجار إلى المشرق لاصطياد المؤلفات الجديدة ويرسل إليهم الأموال وقد استطاعوا أخذ نسخة الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني قبل أن تذبح في المشرق وكتاب القاضي أبي بكر الأبهري (ت . سنة ٣٧٥) في شرحه لمختصر ابن عبدالحكم . وهكذا كان فهرس مكتبة يتألف من ٤٤ كراسة كل منها عشرون ورقة ولم يكن بها سوى أسماء الكتب<sup>(١)</sup>

(١) انظر ابن خلدون - العبرج ٤ ص ١٤٦ والمقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٢ .

ومثلها أيضاً خزانة الكتب في القصر الفاطمي في القاهرة فقد كان فيها - حسب قول ابن الطوير المؤرخ المعاصر لأواخر الفاطميين - ما يزيد على مائة ألف كتاب ويصدق المقرئزي ابن أبي طي الذي يروي أنه كان بها مليون و ٦٠٠ ألف كتاب وهو رقم خيالي في ذلك الوقت وقد جعل هذا المؤرخ نسخ تاريخ الطبري بها ألفاً ومائتين مع أنه جاء في رواية أخرى أنه أخرج للعزیز بالله منها عشرون نسخة احداها بخط المؤلف نفسه . وكان بها ١٤٠٠ نسخة من القرآن الكريم بالخطوط المنسوبة والجلود المحلاة بالذهب والفضة وفيها ١٨ ألف كتاب في العلوم القديمة ( علوم الأوائل في الفلسفة وغيرها ) كل ذلك كان مرتباً في أربعين خزانة مقفلة عليها الأقفال . وقد نهب هذه المكتبة في الشدة المستنصرية سنة ٤٦١ / ١٠٦٨ وذكر من رأى خمسة وعشرين جملاً موقرة كتباً منها أخذها الوزير المغربي أبو الفرج بدل رواتبه بمبلغ ٥ آلاف دينار وهي تساوي مائة ألف دينار . وقد وصلت كتبها المنهوبة إلى الاسكندرية وإلى المغرب وغرق الكثير منها في النيل وكانت فيها كتب العلوم من كل فن كالفقه على المذاهب الأربعة والنحو واللغة والحديث والتواريخ والسير والنجامة ( التنجيم ) والروحانيات والكيمياء . وقد أعيد تشكيل هذه المكتبة بعد ذلك فأصابتها محنة أخرى حين ألغيت الخلافة الفاطمية أيام صلاح الدين الأيوبي ونظر القاضي الفاضل في محتويات المكتبة فصادر بعضاً وأحرق بعضاً وباع بعضاً . وأسس القاضي الفاضل مكتبة التي عرفت بالمكتبة الفاضلية من مائة ألف مجلد أخذها من مكتبة القصر الفاطمي (١) .

- وقد دخل المقدسي خزانة الكتب في دار عضد الدولة البويهى بشيراز ووصفها بأنها «حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد . ولم يبق كتاب صنف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصله فيها .

(١) المقرئزي خطط ج ١ ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

وهي أزج طويل في صفة كبيرة فيه خزائن في كل وجه . وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق، والدفاتر منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرسات فيها أسامي الكتب . ولا يدخلها إلا كل وجيه . . . »<sup>(١)</sup> مكرر .

— ودخل ابن سينا خزانة كتب نوح بن منصور الساماني في بخاري فوصفها قائلاً : « دخلت داراً ذات بيوت كثيرة ، في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض . في بيت منها كتب العربية والشعروفي آخر الفقه . وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد . . . » وأضاف أنه إطلع على فهراس المكتبة واختار بضعة كتب يطلع عليها فأحضرت إليه في الحال ثم يقول : إنه رأى فيها من الكتب ما لم يقع اسمه قط إلى كثير من الناس ، وما كان قد رآه من قبل ولا رآه أيضاً من بعد<sup>(٢)</sup> .

— ولم تكن المكتبات الخاصة حكراً على الخلفاء فقد كان في كل مدينة أكثر من سري بارز لديه مكتبة فقد صارت هواية الكتب منذ القرن الرابع جزءاً من علامات المثقف ومن زينة البيوت وأثاثها . روى المقرئ أن أحد علماء الأندلس زاود في السوق على كتاب يحتاجه حتى بلغ الحد ، وخصمه في الشراء يزيد فيه فسأله عن حاجته إلى الكتاب فقال : لا حاجة له بموضوع ولكن في مكتبته فراغاً بمقداره ويريد أن يكملها به « ليتجمل بها بين أعيان البلد »<sup>(٣)</sup> وثمة الكثير جداً من المكتبات الخاصة يقدر ما كان ثمة رؤساء وكبار فلا يخلو بيت واحد منهم من جملة كتب حتى إذا اتضخمت جداً اشتهرت . ومن ذلك :

(١) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤ .

(٢) مكرر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢١٨ .

— فقد أرسل نوح الساماني سيد ما وراء النهر يستدعي الصحاح بن عباد للوزارة وكان من جملة ما اعتذر به أن كتبه تحمل على ٤٠٠ جمل ويقع فهرسها في عشرة مجلدات وبقي في الري<sup>(١)</sup> .

— وجمع القاضي أبو المطرف (ت سنة ٤٠٢ / ١٠١١) قاضي الجماعة بقرطبة ما لم يجمعه أحد من أهل عصره من الكتب بالأندلس وكان له ستة وراقين ينسخون له دائماً . وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد بالغ فيه حتى يشتريه وكان لا يعير كتاباً من أصوله البتة ولكنه يسمح بنسخها وقد اجتمع أهل قرطبة سنة كاملة بعد موته لبيع ما فيها من الكتب التي بلغ ثمنها أربعون ألف دينار<sup>(٤)</sup> مكرر .

— وكان بمكتبة الفتح بن خاقان وزير المتوكل قيم هو على بن أبي منصور المنجم زودها بما يزيد على خزانة حكمة واستنسخ لها الكتب الكثيرة حتى كانت حسب قول ابن النديم مكتبة «لم ير أعظم منها كثرة وحسناً»<sup>(٢)</sup> .

— مكتبة حنين بن اسحق المترجم وكانت تتميز لا بكثرة الكتب فقط ولكن بتعدد لغاتها من اليونانية والسريانية<sup>(٣)</sup> وصل من أجلها بلاد الروم .

— مكتب ابن الخشاب (القرن السادس) الذي جمع مكتبة عظيمة رغم بخله وتحيله في تصيد الكتب . وقد وقف كتبه على أهل العلم في نهاية حياته<sup>(٤)</sup> .

(١) مسكويه تجارب الأمم ج ٦ ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٥ وص ١٦٩ .

(٣) القفطي : أخبار الحكماء ص ١٧٤ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

– مكتبة اسامة بن منقذ (القرن السادس) التي غرقت وهي عائدة من مصر إلى الشام وحزن عليها أكثر من حزنه على أي شيء ضاع من ماله معها .

– مكتبة المبشر بن فاتك (آخر القرن الخامس) كان من أعيان أمراء مصر وجمع مكتبة ضخمة فيها علوم الأوائل . وقد أغرقت زوجته كتبها في الماء بعد موته غير أنها وحزناً على زوجها الذي أضاع حياته في الكتب<sup>(١)</sup> .

– مكتبة القفطي في حلب (ت . سنة ٦٤٦) وقد جمع فيها ما لا يوصف من الكتب وقصد من أجلها الأفاق . واستغنى بها عن الزوجة والولد . وقد أوصى بها للناصر الأيوبي صاحب حلب وكانت تساوي خمسين ألف دينار<sup>(٢)</sup> .

– مكتبة البرقاني العالم البغدادي (ت سنة ٤٢٥/١٠٣٣) الذي احتاج حين أراد أن ينتقل إلى ستين عدلاً وصندوقين لحمل كتبه<sup>(٣)</sup> .

– وقد دخل أبو يوسف القزويني بغداد (ت سنة ٤٨٨/١٠٩٥) ووراءه عشرة جمال تحمل كتبه<sup>(٤)</sup> .

– وصادر ملك قشتالة من البحر سفينة تحمل الكتب إلى سلطان المغرب فهي اليوم ثروة مكتبة الاسكوريال من المخطوطات ويصادف المرء هذا النوع من الأخبار في جميع المصادر التي تتحدث مرة عن عالم في اصفهان

(١) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٧٨ - ٩٩ .

(٢) مكرر ابن بشكوال : الصلة (ط . مجرط ١٨٨٢) ج ١ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٣) مكرر المقدسي ص ٤٤٩ .

(٤) الكتبي : خواتم الوفيات ج ٢ ص ٩٧ .

(٥) متن : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٣٢٧ .

(٦) السبكي : طبقات ج ٤ ص ٢٣٠ .

من الموسرين (ت سنة ٢٨٢) أنفق في كتبه ثلاثمائة ألف درهم<sup>(١)</sup> وعن رجل آخر هو محمد بن نصر الحاجب (ت . سنة ٩٢٤/٣١٢) وخلف كتباً بألفي دينار<sup>(٢)</sup> وعن مصادرة حبشي بن معز الدولة عند عصيانه لأخيه فكان من جملة ما أخذ منه خمسة عشر ألف مجلد سوى الأجزاء وما ليس بمجلد<sup>(٣)</sup> وعن مكتبة ابن العميد الذي سرق كله بما فيه فلما أبلغ أن خزانة كتبه سليمة سرى عنه وأسفر وجهه<sup>(٤)</sup> وهذا كله إن دل على شيء فإنما يدل على مدى قيمة الكتاب والثقافة في المجتمع المدني الإسلامي ومدى الحرص على منابعها الأولية .

ج - مكتبات المدارس وكانت الجزء الأساسي من أجزائها فجميع مدارس العالم الإسلامي حوت المكتبات التي يرجع إليها المدرس والطالب فالمدرسة النظامية ببغداد اشتهرت بمكتبتها شهرتها بمدرستها وكانت تجمع نوادر الكتب ذكر ابن الجوزي أنها ٦ آلاف وقد ذكر ابن الأثير أن الخليفة الناصر أمر بعمارة خزانتها ونقل إليها من الكتب النفيسة الوفاً لا يوجد مثلها<sup>(٥)</sup> وقد بنى أبو بكر البستي (ت . سنة ١٠٣٧/٤٢٩) وهو من كبار الأئمة وأولى الرياسة في نيسابور مدرسة لأهل العلم على باب داره ووقف عليها جملة من ماله الكثير وكتبه<sup>(٦)</sup> وكان للمدرسة المستنصرية ببغداد مكتبة غنية منظمة . نقل إليها يوم افتتاحها ما حملة مائة وستون مجلاً وذكر ابن عنبه أن عدد هذه الكتب بلغ ثمانين ألف مجلد . ولما أنشأ القاضي الفاضل مدرسته

(١) متن : الحضارة ج ١ ص ٣٢٥ .

(٢) عريب : صلة تاريخ الطبري ص ١٢١ .

(٣) مسكويه : تجارب ج ٦ ص ٣١٤ وابن الأثير ج ٨ ص ٤٣١ .

(٤) مسكويه : تجارب ج ٦ ص ٢٨٦ وما بعدها .

(٥) ابن الأثير : ج ١٢ ص ٦٧ (حوادث سنة ٥٨٩) .

(٦) السبكي : طبقات ج ٣ ص ٣٣ .

في القاهرة وقف عليها مائة ألف مجلد . وشرع قطب الدين النيسابوري وهو فقيه عصره في بناء مدرسة بدمشق فأدركه الأجل قبل أن يتمها فتمت بعده ونقلت إليها كتبه التي وقفها عليها . وثمة في دمشق المكتبة العمرية التي أنشأها الخنابلة في القرن السادس بالصالحية وقد تضخمت مكتبتها بالهبات والوقوف ونصف ثروة الخزانة الظاهرية من المخطوطات اليوم بدمشق فلما جاء منها .

ومعظم المكتبات كانت منظمة ولاسيما الكبيرة منها : فكانت لها خزائن تصف فيها الكتب بعضها فوق بعض ولها فهارسها ، ولكل علم أو فن خزانة ومكانه من الفهرس وقد أمر بوضع فهرس خزانة الكتب الفاطمية الوزير أبو القاسم الجرجاني سنة ٤٣٥/١٠٤٣ ولم تكن بها من قبل فهارس . أما مكتبة الحكم في الأندلس فكانت لها فهارس في غاية التنظيم وقد روى المقرئ أن الفهرس الخاص بدواوين الشعراء كان يقع في أربعة وأربعين جزءاً (والجزء في الاصطلاح عشر ورقات) . وفي ذلك ما يدل على ضخامة المكتبة والكثرة الهائلة في محتوياتها . ويروي البيهقي المؤرخ أنه رأى بنفسه فهارس كتب الصاحب بن عباد في عشر مجلدات . . . ومن جملة التنظيم كان لكل مكتبة كبيرة مشرف أو قيم من أهل الدين والورع ، هو الخازن وهناك ناسخ أو أكثر ومجلد أو أكثر . فكان سهل بن هارون مثلاً خازن بيت الحكمة والشابستي خازن كتب الفاطميين وابن مسكويه خازن مكتبة ابن العميد . . . كما كان لكل مكتبة في عصر الترجمة . ويكون خزائن الكتب مترجمون كما كان فيها دوماً مجلدون .

هذه العناية الفائقة بالكتب تعكس الموقع الحضاري والثقافي للأداة الثقافية الأولى في المجتمع الإسلامي وفي المدينة الإسلامية ولم يتخلف المهالك في هذا المجال فإذا كانوا قد تابعوا السابقين في إنشاء المدارس وتعددتها كما فعل السلطان قايتباي من انشائها في مكة والقدس ومصر



والشام وكما فعل الظاهر والناصر وبرقوق فشيّدوا حتى في القرى المدارس، كمدرسة سرياقوس التي أنشأها السلطان برسباي فقد كانت لهم الحماسة نفسها لتزويد هذه المدارس وغيرها بالمكتبات وقد انعكس ذلك في تلك الكمية الهائلة من الكتب الضخمة والموسوعات التي ألّفت في عهودهم. وقد احتفظ سلاطين المماليك في قلعة الجبل بمصر بمكتبة جليلة عامرة بمختلف الكتب وإن لم يكونوا يستطيعون قراءتها لعجمتهم وفيها الكتب الدينية وغير الدينية. وقد ظلت هذه المكتبة عامرة حتى بعد الحريق الذي أصابها أيام الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩١ / ١٢٩٢<sup>(١)</sup> وعنى المماليك بخاصة بمكتبات المدارس القديمة والتي أنشأوها على السواء. فألحق الظاهر بيبرس بمدرسته الظاهرية في القاهرة خزانة كتب جليلة تشتمل على مجموعة ضخمة في مختلف العلوم. وحرص السلطان المنصور قلاوون على تزويد مدرسة المنصورية بكتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدبيات ودواوين الشعراء<sup>(٢)</sup> وألحق كل من الناصر محمد ثم المماليك الشراكسة، برقوق والمؤيد شيخ وقايتباي وقانصوه الغوري بمدارسهم خزائن الكتب العامرة وأضافوا إلى ذلك تزويد الخانقاوات والجامع بها. وكانوا يختارون «الخزانة» الكتب كل فقيه عالم دين لكنهم درجوا على منع إعارة الكتب خارج مواقعها ومكتباتها إلا في حالات نادرة جدا مبالغة منهم في إباحة الاطلاع وفي الحرص على عدم الضياع.

#### الإضاءة في المدينة:

عرف العرب قبل الإسلام جميع وسائل وطرائق الإضاءة المعروفة حتى عهدهم ولاسيما أولئك الذين كانوا يعيشون منهم على أطراف الجزيرة العربية

(١) المقرئبي: خطط ج ٢ ص ٢١٢ وابن تعزي بردي - النجوم ج ٨ ص ٣٣.

(٢) النويري - نهاية الأرب ج ٢٩ (مخطوط) ورقمه ٢٨٢.

في اليمن والاحساء والبحرين والحجاز أو في مشارف الشام وحافة السواد العراقي . وكان أكثرها شيوعاً وسائل الإنارة بالزيوت ثم بالشموع ولقد يكونون قد عرفوا نوعاً من الإنارة بالنفط الذي استخدمه الساسانيون على حوافي العراق . أما النار المطلقة فكانت لسكان البادية وقد يوقدونها لقرى الضيفان ولعقد الأحلاف ولاستدعاء النجدات عند الحرب أو للسمر في الليل . وقد كانت النار على أي حال أساس كل عمليات الإضاءة وكان يستخدم فيها سعف النخل . .

ولم يزد العهد الإسلامي شيئاً على مواد الإضاءة الثلاث : الزيت ، والشمع ، والنفط ولكنه تفنن في اخراج الوسائل التي تحتضنها والأدوات التي تبرز بها النار وتحمل من مكان لآخر .

أ - فالأسرجة كانت هي الشائعة في طول العالم الإسلامي وعرضه وهي ليست أكثر من وعاء فيه زيت له وفتيل . وزيت الزيتون متوفر في أنحاء المملكة الإسلامية في الأندلس وافريقيا والشام وفارس . وكان السراج في أول الأمر يستعمل للبيوت كما للمساجد الأولى وفي القصور كما لدى الطبقات المتواضعة . وقد ذكروا عن الرسول الأعظم أنه كان يوصي إذا أراد أمرؤ الرقاد أن يخلق بابه ويوكى سقاه ، ويخمر إناءه ويطفىء سراجة<sup>(١)</sup> كما ذكروا أن تميم الدارمي (صاحب وقف الدارمي في الخليل) قدم الرسول في خمسة من غلمانه فأسرج مسجده بالقناديل والزيت . وكانت قبل تضاء بسعف النخيل<sup>(٢)</sup> لكن السمهودي يذكر أن أول من نور المساجد هو عمر بن الخطاب حين جمع الناس في صلاة التراويح على إمام واحد<sup>(٣)</sup> وذكر

(١) رواه البخاري (الصحيح : باب الصلاة ٢٢ ، ١٠٤) ومسلم (الصحيح : باب الصلاة ٢٧٢) .

(٢) ابن عبد البر - الاستيعاب في معرفة الأصحاب ج ٢ ص ١٣٢ .

(٣) السمهودي وفاة الوفاج ١ ص ٢٧٠ .

الأصبهاني صاحب البستان الجامع (من مطالع القرن السادس) أن عثمان بن عفان مشى في الشارع وقدامه الشمع تزهر<sup>(١)</sup>. وليس هذا بغريب على غني عثمان العريق في الجاهلية والإسلام ولكنه ببساطته إن صح يضع أمامنا أول صورة لموكب مشى فيه خليفة في الإسلام.

وتساوى في استخدام السراج للإضاءة: الخلفاء والعامّة وكان الفرق فقط في نوع السراج من الطين أو الزجاج أو الخزف أو خلائط النحاس، وفي الكبر والصغر. وفي الزخرفة التي تقع عليه. وقد استخدم في العهد الأموي والعباسي على السواء حتى العهد الفاطمي والمملوكي. وقد كان المنصور يقرأ عليه رسائل الدولة وهو ساهر وقد يخرج في الفجر وبين يديه خادم بمصباح خوف العدوان عليه كما كان الجاحظ يقرأ على السراج في دكاكين السوراقين حين يستأجرها في الليل لقراءة الكتب. وابن سينا يقول عن حياته الأولى في بخارى أواخر القرن الرابع «... وكنت أرجع بالليل إلى داري وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة...»<sup>(٢)</sup>. وكانت تنار به دمشق وبغداد وقرطبة والقيروان كما تنار به بيوت القدس وشيراز وهمدان وبخارى وسمرقند. غير أن العصر العباسي أتى في الأسرجة ببعض البدع فثمة من ضم بالطين ثلاثة أسرجه بعضها فوق بعض وجعل لها ثلاث ذبالات تتقد معاً كالذي فعله حماد الراوية فلامه أصدقاؤه مثل مطيع بن اياس ويحيى بن زياد على إسرافه في اقتناء تلك المنارة! وبالمقابل كان للبخلاء أفانينهم في الاقتصاد بزيت السراج كأهل مرو الذي رواه الجاحظ في البخلاء حين جعل الخراساني فتيل المسرجة دقيقاً وألقى في الزيت بعض الملح وجعل لها عوداً

(١) الأصبهاني (وهو غير أبي الفرج وغير العماد) والبستان الجامع لتواريخ أهل الزمان - مخطوط باريس ص ٢١ وجه.

(٢) مكرر القفطي: تاريخ الحكماء ص ٤١٥.

بخيطة كلما قارب الفتيل الانطفاء أشخص رأسه بذلك<sup>(١)</sup> وقد يستخدمون الزيت الحار في السراج . لأنه أرخص من زيت الزيتون .

وكان السلطان هو الذي يتكفل بإضاءة المساجد والمؤسسات الدينية من مدارس وزوايا ودور حديث وقد ذكر أن المعتصم سنة ٢١٩ كان أول من أنفط وأسرج بين المأزمين في طريق عرفة . . وتلاأت الأنوار في الحرم المكي والمسجد النبوي خيفة أن يعدوا اللصوص على المعتمرين<sup>(٢)</sup> «فهي مطردة للشيطان ومذبة للهوام ومدلة على اللصوص»<sup>(٣)</sup> أما شوارع المدن وأزقتها فكان أهلها يلزمون بإضاءتها وبخاصة في مواطن الشبهات . ويقول ناصر خسرو إنه رأى بمصر أسواقاً وأزقة ضيقة تظل فيها القناديل مشتعلة بشكل دائم لأن نور الشمس لا يصل أبداً إليها وهي أزقة لا<sup>(٤)</sup> ينقطع سير الناس إليها وقد ذكروا أن شوارع الربض في شرقي قرطبة كانت منارة في الليل بالمصابيح التي بلغ من كثرتها أن جلست النسوة يكتبن المصاحف بالخط الكوفي . . . وتمتد الأسرجة يستضيء بها الناس ثلاثة فراسخ<sup>(٥)</sup> وكان أصحاب المراكب يلزمون بإضاءتها ليلاً .

وقد ظلت ابتكارات أولاد موسى بن شاكر في الأسرجة نظرية ، مكتوبة على الورق ، وقد يكونون قد جربوها ولكنها لم تجاوز بعد ذلك بطون كتابهم عن (الحيل) كالسراج الذي لا يزال ممتلئاً أبداً بالزيت ، وسراج الله الذي يخرج الفتيل لنفسه ويملاً بالزيت لنفسه . والسراج الذي يخرج الفتيل فقط

---

(١) الجاحظ - البخلاء ص ٢٠ .

(٢) السيوطي - محاضرة الأوائل ص ٤٤ .

(٣) الجاحظ - الحيوان ج ص ص ١٢٣ .

(٤) ناصر خسرو - الرحلة ص ١٠٥ .

(٥) حمادة : المكتبات في الإسلام ص ٩٦ .

بذاته . والسراج الذي لا ينطفئ في الريح العاصف . وقد رسموا أشكالها  
وبقيت أشكالاً لم يجد فيها الناس الوسيلة السهلة للإنارة .

وأما القناديل (أو المصابيح) فكانت خطوة متقدمة على السراج أنها  
ببساطة طريقة لإضافة الزجاج الشفاف حول ذبالة السراج ثم تعليقه إن شاء  
حامله بدل إثباته الدائم على قاعدة . وقد كانت القناديل معروفة في الكنائس  
البيزنطية واسمها اللاتيني يدل عليها ولكنها لم تصبح مبدولة للناس بسبب  
تكاليفها فاختصت بها الأماكن دور العبادة بالذات ، كما حملت للكبراء  
والموسرين في سراهم ليلاً بالشوارع ووضعت على أبوابهم ويذكرون أن  
المأمون هو الذي أمر بالاستكثار من المصابيح في المساجد وكلف كاتبه أحمد  
بن يوسف بن القاسم اللبان بذلك إلى جميع عمال الدولة فكتب يعرفهم  
الفضل في ذلك في رسالة مطولة جاء فيها «ان في ذلك ، أمناً للمسايلة  
وإضاءة للمتجهدين ونقياً لمضان الريب وتنزيهاً لبيوت الله من وحشة  
الظلمة . . .» (\*) كما يذكر الترشيحي في تاريخ بخارى أن الفضل بن يحيى  
البرمكي قد سبق المأمون في ذلك خلال ولايته على خراسان فكان أول من  
أمر بزيارة القناديل في المساجد في إمارته ، في شهر رمضان ، بالإضافة إلى ما  
قام به من أعمال الإصلاح والتعمير في مسجد بخارى الجامع وأنفق الفضل  
في ذلك الأموال الطائلة . . .» (٢١) واهتم ابن طولون حين بنى مسجده الضخم  
في القطائع أن يضيئه فعلق بسقفه السلاسل النحاسية المفرغة والقناديل  
المحكمة . . .» (\*\*\*) وهكذا تطورت وتوسعت صناعة القناديل بعد ذلك  
ولعب السرف في مادتها كما لعب الفن في تزيينها فصار بعضها من الزجاج

(١) مكرر: الترشيحي: تاريخ بخاري ص ٧٥ .

(\*) ابن طيفور - تاريخ بغداد (بغداد في تاريخ الخلافة العباسية) ج ٦ ص ١٣٠ .

(\*\*) المقرئزي: خطط ج ٢ ص ٢٦٦ .

وأركان بعضها من الفضة وبعض من الذهب وأخذت زينتها من الزخرف والتكفيت وجعلت سلاسلها التي تعلق بها من مختلف المعادن بما فيها الفضة والذهب . . . وقامت لها في المدن الكبرى أسواق خاصة كسوق القناديل بمصر الذي ذكر ناصري خسرو الرحالة قائلاً: «رأيت في هذا السوق من الطرائف والتحف ما لم أره في أي سوق آخر في العالم ويوجد في هذا السوق نفائس من كل أقطار الأرض . . . ورأيت في داخل هذا السوق آلات دقيقة الصنعة . . . وصناعاً ينحتون البلور بخفة ومهارة تستوقفان النظر والبلور مجلوب من المغرب . . . وفي مصر نوع من البلور اللطيف الشفاف يفوق هذا البلد المغربي ورأيت في سوق القناديل نوعاً من العاج يجلب من زنجبار يزيد وزنه على مائتي رطل . . .»<sup>(١)</sup>. ذكر هذا الرحالة عن قبة الصخرة في القدس أنه: «تنتشر القناديل الفضية في فضاء القبة ويحمل كل قنديل اسم واهبه لهذا المقام القدسي . وقد رأيت من بين تلك القناديل قنديلاً يحمل اسم سلطان مصر . ولقد حسبت الكمية الفضية الموجودة في هذا المكان فوجدتها ألف رطل من الفضة مبعثرة في ثنايا القبة . . . ويعلو الصخرة قنديل فضي معلق ينحدر من سلاسل فضية تزيده اشتعالاً وتلقى على القبة مزيداً من الهيبة والجلال . . .»<sup>(٢)</sup>.

وذكر الرحالة نفسه أيضاً أن الحاكم بأمر الله اشترى مسجد عمرو بن العاص من أحفاده وأضاف إليه زيادات جميلة وعجيبة وأمر أن يزين المسجد بقناديل فضية . وقد رأيت بعضها وهي ذات ستة عشر زاوية آية في الروعة والهندسة ويكتفى بإضاءة جزء من تلك القناديل في الأيام العادية إذا كانت الأعياد أضيئت جميع تلك المصابيح (وهي ٧٠٠) فيسبح الجامع في بحر من

(١) ناصري خسرو: الرحلة ص ١٠٧ (الترجمة العربية: البدي - طبع الرياض ١٩٨٣).

(٢) ناصري خسرو ص ٦٨.

النور ويقولون إن زنة تلك المصابيح خمسة وعشرون قنطاراً من الفضة كل قنطار وزنه مائة رطل . وكل رطل زنة ١٤٤ درهماً فضياً يقولون إنهم حين حاولوا ادخال هذه القناديل إلى المسجد لم يتسع لها أي باب من أبواب المسجد لعظمتها حتى هدموا أحد الأبواب توسيعاً للمصابيح ثم أعادوا الباب إلى مكانه الأول . . . .<sup>(١)</sup> كان ذلك سنة ١٠١٢/٤٠٣ .

وكان من رسوم الشام ابقاء القناديل في مساجدهم على الدوام يعلقونها بالسلاسل مثل مكة<sup>(٢)</sup> وقد نهب الصليبيون قناديل قبة الصخرة والمسجد الأقصى وباعوها كسر فضة . وقد رأى ابن جبير (حوالي سنة ١١٧٤/٥٧٠) الكثير من القناديل المعلقة في الكعبة وتوقد كل ليلة<sup>(٣)</sup> وبعضها في أعلى المنارات ويعد صاحب الاستبصار منها في المسجد النبوي بالمدينة ٢٨٤ قنديلاً كما عد القزويني (بعد تحرير القدس) في المسجد الأقصى ١٥٠٠ قنديل و٤٦٤ قنديلاً في قبة الصخرة . وكانت سلاسل القناديل تعلق في السقوف، لكل قنديل ثلاث سلاسل إلى خمسين أو أكثر ويذكر ابن الفقيه أنه أحصى سلاسل مصابيح الجامع بدمشق فكانت ستمائة سلسلة من الذهب<sup>(٤)</sup> .

وقد تطورت صناعة القناديل جداً في العهد الإسلامي . فإذا كانوا قد جمعوا بعض الأسرجة إلى بعضها فقد كان إمكان جمع القناديل أوسع بسبب ما يمسكها من المعادن ولأنها على الأغلب ثابتة معلقة . وبهذا الشكل ظهرت صناعة التنانير . ، والثريات التي تجمع عشرات المصابيح في مجموعة واحدة .

(١) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

(٢) المقدسي ص ١٨٣ .

(٣) ابن جبير الرحلة ص ٧٧ .

(٤) ابن الفقيه - مختصر كتاب البلدان ص ١٠٧ .

وكانت المصابيح التي ذكر ناصري خسرو أن الحاكم بأمر الله أهداها سنة ٤٠٣ لمسجد عمرو تنوراً كبيراً فيه مائة ألف درهم من الفضة وذكر أنه كان فيه عشرة مناطق في كل منطقة ١٢٠ بزاقة وفيه سروات بارزة مثل النخيل في كل واحدة عشر بزاقات تقرب عدة ذلك من ثلاثمائة ومعلقة بأسفله مائة قنديل نجومية . . .»<sup>(١)</sup>. وعلق في قبة الصخرة تنور فيه أكثر من خمسمائة قنديل ثم سقط سنة ١٠٦١/٤٥٤ فتظير الناس وقالوا: «ليكونن في الإسلام حادث عظيم».

ويبدو أن ما كان يسمى في المشرق بالتنور كان يدعى في المغرب بالثريا تشبيهاً لها بنجوم الثريا لولا أن التنور المشرقي كان على هيئة التنور والثريا في المغرب على شكل منائر من البلور. وقد وصف الإدريسي ثريات مسجد قرطبة وعددها يزيد على ١١٣ ثريا وأكبرها تحمل ألف مصباح وأصغرها ١٢ مصباحاً<sup>(٢)</sup> وكان في قصر الحمراء ثريات من البرونز من صنع الأندلس ما يزال بعضها باقياً في متحف مدريد. وقد أهدى ملك الروم إلى كنيسة القيامة سنة ٤٥٢ هدية ضخمة من جملتها ثريات عدة من الذهب بسلاسلها من الذهب في أوساطها فراخ من البلور مكللة بالجواهر<sup>(٣)</sup>.

وثمة في جامع القيروان ثلاث ثريات تراها إلى تزيين البلاط الأوسط من عهد المعز الفاطمي (سنة ٣٤٥/٩٥٦م) وقد قلدها الموحدون أيام الناصر الموحدي سنة ٦٠٠/١٢٠٤ بأخرى من مثلها سموها الشاخصة وعدد قناديلها ٥٢٠ قنديلاً وقطرها أكثر قليلاً من مترين. وأما الصغرى

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/١٢٥. والمقريزي - خطط ج ١ ص ٤٦٧.

(٢) المقريزي / ألفاظ الحنفاج ٢ ص ٢٦١.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق فما؟؟؟؟ الأفاق، صفة المغرب (ط ١٩٦٨).



فكانت أحد النواقيس التي حملت سنة ٥٧٦/١١٨٠ من الأندلس وقد كسيت بثلاث حاملات للمصاييح . وفي جامع تازة ثريا تحمل ٥١٤ مصباحا وتزن أكثر من ٣٢ قنطارا<sup>(١)</sup> وثمة نماذج أخرى من العصر المملوكي موزعة بين المتحف الإسلامي في القاهرة ومتحف دمشق وغيرها .

وقد وصف ابن صاحب الصلاة المؤرخ المغربي أيام الموحدين صورا معبرة عن التنور وأصواته المتلألئة وأثرها في النفوس حين قدم مسجد قرطبة الجامع لحضور الاحتفال بليلة القدر « . . . وللذباب (الفتائل) نألف كمنضضة الحيات أو إشارة السبابات في التحيات قد أنزعت من السليط كوادسها ووصلت بمحاجن الحديد رؤوسها ونيطت بسلاسل كالجذوع القائمة أو كالشعابين العائمة عصبت بها تفاح من الصفر (النحاس) بولغ في صقلها . . . حتى كأنها جليت باللهب وأشربت ماء الذهب . . . » ووصف التي رفعت على مئذنة الجامع وفي داخلها الشموع لتزيينها<sup>(٢)</sup> ، واستعملت في المدن الإسلامية مع القناديل المشكاة وهي السراج يوضع في وعاء زجاجي مزين ويعلق كالمصباح . ويبدو أن صناعتها والاستصباح بها في المساجد شاع كثيرا في العصر المملوكي فثمة منها أعداد كثيرة في المتاحف . وزجاجها الملون والذي تغلب فيه الزرقة كان يحمل الزخاف والكتابات والصور على الزجاج وغالبا ما يحمل الآيات القرآنية . وقد يطعم الزجاج بالمينا . وقد تصنع المشكاة كلها من الخزف أو من النحاس المكفت بالذهب والفضة .

(١) انظر في هذا كله : عبد الهادي التازي - جامع القرويين (دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٢) ج ١ ص ٦٠ - ٨٣ ، ٨٨ ومحمد الشامي : أضواء على الآثار الإسلامية ، جامع القيروان : ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) المقري : نصح الطيب من غمض الأندلس الرطيب ج ٢ ص ٩٠ (تحقيق عبد الحميد - القاهرة ١٩٤٩) .

ج - الشمع : كان في استخدام الشمع في الإضاءة نوعاً من الترف لارتفاع ثمنه ولاعتياد الناس على تقديمه أو حمله في المواكب والاحتفالات . وكان يباع بالوزن واشتهرت أصبهان بإنتاجه وكانت تحمل في جملة خراجها السنوي إلى السلطان ألف رطل منه (١) .

وكانت الشموع تصنع حسب حاجة المشتريين طولاً وضحامة ووزناً كما تتنوع أنواعاً وتتلون بألوان شتى . وكانت قبل الإسلام ترافق المواكب الكنسية أو تهدي للمعابد وقد استخدمها بعض ملوك الحيرة في موكبه كما استخدمها الخلفاء الأمويون . فكان يمشي بين أيديهم بالشموع الطوال التي قد يصل طول الواحدة منها ثلاثة أشبار (قاربة ٦٠ - ٧٠ سم) ويتجاوز وزنها ستة أرطال (٢) كالشمع الذي كان يمشي فيه بين يدي يزيد بن عبد الملك . ويذكرون أن الوليد بن يزيد اتخذ الشموع الغلاظ المنوية (التي يبلغ وزنها المن أو الرطلين) .

وكان للشموع أنوار كالمصابيح والقناديل تجمعها مجموعة في اطار واحد أو اثنين أو ثلاثة وتثبت الشموع فيها بأشواك أو برقائق ويمكن في هذه الحالة تعليقها في المعابد وغرف القصور . أما الشموع المحمولة فكانت تحتاج الشماعد التي تمتد من الوعاء الصغير الذي يحمل شمعة واحدة إلى الشماعه ذات الفروع المتعددة وتصنع الشماعد من الحديد والنحاس والبرونز والذهب والفضة كما قد تصنع من الخزف . فالرشيد ليلة بني بزبيده أمر بحمل الشموع بأنوار من الذهب (٣) وفي عرس المعتضد على قطر الندي كانت

(١) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣١ (هامش ٤) .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف . (تحقيق الدوري) ج ٣ ص ٢٤١ .

(٣) الشابشي : الديارات ص ٦٧ وابن حلقور - كتاب بغداد (ج ٦) ص ٢٠٩ .

الأنوار من الفضة وواحد من الذهب<sup>(١)</sup> على أن المنصور كان يقرأ على السراج أو على شمعة في تور. وكذلك خلفاؤه. على أن الإضاءة بالشموع لم تكن بعد قد شاعت فكانت مجالس الخلفاء والكبراء والطبقة الميسورة وليالي المساجد الكبيرة هي التي تضاء بالشموع منذ العصر الأموي لأنه يكلف أضعاف الاسرجة وقد قطع عمر بن عبدالعزيز أرزاق الشمع عن ولاية بني أمية ولما طلب أبو بكر محمد بن محمد بن عمرو والي المدينة منه معاودة اطلاق هذه الأرزاق شهره وأمره ألا يعاوده في هذا الأمر. وكان المنصور المشهور بالدوانيقي لشدة حرصه في النفقة كان ينظر في كتب البريد الواردة على سمعه في تور فإذا انتهى أمر برفعها وأسرج سرجته<sup>(٢)</sup> غير أن استخدام الشمع انتشر وزاد بعد ذلك في جميع أنحاء العالم الإسلامي من المشرق إلى الأندلس بعد أن كثرت وتنوعت صناعته منذ أواخر القرن الثاني. فكان الرشيد يطلب من حاجبه أن يستكثر من الشموع إذا انتظم مجلس السمر في قصره ببغداد وكان الأفضل الجمالي يعقد مجلس سمره على النيل والشموع تزهر بين يديه. ومحمد بن محمد بن نصر في غرناطة كان السمر والمجالسة عنده في كنف الشموع الضاحكة والأنوار اللاطونية<sup>(٣)</sup> ونجد في ما بقي لنا من نفقات الخلفاء والمساجد أثمان الشموع وهي زهيدة إذا قيس بمقدار ثرواتهم وما ينفقون فقد ذكر أن المتوكل (وكان مشهوراً بالاسراف الشديد وبناء القصور الكثيرة) بلغ مجموع ما أنفقه على الشموع في السنة مائتي ألف درهم في حين كان ثمن الشمع والزيت (للاسرجة) زمن المعتضد ستة دنائير وثلاثي

(١) ابن تعزي بردي: النجوم ج ٣ ص ٧٣، ٦١، ٦٣، ٨٨.

(٢) انظر البلاذري: أنساب الأشراف (ت. الدوري) ج ٣ ص ٢٤١. والمقريزي: نحل عبر النحل ص ٨٠.

(٣) انظر غرس النعمة: الهفوات النادرة ص ١٧٩ والمقريزي نحل عبر النحل ص ١٠٣ ولسان الدين ابن الخطيب: نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب ص ٤٧ (ت. العبادي).

الدينار سنوياً<sup>(١)</sup> وحين عين ابن الفرات (علي بن محمد) للوزارة زمن المقتدر سنة ٣٠٤ زاد ثمن الشمع قيراطا في كل من لأن كل من جاءه مهنتاً ما خرج إلا وفي يده شمعة منوية . ودرج منصورى (ثوب) . ولكن الوزير علي بن عيسى وكان مقتصداً أمر متولي زمام نفقاته أن ينقص ما يصرف للفراشين من الزيت والشمع لأن الليل قد نقص ثلاث ساعات<sup>(٢)</sup> . ولكن هذا كله لا يدل على أكثر من الحرص في النفقة فالتجار الصغار والميسورون كانوا يجدونه بسهولة ويستخدمونه بسبب كثرة استيراده حتى صارت له أسواق خاصة في المدن الإسلامية كسوق الشاعين في القاهرة والذي كانت «زعيرات الشاعين» من النساء يظفن به في الليل لان حوانيته مفتحة إلى نصف الليل وكان يباع فيه في كل ليلة من الشمع بمال جزيل . وكان شهر رمضان موسماً عظيماً فيه لكثرة ما يشتري ويكثري من الشموع الموكبية التي تزن الواحدة منها عشرة أرطال فما دونها من المزهرات العجيبة الزي المليحة الصنعة ومن الشمع الذي يحمل على العجل ويبلغ وزن الواحدة منها عشرة أرطال وما فوق ذلك<sup>(٣)</sup> ومثله سوق الشاعين في الرباط وسوق الشاعين في بغداد . وكانت الأسواق تؤمر بايقاد الشموع في الاحتفالات السلطانية فقد أمر الحاكم الناس بالوقيد سنة ٣٩٤ فتزايدوا فيه في الشوارع والأزقة وزينت الأسواق والقياسر بأنواع الزينة وأوقدوا الشموع الكبيرة طول الليل . . وكثر وقود المصابيح في الشوارع والطرقات . وأمر الناس بالاستكثار منها وبكنس الطرقات وحفر الموارد وتنظيفها<sup>(٤)</sup> وكانت الشموع تستخدم في الكنائس

(١) انظر المقرئزي : نحل عبر النحل ص ٨٠ (وفي رقمه مبالغة كبيرة) ؛ الصابىء : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٣ .

(٢) الصابىء : تحفة الأغراء ص ٣٨٠ وابن خلكان .

(٣) المقرئزي : خطط ج ٢ ص ٩٦ والسلوك ١/٨٧٢ و ٨٤٧ و ٩٣٧ .

(٤) المقرئزي : انعاظ الحنفاج ج ٢ ص

وجنازات النصارى أيضاً ذوي المكانة كيعقوب بن نسطاس طبيب الحاكم الذي سار أهل الدولة في جنازته ومعهم شموع كثيرة، وكجنازة سهلان بن عثمان سنة ٩٩٦ فقد مشت وحوها خمسون شمعة متقدة<sup>(١)</sup> وجاء في كتاب الوقوف الذي وقفه الحاكم على الجامع الأزهر سنة ٤٠٠ وجامع المقس والجامع الحاكمي ودار العلم فيما يتعلق بالإضاءة وحدها ٧ دنانير ثمن نصف قنطار شمع ودينار واحد ثمن مشاقة لسراج القناديل وربع دينار ثمن ملح للقناديل ونصف دينار ثمن خرق لمسح القناديل وثمان عشرة أرطال قنب لتعليقها و ٣٧ ديناراً وثلث الدينار ثمن زيت للوقود و ٢٤ ديناراً للمؤونة الناس والسلاسل والقباب والتنانير فوق سطح الجامع عدا أثمان الحبال والدلاء ومائتي مكنسة وتنورين فضة وعشرين قنديلاً فضة<sup>(٢)</sup> وكانت نفقات الإنارة في مسجد بغداد في القرن الخامس في شهر رمضان ثلاثة دنانير وثلث<sup>(٣)</sup> ويظهر من هذا كله أن تكاليف الإضاءة بالشمع لم تكن مرتفعة فقد بلغ ثمن القنطار منه سنة ٥٤٥ حسب وثائق الجنيزا ما بين ١٧ - ١٩ ديناراً وبلغ في بعض الوثائق الأخرى عشرين ديناراً وباع شمع في تلك السنة خمسة أرطال بسعر يتراوح بين دينار ودينار ونصف الدينار<sup>(٤)</sup> والمقريري يؤكد أن ثمن عشرة أرطال شمع زمن المعز تبلغ ديناراً ونصف الدينار<sup>(٥)</sup> . أي حوالي ثلاثين درهماً وحين كان سعره يزيد - كما في أول وزارة ابن الفرات - قيراطاً من الذهب فهذا يعني حسب البلاد درهماً واحداً وبعض الدرهم أو أقل من

(١) المقريري: اتعاظ الخنفا ج ٢ ص ٧٠ وعبدالرحمن زكي: ثرات القاهرة العلمي الفني ص

(٢) متز: الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٢٧ وسعاد ماهر: مساجد مصر ج ١ ص ١٧٤ .

(٣) هلال الصايغ: تحفة الأمراء ص ٢٦ .

(٤) عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر (ط . القاهرة ١٩٦٧) ص ٢١٨ .

(٥) المقريري خطط ج ٢ ص ١٠٢ .

ذلك . وهكذا كانت الإضاءة بالشموع متوفرة وممكنة وبخاصة لذوي البسطة واليسار . أما الشموع المكلفة فكانت ثلاثة أنواع :

أ - شموع الشمع العادي الضخمة والتي يصل قطرها إلى ما بين ٣٠ - ٥٠ سم وصغيرها يعرف بالمنويه وكانت توضع في المساجد على جانبي المحاريب وتزيد في الطول على قامة الإنسان وفي الوزن على قنطار وتسمى بالمجلسية وقد توضع في الميادين العامة أو تجر على العجل في الاحتفالات الكبرى كلياالي الوقود . وقد أمر الحاكم مرة فسبكت له ستون شمعة وزن كل منها سدس قنطار مصري . وقد اهدى السلطان السلجوقي طغرل بك الى امبراطور الروم سنة ٤٤٨ / ١٠٥ هدية من اللؤلؤ والصيني والأثواب وغيرها وفيها مائة قطعة أنوار فضة بشمع موكبي كبار والسلطان قلاوون أشعل اكثر من ١٥٠٠ شمعة مركبية فرحا بقتل خصمه احمد بن هولاكروابنه خليل حين عاد من الشام أمر أهل الأسواق بالخروج لاستقباله وفي يد كل منهم شمعة موكبية<sup>(٢)</sup> .

ب - الشموع الكافورية وهي غالية الثمن بسبب مزجها بالكافور ورائحته الزكية .

ج - الشموع العنبرية وهي الممزوجة بمادة العنبر وقد رأى ناصري خسرو واحدة ضخمة منها قال : «ورأيت في قبة الصخرة شمعة ضخمة يبلغ ارتفاعها نحواً من سبعة أذرع يصل سمكها إلى ثلاثة أشبار أشد بياضاً من الكافور مخلوطة بالعنبر تملأ المكان برائحة العنبر الفواح عندما تضاء . ويقولون إن سلطان مصر بعث هذه الشمعة مع ما اعتاد إرساله كل عام من

(١) المفريزي : نحل عبر النحل ص ٨٦ و ٨٧ .

الشموع الكثيرة النادرة . . . «<sup>(١)</sup> وكان بعض الموسرين يوقد شمع العنبر ليلاً ولكن في أماكن تصيد العنبر، في عمان يذكرون ان يوسف بن الوجية العماني كان يوقده في مجالسه<sup>(٢)</sup> أما في الأحوال العادية فكان الشمع هو ضوء الخلفاء وغيرهم وقد ذكر الشابشتي في الديارات أن زبيدة زوج الرشيد أوقدت ثلاث شمعات من العنبر في عرس المأمون على بوران فلما كاد الحفل أن ينتهي قالت لجوارمها: إن فيما ظهر من المروضة والكرم الكفاية. ارفعوا شمع العنبر وهاتوا الشمع . . . «<sup>(٣)</sup>.

وشموع الكافور والعنبر كانت تختص بالاحتفالات الكبرى كأعراس الملوك والوزراء وهي التي استعملت في أعراس الرشيد والمأمون والمعتضد فأوقد الأول لزبيدة شموع العنبر وأوقد المأمون في عرس بوران شمعة عنبر فيها أربعون مناً في<sup>(٤)</sup> ثور من الذهب. وزاد المعتضد حين بنى بقطر الندى فأوقد أربع شمعات من العنبر في أربعة أتوار من الذهب كانت محفوظة في خزانة الخلافة فجاءت إليه عند العشاء وقدامها أربعمائة وصيفة في يد كل منها ثور ذهب وفضة وفيه شمعة عنبر.

وكان ثمة أنواع أخرى من الشموع كالموكبية (وتكون طويلة ثخينة القطر وقد تحمل على العجل) والفانوسية (وهي صغيرة للفوانيس) والثلاثية (المثلثة الذبالة) والطوافة (التي يطاف بها في البيت).

(١) ناصري خسرو سفرنامه ص ٦٨ .

(٢) التنوخي: نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٢٦٧ .

(٣) الشابشتي: الديارات ص ٥٨ .

(٤) ابن طيقور: كتاب بغداد ج ٦ ص ٢٠٩ وابن الزبير: الذخائر والتحف ص ١٠٠ . وابن

الساعي نساء الخلفاء ص ٦٨ والمقريزي تحل عبر النحل ص ١٨٠ وص ٨٢ .

وقد كان للمصابيح والشموع والأتوار خدم - في القصور أو قومة في المساجد يقومون على تنظيفها وصيانتها الدائمة وكانوا بصورة خاصة في العهد الفاطمي يتقاضون رواتبهم من السلطان. وقد ذكر ناصر بن خسرو في رحلته قوله: «ولقد لاحظت أنه في الشام وحتى مدينة القيروان توجد أعداد كثيرة من المساجد يتولى الاشراف عليها وكيل السلطان في كل مدينة. وهذا الوكيل يشرف على شؤون المساجد فيؤمن لها الزيوت والمصابيح والأنواع من الفرش ويصرف رواتب الأئمة والقوام والمؤذنين والفراشين وغيرهم كل شهر. . . . وكتب والي الشام ذات سنة خطاباً إلى وكيل السلطان يقترح أن يبدل بالزيت الجيد الزيت الحار وهو رخيص (ويستخرج من الفجل واللفت) فأجابه وكيل السلطان: أنت لست وزيراً وإنما عليك تنفيذ ما يطلب منك. والأمور المتعلقة ببيوت الله لا يجب تغييرها من باب التوفير. والتبديل في هذه الأمور غير جائز» أما في بغداد والمشرق، وفي الأندلس فكان القاضي هو الذي يشرف على شؤون المساجد وشموعها ومصابيحها ونظافتها وقومتها. وينفق على ذلك من أوقافها.

د - الاستضاءة بالنفط (المشاعل): كان النفط معروفاً قبل الإسلام ومستخدماً على أنه دواء لبعض الإبل وعلى أنه للإحراق ويبدو أن استخدامه كوسيلة حربية تم في العهد الإسلامي وليس يهمننا ذلك كله هنا وإنما يهمننا استخدامه كوسيلة استضاءة. ولعل ذلك قديم ولكنه لم يشع إلا في المواكب، وفي المساجد الكبار لأن لونه ولزوجته ورائحته عند الإحراق كانت تمنع استخدامه كزيت الزيتون وغيره أو كالشمع في إنارة البيوت. وقد ذكر ابن جبیر أنه سمع عن النفط في العراق ورآه في مكانين: مكان بين البصرة والكوفة وآخر قال فيه: «مررنا بموضع يعرف بالقيارة من دجلة وبالجانب

(١) ناصر بن خسرو: سفرنامه ص ١١٧ (ترجمة البدلي).



الشرقي منها . . . وهوة من الأرض سوداء كأنها سحابة أنبط الله فيها عيوناً كباراً وصغاراً تنبع بالقصار . وربما يقذف بعضها بحباب منه كأنها الغليان ويصنع له أحواض يجتمع فيه فتراه شبه الصلصال منبسطة على الأرض أسود أملس صقيلاً رطباً، عطر الرائحة شديد التعلك فيليص بالأصابع لأول مباشرة باللمس وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق أسود تقذفه إلى جوانبها فيرسب قاراً . . . ومقرية من هذه العيون على شط دجلة عين أخرى منه كبيرة أبصرنا على البعد منها دخاناً فقبل لنا إن النار تشعل فيه إذا أرادوا نقله فتنشف النار رطوبته المائية وتعقده فيقطعونه قطرات ويحملونه . وهو يعم جميع البلاد إلى الشام إلى عكه إلى جميع البلاد البحرية<sup>(١)</sup> كما ذكر ابن جبير استخدامه لطلاء سطوح الحمامات . وثمة موضع آخر للنفط في ساحل بحر القلزم يسيل دهنه من أعلى قليلاً قليلاً وينزل إلى أسفل الجبل فيتحصل في دبار قد وضعها له الأولون وتأتي العرب فتحمله إلى خزائن السلاح . . .<sup>(٢)</sup> وثمة وضع ثالث للنفط في باكوم من أعمال شيروان على البحر الأسود وقد يستورده المسلمون منها .

وكان ثمة وال يتولى نفاطات العراق واستثمارها وقد تولاهما أحد أصدقاء الشاعر عبد الصمد بن المعتدل فأظهر التيه بمنصبه فقال له عبد الصمد :

بحفظ في عيون النفط أحدثت نخوة      فكيف به لو كان مسكاً وعنبراً  
دع الكبر واستبق التواضع إنه      قبيح بوالي النفط أن يتكبرا<sup>(٣)</sup>

ويذكرون أن أول من استخدم النفط للإضاءة في الحج المعتصم الذي

(١) ابن جبير الرحلة ص ٢٠٩ .

(٢) القلقشندي صبح الأعشى ٢٨٤/٣ .

(٣) البيهقي المحاسن والمساوي ص ١٦٨ - ١٦٩ .

أنفط وأسرج ليالي الحج بين المأزمين سنة ٢١٩ حين وضع المصابيح للحجاج خيفة السرقة<sup>(١)</sup> ولكن المتوكل من بعده أمر سنة ٢٤٦ ألا يوقد عند المشاعر إلا بالشموع ويكف عن الزيت والنفط وقد استمر - على ما يبدو - منع النفط لما فيه من أذية أما الزيوت فعادت تظهر في الحرم مع الشمع . على أن استخدام المشاعل «وهي أوعية تملأ بالمشافة (من القطن والخرق) وترفع في أعلى العصي بعد سقيها بالنفط ، انتشر كوسيلة رخيصة للإضاءة في المواكب بجانب شكل النار الجذاب المرعب فيها ، ولم تدخل البيوت لما فيها من خطر الحريق ولكنها شاعت في أيدي العسس ورجال المواكب السلطانية ويعرفون باسم الضوية أو «المشاعلية» ويبدو أنها كانت مهنة بائسة . ولما لم يكن لها من عمل إلا في الليل فكان المشاعلية في النهار يكسحون الطرق أو يعملون حمالين وقد استخدم هؤلاء مشاعلهم في فتنهم الليلية ببغداد فحين اضطرب الأمن في بغداد سنة ٣٢٢ استخدم الغوغاء الشموع والمشاعل وكبسوا الناس في دورهم ونهبوا أموالهم . وكذلك فعل العيارون بعد ذلك سنة ٤١٩ حين كانوا يأخذون الناس جهاراً ويمشون في الليل بالشمع والمشاعل ويكبسون الناس ويأخذونهم من بيوتهم ويعذبونهم ليعترفوا بذخائرهم .

هـ - إضاءة الاحتفالات : ندر أن استخدمت المشاعل وحدها للمواكب أو الاحتفالات الشعبية وقد استمر ذلك في مختلف العصور الإسلامية وكان المشاعلية يجهزون مع المحمل ويخرجون في موكبه وعليهم الفوط الزركش ويسرون ليلاً بالمشاعل معه . أما في الاحتفالات الأخرى فكانت المشاعل واحدة من وسائل الإضاءة المثيرة . وكان الملوك والعمامة جميعاً يجمعون بينها وبين وسائل الإضاءة المختلفة فقد اجتاز «نازوك» الدروب في

(١) السيوطي : محاضرة الأوائل ص ٤٤ .

بغداد في بعض أيام الأعياد في موكبه وبين يديه أكثر من خمس مائة فراش بالشموع الموكبية سوى أصحاب النفط . . .»<sup>(١)</sup> وفي أعياد النصارى كالغطاس والميلاد والفصح كان المسلمون يشاركون النصارى فيها بالأضواء والايقاد . وقد أسرج الأخشيدي من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط الف مشعل في عيد الغطاس سنة ٩٤٢/٣٣٠ غير ما أسرجه الناس من المشاعل والقناديل .

وفي عيد سنة ٣٣٨ ضربت الخيام والمضارب والأشعة في عدة مواضع على شاطئ النيل ونصبت أسرة للرئيس فهد بن ابراهيم النصرائي كاتب الأستاذ برجوان وأوقدت له الشموع والمشاعل . . .» وبعد ذلك بحوالي ثمانين سنة حضر الخليفة الظاهر الفاطمي الغطاس وأمر أن توقد المشاعل والنار في الليل فكان وقيداً عظيماً . وقد اعتاد الناس أن ترتبط أفراحهم العامة والخاصة بإيقاد ما يستطيعون من أضواء شموع والمشاعل والقناديل والأنوار والثريات حتى صارت من لوازم الفرح سواء في المشرق أو في الأندلس والمغرب فليس من عرس ولا مناسبة بهيجة إلا ولوسائل الإنارة دورها فيها . وقد تتميز بعض المناسبات الخاصة أحياناً كما جرى في احتفال الأمير آنوك، في العهد المملوكي بعرضه سبعة أيام بلياليها أنفق فيها من الشمع والزيت الكثير وجلس السلطان في الليلة السابعة على باب القصر من قلعة الجبل وتقدم الأمراء على قدر رواتبهم واحداً بعد واحد لعرض شموعهم التي يقدمونها وقد بلغت أكثر من ثلاثين ألفاً<sup>(٢)</sup> غير أن أعظم الاحتفالات إنما كانت في المناسبات ذات الطابع الديني وهي عديدة :-

(١) الصابون: رسوم دار الخلافة ص ١٠ من النص .

(٢) المسعودي - مروج الذهب ج ١ ص ٣٤٣ .

أ - فمئها ختم القرآن : وقد شهد ابن جبير أكثر من حفل منها في مكة . واحدة أعد والد الفتى فيها ثرياً مصنوعة من الشمع مفضنة قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة وأعد له شمعاً كثيراً . ووضع في وسط الحرم شبيه المحراب المربع من أعواد مشرجة على قوائم أربع وربطت في أعلاه عيدان نزلت منها قناديل وأسرجت في أعلاها مصابيح ومشاعيل وسمر دائر المحراب كله بمسامير حديدية الأطراف غرس فيها الشمع فاستدار بالمحراب كله وأوقدت الثريا ذات الفواكه . . .<sup>(١)</sup> . وفي حفل ثان استنار الحطيم كله حتى لاح في الهواء كالتاج العظيم من النور . . .

ب - ومنها ما كان يسمى في العهد الفاطمي بليالي الوقيد وهي الليالي الفضيلة الأربع : مستهل رجب ، ومنتصفه ومستهل شعبان وليلة النصف فيه بالاضافة الى ثبوت هلال رمضان . وقد ذكر المقرئزي ما يجري في هذه الليالي في العهد الفاطمي قال : في حوادث سنة ٣٨٠ خرج الناس على رسمهم في ليالي الجمع ليلة النصف من رجب الى جامع القاهرة (الأزهر) وزيد فيه في الوقيد على حافات الجامع وحول صحنه التنانير والقناديل والشمع على الرسم في كل سنة وحضر القاضي محمد بن النعمان . . . وفي ليلة النصف من شعبان كان جمع عظيم بجامع القاهرة وأوقدت التنانير والمصابيح على سطح الجامع ودور صحبه ووضع الشمع على المقصورة وفي مجالس العلماء . . . وفي مستهل رجب سنة ١١٢٢/٥١٦ جلس الخليفة الأمر . . . وأمر أن يحمل إلى القاضي خمسون ديناراً يصرفها في ثمن الشمع وأن يعتمد الركوب في الليالي الأربع بصحبته وأن يطلق للجوامع والمساجد توسعة في الزيت برسم الوقود . . . وكان يطلق في أربع ليالي الوقود برسم الجوامع الستة في القاهرة ومصر جملة كبيرة من الزيت الطيب . . . « وكان قومة الجامع القديم وحده

(١) المقرئزي : خطط ج ١ ص ٤٦٥ - ٤٦٧ .

(جامع عمرو) يجتمعون قبل ليلة الوقود بمدة إلى أن يكملوا ثمانية عشر ألف فتيلة» وكان المطلق في كل ليلة برسم وقوده أحد عشر قنطاراً ونصف قنطار من الزيت الطيب . . . » وكان إذا مضى النصف الأخير من جمادى الآخر (كما فعل الحاكم سنة ٣٩٠) أمر الخليفة أن يسبك في خزائن دار فتكين ستون شمعة وزن كل منها سدس قنطار بالمصري تحمل إلى دار قاضي القضاة لركوب ليلة مستهل رجب فإذا كان بعد صلاة العصر اهتم الشهود أيضاً فمنهم من يركب بثلاث شمعات إلى اثنتين إلى واحدة . . . (ومشي الموكب) وأمام قاضي القضاة الشمع المحول إليه موقوداً مع المندوبين لذلك من الفرائشين من الطبقة السفلى، من كل جانب ثلاثون شمعة . . . وفي ركابهم القراء حتى مجلس الحكم على ترتيبهم الأقدم فالأقدم وحوالي كل واحد ماله من شمع ويقفون تحت المنظرة العالية في الرحبة ويترجلون ريثما يطل الخليفة وبين يديه شمع ويبين شخصه فيخطب ثلاثة خطباء (ثم ينصرفون إلى الجوامع جامعاً بعد آخر) إلى جامع مصر حيث يوقد (للموكب) التنور الفضة الذي كان معلقاً فيه، (وكان) واسع التدوير فيه عشر مناطق في كل منطقة مائة وعشرون بزاقة وفيه سروات بارزة مثل النخيل في كل واحدة عدة بزاقان تقرب عدة ذلك من ثلاثمائة ومعلق بدائر سفله مائة قنديل نجومية . . .»<sup>(١)</sup>.

ج - ومنها خروج المحمل والحجيج حاملين استار الكعبة ويصفه الرشيدى سنة ١٥١٧/٩٢٣ في آخر العصر المملوكي فيذكر أنه بعد أن خلع السلطان على أمر الحج آنذاك وهو الزيني بن بركات المحتسب نزل إلى القلعة وقدامه أعيان المباشرين والأمراء الجراكسة والمهاليك . وركب أمامه قاضي القضاة فرجت له المدينة وزينت الدكاكين ووقدت الشموع وعلقت له الأحمال بالقناديل . . . ومشت قدامه الانكشارة برمون بالنفط . . . وتصدر

(١) ابن جبير: الرحلة ص ١٢٧ - ١٢٨ و ص ١٢٩ .

الموكب «الضوية» بالمشاعل وعليهم الفوط الزركش . . .»<sup>(١)</sup>.

أما أعظم الاحتفالات الدينية التي تنطق فيها شمس الأضواء فكانت دون شك تلك التي تجرى في السابع والعشرين من رمضان ليلة القدر وقد ذكر أن فضل الله العمري أنه كان في شمال المحراب بمسجد قرطبة بيت فيه عدد وطسوت من ذهب وفضة وحسك وكلها لوقيد الشمع ليلة سبع وعشرين من رمضان<sup>(٢)</sup> وإذا قال المقدسي إنه ليس أبهى من رمضان في مكة<sup>(٣)</sup> فالواقع أن ذلك كان في الحرم الشريف . وقد عد صاحب الاستبصار فيها عشرين قنديلا معلقة في الحطيم من أهل بغداد، وعشرة من ملك العجم ، وعشرة قناديل من سنجار واثنين وسبعين في باقي الحطيم . كما عد مائة وخمسين قنديلا في سقائف المسجد الحرام وخمس ثريات على الأبواب الرئيسة في الكعبة<sup>(٤)</sup> . على أن هذا العدد ليس بشيء أمام ما يضاف إليه ليلة ٢٧ رمضان وفي موسم الحج من الإضاءة الساطعة . وقد حضر ابن جبير ليلة ٢٧ رمضان ووصفها الوصف الرائع الكامل قال<sup>(٥)</sup> :-

«ووقع النظر والاحتفال لهذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، وأقيمت إزاء حطيم إمام الشافعية خُشِبَ عظام بائنة الارتفاع موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة، فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضا ووصلت بالحطيم المذكور، ثم عرضت بينها ألواح طوال مدت على الأذرع المذكورة، وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت

(١) الرشدي : حسن الصف والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج (ط) الخانجي ، القاهرة (١٩٨٠) ص ١٦ .

(٢) العمري : مسالك الأبصار ج ١ ص ٢١٤ .

(٣) المقدسي ص ١٨٣ .

(٤) الاستبصار ص ٢٨ - ٢٩ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص ١٣٠ - ١٣١ .

ثلاث طبقات ، فكانت الطبقة العليا منها خشبا مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف لاصقا بعضها ببعض كظهر الشيهم (ذكر القنافذ) نصب عليها الشمع ، والطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقبا متصلا وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب المنبثة من أسافلها .

وتدلت من جوانب هذه الألواح والخشب ومن جميع الأذرع المذكورة قناديل كبار وصغار وتخللها أشباه الأطباق المبسوطة من الصفر قد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل تقلها في الهواء وخرقت كلها ثقبا ووضعت فيها الزجاجات ذوات الأنابيب من أسفل تلك الأطباق الصفرية لا يزيد منها أنبوب على أنبوب في القدر . وأوقدت فيها المصابيح ، فجاءت كأنها موائد ذوات أرجل كثيرة تشتعل نورا ، ووصلت بالحطيم الثاني الذي يقابل الركن الجنوبي من قبة زمزم خشب على الصفة المذكورة اتصلت إلى الركن المذكور ، وأوقد المشعل الذي في رأس فحل القبة المذكورة ، وصففت طرة شبّاكها شمعا مما يقابل البيت المكرم . وحف المقام الكريم بمحراب من الأعواد المشرجبة المخرمة محفوفة الأعلى بمسامير حديدية الأطراف ، على الصفة المذكورة ، جللت كلها شمعا . ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير الجرم ، في أتوار تناسبها كبرا ، وصبّت تلك الأتوار على الكراسي التي يصرّفها السدنة مطالع عند الإيقاد ، وجلل جدار الحجر المكرم كله شمعا في أتوار من الصفر فجاءت كأنها دائرة نور ساطع ، وأحدقت بالحرام المشاعيل . وأوقد جميع ما ذكر .

وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة ، وقد وضعت بيد كل منهم كرة من الخرق المشبعة سليطا ، فوضعوها متقدة في رؤوس الشرفات وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربع ، فجعلت كل طائفة تباري صاحبته في سرعة إيقادها . فيخيل للناظر أن النار تشب من شرفة إلى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء المرتمي الأبصار . وفي أثناء محاولتهم لذلك

يرفعون أصواتهم يارب يارب على لسان واحد، فيرتج الحرم لأصواتهم.

فلما كمل إيقاد الجميع بما ذكر كاد يعشي الأَبصار شعاع تلك الأنوار،  
فلا تقع لمحة طرف إلا على نور يشغل حاسة البصر عن استمالة النظر.  
فيتوهم المتوهم، لهول ما يعاينه من ذلك، أن تلك الليلة المباركة نزهت  
لشرفها عن لباس الظلماء فزينت بمصابيح السماء.

وبعد

فهذه ملامح من صورة المدينة الإسلامية لا هي إلى الإستيفاء فتلغي ما  
سبقها وما سوف يلحق، ولا هي إلى النقص فتنتظر المزيد. ولا يزعم  
صاحبها لنفسه سوى شرف المحاولة. إن المدينة الإسلامية هي الحضارة  
العربية الإسلامية كلها مكثفة ضمن سور من حجر. ومن ذا الذي يحيط  
بهذه الحضارة جميعاً، بين وفتى كتاب مهما تضخم، إلا العليم الخبير؟







مرکز تحقیق و تکمیل پژوهش‌های اسلامی

## فهرس الجزء الثاني الحياة والتطور

الفصل السابع : الأوضاع الاجتماعية	٩
١ - التكوين الإجتماعي	١١
٢ - الطبقات الإجتماعية	١٧
٣ - مساحة المدن واعداد سكانها	٣١
٤ - القوة المحركة في المدينة الاسلامية	٤٣
٥ - الدعاء الفيزيائي للسكان	٤٨
٦ - حياة الأسرة العامة	٦٢
٧ - حياة الطبقة الدنيا	٩٦
الفصل الثامن : الأوضاع الاجتماعية	١١٩
أ - الاعياد الدينية الإسلامية	١١٩
ب - الاحتفالات الرسمية	١٣٢
ج - الاعياد الرسمية	١٣٥
د - الاعياد السابقة للإسلام	١٣٥
التسلية والترويح	١٤٩
الفصل التاسع : الحياة الدينية	١٨٣
١ - المسلمون	١٨٣

١٨٥	١ - المسجد والجامع
٢١٠	٢ - المجالس الدينية
٢١٥	٣ - الاحتفالات بصلاة الجمعة
٢١٧	٤ - مجالس القصاص والمذكرين
٢١٨	٥ - مجالس الوعظ والارشاد والدعوة
٢٢٨	٦ - مجالس القضاء والاحتساب
٢٣٢	المذاهب والطوائف في المدن
٢٥٦	العلماء

٢٦٤	الفصل العاشر: الحياة الدينية
٢٦٤	التصوف والذمة والحياة العامة
٢٦٤	١ - التصوف
٢٨٣	الأربطة والزوايا والخوانق
٢٩٣	٢ - الدين في مظاهر الحياة العامة
٣٠٦	٣ - أهل الذمة

٣٣٩	الفصل الحادي عشر: الفعالية الاقتصادية
٣٣٩	سيطرة المدن
٣٥١	١ - السيطرة على الريف
٣٦٤	٢ - التجمع الحرفي
٤١١	٣ - حركة الذهب والنقد الاسلامي
	الفصل الثاني عشر:

٤٢٨	الفعالية الاقتصادية
٤٢٨	الانتاج والتبادل العالمي والمحلي

٥١٦	الفصل الثالث عشر : الإدارة السياسية
٥٢٣	١ - السلطة الدنيوية في المدينة
٥٣١	٢ - المدن الملكية
٥٣٩	٣ - موظفو الإدارة
٥٥٠	٤ - الضرائب
٥٦٢	٥ - القضاء
٥٨٥	٦ - الشرط والعسس
٥٩٠	٧ - السجون والعقوبات
٦٠٤	٨ - دار الضرب والسياسة النقدية

#### الفصل الرابع عشر : المرافق والخدمات العامة

٦٢٥	١ - الخدمات الصحية :
٦٢٥	١ - مشكلة المياه في المدينة
٦٤٤	٢ - البيمارستانات
٦٥٥	٣ - الحمامات
٦٦٦	٤ - النظافة والصرف
٦٧٠	٢ - المرافق الدينية
٦٨٨	٣ - المؤسسات الثقافية
٦٨٩	١ - المسجد
٦٩٥	٢ - منازل العلماء ومجالسهم
٧٠١	٣ - المدارس
٧١٤	٤ - المكتبات
٧٢٨	الاضاءة في المدينة



**جمهداری اموال**  
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## شكر واجب

يجرّص المؤلف على أن يقدم شكره الجزيل العميق للإخوة الذين أعانوه على إخراج هذا الكتاب ويخص بالذكر :  
الدكتور عبدالرحيم أحمد حسين الذي احتضن الكتاب في جميع مراحلها .  
والأستاذ عبدالهادي هاد الذي أخرجه .  
كما يذكر بالعرفان :  
الأستاذ فواز أبو شما الذي صحح تجاربه الطباعية .  
وصاحب دار السلاسل الذي تكرم بنشره بعد تعذر .  
والطابعات والطابعين على الآلة الكاتبة لجهودهم الطيبة ، فلكل منهم خالص الشكر والامتنان .

## تنويه

معظم خرائط هذا الكتاب أخذت عن موريس لومبارد في كتابه الفرنسي « الإسلام في أوجه » وأخذ الباقي من مصادر تفرقة ونذكر ذلك للجميع عرفاناً وشكراً .